

أعنت الشيطان

كيف ساعدت الولايات المتحدة على إطلاق
العنان للأصولية الإسلامية

روبرت دريفوس

ترجمة: أحمد مصطفى حسونة
راجع: أ.د. عبد المنعم خربوش

(لعبة الشيطان)

لعبة الشيطان

تأليف : روبرت دريفوس
ترجمة : أحمد مصطفى حسونة
مراجعة : أ. د. عبد المنعم خربوش

الطبعة الأولى 2010م

© حقوق النشر محفوظة

الناشر

دار الثقافة الجديدة
" شركة ذات مسئولية محدودة "
32 ش صبري أبو علم، باب اللوق، القاهرة
ت وفاكس 23922880

e-mail: elguindimohamed@hotmail.com

تصميم الغلاف: أحمد مراد

روبرت دريفوس

Robert Dreyfuss

لعبة الشيطان

كيف ساعدت الولايات المتحدة
على إطلاق العنان للأصولية الإسلامية

أول وأوفى بحث في أخطر أخطاء السياسة الأمريكية
على مدى ستين عاما من الدعم للأصولية الإسلامية

Metropolitan Books
Henry Holt Company
New York
First Edition 2005

ترجمة: أحمد مصطفى حسونة

راجعته: أ. د. عبد المنعم خربوش

فهرس

7	عن المؤلف ودار النشر
11	مقدمة المترجم
15	مقدمة المؤلف
33	الفصل الأول: الإسلام الشمولي الامبريالي
63	الفصل الثاني: إخوان بريطانيا
83	الفصل الثالث: الإسلام والحرب الباردة
113	الفصل الرابع: الحرب ضد ناصر ومصدق
143	الفصل الخامس: ملك كل المسلمين
173	الفصل السادس: أتباع الساحر
197	الفصل السابع: صعود الإسلام الاقتصادي
221	الفصل الثامن: إسلاميو إسرائيل
247	الفصل التاسع: جحيم آيات الله
279	الفصل العاشر: الجهاد الأول: " القوس الإسلامي "
307	الفصل الحادي عشر: الجهاد الثاني: " داخل آسيا الوسطى "
345	الفصل الثاني عشر: صدام الحضارات ؟

عن المؤلف ودار النشر *

1- نبذة عن المؤلف:

- صحفي. متخصص في مجال السياسة والأمن القومي.
- خريج جامعة كولومبيا بالولايات المتحدة الأمريكية
- رئيس التحرير المشارك لمجلة The Nation
- المحرر المسؤول عن تغطية شئون الأمن القومي في مجلة The Rolling Stone
- رئيس مراسلي The American Passport
- يشارك في تحرير مجلة إلام جونز Mother Jones
- رئيس قسم الأبحاث في مجلة Columbia Journalism Review
- تنشر مقالاته في عدة صحف منها Washington Monthly, The New republic, The Texas Observer, California Lawyer, Newsday.
- منح الجائزة الأولى لبحثه عن دور البترول في السياسة الأمريكية تجاه العراق (2003).
- يشارك في العديد من البرامج الإذاعية والتلفزيونية منها: Fox News, CNBC, MSNBC, Court TV, National Public Radio.
- ربما يعتبر من أفضل ما كتب وحقق له الشهرة ويعتبر ضربات صحفية مقالاته عن: حرب العراق، الحرب على الإرهاب، سياسة الولايات المتحدة بعد 11 سبتمبر.
- في 2002 كان أول صحفي يكشف حقيقة أحمد شلبي ودوره في مؤامرة غزو العراق بالتواطؤ مع إدارة يوش والمخابرات المركزية الأمريكية ونشر في مجلة The American Prospect.

* النبذة عن المؤلف ودار النشر قام بتجميعها المترجم من نفس الكتاب المترجم بالإضافة الى المصادر المشار إليها علي الإنترنت

- وهو أول من كشف عن التناقضات الداخلية في إدارة بوش وخاصة بين المخابرات المركزية والبنّاجون وحقيقة ودور مكتب الخطط الخاصة Office Of Special Plans في نسج وتمير المؤامرة.
- يقيم حاليا في مدينة الإسكندرية بولاية فرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية.
- عضو الجمعية الأمريكية للصحفيين ASJA وعضو اتحاد المراسلين والمحررين.
- من أعماله التي ظهرت حديثا:
- المحافظون الجدد في عهد أوباما - بتاريخ 2008/12/2 نشر في مجلة نوم ديسباتش Tom Dispatch.
- كابوس أمريكا في أفغانستان - بتاريخ 2008/12/22 نشر في مجلة ذي نيشن The Nation
- موقعه على الانترنت: The Dreyfuss Report

2- عن دار النشر:

فكرة عن مشروع الإمبراطورية الأمريكية:

هذا المؤلف بين يديك - لعبة الشيطان - هو أحد إصدارات مشروع الإمبراطورية الأمريكية.

حسبما يرى المشاركون فيه يمثل هذا المشروع استجابة للتغيرات التي طرأت على طريقة التفكير الأمريكية وكذلك التغيرات في الموقف الاقتصادي والعسكري.

حسب وجهة نظرهم كانت الإمبراطورية تعتبر لفترة طويلة عدوانا على القيم الديمقراطية للولايات المتحدة. والآن - حيث تبنى قادة الولايات المتحدة باضطراب طموحات امبريالية - تمثل هذه التطورات، تهديدا لعلاقتنا مع سائر أنحاء العالم.

كيف نسنّى لهذا التحول الخطير أن يأخذ مجراه وما الذى ينطوي عليه سلوك هذا الطريق. من أجل الإجابة على هذا التساؤل تقدم مجموعة كتب متروبوليتان Metropolitan Books هذا المشروع (مشروع الإمبراطورية الأمريكية)

حيث تتصدى مجموعة من قادة الفكر والأدب لتواجه هذا التحدي الكبير وتكشف الأسس الخاصة ببناء هذه الإمبراطورية وكل ما يكمن وراءها واقتراح

أساليب أخرى للتفكير واقتراح البدائل الداخلية والخارجية بما يكفل مواجهة هذا القرن الأمريكي الجديد.

يعود الفضل في ظهور هذا المشروع وتطوره الى نخبة من قادة الفكر وفي مقدمتهم توم انجلهاردت Tom Englehardt وستيف فريزر Steve Fraser، وهما بالإضافة إلى كونهما ناشرين فهما أيضا مؤرخان ومؤلفان. ثم ينضم إليهما كوكبة من قادة الفكر الآخرين مثل شالمرز جونسون Chalmers Johnson ومايكل كلير Michael Klare ورفائيل بارجاس Rafael Barejas رسام الكاريكاتير المكسيكي المعروف. كذلك احتل تشومسكي بعدد من مؤلفاته جانبا هاما من إصدارات هذا المشروع.

إصدارات المشروع تتناول عددا من القضايا ذات الأهمية البالغة على المستوى الداخلي والخارجي ويكفي ان نشير الى بعض عناوين هذه الإصدارات الدالة بحد ذاتها مثل: الدم والنفط ، تكاليف وعواقب الإمبراطورية ، من الحرب الباردة الى الحرب على الإرهاب، كيف صادرت الرئاسة الامبريالية الدستور، جرائم الحرب الأمريكية علي العراق، أيام الجمهورية الأمريكية الأخيرة.

يمكن لمن يرغب 'الاطلاع على قائمة إصدارات المشروع

The American Empire Project Book List

على موقعه علي شبكة الانترنت: www.americanempireproject.com.

مقدمة المترجم

ربما تزداد أهمية هذا المؤلف بمضى بعض الوقت. فقد تم نشره سنة 2005 بعد أربع سنوات من أحداث 11 سبتمبر 2001 وفي اثناء ولاية جورج بوش الابن الاولى وشنه ما اطلق عليه الحرب على الارهاب وغزوه افغانستان والعراق، وأعلانه بصلافة ان كل من لا يقف معنا في هذه الحرب فهو ضدنا. فهذا الكتاب يمثل لا صرخة رفض وادانة لسياسة بوش وعصابته من المحافظين الجدد وحلفائهم من الاستعماريين البريطانيين العتاة وصهاينة اسرائيل فحسب ولكنه يعبر ايضا عن وجود اتجاه شجاع داخل الولايات المتحدة نفسها يتصدى بجرأة للسياسة الإمبريالية الأمريكية الرسمية ويفضحها، وهو اتجاه بدا في ذلك الوقت ضعيفا خافت الصوت لا يعيره رأى العام الأمريكى في جله اهتماما يذكر ولكنه أخذ يكتسب مع مرور الوقت مزيدا من الأهمية والقوة حتى استطاع في الانتخابات الأمريكية الأخيرة أن يسقط شكليا على الأقل بوش وحزبه الجمهوري بقيادة المحافظين الجدد وليعتلى منصة الحكم رئيس جديد من حزب آخر يعلن تبنيه سياسة مختلفة تدين الحرب على العراق وتحدد موعدا للانسحاب منه وكذلك تصفية معتقل جوانتانامو. والترجمة العربية لهذا الكتاب بدأت اواخر عهد بوش واول عهده أوباما حيث من الواضح ان أوباما لم يف بمعظم ما تعهد به أثناء الحملة الانتخابية، وبرغم اقضاء حزب بوش الجمهورى عن الحكم لا يزال للمحافظين الجدد الذين كان لهم اكبر الاثر على سياسة بوش، لا يزال لهم نفوذهم وتأثيرهم على نحو ما جاء في مقالتى المؤلف آنفتى الذكر اللتين نشرهما في ديسمبر 2008. ونلاحظ هنا ان المؤلف انهى كتابه بجملة: "وتستمر لعبة الشيطان"، في إشارة واضحة الى استمرار نفس السياسة. لعله من نافلة القول ان ما جاء في هذا المؤلف يعبر عن وجهة نظر كاتبه ولا تعنى ترجمته ان المترجم يشاركه كل ما جاء فيه جملة وتفصيلا. ولا يريد المترجم أن يخوض كثيرا في أوجه اتفاقه أو خلافه وإنما يريد ان يقول أنه من المفيد قراءة ما جاء فيه بتمعن. ان المؤلف يعرض للأحداث التى جرت وما زالت تجرى فى منطقتنا منقبا عن جذورها منذ بداية تفكك الإمبراطورية العثمانية أواخر القرن الثامن عشر ومتابعا تطوراتها حتى وقتنا الراهن فى بدايات القرن الواحد والعشرين، وكذلك تداعياتها التالية وقدم لنا كما من المعلومات التى استقاها من

مصادر متعددة بما فيها مصادر عايشة هذه الأحداث بل وشاركت فيها. وهو يخصص في بحر التاريخ والجغرافيا المتلاطم الى ابعاد أكثر عمقا ومجالات أشمل اتساعا حيث الاطماع الاستعمارية والتنافس بين دول الاستعمار للفوز بالغنائم التي اتاحها انهيار الامبراطورية الاقطاعية العثمانية واقتطاع ولاياتها واماراتها واستعباد وقهر ونهب شعوبها، ويعرج على مؤامرات الدول الاستعمارية وتكتيكاتها ومناوراتها من أجل تفكيك أو اصر هذه الشعوب وأشاعة الفرقة فيما بينها وأثارة اطماع قادتها من أجل تمزيق وحدة كل منها الداخلية بأشاعة الطائفية الدينية والعرقية والمذهبية بين افرادها وطوائفها غير متورع عن استخدام شعب ضد شعب وطائفة ضد أخرى. ولكنه في نفس الوقت برغم كل ما يظهره لهذه القيادة أو تلك ولهذه الطائفة أو غيرها من مودة ألا انه يعتبرها في حقيقة الأمر أما تابعا عليه أن ينفذ ما يرى دونما تعقيب أو شيطانا لا مناص من التعاون معه هونا لبعض الوقت حتى يستنفذ إغراضه في القضاء على أعدائه واحدا أثر آخر سواء كان هذا العدو هو الاتحاد السوفييتي والدول التي تدور في فلكه أو الدول الوطنية أو القومية التي تعارض سياسة النهب والتسلط الاستعمارية أو أيا من الدول النامية التي يطمع في الاستيلاء على ثرواتها، ولا بأس من أن يفتعل ودا مؤقتا تجاه إحدى هذه القوى ويتخذ منها حليفا مؤقتا ليصبح هذا الحليف المؤقت أيضا فريسته أو إحدى فرائسه المتعددة التي حل عليها الدور ولا يستحي أن يضحي به أو يجعله عربونا على مذبح مغامراته الجديدة. ويكشف لنا المؤلف ليس فقط حقيقة السياسة الأمريكية ولكن مطبخ أو مركز صناعة هذه السياسة ومن يتخذ القرار، ومراكز القوى المتعددة في الولايات المتحدة وما بينها من خلافات وصراعات ترقى إلى استخدام واستعانة بعضها ضد البعض الآخر بقوى خارجية لعل في مقدمتها إسرائيل بحيث تغطي على قرارات السلطة العليا الرسمية بما فيها سلطة الرئيس وتحيلها هباءا منثورا، لتعلى رؤيتها الخاصة ومصالحها الذاتية.

ثمة نقطة أخرى تطرق إليها المؤلف وربما لم تحظ بما تستحق من اهتمام من جانب أدبياتنا السياسية وأعني بها ظهور وتطور اليمين الرأسمالي علي المستويات المحلية والاقليمية والدولية ونمو مصادر التمويل والبنكية الاسلامية ودور المؤسسات والاحتكارات الغربية في هذا التطور وتداخل المصالح المشتركة فيما بينها.

نترك للقارئ حرية تقليب كافة وجهات النظر، بل ولعل هذا المؤلف يكون عوناً له ولنا لتوضيح أو استكمال أو تصحيح جوانب أكثر شمولاً. ولكننا نرجو ألا

توقفنا أية تفاصيل أو جزئيات قد نرفضها كلية أو جزئيا عن متابعة جوهر القضية التي يعرضها المؤلف..

نعرض فقط حاليا لبعض رؤوس المواضيع التي قد لا نتفق فيها مع المؤلف أو نتحفظ عليها أو تحتاج إلى المزيد من التدقيق والبحث، وأهمها:

- 1- مقولة " الإرهاب الأسلامي " فليس في الإسلام إرهاب.
- 2- الزعم بأن نظام صدام في العراق كان اشتراكيا علمانيا.
- 3- بالرغم من أن المؤلف يورد مقتبسات لباحثين معروفين تشيد بكل من جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وموقفهما ضد الاستعمار ومن أجل الإصلاح غير أنه من الواضح أنه يأخذ علي محمل الجد ما نسب إليهما من كونهما عملاء للاستعمار. ولكن الخوض في هذا الموضوع ليس مسألة سهلة وليس مما تتحمله هذه المقدمة ويكفي في هذا الحيز الإشارة الى ان الرجلين لا تحكمهما وحدة المنهج واتسمت كثير من مواقفهما بالازدواجية. فحين يتعلق الامر بمناهضة الانجليز يدعو الى الوحدة الدينية ويقبل الخلافة أساسا للحكم، وحين يناهض الخلافة العثمانية يدعو الى الوحدة القومية ويرفض الدين أساسا للحكم.* كذلك تختلف الكثير من مواقفهما اختلافا بينا عن مواقف الاخوان المسلمين بالرغم من تشابهها فيما يتعلق بالرابطة الاسلامية، ولنا عودة الى هذا الموضوع بمشيئة الله.
- 4- اليمين الأسلامي والاخوان المسلمون كتنظيم دولي له علاقاته وتداخلاته وأهدافه مع أطراف أخرى محلية و الإقليمية ودولية بما في ذلك من بنوك وهيئات تمويلية.
- 5- أحداث 11 سبتمبر 2001، جذورها وتداعياتها والمسئول الحقيقي عنها. راجين أن تتاح لنا الفرصة فيما بعد لإيفاء هذه المواضيع حقها، خاصة وأن الكتاب لا يتناول موضوعا طوي التاريخ صفحاته وأصبح من حكايات الماضي، فأحداثه لم تزل حية وتداعياته لا تزال تتوالى وحلقاته لم تكتمل بعد. أفلا يستدعي ذلك مزيدا من اليقظة والجهد؟

*

* ينظر د محمد عمارة "الأفغانى ..مفكرا ومنضلا" مجلة الطليعة 1969 لعدد الرابع ص ص 122- 146
د. غالى شكرى " النهضة والسقوط فى الفكر المصرى الحديث" ص ص 164-168 و 186-201
أحمد شفيق باشا " مذكراتى فى نصف قرن" ج 3 ، اصدار الهيئة المصرية العامة للكتاب ص ص 34-37 و ص 232

مقدمة المؤلف

1

ثمة حلقة مفقودة غير معروفة فى تاريخ الحرب الباردة والنظام العالمي الجديد بعدها، وهى كيف أن الولايات المتحدة - صراحة أحيانا و خفية أحيانا أخرى - قامت بتمويل وتشجيع الجناح اليميني الاسلامى. ويحاول هذا الكتاب (لعبة الشيطان) أن يملأ الفراغ الذى خلفه فقدان هذه الحلقة ذات الأهمية البالغة.

وهذا أمر ذو أهمية قصوى لأن هذه الحلقة المفقودة التى لا يعرف عنها سوى القليل والتى مضى عليها أكثر من ستة عقود هي المسئولة عن ظهور الإرهاب الإسلامى كظاهرة عالمية واسعة الانتشار. وصحيح أن الإمبراطورية الأمريكية المراد إقامتها فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ووسط وغرب آسيا، كان من المفترض -على الأقل حسبما خطط مصمموها - أن تركز فى أحد جوانبها على قاعدة الإسلام السياسى إلا أن الأحداث اللاحقة أثبتت أن ذلك لم يكن سوى لعبة شيطانية لم تكتشف واشنطن خطأ الحسابات الإستراتيجية التى بنيت عليها إلا فى وقت جد متأخر اثر أحداث 11 سبتمبر 2001.

لقد قضت الولايات المتحدة عشرات السنين تزرع الإسلاميين وتضادهم وتتعامل معهم بخبث وبوجهين. تستخدمهم وتسيء استخدامهم كحلفاء لها فى الحرب الباردة لتكتشف فيما بعد أنها ساعدت على انتشار قوة ما لبثت أن استدارت ضد راعيها بشكل انتقامى.

ومثلهم مثل الوحوش التى تلهمها روح مصنوعة انطلق الأئمة الأصوليون والملاى وآيات الله يصلون ويجولون فى أنحاء هذه المنطقة الشاسعة صاخبين ليس فقط ضد الولايات المتحدة وضد حرية الفكر بل وضد العلم العلمانى، ضد الوطنية واليسار وضد حقوق المرأة. البعض كان ارهابيا، ولكن غالبيتهم العظمى كانوا من ذوى العقول الوسطية المتعصبين دينيا ممن يريدون اعادة عجلة التاريخ الى القرن السابع (الميلادى)

خلال الحرب الباردة -1945/ 1991 - لم يكن العدو هو الاتحاد السوفيتى فقط وإنما طبقا للقواعد المانوية (إما معي أو ضدي) السائدة فى ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة تكره كراهيتها للشيطان القادة الذين لا يؤيدون الأجندة الأمريكية

تأييدا مطلقا أو يتحدثون سيادة الغرب وخاصة الولايات المتحدة واعتبرت الأفكار والأيدولوجيات التي تغذى هؤلاء القادة كالوطنية والإنسانية والعلمانية والاشتراكية أفكارا مشبوهة. إلا أن هذه الأفكار كانت أيضا هي نفسها أكثر ما تخاف منه قوى الإسلام السياسي الناشئة. وفي كافة أنحاء المنطقة خاضت قوى اليمين الاسلامي معارك مريرة ضد ما تثيره هذه الأفكار من انطباعات ليس فقط في مجال الحياة الفكرية بل وكذلك في الشارع السياسي. وخلال المعركة ضد القومية العربية التي استمرت عقودا طويلة، إضافة الى المعركة ضد القومية الفارسية والقومية التركية والقومية الهندية وجدت الولايات المتحدة قضيتها المشتركة مع اليمين الاسلامي.

وبمعنى أكثر شمولاً قضت الولايات المتحدة سنوات طويلة في محاولاتها من أجل بناء حاجز يحول بين الاتحاد السوفيتي وجناحها الجنوبي. ونظرا للحقيقة أن كل الأمم فيما بين اليونان والصين هي أمم إسلامية فقد أعطى ذلك انطبعا بان الإسلام نفسه يمكن أن يدعم مثل هذا الخط الاستراتيجي. وشيئا فشيئا أخذت فكرة هذا الحزام الأخضر الممتد عبر هذا (الهلال الاسلامي) تأخذ شكلا محددا. ولم تكن الفكرة مجرد فكرة دفاعية فقد قدر واضعو هذه السياسة المغامرة أن المسلمين المتواجدين داخل حدود الاتحاد السوفيتي في إطار جمهورياته الكائنة في وسط آسيا، قد يكونون عامل تقويت لكيان الاتحاد السوفيتي ذاته. ومن ثم فقد اتخذوا الخطوات اللازمة لتشجيعهم على ذلك.

لقد تلاعبت الولايات المتحدة ليس بالإسلام ذاته كعقيدة للملايين بل بالاتجاهات الإسلامية. فعلى عكس العقيدة الإسلامية التي يساندها 14 قرنا من التاريخ كانت الاتجاهات الإسلامية أنفة الذكر أحدث جذورا بوصفها عقيدة سياسية تعود جذورها الأولى إلى القرن التاسع عشر، عقيدة سياسية جهادية تضم فلسفة شاملة يبدو معتقوها أغرابا أو مهرطقين حسب وجهة نظر المسلمين الأوائل وما زالت تبدو كذلك عموما لعدد كبير من المسلمين. أما الأصولية الإسلامية أو الإسلام السياسي فهي شيء مختلف تماما فيما يتعلق بالجانب الروحي للحياة الإسلامية التي تنص عليها أركان الإسلام الخمسة. بتعبير آخر فإن الأصولية الإسلامية أو الإسلام السياسي ليس سوى مراجعة للعقيدة الدينية وهذه هي الأيدولوجيا الانقلابية التي شجعتها الولايات المتحدة ودعمتها ونظمتها ومولتها، أنها نفس العقيدة التي يمثلها بإشكال مختلفة الإخوان المسلمون وآية الله الخميني في إيران والوهابية الأكثر تطرفا في العربية السعودية كما تمثلها حماس وحزب الله وجهاديو أفغانستان وبن لادن.

لقد وجدت الولايات المتحدة في الإسلام السياسي شريكا مريحا في كل مرحلة من مراحل بناء الإمبراطورية الأمريكية في الشرق الأوسط منذ بواكير دخولها إلى المنطقة وحتى تغلغلها التدريجي وتوسعها في المنطقة حتى استقرارها العسكري فيها وحتى ظهورها أخيرا كجيش احتلال في العراق وأفغانستان.

في الخمسينيات لم يكن العدو هو الإتحاد السوفيتي فقط بل شكل عدوا لها كذلك ظهور الوطنية في العالم الثالث من جمال عبد الناصر في مصر إلى محمد مصدق في إيران. لقد استخدمت الولايات المتحدة وبريطانيا الإخوان المسلمين كحركة إرهابية وبوصف حركتهم كالجد الأكبر للتنظيم الإسلامي الإرهابي ضد ناصر الذي ظهر وقام كقائد للقومية العربية. وفي إيران نظمت المخابرات المركزية الأمريكية سنة 1953 الانقلاب العسكري حيث قامت الولايات المتحدة سرا بتمويل آية الله الذي أسس " أنصار الإسلام " وهو تنظيم متطرف موالى للإخوان المسلمين. بعد ذلك في نفس العقد بدأت الولايات المتحدة لعبتها مع الكتلة التي تتلفع بالإسلام وتقودها السعودية كمرتكز لمناهضة اليسار الوطني.

في الستينيات من القرن العشرين برغم جهود الولايات المتحدة لاحتواء الجناح اليساري الوطني، امتدت الاشتراكية العربية من مصر إلى الجزائر، وسوريا فالعراق ثم فلسطين. ولمناهضة ما بدا أنه تهديدا لها أعدت الولايات المتحدة تحالفا فعلا مع السعودية لتوظيف الأصولية الوهابية لخدمة سياساتها الخارجية فتابعته الولايات المتحدة بمشاركة الملك سعود والأمير فيصل " الملك فيصل فيما بعد " قيام كتلة إسلامية تمتد من شمال إفريقيا حتى باكستان وأفغانستان. وأقامت السعودية المؤسسات لتوظيف العقيدة الوهابية السعودية، اليمينية والإخوان المسلمين لذلك الغرض كما قام النشاط الذين تظاهروا بهم السعودية بإنشاء المركز الإسلامي في جنيف 1961 ورابطة العالم الإسلامي 1963 والمؤتمر الإسلامي 1969 ومنظمات عديدة أخرى أصبحت تشكل قلب الحركة الإسلامية العالمية.

وبوفاة عبد الناصر 1970 وتراجع حركة القومية العربية أصبح المسلمون سندا هاما للعديد من الأنظمة المرتبطة بالولايات المتحدة، ووجدت الولايات المتحدة نفسها حليفا لليمين الإسلامي في مصر حيث استخدم السادات إسلامي هذا للبلد لإقامة قاعدة سياسية مناهضة للناصرية ، وفي باكستان حيث سيطر الجنرال ضياء الحق بالقوة على السلطة وأسس دولة إسلامية، وفي السودان حيث واصل حسن الترابي زعيم الإخوان المسلمين طريقه إلى السلطة، وفي ذات الوقت الذي بدأت فيه

الولايات المتحدة تتوسم في الأصولية الإسلامية أداة هجومية ينبغي استخدامها ضد الاتحاد السوفيتي بدءًا من أفغانستان إلى آسيا الوسطى حيث استخدمتها كسلاح ضد المظلة السوفيتية وكذلك في إيران حيث أخذت الثورة الإيرانية تعلن تعاطفها مع الإسلاميين. ومع تجاهل الولايات المتحدة التام لطبيعة الاتجاهات الإسلامية السائدة في إيران في ذلك الحين اندفع كثير من المسؤولين الأمريكيين ينظرون إلى آية الله الخميني كشخصية معتدلة ينبغي الاعتراف بأرائه كشخصية معادية للشيوعية وكان من نتيجة ذلك أن الولايات المتحدة قللت بشكل كارثي من قدرات حركته في إيران، وحتى بعد قيام الثورة الإيرانية سنة 1979 فشلت الولايات المتحدة وحلفاؤها في استيعاب درس أن الحركة الإسلامية حركة خطيرة وقوة غير قابلة للسيطرة عليها. لقد أنفقت الولايات المتحدة بلايين الدولارات لمساندة الجهاد الإسلامي في أفغانستان حيث كانت الجماعات الموالية للإخوان المسلمين تتولى قيادة المجاهدين. كذلك لم تلق الولايات المتحدة اهتماما بالمساعدات التي كانت تقدمها إسرائيل والأردن سرا إلى الإخوان المسلمين في حربهم الأهلية ضد سوريا ولا المساعدات التي كانت تقدمها إسرائيل لتشجيع ونشر الحركة الإسلامية في المناطق المحتلة من فلسطين مما ساعد على تأسيس حركة حماس.

كذلك عضد المحافظون الجدد جهود المخابرات المركزية الأمريكية برئاسة بيل كيزي Bill Casey في ثمانينيات القرن العشرين فيما يتعلق بالصفقات السرية التي عقدها مع آية الله الخميني في إيران.

إلا أنه بحلول التسعينيات ونهاية الحرب الباردة أصبحت مسألة استخدام اليمين الإسلامي تستوجب إعادة النظر. وبدأ بعض الاستراتيجيين يرون في الإسلام السياسي تهديدا جديدا ويحلونه محل الشيوعية باعتباره المنافس العالمي للولايات المتحدة وهو الأمر الذي أدى على أية حال إلى المبالغة الشديدة في قدرات قوة محدودة بحدود الدول الفقيرة الأدنى تطورا underdeveloped.

وبالرغم من أن الإسلام السياسي من المغرب إلى اندونيسيا يظل قوة على الولايات المتحدة أن تتعامل معها إلا أن استجابة الولايات المتحدة لهذه القوة كان مراوحا ومرتبكا. ففي خلال التسعينيات واجهت سلسلة من الأزمات مع الإسلام السياسي، فبينما كانت الولايات المتحدة تتعاطف مع القوة الصاعدة للإسلام السياسي كانت تؤيد الهجمات التي تقوم بها الحكومة الجزائرية ضد هذه الجماعات وفي نفس الوقت ظلت تحتفظ بالمحادثات التي كانت تجريها مع الإسلاميين الجزائريين الذين ما لبثوا أن اتجهوا إلى الإرهاب.

وفى مصر شكل الإخوان المسلمون والحركات السرية العنيفة التي خرجت من عباةتهم تهديدا خطيرا لنظام الرئيس مبارك إلا أن الولايات المتحدة ظلت تتخذ من مسألة دعم الإخوان المسلمين لعبة تتلاعب بها.

وفى أفغانستان التي تشطرت إلى أجزاء بعد حقبة الجهاد التي رعتها الولايات المتحدة (ضد الغزو السوفيتي) سرعان ما تمكنت طالبان من كسب دعم الولايات المتحدة التي وجدت نفسها حتى بعد أن تشكلت طالبان بقيادة أسامة بن لادن فى تحالف مع اليمين الاسلامى فى باكستان والسعودية والخليج العربى.

ثم جاءت أحداث 11 سبتمبر 2001

بعد 2001 بدا أن إدارة بوش قد وضعت توقيها على بيان المحافظين الجدد الذى يرى ان العالم يتسم بصبغة " الصدام بين الحضارات" وشنت حربها العالمية ضد الارهاب مستهدفة تنظيم القاعدة -الأكثر ثلوثا بذات الفيروس - الذى ساعدت الولايات المتحدة على زرعها. وحتى قبل وأثناء وبعد غزو العراق -وهى دولة اشتراكية علمانية طالما ناهضت الأصولية الإسلامية - كانت الولايات المتحدة تقدم دعما نشطا للإسلام اليميني فى العراق وتعضد بشكل صريح الإسلاميين الشيعة العراقيين بدءًا من آية الله على السيستانى إلى الأحزاب الشيعية الأصولية، كالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية فى العراق وحزب الدعوة وكلها تحظى بدعم مالى إيران.

3

إن الزعم بوجود صدام بين الحضارات هو زعم متجح يقوم على أساس وجود تعارض بين الغرب من جهة والعالم الاسلامى من جهة أخرى وإذا كان الأمر كذلك حقا فانه يبدو نذير شؤم.

من بين حطام الحرب العالمية الثانية ، تعثرت أمريكا شاءت أم أبى فى الشرق الأوسط وهو عالم لا تعرف عنه سوى القليل.

وإذا كانت الولايات المتحدة قد ارتكبت أخطاء فى تعاملها مع الإسلام فى النصف الثانى من القرن العشرين فان ذلك يعود جزئيا إلى الجهل العميق به. فحتى سنة 1941 كان الشرق الأوسط بالنسبة لأمريكا الحديثة مكانا يبعث على الخوف والدهشة وكان يبدو بلادا خيالية يقطنها الشيوخ والحريم والسلطين المعممين، مكان

يعج بالحمامات القذرة والحريم والواحات والأهرامات والأرض المقدسة. وحسبما جاء في الأدب القديم من القصص وإشعار ومذكرات الرحالة هو مكان الغموض والمكائد، يسكنه أناس غير متحضرين غير مؤمنين يصورون باعتبارهم أصحاب مكيدة "مسلمون" "محمديون" غير متمدنين وغير مهذبين، وهي أرض القراصنة والأتراك وهو اصطلاح لا يزال حتى اليوم ينم عن الازدراء.

ولا يزال كتاب مارك توين "الأبرياء في الخارج" منذ ظهوره سنة 1869 يرمز إلى نوع غريب من التخطيط الساذج الذي تمارسه السياسة الخارجية الأمريكية غير أن القليل من الأمريكيين هم الذين يدركون أن مارك توين، ولعله كان أكثر كتاب أمريكا سخرية وقدرة على الملاحظة، قد استخدم الكتاب لوصف انطباعاته أثناء رحلة لم تستغرق منه أكثر من شهر قام بها في بلاد البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط ولكنه كان الأكثر تأثيراً على القارئ الأمريكي خلال القرن التاسع عشر، ولسوء الحظ ساهم في غرس وبناء التحيزات ضد كل ما هو إسلامي. خلال ترحاله في تركيا وسوريا ولبنان وفلسطين كان "توين" يتحدث بازدراء وتعالى متعجبا من البربرية التي كان يراها، فالمساكن حقيرة ومليئة بروث الجمال المرصوص على الأرض ليجف. أما عن دمشق ("إلى أي حد يكره الدمشقيون المسيحيين!") فهي أكثر بلاد العرب الإسلامية تعصبا والأكثر حاجة إلى التطهير، والدمشقيون في رأيه هم الأكثر شرا وقبحا والأشد حقارة. ومقارنا البلاد المقدسة بـ"الناصره" كما صورتها المنحوتات الكلاسيكية كتب يقول:

"غير أن الصورة المحفورة ليس بها كل هذا الدمار ولا القذارة ولا الأسماح البالية ولا البراغيث، ليس هناك هذه الملامح القبيحة ولا العيون المتورمة والذباب الذي يرتع واللامح التي تتم عن الجهل الذي يفقد الفعل ولا هذه التقرحات على ظهر الحمير ولا هذه الثرثرة بلغات غير مفهومة ولا الرائحة النتنة للجمال، ولو اقترح احدهم استخدام طنين من مساحيق التجميل لتحسين الصورة وإعطاء انطباع ايجابي يستحق أن يتذكره المرء لما كان ذا فائدة"

وخلال السنوات الأولى من القرن العشرين ومع مقدم الحرب العالمية الأولى فان الانحلال القسري للإمبراطورية العثمانية وبداية الصحوة العربية برعاية الانتداب البريطاني* الذي قاده ونستون تشرشل ولورنس العرب و جرتروود بيل

* هل حقاً يعود الفضل في الصحوة العربية الى بريطانيا وجهود تشرشل ولورنس....!!؟؟- المترجم

وأشباههم، بدأ الشرق الأوسط يدخل فى الوعي الأمريكى ولكنه كان لايزال مشوباً ببناء من الرومانسية والجهل.

كانت مغامرات لورنس الجنسية وخیالاته الرومانسية بما فى ذلك مؤلفه الشهير " أعمدة الحكمة السبعة" كانت أكثر الأعمال مبيعا فى الولايات المتحدة وكذلك الرحلات التى قام بها العديد من المغامرين إلى الواحات واحة بعد أخرى. كان الشرق الأوسط فى نظر الكثيرين من الأمريكیین مجرد ذكريات معلبة فى الأفلام والأغاني. وأصبح فيلم الشيخ (1921) الذى قام ببطولته رودولف فالنتينو هو النموذج الذى يمثل فكرة الأمريكى العادى عن العرب بالإضافة إلى الأغنية التى يتضمنها الفيلم " شيخ العرب " التى تتضمن مقطوعات التهديدات الفجة "فى الليل بينما تغط فى النوم داخل خيمتك سوف ازحف" واستمر تأثيرها لعقود، وقام بتى جودمان بتسجيل الأغنية سنة 1937 كما قام بذلك أيضا فريق الخنافس (البيتلز) سنة 1961 واليون روديون سنة 1977. ولعل أحدا من الخبراء الأمريكیین أو ربما القليل منهم من غامر بالتواجد فى المنطقة منذ القرن التاسع عشر وحتى عشرينات القرن العشرين باستثناء مجموعة من المبشرين البروتستانت والمدرسين والأطباء الذين ألوا على أنفسهم أن يقودوا الجماهير الى الهداية وان يقوموا بالوعظ بين مسیحى الإمبراطورية العثمانية فى سوريا ولبنان بشكل خاص. ومن بينهم الرواد من امثال دانييل بليس Daniel Bliss وابنه هوارد بليس واخوان دودج Dodge brothers (القس ديفيد ستیوارت دودج وولیم ایرلى دودج) الذين انشأوا وأداروا الكلية البروتستانتية السورية -التي أعيد تسميتها بالجامعة الأمريكية فى بیروت فى العشرينيات - ومارى ادى Mary Eddy وهى ابنة مبشر أنشأت فى لبنان عيادة تطل على شواطئ الأقالیم العربية فى الإمبراطورية العثمانية وأصبحت عائلات بليس ودودج وايدى هم الآباء والأجداد وأجداد الأجداد للقساوسة الأمريكان المستعربين الذين ظهروا بعد الحرب العالمية الثانية.

4

فى سنة 1945 توجه فرنكلین روزفلت Franklin Delano Roosevelt إلى الشرق بحثا عن البترول ووجد الإسلام. وقدر له أن يلتقى ابن سعود ملك السعودية على ظهر السفينة. بالنسبة للولايات المتحدة كانت هذه المقابلة بمثابة البداية الحقيقية لانخراطها السياسى والعسكرى فى المنطقة.

ووجدت الولايات المتحدة المنتشية بما حقته من نصر فى الحرب العالمية الثانية، وجدت نفسها فى دور القوة الدولية العظمى. وكانت فعاليتها فى ذلك الحين تتسم بالسذاجة ومحاباة شركائها إلى أقصى حد بينما تتسم بالحدز الشديد تجاه الآخرين. واتسم سلوك قادتها التالين بعد الحرب العالمية الثانية بالثقة الكاملة فى ان الروح الأمريكية سوف تتغلب على الجميع، أو بالتحديد فى حالة الضرورة على أساس واقعى. كان هذا على أى حال حسب تعبير هنرى لوس Henry Luce هو "القرن الأمريكى".

كان الشرق الأوسط فى ذلك الحين قد بدأ يبرز كالمطقة الأكثر حيوية من الناحية الإستراتيجية التى تقع خارج الغرب الصناعى واليابان.

وبالرغم من افتقار الولايات المتحدة للخبرة والمهارات اللغوية والألفة الثقافية بالنسبة للحضارة المعقدة للمنطقة فقد استجابت لمهامها الامبريالية بمنطق قوتها الهائلة. وحسبما ذكر نورمان ميلر Norman Mailer فى مؤلفه "العرايا والموتى" The Naked and the Dead أن الجنرال كمنجز General Cummings وصف بوضوح جموح القوة الأمريكية الذى لا يمكن إيقافه الذى ستطلقه الحرب العالمية الثانية. يقول كمنجز " اننى أفضل أن أسمى عملية التطور التاريخى للقوة الأمريكية بأنها عملية تاريخية. فهناك بلاد لديها قوى كامنة ومصادر كامنة يمكن أن نطلق عليها بلاداً مليئة بالطاقة الكامنة.... وطبقاً لنظرية الحركة التى تقول بان الأشياء فى حركة دائمة فان الدولة بوصفها مولدة للطاقة هى الهيئة التى تتولى تنسيق الجهود وتنظيمها.... وتاريخياً فان الهدف من الحرب هو تحويل طاقة أمريكيا الكامنة إلى طاقة محرركة.... وحينما تخلق الطاقة المادة والجيش فإنها لا تذوى من تلقاء نفسها، إن فضاءنا كأمة هو فضاء مملوء بالقوة المتدفقة واستطيع أن أقول لكم أننا أصبحنا الآن خارج إطار التخلف التاريخى ".

غير انه حينما انطلقت القوة الأمريكية إلى العالم الاسلامى بدأت الولايات المتحدة مهامها طويلة الأمد ربما بإدراك كامل أو بإدراك محدود للقوى التى تتعامل معها.

حتى الحرب العالمية الثانية لم يكن لدراسات الشرق الأوسط وجود حقيقى فى الولايات المتحدة، أو لعلها كانت تقوم على منظومة من اللاهوت. ولم تنشأ المراكز التى تهتم بشئون الشرق الأوسط وترعاها الحكومة، لم تبدأ فى الظهور الا بعد سنة 1947 حينما قامت جامعة برنستون بإنشاء أول مركز لشئون الشرق الأوسط فى

الولايات المتحدة. غير انه كان لابد من مرور عدة سنوات قبل ان يصبح لدى الولايات المتحدة الكوادر من الخبراء الأكاديميين الذين لديهم خبرة بالسياسة والثقافة والدين الاسلامي.

وبدأ من فرنكلين روزفلت فصاعداً كان الساسة الأمريكيان سجناء كل التصورات المقولبة المضللة المعززة بكل الصور الدنيوية للمحاورين من العرب. وبعد مقابلته لابن سعود عاد روزفلت إلى واشنطن "دون أن تبارح مخيلته صورة الملك السعودي الشبيه بالصقر وهو متكئ على عرشه الذهبي يحيط به ستة من العبيد." بعد ذلك بعامين وصف الرئيس هاري ترومان Harry Truman مسئولا سعوديا بارزا بأنه طبق الأصل من الصورة التي أوردتها الإنجيل للعربي (ذي اللحية المدببة الذي يرتدى الجلباب الأبيض الموشى بإطار مذهب وكل شيء). واستبعد إيزنهاور أن يكون العرب "نوعية غريبة متفجرة ومفعمة بالتحيزات." ويزخر الأرشيف الرسمي الأمريكي بمثل هذه التصورات المقولبة المتكررة عن العرب والمسلمين التي رسمها الموظفون الأمريكيون. خلال الستين عاما التالية باءت بالفشل محاولات المتخصصين في الشؤون العربية من المسؤولين الأمريكيين الذين لا يتعدى عددهم أصابع اليد الواحدة ويعرفون عن حق بعض الشيء عن الشرق الأوسط، فشلوا في التغلب على هذه التصورات والانطباعات.

5

حينما جاء الوقت لتتشغل الولايات المتحدة بشئون الشرق الأوسط السياسة والعسكرية. كانت هذه التصورات الخيالية المرتبطة في ذهن الأمريكيان وتخيلاتهم للحياة العربية التي تغذيها العنصرية والازدراء الديني للوثنية العربية المزعومة بمثابة المزيج المسموم الذي ربما كان له تأثير في دفع واضعي السياسة الأمريكية ليروا في المسلمين مقاتلين ألداء. ولربما اعتقدوا أن هذه التصورات الدينية سوف تدفع معتقبيها إلى مقاومة الإلحاد الشيوعي. وربما كان لديهم انطباع بان تشكل المؤسسات الدينية التقليدية في جنوب غرب آسيا حاجزا طبيعيا ضد الشيوعية. ولكن لم يخطر قط ببال المسؤولين الأمريكيين أن المنظمات الإسلامية كالإخوان المسلمين كانت ظاهرة مختلفة تماما من الناحية الكيفية عن ظاهرة المؤسسات الاكليريكية الكمبرادورية. والحقيقة انه عندما تطورت الحرب الباردة اصبح العدو الكبير وهو الاتحاد السوفيتي وشركاؤه من القوميين العرب بدا كأن لهم عدوا مشتركا هو الإسلام. وبشكل أو بآخر فان الحرب الباردة بدأت في الشرق الأوسط عندما أعلن

الرئيس الامريكى هارى ترومان سنة 1947 مسئولية الولايات المتحدة عن اليونان وتركيا لتخلف بذلك بريطانيا فى هذا الدور وليواجه الاتحاد السوفيتي فى أذربيجان شمال إيران. وكان نفوذ الامبريالية البريطانية قد اخذ يتضاءل حيث تخلت بريطانيا عن اليونان وتركيا ثم الهند وفلسطين وكان تراجعها مستمرا بينما تملأ أمريكا الفراغ الناجم عن هذا التراجع الذى اصبح هدفا للتوسع السوفيتي (وستظهر الدراسات العلمية فيما بعد انه لا ستالين ولا خروشوف كان لدى اى منهما النية أو القدرة على السيطرة على الخليج الفارسي أو الشرق الأوسط).

كانت أهمية الشرق الأوسط واضحة لعيان الجميع، فقد كان (ولا يزال) مصدر الطاقة الذى لا يمكن لحلفاء أمريكا فى أوروبا واليابان أن يستغنوا عنه بينما لم تكن الولايات المتحدة فى ذلك الوقت تعتمد على بترول الخليج الفارسي وإنما تعتمد على بترول فنزويلا وتكساس ولويزيانا و أوكلاهوما. ولكن أوروبا واليابان كانتا تعتمدان بشدة على الخليج لسد احتياجاتهما البترولية اليومية حتى يستمران فى الوجود. وليس من المبالغة القول بان استراتيجي الولايات المتحدة أدركوا بان الدفاع عن أوروبا الغربية لا يمكن تحقيقه بدون خطة موازية للسيطرة على الخليج. وبرغم التوترات الداخلية الهامة بين القوى الغربية فقد تمكنت من تحقيق سلسلة من الأحلاف فى المنطقة: حلف الاطلنطي، حلف الدفاع عن الشرق الأوسط، حلف بغداد المنهار، وحلف جنوب شرق آسيا (السنثو) وكلها موجهة ضد الاتحاد السوفيتي. وبهدوء ساندت كل من واشنطن ولندن الإسلام اليميني ضد اليسار بلدا اثر بلد وشجعت على ظهور " الكتلة الإسلامية".

ولكل هؤلاء الذين لا يعلمون سوى القليل عن العقيدة والثقافة فى الشرق الأوسط وجد رؤساء الولايات المتحدة والمخابرات المركزية الأمريكية وجدوا فى اليمين الاسلامى الركوبة المناسبة ليمتطوها. وأمكنهم أن يتعارفوا على الناس الذين تلهمهم العقيدة الدينية العميقة بالرغم من أن عقيدة هؤلاء الدينية كانت مغايرة لعقيدتهم. وفى بحثهم عن الحلفاء التكتيكيين بدا لهم إن الرهان على الإسلام يفضل الرهان على العلمانية طالما أنهم يرون فى العلمانية اليسارية الأداة الطيبة لموسكو بل ورأوا أن الوسطيين يشكلون خطرا يهدد ملوك المنطقة وصفوتها التقليدية. وبعد انحسار الآثار الكارثية للحرب العالمية الثانية كانت قائمة البلاد التى يحكمها الملوك ليس فقط الأردن والعربية السعودية وإنما تشمل أيضا مصر والعراق وإيران وليبيا.

فى خمسينيات القرن الماضى كان ثمة دراسات تتعلق بجماعات المتقسين العسكريين تجرى فى كثير من الجامعات الأمريكية لتخريج مستعربين ومستشرقين

ليكونوا تحت طلب واضعى السياسة الأمريكية من اجل استشارتهم فيما يتعلق بالتعامل مع التعقيدات العقائدية فى المنطقة. وكانت المخابرات المركزية الامريكية والإدارة الأمريكية يقودها خريجو رابطة ايفى Evy League Graduates الذين يتحدثون العربية والتركية والفارسية والأوردية وغيرها من لغات الشرق الأوسط. وتخرجت نخبة ممتازة من المستعربين تتميز بأن لديها على الأقل معرفة عملية بالمنطقة. غير أنهم وطبقا لشهادات صادرة منهم أنفسهم فان القليل منهم فقط هم الذين كانوا يعرفون شيئا عن الإسلام والحركة الإسلامية حيث كانت معارفهم تتركز بدلا من ذلك على مبادئ الاقتصاد والمسائل السياسية. كان معظم المستعربين علمانيين ولم يكن لديهم اى تعاطف مع الأصولية الإسلامية. وفى الواقع فان الكثير منهم كان يتعاطف إلى حد كبير مع دعاة القومية العربية. وكان الكثيرون منهم يرون فى الإسلام مجرد رمز لزمان مضى وعصر فات أوانه. غير انه عندما كشفت الحرب الباردة عن ثنائياها تم إلى حد كبير تجاهل موظفي الإدارة الأمريكية والمخابرات المركزية الأمريكية الذين تعاطفوا مع حركة القومية العربية، وهوجمت آراؤهم من قبل سدنة الحرب الباردة والمتعاطفين مع إسرائيل الذين عقدوا العزم على الغض من شأن اى فرد يعتبر نفسه مؤيدا للعرب. وخلال السبعينيات تم تشويه معنى المستعربين وبدأت منذ ذلك الحين الأنشطة الموالية للصهيونية تتراكم وتوجه الحملات الإيديولوجية الصاخبة ضد هؤلاء الأكاديميين المستعربين الذين استمروا فى الإدارة.

ويوضح روبرت كابلان Robert D. Kaplan فى كتابه المتميز الصادر سنة 1993 تحت عنوان: (المستعربون: قصة نخبة أمريكية The Arabists: Romance of an American Elite) يوضح هذا الكتاب المدى الكبير الذى بلغته هذه الجهود. فم منذ ظهور هذا الكتاب اصبح الهجوم على المستعربين صناعة احترافية. وفى واقع الأمر فقد تم استبعادهم جميعا عند التخطيط للحرب على العراق. وحسبما ذكر احدهم فان معظم المستعربين عارضوا الحرب الوقائية ولكن إدارة بوش تمكنت من استبعادهم من اجل ضمان ان يتم التخطيط لهذه الحرب فى الخفاء

6

قد يجادل البعض بان الولايات المتحدة لم تخلق الإسلام ولا الأصوليين من معتقيه، وهذا صحيح غير انه ينبغى علينا فى هذا الصدد ان نضع فى الاعتبار تحليلا اكثر تفصيلا لليمين المسيحي الامريكى.

فالمحافظون والمسيحيون الإنجيليون كانوا موجودين بأعداد كبيرة في أمريكا منذ العصر الكولونيالى ولكن من ناحية أخرى فإن ظهور اليمين المسيحي في الولايات المتحدة يمكن إرجاعه إلى أواخر السبعينيات مع تشكيل تحالف الكنائس في كاليفورنيا California Alliance of Churches على يد الأب تيموثى لا هاى وإنشاء الأغلبية الأخلاقية Moral Majority على يد لا هاى وجيرى فولويل Jerry Falwells والدور الذى لعبه هذان الرجلان وغيرهما فى ظهور "المجلس المختص بالسياسة الوطنية" Council on National Policy و "التحالف المسيحي" Christian alliance ومنظمات أخرى مثل "إمبراطورية بات روبرتسون للإذاعة" Pat. Robertson's Broadcast ومؤسسة الدكتور جيمس روبسون - James Robson's Focus on Family من أجل تركيز الاهتمام على العائلة". ولكن حتى ذلك الحين كان المسيحيون المحافظون قوة سياسية ناشئة. غير أنه بعد أن تم تنظيمهم بإحكام عبر العقود الثلاثة الأخيرة أصبحوا قوة قائمة بذاتها عارفة بإمكانياتها وحركة سياسية قوية وعلى درجة كبيرة من الوعى وكذلك كان الأمر بالنسبة لليمين الاسلامى فالاتجاهات الرجعية الموجودة فى الإسلام تعود إلى ثلاثة عشر قرنا مضت. فمنذ البدايات الأولى للإسلام دخلت الاتجاهات الظلامية واللاعقلانية والنصوصية فى منافسة مع الاتجاهات الأكثر استنارة وتقدمية واعتدالا. وفى الأزمنة الحديثة كان الرجعيون الاسلاميون يعوقون التحديث ويعارضون التعليم التقدمى والليبرالية وحقوق الإنسان. وحتى إنشاء الحركة الإسلامية الشمولية على يد جمال الدين الافغانى فى أواخر القرن التاسع عشر وتأسيس "الإخوان المسلمون" على يد حسن البنا سنة 1928 وإنشاء الجماعة الإسلامية على يد أبى الأعلى المودودى فى باكستان سنة 1940 لم يكن لدى اليمين الإسلامى أمثال لاهاييس وفالويل وروبرتسون الذين ظهروا فى أمريكا، غير أن هؤلاء الإسلاميين انفي الذكر (الافغانى والبنا المودودى) عملوا على زيادة الحرب الثقافية فى الشرق الأوسط مثل نظرائهم من اليمينيين المسيحيين فى الولايات المتحدة ولنفس الأسباب.

وكما وجد اليمين المسيحي المساندة من أثرياء الجناح اليميني فى الولايات المتحدة فى تكساس والغرب الأوسط وجد اليمين الاسلامى مثل هذه المساندة المالية من جانب أثرياء البترول أى من جانب العائلة الملكية على رأس المملكة العربية السعودية ودول الخليج. وبالضبط كما شكل اليمين المسيحي حلفا واسعا مع اليمين الجمهورى - وجد اليمينيون الاسلاميون تقاهما مماثلا مع استراتيجى السياسة الأمريكية اليمينيين وفى الواقع فإن التعاون بين اليمين المسيحي واليمين الاسلامى ترعرع خلال فترة إدارة ريجان الذى عمل بشكل جاد من أجل انجاز التحالفات

بينهما. وبلغ العمى السياسى الذى أصاب بعض الأمريكيين جراء الحرب الباردة من الحدة إلى الدرجة التى حدث ببعض الناشطين من اليمين المسيحى والجماعات الصهيونية المتعصبة فى إسرائيل إلى حد تعضيد جهود الإسلاميين المتعصبين فى أفغانستان وكذلك حدث التلاقى بين المسيحيين الأصوليين والإسلاميين الأصوليين فى مناطق أخرى. فكل منهما يمتلك حسبما يعتقد الحقيقة المطلقة. وكل منهما لا يحتل معارضة وجهة نظره. ويتوعدون المعارضين لهم وغير المؤيدين لآرائهم والمؤمنين بحرية الفكر يتوعدونهم بجهنم وسوء المصير، وكل منهم يؤمن بوحدة الدين والسياسة. ويصر الأمريكيون منهم على أن أمريكا " أمة مسيحية" بينما يصر المسلمون على أنه يجب أن يخضع المسلمون إما لحكم خليفة شامل القوة متدين وسياسى أو لنظام " الجمهورية الإسلامية " التى يحكمها نوع من الشريعة الإسلامية شديدة الأصولية وكل منهما يشجع خضوع تابعيهم وتعصبهم الأعمى. ومن ثم لم يكن عجباً أن يسود الاعتقاد فى كل من الجانبين بأن العالم يخوض صدام حضارات.

7

ان الحرب على الارهاب هى الطريق الخاطئ للتعامل مع التحدى المطروح منذ أمد من جانب الإسلام السياسى.

ويتمثل هذا التحدى فى تصورين احدهما تهديد السلم والأمن الأمريكى من جانب القاعدة، والآخر أن ثمة مشكلة سياسية أكثر اتساعاً يطرحها نمو الاسلام السياسى فى الشرق الأوسط وغرب آسيا.

فيما يتعلق بالقاعدة بالغت إدارة بوش عن قصد فى حجم ومدى التهديد الذى تمثله القاعدة. فهي ليست بالتنظيم شامل القوة وهى قد تستطيع أن تقتل بعض الأمريكيين، ولكنها لا تمتلك قط أسلحة الدمار الشامل وغالباً لن تستطيع ان تصل إليها. وهى لا تمتلك عدداً كبيراً من الخلايا أو الأموال أو العملاء بالرغم مما أعلنه المدعى العام الأمريكى على غير أساس بعد 11 سبتمبر بأن القاعدة لديها خمسة آلاف ناشط فى أمريكا. ولم يثبت أن أحداً من مئات المسلمين الذين ألقى القبض عليهم أو اعتقلوا بعد 11 سبتمبر له علاقة إرهابية. وخلال ثلاثة أعوام ونصف بعد 11 سبتمبر لم تحدث فى الولايات المتحدة عملية عنف واحدة من جانب القاعدة أو غيرها من الجماعات الإرهابية (الإسلامية) ولم تحدث عملية اختطاف أو إلقاء قنابل أو حتى إطلاق نار. ولم يثبت قط ان هناك ارتباطاً ما بين القاعدة والعراق ولا أى

دولة أخرى فى العالم الاسلامى لا فى سوريا ولا فى السعودية ولا فى إيران. وباختصار فان التهديد من جانب القاعدة هو مجرد محاولات. وان استخدام الحرب العسكرية التقليدية ليس هو السبيل الى مهاجمة القاعدة التي وان تكن مشكلة إلا أنها لا تستدعى سوى استخدام المخابرات وتطبيق القانون كما أن الحرب فى أفغانستان قد أخطأت هدفها وفشلت فى تحطيم قيادة القاعدة كما فشلت فى تحطيم طالبان التي ازدادت انتشارا وفشلت فى منح الاستقرار الدائم لهذه الأمة الممزقة، وخلقت حكومة ضعيفة مركزيا تقع تحت رحمة أمراء الحرب وعصابات طالبان السابقة. والأكثر سوءاً أن الحرب فى العراق أتت بغير ما ضرورة ليس قى توجهها فحسب بل وفى كونها وجهت ضد امة لم يكن لها أية صلة إطلاقا بعصابة بن لادن وأصبح الأمر حسبما عبر احد المراقبين كما لو أن روزفلت هاجم المكسيك ردا على بيرل هاربور.

والواقع انه لا جدوى من استخدام القوة المسلحة بشكل مفرط ضد فاعل ما لا يشكل دولة كالقاعدة وهو بالضبط هزيمة للنفس وعلى حد ما تقول الأسطورة القديمة مقابل كل رأس تجتثها القذائف الموجهة بالليزر أو الهجمات التي توجهها قوات المارينز ضد معقل الإسلاميين أو مواقع البحرية الإسرائيلية ضد حماس وحزب الله أو صواريخ كروز الأمريكية ضد المواقع المحصنة النائية "مقابل كل رأس تجتث تنبت ثلاثة رؤوس بديلة".

والواقع انه نظرا لان الحرب الأفغانية والعراقية تتطابق بدقة مع سياسة إدارة بوش الأبعد مدى الهادفة إلى بناء الإمبراطورية الأمريكية والحرب الاستباقية ولأنه سمح للولايات المتحدة ببناء مؤسسة احتكارية سياسية عسكرية واسعة تمتد من شرق إفريقيا وتتغلغل بعمق إلى محور آسيا الوسطى فقد تم المضي قدما فى شن هذين الحربين وهى مشكلة كان ينبغى التعامل معها كعملية جراحية تجرى باستخدام الكوماندوز والقوات الخاصة بمساندة دبلوماسية عنيفة وإقامة دعاوى قانونية دفاعا عن النفس واللجوء إلى الإجراءات القانونية، ألا انه جرى تضخيمها إلى حد كبير من قبل إدارة بوش.

ولم يزل فى الإمكان هزيمة القاعدة

غير أن المشكلة الأكبر هى تلك المتعلقة بنمو قوة الأصولية الإسلامية فى الشرق الأوسط واسيا وهى أكثر تعقيدا من ذلك بكثير.

طبيعى أن المشكلة الأولى تتعلق بالثانية. فما لم يوقف اليمين الاسلامى فقد تتمكن القاعدة من إعادة إحياء نفسها، أو، كما حدث فى العراق بعد الغزو الأمريكى قد تتبثق عنها منظمات أخرى على نمط القاعدة نتيجة لإثارة الغضب والسخط والرفض ضد الأمريكان أو قد تتمكن إحدى الجماعات الإرهابية اليمينية الإسلامية الأخرى مثل حماس وحزب الله أن تتحول من جماعة ذات أهداف محلية إلى نوع أكثر خطورة له طموحات دولية. إن الجماعات التي تنزع إلى العنف أو تميل إلى الارهاب فى الشرق الأوسط تستمد الدعم المالى وشرعيتها الثيولوجية (العقائدية) وقدرتها على الحشد والتجنيد من المؤسسات الإسلامية الأكثر أصولية التي ظهرت خلال العقود الثلاثة الأخيرة فعليا فى كل البلاد الإسلامية. ومثلها مثل الغلاية على الموقد لا يظهر منها سوى القليل من البخار الذى ينساب بهدوء وانتظام إلى الهواء. إن القوة المرتبطة بالإسلام السياسى فى الشرق الأوسط تظل محتقنا بها فى حالة جيشان (قريبة من الغليان) ومن خلالها يتدفق تيار منتظم من الراديكاليين (الأصوليين) الجاهزين للتطرف الذين يجرى على وجه السرعة استيعابهم ضمن إحدى الجماعات الإسلامية المتطرفة. فماذا يمكن للولايات المتحدة أن تفعل لتهدئة الحرارة، لتخفيض درجة الحرارة السياسية الكامنة فى الحركة الإسلامية؟

أولا:- يجب على الولايات المتحدة أن تفعل ما بوسعها لإزالة المآسى التى تدفع المسلمين الغاضبين إلى البحث عن متنفس لهم فى المنظمات المماثلة للإخوان المسلمين. ليست الولايات المتحدة بطبيعة الحال هى السبب فى كل هذه المآسى غير أن تصرفات الولايات المتحدة لا تعمل على تهدئة هذا السخط أو الغضب ولكنها يمكن أن تحل قضية الصراع الإسرائيلى الفلسطينى بأسلوب يضمن العدل للفلسطينيين وإقامة دولتهم المستقلة بحيث تكون قادرة سياسيا واقتصاديا وإن تربط ذلك بانسحاب المستوطنات الإسرائيلية غير الشرعية وإن تعود إسرائيل إلى حدودها التى كانت عليها سنة 1967 وتقسيم القدس بشكل عادل وثابت، هذا الإجراء الذى يجب أن يكون له الأولوية على أى إجراء آخر، سوف يؤدى إلى إزالة الحجة التى يتمنطق بها اليمين الاسلامى فى المجال العلني.

ثانياً:- على الولايات المتحدة أن تكف عن محاولة فرض أفضلياتها على الشرق الأوسط. إن هذا يستدعي سحب القوات الأمريكية من أفغانستان والعراق وتفكيك قواعدها العسكرية في الخليج الفارسي والتسهيلات العسكرية التي تتمتع بها في المملكة العربية السعودية وتقليص وجودها البحري والعسكري وبعثاتها التدريبية العسكرية ومبيعاتها من السلاح بشكل كبير. إن كثيراً من الدبلوماسيين الأمريكيين الذين عملوا في المنطقة يدركون أن التواجد الاستفزازي للولايات المتحدة في الشرق الأوسط قد أشعل الغضب والرفض الجماهيري. إن الولايات المتحدة ليس لها أن تزعم بان لها حقوقاً سواء في الخليج الفارسي أو الشرق الأوسط. وقيادات دول المنطقة فقط هي التي لها الحق في تقرير المستقبل الاقتصادي والعلاقات السياسية، حتى لو أثر ذلك على مصالح الولايات المتحدة.

ثالثاً:- يجب على الولايات المتحدة أن تمتنع عن محاولات فرض أفضلياتها على المنطقة، فمنذ عام 2001 أقدمت الولايات المتحدة على الإضرار بالمنطقة إضراراً لم يكن في الحسبان نتيجة إصرارها على أن " الشرق الأوسط الكبير " أمر يتسق مع وجهة النظر الأمريكية فيما يتعلق بقضية الديمقراطية. يجب أن يتأكد المنظرون الراديكاليون في إدارة بوش أن نداءه من أجل الديمقراطية في العالم العربي وإيران لا ينظر إليها أساساً إلا كذريعة لمزيد من التدخل في شئون المنطقة وحتى إذا اعتبرت هذه المسألة لها قيمتها من الناحية الشكلية فإن هذه المبادرة تتجاهل حقيقة أن أمم الشرق الأوسط يجب أن تجد بنفسها ديمقراطيتها المناسبة لإمكانياتها، وفي الوقت المناسب لها. أما التوجه القهري نحو الإصلاح الديمقراطي في المنطقة فهو بمثابة هزيمة للنفس وسبة موجهة إلى دول وشعوب الشرق الأوسط. وقد تكون بعض هذه الدول جاهزة للإصلاح والبعض الآخر قد لا يكون مهياً له.

إن التغيرات الديمقراطية (المملاة) التي قد تؤدي إلى تمكين اليمين الإسلامي من السلطة وتؤدي إلى أن ينقض الإخوان المسلمون على السلطة في القاهرة ودمشق والرياض والجزائر، لن تؤدي إلى تحقيق الأهداف التي تتطلع إليها الإدارة الأمريكية فسوف تؤدي، وأدت بالفعل إلى وضع المزيد من المناطق في يد الإسلاميين.

يجب أن تتبنى الولايات المتحدة سياسة إبعاد أيديها عن كل ما يتعلق بالديمقراطية في العالم الإسلامي.

رابعاً- على الولايات المتحدة ألا تستجيب لنزعتها بتوجيه التهديدات للأمم الشرق الأوسط بشن الحرب عليها بما فيها دول مثل إيران والسودان باعتبار أنها لا تزال تخضع لسيطرة الحكم الاسلامى. إن الموجة الإسلامية قد لا تكون بلغت بعد أوج صعودها. وهناك أمم أخرى قد يجرفها التيار الذى لم ينحسر بعد لأنه لا يزال يمثل قوة لديها قدرة دفع قد تستمر لعدة عقود. يجب على الولايات المتحدة ان تستوعب حقيقة أن التهديد باستخدام القوة والإملاءات ذات الصدى الإمبريالى تقوى الإسلاميين ولا تضعفهم.

إن الخلاص الحقيقي للشرق الأوسط يستدعى أن تعمل القوى العلمانية فى المنطقة على رفع مستوى الجماهير التى ظفرت بها القوى الإسلامية وتحديث نظرتها، وهو مجهود سوف يستغرق عدة عقود ولكنه يجب أن يبدأ من الآن. ليس هناك فى الإسلام ما يستدعى الانغماس المستمر فى معتقدات القرن السابع (الميلادى) التى ترى أن القرآن يجب أن يتحكم فى عالم السياسة والعلم والثقافة. إنه يعنى تغيير الثقافة التى تمكن الملايين من المسلمين المضللين الذين يعتقدون بأن العودة إلى الأساسيات الأصولية هو الحل المناسب لمواجهة مشاكل وهموم القرن الواحد والعشرين.

إن الأصولية سواء كانت إسلامية أو ظهرت فى شكل ما من أشكال اليمين المسيحي الأمريكى أو الحركة الإسرائيلية الموعظة فى التطرف هى دائماً قوة رجعية. وفى العالم الإسلامى لا يكاد يلحظ أن هناك فصلاً يعتد به بين العلمانيين والمتدينين فعشرات الملايين من المسلمين يستطيعون أن يفصلوا بين معتقداتهم الدينية التى يعتبرونها أمراً خاصاً وآرائهم السياسية، بالضبط كما يفعل ملايين المسلمين والمسيحيين واليهود فى الولايات المتحدة.

إن العبء يقع على هؤلاء الناس من الأغلبية الصامتة الذين يجب عليهم أن يأخذوا زمام المبادرة من الأصوليين. وعليهم أن يطلبوا المساندة من المجتمع المدنى فى الغرب ومن منظماته ومن الجامعات ومراكز الأبحاث العلمية ومؤسسات الفكر وغيرها ويجب أن يجابوا إلى طلبهم.

ينبغى على شعوب الشرق الأوسط أن تأخذ على عاتقها ليس فقط مهام بناء الأمة ولكن أيضاً بناء المؤسسات الدينية. وإذا ما هدأت حدة الجدل السياسى فى الشرق الأوسط فإنه يمكن أن يلتقى سويًا خريجو الدراسات الدينية مع نظرائهم من الفلاسفة وعلماء الاجتماع فى مناظرات كبرى ليفرضوا معاً رؤية مشتركة بشأن التوجهات الإسلامية الحديثة التى تتواءم والقرن الواحد والعشرين، والتى لا يجوز

أن تظل رهينة الرؤى الذاتية للملأى وآيات الله. ويمكن من ثم أن تحظى بالإجماع وان تجد طريقها إلى كل حارة وزقاق أيا كانت درجة انعزالها أو تصدعها بدءا من المدن الكبرى فى اسطنبول والقاهرة وبغداد وكراتشى وجاكرتا ومن ثم تنتشر إلى كل القرى والمساجد. إن هذا يعنى إصلاح النظام التعليمي وبيان مناهج التعليم فى العالم الإسلامى وتجنب التركيز على الجامعات الدينية وما يطلق عليه المدارس الدينية لصالح التعليم الحديث الأمر الذى يستدعى مزيدا من المنافذ الإعلامية الجديدة فى الأماكن التى يمكن أن تزدهر فيها مع الاستعانة بالبث الإذاعي والتليفزيونى باستخدام الأقمار الصناعية والإنترنت بما يضمن الوصول إلى الأماكن التى يتعذر الوصول إليها بالوسائل العادية. إن ذلك سوف يستغرق سنوات طويلة ولا يمكن أن يتحقق دون وضع حد للصراعات المسلحة التى تزلزل المنطقة وما لم تتحسن الأوضاع الاقتصادية وتتقدم باضطراد.

إن عملية بناء العقائد مثلها مثل بناء الأمم يمكن أن يستغرق وقتا.. وقتا طويلا جدا.

*

الفصل الأول

الإسلام الشمولي الإمبريالي

فى سنة 1885- منذ مائة عام - قبل أن يقدم مسئولو إدارة ريجان على مبادرتهم السرية تجاه آية الله الخمينى فى إيران وقبل أن تتفق الولايات المتحدة باليين الدولارات لدعم الجهاد ضد السوفييت فى أفغانستان الذى تصدره المجاهدون الإسلاميون الأصوليون فى ذلك الحين - التقى فى لندن ناشط فارسي أفغانى رحالة مع مسئولين يعملون فى المخابرات ووزارة الخارجية البريطانية، ليجروا معا حوارا فكريا. وتساعل هذا الناشط ما إذا كانت بريطانيا مهتمة بتنظيم تحالف إسلامي شمولي يضم مصر وتركيا وفارس وأفغانستان ضد روسيا القيصرية¹ كان هذا عصر اللعبة الكبرى عصر الصراع الإمبريالي طويل الأمد بين روسيا وبريطانيا من أجل السيطرة على آسيا الوسطى، وكان الإنجليز أصحاب الهند قد بسطوا سيطرتهم على مصر سنة 1881، بينما كانت الإمبراطورية العثمانية التركية التى تضم إضافة إلى الأراضي الأخرى التى تعرف اليوم باسم العراق وسوريا ولبنان والأردن وإسرائيل والعربية السعودية ودويلات الخليج، كانت الإمبراطورية العثمانية فى حالة تفسخ وكانت أجزاء منها على وشك أن تنتزع، وإن كان موعد تقسيم الممتلكات العثمانية التركية قد تأخر حتى قيام الحرب العالمية الأولى حيث كان أكبر اجتياح إمبريالي للأرض فى التاريخ يجرى فى أفريقيا وجنوب شرق آسيا.

لقد برع دهاء السياسة البريطانية فى اللعب على الانتماءات القبلية والإثنية والدينية وتآليب الأقليات ضد بعضها البعض الآخر. ولم يتورع خبراءهم عن استخدام فكرة الأحياء الإسلامى طالما كانت تخدم أهدافهم من أجل تحقيق حلم الإمبراطورية البريطانية العظمى. وبالرغم من أن روسيا وفرنسا كانت لديهما نفس الفكرة إلا أن قصب السبق كان من نصيب بريطانيا بفضل عشرات الملايين من رعاياها المسلمين فى الشرق الأوسط وجنوب آسيا.

1 - س س آلمز الإسلام والحداثة فى مصر (نيويورك ط 1933 ص 10).

كان الرجل الذي اقترح سنة 1885 فكرة أن تتولى بريطانيا قيادة هذا الحلف الإسلامي هو جمال الدين الأفغاني. ومنذ سنة 1870 وحتى سنة 1890 ظفر الأفغاني بدعم المملكة المتحدة، على الأقل وطبقا لما ورد في أحد التقارير وطبقا لوثيقة سرية للمخابرات التابعة للحكومة الهندية عرض الأفغاني رسميا أن يتوجه إلى مصر كعميل للمخابرات البريطانية²

كان الأفغاني مؤسس فكرة الإسلام الشمولي هو الجد الأكبر لأسامة بن لادن ليس بالمعنى البيولوجي ولكن بالمعنى الأيديولوجي (الفكري)* بكل ما تحمله هذه الكلمة من دلالة. وإذا أردنا أن نضع إنجيلا (جينولوجيا) لنتتبع التسلسل الفكري الوراثي للجناح اليميني الإسلامي فإننا سنخرج منه بالقراءة التالية:

الأفغاني 1838-1897 فتلميذه الإمام محمد عبده (1849-1905) وهو ناشط إسلامي شمولي يعتبر التابع الرئيسي للأفغاني وساعد على نشر رسالته ثم تابعه الشيخ محمد رشيد رضا (1865-1935) وهو سوري الأصل أنتقل إلى مصر وأسس مجلة المنار للترويج لأفكار الإمام محمد عبده فيما يتعلق بالنظام الجمهوري الإسلامي ثم تابعه حسن البنا (1906-1949) الذي درس التعاليم الإسلامية على يد الشيخ رشيد رضا وأسس جماعة الإخوان المسلمين في مصر سنة 1928. وعن ألبنا تفرعت روافد عدة منها سعيد رمضان زوج ابنة حسن البنا الذي نظم جماعة الإخوان المسلمين على النطاق العالمي حيث اتخذ من سويسرا مركزا للقيادة، وأبو الأعلى المودودي مؤسس الجماعة الإسلامية في باكستان وهي أول جماعة إسلامية سياسية تلهمها أفكار البنا. وأقام عدد من تلامذة البنا الآخرين فروعا لجماعة الإخوان المسلمين في كل الدول الإسلامية وفي أوروبا والولايات المتحدة. وثمة رافد آخر من روافد البنا وهو سعودي قام بدور بارز في الجهاد الإسلامي الذي نظمته أمريكا وهو أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة وأكثر أعضائها تطرفا.

خلال نصف قرن 1875-1925 دعمت الإمبراطورية البريطانية قواعد بناء اليمين الإسلامي. فالأفغاني أرسى البناء الفكري لحركة الإسلام الشمولي برعاية بريطانيا وبمساعدة ا.ج. براون E.G. Brown المستشرق القيادي البريطاني. وقام الشيخ محمد عبده التابع الأساسي للأفغاني بمساعدة إيفيلين بارنج Evelyn Baring

2- Elie Kedourie, Afghani and Abduh: An Essay on religious Unbelief and Political

Activism in Modern Islam (New York: The Humanities Press, 1966),p. 30

* ينظر مقدمة المترجم فيما يتعلق بالأفغاني ، كذلك ينظر مقدمة المؤلف نفسه حيث يشير الى أن " الاتجاهات الرجعية الموجودة في الإسلام تعود الى 13 قرنا مضت ، فمنذ البدايات الاولى للإسلام دخلت الاتجاهات الظلامية واللاعقلانية والنصوصية في منافسة مع الاتجاهات الأكثر استنارة ... " المترجم

Lord Cromer المقرب من القنصل المصري فى لندن بتأسيس الحركة السلفية، وهى حركة يمينية أصولية تمثل التيار المطالب بالعودة إلى الأصالة السلفية وهى ما تزال قائمة حتى اليوم. ومن أجل معرفة الدور الحقيقي الذى لعبه كل من الأفغانى ومحمد عبده فمن الضروري النظر إليهما باعتبارهما ثمرة تجارب لجهود بريطانية استمرت على مدى قرن لتنظيم حركة إسلامية شمولية موالية لبريطانيا. كان الأفغانى مقامرا وحليفا مراوغا زلقا يسوق خدماته للقوى الإمبريالية الأخرى. وأخيرا فإن الصيغة المتسمة بالغموض وشبه الحديثة التى وضعها الأفغانى للأصولية الإسلامية قد فشلت فى أن تصل إلى مستوى الحركة الجماهيرية، ولكن تلميذه الرئيسى الشيخ محمد عبده أستطاع أن يكون أكثر ارتباطا بحكام مصر البريطانيين وأن يضع القواعد الأساسية للإخوان المسلمين التى عمت اليمين الإسلامى خلال القرن العشرين. وساند البريطانيون الشيخ محمد عبده حتى أثناء انشغالهم بمشروعاتهم سابقين على الحرب العالمية الأولى لاستثمار الحماس الإسلامى لصالحهم. ففي شبه الجزيرة العربية ساعد البريطانيون عصابة من العرب الموغلين فى التعصب تقودها عائلة ابن سعود على إنشاء أول دولة عربية إسلامية أصولية فى العربية السعودية. وفى نفس الوقت شجعوا الهاشميين فى مكة وهم عائلة عربية أخرى تدعى بأنها السليل الأصيل لنبي الإسلام محمد وزرعوا أثنين من أبنائها ملكين أحدهما فى العراق والآخر فى الأردن.

وكان من المفترض طبقا للقواعد التى تعتبر أن العائلة الهاشمية هى راعية المدينتين العربيتين المقدستين مكة والمدينة، أن تكون هى الأحق بقيادة العالم الإسلامى بأجمعه طبقا لفكرة تشكيل خلافة إسلامية موالية لبريطانيا لتحل محل الخلافة الآيلة للسقوط فى تركيا، إلا أن هذا المخطط لم يتم تنفيذه واقعا بشكل كامل وإنما حل محله مخطط موازى.

منذ عشرينيات القرن العشرين فصاعدا ظهرت الدولة السعودية التى امتزجت أصوليتها الوهابية بالسلفية وتتنظم الآن فى أخوة إسلامية، وأصبحت الثورة الإسلامية وشيكة.

كان الأفغانى على أى حال هو الذى بدأها جميعا، ومثله مثل سائر خلفائه وجد الأفغانى قضية مشتركة مع القوى الإمبريالية المتصارعة على النفوذ فى أنحاء المنطقة الواسعة الكائنة بين شرق إفريقيا والصين.

لسنوات عديدة بعد وفاته صورته عدد كبير، ولكن ليس كل مؤرخى حياته ومتابعيها، صوروه بوصفه مؤمنا وداعية صلبا للصحة الإسلامية ومعاديا

للإمبريالية ومناهضا هادرا ضد القوى الكبرى ومصلحا لبراليا (متحررا) يحاول أن يهذب إسلام العصور الوسطى بالعقلانية العلمية المستتيرة. وبينما كانت بعض العناصر من هذه الصفات لصيقة بمهنة الأفغانى إلا إنه فوق أي اعتبار آخر كان ساحرا سياسيا يستخدم العقيدة لصالح أهداف مؤقتة. وفى ذات الوقت كان حليفا، تابعا، وأداة فى يد القوى الإمبريالية. وبالرغم من أنه لم يضيع أي فرصة ليقدم خدماته بالتتابع للبريطانيين ثم الفرنسيين فالروس وكان عميلا لثلاثتهم جميعا، فإن أتباعه وخاصة الشيخ محمد عبده ازدادوا تقربا من البريطانيين.

إن جمال الدين الأفغانى المولود سنة 1838م ولد فيما يبدو فى بلاد فارس، ولكنه اتخذ لنفسه لقب "الأفغانى" ليعطى الانطباع بأنه ولد فى أفغانستان لعله باتخاذ أصلا أفغانيا يتمكن من إخفاء هويته باعتباره فارسيا أو شيعيا حيث الشيعة هى الفرع الأصغر من الإسلام ومن ثم يمكن أن يحظى بقبول أكثر فى معظم البلاد الإسلامية السنية وكانت كذبه فيما يتعلق بمحل ميلاده هى المحاولة الأولى. وطبقا لما ذكره "إيلى قدوري" وهو أحد المستشرقين البريطانيين القيايين فإن تابعي الأفغانى (بمن فيهم محمد عبده ورشيد رضا) قد "مارسوا لعبة إجتراء الحقيقة"³ فطوال حياته كان الأفغانى مرائيا، وبالرغم من أنه كان بحق موضع تقدير لأنه طور الأساس النظري للحركة الإسلامية السياسية والاجتماعية الشمولية التى تحتوى العالم الإسلامى بكامله فإنه كان مفكرا هرطقيا وكان ماسونيا حرا، روحانيا وناشطا سياسيا وفوق كل اعتبار آخر، على نحو ما كتب قدوري يؤمن "بالفائدة الاجتماعية للدين"⁴ كان الأفغانى ينظر إلى الدين بوصفه أداة. فى الظاهر كان الأفغانى يبدو تقيا يبني خطة مفصلة لسياسة محكومة بعاملين؛ نصوص القرن السابع (الميلادي) للمجتمع الإسلامى البسيط فى مكة خلال عصر الرسول، غير أنه - فى كتاباته الموجهة للخاصة من الناس - كان أكثر وضوحا فيما يتعلق بمعتقداته: "إننا لا نجث رأس العقيدة إلا بسيف العقيدة. ومن ثم فإذا قدر لك أن ترانا الآن فإنك لن ترى سوى الزاهدين العابدين الراكعين الساجدين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون."⁵

3- قدوري ص 6

4- المرجع السابق ص 13

5- مقتبس من قدوري ص 6

ويلاحظ قدوري أن هذا الخطاب يوضح بشكل مطلق أن أحد أهداف الأفغانى التى يعرفها ويوافق عليها تلميذه محمد عبده هى سيادة العقيدة الإسلامية وأن أسلوب تحقيق هذه الغاية يقتضى الممارسة الكاذبة ولكن المظهرية للعقيدة⁶

وفى الحقيقة بالرغم من أن الأفغانى يدعو الجماهير إلى الأصولية الإسلامية، فإنه كان فى السر ملحدًا ينتقد ليس فقط الإسلام ولكن كل العقائد الأخرى، فى مخاطبته لكل مستمعيه من الجماعات الخاصة الضيقة الأخرى.

كتب الأفغانى يقول: "أن الأديان أيا كانت مسمياتها - تشبه كل منها الأخرى وليس ثمة إمكانية للتفاهم أو المصالحة بينها وبين الفلسفة - فالدين يفرض على كل إنسان الإيمان به ويفرض عقيدته. بينما الفلسفة تحرره منها كلياً أو جزئياً - ويختتم الأفغانى كلامه قائلاً:

"لكن العقل لا يريح الجماهير كما أن تعاليمه لا تدركها سوى القلة من النفوس المختارة"⁷ ان ألمعية هذه الفقرة هى مكون أساسى من مكونات شخصية الأفغانى المبهمة - فطوال حياته كان للأفغانى رسالة واحدة للجماهير ورسالة أخرى للنفوس المختارة: للجماهير الإسلام الشمولى، وللصفوة نوع خاص من الفلسفة الانتقائية - وكان يتمنطق بمعاداة الإمبريالية حيثما وجد ذلك متفقاً وأهدافه، ولكنه كان وكل هؤلاء الذين يشكلون حركته الداخلية ينشغلون فى تحالف تأمرى مع نفس هؤلاء الإمبرياليين.

ومع ذلك فإن الكثير من المؤرخين يأخذون من قصة الأفغانى وجهها المضى، وجه الناشط الإسلامى الذى ساعد على إنشاء حركة من شأنها أن تستعيد للإسلام ماضيه المجيد، ان تستعيد فطرته الأولى، الأيام الذهبية لحكم الرسول فى مكة والمدينة.

ويعتبره آخرون أكثر معقولة محارباً جسوراً ضد الامبريالية ومصلحاً يحاول أن يجلب الاستنارة والعقلانية بإسلام يحد منه وتشوّهه تقاليد ثقافية تحكم فيها رجال دين متحجرون. وللأسف فقد روج لهذه الرؤية عدد من قادة المستشرقين الأنجلو أمريكيان، على سبيل المثال كتب ه. جب H. A.R.Gibb صاحب المؤلف الكلاسيكى "الاتجاهات الحديثة فى الإسلام" Modern Trends in Islam سنة 1947 كتب يقول:

6- المرجع السابق

7- وجهات نظر الأفغانى عن الدين مقتبسة من قدوري ص 44

"أن الأفغانى كان يؤمن بدولة تحكمها الأصولية القرآنية السليمة" ⁸ ممزوجة بالفهم العصري. بينما يذكر "ولفريد كانتول سميث" أن الأفغانى: هو المسلم الحقيقي المعبر عن عصره وفى مؤلفه ذائع الصيت (الإسلام فى التاريخ المعاصر) Islam in Modern History يكتب سميث مبهوراً بمعاداة الأفغانى المزعومة للإمبريالية قائلاً: "كان الأفغانى يرى أن الغرب جدير بأن يناهض لأنه يهدد الإسلام والمجتمع، وكان يناشد مستمعيه من المسلمين بحماس أن يعملوا على تنمية العقلانية والتكنولوجيا كما يفعل الغرب حتى يصبحوا أقوياء..... ولاشك أن هذه المناشدة من جانب رجل بعيد عن تحمل المسؤولية إلى آخر يتحمل مسؤولية ما يصدره من قرارات، كان ينفذ بطريقة تكاد تكون خالية من أية ضغوط أو حماس ديناميكي) ⁹.

كتب سميث مبدياً إعجابه بالأفغانى قائلاً:

"من الناحية الجغرافية شملت مهمته إيران والهند والعالم العربى وتركيا وكذلك أوربا الغربية - كان صوفياً وسنياً فى آن واحد - وكان داعية للمصالحة مع الشاه. واستطاع الجمع بين التعاليم الإسلامية التقليدية والألفة مع أوربا الغربية ومعرفة فكرها الحديث.... وكان ملهماً للثوريين السياسيين والعلماء الأجلاء ودافع عن القضايا الوطنية المحلية والإسلامية الشمولية وأستطاع أن يحقق قدراً كبيراً من التطور اللاحق للشئون الإسلامية. وفى الواقع فإنه بفضل شخصيته ومهنته فليس هناك سوى القليل مما تحقق للإسلام فى القرن العشرين لم تغطه مسبقاً شخصية الأفغانى ¹⁰.

كان سميث محقاً فيما أضافه من أن الأفغانى " أول دعاة الإحياء الإسلامى الذين لاحظوا ظاهرة التناقضات التاريخية بين الإسلام والغرب " ¹¹ وهو ما يجعل من الأفغانى صاحب نظرية تصادم الحضارات التى شاعت بعد قرن على يد برنارد لويس Bernard Lewis وصامويل هنتجتون Samuel Huntington، وسواء كان الأفغانى ديناميكياً لا يمكن قهره حسبما قدر سميث أو مجرد إنتهازى فليس من شك فى الدور الذى لعبه كعراب للإخوان المسلمين والتنظيمات المشابهة فى اليمين

8- مقتبس من قدوري ص 4 وعلق قدوري على وجهة نظر جب ساخرا بقوله "مما لا شك فيه أن الأفغانى سوف يكون شاكراً إذ يرى أنه بعد مضى نصف قرن على وفاته - أن تكون إدعاءاته فيما يتعلق بالأصولية القرآنية السليمة لا تزال مقبولة بلا جدال

9- ولفريد كانتويل سميث الإسلام فى التاريخ الحديث نيويورك 1957 ص 54

10- سميث ص 56، 57

11- المرجع السابق ص 55

الإسلامي. ومما لا شك فيه أن مناضلي الإخوان المسلمين المخلصين سوف يصدّمون عندما يعلمون أن ملهمهم الأسبق جمال الدين الأفغانى كان ملحدًا وكان من الماسونيين الأحرار* ومع ذلك فإن كتاب ريتشارد ميتشل Ritchard P. Mitchell عن "جمعية الإخوان المسلمين" يعتبر مرجعاً حاسماً فيما يتعلق بهذا التنظيم. يلاحظ أن شجرة النسب الخاصة بمناضلي هذا التنظيم وإرهابييه الذى بلغ القمة فى مصر بعد الحرب العالمية الثانية تعود جذورها بشكل مباشر إلى الأفغانى.

لقد حدد الإخوان بوضوح وضع حركتهم على خط الحركة الإصلاحية التى وضعها ورعاها كل من جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ورشيد رضا. وكتب ميتشل أن "الإخوان يحسون تجاه الأفغانى بحميمة خاصة ويشعر الكثير منهم أن الأفغانى هو - الأب الروحي لحركتهم - وكان حسن البناء يقارن به فى معظم الأحوال"¹²

الأفغانى وتابعوه

بدأت حياة الأفغانى العامة سنة 1869 حينما غادر أفغانستان، ولم يعرف عن حياته قبل ذلك سوى الشيء القليل. وقد أعلن الأفغانى أنه خاض معمعة العمل السياسى فى أفغانستان فى ستينيات القرن التاسع عشر. وحسبما ذكر أحد العلماء القياديين قام بذلك خلال الفترة التى كان فيها عميلاً لروسيا¹³، غير أن تأثيره الذى استمر بعد ذلك بدأ فقط منذ سنة 1869 حينما أخذ على عاتقه سلسلة من المهام التى استمرت لمدة ربع قرن من المعاناة. وكانت باختصار مهاماً تصيب بالدوار. فقد توجه أولاً إلى الهند حيث رحبت سلطات الاحتلال البريطانى بالداعية الإسلامى واستقبلته باحترام واستضافته على متن سفينة حربية تملكها الحكومة مع تحمل كافة نفقات الرحلة حتى السويس. وبعد زيارته للقاهرة توجه إلى تركيا حيث تسببت معتقداته الدينية غير الأصولية فى غضب عارم فى أوساط المؤسسة الدينية مما دفع الحكومة التركية إلى طرده غير مأسوف عليه. ولدى عودته إلى القاهرة تبنى رياض باشا رئيس الوزراء المصرى هذه الزيارة فى مواجهة حركة رجعية عدائية

* ينظر أحمد شفيق باشا "مذكراتى فى نصف قرن" ج 1 ص 108-110 - المترجم

12- جمعية الإخوان المسلمين لندن مطبعة جامعة أكسفورد سنة 1969 ريتشارد ميتشل

13- Nikki Keddie - الأفغانى فى أفغانستان 40 (1), Middle Eastern Studies

تقودها الحركة الوطنية الناشئة في مصر، مما دفع رياض باشا إلى تشجيع الأفغانى وحثه على الإقامة في مصر وسمح له بالإقامة في الجامع الأزهر العتيق بالقاهرة وهو يعتبر مركز التعليم الدينى الإسلامى حيث منح الإقامة فضلا عن جعل حكومى شهرى. وكانت هذه أول وظيفة رسمية يحصل عليها الأفغانى كداعية إسلامى - كانت أول ولكنها ليست آخر مرة يدرج فيها اسمه فى كشف عطايا إحدى القوى الإمبريالية أو إحدى البلاد التابعة لها. وأمضى الأفغانى ثماني سنوات فى معمعة السياسة المصرية وحتى عشية القصف المدفعى البريطانى لمدينة الإسكندرية والاحتلال البريطانى لمصر. وهكذا بدءاً من الترحيب الذى لقيه فى الهند على يد بريطانيا ثم نقله إلى مصر بواسطة الحكومة البريطانية إلى رعايته من قبل عملاء بريطانيا فى مصر، وضع الأفغانى بصبر حجر الأساس للإسلام الشمولى. غير أن تقلبات السياسة المصرية التابعة لم تكن رحيمة به باستمرار. فقد اكتسبت الحركة الوطنية فى مصر زخماً (ما لبث أن سحق بواسطة البريطانيين) وتقلص تأثير الأفغانى. وفى سنة 1879 طرد من مصر بادئاً رحلة أخذته إلى الهند فلندن فباريس (حيث مكث ثلاث سنوات) ثم روسيا (حيث قضى أربع سنوات) ثم ميونخ فايران. فى إيران عينه الشاه وزيراً للحرب فرئيساً للوزراء. ولكن سرعان ما افترق الأفغانى والشاه، فقد أخذ الأفغانى يقوم بالتحريض ضد الملكية الفارسية سابقاً بذلك ثورة آية الله الخمينى.

فى سبعينيات القرن التاسع عشر لجأ الأفغانى إلى المسجد وأخذ ينظم رجال الدين لمساندته، حتى تم القبض عليه ورحل إلى تركيا. وفى سنة 1896م قام أتباعه باغتيال الشاه لينهوا بذلك خمسين عاماً من حكمه. وتوفى الأفغانى سنة 1897م.

كانت نشاطات الأفغانى السرية هى التى تدفع به بعيداً. ففي سبعينيات القرن التاسع عشر أثناء وجوده فى مصر عندما كان يمتحن التدريس دأب الأفغانى على ارتياد المجتمعات الماسونية الأنجلو مصرية والفرنسية المصرية ولكنه كان يلتزم السرية بما فى ذلك انتماءه للصوفية. وعند طرده من مصر ذكر القنصل البريطانى فى مصر فى أحد التقارير المخبراتية أن الأفغانى طرد حديثاً من جماعة "الماسونيين الأحرار" فى مصر المسماة "المحفل الاسكتلندى العام" General Scotch Lodge التى كان ينتسب إليها بسبب عدم إيمانه "بالكائن الأعظم". وطبقاً لما ذكره قدورى كان الأفغانى عضواً فى الجماعة العامة للماسونيين الاسكتلنديين الأحرار¹⁴ التى كانت تنتظم حول الأسرار المدعاة للأهرامات المصرية وما يطلق عليه "

المهندس الأعظم "وهى وجهة نظر الماسونيين الأحرار بشأن الإله وفى حقيقة الأمر فإن كثيرا من الموظفين البريطانيين والفرنسيين فى مصر فى القرن التاسع عشر كانوا مفتونين وأسرى فكرة "سحر الشرق" والأهرامات والعقيدة الماسونية ونواح معينة من السرية التى تغلف فكرة الأخوة واستخدموا العديد من هذه الأشكال من الأخوة كقنوات متنافسة للقوى الإمبريالية.

وحدث فى أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر أن التقى الأفغانى ذلك الرجل الذى سيغدو أهم تلاميذه وهو محمد عبده. وبوصفه شخصية راسخة من شخصيات الأزهر، جامع القاهرة التاريخي، جمع الأفغانى حوله مجموعة من معاونين. ولم يكن هناك من هو أكثر قربا منه شخصا سوى محمد عبده. وقد ولد محمد عبده فى القاهرة سنة 1849م لعائلة تضم علماء مخلصين للإسلام. وحفظ القرآن فى سن العاشرة وكان قادرا على قراءته طبقا للقراءة المعروفة التى يقرؤها بها الكبار وبنفس طريقتهم الروحانية. كانت الطريقة الصوفية كتيار وسطى قديم فى الإسلام تتناقش العديد من التيارات الوسطية الأخرى فى نظرتها إلى "وحدانية الله" وأفرزت الحركة "طرقا" أو "أخوانيات" أخرى تشكل بعضها كمجتمعات سرية مغلقة بينما تشكل البعض الآخر كحركات وراثية تاريخية تنتشر فوق مناطق جغرافية شاسعة. وافتتن محمد عبده فى التو واللحظة بالأفغانى وارتبطا معا. وطبقا لقدورى الذى أرخ للأفغانى ومحمد عبده: "عندما التقى محمد عبده بالأفغانى. كان فى حوالى الثانية والعشرين شابا متحمسا يمر بمرحلة حرجة من مراحل حياته الروحية الأمر الذى جعله قابلا للتأثر. ولكن مما لا شك فيه أن الأفغانى كان يتمتع بشخصية قوية جذابة تمكنه من أن يكون له مثل هذا التأثير الفكرى العجيب الذى امتد لسنوات طويلة بعد ذلك. وكانت الرابطة التى تجمع بينهما أشبه ما تكون بعقيدة خفية تربط بين الأستاذ وتلميذه بشكل سرى." ¹⁵

عمل الرجلان معا لمدة ثمان سنوات 1871م/1879م ولم يقوما بعملية التنظيم فى مصر فحسب ولكن فى المنطقة بأسرها. وأنشأ مجموعات مختلفة من الأتباع ضم بعضها مجموعة من المسيحيين الذين يمارسون طقوسا سرية من سوريا جذبتهم إلى الأفغانى رسالته المنادية باستعادة الماضى، وأسس جمعية الشبيبة المصرية السورية. وشيئا فشيئا تمكن من حشد حلقة من المريدين المخلصين حول الأزهر. سنة 1878م قام رياض باشا رئيس الوزراء وحامى الأفغانى بتعديل فى سياسته واختار محمد عبده لوظيفة ممتازة كمدرس للتاريخ فى دار العلوم - وهى مدرسة

إسلامية أنشئت حديثاً - وأستاذاً للغة والأدب في منشأة أخرى. وبخروج رياض باشا من السلطة غادر الأفغانى ومحمد عبده مصر حيث أخذ الوطنيون فى الجيش زمام المبادرة فى القاهرة بقيادة البطل المصرى الشهير أحمد عرابي وهو ضابط فى الجيش برتبة قائم مقام "عقيد"، وكان وزيراً للحربية عندما قام بثورة ضد الحكم البريطانى فى مصر غير أن ثورة عرابي سحقت وأكمل البريطانيون احتلالهم لمصر ونفى عرابي لجزيرة سيشل "سيلان". كان محمد عبده يعارض المقاومة المسلحة لبريطانيا واقترح التوصل إلى حل وسط وأدان استخدام القوة وحاول التوصل إلى حل وسط بين الوطنيين المتطرفين فى الجيش وخطط لندن الإمبريالية. يلخص رشيد رضا المؤرخ والمساعد الرئيسى لمحمد عبده، يلخص ذلك بقوله أنه (أي محمد عبده) "كان معارضا للثورة العسكرية بالرغم من أنه كان القوة الروحية الموحية للحركة الثقافية. كان يكره الثورة وكان معارضاً لقادتها"¹⁶

كان هذا نموذجاً يحبب إستراتيجيى الإمبريالية الغربية فى الجناح اليميني الإسلامى خلال العقود التالية. كانت معارضة الأفغانى ومحمد عبده للوطنية المصرية ومساندتهما للمفهوم الضبابى للدولة الإسلامية، نذيراً بما سيؤول إليه أمر الإخوان المسلمين فى معارضتهم للرئيس جمال عبد الناصر فى خمسينات القرن العشرين، وهو ما فعلته حماس (المقاومة التابعة للإخوان المسلمين) فى فلسطين بالنسبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، فضلاً عن الأمثلة الأخرى حيث عارض الإسلاميون القضية الوطنية والحركات اليسارية خلال الحرب الباردة.

لم يحصر الأفغانى ومحمد عبده نفسيهما فقط فى التنظير الفكرى للدراسات الإسلامية، فحينما طرد الأفغانى بصفة نهائية من مصر، اتهم ومحمد عبده بتنظيم "جمعية اسلامية من (الشباب وقطاع الطرق)" وهو تعبير قصد به مجموعة من أعضاء المحفل الماسونى الذين يصعب السيطرة عليهم كان يقودهم الأفغانى"¹⁷ وكانوا بمثابة النذير للتنظيم شبه العسكرية الذى شكله الإخوان فيما بعد فى ثلاثينات القرن العشرين. ولدى مغادرة مصر عمّد الأفغانى الشيخ محمد عبده ليكون الخلف المناسب له قائلاً: "اننى اترك فيكم الشيخ محمد عبده وكفى به عالماً لمصر"¹⁸. نفى محمد عبده مؤقتاً الى قريته فى مصر، ومع ذلك فقد التحق بالأفغانى

16- أدمز ص 54

17- المرجع السابق ص ص 30-31

18- أدمز ص 18

فى باريس ثم عاد الى مصر ظافرا بالمساندة الكاملة من جانب ممثلى صاحبة
الجلالة مسئولى الإمبراطورية فى مصر.

لدى مغادرته مصر سنة 1879 توجه الافغانى الى العربية السعودية ثم الى
الهند ليغادرها الى باريس ليلحق بمحمد عبده حيث تعاون الرجلان فى اكثر أعمالهما
فعالية فى باريس فقاما سنة 1880 بإنشاء سلسلة من الأعمال التى قدر لها ان تستمر
حتى بعد وفاتهما. وفى سنة 1884 بدأ الرجلان ينشران مجلة أسبوعية أطلقا عليها "
العروة الوثقى". وبرغم أنه لم يصدر منها إلا 18 عددا فقد كان لها تأثير كبير
وغير واضح بعد كيف كانت تمول وان كان قدوري يرى أنها كانت تدعم سرا من
قبل الحكومة الفرنسية التى تحول إليها الافغانى بعد رفض عرضه السابق فى
الهند¹⁹ بالعمل لحساب بريطانيا. ويرى س.س.س. آدمز C.C.Adams الذى كتب سنة
1933 اشمل موسوعة لتاريخ حياة الافغانى، يرى ان "العروة الوثقى" كانت أداة
لتنظيم سرى بنفس الاسم أسسه الافغانى من مسلمين فى الهند وشمال إفريقيا
وسوريا يهدف الى "وحدة المسلمين وإيقاظهم وتعريفهم بالأخطار التى تواجههم
ويقودهم الى طريق مواجهة هذه الأخطار"²⁰

ونظم الافغانى كذلك جمعية اسلامية شمولية فى مكة تهدف الى إيجاد خليفة
واحد يقود العالم الاسلامى كله، ومن غير الواضح هل كان الافغانى ومحمد عبده
يقومان بذلك بمبادرة منهما فى ذلك الوقت أم - وهو الأرجح - بالتعاون مع لندن او
باريس، إلا ان الحكومة الفرنسية على أية حال قامت بإيقاف مجلة العروة الوثقى.

توجه الافغانى ومحمد عبده الى لندن بزعم مناقشة الأزمة فى السودان حيث
اقترحا فكرة إقامة حلف اسلامى شامل مع بريطانيا العظمى. وقدم هذا الاقتراح فى
غمرة تمرد قبلى دينى تقوده شخصية كاريزمية يدعى محمد احمد وهو شيخ سودانى
ادعى انه المهدي المنتظر او المنقذ وقاد تمردا إسلاميا متشددا. ونشب صراع بين
اتجاهين إسلاميين يقود المهدي احدهما وهو تمرد يتسم بالوحشية حيث كانت
المشاعر الوطنية تتخفى جزئيا فى لغة دينية، والاتجاه الآخر وهو اتجاه افغانى
موالى للبريطانيين، نزعتة الإسلامية ترى فى المهدي شخصا بدائيا فظا. فى سنة
1885 استطاعت قوات المهدي التى تطلق على نفسها "أنصار النبي" ان تلحق

19 - المرجع السابق ص 39 -يقول قدوري: "من الوارد طبقا لاي تقدير الافتراض بأنه إذا كان قد
عرض تقديم خدماته على البريطانيين، ان يقدمها مرة اخرى الى الفرنسيين". وعلى اى الأحوال فان
فرنسا سمحت بالعروة الوثقى بينما حظرتها بريطانيا ومصر والهند.

20 -أدامز-ص ص9 و5

الهزيمة بالجنرال البريطاني الشهير شارلس غوردون وان تقتله وتحتل الخرطوم. وحاول الافغانى ان يستعيد مصداقيته كداعية اسلامى شمولي بإبداء استعداده شفاهة ان يقدم خدماته للمهدي وفى نفس الوقت يستمر فى جني الثمار من رعايته البريطانيين، معارضا من خلف الستار الثورة السودانية قائلا: "اننى اخشى مثلي مثل سائر العقلاء ان يؤدى انتشار هذه النظرية (المهدية) وزيادة عدد مؤيديها الى الإضرار ببريطانيا وبكل من له مصالح فى مصر". ويكتب الافغانى فى مقال منفصل بعنوان: "انجلترا على شواطئ البحر الأحمر" فيجادل بان المهدي استطاع ان يحظى بتأييد "ذوى العقول البسيطة". ويقترح فى مقال آخر ان تقابل ثورة المهدي فقط بتحدي معارض يستخدم الإسلام فى تنظيم مبادئه، ويكتب قائلا: "ان قوة الدعوة الإسلامية لا يمكن ان تقابل إلا بقرار اسلامى وليس من احد بقادر ان يناضل ضد هذا الدعي ويضعه فى حجمه المناسب إلا رجالا مسلمين"²¹.

بتعبير آخر فان الافغانى يدعو الى محاربة النار بالنار اي الإسلام بالإسلام". غير انه من الواضح ان البريطانيين لم يأخذوا باقتراحه هذا وقابلوه بالرفض، الامر الذى أغضبه، ولكن محمد عبده بقي على ولائه للبريطانيين. ومضيا كل فى طريقه منعزلا عن الآخر، الافغانى ولى وجهه شطر روسيا بينما ارتحل محمد عبده الى تونس فى شمال إفريقيا. ومن هناك توجه محمد عبده "خفية الى عدد مسن البلدان الأخرى عاملا على تقوية التنظيم الاجتماعى الذى سبق لهما إنشاؤه"²². على الأقل كانت رسالتهم الى الجماهير هى احدي رسائل الإسلام الشمولي فى أنقى صورته:

"ان عقيدة الإسلام هى الميثاق الوحيد الذى يمكن ان يوحد مسلمى جميع البلدان وان يمحو كل آثار التمييز العرقي (الجنسي) او المواطنة.... ان الشعوب الإسلامية كانت ذات يوم موحدة فى إمبراطورية عظمى وكانت منجزاتها فى التعليم والفلسفة وكافة العلوم وما زالت مفخرة لكل المسلمين. انه فرض عين على كل المسلمين ان يساعدوا فى استعادة نفوذ الإسلام والحكم الاسلامى لكل البلاد التى كانت يوما ما اسلامية. ان العلاج الوحيد لكل هذه الأمم هو العودة الى أحكام عقيدتهم وممارسة متطلباتها على النحو الذى كانت عليه فى البداية أيام الخلفاء الأوائل.... والقرآن هو السلطة العليا التى تعلوهم جميعا"²³

21 - آمز ص 9 ،

22 - قدورى ص 54

23 - المرجع السابق ص 58

هذا الكلام يبدو اليوم نموذجاً للوعاء الاسلامى الذى يغترف منه ويؤخذ من مطبوعات الإخوان المسلمين او رسائل القاعدة، ولكنه فى ثمانينات القرن التاسع عشر كان يمثل فكراً جديداً - فكراً ثورياً. فلعدة قرون خلت لم يسمع المسلمون مثل هذا التحدي من اجل تجديد مجتمعاتهم على النمط الذى كان سائداً خلال حكم الخلفاء الأوائل. ان هذه الدعوة الى امتشاق الحسام التى نشرت فى العروة الوثقى من اجل ان يهب المسلمون لاستعادة الحكم الاسلامى " لكل الأراضى التى كانت يوماً ما اسلامية " تقرأ كما لو أنها دعوة جهادية لاستعادة أجزاء من اسبانيا وأوروبا الوسطى وكل البلاد التى وقعت تحت سيطرة المسيحية أو غيرها من الأديان". كانت هذه الرسالة تمثل تحدياً من شأن ما تعد به ان يأخذ بالباب لورنس ومخابراته البريطانية المحتشدين فى المكتب العربى بالقاهرة خلال الحرب العالمية الاولى، حينما أخذت لندن باقتراح الافغانى ومحمد عبده بعد وفاتهما لحشد المسلمين من اجل خلافة اسلامية جديدة يمكن ان تقوض فى الحال أركان الامبرطورية التركية المتداعية وتهدد روسيا.

كان محمد عبده قد عاد لتوه متخفياً الى مصر بعد إحدى جولاته فى ثمانينات القرن التاسع عشر وشاهد البريطانيين يبعثرون الوطنيين المصريين. وفى أواخر ثمانينات القرن التاسع عشر القي محمد عبده بثقله، علنا الى جانب اللورد كرومر والإدارة البريطانية فى مصر. وفى سنة 1888 وبمساعدة كرومر عاد محمد عبده علنا الى مصر وحصل على أول وظيفة من الوظائف العديدة التى تولاهها فى القاهرة. ومثله مثل الافغانى تحدث محمد عبده بهدوء عن الوظيفة الاجتماعية للدين.²⁴

ويحلل قدورى مجموعة محاضرات محمد عبده فى بيروت التى نشرت بوصفها " رسالة" ويختتم تحليلاته قائلاً: " من الواضح ان.... الرجل الذى يبدو غامضاً حالياً وقديساً فى الظاهر كان فى السر مفكراً حراً مثل أستاذه".

عندما عاد محمد عبده الى القاهرة دخل فى شراكة مع اللورد كرومر ممثل الامبريالية البريطانية فى مصر. كان كرومر الذى ولد باسم ايفلين بارنج Evelyn Baring سليلاً لعائلة بارنج البالغة القوة فى مجال الأعمال البنكية فى مدينة لندن، وكان يعمل فى سبعينات القرن التاسع عشر بوصفه المفوض البريطانى الأول فى مكتب صندوق الدين المصرى منسقا عاماً لهذا الصندوق. وبعد ان سحقت بريطانيا

الثورة العراقية عاد يارنج الى مصر سنة 1883 وكيلا لبريطانيا وقنصلا عاما لها وعمل حاكما فعليا لمصر حتى 1907. وأصبح كرومر ومحمد عبده أصدقاء وأهلا لثقة بعضهما البعض، المناضل الإسلامي من جانب والارستقراطي البريطاني احد بناء الإمبراطورية من جانب آخر. وأصبح كرومر راعيا لمحمد عبده وبمساعدة كرومر اختير محمد عبده لبيت رأس لجنة إعادة تنظيم الأزهر ويصبح رئيسا لتحرير "الجريدة الرسمية" وليقع عليه الاختيار في المجلس التشريعي المصري حيث أصبح العضو القيادي الذي يؤخذ رأيه في كل قضية ويستمع إليه باحترام وتولى رئاسة أكثر لجانه أهمية²⁵

وأخيرا بعد سنتين من وفاة الافغانى عين محمد عبده مفتيا لمصر سنة 1889. وبوصفه المفتى أصبح محمد عبده المفسر الأعظم للقانون الإسلامي (الشريعة) لكافة أنحاء البلاد وأصبحت فتاويه أو آراؤه القانونية التى تمس كل شيء يحول إليه، ملزمة ونهائية²⁶، وأعطاه ذلك أيضا سلطة شرعية هامة حيث ساعد في الإشراف على الأوقاف الدينية الغنية.

وبينما كان نفوذ محمد عبده فى مصر يزداد قوة كان الافغانى يقضى بضعة سنوات فى روسيا حيث توجه الى هناك غاضبا بعد ان رفضت لندن عرضه المساعدة فى بناء تحالف اسلامى شامل. وطبقا لقدورى كان الافغانى - على الاقل لبعض الوقت - "زبونا ومن ثم عميلا لروسيا"²⁷

وحسبما أشارت التقارير حاول ان يبيع لروسيا فكرة انه قادر على مساعدتها فى إشعال شرارة الثورة فى الهند، قلب الإمبراطورية البريطانية. و"طبقا لأحد تقارير المخابرات البريطانية سنة 1888 " استطاع الافغانى ان يؤثر على بعض المسئولين الروس ويقنعهم بإمكان قيام هبة عامة فى الهند حالما يعطى الروس الإشارة."²⁸ ولكن يبدو ان الروس لم يشتروا ما حاول الافغانى بيعه لهم وسرعان ما عاد الى لندن.

كانت اتصالات الافغانى فى لندن متنوعة، فقد انخرط فى عالم يضم خليطا من المفكرين الأحرار والماسون والروحانيين والشخصيات الغامضة والصوفيين

25- قدورى ص 14

26 - آدمز ص 83

27 - المرجع السابق ص 79

28 - اقتباس من قدورى ص 56

وآخرين من أصحاب العقيدة التجريبية واللاهوتية كما يزدان بالكتاب والرحالة والمستشرقين المبهورين بما يطلق عليه الشرق الأدنى. كانت أيام جموح وكانت لندن في نهاية القرن التاسع عشر مثل إناء هائل يغلي بالنشاط العقائدي. كان العديد من المثقفين البريطانيين وعدد ليس بالقليل من الامبرياليين مأخوذين بنزعة العثور على نوع ما من الكئوس المقدسة، نظرية عامة موحدة للعقائد الدينية. واكتسبت عقيدة التوفيق بين الأديان إتباعا من النخبة جنبا الى جنب مع فكرة احتمال ظهور عقيدة جديدة أو نظام جديد من العقيدة، نظام يستطيع ان يوحد جميع الثقافات المتعددة للإمبراطورية.

وبدأت العقائد التجريبية التي تعود جذور بعضها الى أوائل القرن التاسع عشر، بدأت في الازدهار. أما الافغانى الذي كانت نظرتة الى الإسلام قد صقلتة التزاماته الأكثر عمقا بالعمل السري وإخوان الصفا والماسونيين الأحرار ومذهب الشك الفلسفي فقد كان منفتحا عليها جميعا.

استأنف الافغانى فى لندن اتصالاته مع المستشرق البريطاني ادوارد جرانفيل براون Edward Granville Brown وتعد من أكثر اتصالاته أهمية.

لربما كان براون، وهو أستاذ فى جامعة كامبردج هو الأب الروحي للاستشراق فى القرن العشرين سيما فى مجال الدراسات الفارسية والدينية وكان يتمتع بنفوذ كبير ليس فقط لدى الأكاديميين بل وكذلك لدى واضعي السياسة حتى وفاته سنة 1926. وكما سنري كان براون مدرسا وصديقا للسلطويين بمن فيهم اثنين من القيايين العاملين فى المخابرات البريطانية وهما هارى سان جون برджер فيليبى Harry St. John Bridger Philiby وت. ا. لورنس T.e. Lawrence فى غمرة انشغال بريطانيا بالحرب العالمية الاولى فى الشرق الأوسط، كان براون خلال الثمانينات والتسعينات يقوم بإسفار واسعة فى العالم العربى وتركيا وإيران وتخصص فى الحركات المتعلقة بالنظم الدينية مثل الصوفية وغيرها من العقائد البديلة الغامضة التى أخذت تظهر فى الشرق الأوسط.

كان الميرزا محمد باقر هو المدرس الفارسي لبراون الذي كتب عن باقر قائلا: "لقد تعلم (وتعلم بشكل جيد) ستة لغات وكان حسب التسلسل: شيعيا، محمديا، درويشا، مسيحيا، ملحدًا، يهوديا وانتهى به الأمر الى ابتداء نظام ديني خاص به أطلق عليه اسم "المسيحية الإسلامية"²⁹. وأصبح الرجلان وثيقي الصلة، واخذ

براون، ملهما بإعمال جوزيف جوبينو Joseph Gobineau المتخصص في عقائد أسيا الوسطى، ينقب في حركات مثل البهائية وطور مفهوما لهذا لنظام الدينى يخلب اللب مدى الحياة.

مثلها مثل "المسيحية الإسلامية" التى ابتدعها ميرزا باقر، طور البهاء عقيدة فريدة توفيقية مقرها الرئيسى فى إيران ولها مراكز أمامية فى حيفا وغيرها. ولسنوات طويلة كان ينظر الى هذه العقيدة فى الشرق الأوسط بارتياح حيث اتهمها القادة السياسيون والدينيون ذوو العقول التأميرية بان لها علاقات بالماسونية وارتباطات بالمخابرات البريطانية

ولكن البهائيين كانوا صراحة بريطانيي الهوى، وبعد الحرب العالمية الاولى منحت بريطانيا احد منشئها، عبد البهاء لقب فارس ولربما اصبح براون الناشر الرئيسى لمطبوعات البهائيين فى الغرب. ومن الواضح انه كان يؤمن بان الحركة البهائية سوف تلعب دورا تشكليا فى مستقبل الدين فى الشرق الأوسط.

كان لكل من الافغانى ومحمد عبده صلات متعددة مع براون وميرزا باقر والبهائيين. وطبقا لقدورى كان لمحمد عبده وباقر مناقشات حول فلسفة الإلهيات والقرآن فى باريس خلال فترة تواجد الافغانى وعبده من اجل نشر مجلة العروة الوثقى، وأرسل الافغانى المجلة الى قادة الحركة البهائية فى مقرهم الرئيسى فى الشرق الأوسط. أما الشخص الآخر الذى لعب دورا هاما فى زيادة اهتمام الافغانى وامتداد نشاطه الى إيران - حيث سيغدو عاجلا رئيسا للوزراء فهو ملكام خان. كان ملكام خان سفيرا لفارس فى لندن لعدة سنوات وهو ابن مؤسس "الجمعية الفارسية للماسون الأحرار". ومثلهم مثل الافغانى كان البهائيون وباقر وخان يعتقدون ان "دين الإنسانية" ذو الطبيعة الكونية سيغدو بعد إعادة تشكيله شرطا أوليا لازما لا بد من توافره من اجل ممارسة العمل السياسى فى الشرق الأوسط وخاصة فى فارس. ومع ذلك لم يتخل الافغانى إطلاقا عن مساندته للصياغة الأصولية للإسلام. وتحت تأثير خان شكل الافغانى "الجمعية العربية الماسونية"³⁰. ويبدو ان الافغانى شبيه الحرباء كان يعتقد بإمكان الجمع بين صياغة اسلامية مبسطة صالحة "لبسطاء العقول" اى الجماهير وصياغة أخرى تجمع بين الأعلى والأدنى، ديانة عالمية واحدة توفيقية تعلوها جميعا.

30- E. G. Browne, A Year Amongst the Persians (London, 1950), pp 13-14

30- لبيان وافى عن العلاقة بين خان والافغانى ينظر قدورى ص ص 22-23

لكن مهمة الافغانى انتهت الى الفشل، جزئيا على الاقل.

بمساندة ملكام خان امضى الأفغانى معظم سني حياته الأخيرة فى فارس وزيرا للحرب فرئيسا للوزراء ولكن آراءه لم تنجح فى كسب أيا من الشاه أو النخبة الإيرانية. وإذ أزعجته نداءات الافغانى الى ملالى إيران لجأ الشاه الى العمل. أخيرا أقدم الشاه على انتهاك حرمة المسجد والقي القبض على جمال بالرغم من انه كان يرقد آنذاك على فراش المرض، ونقل الى الحدود التركية.³¹ ولكنه ظل يتردد مابين تركيا وأفغانستان وإيران خلال تسعينات القرن التاسع عشر " لافتا- كما يقول قدورى - أنظار إدارات الأمن والمخابرات." ³² وفى الختام الأخير من حياته أطلق البريطانيون سراحه مرة أخرى. " فى سنة 1895 كان الافغانى فى اسطنبول قبل وفاته بحوالى سنتين حيث وجد نفسه على القائمة السوداء للسلطان عبد الحميد مهددا بالنفي الى إيران حيث كان مطلوبا وضعه تحت التحفظ فقدم طلبا للسفير البريطانى لحماينه بوصفه من الرعايا الأفغان.³³ وأعطته القنصلية البريطانية تأشيرة تسمح له بمغادرة اراضى السلطان، وسرعان ما عاد الى تركيا حيث توفى داعية الإسلام الشمولى الرحالة بمرض السرطان سنة 1897.

يؤكد براون ان شهرة الافغانى ستظل قائمة لفترة طويلة بعد وفاته وقام بتمجيده فى عمله الكلاسيكى الصادر سنة 1910 بعنوان " الثورة الفارسية"

ولكن اللورد كرومر وهو دائما الامبريالى العملى كتب نعييا للأفغانى ومحمد عبده والرعيل من الإحيائيين الإسلاميين، يعد من ابلغ ما كتب فى هذا الصدد: " لقد شوهم كثيرا إذ اتهموهم بالهرطقة لأنهم مضوا اكثر من اللازم فى طريق المسلمين المحافظين ولكنهم لم يتأوربوا بما فيه الكفاية، الى المدى الذى يكتسبون فيه الحد الأدنى من طرائق الأوربة. لم يكونوا مسلمين جيدين بما فيه الكفاية، كذلك لم يكونوا أوروبيين جيدين بما يكفى. مثلهم مثل العلماء الذين يخلقون الكتب بمجرد فشل التجربة." وانهى اللورد كرومر كلامه قائلا: ان الإسلام الشمولى للأفغانى وعبده يحتاج الى مراجعة جذرية، ذلك ان التحديث الكونى على النمط الماسونى لا يتفق تماما مع المطالبة بالعودة الى الإسلام النقي للقرن السابع ومن ثم فقد فشل فى كسب ولاء رجال الدين أو كسب ولاء المجددين. على أية حال فان أفكار الافغانى

31- آمز ص 11

32 - قدورى ص 4

33 - المرجع السابق ص 5

التي حافظ عليها الصحفي رشيد رضا الذي أسس " المنار " وهي الجريدة التي قدمت أفكار الافغانى ومحمد عبده الى السلفية المصرية والإخوان المسلمين سوف تجد أرضا أكثر خصوبة. فى هذه الإثناء سيتحول البريطانيون الى صياغة أقل طموحا للإسلام الراديكالى (الاصولى) فى المرحلة التالية من مراحل السياسة الكولونيالية الاستعمارية فى الشرق الأوسط وهى: الوهابية السعودية العربية.

إخوان عبد الله فيلبى

منذ 1899 وحتى انجلاء غبار الحرب العالمية الاولى اختطت بريطانيا واحدة من اكثر لعبها الإمبراطورية المكشوفة. فقد كانت الإمبراطورية العثمانية - رجل أوربا المريض تقف على أعتاب نهايتها فى أواخر القرن التاسع عشر، حيث أدى نمو الأساطيل البحرية والسكك الحديدية وأخيرا تطور تقنية الاحتراق الداخلى والسيارات الى خلق طلب نهم على البترول. وبالرغم من نمو حقول البترول فى تكساس ورومانيا وباكوا بوصفها مراكز إنتاج البترول فى العالم، فقد بدأ يخيم على الاستراتيجيين الامبرياليين الشعور بان بلاد فارس والعراق والعربية لديها ثروة بترولية طائلة. ورأى الامبرياليون العتاة فى جنوب غرب آسيا رقعة شطرنج هائلة يقومون فيها بدور الحارس. وكان على مقامرى لندن ان يلعبوا من اجل كسب ولاء مسلمى العالم، ليس بالتقرب الى العالم الاسلامى من خلال الصفوة المستتيرة المثقفة الحديثة ولكن بالتقرب الى الجماهير التقليدية محدودة الأفق والى الأوتوقراطيين. وبينما كان البريطانيون يحاولون تجنب الصدام مع الفرنسيين فى الشرق الأوسط فقد وجدوا ان عليهم التعامل فى وقت متزامن مع ثلاث قوى أخرى: الروس الذين كان الأمر يهمهم ويضغطون بلا هوادة من الشمال، والألمان الذين أخذت قوتهم تزداد تحت حكم القيصر وكانوا يقومون ببناء روابطهم مع تركيا وفى ذات الوقت منشغلين بإقامة خط سكك حديدية يربط بين برلين وبغداد ثم تركيا التى كانت إمبراطوريتها أخذة فى الاضمحلال ولكن لم يزل لديها ورقة تحتفظ بها وهى الخلافة الإسلامية التى كانت لا تزال قائمة فى اسطنبول ويمكن لتركيا نظريا على الاقل ان تطالب المسلمين السنة الأصوليين فى كل مكان بالولاء للخلافة الإسلامية.

كانت بريطانيا تسيطر سيطرة تامة على الهند (بما فى ذلك ما يعرف اليوم باسم باكستان الإسلامية). وبفضل اللورد كرومر استطاع البريطانيون ان يطبقوا على مصر وقناة السويس باعتبارها شريان حياة بريطانيا الى الهند، وكان نفوذهم

مسيطرًا كذلك في أفغانستان وإيران ولديهم تركة حقيقية تمتد من قبرص وتحيط بشرق إفريقيا وعدن، ويمكن استخدامها لجلب وسائل القوة اللازمة للتعامل في الخليج الفارسي. ومن أجل تحقيق طموحاتهم للسيطرة على العراق والعربية كانوا بحاجة إلى قوة تستطيع أن تتحدى السيطرة التركية على هذه المناطق الشاسعة التي تغطيها الرمال.

كانت الخطوة الأولى اللازمة لاستكمال هذه المهمة هي تحقيق تحالف بين العرش البريطاني والملك الذي سيحكم مستقبلًا العربية والحركة الوهابية الإسلامية-العنيدة. ولمعرفة كيف تطور التحالف البريطاني السعودي المرتقب ينبغي أن نعود خطوة إلى الوراء، إلى القرن الثامن عشر حيث تم توثيق الروابط بين آل سعود-العائلة المالكة مستقبلاً- وآل شيخ العائلة الوهابية الإسلامية.

في منتصف القرن الثامن عشر قام واعظ مسلم رحالة- النسخة العربية من إلمر جانترى Elmer Gantry* يزرع أقاصي شبه الجزيرة العربية والهلال الخصيب من مكة إلى المدينة فواحات الحسا إلى الشرق وحتى البصرة وبغداد ودمشق - كان هذا الواعظ هو محمد بن عبد الوهاب الذي ولد سنة 1703، ولم يكن من سكان المدن ولا يعنيه نوع التعليم الذي يقدم في المراكز الثقافية والعالم العربي. وكان يقوم بنشر التعاليم الإسلامية عن النار والجحيم ويطالب المسلمين هادراً أن يتخلصوا من كل شيء سبق أن تعلموه منذ أيام الرسول قيل ألف عام. كانت حركة إحيائية بالمعنى التقليدي لها أتباعها المتحمسون يطوون الخيام التي يلقي بها المنظمون من أتباع عبد الوهاب. وكان أكثر المؤمنين من أتباع عبد الوهاب أهمية هو مؤسس السلالة السعودية، محمد بن سعود. كان واضحاً أن ابن سعود ينظر إلى نفسه باعتباره نسخة القرن الثامن عشر للنبي محمد، يغزو الأراضي من أجل الإسلام ويفرض عقيدته على المهزومين. ومن أجل فرض هذه الرسالة، رسالة عبد الوهاب وابن سعود وأتباعهم لم يتورعوا عن ذبح كل من لا يتفق معهم وهدم بيوتهم ومساجدهم وأضرحتهم. وسمى عبد الوهاب بـ "المعلم" أي الشيخ. وبدءاً من هذه اللحظة فصاعداً إلى الأجيال التالية من قبيلة عبد الوهاب، لقبوا بـ "شيخ". ويتطور التحالف بين عائلتي آل سعود وآل شيخ³⁴ لتتجمعه الدولة السعودية في عشرينات القرن العشرين، وكان لها على كل حال نجاحاتها وعثراتها.

* إلمر جانترى : رواية للكاتب الأمريكي الساخر سنكلير لويس تصور قصة بائع جوال سكير يتحدث للجماهير بطلاقة، ويستخدم مهارته وحضور بديهته ومعرفته بالكتاب المقدس في الترويج لبضاعته. المترجم

34- David Long , The Kingdom of Saudi Arabia, Florida 1977, p. 22

منذ بداية القرن العشرين أسس آل سعود الولايات واحدة اثر أخرى وكان يتم اجتياحها أحيانا من قبل القوى الأكثر دنيوية والأقل تعصبا كالعثمانيين وحلفائهم في مصر او من قبل القبائل العربية المنافسة.

وطبقا للمعايير السائدة بشأن قيام الوهابيين فمن المعتاد ان يقال دائما باحترام ان الوهابيين كانوا إصلاحيين او مجددين او أنهم وحدوا العربية حول فكر واحد هو فكر التوحيد. ويعتبر الوهابيون أن إطلاق اصطلاح الوهابيين عليهم أمر مسيء لهم الى حد ما ويفضلون استخدام تعبير الموحدين المقتبس من تعبير "الآله الواحد" ³⁵ وينظر الى عبد الوهاب عادة باعتباره مفكرا يقدر له عمله الفلسفي وتفسيره للقرآن باعتباره عملا مدويا.، ولكن الأمر ليس كذلك. يلاحظ حامد الجار مؤلف "الوهابية: مقالة نقدية" يلاحظ ان الصحراء العربية وما يطلق عليه فلسفة الآلهيات (التيولوجيا) يجمع بينهما شيء مشترك ³⁶ "فطبوغرافيا الصحراء، اي طبيعة الصحراء الجرداء المسطحة لها انعكاساتها الدائمة على تاريخها الفكري"، ويضيف قائلا: "ان ما يمكن تسميته بكثير من التسامح النتاج العلمي لمحمد بن عبد الوهاب هو مجرد أعمال ساذجة وسطحية تتكون في معظمها من أحاديث الرسول المنتقاة المعاد صياغتها ولا تحوى شيئا او ربما تحوى القليل من الشروح والتعليقات". ويلاحظ الجار بسخرية انه حتى رعاة المذهب الوهابي انفسهم يربكهم "تهافت أعماله" ³⁷. أما انه كان مفكرا عظيما فهذا ما لم يكنه على الإطلاق.

غير ان عبد الوهاب كان أستاذا في قذف المسلمين بالصواعق في مجادلاته متهما إياهم بالتخلي عن الإسلام والارتداد والهرطقة وما هو أقبح.

بضم قواتهم الى جانب آل سعود استطاع الوهابيون ان يشكلوا جيشا عرمرما من الأتباع الذين قضوا قرونا عديدة يشيعون الفوضى عبر الاراضي العربية. لقد كانوا حسبما عبر كاتب بريطاني من كتاب القرن التاسع عشر، مشهورين بأنهم في غزواتهم "يفضلون الذبح على التعذيب" ³⁸. ولم يفته الذبح إطلاقا.

في القرن الثامن عشر بدأ التحالف السعودي الوهابي " حملة من القتل والسلب عبر العربية كلها " أولا في وسط العربية ثم عسير في جنوب العربية وأجزاء من

35 - كتاب الموحدين (بالعربية) ينظر لونج ص 23

36 - حامد الجار الوهابية، مقالة نقدية -5، N.Y Islamic Publications International, 2002, p.5

37- الجار ص ص 14-16.

38 - William Gifford Palgrave, Personal Narrative of a year's Journey through Central and eastern Arabia (1862-1863), London 1993, p. 184

اليمن وأخيرا في الرياض والحجاز³⁹. وفي سنة 1802 هاجموا مدينة كربلاء الشيعية المقدسة فيما يعرف الآن باسم العراق وقتلوا معظم سكانها وهدموا القبة أعلى قبر مؤسس المذهب الشيعي ونهبوا " الممتلكات والأسلحة والملابس والسجاجيد والذهب والفضة وكذلك نسخا ثمينة من القرآن"⁴⁰ 1

وفي الحقيقة فان الوهابية توصم بأنها هادمة القباب⁴¹ وهو نشاط لا يزال مستمرا حتى اليوم، ففي يوغسلافيا السابقة طالبت العربية السعودية بتغييرات جذرية في المواقع الاسلامية. فحسبما كتب جون اسبوسيتو: " كانت وكالات المساعدة السعودية هي المسئولة عن هدم واعادة بناء الكثير من المساجد والمكتبات ومدارس تحفيظ القرآن والمدافن في البوسنة وكوسوفو لأن تصميماتها وديكوراتها والزخارف علي جدرانها (الفريسكو) وشواهد القبور لا تتوافق مع مزاج العقيدة الوهابية التي تقضي بتحطيم الصور والتماثيل"⁴²

وبينما كان مدمرو القباب يوسعون سلطتهم في العربية،فأنهم في النهاية أصبحوا على علاقات مع بريطانيا العظمى. لقد بدأت روابط بريطانيا بآل سعود في أواسط القرن التاسع عشر عندما قام ضابط بريطاني برتبة عقيد بالاتصال ببيت آل سعود في الرياض، تلك المدينة النائمة في أحضان الصحراء التي سرعان ما ستغدو عاصمة للعربية. "بدأت أولى الاتصالات سنة 1865 وأخذت المساعدات البريطانية تتدفق الى خزائن العائلة السعودية وتزداد مع اقتراب الحرب العالمية الاولى على نحو ما يسجل الجار⁴³

" في سنة 1899 رسم اللورد كيرزون حاكم الهند حدود محمية الكويت وبدأت بشكل جدى علاقات لندن بآل سعود والوهابيين. وبذل آل سعود غاية ما وسعهم من اجل فرض إرادتهم في العربية ووجهت لهم الدعوة لإقامة قاعدة لهم في الكويت،وهي إمارة صغيرة غرب البصرة وكانت في طريقها لتصبح قاعدة أمامية للسلطة والقيادة البريطانية الامبريالية⁴⁴. بعد ثلاث سنوات فقط سيبدل آل سعود جهودا أخيرة ليضمنوا بسط سيطرتهم على شبه الجزيرة العربية بكاملها. وطبقا

39- الجار ص ص 20-22

40 - المرجع السابق ص ص 23-25

41 - المرجع السابق

42 جون اسبو سيتو - الحرب غير المقدسة ، الارهاب باسم الاسلام (نيويورك 2002) ص 108

43 -الجار ص 38

44- for Oil,Money and Power,New York,1991, p.284 Daniel Yergin ,The Prize: The Epic Quest

لأحد المراجع "أرسل أمير الكويت رسالة إلى ابن سعود الذي كان يبلغ 20 عاماً في ذلك الحين يستحثه فيها على استعادة الرياض من آل الرشيد (الموالين لتركيا)⁴⁵. وسقطت الرياض في يد ابن سعود سنة 1902 وكانت هذه الفترة التي أسس ابن سعود خلالها الإخوان الذين يخشى بأسهم⁴⁶. جمع المحاربين من القبائل البدوية وأشعل حماسهم بالحمية الدينية المتطرفة وألقي بهم في المعركة. بمقدم 1912 كان عدد الإخوان قد وصل إلى 11000 أحد عشر ألفاً، وأصبح لدى ابن سعود كلا من وسط العربية نجد وفي الشرق حيث تقع الحسا تحت سيطرته.

فيما بين 1899 ونشوب الحرب العالمية الأولى أصبح وجود البترول في الشرق الأوسط حقيقة بعد أن كان مجرد شائعات. كانت اتفاقيات البترول الأولى موقعة في حقيقة الأمر من جانب واحد حيث فرضها رجال الأعمال الذين يعملون في هذا المجال بمساندة مدفعية البوارج التابعة للقوى الامبريالية على الدوليات البحرية وقادة القبائل المغلوبين على أمرهم. فجأة ظهر الخليج الفارسي كموقع استراتيجي. كانت بريطانيا تنظر إلى العربية والخليج بوصفهما حلقة ضمن سلسلة تبدأ من السويس حتى الهند، مرسيا الإمبراطورية. ولكن شيئاً فشيئاً أخذ النقيض يبدو هو الأصدق: فالسويس والهند سوف يعتبران الأكثر أهمية بصفتهما قاعدتين تستطيع بريطانيا من خلالهما أن تحمي مصالحها البترولية المزدهرة غرب فارس والعراق والخليج، وأصبح وليم شكسبير وهو موظف بريطاني كنى بهذا الاسم وكان يعمل وكيلاً سياسياً لبريطانيا في الكويت، أصبح واحداً من موظفي الارتباط البريطانيين مع آل سعود وقام بتفريق أول معاهدة رسمية بين بريطانيا والعربية السعودية تم توقيعها سنة 1915. بعد أن أنهى مهمته توفي شكسبير في معركة خاضها إلى جانب ابن سعود خلال مواجهة جرت في الصحراء ضد قبيلة آل رشيد خصم آل سعود. ولكن المعاهدة التي وضعها أصبحت ملزمة لكل الأطراف -لندن والعربية- قبل عدة سنوات من ظهور العربية السعودية كدولة. وتعترف هذه المعاهدة بابن سعود حاكماً مستقلاً لنجد وتوابعها تحت الحماية البريطانية، مقابل أن يتعهد ابن سعود بالامتثال للنصيحة البريطانية.⁴⁷

باندلاع الحرب العالمية الأولى سنة 1914 وجدت بريطانيا فرصتها الذهبية لإخراج تركيا من العربية. مع اضمحلال الإمبراطورية العثمانية قام فريقان من بريطانيا بمساندة اثنين من اللاعبين المتنافسين البارزين على امتداد الصحراء

45- المرجع السابق ص 285

46- ملاحظة عارضة للمؤلف

47- The House of Saud, New York 1981, pp 50-51. David Holden & Richard Johns

الجرداء عبر شبه الجزيرة العربية. كان الفريق الأول بقيادة هارى سان جون برجر فيليبى وهو ناشط بريطانى مدرب جيدا على كيفية استخدام الدين لإغراض سياسية، ولم يكن مدربه سوى إ.ج. براون E.G.Browne وهو سليل عائلة بريطانية معروفة الى حد ما مرتبطة بعلاقات مع سيلان والهند.

كان فيليبى خريجا لإحدى أهم مدارس بريطانيا بما فيها وستمنستر حيث كان خريج مدرسة الملكة وكلية ترينيتى وكامبردج وأصبح تلميذا لبراون⁴⁸. فى مطلع القرن العشرين كانت كمبردج بمثابة ارض التدريب لبناء الإمبراطورية، واحتك هناك بافضل والمع من فى بريطانيا (بل والعالم). كان فيليبى الذى نشأ فى أحضان الروابط بين الكنيسة والدولة فى بريطانيا وعلى علاقة وثيقة بالمؤسسة الإنجيلية، كان ملحدا ولكنه اظهر معرفة كبيرة بتأثير الدين فى السياسة ومع معرفته الوثيقة بالمؤسسة الإنجيلية اظهر فيلبى رغم انه ملحد إدراكا عميقا بتأثير الدين فى السياسة ووصف المعتقدات الدينية قائلا: "من جميع المعتقدات فان أعظمها هو أقواها جميعا من حيث القدرة على مقاومة كل معارضة".⁴⁹ فى كمبردج درس فيلبى الفلسفة واللغات الشرقية والقانون الهندى ثم التحق بالخدمة المدنية الهندية. ان فيلبى الذى سوف يمر بمرحلة تحول مرائية الى الإسلام منتحلا اسم عبد الله، حمل معه الى الهند الدروس التى تلقاها عن براون حيث عمل معه بصفة معاون تنفيذى، غادر الى العربية خلفا لشكسبير ملحقا لبريطانيا العظمى لدى ابن سعود. وبينما كان فريق فيلبى فى المكتب البريطانى بالهند يساند آل سعود، فان أصدقاءهم فى المكتب العربى بالقاهرة - وهو فرع المخابرات البريطانية راعى لورنس العرب الشهير كان يساند حسين شريف مكة رأس الأسرة الهاشمية وابنيه عبد الله وفيصل وكانوا حكاما للحجاز وهى المنطقة التى تقع فى الغرب من العربية وتشمل مكة والمدينة. كان آل سعود خلال ذلك قد بسطوا سيطرتهم على معظم العربية الوسطى - نجد - انطلاقا من الرياض (عاصمة السعودية الآن). أخيرا يتمكن آل سعود بطبيعة الحال من إخضاع العربية وإطلاق اسم عائلتهم عليها. أما أبناء العائلة الهاشمية عبد الله وفيصل فسوف يتم تنصيبهم مثلهم مثل قطع الغيار ملكين للأمم أخرى، يرسم حدودها ونستون تشرشل فيكون عبد الله ملكا على الأردن وفيصل ملكا على العراق.

فى كلتى الحالتين سواء بالنسبة لآل سعود او الهاشميين كان البريطانيون يهدفون الى استخدام الإسلام لصالحهم. الهاشميون يفاخرون بأنهم ينتسبون مباشرة

الى النبي محمد، وهو زعم سبقهم إليه بعض الأدعياء الذين كانوا يتطلعون الى الحكم فى القرن الماضى.

كان البريطانىون بطبيعة الحال يضعون فى حسابهم ان يتطلع الهاشميون لان يكونوا الخلفاء الموالون لبريطانيا المستحقون لهذه الخلافة الجديدة بينما ناجزهم آل سعود بالمحاربين الوهابيين الذين يشكلون قوة ضاربة قوية يتطلع البريطانىون الى مساعدتهم فى السيطرة على الشواطئ الغربية للخليج الفارسى. للوهلة الاولى فى حوالى سنة 1916 كان يبدو ان الهاشميين لهم اليد الطولى نتيجة وضعهم على القمة فى مكة والمدينة. وكان البريطانىون يعتقدون ان حسين وأولاده يمكنهم ان يجمعوا المسلمين من شمال إفريقيا وحتى الهند لصالح بريطانيا، فى نفس هذا الوقت كانت الإمبراطورية العثمانية تترنح على اتساع العالم الاسلامى. كان العثمانيون محاصرين من كل الاتجاهات وتولى البريطانىون القيادة محاولين أن يستخدموا الولاءات الإسلامية كقوة ضد الأتراك. مما لاشك فيه ان هذه السياسات قد تم إعدادها بواسطة فريق عمل الشرق الأوسط الموجود فى لندن: اللورد كيرزون سليل الارستقراطية البريطانية وروبرت سيسل وهو الامبريالى الأعظم وسكرتير الخارجية البريطانية والحاكم السابق للهند وابن عمه ارثر، لورد بلفورد الذى ساند روتشيلد فى إعطاء وعد لليهود بمنحهم فلسطين ومارك سايكس وهو الرئيس المناوب لقسم الشرق الأوسط بالخارجية البريطانية وديفيد جورج هوجارث رئيس المكتب العربى ومؤلف "اختراق العربية" وهو اركيولوجى ومستشرق ومدير متحف اشموليان فى اكسفورد وتشرشل وارنولد توينبى وعدد آخر من القادة اللامعين فى زمن الامبريالية البريطانية الذين لحقوا بهم.

ملخصا هذه السياسة بقول لورنس:

"إذا كان على السلطان التركى ان يختفى فان الخلافة يجب ان تؤول طبقا لموافقة عامة المسلمين الى عائلة الرسول التى يمثلها حاليا حسين شريف مكة. وتبدو أنشطة حسين مفيدة لنا لأنها تتفق وأهدافنا العاجلة: تحطيم الكتلة الإسلامية وتفكيك الإمبراطورية العثمانية، ولان الولايات التى سوف ينشئها لن تضر بنا كما كان الحال بالنسبة لتركيا. وإذا أمكن التعامل مع الولايات العربية بشكل صحيح فستبقى الولايات العربية أشبه ما تكون بالموزاييك السياسى، نسيج من المواد الأولية غير القابلة للتماسك ومع ذلك فهى على استعداد دائم للتعاون ضد القوى الخارجية."

كانت الفكرة تبدو بسيطة للغاية فالهاشميون سوف يقومون بثورة ضد الإمبراطورية العثمانية تتكامل مع الخيلاء والصور الرومانسية للعرب الذين يقودهم لورنس ويهاجمون عبر الرمال لتحرير أنفسهم من الحكم التركى. وسوف تحاول

بريطانيا من وراء ستار أن تلتق حلفا بين الهاشميين والصهاينة بهدف إقامة الدولة اليهودية الموالية لبريطانيا في فلسطين. وبمساعدة العائلة الهاشمية التي كانت تحكم حينئذ سوريا ولبنان والعراق والأردن والحجاز على الساحل الغربى للعربية، فإن توحيدها جميعا سيصبح أساسا لقاعدة بريطانية في مكة وخلافة عربية تسيطر عليها بريطانيا، إما بالنسبة لمصر والسودان فانهما سيبقيان بطبيعة الحال فى المعسكر البريطانى أيضا.

فى هذه الاثناء كان فيلبى يعمل فى الجبهة الشرقية. وكان سير برسى كوكس Percy Cox الممثل السياسى فى مكتب الهند فى الخليج الفارسى مسئولا عن المجهودات البريطانية للمحافظة على مناطق البترول الغنية التى كانت تباشيرها قد بدأت فى الظهور. كان فيلبى الضابط الصغير فى ذلك الوقت يعمل تحت إمرة كوكس ومع المستكشفة الأسطورية والجاسوسة المتميزة جرتروود بل Gertude Bell التى كانت على معرفة وثيقة باللكنة العربية القبلية والسلالية الخاصة بعائلات هذه المنطقة بالإضافة الى قدرتها وخبرتها اللغوية، كل هذا جعلها عضوا أساسيا فى هذا الفريق وابرق كوكس رسالة الى فيلبى يطالبه فيها بلقاء ابن سعود سنة 1916. وبينما كانت لندن تجند الملكيين ضد الأتراك فى غرب العربية كان فيلبى مكلفا بتحريض آل سعود ضد قبيلة احد أمراء الحرب الآخرين، قبيلة ال رشيد التى كان من سوء حظها انها تحالفت مع الأتراك فى المنطقة الغربية من العربية.

بدءا من 1917 وضع ابن سعود على قائمة المخصصات وخصص له دخل شهرى مقداره 5000 خمسة آلاف جنيه استرلينى مقابل خدماته، وكان فيلبى هو الشخص المكلف بتوصيل هذا المبلغ اليه.⁵⁰ ومن هنا فصاعدا سيكون فيلبى هو المكلف بحمل الرسائل الى ابن سعود والالتقاء به فى العديد من المناسبات وفى عام 1919 سوف يصبح فيصل ابن سعود البالغ من العمر 14 عاما فى ذلك الحين وهو نفس فيصل الذى سيغدو فيما بعد ملكا للعربية السعودية، فى رحلة الى لندن تتضمن زيارات خاصة الى كل من ا.ج براون الذى تحمل كافة النفقات وولفرد سكاون بلنت ولعله كان الداعية البريطانى الاساسى للإسلام الشمولى الموالى لبريطانيا.

ولربما كانت هذه هى التجربة الامبريالية البريطانية من اجل إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط وإقامة خلافة جديدة. وبطبيعة الحال ظلت بريطانيا هى اللاعب الذى فرض سطوته على المنطقة بفضل سيطرتها الامبريالية المطلقة. ولكن الصفقة العربية الصهيونية لم تعمل بشكل جيد حيث اتضح ان العراق مثير للمشاكل

ومميت بالنسبة للقوات البريطانية. وبالإضافة أصر الفرنسيون على إخراج البريطانيين من سوريا ولبنان واستولى البلاشفة على روسيا وكشفوا بالتفصيل حقيقة الصفقة الانجلو فرنسية السرية مما إربك لندن الى حد كبير. وبالرغم من أن بريطانيا وضعت معظم أوراقها الى جانب الهاشميين إلا أن قوات ابن سعود اكتسحت العربية وهزمت كل من تصدى لها بما فى ذلك مملكة الحسين الصغيرة فى الحجاز.

كتبت جرتروود بيل متحدثة عن العراق ولكن بشكل ينم عن كامل السياسة البريطانية عن الشرق الأوسط فقالت "لقد أحسنا هنا بفشل ذريع"⁵¹

وحافظ فيليبى الذى كان لا يزال يعمل فى خدمة بريطانيا حافظ على اتصالاته بابن سعود. وفى الحقيقة كان يبدو وكأنه يعبد ابن سعود بفضاظته وقطاع الطرق التابعين له من الإخوان (الوهابيين) حيث كتب يقول:

(العرب ديمقراطيون، وأعظم وأقوي حاكم عربى اليوم هو الدليل على ذلك. أن ابن سعود ليس أكثر من مواطن مثل غيره من المواطنين وإن يكن زعيما لهم primus inter pares . أن قوته تكمن فى حقيقة أنه استطاع خلال عشرين عاما أن يترجم بدقة طموحات وإرادة شعبه"⁵²

بالرغم من أن فيلبى كان يفخر دائما بأنه داعية للديمقراطية والنظام الجمهورى العربى، إلا أنه لم يظهر أى تردد فى مساندة عائلة آل سعود الوحشية⁵³، مع أن عددا من عتاة الامبرطورية البريطانية بمن فيهم د.ج. هوجارت كانوا يعتبرون آل سعود وبوجه خاص مقاتليه الإخوان الوهابيين باعتبارهم الأكثر انحطاطا.

كتب مؤرخ فيلبى يقول " بالنسبة لرجال (مثل هوجارت) لهم خبرة بالإسلام فى الهند ومصر وسوريا وتركيا والحجاز فإن ارتداد إخوان ابن سعود يعتبر عارا كما أن الوهابية عقيدة متعصبة لا تصلح لمعظم العالم الاسلامى "⁵⁴

51 - اقتباس من مونرو ص 104

52 - اقتباس من مونرو ص 127

53 - مونرو، مرجع سابق ص 139 حيث يشير الى أن منتقدى فيلبى استهانوا بموقفه المفترض المتعاطف مع الجمهورية وسرعان ما اشاروا الى ان العقار(الدواء)الجمهورى المزعوم الذى يوصى به يتعارض مع ثنائه الفياض على الحكم المطلق لبطله ابن سعود

54 -المرجع السابق ص 139

فى سنة 1920 مع غزو العربية ترك ال سعود (ديمقراطيو فيلبى) وراءهم 400 الف قتيل وجريح وقاموا ب40 ألف عملية إعدام علنية وأمروا طبقا لتفسيرهم للشريعة الإسلامية بإجراء 150 ألف عملية بتر.⁵⁵ أما سياسة الأرض المحروقة التى اتسمت بها معاركهم واستطاع الإخوان بواسطتها ان يبسطوا سيطرة آل سعود على العربية فقد أعطت بريطانيا سلسلة متصلة من الدويلات و المستعمرات تمتد من البحر الأبيض المتوسط حتى الهند..

على انه بينما كان يجرى بناء الدولة السعودية كان الإخوان الديمويون - على حد تعبير البعض فى لندن وبعض العرب - كانوا سلاحا ذا حدين. وحسبما وصفهم احد أصدقاء ابن سعود من اللبنانيين "هم الآن سيف فى يد الامير وغدا خنجر فى ظهره" ⁵⁶

وقد ناشد حسين شريف مكة الذى كان يسانده البريطانيون، ناشد بريطانيا ان ترغم ابن سعود على حل الإخوان، وكتب رسالة وجهها الى القائم بإعمال بريطانيا فى سنة 1918 قائلا: "ان ما يهمنى اكثر من اى شيء آخر هو ان تقوم حكومة صاحبة الجلالة بإرغام ابن سعود على إلغاء وحل ما يطلق عليه الإخوان "الجمعية السياسية التى تلبس عباءة الدين"، ولكن البريطانيين رفضوا ذلك بكل برود.⁵⁷

وحاول ابن سعود الزعم بان الإخوان قوة مستقلة ولكن البريطانيين كانوا طبعا يعرفون غير ذلك. وابرق مسئول بريطاني سنة 1920 قائلا "انه لا يريد ان يعلم احد انه هو نفسه وراء ذلك كله وانه كان يقود ويوجه الحركة لمصلحة أهدافه الخاصة" وعلى كل فقد حذر موظفون اقل خبرة: "انه من الغباء ان يظن احد ان الإخوان يلهمهم البلاشفة"⁵⁸.

من الناحية النظرية على الاقل لم يزل لابن سعود خيار إقامة دولة علمانية لا يكون للإسلام الاصولى دور أساسى فيها، غير ان ثمة قوة دفع كانت وراء تحركاته تتمثل فى تحالفه مع الوهابيين والإخوان وذلك ما أدركه المسئول البريطانى الداهية برسى كوكس:

" فى نهاية سنة 1915 او بداية سنة 1916 وجد ابن سعود ان حركة الإخوان أخذت تسيطر على الأمور فى نجد وان عليه ان يختار احد الأمرين:

55 - الجار ص 42

56 - مقتبس من جون حبيب فى مؤلفه "Ibn Saud Warriors of Islam, 1978" ص 14

57 - المرجع السابق ص 20

58 - المرجع السابق ص ص 26-27

اما ان يكون حاكما مؤقتا ويسحق حركة الإخوان أو يكون رئيسا روحيا للوهابية الجديدة.... ويضطر في نهاية الأمر الى القبول بتعاليمها ويصبح رئيسا لها حتى لا يكتب نهايته بنفسه"⁵⁹.

ان الحركة الإسلامية الأصولية التي ركبها ابن سعود للوصول الى السلطة كانت ضرورية لنشأة العربية السعودية. لقد استخدم الإسلام ليكسر الولاءات القبلية وليحل محلها الانتماء الديني. وكما يقول جون. س. حبيب:

" في مجتمع قبلي صحراوي حيث الأسرة هي الأمن والهوية و الشرعية بالنسبة للأفراد، فان التخلي عن كل هذا ليس امراً هيناً. ان ذلك يؤكد إلى اى حد كان ابن سعود قادراً ان يحل مبدأ الإخوة في الإسلام الذي تمثلته الهجرة النبوية⁶⁰ محل الحماية والأمن، والهوية التي تخلوا عنها حينما هجروا القبيلة"⁶¹

بعد ان انجلى غبار الحرب العالمية الاولى وبعد العديد من المؤتمرات الامبريالية المختلفة التي حددت الحدود في الشرق الأوسط كانت الإمبراطورية العثمانية قد تحللت، وتحكمت بريطانيا بشكل محكم في المنطقة. وسيطر ابن سعود على مجمل شبه الجزيرة العربية، وحسبما ذكر فيلبي بلغ إخوان ابن سعود في عشرينات القرن العشرين اكثر من خمسين ألفاً.⁶² وإلى الغرب من الحجاز كان الهاشميون لا يزالون في الحكم ولكن زمنهم كان يولى بسرعة. ففي سنة 1924 عبرت الحكومة التركية الجديدة بقيادة المجدد مصطفى كمال أتاتورك عن ازدرائها لتخلف الإسلام الرسمي وصدمت المسلمين المحافظين على اتساع العالم بإلغاء الخلافة تماماً.

وحاول حسين شريف مكة ان يستثمر ما أقدم عليه أتاتورك، ولعله تذكر خطة ن. ا. لورنس الكبرى فأعلن نفسه خليفة المسلمين ولكن لسوء حظه لم يستمع اليه احد. فقد تخلى البريطانيون أساساً عن حسين عندما اختاروا في ذلك الحين ان يركبوا مع ابن سعود واسلامي متعصب آخر كان على وشك الظهور هو الحاج أمين الحسيني مفتي القدس. كتب مونرو يقول: " لدى عودة فيلبي من سوريا في هذه اللحظة من لحظات الشك لدى المسلمين، تضمنت مذكراته ان قوة حسين في

59 - Percy Cox , cited in Dora Gold Hatred's Kingdom, Washington, 2003. pp 44-

60- المعنى المقصود من الهجرة هنا : ان يتخلى المسلم عن ارتباطاته البدوية والقبلية بعد ان يلجأ الى الإسلام

61- حبيب ص 32

62- المرجع السابق ص 76

العربية كانت محصورة في ساحل الحجاز وأن ما عبر عنه بشأن الخلافة لم يكن بذي معنى إذا ما قورن بالضوء الساطع لنجم ابن سعود الصاعد في سماء الصحراء العربية.⁶³ وسرعان ما اجتاحت جحافل ابن سعود الحجاز طاردة الهاشميين وموقعة الذبح بمئات من الرجال والنساء والأطفال لتوحد العربية تحت سيطرة الرياض.

هكذا بدأت الدولة العربية السعودية الحديثة وكان فيلبى لا يزال قريبا من ابن سعود وكان حاضرا لدى إنشائها.

بدأ ابن سعود في التو واللحظة يجهز نفسه باعتباره ملك الإسلام غير المتوج. ولكن هذه العملية كانت تتم ببطء. وتم توقيع معاهدة رسمية بين ابن سعود وبريطانيا العظمى تعترف بموجبها باستقلال المملكة التام في 20 مايو سنة 1927 "، وعلى نحو ما كتب برنارد لويس: "ان اعتراف المسلمين كان أكثر بطئا وأكثر ترددا" وأضاف:

"قامت بعثة الهند بزيارة جدة وطالبت بان يقوم الملك بتسليم الاراضى المقدسة لبعثة مختارة من قبل كل الدول الإسلامية، ولكن ابن سعود لم يرد على هذا الطلب وأعاد البعثة إلى الهند عن طريق البحر. وفي يونية من نفس السنة عقد مؤتمر اسلامى فى مكة دعا إليه حكام ورؤساء الدول الإسلامية المستقلة وممثلين عن المنظمات الإسلامية من البلاد التى لا يحكمها المسلمون، وحضر هذا المؤتمر 69 شخصا من كافة أنحاء العالم الاسلامى وخاطبهم ابن سعود موضحا انه الآن حاكم الحجاز.... وتلقى حينذاك إجابات مختلفة من ضيوفه، بعضهم اعترض وبعضهم غادر المؤتمر بينما قبل الآخرون واعترفوا بالنظام الجديد.⁶⁴

وأخيرا كان على ابن سعود ان يواجه الاخوان. فى اواخر عشرينات القرن العشرين كانت مهمتهم قد انتهت وكانوا قلقين واخذوا يبدون رفضا متزايدا لملكية ابن سعود ونشبت المشاحنات بينهم وبحلول سنة 1929 كان ابن سعود قد حل الإخوان وحول الباقي من قوات البدو الى القوات المسلحة السعودية. ولكنه لم يلفظ الوهابية بعد سحق الإخوان.

وفى الحقيقة فانه من اجل تقوية سلطته الدنيوية بشكل اكبر وسلطته الدينية بشكل اقل فى الحجاز انشأ الملك هيئة بوليسية دينية لتجبر الناس على أداء الفرائض الخمس الواجبة يوميا وان يلبسوا الملابس المناسبة وتطبق التعليمات الأخرى للأصولية الوهابية. ومع بداية سنة 1930 انشأ ابن سعود كذلك هيئة الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر التي كانت تتشكل من البدو المتعصبين الأميين المتحمسين جدا من اجل إجبار الناس على تأدية فروض الصلاة المنصوص عليها بحذافيرها وغلق المحلات أثناء أوقات الصلاة بالإضافة إلى منع التدخين والعادات الأخرى المنافية للأخلاق⁶⁵ ومازال هذا معمولاً به حتى الآن.

أعطى ظهور الدولة العربية السعودية للبريطانيين موطئ قدم في قلب العالم الإسلامي في مكة والمدينة. وقد بدا للبرجمايين من الاستراتيجيين البريطانيين الامبرياليين ان القوات المسلحة الأكثر عدداً أهم من الاعتبارات الثيولوجية الروحية التي قدمها الافغانى ومحمد عبده وجمعياتهم السرية.

كان من الواضح ان تجربة لندن مع الافغانى ومحمد عبده لم تكن ناجحة بشكل كامل واتضح ان الافغانى بشكل خاص كان نموذجاً للأداة الامبريالية المراوغة، وبينما كانت وجهة نظره بخصوص التحالف الإسلامى الشمولى مع الغرب جذابة للنخبة البريطانية فقد فشلت فى ان تأسر لب الجماهير وقوبلت بمعارضة صارمة من جانب الحكام فى تركيا وفارس.

ان إنشاء الدولة السعودية بفضل المساندة البريطانية قد خلق قاعدة للإسلاميين يستطيعون ان يعملوا مستنديين إليها لعقود قادمة.

بالنسبة لبريطانيا ثم الولايات المتحدة بعدها كانت المملكة العربية السعودية تؤدي خدمات جليلة بوصفها قاعدة للطموحات الامبريالية خلال القرن العشرين. ومع ذلك فان الوهابية مع كل ما تتمتع به من قوة لا تزال بعد عقيدة فى المقام الأول وليست قوة سياسة. إنها قد تستطيع ان تنتصر فيما يتعلق بالتحالف الوثيق مع السعودية ويمكنها ان تساند السنة الى مدى بعيد وواسع، غير انه بالمعنى الحديث فان الإسلام السياسى الحقيقى لم يظهر بعد. كان يفتقد القوة الإسلامية السياسية التي تستطيع ان تستخدم قوتها الذاتية ضد قوى القرن الجديدة الأكثر جاذبية من الناحية الإيديولوجية أى الشيوعية والوطنية، غير ان البذور التي بذرها الافغانى ومحمد عبده كانت على وشك الازدهار إذ أمدتها العربية السعودية الوهابية والمخابرات البريطانية بالمال والرعاية اللازمة لنموها و أوشكت على الظهور فوق الأرض القوة الإسلامية التي بذر بذورها محمد عبده. فلول مرة بزغ حزب ذو جذور اسلامية أصولية يبدأ نشاطه على شاطئ قناة السويس فى الإسمايلية بمصر، وليس بعيداً عن السعودية.

*

الفصل الثانى

إخوان بريطانيا

فى اعقاب الحرب العالمية الاولى جاهدت بريطانيا من اجل المحافظة على امبراطوريتها... ودخلت فى صفقات كثيرة مع العديد من الشياطين. فمنذ عشرينات القرن العشرين حتى غزوها الفاشل للسويس سنة 1956 تضمنت هذه الصفقات تقديم الدعم لحركتين اسلاميتين فى مصر وفلسطين

فى مصر ظهر سنة 1928 مدرس مصرى يدعى حسن البنا قام بتأسيس جماعة الاخوان المسلمين وهى المنظمة التى سوف تغير مجرى التاريخ فى الشرق الاوسط خلال القرن العشرين.

وشقيقها الفلسطينى هو الحاج امين الحسينى المفتى الديماجوجى للقدس، وسيلعب كلا من البنا والحاج امين الحسينى دورهما فى تقدم الاسلاميين فى العقود التالية للحرب العالمية الاولى. ومثلهما مثل العائلة المالكة السعودية يدين كلا منهما ببدء نشاطة للمساندة البريطانية.

فجمعية الاخوان المسلمين التى اسسها البنا اقيمت بفضل منحة من شركة قناة السويس الانجليزية، وخلال ربع القرن التالى سيستخدمها الدبلوماسيون البريطانيون والمخابرات البريطانية ام آى 6 والملك فاروق الموالى للانجليز والمقيم فى القاهرة سيستخدمونها كمصد ضد الشيوعيين والوطنيين المصريين وفيما بعد ضد الرئيس جمال عبد الناصر فى نفس الوقت الذى كان فيه الحاج امين الحسينى الموصوم بموالاته للنازية واثارة القلاقل الخبيثة ضد السامية قد بدأ تسلقه للسلطة فى عشرينيات القرن العشرين بفضل مساندة صريحة من سلطات الانتداب البريطانى المشرفة على فلسطين. ويعتبر البنا والحاج امين الحسينى مسئولين عن انتشار الاسلام السياسى فى العالم. وقد ربط كل من الرجلين النموذج الوهابى المتطرف فى اصوليته بالافكار المثالية للاسلام الشمولى لجمال الدين الافغانى. وبفضل التمويل السعودى خلقا هيئة علمية لنشر بذور اليمين الاسلامى (الاصولى) بما فى ذلك جناحه الارهابى.

كانت علاقة لندن بالاخوان المسلمين معقدة. فبالرغم من ان الانجليز ساعدوا التنظيم عند انشائه وبالرغم من ان التنظيم قد يكونلقى المساندة من جانب المخابرات البريطانية فى السنوات التالية، فان الاخوان المسلمين والاسلام السياسى كانوا قوة فى دنيا سياسية متحولة باستمرار فى مصر والشرق الاوسط الاكثر اتساعا. فقد استخدم الانجليز والملك جماعة البنا ولا سيما جناحها السرى شبة العسكرية وسفاحيه حيثما وجدوا ذلك مناسباً لهم ولكنهم ظلوا على حذر من التنظيم الذى كان يتحول احيانا ضدهم. وعندما نمت قوة الجماعة واعلنت ان عدد اعضائها فى مصر وحدها بلغ مائة الف ولها فروع فى القدس ودمشق وعمان اصبحت جماعة الاخوان المسلمين لاعبا هاما فى مجال السياسة المصرية. ومن ثم فقد اجتذبت على مدى السنين اهتمام المخابرات الاجنبية بدءا من النازية الى السوفيتية KGB الى مكتب الخدمات الاستراتيجية التابع للمخابرات المركزية الامريكية.

وقد طغى تواجد الاخوان المسلمين على المسرح السياسى فى نفس الوقت الذى بدأت فيه قوة بريطانيا فى منطقة الشرق الاوسط تعاني من عدم الاستقرار رغم أهميتها العالمية.

بعد انجلاء غبار الحرب العالمية الأولى سيطرت بريطانيا كقوة عظمى على المنطقة ولكن بصعوبة. ورفرف علم بريطانيا فى كل مكان من البحر المتوسط الى الهند وظهر جيل جديد من الملوك واصحاب السلطان يحكم سلسلة من المستعمرات التى تخضع للسيطرة البريطانية او الدول الاقطاعية والدول الوراثية شبة المستقلة فى مصر والعراق والاردن وشبه الجزيرة العربية وفارس. وكانت كل هذه الممالك تخضع بدرجات متفاوتة لبريطانيا. ولكن مع ظهور محاولات بين الحين والاخر من جانبها مطالبة لنفسها ببعض السلطة. كان الملوك يقعون بين شقى رحى، فمن ناحية اخذت تتشكل فى كل من هذه الدول حركات وطنية معادية للنظام الملكى ومن ناحية اخرى كان مكتب الخارجية البريطانية ومكتب المستعمرات يشربون باعناقهم. وامضى البريطانيون السنوات بين 1918 - 1945 مثلهم مثل الكرات التى تتطاير فى الهواء يحاولون التوفيق بين الملوك وزعماء القبائل والطبقة الوسطى الصاعدة والجيش ورجال الدين فى كل من هذه الدول مع الحرص على المحافظة على النفوذ البريطانى، فى بعض الاحيان يصبح الملوك اكثر قوة ويتحالفون مع الجيش وفى هذه الحالة يحاول البريطانيون ان يفضوا هذا التحالف بتقديم المزايا الى رؤساء القبائل. وحيانا اخرى اذا بلغت القبائل او الجماعات الاثنية الاخرى درجة كبيرة من القوة تلجأ بريطانيا الى الجيش لسحقها.

وظهر اليمين الاسلامى خلال هذه الظروف من التوازن المختل مضيفا بذلك قوة توازن حيوية تستغلها بريطانيا فى المناورة ضد اعدائها الاساسيين: الوطنيين واليسار العلمانى.

الإسلاميون ضد الوطنيين

كان الاخوان المسلمون التنظيم الذى انشأه حسن البنا سنة 1928 هو ثمرة النمو المباشر لحركة الاسلام الشمولى التى اوجدها الافغانى ومحمد عبده، أما حلقة الوصل فهو رشيد رضا السورى الاصل الذى وصل الى مصر سنة 1897. حصل رشيد رضا على تعليمه الدينى فى طرابلس بلبنان التى يطلق عليها الان قلعة السنة. وكان احد المتابعين المتحمسين لمجلة العروة الوثقى الاسبوعية التى اصدرها الافغانى ومحمد عبده وعندما وصل رشيد رضا الى القاهرة اخذ يبحث عن محمد عبده الذى ما لبث ان اصبح مفتيا للديار المصرية واصبح تابعه الرئيس. فى سنة 1898 اسس رشيد رضا مجلة المنار⁶⁶ وهى مجلة اسبوعية ذات ثمانى صفحات تعبر بصراحة عن تقاليد رابطة الاسلام الشمولى. وعلى خلاف الافغانى ومحمد عبده اللذين كانا يعملان من خلال الجمعيات السرية والجماعات التى تعمل فى الخفاء والحركة الماسونية، دعا رشيد رضا الى أنشاء (الربطة الاسلامية التى تعمل فى العلن ويوجد مركزها الرئيسى فى مكة وتمتد فروعها الى كل البلاد الاسلامية)⁶⁷(2).

ولكن رشيد رضا لم يحاول قط انشاء المؤسسة التى دعى الى انشائها وانما بقيت هذه المهمة فى انتظار حسن البنا، وانشأ جمعية الدعوة والارشاد التى كانت بمثابة التنظيم التمهيدي للاخوان المسلمين.

وكان الشيخ محمد عبده يحظى فى ذلك الوقت برعاية اللورد كرومر الحاكم المطلق لمصر فى نهاية القرن التاسع عشر. ولكن ما كان بإمكان رشيد رضا ان يتم هذا العمل ما لم يكن قد حظى بالرضاء البريطانى.

66 - مجلة المنار

67 - يوجد بيان تفصيلى لعمل رشيد رضا فى مؤلف امز (الاسلام والحادثة فى مصر) (New York

Russell and Russell 1993) pp177- 204

طبقا لما أورده س.س. ادامز C.C.Adams كانت جريدة المنار دائمة الهجوم على الحركة الوطنية المصرية الناشئة ذات الطبيعة العلمانية. ورد الوطنيون بمهاجمة رشيد رضا. ورحبت المنار كذلك بنمو السلطة السعودية:

"لقد انبثق نجم جديد من الامل مع صعود العائلة السعودية العربية".

ان حكومة ابن سعود هي اكبر قوة اسلامية فى العالم اليوم منذ سقوط العثمانيين وتحول الحكومة التركية الى دولة لا دينية. وهى الدولة الوحيدة التى سوف تساعد السنة وتكشف البدع الضارة وكل ما يتنافى مع الدين⁶⁸

وكان رشيد رضا يعتبر الوطنيين فى كل من مصر وتركيا (ملحدين وكفرة)⁶⁹

اسست جمعية الدعوة والارشاد والمؤسسة التابعة لها مؤسسة الدعوة والارشاد فى القاهرة بتمويل اغنياء العرب فى الهند وضمت بين اعضائها طلبة من بلاد بعيدة مثل ماليزيا واندونيسيا والهند واسيا الوسطى وشرق افريقيا. لقد شكلوا الموجة الثانية من الكوادر الدولية للحركة الاسلامية بعد الجمعيات السرية التى كانت ترتبط بالعروة الوثقى. وشكل عدد من الشيوخ المصريين المرموقين وعدد اخر من القادة الدينيين ما اصبح يعرف باسم "جماعة المنار" التى تضم اتباعا لمحمد عبده من جماعة اخوان الصفا السرية.

فى مواجهة الحزب الوطنى الجديد ساعدوا على انشاء تنظيم سياسى اخر يطلق عليه اسم حزب الشعب ضم بين اعضائه اتباعا لمحمد عبده ورشيد رضا. وكان حزب الشعب الذى عرف أنه أنشئ بمساعدة الاحتلال البريطانى ويؤيد صراحة احتلال مصر ويحظى برضاء اللورد كرومر الذى وصف اعضائه بانهم مجموعة صغيرة ولكن نامية من المصريين الذين لم يسمع عنهم سوى القليل.

وفى تقريره السنوى لسنة 1906 قال اللورد كرومر ان الامل الرئيسى للوطنية المصرية بالمعنى الحقيقى والعملى للكلمة يعتمد فى رأيى على هؤلاء الذين ينتمون لهذا الحزب⁷⁰.

وكان حسن البنا هو التابع الرئيسى لرشيد رضا.

من المستحيل المبالغة فى اهمية وشرعية حسن البنا. ان حرب القرن الواحد و العشرين ضد الارهاب هى حرب ضد خلفاء البنا واخوانه. ولقد ظهوروا فى كل

68 - مقتبس من امز ص 185

69 - المرجع السابق ص 186

70 - المرجع السابق ص 222

مكان في مكتب المدعي العام في السودان، وميادين المعارك في افغانستان، في حماة بسوريا، على قمة الجامعات في العربية السعودية، في مصانع القنابل في غزة، كوزراء في الحكومة الاردنية، في المراكز البنكية في مشيخات الخليج وفي حكومة ما بعد صدام حسين في العراق.

من اجل اخراج جماعة الاخوان المسلمين الى حيز الوجود ساعدت شركة قناة السويس البنا في بناء مسجد الإسماعيلية الذي سوف يغدو مركزا لقيادة الاخوان المسلمين وقاعدة لعملياتهم وذلك طبقا لرواية ميتشيل "جمعية الاخوان المسلمين"⁷¹ ان حقيقة ان البنا انشا التنظيم في مدينة الاسماعيلية لهي في حد ذاتها ذات مغزى. إن مدينة الإسماعيلية التي يبلغ عدد سكانها اليوم 200 ألف نسمة وتقع في الطرف الشمالي لقناة السويس أنشأها فرديناند دي ليسبس منشئ قناة السويس. بالنسبة لانجلترا تشكل القناة الطريق الذي لا يمكن لبريطانيا الاستغناء عنه للوصول الى ممتلكاتها الثمينة في الهند. في سنة 1928 كانت المدينة النائمة على طرف القناة تسضيف ليس فقط مكاتب الشركة ولكن بالاضافة قاعدة عسكرية بريطانية اقيمت خلال الحرب العالمية الاولى. كذلك كانت في العشرينات مركزا للمشاعر الموالية لبريطانيا في مصر.

يقرر ميتشيل ان البنا كان على صلة وثيقة برشيد رضا⁷² وكان والد البنا وهو رجل دين مؤثر واحد طلبة محمد عبده وكان حسن البنا نفسه في شبابه قارئاً شرها لجريدة المنار وقال عن رشيد رضا فيما بعد انه اكثر الناس فاعلية في خدمة الدين الاسلامي في مصر.⁷³

كانت العلاقة بين الافغانى ومحمد عبده ورشيد رضا كما يرها البنا علاقة مباركة وطبقا لميشيل: "كان البنا يرى في الافغانى داعية او مبلغا وفي رضا موثقا او مؤرخا. فالافغانى يحدد المشاكل ويحذر ومحمد عبده يعلم ويفكر (بمعنى اخر هو الشيخ الذى يلهم الاصلاح فى الازهر) ورضا يكتب ويوثق."⁷⁴

71 - ريتشارد ميشيل ص 9 يلاحظ ان المرجع الذى يستخدمه ريتشارد ميشيل هو المذكرات الشخصية لحسن البنا Ritchard P. Mitchell, The Society of Muslim Brothers, London'1969, p.9

72 - المرجع السابق ص 5

73 - المرجع السابق ص 322

74 المرجع السابق ص 321

توقفت المنار عن الصدور اثر وفاة رشيد رضا سنة 1935 ولكن البنا اعاد اصدارها فى عام 1939 عرفانا بجميل معلمه⁷⁵

كان برنامج الاخوان المسلمين السياسى الاول معقدا جدا، فقد اصر البنا على انه ينبغى على المسلم ان يعود الى الايام البسيطة الاولى التى كانت سائدة اثناء عصر النبى محمد وخلفائه الأوائل رافضا التفسيرات الحديثة للشرعية الاسلامية التى قدمها رجال الدين المحدثين والتى يرى انها تعكس المفهوم غير النقى المغرب للفكر الاسلامى الذى بدا يغزو عقول المسلمين سيما الشباب منهم.

كان القرآن حسبا يرى البنا فيه الكفاية. وفى مواجهة الوطنيين المصريين فى العشرينات الذين كانوا يطالبون بالاستقلال الوطنى وجلاء البريطانيين ودستور ديموقراطى" رفع الاخوان الشعار الذى لاتزال ترفعه الحركة الاسلامية حتى اليوم وهو "القران دستورنا"⁷⁶

وفى الحقيقة كان القران والسنة كافيين لادارة المجتمع والشرعية الاسلامية قادرة على ان تحل محل القوانين الوضعية الماخوذة من القانون العلمانى.

غير ان مفهوم البنا للدولة الاسلامية كان يمثل نظرة تتسم بقدر كبير من عدم النضوج. ومن المتوقع ان يقوم التابعون سيد قطب والباكستاني ابو الأعلى المودودى والخمينى..... الخ بتطويرها.

وطبقا لميشيل يقول البنا ان "هيكل الدولة الاسلامية يجب ان تحدده ثلاثة مبادئ:

1- القران اساسا للدستور

2- أن تعمل الدولة طبقا لمبادئ الشورى

3- أن الحاكم التنفيذى للدولة يجب ان يتقيد بتعاليم الاسلام واردة الشعب.⁷⁷

الإسلام، حسبا يرى البنا يحوى كل شىء فهو نظام محدد من الايمان، ويشير الى السلفية باعتبارها العودة الى اساسيات النقاء، والصوفية هى عالم من الروحانيات مثلها مثل الحركة الماسونية فى اطار الاسلام. ووصف البنا حركته

75 - المرجع السابق ص 186

76- Gilles Kepel , The trail of Political Islam,Cambidge,2002, p.27

77 - ميشيل ص 246

بأنها رسالة سلفية، طريقة سنية، حقيقة صوفية، تنظيم سياسى، جماعة رياضية، نقابة ثقافية تعليمية، شركة اقتصادية وفكرة اجتماعية.⁷⁸

فى سنة 1932 انتقل البنا الى القاهرة وأسس جماعة الإخوان المسلمين فى العاصمة المصرية. وخلال العشرين سنة التالية حتى ثورة 1952 عملت جماعة الإخوان المسلمين كممثلة لليمين المصرى بالتحالف مع القصر ومع الجناح اليمى لحزب الوفد وكبار الضباط المحافظين فى الجيش المصرى. وفى سنة 1933 عقد البنا المؤتمر الأول للتنظيم فى القاهرة ثم بعد ذلك نوادى الشباب والرياضية والاتحادات الرياضية المرتبطة بالاعوان المسلمين وبدأت بتشكيل وحدات شبة عسكرية اطلق عليها اولا اسم الجواله سنة 1936 ونظمت بوضوح على نفس الاسس التى نظمت عليها الحركات الفاشية فى اوربا وفيما بعد اطلق على الجواله اسم الكتائب⁷⁹ وكان لها تواجد فريد فى مصر: منظما ومتوعدا، مطلق الولاء للبنا. وفى سنة 1937 فى حفل تتويج الملك فاروق عهد الى بلطجية الاعوان بتأمين "النظام والامان" لحفل التتويج.⁸⁰

كان حزب الوفد هو المنافس الرئيسى فى فترة ما بين الحربين للاخوان المسلمين، ونظم من بين قواعد الحركة الجماهيرية السياسية المناهضة للاحتلال البريطانى قبل الحرب العالمية الثانية وسمى بهذا الاسم (الوفد) تيمنا بالوفد الذى قاده سعد زغلول لحضور المؤتمر الدولى الذى عقد بعد الحرب العالمية الاولى وقرر فيه الامبرياليون المنتصرون مستقبل المنطقة وانشاء دولا كاملة الحقوقها بعدد من مختلف العواصم الاوربية. كان الوفد يمثل تحالفا لقوى مختلفة فيه اليسار والوسط واليمين ودخل فى تحالفات مختلفة احيانا مع الملك وحيانا ضده ومع قوى سياسية اخرى على مر السنين. اما يسار الوفد فقد اختار التحالف مع اليسار الشيوعى بينما أثر يمين الوفد اقامة علاقات سرية مع الاعوان.

خلال العقود التالية لعب البنا لعبة مركبة ذات ابعاد ثلاثية فى السياسة المصرية، فقد اقام علاقات وثيقة مع النخبة التى تحيط بالملك فاروق حاصلا بذلك على دعم مالى وسياسى وموفرا للملك ادوات مخابراتية وفرق صدام ضد اليسار. وفى الاربعينيات كان للاخوان صلات داخلية وخارجية مع القصر وتدفع على

78- المرجع السيق ص 14

79- الكتائب نفس التعبير الذى استخدمه ال جميل - امراء الحرب فى لبنان مثلهم فى ذلك مثل الكثير من الاسلاميين الذى اعجبوا بهتلر

80 - ميتشيل ص ص 13- 16

العديد منهم كمية كبيرة من الاموال. وكان البريطانيون ايضا داخل هذه اللعبة - كما يقول جويل جوردون⁸¹ Joel Gordon وهو خبير في حركة الاخوان المسلمين "ايما شىء يقوم به القصر ذو علاقة بالانجليز" وطور البنا علاقات وثيقة مع اثنين من كبار المسؤولين المصريين المتنفذين وهما رئيس الوزراء على ماهر وهو داعية متحمس للاسلام الشمولى والفريق عزيز المصرى قائد القوات المصرية واقام البنا من خلال قنوات معظمها سرية، صلات عديدة بالقصر وفى بعض الاحيان عن طريق الطبيب الخاص بالملك او من خلال مسئولين حكوميين عديدين او من خلال الجيش. وكان الملك يستشيرهم فى تعيين رؤساء الوزارات وتلقى على الاقل دعوة لحضور احد الاحتفالات الملكية.

يقول ميتشل "من الواضح ان جمعية الاخوان كانت اداة تستخدم ضد الوفد والشيوعيين"⁸² كان الجناح اليميني للوفد وبصفة اساسية ملاك الاراضى والرأسمالين يعتبرون الاخوان حلفاء لهم بينما كان التيار الاساسى للوفد يعتبر الاخوان قوة رجعية"⁸³

الجهاز السري للإخوان المسلمين

خلال الحرب العالمية الثانية اقام الاخوان المسلمون بادية ذى بدء جهاز مخابراتهم ووحدة سرية ارهابية اطلقوا عليها: "الجهاز السرى" "جمع جهاز مخابراتهم معلومات عن المنشآت العسكرية والسفارات الاجنبية والمكاتب الحكومية وغيرها"⁸⁴ حسبما اشار محلل سياسى فى الخمسينات " ان هذه الوحدة السرية هى التى اعطت جمعية الاخوان المسلمين سمتها الجديدة كمنظمة ارهابية. انشئت هذه المنظمة سنة 1942 وخلال السنوات الاثنى عشر التالية، وحتى تم سحقها بواسطة عبد الناصر ستتولى اغتيال عدد من القضاة وضباط الشرطة ومسؤولين حكوميين وتقوم بحرق وسلب مؤسسات يهودية مصرية وهجمات على النقابات العمالية

81 - مناقشة مع المؤلف Joel Gordon يونيو 2004

82 - ميتشل ص ص 40-42

83 - المرجع السابق ص 27

84- Zvi Kaplinsky, The Muslim Brotherhood, Middle Eastern Affairs, December 1954, p. 378

والشيوعيين، وخلال هذه الفترة عملت غالبا بالتنسيق مع الملك مستخدمة قوتها شبه المسلحة لمصلحته ضد أعدائه السياسيين. وحينما بدأت قبضة الملك تتراخى أبعد الإخوان أنفسهم عنه بينما انشأوا علاقات سرية مع الجيش وأجهزة المخابرات الأجنبية. ولكنهم كانوا دائما معادين لليسر. وطبقا لميتشيل عمل الجهاز السرى للإخوان بنفس الطريقة التى كانت تعمل بها مخابرات (مباحث) الحكومة المصرية. فى 1944 بدأ جهاز مخابرات الإخوان يخترق الحركة الشيوعية المصرية التى انتعشت خلال الحرب العالمية الثانية واعتبرها الإخوان احد أعدائهم الرئيسيين⁸⁵

مما لا شك فيه ان الاغلبية العظمى من عضوية الإخوان كانت موجهة بحماس من اجل انشاء دولة اسلامية يمينية. وكانوا يعارضون بقوة الامبريالية. ولكن قيادتهم كانت تمارس لعبة السياسة باعلى مستوياتها، فهى تتعاون مع الملك والاحزاب العلمانية والجيش والقوى الامبريالية. غير انه ليس معروفا بشكل مؤكد ما اذا كان قادتهم مؤمنين بحق وعازمين على ان يجعلوا الصفقات التى يبرمونها مع شياطين العالم الكبار مؤقتة ام كانوا سياسيين مكرين او عملاء مباشرين للقوى الأجنبية. لكن لم يكن هناك سوى شك ضئيل فى أنه بينما كان بعض قاداتهم مخلصين حقا فان بعضهم الآخر كان بوجهين وكان عميلا.

عاش الإخوان المسلمون فى نوع من المأزق السياسى، فجناحهم العلنى ونجومهم السياسيين - وبشكل خاص البنا نفسه - خادن الملوك والجنرالات بينما انشغل جناحهم السرى بالتجسس والاعتيالات. وطالما كان عنف الإخوان موجهها نحو اعداء الملك والبريطانيين فقد كانوا يمارسون ذلك دون خشية من عقاب، إلا أنهم حين يتخطون الخطوط الحمراء كما هو شأنهم بين الحين والآخر، فان الحكومة كانت تشن عليهم الحملات او تحظر نشاطهم بشكل مؤقت. وفى أحيان أخرى قد يرى القصر او الجيش أن ثمة فائدة فى ذلك، ببساطة إذا بلغوا قدرا كبيرا من القوة بحيث يتحملها النظام وقد يدعمها. وبالإضافة فقد كان لدى جمعية الإخوان المسلمين خلال وجودها ما يعوضها من المساندة المالية والمادية التى كانت تتلقاها من العائلة الملكية السعودية والمؤسسة الوهابية.

كان الإخوان المسلمون منظمين فى خلايا او اسر وهى جماعات تتكون من خمسة - سبعة اعضاء حصلوا على التدريب الفكرى والعسكرى لفترة طويلة وممتدة احيانا فى الفروع المختلفة لحرب العصابات حتى يصبحوا "اخوانا عاملين". وكانوا

عندما يكتمل التدريب يتظاهرون - طبقا للتعليمات التي تلقوها - بأنهم تخلوا عن الاخوان والتحقوا بتنظيمات اخرى تعمل في مجال العقيدة أو الرياضة.⁸⁶

كان البريطانيون بحكم خبرتهم العريقة على مدى قرنين في المجال السياسي الديني والقبلي على دراية بقوة الحركة الاسلامية. اعترف احد ضباط المخابرات البريطانية وكان مرتبطا بالملك، بقوة حركة الاحياء الاسلامي بعد الحرب العالمية الثانية. كان يعمل في المخابرات البريطانية ضابط اتصال اسمه ديفيد "آرشي" بويل، وهو ضابط مخابرات عريق، كان على اتصال برئيس الديوان الملكي احمد حسنين باشا. استشعر بويل "دمدمة الغليان الصادرة عن قوة الصحوة الاسلامية التي بدأت سنة 1946 كما كان الشأن سنة 1919 وكيف كانت تؤثر على بلدان الشرق الاوسط بكاملها، الا انها كانت هذه المرة مضاعفة نتيجة السباق على البترول"⁸⁷ وكانت السفارة البريطانية وفيما بعد السفارة الامريكية في القاهرة على اتصال منتظم بجماعة البنا من الاخوان المسلمين.

بعد الحرب العالمية الثانية شن نظام الملك فاروق المتداعي حملة ضد اليسار وكانت حملة قمع مكثفة موجهة ضد الشيوعيين. كانت الحرب الباردة قد بدأت. وعلانا قام اسماعيل صدقي باشا الذي عين رئيسا للحكومة بمساندة البنا وتمويل الاخوان وأعد لهم المعسكرات لتدريب قواتهم الصدامية. وأيد الاخوان المسلمون الحملة الساحقة ضد اليسار وعضدوها بحماس.

: في هذه الحملة ناهض الاخوان المسلمون بمرارة الشيوعيين والتحقوا بها بحماس وأوردت صحفهم أنباء الحملة في عمودها اليومي المعنون: المعركة ضد الشيوعيين". وامتدت مخابراتهم الحكومة بمعلومات ثمينة في الحملات المتتابعة التي قامت بها ضد الشيوعيين الحقيقيين والمشتبه بهم سيما في دوائر العمال والجامعة"⁸⁸. وبالإضافة نظم الاخوان نقابات يمينية وخرّبوا الاضرابات وناهضوا بمرارة الوطنيين الوفديين (عادة ما يكونون على اتصال بالوفديين اليمينيين). وينتهي ميتشيل كلامه قائلاً: "في اللحظة الراهنة فان القصر ورؤساء الحكومة المحافظين والاخوان المسلمين لهم عدو مشترك هو: الشيوعية والوفد".⁸⁹

86 - كابلنسكى ص 378

87- Stephen Dorril, M16 , New York 2000,p.538

88 - ميتشيل ص 39

89 - المرجع السابق ص 40

فى الاربعينات كان انور السادات رئيس جمهورية مصر فىما بعد عضوا
اساسيا فى جماعة الاخوان المسلمين، وكان على صلة وثيقة اثناء الحرب العالمية
الثانية بحركة فضفاضة مشكلة من صغار الضباط شكلت رسميا سنة 1949 بفضل
عبد الناصر تحت مسمى تنظيم الضباط الاحرار المصريين فى مطلع الحرب
الفلسطينية واستولت على السلطة من الملك فاروق سنة 1952. وضمت حركة
الضباط الاحرار اعضاء ذوى ايدىولوجيات متباينة من الشيوعيين والوطنيين
اليساريين والوفديين واطعاء من الاخوان المسلمين، يوحدهم جميعا الاعتقاد بان
الملك فاروق رجل فاسد لا رجاء منه وأنه عميل. كانت المعاملة المذلة التى تلقاها
الملك اثناء الحرب العالمية الثانية على يد السفير البريطانى سير مايلز لامبسون
الذى حسبما قيل لهم اطلق على فاروق لفظ "ولد"⁹⁰ فى مواجهته قد اشعلتهم غضبا
وتعاهدوا فيما بينهم واحدا اثر آخر على الارتباط معا بعد سنوات الحرب.

كان السادات عضوا يمينيا فى حركة الضباط الاحرار الناصرية، وكان حلقة
الوصل بين الضباط العسكريين غير المتجانسين والبنا. خلال الحرب كان السادات
على علاقة متكافئة مع مؤسس حركة الاخوان. فى سيرته الذاتية " البحث عن
الذات" قدم السادات بيانا مفصلا عن علاقته بالبنا.⁹¹ ، فهو يشيد بحرارة بالبنا قائلا: "كان
فهمه للعقيدة عميقا وكان عرضه لها مؤثرا. كان فى الحقيقة كفوا من كافة
الوجوه ليكون قائدا دينيا. وبالإضافة كان مصريا حقا، خفيف الروح، مرحا، رقيقا
وحمولا. ادهشنى بدقة تنظيم الاخوان المسلمين وبالإحترام البالغ حد التقديس الذى
يحظى به القائد الاعلى للجماعة."⁹² فى سنة 1945 حاول السادات ان يرتب لقاء
بين البنا والملك فاروق عن طريق يوسف رشاد وهو احد المتصلين بالسادات
وطبيب الملك الخاص ولكن هذا اللقاء لم يتم، غير انه فى خلال مناقشة بين السادات
والبنا اتفقا على التعاون معا من اجل انشاء الضباط الاحرار. وبدأ البنا يجند ضباطا
لهذا الغرض.⁹³

90 - سعيد ابو ريش Said Aburish , Nasser: The Last Arab, New York, 2004, p.18

91 - انور السادات In Search of Identity, New York 1977 - يجب اخذ كلامه هنا بشئ من
الحذر لانه كتب منتصف السبعينات وكان مشغولا فى ذلك الحين بعمل تحالف سياسى مع الاخوان
المسلمين العائدين علما بلان الكتاب اغفل تفاصيل مهمة.

92 - السادات ص 22

93 - المرجع السابق

ما اذا كان البنا يجند اعضاء للضباط الاحرار ام لاختراق هذا التنظيم فهو امر غير واضح. فالاخوان المسلمون كانوا اكثر من حركة، كانوا عقيدة، كانوا حزباً للتجديد، كانوا عملية مخابراتية، كانوا وحدة شبه عسكرية وكان تنظيمها عالمياً يبنى لنفسه فروعاً في الكثير من دول الشرق الاوسط. ما هو واضح انه خلال الاربعينات كان البريطانيون والنازي والسوفييت قد اخترقوا تنظيم الاخوان المسلمين تماماً.

في الثلاثينات التمس كثير من القوميين العرب ذوى الاتجاه اليميني والكثير من المسلمين اليمينيين بمن فيهم الاخوان المسلمون، التمسوا في المخابرات النازية الالمانية النجدة والمساندة واقاموا علاقات معها. طبقاً لمايلز كوبلند Miles Copeland وهو أحد اساطين العاملين في المخابرات المركزية الامريكية وامضى سنوات عديدة في مصر خلال الحرب العالمية الثانية " كان تنظيم البنا في الحقيقة وحدة مخابراتية ألمانية"⁹⁴. مما لا شك فيه ان كوبلند بالغ في قوله هذا ربما عن عمد برغم ان هناك العديد من الاسلاميين كانت لهم روابط بالنازية في ثلاثينات واربعينات القرن العشرين. وبعد الحرب العالمية الثانية هاجر العديد من الاسلاميين الذين كانوا مرتبطين بالنازي مرة اخرى الى بريطانيا ثم الى الدوائر الانجلو امريكية، احيانا مقابل اغراءات مالية سخية.

في الخمسينات عندما القى ناصر القبض على زعماء الاخوان، اكتشفت اجهزة مخابراته الى اى حد كانت علاقات التنظيم معقدة. يعلق كوبلند قائلاً: " تم استتطاق منظمي هذه الجماعة الذين القى القبض عليهم ووجدوا الى اى حد كان التنظيم مخترقاً اختراقاً تاماً من القمة من قبل المخابرات البريطانية والامريكية والفرنسية والسوفييتية، وان ايا من هذه المخابرات كان يستطيع ان يستخدمه او ان ينسفه من الداخل حسبما يلائم اغراضه."⁹⁵ وحينما اتضح أكثر فأكثر لكل من لندن وواشنطن ان الملك فاروق لن يمكنه الاستمرار، كان البحث يجرى عن نظام بديل. كانت الخيارات المطروحة هي اولا اتحاد الوفد والشيوعيين والثاني هو التحالف السري بين الاخوان وضباط الجيش. ولكن لا البريطانيين ولا الامريكان كانوا يرغبون في الخيار الوفدي الشيوعي. كان يبدو أن البريطانيين مصممون على تدعيم النظام الملكي بينما يفضل الامريكان دعم الضباط الاحرار الناصريين. وكان للاخوان علاقات مزدوجة مع كل من النظام الملكي والضباط الاحرار، وقاموا بلعبة مزدوجة.

94 - مايلز كوبلند المرجع السابق ص 184

95- المرجع السابق

كان حزب الوفد نفسه موزعا بين أجنحة مختلفة ويعانى من الفساد. ولكن جزءا هاما من الوفد كان يسعى إلى التحالف مع اليسار والشيوعيين الأمر الذى كان مصدر قلق للقصر والبريطانيين والايخوان المسلمين. وبذل الاخوان جهدهم من اجل افساد اى امكانية لقيام محور وفدى شيوعى، ورد الوفد على الاخوان واصفا اياهم بعصابة البنا الذين يتلقون الاموال من البريطانيين واسماعيل صدقى رئيس الوزراء الموالى لبريطانيا. واتهم الشيوعيون والوفديون الاخوان بانهم ادوات الامبريالية، واتهم الوفد كتائب الاخوان بانهم يسرون على نهج الارهاب الفاشى وطالب بحل الوحدات شبه العسكرية للاخوان وضرب العديد من الامثلة على العمليات التى قام بها بلطجية الاخوان لتخريب الاضرابات⁹⁶. كان الاخوان قد اكتسبوا مزيدا من القوة نتيجة لتحول غير متوقع جرى سنة 1948 بسبب انفجار الحرب فى فلسطين.

البنا والمفتى

ادت الحرب العربية اليهودية الى زيادة قوة الاخوان المسلمين بدرجة كبيرة. وكانت لحظة كارثية بالنسبة للشرق الاوسط حيث ظهرت امة يهودية جديدة اقامت نفسها على جزء من ارض فلسطين التى كانت تحتلها بريطانيا. كانت الحرب وهزيمة الجيوش العربية من قبل الوحدات شبه العسكرية اليهودية وانشاء دولة اسرائيل ككيان دائم، كل ذلك غير من الديناميكية السياسية فى الشرق الاوسط ووضع الاسلام السياسى فى هذه المنطقة فى وضع شائك بطرق متعددة، فمن ناحية شكل الاخوان وحداتهم شبه العسكرية خلال الحرب نفسها وحصلت هذه الوحدات على الدعم الرسمى من جانب الدول العربية. ومثلهم مثل المجاهدين الافغان خلال الثمانينات تشكلت وحدات من المتطوعين الاسلاميين الذين صقلتهم المعارك، ومن ناحية ثانية فان خسارة الانظمة العربية قد نالت من سمعتها بما فى ذلك الانظمة الملكية، وخلقت فراغا مهيئا لتشغله قوى سياسية جديدة مثل الاخوان المسلمين، وانتهاز الاسلاميون الناشئون الفرصة المتاحة باكملها لشن دعايتهم التى تدور حول فقدان فلسطين. ومن ناحية ثالثة تمكن الاسلاميون من حشد رصيد سياسي كبير بالتحذير من الخطر اليهودى على القدس والاماكن الاسلامية المقدسة الاخرى واستخدموا ذلك التحذير كدواء مدوى تحتشد الجماهير حوله. وشحذت هذه الحرب كذلك الروابط التى تربط الاخوان بمفتى القدس، وهو احد الناشطين الاسلاميين

الذين يتمتعون بالرعاية البريطانية والمتآمر الذي يدعمه النازي، الحاج أمين الحسيني مفتى القدس. وتمتد علاقتهم لأكثر من عقد، فقد التقى الحاج أمين الحسيني حسبما توضح الوثائق لأول مرة مع الإخوان المسلمين سنة 1935 حين التقى عبد الرحمن البنا شقيق حسن البنا الذي سبق ان ساعد البنا في تأسيس الجماعة ورأس جهازها السري⁹⁷. ومثله مثل البنا لعب الحاج أمين دورا بالغ الأهمية في تأسيس حركة القرن العشرين السياسية الإسلامية الأصولية.

لقد استفز إنشاء إسرائيل بطبيعة الحال ليس الإسلاميين فحسب ولكنه غذى القوميين العرب من أمثال ناصر الذين أرادوا أن يخلصوا العالم العربي من تآلفه مع الملوك الفاسدين. كانت إسرائيل في نظر الوطنيين رمزا للضعف العربي والتبعية شبه الاستعمارية التي يرعاها الملوك التابعين في مصر والاردن والعراق والعربية السعودية. غير أن البنا والإخوان تحدوا هذه النظرة وزعموا أن القوميين العرب هم المخططون وأنه لا يرجى أي نفع من القومية العلمانية أو بناء الدولة الوطنية. وبكل تأكيد البناء على النمط الغربي، وإن الطريق الوحيد لاسترجاع المجد السابق للعالم الإسلامي هو العودة إلى الإسلام الأصولي الذي يحملون لواءه. كانت ثمة معركة متعددة الأبعاد في طور النمو لتقرر مستقبل الشرق الأوسط. وكان المسلمون مجرد طرف واحد ضمن القوي المتنافسة العديدة التي تتنافس في مواجهة بعضها البعض. كان هناك الوطنيون واليسار (بما في ذلك الأحزاب الشيوعية العربية النامية) والمتقنون العلمانيون والطبقة العاملة في المدن وكان هناك التجار والأغنياء ورجال الأعمال العاملين في مجال التجارة الخارجية وتجار الداخل، وكان هناك المثقفون التقليديون وزعماء القبائل وملاك الأراضي الأرستقراطيون وأخيرا كان هناك الملوك وجيوشهم. كان المسلمون البرجوازيون الناشئون يمثلون فرس الرهان، فهم معارضون بشدة للوطنيين واليسار ويحتفظون بروابطهم مع النخب التقليدية ويحظون بتأييد الكثير من التجار ولهم كذلك تحالفاتهم السرية مع ضباط الجيش وأنصار الملك. وبالنسبة للبريطانيين والأمريكان وامثالهم الذين جاءوا متأخرين، كان من الصعب معرفة إلى أي جانب يراهنون.

لقد عقدت الحرب الفلسطينية حسابات الانجليز والأمريكان في أواخر الأربعينات. كان كل من اليسار واليمين يلوم الغرب بسبب موقفه من الغزو الإسرائيلي.

حقق الاخوان المسلمون نموا مضطردا فى اواخر الاربعينات، وساهم سعيد رمضان زوج بنت البنا فى تنظيم الكثيرين فى فلسطين والاردن. وبذريعة تسليح انفسهم للحرب ضد الصهيونية جمع الاخوان المسلمون وخبزوا عتادا من الاسلحة التى امدهم بها سرا اعضاء الجهاز السري الذين كان لهم علاقات مع الجيش المصري. وتذرع تحالف البنا والحاج امين الحسينى بذريعة الحرب الصليبية فى فلسطين مما ساعد الاخوان على مد نفوذهم الى سوريا والاردن ولبنان وفلسطين.

ان الزعم بان الحاج امين الحسينى كان له مهمة محددة هو قول مبتور، فنظرتة العالمية الجنونية كانت تتركز حول كراهيته الشرسة لليهود ودعمه العلنى لهتلر مما جعله محط ازدراء المؤرخين. ولكنه كان منذ البداية صنيعة بريطانية وكان له لمدى عقود تأثير سحرى على بعض البريطانيين الذين يعملون فى اجهزة المخابرات بمن فيهم فرييا ستارك Freya Stark وهو عامل اسطورى فى المخابرات البريطانية اطلق على الحاج امين الحسينى صفات تكاد تكون تقديسية حيث يقول: "هناك جلس المفتى متدثرا كله برداء فضفاض ناصع البياض. كان رجلا فى الاربعينات يرتدى عمامة تبدو كالهالة. كانت عيناه ذواتا اللون الازرق الفاتح تتألقان ببهاء نجم يتساقط لتوه من السماء"⁹⁸

باختصار يمكن القول ان مهمة الحاج امين الحسينى بدأت بداية متواضعة، فهو سليل لعائلة فلسطينية عربية هامة. درس فى الازهر - جامعة مصر الاسلامية، ولكنه لم يكن مجتهدا ففشل فى اتمام دراسته وبعد الحرب العالمية الاولى التحق بوظيفة مترجم فى وكالة رويتر للانباء فى القدس. وتدرجيا اخذ يشغل نفسه بالسياسة الفلسطينية ولكنه أبدى ميلا للعنف وللنظريات المتطرفة المعادية لليهود التى تتحدث عن مؤامراتهم بما فيها بروتوكولات كبار الصهاينة. وقبض عليه لدوره فى الاضرابات المناهضة لليهود، ولكن سير هربرت صمويل المفوض البريطانى الأعلى فى فلسطين - وهو يهودى - اصدر سنة 1920 بشكل دراماتيكى عفوا خاصا عنه كما وضع الترتيبات اللازمة لصعوده المميز الى السلطة⁹⁹

ومع ان مؤهلاته كداعية اسلامى كانت لا تذكر فان سير رونالد ستورز Ronald Storrs حاكم القدس عزز الانتخابات التى جرت لصالحه وعينه مفتيا للقدس.

98 - Joseph B. Schechtman, The Mufti and the Feuhrer, New York ,1965 p.287

99 - المرجع السابق ص 21

طبقا للقاموس السياسى للشرق الاوسط للقرن العشرين، فان المفتى هو:

"موظف سنى مسلم يصدر الفتاوى فى المسائل المطلوبة. فى معظم البلاد الاسلامية يتم اختيار المفتى بواسطة الحكومة. والمفتى له وضعية خاصة محترمة وتأثير روحى واجتماعى كبير ولكنه لايقوم بعمل تنفيذى وليس له انتماء سياسى. واستثناء من ذلك كان مفتى القدس الحاج امين الحسينى (الذى عين فى الخدمة سنة 1921 وطرد منها سنة 1937) واستغل وظيفته فى تدعيم قيادته السياسية"¹⁰⁰

بعد سنة انشأ هربرت صمويل المجلس الاسلامى الاعلى الذى اعلن مسئوليته عن الاوقاف الدينية الغنية وسمى الحاج امين الحسينى رئيسا لها. هاتان الوظيفتان اعطتا ذلك الديماجوجى المسلم الجوال نفوذا سياسيا هائلا "¹⁰¹.

وبالتوازي مع جمعية الاخوان المسلمين عقد الحاج امين الحسينى سنة 1931 مؤتمرا اسلاميا فى القدس وشد الرحال الى الهند فايران فافغانستان والى بلاد اسلامية اخرى لجمع المال وتلقى الدعم. وقد حظى بنذرغير يسير من دعم بريطانيا وحمايتها حتى حينما كان يميل الى التحالف السياسى مع المانيا، فحينما القى القبض عليه ضمن ستين مناضلا فى فلسطين خلال تمرد ضد البريطانيين سنة 1936، اطلق سراحه وهو الذى كان له دوره فى هذا التمرد"¹⁰².

وعلى كل فان ميوله النازية قد دفعت به الى الهرب اولا الى لبنان ثم العراق فايران واخيرا الى برلين بعد ان عبر لهنر عن تعاونيه وولائه فى كل المجالات"¹⁰³. فى المانيا اشرف الحاج امين على مفاتيح الاذاعة الدعائية الموجهة الى الشرق الاوسط كما ادار شبكة التجسس ونظم الوحدات الاسلامية لقوات العاصفة النازية المشكلة من ابناء البوسنة اساسا.

مع انهيار الرايخ الثالث غادر المفتى المانيا بهدوء متوجها- عبر سويسرا- الى فرنسا ليستقر فيها، ورفض الحلفاء القاء القبض عليه او اعتقاله واعلن البريطانيون بشكل خاص انهم لا يريدون تسليمه، واصدر السكرتير المساعد للخارجية البريطانية تصريحاً جاء فيه: "ان المفتى ليس مجرم حرب"¹⁰⁴. فى سنة

100- Political Dictionary of the Middle East in the Twentieth Century, Jerusalem 1971 p.260

101 - Schechtman, مرجع سابق ص ص 23-24

102 - مرجع سابق ص 45.

103 - مرجع سابق ص 106.

104 - مرجع سابق ص 172

1946 وصل الحاج امين الحسينى ظافرا الى مصر حيث تم الترحيب به بوصفه ضيفا على الملك. وكتب مراسل النيويورك تايمز فى اغسطس سنة 1946 قائلا: "ان بيت المفتى قد اصبح مزارا للاسلام السياسى واصبحت فيلا عايدة بالقرب من محطة رشدي باشا هى خط سير السيارات التى تعبر الاسكندرية متجهة الى ضاحية الرمل." وأشار تقرير لجريدة النيويورك تايمز الصادرة فى اغسطس 1946 الى: "تواجد عسكري مصري بين كل 8-10 ياردات حول الحديقة والى وجود حراسة خاصة للمفتى فى الداخل".¹⁰⁵ ويشير تقرير اخر الى ان النشاط السياسى للمفتى ممول بسخاء من قبل الملك عبد العزيز آل سعود ملك العربية السعودية والملك فاروق ملك مصر.¹⁰⁶

من الواضح ان بريطانيا لم تقدم الى المفتى اى احتجاج لأنها سرعان ما ستستخدمه فى الدعاية لها حيث انشأت المخابرات البريطانية لها فى القاهرة "وكالة الانباء العربية" ومحطة "اذاعة الشرق الادنى" وكان اول مدير لها هو الفريد مارسك Alfred Marseck قائد الفيلق البوسنى وهو مسلم ورع كان قد خدم فى الشرق الاوسط قبل الحرب وكرس افضل سنى حياته لخدمة المصالح العربية حتى انه تحول الى الاسلام.¹⁰⁷ ربما استاجرت المخابرات البريطانية إم آى 6 الحاج امين الحسينى نظرا لخبرته السابقة فى اذاعة النازى. وكان الرجل الذى يشرف على اذاعة الشرق الادنى من خلال مؤسسة الشرق الادنى التابعة للمخابرات البريطانية هو سير كيناهاان كورنواليس Kinahan Cornwallis وهو ارستقراطى مصرى فى بريطانى كان يرأس المكتب العربى وهو المكتب الرئيس للمخابرات البريطانية فى القاهرة خلال الحرب العالمية الاولى بالاضافة الى قاعدة العمليات التى كان يديرها ت. ا. لورنس.¹⁰⁸

فى سنة 1946 شكل المفتى والاخوان المسلمون معا تنظيما شبه عسكري فى فلسطين اطلق عليه "المنقذون" ويضم قرابة 10 عشرة آلاف رجل تحت السلاح.¹⁰⁹ ولكن السلطات البريطانية اما ان تكون قد غضت الطرف عن "المنقذين" او تجاهلتهم.

105- دوريل ص 237

106 - Joseph Alsop ,Crafty Fanatic Organizes Troubles in Palestine, Boston Evening Globe,December17, 1947

107 - دوريل ص 237

108 - المرجع السابق ص 540.

109 - Andrew Roth, The Mufti's New Army, The Nation, November 16, 1946.

خلال ذلك انشأ البنا والمفتى علاقة عمل فيما بينهما. وتم وضع احدى الوحدات العسكرية التابعة للاخوان المسلمين في غزة تحت قيادة مساعد سودانى للمفتى¹¹⁰. فى القاهرة ساند البنا الحاج امين بوصفه رئيس الحكومة الفلسطينية الجديدة وربما كانت عودته الظافرة الى غزة سنة 1947 واعلانه قيام الدولة الفلسطينية وتعيين نفسه رئيسا لجمهوريتها.¹¹¹ ربما كانت هذه النقطة هى ذروة المهام التى اضطلع بها المفتى.

ولكن مع الهزيمة العربية على يد القوات اليهودية لم يعد هناك ثمة اثر لدولة الحاج امين المزعومة، ومع ذلك يمر الحاج امين من هذه المحنة وينجح ويعود للمعركة فى الخمسينات.

ولكن البنا كان يقترب من نهاية حياته الملتهبة. كان نظام الملك فاروق يقف على رجل واحدة والحلقة السياسية الشريرة تضيق حوله. زلزلت ازمة الحرب الفلسطينية سنة 1948 نظام الملك فاروق وجعلت من الصعب على اية قوة سياسية ان تقف الى جانبه وبالإضافة غشت البلاد ازمة اقتصادية صاحبها تمردات ومظاهرات واضرابات وعنف متنامى. وانهار عرس الوفاق بين الاخوان والقصر واخذ كل من الوطنيين والاسلاميين يحاول التميز السياسي عن طريق القاء مسئولية الهزيمة على نظام الملك فاروق العاجز.

واخيرا فى ديسمبر 1948 اصدرت الحكومة قرارا بحظر جماعة الاخوان المسلمين، وبعد اربعة اسابيع قام احد قتلة الاخوان باغتيال رئيس الوزراء محمود فهمى النقراشى باشا، بعد ذلك بشهرين، سنة 1949 جاءت نهاية البنا المفاجئة حيث تم اغتياله واطلق عليه النار فى الشارع خارج المقر الرئيس لجمعية الشبان المسلمين فى القاهرة، على الأرجح بواسطة احد ضباط الامن المصريين.¹¹²

كانت وفاة البنا علامة فارقة للمرحلة الاولى للاخوان المسلمين وبداية مرحلة جديدة. بعد وفاة البنا بدا الصراع بين الاجنحة المختلفة داخل الاخوان من اجل السيطرة على الجماعة، واخذت الجماعة تتذبذب ما بين العمل لسري والعلنى اولا ثم واجهتها مشكلة فرض الحظر عليها بعد المعاناة التى كابدها. تولى القيادة خلفا للبنا

110 Scgechtman , p. 223.

111- المرجع السابق ص 234

112 - لم يقبض على احد اطلاقا بسبب اغتيال البنا . وحسبما يرى معظم المؤرخين فقد تم اغتياله بواسطة احد ضباط الامن بناء على اوامر صادرة من الحكومة المصرية.

المستشار حسن اسماعيل الهضيبي وهو قاض مصري كان اخوه يشغل منصب رئيس التشريفات الملكية وتم اختياره بناءا على الاعدادات التي قام بها ملاك الاراضى الاغنياء فى الصعيد (بعد 50 سنة سيتولى ابنه منصب المرشد العام للجماعة)، وسيتولى كل فريق من الاخوان المسلمين اقامة اتصالات مع كيانات السياسة المصرية بمختلف اجزائها مع الاحتفاظ بالخطوط مفتوحة مع القصر والقيام باختراق الجيش والشرطة واقامة اتصالات سرية مع العناصر البرجوازية داخل حركة الضباط الاحرار التي ستستولى على السلطة.

ومع الانقسامات داخل الاخوان بعد وفاة البناء كان واضحا انها سوف تستمر بعد وفاته. وبفضل سعيد رمضان اخذ الاخوان يمدون فروعهم ونفوذهم على اتساع العالم. اما فى مصر فقد استمروا كقوة تتمتع بامكانيات وينتمى لها اعضاء يقدرون بمئات الالوف. وساعدت الاموال التي تدفقت عليهم من السعودية على المحافظة على الحركة حينما تحركت ضدها الحكومات العربية الاخرى سيما فى مصر. وبفضل الحرب الباردة ستجذب الحركة اهتمام الحصار العالمى ضد الشيوعية. ان تكوينها الذي يضم نخبة من السياسيين المحليين وعملها السري الجهادى الميال للعنف كان البداية لما نسميه اليوم بـ "الاسلام السياسى". فالاسلاميون فى باكستان وافغانستان وايران والسودان الذين تسنموا السلطة منذ اواخر سبعينات القرن العشرين كانوا نتيجة مباشرة للعمل الذي ارسى اساسياته البناء ورمضان وأمثالهم.

من بين حطام الحرب العالمية الثانية تقوم الولايات المتحدة باولى خطواتها المترددة فى الشرق الاوسط، فالمنطقة الشاسعة الممتدة من اليونان الى تركيا ثم باكستان والهند كان مقدرا لها ان تصبح القاعدة الخلفية الرئيسة فى الحرب الباردة. اما العامل الذى فصل الشرق الاوسط عن المناطق الاخرى من مناطق الصراع بين الشرق والغرب فكان قربه من الاتحاد السوفييتى بالاضافة الى ان ثلثى الاحتياطى العالمى من البترول يتركز فى المساحة المحدودة التى تحيط بالخليج الفارسي.

ان الاستراتيجيين الذين اقاموا احلاف الناتو (الاطلسي) وبغداد وجنوب شرق آسيا ربطوا بين الاهمية الفائقة لتأمين الخليج وسرعة إرسال القوات والقيادة المركزية الامريكية.

ومن سوء الحظ ان هؤلاء الاستراتيجيين خلطوا بين التهديد المزعوم للاتحاد السوفييتى وصعود القوة الذاتية للقومية العربية التى ترى ان بترول المنطقة هو

جزء من استقلالها الوطنى، ومن اجل هزيمة الوطنيين وبناء رابط بين الدول الحليفة
فى مواجهة الاتحاد السوفييتى، سوف تتوصل الولايات المتحدة الى اليمين
الاسلامى. وكان الاخوان المسلمون يترقبون الفرصة.

*

الفصل الثالث

الإسلام والحرب الباردة

يتذكر هيرمان ايليتس انه "التقى وحسن البنا للمرة الأولى في العربية السعودية وكان في ذلك الحين يعمل في جدة كدبلوماسي. ويقول انه يعرف البنا بشكل جيد ويضيف إن البنا كان يأتي إلى السعودية في الحقيقة من أجل المال، وأنه قابلته حينذاك في منزل وزير المالية وهو رجل تقي جدا اسمه الشيخ محمد سرور (صبحان) وهو رجل اسود اللون من السودان وكان رقيقا ثم اعتق، كان سرور يتولى معظم المسائل المالية الرئيسية مع الإخوان المسلمين¹¹³

وحدث عام 1948 قبل أشهر قليلة من اغتيال البنا في القاهرة أن رأى ايليتس البنا في منزل سرور. وكما يتذكر " كان البنا دائم التردد على السعودية باعتبارها المصدر الرئيس للتمويل". ومنذ إنشائها قبل عشرين عاما أصبح الإخوان قوة، وقد تكون قوة يخشى منها في مصر فلها ذراعها السري شبه المسلح الذي يرعى الإرهاب ويخترق الجيش المصري والمخابرات المصرية ويخشى منها المعارضون". ويتابع ايليتس القول بأنه "وجد (البنا) صدوقا جدا ولم يجد لديه أي تردد في مقابلة الغربيين"، حسبما يقول الدبلوماسي السابق الذي سيصبح فيما بعد أحد القيادات الأمريكية في مجال السياسة العربية وعمل سفيراً للولايات المتحدة في مصر والعربية السعودية.

ولكن ايليتس لم يناقش مع البنا تحركاته غير إن سياسيي الولايات المتحدة في مصر في الأربعينات فعلوا ذلك بشكل روتيني. يقول ايليتس: "اننى اعلم إن بعض زملائي في السفارة الأمريكية بالقاهرة كان لديهم لقاءات منتظمة مع حسن البنا في ذلك الوقت ووجدوه متعاطفا وحرصنا على أن نكون على اتصال معهم على الأخص لتلقى تقارير منهم لأنه كان يبدو أن الإخوان المسلمين في ذلك الوقت كان لديهم إمكانيات سياسية هامة ولذلك كان مهما استمرار الاتصال بهم، ولا أظن انه

113 - مقابلة أجراها المؤلف في ابريل 2004 مع هيرمان ايليتس احد ابرز القادة الأمريكيين المستعربين وسفير الولايات المتحدة الأمريكية السابق في مصر كما خدم في وظائف عديدة في الخليج الفارسي وشبه الجزيرة العربية في بداية خدمته.

كان لدينا أي تخوف منهم بالرغم من اهتمامنا بحادث اغتيال رئيس وزراء مصر السابق (النقراشي باشا) على يد جهازهم السري. كنا نهتم بمسألة استقرار مصر في المقام الأول وكان تقديرنا أنه بالرغم من أن هذه الاغتيالات تعد أمرا مقلقا إلا أنها لا تنبئ بحالة خطيرة من عدم الاستقرار السياسي".

لم يكن أمرا مثيرا للدهشة إن دبلوماسيي الولايات المتحدة في مصر والسعودية خلال الأربعينيات يحافظون على صلاتهم المنتظمة بالإخوان المسلمين بالرغم من طبيعتهم الميلالية للعنف وتكوينهم الفاشي. كان نظام الملك فاروق في مصر يترنح ولم يكن واضحا ما الذي سيخلفه. وطبقا لما يقول سعيد أبو ريش "كانت القوة المتنامية للإخوان المسلمين التي بلغت في ذلك الحين مليوناً ونصف من الأعضاء كانت تمثل التهديد الوحيد المحتمل للمؤسسة الحاكمة"¹¹⁴. غير أن كثيرا من ممثلي الولايات المتحدة السابقين في المنطقة كانت تجذبهم نظرتهم المعادية للشيوعية. كان الإخوان المسلمون، والمجتمع الأكثر شمولا لليمين الأسلامي والبنّي التحتية للإسلام التقليدي في المنطقة، كانت جميعها في مركز الاهتمام في الجدل الدائر في واشنطن: هل يشكل الإسلام قلعة منيعة ضد الشيوعية التي لا تعترف بالله؟ أم هل الإسلام المنظم بنظراته المتخلفة كقوة منظمة شديدة المحافظة تدفعها كراهيتها الكامنة للغرب لأن تكون أكثر استجابة لسياسة الحرب الطبقية التي يرفع لواءها اليسار؟

هل يمكن للولايات المتحدة إن تساعد على صياغة مؤسسات يمكن إن تشكل خلفية لتحالف يجمعها مع علمانيي المنطقة المجددين؟

كانت الولايات المتحدة قد بدأت تتلمس طريقها في الشرق الأوسط. فالقليل من الموظفين الأمريكيين هم الذين لديهم خبرة في المنطقة. أما الجامعات الأمريكية فقد كانت فقيرة في دراساتها المتعلقة بالشرق الأوسط. وبالرغم من دورها القيادي في كسب الحرب العالمية الثانية لم يكن للعسكرية الأمريكية حضور يعتد به سواء في شمال إفريقيا أو في الخليج الفارسي. ولم تكن المخابرات الأمريكية المركزية الناشئة التي كانت تستوعب خريجي (رابطة إيفي Ivy League) وعمليا أيما شخص يمكنه أن يتحدث العربية) لم تكن لديها في أحسن الأحوال الخبرة الكافية. فمنذ تأسيسها سنة 1947 حتى أواخر خمسينات القرن العشرين على الأقل كانت المخابرات المركزية الأمريكية تأخذ مكانتها خلف المخابرات البريطانية. وطبقا لما ذكره مايلز كوبلاند Miles Copeland وهو أحد ضباط المخابرات المركزية الأمريكية الذين خدموا

114- سعيد أبو ريش: ناصر: العربي الأخير (نيويورك ط 2004) ص 30 - بعض التقديرات تصل بحجم العضوية إلى عدة مئات من الألوف.

خلال هذه السنوات في المنطقة: "كان موقفنا هو موقف من يقول دعنا ننتظر حتى نعرف ما الذي يجب إن نفعله"¹¹⁵.

كان الشرق الأوسط بمثابة حظيرة بريطانية. والبريطانيون كانوا على وعي كامل بهذه الحظيرة. كانت مصر والعراق وإيران بالرغم من كونها دولا مستقلة اسميا إلا أنها كانت فعليا تحت السيادة المطلقة لبريطانيا، أما فلسطين والأردن فقد كانتا تابعتين من الناحية الفعلية، بينما كانت المناطق التي تشكل الكويت ومشيخات الخليج الأخرى مستعمرات بريطانية وكذلك كانت الهند وباكستان. وبالرغم من أن سيطرة بريطانيا على المنطقة وبترونها كانت تتآكل، كان الدور الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية يتنامى بسرعة وبدأ ذلك بالعربية السعودية، ذلك البلد الذي سيغدو نقطة البدء والمرسى للتواجد الأمريكي بالمنطقة. ولكن سياسة هذا البلد في دعم وتمويل الإخوان المسلمين كان من شأنه أن يورط الولايات المتحدة حتى النهاية مع الإسلام الأصولي. كانت روابط الولايات المتحدة مع العربية السعودية والشرق الأوسط تحفزها الرغبة في البترول ومنطق الحرب الباردة الاحتوائي، غير أن افتقار الولايات المتحدة للخبرة في المنطقة وجهلها المطبق تقريبا بثقافة المنطقة بما في ذلك الإسلام دفع بالسياسة الأمريكية بالمنطقة إلى التصرف بأسلوب طائش.

طبقا للتواريخ التقليدية. يعود مقدم الولايات المتحدة للمنطقة حسبا هو متعارف عليه إلى سنة 1945 حيث التقى الرئيس الأمريكي السابق فرنكلين روزفلت بالملك عبد العزيز آل سعود في طريق عودته إلى واشنطن من يالتا في فبراير من ذلك العام. وكانت هذه هي المقابلة الأولى بين رئيس امريكى وملك سعودي ممهدة بذلك لعلاقات بين البلدين استمرت لمدى نصف قرن.

لكن ثمة حدثين خطيرين سبقا لقاء روزفلت بآبن سعود، جاء الحدث الأول مع توقيع الاتفاق البترولى عام 1933 ذلك الاتفاق الذي سوف يتطور ليصبح اتفاقا بتروليا عالميا مع قوة بتروولية عظمى هي شركة البترول العربية الأمريكية (ارامكو). كان الوسيط في عقد هذه الصفقة الكبرى هو هارى سانت جون برджер Harry St. John Bridger (عبد الله) فيلبى وهو الدبلوماسي البريطاني الذي ساعد ابن سعود وإخوانه الوهابيين على تسنم السلطة خلال وبعد الحرب العالمية الأولى. في أواخر العشرينات كان فيلبى الذي أصبح يعمل لحسابه الخاص قد ترك وظيفته الحكومية ليعمل في مجال الأعمال لحسابه الخاص وحرص فيلبى أن يبعد نفسه علنا

على الأقل عن السياسة البريطانية نظرا لارتباطه المتنامي مع آل سعود. وارضاء لأصدقائه وزوجته وعائلته تحول إلى الإسلام وسمى نفسه عبد الله. كان تحوله إلى الإسلام في حقيقة الأمر مجرد مزحة أو خدعة. وكتب في مذكراته مازحا : " كم كان لطيفا ن أكون مسلما وان يصبح في أمكاني الجمع بين أربع زوجات.¹¹⁶

ولما كان معروفا عنة الإلحاد منذ أن كان في كمبردج فمن الواضح أن عبدا لله فيلبي كان يبغى الإسلام ليس كعقيدة ولكن بحثا عن المصلحة وهذا بالضبط ما أبلغه إلى احد أصدقائه¹¹⁷

ومع ذلك فقد انغمس في الإسلام وحج إلى مكة وجمع بين عدة زوجات وتزوج أمة أهداها له ابن سعود. وعلى كل فقد كانت هوايته الحقيقية هي جمع المال، وكان يقال في جدة إن فيلبي يجب ألا يسمى عبد الله بل يجب إن يسمى (عبد القرش) - عبد نصف البنس¹¹⁸ وأصبح هذا الذي ولد من جديد كرجل أعمال الممثل الرسمي لشركة فورد Ford العربية السعودية بالرغم من انه قال انه يكره منظر وصوت السيارات¹¹⁹ (7)

وأخيرا أصبح ممثل شركة ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا Standard Oil of Calefornia. ومستغلا صداقته للملك أنهى فيلبي صفقة دخول الشركة فيما أصبح يعرف باسم إلدورادو Eldora do وهي صفقة توصل للحصول عليها بعد تخفيض بلغت قيمته 50 ألف جنيه استرليني (250 ألف دولار) وإيجار سنوي خمسة آلاف جنيه استرليني ذهباً فقط، على أن تستمر الاتفاقية لمدة ستين عاما وان تغطي 380 ألف ميلا مربعا أي نصف مساحة تكساس¹²⁰ وهكذا فرط الملك في أغنى ثروات بلاده مقابل أقل القليل. وشاركت الولايات المتحدة في هذه الصفقة ممثلة بشركة ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا التي سرعان ما لحقت بها شركات تكساكو واكسون ثم موبيل، شركاء ارامكو الأربعة.¹²¹

116- اليزابيث مونرو " فيلبي في العربية." ص 162

117- المرجع السابق ص 164

118 - المرجع السابق ص 168

119 - المرجع السابق ص 111

120 - دانييل يرجن - مرجع سابق ص 291

121 - شركة ستاندارد اويل اوف كاليفورنيا(سوكال) كانت في الأصل جزءا من احتكار روكفلر ستاندارد اويل . وستندمج شركة تكساس اويل أو تكساكو مع سوكالويعاد تسميتها شيفرون ثم شيفرون تكساكو. وهناك مجمعين آخرين لروكفلر هما ستاندارد اويل اوف نيو جيرسي (اسو ،اكسون - فيما بعد) وستندرد اويل اوف نيويورك(سوكوني، موبيل فيما بعد)ستندمج لتكون اكسون موبيل Exxon Mobil

كان تصريح روزفلت سنة 1943 بان السعودية سوف تكون من الآن فصاعدا تحت مظلة الولايات المتحدة الأمريكية الدفاعية هو التطور الخطير الثاني الأكثر حسما حيث أعلن: " اننى أرى هنا أن حماية العربية السعودية هو أمر حيوي فيما يتعلق بحماية الولايات المتحدة الأمريكية".¹²²

كان لاحتضان روزفلت للعربية السعودية أهداف متعددة، هناك الهدف الواضح المتعلق بأهمية بترولها كمورد حيوي للولايات المتحدة. وكان الهدف الاستراتيجي هو التأكيد بان التهديد السوفييتي لأمن الخليج (بالرغم من انه كان مستبعدا) هو أمر "يعنينا". أما الهدف التكتيكي فقد كان المقصود به حلفاء أمريكا وخاصة بريطانيا. فبالرغم من أن الوجود البريطاني في المنطقة كان امرا قائما بما في ذلك غرب إيران والعراق، حيث كان هناك تنافس مرير يصل إلى درجة الحدة أحيانا، وكذلك مع فرنسا وإيطاليا إلى حد ما حول بترول الشرق الأوسط إلا إن كلا منها كان يتنافس في الحرص على الحفاظ على مصالح شركائه.

قبل أربع سنوات من لقائه مع الملك على ظهر السفينة كان روزفلت حريصا على أن يترك لبريطانيا حق التصرف في الشأن السعودي طالما أنها كانت الدولة المعروف بأنها الأكثر قوة في المنطقة والأكثر خبرة حتى انه طالب احد مساعديه " أن يخبر البريطانيين بان روزفلت يطلب منهم أن يتولوا رعاية ملك العربية السعودية حيث أن مجالها يقع بعيدا عنا"¹²³

غير ان شركتي ستندرد أويل أوف كاليفورنيا وتكساس أويل كومبانى اللتين سرعان ما ستندمجان معا في شركة واحدة يطلق عليها شركة ارامكو لم يكن لديهما مثل هذه الثقة إذ قاما بإقناع هارولد أيكس Harold Ickes سكرتير الشؤون الخارجية وهو الساعد الأيمن للرئيس روزفلت ثم بعد ذلك إقناع روزفلت نفسه أن الولايات المتحدة ينبغي أن تواجه بريطانيا التي قد تحاول - كما زعما - عرقلة جهود الولايات المتحدة في السعودية¹²⁴

وفى غمرة الحرب العالمية الثانية عقد الحليفان على وجه السرعة صفقة لتقسيم بترول المنطقة على نحو ما قال للورد هاليفاكس سفير بريطانيا لدى الولايات المتحدة " بترول الخليج لكم ونحن نقسم معا بترول العراق والكويت. أما بترول السعودية فهو لنا"¹²⁵

122- الامر التنفيذي رقم 8926 - مقتبس من "بيت آل سعود" ل ديفيد هولدن و ريتشارد جونز - ط

1981 ص 123 .

123 - يرجين - ص 394

124- المرجع السابق ص 397

125 - المرجع السابق ص 401

وفيما يتعلق بونستون تشرشل فقد أخطره روزفلت تلغرافيا بالاتي "أرجو أن تقبلوا تأكيداتنا بأننا لا نتطلع إلى حقول بترولكم في العراق وإيران" فرد عليه تشرشل الذي ربما إليه وحده يرجع الفضل في بناء إمبراطورية بريطانيا البترولية في الشرق الأوسط، رد عليه قائلا على سبيل المجاملة " اننى أطمئنك وأؤكد لك بما لا يدع مجالا للشك انه ليست لدينا أية نية لمناجزتكم فيما يتعلق بمصالحكم أو ممتلكاتكم في العربية السعودية.¹²⁶ (كان كل من الرجلين بطبيعة الحال كاذبا فالبريطانيون طالما تطلعوا إلى بترول السعودية وسرعان ما ستقوم الولايات المتحدة بشق طريقها بالقوة للحصول على امتياز توقيع اتفاقيات البترول في إيران والسعودية) .

يشكل لقاء روزفلت وابن سعود معلما بارزا من معالم اكتمال الشراكة الأمريكية السعودية . ومن اجل انتقال الملك السعودي الذي لم يكن قد غادر الجزيرة العربية قط. دبرت الولايات المتحدة نقله على ظهر الغواصة الأمريكية مورفي Murphy USS بالكامل مع عائلته ومتعلقاتهم وخدمه وغنمه المعدة للذبح وأقام للعاهل الصحراوي خيمة على ظهر السفينة لينام فيها. وقد وصف اليوت روزفلت نجل الرئيس مقابلته لابن سعود على متن السفينة كوينسى Quincy قائلا: "استطاعت شقيقتي أنا Anna بحكمتها أن تحصل في هذا اليوم على موافقة الوالد على القيام برحلة إلى القاهرة، مراعاة لعادات المسلمين في فصل النساء عن بقية أفراد العائلة.... وأنهى الوالد حديثه بالتعهد لابن سعود بأنه لن يسمح بآى تحركات أمريكية معادية للشعب العربي... ودهش ابن سعود الذي كان يتطلع إلى المقعد المتحرك الذي كان يجلس عليه أبى، دهش حينما رأى أبى يقدم له في الحال هذا المقعد المتحرك"¹²⁷. والحقيقة إن الكرسي كان زائدا عن الحاجة ولكنه كان ضيقا بالنسبة لحجم الملك الممتلئ. ولكن هذا كان كافيا ليعلن الملك نفسه توأما لروزفلت. وكان بمثابة رمز للبداية الرسمية للتحالف الأمريكي السعودي. وقد دهش س. ل. سولزبرجر المحرر في نيويورك تايمز من فكرة أن تضع الولايات المتحدة يدها على البترول في العربية السعودية وحدها فكتب في النيويورك تايمز قائلا: "إن المخزون الهائل للبترول في العربية السعودية وحدها يجعل لهذا البلد من الأهمية للدبلوماسية الأمريكية مالىس لاي بلد آخر"¹²⁸ ومن الواضح أيضا أن روزفلت كان معنيا بالبترول أكثر بكثير مما هو معنى بالإسلام. إن تصريح روزفلت عام 1943 بأن الولايات المتحدة سوف تحمي بترول السعودية قد أكدته كل الرؤساء الأمريكيين بعد (روزفلت) وخاصة نظرية إيزنهاور عام 1957 ونظرية كارتر عام 1980.

126 - المرجع السابق

127 - اليوت روزفلت "حسبما رأي" نيويورك 1946-ص 244 Elliott Rosevelt, "As He Saw It"

128- مقتبس من يرجين ص ص 401-405

في عام 1944 أرسلت الولايات المتحدة بعثتها العسكرية الأولى إلى السعودية، وفي عام 1945 وقع البلدان اتفاقية للتعاون العسكري أنشئت بمقتضاها القاعدة العسكرية الجوية الكبرى في الظهران على الخليج الفارسي، وهي القاعدة التي قدمت التسهيلات العسكرية حتى عام 1960. وعقب هذه الاتفاقية وقعت عام 1949 بسرعة اتفاقية تقدم بمقتضاها الولايات المتحدة فريق استكشاف يغطي شبة الجزيرة العربية وتوصيات بان تتولى الولايات المتحدة إعداد جيش قوامه 43 ألف رجل وقوة جوية، كذلك اتفاقية عام 1951 بان توفد الولايات المتحدة بعثة عسكرية دائمة إلى السعودية.¹²⁹

لم تكن علاقات الولايات المتحدة بالسعودية منذ بدايتها خالية من المعنى حيث كانت تتضمن إنتاج كميات متزايدة بسرعة من البترول وترتيبات للدفاع المشترك المتبادل وإيفاد أعداد كبيرة من الأمريكان من تكساس وأوكلاهوما ولويسيانا * إلى المملكة العربية السعودية. وبدأت الولايات المتحدة بمشاركة بريطانيا بوصفها منافسا وشريكا صغيرا بإحاطة العربية السعودية بتحالفات عسكرية. وفي سنة 1951 قدمت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا اقتراحا بإنشاء قيادة شرق أوسطية تضم كلا من الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة المتحدة وفرنسا وتركيا وإسرائيل والأردن. وبدعوا يقترحون من مصر ولكنهم أجلوا الفكرة عندما أعلن الملك المصري تحت تأثير وضغوط القوى الوطنية ونظرا لاستيائه من قيام الدولة الإسرائيلية الجديدة فأعلن رفضه للفكرة بلطف. بعد ذلك اخذ البريطانيون الريادة ووقعوا اتفاقية مع تركيا والعراق وإيران وباكستان وأطلقوا على هذا الاتفاق حلف بغداد ولكن الولايات المتحدة التي كانت تقيم روابطها الخاصة مع هذه البلدان كانت في نفس الوقت عازمة على إزاحة بريطانيا من منطقة الخليج الغنية بالبترول لذلك لم تشارك في حلف بغداد حتى إن معلقا ضليعا لاحظ ذلك فيما كتبه للهيئة الاستشارية للعلاقات الخارجية حيث لاحظ بشيء من الخبث أن البريطانيين كونوا الحلف "من أجل إنقاذ مركز بريطانيا في العراق وإنقاذ نفوذها المتداعي في أنحاء الشرق الأوسط"¹³⁰

وما لبث حلف بغداد إن تداعى حينما تعرضت بغداد - مركز الحلف للثورة سنة 1958 وسقط ملكها الذي كانت بريطانيا هي التي نصبته، ونفذ فيه حكم الإعدام بواسطة التحالف بين الوطنيين في الجيش والحزب الشيوعي العراقي ولم تقم للحلف بعد ذلك قائمة، وحل محله بعد ذلك منظمة الحلف المركزي التي تربط بين الولايات

129 - ديفيد لونج "المملكة العربية السعودية" فلوريدا ط1997 ص 116

130 - يعتبر مؤلف جون س. كامبل "الدفاع عن الشرق الأوسط من 1945-1958" هو المرجع الوحيد الافضل فيما يتعلق بمسائل الامن القومي الأمريكي في الشرق الأوسط . ط1960 نيويورك

المتحدة والمملكة المتحدة وتركيا وإيران وباكستان التي كانت عضوا في منظمة حلف جنوب شرق آسيا و ترتبط كذلك بالغرب.

لقد ارتكزت التحالفات الانجلوأمريكية في الشرق الأوسط على المحاور التقليدية للنفوذ الاجنبي: القوة العسكرية والقوة الاقتصادية والدبلوماسية. ومع ذلك فمع تطور الحرب الباردة، بدأ يبرز عامل جديد يدعم التواجد الأمريكي البريطاني وهو قوة الإسلام السياسي الدينية والثقافية، وخاصة الدور البارز الذي تؤديه السعودية بوصفها "قائكان" المسلمين أي مركزهم الديني. وعندما برزت العربية السعودية بوصفها القوة الموالية لأمريكا والمناهضة لمصر ولناصر وللقومية بدأ يظهر عدد من منظمي الإخوان المسلمين بوصفهم مبعوثين لليمين الاسلامي عبر المنطقة وربما كان أكثرهم أهمية هو سعيد رمضان.

كان رمضان هو مفتاح الإيديولوجية (المنظر) الإخواني وعمل بمثابة السفير غير الرسمي للعربية السعودية فيما يتعلق بالفكر الاسلامي. وبينما كان الإخوان المسلمون يجاهدون من أجل المحافظة على وجودهم في مصر حيث كانت خلافاتهم تتصاعد مع النظام الجديد الذي يقوده ناصر، لم تكتف السعودية بتمويل الإخوان بل ومنحتهم أرضها كملاذ آمن. كانت سلسلة الملوك السعوديين مشغولة بخطر الشيوعية ووجدوا في الإخوان المسلمين وغيرهم من قيادات اليمين الاسلامي طرف الرمح في يد الحركة المعادية للشيوعية. ربما لا يقل أهمية أن العربية السعودية كانت ترى في ناصر تهديدا مريعا لها ما دام يحكم مصر الفقيرة ويتطلع إلى بترول السعودية. وهكذا تجمعت الأسباب لدى كل من أعداء الشيوعية والقومية العربية مما دفعها إلى تشجيع نمو حركة الإخوان المسلمين في مصر وفي ربوع المنطقة.

سعيد رمضان في البيت الأبيض

في أواخر صيف 1953 قام البيت الأبيض بدور خشبة المسرح للقاء الذي جري - دون ملاحظة تذكر - بين الرئيس الأمريكي دوايت إيزنهاور وشاب مثير للمتعاب ذي ملامح شرق أوسطية. في الصورة التذكارية ذات اللونين الأبيض والأسود التي التقطت بهذه المناسبة¹³¹ يبدو إيزنهاور في صورة الجد الأصلع، وكان

131 - عثر على الصورة التذكارية المشار اليه في الملف الخاص باجراءات تنظيم الكونغرس الذي عقد في سبتمبر 1953 في جامعة برنستون ووشنطن العاصمة.

يبلغ من العمر آنذاك ثلاثة وستين عاما يقف منتصب القامة في رداء رمادي ويستند بذراعيه وقبضتيه كما لو كان يبرز عضلاته، وإلى يساره وقف شاب مصري ذو بشرة سمراء يرتدى رداء اسود، لحيته مشذبة بعناية وشعره ممشط جيدا ويمسك بيديه حزمة من الأوراق يضعها خلف ظهره وينظر باهتمام إلى الرئيس وكان يبلغ من العمر 27 عاما ولكنه يمتلك من الخبرة ما يقدر بأكثر من عقد من الزمان في قلب الحركة الإسلامية المليئة بالعنف والتعصب السياسي وإلى جواره يقف بعض الذين يرتدون الملابس الغربية وآخرون يرتدون الجلابيب والشيلان وأغطية الرأس الإسلامية وهم أعضاء وفد رجال الدين والملالي والنشطين من الهند وسوريا واليمن. كان الزائر في هذا اليوم من أيام سبتمبر هو سعيد رمضان الجهادي والممثل الرسمي للإخوان المسلمين ومنظرهم. كان لهذا الشاب طموح شبه ملكي في دوائر الإخوان المسلمين منذ إن تزوج وفاء ابنة حسن البنا زعيم الإخوان المسلمين. وبدا سعيد رمضان وهو يقف إلى جانب إيزنهاور، بدا في هيئة الرجل الوقور المسالم. ولكن الإخوان المسلمين كانوا معروفين منذ أواخر أربعينات القرن العشرين كتنظيم للمتعصبين والإرهابيين، وقام القنلة من المنتسبين إليه باغتيال عدد من الشخصيات الرسمية المصريين من بينهم أحد رؤساء الوزارات. وقبيل هذا اللقاء بين إيزنهاور ورمضان أعلن إن تنظيم الإخوان هو تنظيم غير شرعي من قبل نظام الملك فاروق المنهار، غير انه لم يختف. وخلال الخمسين سنة التالية كان الإخوان يعودون إلى النشاط مرارا، يبنون بهدوء قوتهم ونفوذهم وينشرون إيديولوجيتهم (أفكارهم) ويبنّون فروعا في الأردن وسوريا والكويت وغيرها. وأصبح سعيد رمضان هو المنظم الدولي للإخوان المسلمين حتى وفاته سنة 1995. وبالرغم من أن رمضان كان في حقيقة الأمر ساخطا وميالا إلى العنف ومصمما على إعادة صياغة الشرق الأوسط طبقا للعقيدة الأصولية الإسلامية، فانه لم يكن ينظر إليه باعتبار انه يمثل تهديدا. في واقع الأمر وبلاستناد إلى التقييم السري للولايات المتحدة في مصر، كان ينظر إلى رمضان باعتباره حليفا محتملا. وكان ذلك في ذروة المكارثية والحرب الباردة حيث كان الإخوان المسلمون يعادون الشيوعية بمرارة. وبالإضافة كان حلفاء سعيد رمضان في الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية في باكستان¹³² والتنظيمات المماثلة في أنحاء المنطقة يناهضون بحدة الماركسية والناشطين اليساريين في الجامعات والنقابات وكذلك القوميين العرب

132 - جماعة اسلامي - الجماعة الإسلامية الباكستانية التي أنشأها أبو الأعلى المودودي على نسق وبمساعدة جماعة الإخوان المسلمين في مصر

(الاشتراكيين العرب) وحزب البعث والعلمانيين من كل نوع. وضمن هذه القائمة يندرج المزعجون الذين ظهروا مؤخرا من أمثال الرئيس المصري جمال عبد الناصر الذي كان يعتبر مشكوكا في ولائه للجانب الأمريكي خلال الحرب الباردة وحتى سنة 1953 أي بعد مضي سنة واحدة من نجاح حركته (حركة الضباط الأحرار) في إسقاط حكم الملكية الفاسد المكروه.

ولد سعيد رمضان سنة 1926 في شبين الكوم وهي قرية تقع شمال القاهرة في دلتا النيل¹³³. في شبابه، وكان في العشرين التقى حسن البنا والتحق فوراً بحركته. وبعد إن تخرج من الجامعة سنة 1946 أصبح رمضان السكرتير الشخصي لحسن البنا وساعده الأيمن. وبعد سنة عين رمضان محرراً في مجلة الشهاب الأسبوعية المعبرة عن الإخوان.

وبالإضافة إلى ما قدم من مساعدات لزعيم الإخوان في مجال العمل التنظيمي، أصبح زوج بنت حسن البنا السفير المتجول للإخوان المسلمين واستطاع أن يجمع شبكة واسعة من لعلاقات الدولية التي لم تكن لدى حسن البنا القابع في صومعته في مصر. في سنة 1945 سافر رمضان إلى القدس التي كانت تحت الانتداب البريطاني في ذلك الوقت، بينما كانت تتجمع في الأفق نذر الحرب بين العرب واليهود. وخلال السنوات التالية يمضي رمضان جزءاً كبيراً من وقته متنقلاً بين القدس وعمان ودمشق وببيروت ليقوم فروعا للجماعة. وفي 26 أكتوبر سنة 1945 يفتتح رمضان أول مكتب للإخوان المسلمين في القدس¹³⁴ ليؤسس بذلك المنظمة التي خلال ثمانينات القرن العشرين عرفت باسم حركة المقاومة الإسلامية (حماس). خلال 1947 أصبح للإخوان 25 فرعا في فلسطين تضم ما بين 12-20 ألفاً من الأعضاء.¹³⁵ في 1948 ساعد رمضان في إنشاء القوة الإسلامية الرمزية التي خاضت المعركة ضد القوات اليهودية التي أسست إسرائيل في ذلك التاريخ.

أواخر الأربعينات قام رمضان بأولى زيارته العديدة إلى باكستان وقام بدور هام في الاجتماعات الأولى للمؤتمر الإسلامي الدولي الذي عقد في كراتشي في

133 - للاطلاع على هذه التفاصيل وغيرها المتعلقة بحياة سعيد رمضان (1926-1995) ودوره يمكن الرجوع إلى الموقع [www. Cige.org /historique. Htm](http://www.Cige.org/historique.Htm) التابع للمركز الإسلامي في جنيف على شبكة المعلومات - الانترنت

134- زياد ابو عمرو ، "الاصولية الاسلامية في الضفة الغربية وغزة -انديانا ط 1994 ص ص 1-5
135 - Alain Gresh and Dominique Vidal , "The New A-Z of the Middle East", London 2004, p. 107

1949 و 1951 حيث توج سكرتيرا عاما لهذه المنظمة.¹³⁶ (دمغ هذا المؤتمر من قبل اليسار الباكستاني باعتبار انه منظم من قبل الامبريالية الانجلو امريكية)¹³⁷.

كانت باكستان قد حصلت على استقلالها عن بريطانيا العظمى منذ عام، وبصفتها أول دولة إسلامية أصبحت جاذبة للإيديولوجيات الإسلامية والتنظيمية والعلماء المسلمين. وكان ابوالأعلى المودودي وهو شاب إسلامي الهوى قد أسس في باكستان تنظيمًا إسلاميًا على نمط جمعية الإخوان المسلمين في مصر اسماء "جماعة إسلامي" أي الجماعة الإسلامية وبدأ يحول هذا التنظيم إلى حزب سياسي. خلال العقد التالي ستغدو باكستان بمثابة الوطن الثاني لسعيد رمضان. منحت الدولة الناشئة جانبًا من برامجها الإذاعية. وتمتع بعلاقات طيبة مع الحكومة الباكستانية الموالية للغرب بما في ذلك رئيس الوزراء لياقات علي خان الذي كتب مقدمة إحدى مؤلفات رمضان.¹³⁸

كانت إقامة رمضان في باكستان اختيارية تمامًا حيث حظر نشاط الإخوان المسلمين في مصر واغتيل حسن البنا. وعاد رمضان إلى مصر سنة 1950 حيث كان الإخوان المسلمون قد استأنفوا واحدة من عوداتهم العديدة، ولكنه سوف يقضي فترات طويلة من الإقامة في باكستان حيث يعمل بارتباط وثيق مع المودودي وجماعة إسلامي. كذلك عمل رمضان مع العصابة الإسلامية الباكستانية وسوف يقوم بمساندة باكستان الرسمية بالعديد من الرحلات والمحاضرات في أنحاء العالم العربي. في ذلك الوقت انقسمت باكستان بين إسلاميين أصوليين وإسلاميين معتدلين ووطنيين علمانيين ويسار، بينما كان يجري استقطابها إلى جانب التحالف العسكري الغربي. وخلال العديد من السنوات التي قضاها في كراتشي قام رمضان بمساعدة المودودي في تنظيم كتائب الطلاب الإسلاميين المتعصبين مفتولي العضلات الذين خاضوا المعارك ضد اليسار الباكستاني خاصة في الجامعات،¹³⁹ على نمط الكتائب الفاشية الموالية لموسوليني، وكان هذا أحد المشروعات التي يطمح إلى القيام بها. فبالرغم من أنها نظمت تحت إشراف الجماعة الإسلامية إلا أنها كانت متأثرة إلى حد كبير بنفوذ جمعية الإخوان المسلمين في مصر، على حد قول أحد الخبراء (والى

136 - المرجع السابق

137- ريتشارد ميتشيل "جمعية الاخوان المسلمين" -لندن 1969 ص 270

138 - المرجع السابق

139 - جماعة الطلبة الاسلاميين هي الجناح الطلابي من جماعة اسلامي اي الجماعة الإسلامية الباكستانية للمزيد من التفاصيل ينظر "طلّاع الثورة الإسلامية" لسيد والى نصر ص 64-كاليفورنيا

رضا نصر): "في خلال الفترة من 1952 - 1955 ساعد رمضان قادة جماعة اسلامى فى إقامة هيكل إداري وتصميم إستراتيجية تنظيمية لها. ولعل ما هو أكثر دلالة على تأثير جماعة الإخوان المسلمين المصرية على جماعة اسلامى الباكستانية هي "دائرة الدراسات" وجميع الفصول الدراسية المسائية التي كان كل منها وسيلة لاجتذاب الأعضاء الجدد وإقامة علاقات تنظيمية فيما بينهم. " اصطدم بلطجية" جماعة اسلامى "مرات عديدة باليسار الطلابي في حرم الجامعة وكما يلاحظ نصر" إن الصدام المنظم قد أدى إلى المزيد من الصدامات وسيما في كراتشي ومولتان وأصبح الصدام ضد الطلاب اليساريين هو نداء الكتائب الذي يميز طرفيها في العمل. وأصبحت هذه الكتائب (Islamic JihadTulba)IJT أى الطلبة الجامعيين الإسلاميين الجهاديين هي الفصيل العسكري الذي يحارب أعداء الإسلام -العلمانيين واليساريين، الموجودين داخل الحكومة وخارجها.¹⁴⁰

خلال رحلاته إلى باكستان عمل رمضان صراحة مع الأصوليين العرب سيما مع الفلسطينيين والأردنيين الذين أقاموا ما يطلق عليه " حزب التحرير الاسلامى"¹⁴¹ (الذي انتشر فيما بعد كالسرطان ونقل مركزه الرئيس إلى ألمانيا وليتمدد في أقاليم آسيا الوسطى الإسلامية، وكان يتلقى دعما متزايدا من العربية السعودية. وخلال التسعينات أصبح قوة عنف ضاربة متحالفا مع الحركة الإسلامية في أوزبكستان والقاعدة. خلال وجوده في الأردن سنة 1950 ساعد رمضان أيضا في تأسيس الفرع الاردنى للإخوان المسلمين، وكان رئيس الإخوان المسلمين في الأردن هو أبو قررة وهو تاجر اردنى ثري يرتبط بالملك عبد الله وبالأسرة الملكية الهاشمية بروابط وثيقة. طبقا لماريون بولبي Marion Boulby أرسل البنا رمضان إلى عمان بهدف عاجل هو إخراج الإخوان المسلمين في الأردن إلى العلنية " ومنح الملك الإخوان المسلمين العلنية بوصفهم جمعية خيرية أملا في إن يضمن تأييدهم ضد المعارضة العلمانية، أى ضد اليسار. ومثلما حدث في باكستان أصبح الإخوان المسلمون أداة لقمع اليسار والقوميين العرب. واتفق رمضان وقررة انه خلال القرن الحالي (العشرين) سوف تكون مصر وسائر العالم الاسلامى معرضة لهجمات الإيديولوجيات الشيوعية والقومية التي ترفض هيمنة الشريعة الإسلامية على المجتمع.¹⁴²

140 - المرجع السابق ص 65

141 - وهو معروف هناك بنفس هذا الاسم العربي.

142 - Marion Boulby, The Muslim Brotherhood and the Kings of Jordan, Atlanta, 1999, pp.37-43

لم يكن تواجد رمضان في ذلك اليوم من 1953 في المكتب البيضاوي (البيت الأبيض) بمحض الصدفة، فقد كان رمضان موجودا في الولايات المتحدة بشكل رسمي من أجل المشاركة في ملتقى الثقافة الإسلامية في جامعة برنستون بالإضافة إلى القيام برحلة مجانية إلى واشنطن. وشاركت مكتبة الكونجرس مع لقاء برنستون في وضع برنامج الأيام التسعة. كان هذا هو حدث أغسطس الذي أصبح مناسبة حافلة بمظاهر الأبهة والفخامة وعقد تحت الظلال الوارفة الخضراء لصالة برنستون في غرفة الكلية ذات السقف المرتفع. ومن ضمن المتحدثين الذين حضروا هذا اللقاء عدد من المستشرقين المرموقين في ذلك الحين من أمثال فيليب هيتي Philip K. Hitti و ت. كيلر يونج T. Cuyler Young وبابلي ويندر Bayly Winder من برنستون وولفرد كونتول سميث Wilfred Cantwell Smith من جامعة ماكجيل McGill وريتشارد نلسون فريي Richard Nelson Frye من جامعة هارفارد وكارلتون كون Carleton Coon من جامعة بنسلفانيا وكينيث كراج Kenneth Cragg محرر جريدة "العالم الإسلامي" The Muslim World من قبل مؤسسة هرتفورد. Hartford Seminary Foundation وأدار الاجتماع دكتور بايارد دودج Bayard Dodge الرئيس السابق ذائع الصيت للجامعة الأمريكية في بيروت.

طبقا للسجلات الرسمية تم عقد المؤتمر استثمارا لزيارة عدد من الشخصيات الشرق أوسطية المرموقة ولكن الواقع أن المشاركين في المؤتمر لم يعبروا المحيط الأطلسي في طريقهم إلى هذا الاجتماع الطارئ. فالمؤتمر نظم من قبل حكومة الولايات المتحدة وهي التي مولته واختارت المشاركين فيه الذين رأوا أنه من المفيد مشاركتهم أو الاستفادة من مشاركتهم وأرسلتهم إلى نيو جرسى. ولربما كان هيتي عميد المستشرقين الذين زاروا القاهرة والبحرين وبغداد وبيروت ونيودلهي وغيرها من المدن لاستكشاف من يمكنه الحضور. أما الدعم المالي فقد تم توفيره من جانب الخطوط الجوية الأمريكية بما فيها TWA & PANAM وكذلك من شركة ارامكو الاحتكارية التي تملكها الحكومة الأمريكية في المملكة السعودية. ومثله مثل كثير من المشاركين كان رمضان منظرًا صلب المراس ولكنه لم يكن من العلماء. كان يتردد على الملتقى كضيف يتمتع بالإعاشة الكاملة، ولم يكن سرا أن الولايات المتحدة هي التي تتحمل كافة النفقات وتحملت هيئة الاستعلامات الدولية - التابعة للمخابرات الأمريكية - بكافة تكاليف الكونغرس بما في ذلك تكاليف انتقال الذين حضروا من الشرق الأوسط. كانت هيئة الاستعلامات الدولية المنشأة حديثا سنة 1952 وتم دمجها سنة 1953 في المخابرات المركزية المرتبطة بوكالة

الاستعلامات الأمريكية، وكان يقع ضمن مسؤولياتها متابعة برامج "التبادل الثقافي" مثل ملتقى برنستون. ومن الواضح أن الهدف الأساسي من هذا الملتقى هو هدف سياسي.. وثمة وثيقة غير مصنفة لهيئة الاستعلامات الدولية المشار إليها بعنوان "معلومات سرية" تقول: "ظاهريا يبدو الملتقى كنوع من التدريب على المعرفة الخالصة وهذا في الحقيقة هو الانطباع المرغوب"، وتمضى الوثيقة قائلة "غير انه كان مخططا بقصد تجميع الأشخاص الذين يتمتعون بتأثير كبير في تشكيل الأفكار الإسلامية في مجالات مثل التعليم والعلوم والقانون والفلسفة ومن ثم وبما لا يمكن تفاديه في السياسة." وكان هدفه كاسحا. "من بين كل النتائج المختلفة المتوقعة من هذا الملتقى هي الحوافز والاتجاهات التي يمكن إعطاؤها للحركة الإحيائية داخل الإسلام ذاته." ¹⁴³

في ذلك الوقت كان جيفرسون كافري وهو سياسي امريكي مخضرم، وكان محاميا في لويزيانا كان يقترب من نهاية خدمته التي استمرت أربعة عقود تقريبا في خدمة السياسة الأمريكية حيث كان يشغل هذا المنصب منذ عام 1949 وامضى ست سنوات في العاصمة المترهلة الواقعة على النيل. في يوليو 1953 أرسل برقية (مصنفة) يقترح فيها دعوة رمضان إلى لقاء برنستون السري. وتوضح هذه البرقية إلى أي مدى استطاعت المخابرات المركزية إن تجمع معلومات عن الإخوان المسلمين وقيادتهم وقدرتهم وأنشطتهم. وتقدم برقية كافري تأريخا مختصرا لرمضان وبيانا موجزا عن الإخوان المسلمين. غير انه بالتمعن في قراءته بالكامل يتضح انه يتغافل بشكل تام ضلوعهم في عمليات عنف أو إرهاب ولم يوضح في أي جزء من أجزائه شيئا عن وعودهم بإنشاء دولة إسلامية تحت ظلال القرآن. ولما كان كافري دبلوماسيا ضليعا ولم يكن ساذجا فانه يبدو واضحا من تقريره انه (وربما المخابرات المركزية الامريكية) كان حريصا على تجاهل أي عنف مرتبط بالإخوان المسلمين وانه كان يهدف إلى تجنيد رمضان إما كحليف أو كعميل:

"يعد سعيد رمضان من بين أكثر الضليعين من الإخوان في الثقافة الإسلامية. وهو خريج كلية الحقوق من جامعة فؤاد الأول بالقاهرة سنة 1945، ولم يمارس العمل سوى في قضايا محدودة وتفرغ معظم الوقت لدراسة الإسلام. ورغم صغر سنه - إذ انه ولد سنة 1926 - فانه كان يتمتع بخبرة عريقة.

ويشغل رمضان حاليا منصب رئيس تحرير مجلة "المسلم" وهي مجلة شهرية في عامها الثاني وتنتشر مقالات عن الشريعة (القانون الإسلامي) والثقافة الإسلامية،

143- مؤتمر حول الحضارة الإسلامية - إدارة الاستعلامات الدولية مذكرة إلى سكرتير الدولة للشئون الخارجية جون فوستر دلاس. واشنطن العاصمة أرشيف الأمن القومي 30 ابريل 1953

يحررها علماء دين من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ويبلغ توزيعها عشرة آلاف نسخة ويتوزع المشاركون فيها فيما بين تونس واندونيسيا. وبوصفه سكرتيرا عاما للمؤتمر الإسلامي العالمي فإنه يتنقل مرات عديدة عبر الدول الإسلامية، وكان قد عاد لتوه من مؤتمر عقد في باكستان. وعندما كان في مصر كان يقدم برامج إذاعية أسبوعية عن الثقافة الإسلامية وتفسير القرآن.

في سنة 1940 بدأ رمضان دراساته في الإسلام تحت رعاية حسن البنا المرشد العام السابق للإخوان المسلمين وأصبح محررا لمجلة الشهاب التي أصدرها البنا سنة 1947 وهي مجلة شهرية تنشر مقالات عن القانون الإسلامي والثقافة الإسلامية ولكنها توقفت بعد صدور خمسة أعداد تحت ضغط الملك السابق فاروق. بعد مضي فترة وجيزة تم حظر جماعة الإخوان المسلمين وقبض على ما يزيد عن 2000 ألفي عضو، فترك رمضان مصر إلى باكستان في الوقت المناسب متفاديا احتمال اعتقاله وعاش هناك لمدة عام تمكن خلاله من تقديم برنامجين إذاعيين أسبوعيا كانا موجهين إلى الدول العربية بما فيها مصر. في أواخر 1949 طلبت الجماعة الإسلامية في باكستان من سعيد رمضان أن يلقي سلسلة من المحاضرات عن الثقافة الإسلامية في أنحاء كثيرة من الشرق الأوسط. وبدءا من السودان اجري العديد من الأحاديث في الجامعات بدءا بمصر وانتهاء بتركيا.¹⁴⁴

قام عميل امريكي آخر لم يذكر اسمه - كان يتحدث بلسان محمد باقي من جامعة الأزهر الإسلامية العريقة التي يمتد عمرها عبر قرون وتعتبر مركز العلوم الحديثة - قام بالاتصال بكافري. وصف باقي الذي سافر أيضا إلى برنستون - وصف رمضان بقوله "انه عضو معروف في الإخوان المسلمين" واقترح دعوته لحضور ملتقى برنستون، مضيفاً بان جمعية الإخوان المسلمين مستعدة للمساهمة في تحمل النفقات¹⁴⁵ وأنهى كافري برقيته قائلا: "إن السفارة تعتقد أن حصيلة رمضان الدينية كافية لجعله كفؤا لحضور ملتقى الثقافة الإسلامية، وان وضعه بالنسبة للإخوان يجعل من المهم أن تدرس بعناية مسألة الاستجابة إلى طلب دعوته إلى المؤتمر تجنباً للآثار المحتملة للإساءة إلى هذه الشخصية الهامة."¹⁴⁶

خلال العقود الأربع التالية سوف يتحول رمضان إلى ما يشبه المحور بوصفه عنصرا أساسيا في كل مظهر من مظاهر (الرايكالية) الأصولية الإسلامية بدءا من

144 - جيفرسون كافري-وثائق الخارجية الأمريكية - أرشيف الأمن القومي 27 يوليو 1953-ملتقى الثقافة الإسلامية وسعيد رمضان -برقيات الخارجية الأمريكية .

145 - المرجع السابق .

146 - المرجع السابق

العمليات الإرهابية التي قام بها الإخوان المسلمون في مصر في خمسينات وستينات القرن العشرين وحتى صعود آية الله الخميني في إيران في السبعينات إلى الحرب الأهلية في الجزائر في التسعينات. صحيح انه لا يوجد دليل مادي يثبت انه جند من قبل المخابرات المركزية الأمريكية غير انه من الواضح أن دعوته إلى ملتقى برنستون يدمغه بوصفه هدفا محتملا لذلك. وبالإضافة فانه سوف يصبح حليفا رئيسيا للعائلة الملكية السعودية من اجل تجميع كتلة إسلامية من الدول والحركات المناهضة لانتشار الشيوعية وللتوسع السوفييتي على طول حدوده الجنوبية. وطبقا للوثائق غير المصنفة في الأرشيف السويسري التي أشار إليها سيلفان بينسون Sylvain besson في جريدة الزمان Le Temps في جنيف فان السلطات السويسرية التي استضافت المركز الاسلامي الذي أنشأه رمضان في الستينات في جنيف، كانت تنظر إليه نظرة ايجابية بسبب آرائه المعادية للشيوعية، ويضيف: "أن سعيد رمضان هو من بين أشياء عديدة أخرى، عميل للمخابرات البريطانية والأمريكية، وأكثر من ذلك فأنني اعتقد أنه طبقا لمخطط مخابراتي - أدى خدمات للشرطة السويسرية الفدرالية، وتورد الزمان Le Temps بان ملف رمضان يتضمن وثائق عديدة تشير إلى علاقاته " بعدد معين من أجهزة المخابرات السرية الغربية".¹⁴⁷

الإسلام: قلعة ضد الشيوعية

هل كان رمضان والإخوان المسلمون والإسلاميون اليمينيون حلفاء نافعين في الحرب الباردة ضد الشيوعية؟ هل كان الإسلام نفسه قلعة ضد الإيديولوجية الإلحادية الأجنبية؟ بمعنى ما فان الإجابة تكون بالنفي. فالشيوعية والقومية يمكن أن يكسبا بل وكسبا بالفعل تأييد جماهير المسلمين. وعلى سبيل المثال نجد انه في العراق استطاع الحزب الشيوعي العراقي اكبر الأحزاب الشيوعية العربية إن يكسب تأييد ملايين العراقيين خلال فترة الحرب الثانية وبنهاية الخمسينات بلغ الحزب من القوة إلى الدرجة التي مكنته من تنظيم مظاهرة في بغداد شارك فيها أكثر من مليون شخص. وفي مصر الناصرية حيث كانت إذاعة صوت العرب التي حملت نداءات القومية إلى سوريا والأردن ولبنان والعراق والسعودية وجذبت أعدادا

147- Sylvain Besson, " When the Swiss Protected Radical Islam in the Name of Reasons of State," Le Temps, October 26,2004.

هائلة من المؤيدين في الخمسينات والستينات وكان ناصر أكثر القادة العرب شعبية على الإطلاق. وبالضبط كما فعل المسيحيون في أوروبا الذين التحقوا بالأحزاب الشيوعية بالجملة، كذلك كان الأمر في العالم الإسلامي حيث هب المسلمون الساخطون على نوعية الحياة التي يعيشونها أو الذين يعارضون الامبريالية الانجلو أمريكية في الشرق الأوسط، انضموا إلى الشيوعية أو بشكل أكبر إلى القومية العربية. غير أنه بالرغم من أن المسلمين قد انجذبوا إلى الإيديولوجيات اليسارية، فإن بعض المستشرقين وبعض واضعي السياسة الأمريكية أحسوا بأنه ما يزال هناك أسباب تدعوهم للاعتقاد بأن الإسلام السياسي يمكن أن يستخدم بإشكال واضحة العداء ضد الشيوعية. كان الإسلام المنظم في الشرق الأوسط يأخذ بطبيعة الحال إشكالا عدة. فاولا وقبل كل شيء كان هناك المسلمون التقليديون الذين يقودهم رجال الدين والذين ينتظمون حول المساجد، وكانت هناك الأوقاف والمحاكم الإسلامية ومؤسسات أخرى كان لمعظمها تأثيره الاجتماعي الكبير ولكنها لم تكن سياسية بشكل واضح. وثانيا كانت هناك دولة الإسلام مثل تلك القائمة في العربية السعودية منذ تأسيسها سنة 1920 أو باكستان منذ الاستقلال (وبصفة خاصة منذ سنة 1970) حيث نظمت الأمة بكاملها طبقا للهوية الدينية والشريعة الإسلامية، وكان من الصعب أحيانا رؤية الخط الفاصل بين الإسلام والدولة. وأخيرا كان هناك اليمين الجديد الذي ظهر في العالم الإسلامي بما في ذلك الإخوان المسلمون وعدد آخر من المنظمات السياسية العلنية أو الأحزاب السياسية التي تؤمن بالجمهورية الإسلامية. بالنسبة للغربيين الذين يبحثون عن قوى إيديولوجية في الشرق الأوسط يمكن أن توفر عناصر مثقفة تتوازن مع النداء الراديكالي للشيوعية فإن كل شكل من هذه الإشكال الثلاثة يبدو بين حين وآخر جذابا، غير أنه في الحقيقة كانت توجد علاقة وثيقة فيما بينها.

في الولايات المتحدة كان ثمة تحذير بأن " النخبة العربية " أي القادة والمتقنين والسياسيين والصحفيين وأمثالهم ينجذبون أكثر فأكثر ناحية الأحزاب والحركات اليسارية. وبين الجماهير كان هناك مزيد من الإحجام عن هجر القرآن لصالح تعاليم ماركس (في كتاب رأس المال) سيما في أوساط الفلاحين غير المتعلمين والقبائل البدوية والتجار الرأسماليين وقيادات السوق الرأسمالية مما يجعلهم أبعد ما يكونون عن الماركسية والاشتراكية العربية. ومن ثم فقد كان السؤال هو: أي نوع من الأطر الإيديولوجية يكون في إمكانه جذب ملايين العرب والمسلمين من جانب ويستقطب قطاعا هاما من النخب العربية من جانب آخر؟ و الجواب قدمه الإسلاميون الجدد

الذين يقودهم المثقفون والناشطون السياسيون من أمثال البنا ورمضان والمودودي الذين يبدو أنهم كانوا جاهزين لإصدار الأوامر. وحقق الإخوان المسلمون بعض النجاح في الحرم الجامعي واستطاعوا إن يجذبوا الطلبة سيما في كليات الهندسة والعلوم والطب والإدارة والأعمال. هل تستطيع مثل هذه الحركة خاصة مع مساندة العائلة الملكية السعودية أن تواجه الكتلة الماركسية - الوطنية؟ وهل يمكن للدعاية التي تقوم بها الولايات المتحدة الأمريكية التي تركز على قيمها الدينية الخاصة في مواجهة القيم السوفييتية الإلحادية إن تجتذب كتل المسلمين إلى جانب المعسكر الأمريكي - أو على الأقل بعيدا عن موسكو؟ كان يبدو إن ذلك امراً يستحق المحاولة.

كان برنارد لويس الذي اخترع تعبير تصادم الحضارات هو واحد من هؤلاء الذين كانوا يرون أن الأمر يستحق المحاولة. فلمدة خمسة عقود كان لويس الذي يشغل حالياً منصب أستاذ متفرغ (بعد سن المعاش) في جامعة برنستون كان بلا منازع المنظر الوحيد الأكثر تأثيراً في مجال العقائد الإسلامية، إلا أنه خلال هذه الفترة كلها كان يبدو الأكثر تناقضاً إما لأنه أيد أكثر المواقف انحيازاً لوجهات نظر المحافظين ثم بعد ذلك إلى جانب "المحافظين الجدد" وكذلك بسبب انحيازه القوي لإسرائيل.؟ ففي سنة 1953 كتب البروفيسور لويس مقالا عن "الشيوعية والإسلام"، وهذا مثال هام يدل على اتجاهات تفكيره في معركة الإيديولوجيات في ذلك الحين، فقد أعلن بوضوح إن شعوب العالم الإسلامي تجد في البحث من أجل إيجاد علاقة تربط بين الحكومات الشمولية وأنه إذا كانت أهداف الغرب متعارضة مع انتشار الشيوعية فلن يكون الأمر بهذه الدرجة من السوء. وكتب: "إذا كانت الشعوب الإسلامية مضطرة إلى الاختيار بشكل مباشر بين التخلي عن تقاليدنا لصالح أي من الشيوعية أو البرلمانية فإننا نكون بذلك قد حققنا فشلاً كبيراً." ومضى إلى القول أنه : "من حسن حظ كل من الإسلام والعالم الغربي أن الاختيار لا يقتصر على أي من هذين البديلين البسيطين لأنه لا تزال هناك إمكانية إن تسترد الشعوب الإسلامية ربما بشكل معدل تقاليدنا السابقة في تطوير شكل ما من أشكال الحكومة الذي رغم الشمولية بل وربما حتى برغم الاتوقراطية يكون بعيداً كل البعد عن الإرهاب المخادع للنموذج الأوربي من الدكتاتورية." ¹⁴⁸

148 - Bernard Lewis, "Communism and Islam," in The Middle East in Transition, ed. Walter Laqueur (New York, 1958) pp.311-324

بعد التسليم بوجود تشابه -لحسن الحظ- بين الأنظمة الشمولية الإسلامية
يمضى لويس ليقول انه من الصحيح أن الإسلام سوف يثبت بوضوح انه ليس أرضاً
خصبة للأفكار الشيوعية " فالشيوعية ليست ولا يمكن أن تكون ديناً، بينما الإسلام
بالنسبة للجماهير الغفيرة من المؤمنين به لا يزال وسيظل جوهر المقاومة الإسلامية
للأفكار الشيوعية، وبالرغم من الاعتقاد بأن الحرية اضعف من إن تحافظ عليهم إلا
أن إيمانهم بالرب ربما لا يزال قوياً بما فيه الكفاية. إن الشعوب الإسلامية لا تزال
شعباً عميقة الإيمان بأعمق وأبسط معنى لهذه الكلمة. إن الإسلام كعقيدة ليس
أسطورة ولكنه قوة دافعة مؤثرة على حياة وأفكار المؤمنين به، والمسلمون الأتقياء
- ومعظم المسلمين كذلك - لن يتحملوا طويلاً الإلحاد ولا أى انتهاك للمبادئ
الأخلاقية لعقيدتهم التقليدية.... إن الثورة الحالية للمسلمين ضد اللااخلاقية والانتهازية
لقادتهم وبعض قادة الغرب قد تؤدي مؤقتاً إلى تفضيل الشيوعيين بمظهرهم الذي
يدل على إخلاصهم غير الاناني لمثلهم ولكن ذلك سوف يعمل ضد الشيوعية حينما
يدرك المسلمون الحقائق الكامنة وراء الدعاية، ولنرجو ألا يستمر ذلك طويلاً.

في ملتقى برنستون الذي عقد في نفس السنة التي كتب فيها لويس مقاله، كان
أحد رجال الدين الباكستانيين، مظهر الدين صديقي الذي كان يعمل في المؤسسة
الثقافية في لاهور يضع خطاً فاصلاً، فبوصفه موظفاً حكومياً سابقاً وكاتباً تخصص
في الكتابة عن الشخصيات وتلقى تعليمه في جامعة مدراس بالهند وهو مؤلف "
الإسلام والشيوعية، الماركسية والإسلام، المادية التاريخية والإسلام". في خطابه في
ملتقى برنستون أوضح صديقي أن الشيوعية لا يمكن مقاومتها إذا استندت
معارضتها فقط إلى العقيدة التي تقوم على أساسيات الإسلام. وهاجم صديقي ليس
فقط شمولية المسلم ولكنه شن بالإضافة حملة مريرة ضد انعزالية العالم الإسلامي
وأشباه العلماء وإنصاف المثقفين الذين يدعون سرا أو علناً للإلغاء التدريجي للدين
والذين يدعون إن الدين هو، مجموعة من الأساطير والجمود ونظريات ما وراء
الطبيعة التي تدعو إلى الغض من شأن العقلانية" إن الانعزاليين وليس الشيوعيين هم
الخطر الأكبر على استقرار باكستان وبالتبعية على استقرار الشرق الأوسط الأكبر
من حيث المساحة. بقول صديقي:

" إن الإلحاد الشيوعي لديه قوة الإلهام التي لا تمتلكها العقلانية الخالصة، فهو
عقيدة وعلم وهو رسالة اجتماعية بقدر ما هو نظام ميتافيزيقي.؟ انه هو البديل
الوحيد للعقيدة الدينية التي يحاول سدنة العلم والتكنولوجيا في باكستان أن يقللوا من
شأنها.

إن المحتوى الاجتماعي والاقتصادي للإسلام هو ما يجعل منه حاجزا دون الشيوعية. إن جماهير المسلمين تستبشر بالفكر الإسلامي لأنه يعدهم بالمساواة الاجتماعية والاقتصادية وحرية التعبير. وإذا حدثت أي محاولة لإنكار المحتوى الاجتماعي والاقتصادي لتعاليم الإسلام فإنه يصبح من المؤكد إن تجتاح الشيوعية الفراغ الناشئ لأنه كما سبق الإشارة فإن الشيوعية تقدم كلا من الرضاء العاطفي والوعد بالأمان الاقتصادي والاجتماعي الذي يعد به الإسلام.... إن الاختيار المائل في العالم الإسلامي ليس هو الاختيار بين الشيوعية والديمقراطية العلمانية بل بين الشيوعية والإسلام الليبرالي.... إن الخطر الأكبر على الاستقرار في باكستان ليس مصدره رجال الدين الرجعيين ولا الشيوعيين الذين لا يمكنهم تقديم شيء أفضل للمسلمين، بل هؤلاء الذين ليس لديهم أي معرفة بالحقائق العميقة للإسلام.... ويحاولون خلق فراغ روحي في حياتنا مما يفتح الباب لمرور الشيوعية بسلام.¹⁴⁹

رسالة مماثلة وجهها كنيث كراج محرر "عالم الإسلام" في ورقته "التأثير الثقافي للشيوعية على الإسلام المعاصر" التي وزعت في الملتقى ونشرت بعد ذلك بعدة شهور في جريدة الشرق الأوسط¹⁵⁰، قدم كراج مداخلة مليئة بالمغالطات حول الإحياء الإسلامي حيث كتب: "إننا في خضم مقاومة الدين للشيوعية نعي إن العالم الإسلامي يجب أن يطور رد فعله العقلاني على التحدي الشيوعي، سواء على المستويات الروحية والميتافيزيقية والأخلاقية من أجل هزيمة "فلسفة الحشر والنشر" (نظرية الآخرة) الماركسية التي تتطلع إلى إقامة جنة شيوعية على الأرض" واقترح كراج ترياقا مضادا لهذه الماركسية المخادعة: "فيما يتعلق بالإسلام، كما أوضح عدد لا يحصى من الكتاب المحدثين فإن المجتمع المثالي هو المجتمع الإسلامي الصادق وقد يطلق عليه البعض الدولة الإسلامية الحقيقية" ويختتم قوله بنظرة متفائلة: "قد لا يحدث ذلك نتيجة الحاجة العامة لإعطاء إجابة ذات قيمة للشيوعية، فالعقيدتان الإسلام والمسيحية لديهما الفرصة لإقامة علاقات مثمرة فيما بينهما" ويستشهد كراج بتعليق من ملتقى برنستون بمناسبة مشاركة القوات التركية في الحرب الكورية لينتهي إلى القول: "الآن وأخيرا وبعد 1300 سنة من الصراع

149 - ملتقى حول الثقافة الإسلامية ص ص 86-89

150 - Kenneth Cragg " The Intellectual Impact of Communism upon Contemporary Islam," Middle East Journal 8(2) (Spring 1954), pp.127-

غير المجدي يحارب جنبا إلى جنب رجال ينتمون إلى الديانتين التوحيديتين ضد المادية التي لا اله لها.

إلا أنه في 1950 كانت فكرة أن يشارك الإسلام الغرب المسيحي في جهاد إسلامي صليبي ضد المادية التي لا رب لها "كانت بلا شك وجهة نظر الأقلية، فمن جهة اعتقد كثير من الاستراتيجيين المتعصبين الذين يمكن أن يطلق عليهم اليوم "واقعيين" كانوا يشعرون إن المسلمين اضعف من أن يعتمد عليهم وثمة قطب آخر من المعارضة تأتي من جانب هؤلاء الذين يعتقدون أن الإسلام لا يمكنه أبدا أن يقدم العون لقضية معاداة الشيوعية لأنه هو نفسه معادى بقوة للغرب.

ويتذكر هيرمان ايليتس الفكرة التي كانت تقول إن الإسلام حليف في المعركة ضد موسكو بوصفها فكرة مبالغ فيها فيقول: "كانت هناك وجهة نظر تقول بأن الإسلام والشيوعية هما ببساطة شيئان متناقضان". ويضيف ايليتس الذي بدأ خدمته في إيران والعربية السعودية في الأربعينات، يضيف قائلا: "قليل من الناس في الحكومة من يفكر كثيرا في الإسلام.... كان يوجد هؤلاء الذين يقولون: "من المفيد إبعاد الشيوعيين ولكن أحدا لم يأخذ ذلك بشكل جدي. كانت فكرة حكومة الولايات المتحدة بشكل عام وكذلك في العالم الأكاديمي "إن الإسلام قد أصبح عاملا سياسيا مضمحلا والشرعية الإسلامية يتم توظيفها لأهداف شخصية. وأتذكر جيدا أن الخبراء الاقتصاديين الأمريكيين الذين وفدوا إلى البلاد التي كنت أعمل فيها يحملون وجهة النظر التي تقول بأنه كلما أسرعت بالتخلص من الإسلام كلما أصبح التقدم أكثر اطرادا لأنهم كانوا يرون في الإسلام عائقا يحول دون التقدم الاقتصادي".

ظل جون س. كامبل يتولى لعدة عقود مسئولية رئاسة العلاقات الخارجية الإستراتيجية للشرق الأوسط وكان يقود قوة عمل تشكلت سنة 1954 وتتكون من أساطين مؤسسة السياسة الخارجية الأمريكية. بالنسبة لكامبل قد يكون الإسلام أو قد لا يكون عائقا للنمو الاقتصادي ولكنه فيما يبدو ليس عائقا أمام الاتحاد السوفييتي:

"من المؤكد أنه لا يمكن الاعتماد على الإسلام ليكون مثل هذا العائق. إن النظرية التي تقول إن الشيوعية والنفوذ السوفييتي لا يمكن لهما اختراق العالم الإسلامي بسبب المادية والإلحاد لم توجد بعد، فالدين ليس له مكان مميز في مجتمع الشرق الأوسط. أنه يستطيع إن يؤثر على كل من المواقف الشعبية والرسمية ولكنه لا يستطيع بذاته أن يشكل حصانة ضد فيروس سياسي كالفاشية أو الشيوعية. إن النظرية الشيوعية لها خصائص معينة تعادل الجمود الإسلامي، والوعد الذي تقدمه بتوفير حياة مادية أفضل ليست متناقضة معه. والاهم من ذلك إن تأثير العالم الحديث على الإسلام نجم عنه اتجاهان رئيسيان قد ينحوان نحو فتح الباب أمام

النفوذ الشيوعي: أولهما عدم قدرة النظريات والمؤسسات التقليدية على المحافظة على ولاء قادة الفكر والأجيال الجديدة الذين يعكفون على البحث عن طريق للخروج من التخلف المادي وثانيهما التمرد على الغرب الذي يمارس ضغوطاً من شأنها تكريس الإسلام وفي نفس الوقت خلق الشعور بالتميز لأية نظريات أو قوى سياسية معادية للغرب.... إن الحركة الوطنية المعادية للغرب سواء في البلاد العربية أو إيران تتمازج معها بقوة المشاعر الدينية بل وحتى التطرف الديني.

ويرى كامبل أن النزعة الموروثة المعادية للغرب الكامنة في الإسلام السياسي ينبغي أن يكون لها الأسبقية على أية فكرة ترى أنها مفيدة بالنسبة للإستراتيجية الأمريكية¹⁵¹

بالرغم من هذه التحذيرات تعاملت الولايات المتحدة بلا تروى مع الإسلاميين خلال الفترة من 1945-1957. وحتى في وقت مبكر منذ 1945 حينما بدأ المخططون الانجليز والأمريكان يفكرون في كيفية إقامة الأحلاف وأنظمة الدفاع ضد الاتحاد السوفييتي عبر حدوده الجنوبية الشاسعة كانوا يضعون الإسلاميين في اعتبارهم. فالجامعة العربية التي أوحى بريطانيا بفكرتها على سبيل المثال كانت تعتبر ضعيفة لأنها لم تكن تشمل تركيا وإيران وباكستان ومن ثم اقترح تحويلها من جامعة عربية إلى جامعة للدول الإسلامية بحيث تضم على الأقل بعض دول الحزام الشمالي¹⁵². ولكن هذه الفكرة أجهضت وركزت السياسات التالية بشكل أقل على الإسلام وبشكل أكثر على القوة الانجلوأمريكية. ومع ذلك فخلال عهد ترومان وإيزنهاور بذلت الولايات المتحدة سلسلة من الجهود لتعبئة الإسلام السياسي في الحرب الباردة واستخدام الإسلام كسلاح ضد النفوذ السوفييتي، وكان بعضها جاداً وبعضها الآخر سيئ الإعداد بل ومضلاً بشكل صارخ. وإذا أخذنا على سبيل المثال برنامج "الخنزير الأحمر" وهو جزء من خطوات التقرب الأمريكي من

151- Campbell, p. 299. ولكن بعد ربع قرن يعدل كامبل وجهة نظره شيئاً ما فقد كتب في ربيع 1984 مقالا في جريدة "الشؤون العربية الأمريكية" (العدد 8 ص 80) يقول فيه "يبدو إن الخميني يتمتع بإذلال الاتحاد السوفييت الملحد برغم التهديد المائل. فقد تم جلد السوفييت بظهور الإسلام كقوة سياسية نامية وقوية في الشرق الأوسط.... إن النظام في إيران قد ساند الثورة الإسلامية المضادة في أفغانستان. إن الأحداث المئوية لإثبات الوجود الإسلامي لن تكون عديمة التأثير على المسلمين في آسيا الوسطى السوفييتية" خلال ربع القرن الذي انصرم بين وجهة نظر كامبل سالفة الذكر وإحداث الثورة الإيرانية حدثت تغيرات كثيرة.

152- س. أ. موريسون "القومية العربية والإسلام" جريدة الشرق الأوسط (أبريل 1948) ص ص

الإسلام السياسي في الخمسينات، كان محاولة لكسب نقاط دعائية لصالح الولايات المتحدة، بتأكيد على أنها أمة مؤمنة بينما الاتحاد السوفيتي ضد الدين، ففي سنة 1951 أعلنت هيئة الاستعلامات الأمريكية في بغداد بفخار شن حملتها الدعائية الهادفة إلى كسب قلوب وعقول العراقيين المسلمين " بعقد مقارنة بين وضع الدين في الولايات المتحدة ووضع في دولة "شيوعية"، صمم إعلان (بوستر) ضخيم يظهر " الدولة الشيوعية كثور ضخم يهاجم رجلا يمثل الدين وإعلان آخر يحكى قصة الخنزير الأحمر الشره وكيف انتهى نهاية سيئة. ولم تفت المشاهدين أن الخنزير الأحمر كان يرتدى النجمة الحمراء بينما وضع على مؤخرته أئمنجل والمطرقة... ولاحظ آخرون مدى ملائمة أن يرمز إلى الشيوعية بالخنزير نظرا للكراهية التي يحملها له المسلمون. وإمكانية تطوير سلسلة من الرسوم الكاريكاتيرية التي تستخدم الخنزير الأحمر كشخصية محورية في الإعلان"¹⁵³

1 . قام ادوارد س. كروكر المسئول بالخارجية الأمريكية الذي صمم الحملة المشار إليها قام بتضمين برقيته 32 رسما لحملة الخنزير الأحمر. وساهمت المخابرات المركزية الأمريكية أيضا بطريقتها الخلاقة شبه المتعالية بحيث تكون على اتصال بالحركة الإسلامية. وقد أشير إلى بعضها في "لعبة الأمم" مؤلف مايلز كوبلند ضابط العمليات بالمخابرات المركزية الأمريكية الذي عمل خلال الخمسينات كضابط اتصال بعبد الناصر وامتضي سنوات عديدة متورطا في عمليات غسيل مخ السياسة العربية. وقد اعتزل كوبلند العمل في وقت مبكر ولكنه حافظ على علاقاته الوثيقة مع العشرات من العاملين الحاليين والسابقين بها سيما مع كل من كيرميت وآرشي روزفلت أحفاد تبدى روزفلت. وكجنوبي يجيد ركوب الخيل استخدم كوبلند مهارته كرجل يجيد كل الأعمال ليتخذ سمت الرجل الذي يدرك كل شئ عن العالم العربي. وقد أشار إلى انه في حوالي نفس الوقت الذي حدثت فيه حملة الخنزير الأحمر جاءت المخابرات المركزية بمشروع "بيلي جراهام المسلم". في سنة 1951 انتدب سكرتير الدولة للشئون الخارجية دين اتشيسون انتدب كيرميت روزفلت من المخابرات المركزية حديثة النشأة حينذاك ليرأس هيئة سرية من الخبراء بعضهم من الإدارة وآخرين من وزارة الدفاع وبعضهم الآخر جئ بهم من بين رجال الأعمال ومن الجامعات ليعملوا كمستشارين (لم يأت احد من المخابرات

153 - من أرشيف الأمن القومي الأمريكي - المواد المستخدمة في الاعلانات ضد الشيوعية - 10 مارس 1951 - بغداد

المركزية الأمريكية سوى كيرميت روزفلت نفسه) - وحسبما قال كوبلاند كانت مهمتهم أن يدرسوا العالم العربي ". وعند اجتماعهم قدم مشروع مصمم بهدف استثمار المشاعر الدينية الإسلامية. " قدم احدهم فكرة إنشاء شخصية بيلي جراهام (المسلم) من اجل استثارة الحماس الديني في حركة واسعة ضد الشيوعية، وذهب إلى حد اختيار رجل دين عراقي ثاقب النظرات يجوب البلدان العربية "ولم يتم الكشف عن شخصية هذا العراقي، ولكن كوبلاند اعتبر الأمر بمثابة تجربة تعليمية. "لم تسفر التجربة عن أية أضرار ولكن المحاولة أفادت اللجنة كثيرا فيما يتعلق بتحديد ماهية الخطأ في تفاصيل الخطة، وهو درس أجيد استخدامه فيما بعد حينما قام مستشارو الملك فيصل بوضع مشروع مماثل بحيث يقوم الملك فيصل نفسه بدور "الرجل المقدس"¹⁵⁴

ثمة مشروع آخر اقل طموحا من مشاريع المخابرات المركزية الأمريكية يتضمن دعاية مناوئة لنفوذ الاتحاد السوفييتي في مصر حيث نقبت المخابرات المركزية بعض مخلفات ما قبل الحرب العالمية الأولى المعادية للإسلام وتحمل عناوين مثل " محمد لم يكن له وجود إطلاقا " و " النتائج السيئة لصوم رمضان " و " ضد الحجاب " حيث أعادت المخابرات المركزية الأمريكية نشرها بعد أن نسبتها للسفارة السوفييتية في القاهرة.¹⁵⁵ وجربت المخابرات المركزية كذلك استخدام مصر كمركز للوصول إلى الناشطين الإسلاميين في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. ولم يكن محرك العملية أحدا غير أنور السادات. فمنذ الحرب العالمية الثانية كان السادات قريبا من الإخوان المسلمين ويعمل كهزمة وصل بين التنظيم وحركة الضباط الأحرار التي كان يرأسها ناصر خلال الفترة من الأربعينات حتى البدايات الأولى للخمسينات. تقدم السادات لعبد الناصر بفكرة إنشاء مؤتمر إسلامي. وحينما وافق ناصر على الفكرة تم اختيار السادات رئيسا للمؤتمر. ووفقا لما ذكر ماييلز كوبلاند " أرسل عدد من المتدينين كملحقين بالبعثات الدبلوماسية المختلفة في الخارج وعهد إليهم بمهمة متابعة الفرص التي يمكن استغلالها لاستثمار المصالح الدينية وصولا إلى اتحاد ديني تكتيكي على الأقل.... في بادئ الأمر أظهرت الولايات المتحدة تشجيعا محدودا للبرنامج.¹⁵⁶ فيما بعد حينما وصلت العلاقات بين عبدا لناصر والولايات المتحدة إلى نقطة الافتراق، سحبت المخابرات المركزية الأمريكية تأييدها للفكرة.

154 - كوبلاند ص 58

155 - المرجع السابق ص 184

156 - المرجع السابق ص ص 185 - 86

وبمزيد من الجدية بدأت الولايات المتحدة تستكشف مع السعودية إمكانات تشكيل كتلة إسلامية. كان عدد من موظفي ودبلوماسيي الولايات المتحدة قد توصلوا إلى هذه الإمكانية في الأربعينات، ولكن الوقت كان مبكراً لإقامة تحالف أمريكي سعودي في ذلك الحين ليقوم على أسس متينة على نحو ما حدث فيما بعد. على أية حال فإن استثمار الإسلام كحاجز ضد الشيوعية والأفكار الماركسية والقومية العربية الراديكالية، هذه الفكرة شغلت أذهان الكثير من الأكاديميين وواضعي السياسة ومسئولي العلاقات الخارجية الأمريكية.

في سنة 1951 قام وليام أدى قنصل الولايات المتحدة العام في الظهران بالمملكة العربية السعودية، بكتابة تقرير مفصل عن المناقشات التي أجراها مع مختلف القادة المسلمين بمن فيهم ملك السعودية ومفتي القدس والقادة الإسلاميين في مصر واحد موظفي الجامعة العربية مقترحاً القيام بعمل استراتيجي لإقامة جبهة ضد الشيوعية تضم الغرب المسيحي الديمقراطي والعالم الإسلامي معا في جبهة أخلاقية ضد الشيوعية. ووفقاً لما ذكره أدى تحدث المفتي الحاج أمين الحسيني الفلسطيني ذو العلاقة الوثيقة مع بريطانيا والذي كان نصيراً للنازي خلال الثلاثينات والأربعينات " تحدث عن روسيا بأشد ما تكون الكراهية وأصر على أننا كنا مشاركين في الحرب الأخيرة على الجانب الخطأ وأنه كان يتعين علينا أن نتحالف مع ألمانيا ضد روسيا. وتحدث بحرارة عن التعاون الذي يمكن أن يقدمه المسلمون للارتقاء بالعمل الدعائي المشترك مع المسيحيين لإزالة هذا الخطر!! وفيما يتعلق بالعربية السعودية أوضح أدى مدى القوة التي تتمتع بها الحركة الوهابية الأصولية:

" في حديثي هذا الأسبوع مع ملك العربية السعودية عبد العزيز آل سعود ناقش الملك نفس هذه النقطة مناقشة مستفيضة وأكد أن كلا من المسيحية والإسلام مهددين من قبل الشيوعية عدوهما المشترك....المسلمون في الشرق والمسيحيون في الغرب يجب أن يتحالفوا معاً لحل هذه المشكلة لحماية عقيدتهم التاريخية... وبصفته رئيس الحركة الوهابية النقية فإنه يعتبر بلا أدنى شك أفضل ممثل للمسلمين وأكثرهم نفوذاً في العالم اليوم وأكثرهم استعداداً للعمل من أجل استعادة نقاء هذه العقيدة وممارسة الفروض الإسلامية"¹⁵⁷. أرسل أدى نسخاً من هذا الخطاب إلى ثلاث موظفين في أرامكو (الكونسورسيوم الذي يضم اكسون وموبيل وتكساكو وشيفرون) وإلى البريجادير جنرال روبرت ماكليور Robert A. McClure مدير إدارة الصحة النفسية في وزارة الدفاع.

157- وليم أ. أدى رسالة إلى دوروثي ثومبسون 7 يونيو 1951- أرشيف الأمن القومي

لم يكن ادى مجرد موظف قنصلي بسيط. فخلال الحرب العالمية الثانية كان يعمل في مكتب الخدمات الإستراتيجية التابع للمخابرات وحصل على خبرة استخدام الإسلام السياسي لمصلحة الولايات المتحدة. " ولد في سوريا لأبوين يعملان في البعثة التبشيرية ويتكلم العربية بطلاقة. كان رجل دين معروف وبطل حرب فقد احدى ساقيه في الحرب الأولى. وبمقدرة عملية كبيرة قاد ادى بعض العمليات العسكرية في شمال أفريقيا في الأجزاء التي كان الألمان قد احتلوها. ونظم عدة شبكات من جامعي المعلومات لتقوم إلى جانب جمع المعلومات بنشر الدعاية وتنظيم حركات المقاومة ". وكانت المقاومة تضم جمعية إسلامية سرية يقودها متعاونون يعرفون فقط بما أطلق عليهم من أسماء مستعارة" مثل "سترنجس" و"تاسلس" وكان سترنجس هذا قائد مجموعة قوية من الإخوان المسلمين في شمال المغرب"¹⁵⁸

بعد مرور عام ظهر سنة 1952 تقرير دبلوماسي غير موقع بعنوان " حديث مع الأمير سعود "مؤشر عليه" سرى: معلومات سرية" يقول إن شركة ارامكو كانت تمول مطبعة ومحطة إذاعة في الرياض مقابل مواد دعائية ذات طبيعة دينية. وأعلن الاميرسعود الذى مالبث إن اصبحت ملكا، أعلن إن العربية السعودية كانت " القائد في الأمة العربية نظرا لوجود الأماكن المقدسة داخل المملكة". ولكن سعود كان لديه - حسبما يضيف الدبلوماسي الأمريكي - نقطة أخرى لأضافتها:

"في يوم ما ستعطى هذه القيادة شكلا واضحا. وقال إن لديه خططا لا يحب إن يطرحها للمناقشة بالتفصيل الآن مما يهدد بإثارة ثائرة الحركة الإسلامية الشمولية وأنها يمكن أن تفعل الشيء الكثير لصالح البلاد الإسلامية بحيث تجعلها تعمل معا كوحدة واحدة، ولكنه كرر القول انه ليس على استعداد الآن لمناقشة هذه الفكرة بالتفصيل....أخبرته أن المعلومات التي يذكرها عن الوحدة الإسلامية مثيرة للاهتمام وأنها سوف تكون سعداء جدا بمعرفة المزيد عنها عندما يتم صياغة هذه الخطط.... أخبرته إننا سوف نرحب بهذه الحركة تحت قيادته لأننا نثق بأنها ستكون حركة صديقة."¹⁵⁹

بينما كان لبعض المشتغلين بالعمل الدبلوماسي شكوكه، كانت الجهود تتوالى من أجل تشجيع فيصل على السير في هذا الاتجاه وإن ينظر إليها

158 - Patrick O' Donnell , Operatives, Spies, and Saboteurs(New York: 2004) pp.

31-32

159 - محادثة مع الامير سعود 10 مارس 1952 ارشيف الامن القومى .

نظرة جدية بدءا من الإدراك الحقيقي للبعد السياسي أو الثقافي للعالم الإسلامي. يقول ديفيد لونج وهو ضابط مخابرات سابق كان يعمل في الخارجية الأمريكية ومتخصص في شئون العربية السعودية والخليج انه بعد مضي فترة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة تعمل على غير هدى. "لم تكن تعرف أى شئ" حسب قوله "نعم كنا نستعد لفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية. وكنا أحيانا نستخدم الإسلام كنقطة يتجمع حولها كل الشأن السياسي الحالي" ويستطرد لونج قائلا "غير إن سياسة الولايات المتحدة كانت تفتقد القدرة على فهم السوابق التاريخية " يقول معلقا على الأسلاف القدامى: "إن إيديولوجيتهم كانت قديمة. ولكننا لم نسمع أبدا عن أى شيء، عن أى منهم عندما قفزنا إلى ما وراء هذه إل 1300 سنة الأسطورية: ببساطة لأننا كنا اكبر اللاعبين". يضيف لونج بان بعض الأمريكيين كان لديهم تآلف فطرى مع الشرق الأوسط والثقافة الإسلامية "كان يقال عادة ان أطفال شركات البترول الأمريكية والبعثات التبشيرية يعرفون القليل، ولكنني تحدثت معهم على مدى سنوات. كانوا يعيشون عالمهم الخاص الصغير، وكان ما يعرفونه فى الحقيقة محدودا للغاية، كنا نريد البترول وكنا نريد محاربة الشيوعية، غير انه لم يكن يعنينا أن نعرف كل هذا اللغط عن الإسلام. كنا مهندسي طريق، طريق يقع وراء المنحنى الذي سبق إن تخطاه البريطانيون والفرنسيون بعد كل هذا الوقت الذي أمضوه هناك". وعندما سئل ما إذا كانت الولايات المتحدة قد ساندت الإسلام السياسي كبديل عن الشيوعية فى ذلك الحين أجاب لونج "لقد شجعناه ولكننا لم نصنعه.". ويضيف لونج: "كانت الصفقة هي: إذا تعرض السعوديون للهجوم فنحن نتولى حمايتهم، وهم سوف يزودونا بالبترول".

وفيما يتعلق بناصر راجع فيصل الصفقة وعارض الوحدة العربية وقرر أنهم اشتراكيون وإنهم ضد الإسلام، ومن ثم فبينما كنا نحن والإسرائيليون نعتبر ناصر شيطانا كان فيصل يناهضه. كان يخشى أن يتحول الشباب المسلم إلى الاشتراكية ويتخلى عن الإسلام. نحن لم نفهم ذلك، لم نكن ندرك دوافع فيصل. وحاولنا إقامة تحالف بين تونس والسعودية، مغفلين أن بورقيبة كان علمانيا. كنا نقول له "ها انتم جميعا معتدلون " ولكن بورقيبة كان فى نظر فيصل مرتدا.

كنا نسير فى نفس الاتجاه ولكننا لم ندرك ذلك. وحاولنا أن ننحو نحوا مختلفا، هو منحى سياسة القوة. ولكن بالنسبة للسعودية كانت المسألة مبنية

على فكرة أنهم هم المدافعون عن العقيدة وعن الأماكن الإسلامية المقدسة ولكننا كنا نرى الأمر في إطار سياسة القوة.¹⁶⁰

كما أشار لونج تعثر "المهندسون" الأمريكيان في نوع من التحالف مع الأصولية الإسلامية دون أن يدركوا ماذا يحدث بالفعل. عدد محدود جدا من الدبلوماسيين والعلماء الأمريكيان هم الذين درسوا العلاقة بين الإسلام والسياسة، وهؤلاء كان يجري التشويش عليهم باستمرار. في سنة 1951 عقدت مؤسسة الشرق الأوسط مؤتمرا لمدة يومين حول "الإسلام في العالم الحديث" حيث تحدث فيليب إيرلاند وهو من كبار موظفي الإدارة الأمريكية وكان يعمل ملحقا إداريا في بغداد والقي خطابا عن العلاقة بين الإسلام والديمقراطية والشيوعية متسائلا "ما إذا كانت الاتجاهات الحالية سوف تنقل الإسلام إلى معسكر الشيوعية أو إلى الديمقراطية، وبعد أن ابدي ملاحظة مؤداها أن الشيوعية (في الواقع كان يعنى: القومية) تحقق مكاسب في سوريا والعراق والأردن وإيرلندا، لاحظ إيرلاند أنه:

"في العربية السعودية واليمن وحضر موت أثبتت الطبيعة السمحة والجادة للإسلام حقا وعمليا ونظريا أنه قلعة في وجه الشيوعية.¹⁶¹

لم يعر إيرلاند الجانب النظري من الإسلام جزءا كبيرا من اهتمامه معربا عن أمله بأن يستطيع المسلمون بطريقة ما أن يؤالفوا بين الإسلام والنظريات السياسية الحديثة. ولكن القيادات الإستراتيجية للولايات المتحدة الأمريكية كانت تخشى أنه بتحديث الإسلام سوف يهجر المسلمون عقيدتهم إلى العلمانية وأن مثل هذا الاتجاه سوف يفتح الباب أمام انتشار الأفكار الماركسية في الشرق الأوسط. أما بايارد دودج العميد السابق للجامعة الأمريكية في بيروت (1923-1948) وكان يحظى بنفوذ كبير فقد ذكر في نفس لقاء "جماعة مؤسسة الشرق الأوسط":

"إن القومية ذات الطابع المادي تصبح الآن عاملا قويا في الفكر والمجتمع الإسلامي. وهذا يعمل بشكل مباشر ضد الأفكار القديمة المتعلقة بالإسلام الشمولي أو الخلافة الإسلامية بوصفها نظاما عظيما للإخوة الإسلامية المنظمة. وقد أخذت القومية إلى حد كبير مكانة الجانب العقائدي من حركة الإسلام الشمولي. وغنى عن البيان أن المسلمين الشبان غير المعنيين بالإسلام بوصفه نظاما عظيما، هم الذين

160 - ديفيد لونغ - مقابلة مع المؤلف - أبريل 2004

161 - مؤسسة الشرق الأوسط "الإسلام في العالم الجديد". 9-10 مارس 1952 ص 72

على وجه الخصوص يحتمل إلى حد كبير أن يصبحوا شيوعيين.... إن رد فعل المسلمين من الجيل الصاعد كان لسوء الحظ سيئا إلى حد بعيد حيث نبذ الكثيرون منهم عقيدتهم وأخلاقهم وولاءهم للدين وأصبحوا يعيشون عيشة تهتك، يعاقرون الخمر ويقامرون ويسرون عن أنفسهم في الكباريهات وبيوت الدعارة.

وإذا ما غض من شأن الإسلام وجاءت المادية والراديكالية مع الأفكار الشيوعية وربما اخترقتها، فإن العواقب ستكون بكل تأكيد وخيمة على العالم.¹⁶²

الولاء للعقيدة ؟ ممارسة حياة تهتك... في بيوت الدعارة؟

هذا هو دودج وارث بعثات التبشير البروتستانتية بجذورها الضاربة في الشرق الأوسط منذ القرن التاسع عشر... هذه التعبيرات أقرب إلى أصوات الذين يحاولون إحياء آيات الإنجيل منها إلى أصوات محلي السياسة الخارجية. وفي الحقيقة فإن دودج في خطابه يثنى على الإخوان المسلمين وعلى الذين يحاولون إحياء العقيدة في تركيا المناهضين لأتاتورك وإلى هؤلاء الفرس تحت حكم رضا بهلوي الذين يعتقدون أنه يجب العودة القهقري لمزيد من التدين إذا أرادوا أن يهزموا الشيوعية¹⁶³ لقد عبر دودج هنا تعبيرا دقيقا عن هؤلاء الذين يبحثون عن إقامة تحالف مسيحي إسلامي يتمناه الكثيرون من صانعي السياسة الأمريكية بغض النظر عن كونه مسألة غير عملية. ولكن الأكثر سوءا هو بالتحديد ما لا يحتاجه الشرق الأوسط لأنه يناضل من أجل التحديث ولأن قاداته العلمانيين بكل مكان في المنطقة فيما عدا العربية السعودية يريدون أن يقللوا أو يقضوا على دور الإسلاميين الأصوليين ورجال الدين الوهابيين والإخوان المسلمين. إن ما يخشاه دودج وكثيرون غيره هو الشيوعية وليس الرأسمالية على النمط الغربي التي سوف تكتسب قلوب وعقول العرب والأتراك والفرس والهنود الذين تحرروا من أغلال العقيدة الدينية. إن كثيرا من الدبلوماسيين الأمريكيين الذين يهتمهم بنفس الدرجة بكل تأكيد نمو المصالح الأمريكية فيما وراء البحار وهزيمة الشيوعية يتبنون وجهة النظر القائلة بأنه يتعين على الولايات المتحدة أن تركز اهتمامها على التطور الاقتصادي في الشرق الأوسط وأن تسهل عملية انتقال المنطقة من الأصولية الدينية المتخلفة إلى الأفكار الحديثة والغربية لتنظيم المجتمع التي قد لا تفيد بالضرورة الاتحاد السوفييتي. ويعتقد الكثيرون أنه لا يجوز للإسلام أن يكون شيئا آخر سوى نظام من العقيدة الشخصية وليس نظاما سياسيا أو اجتماعيا.

162 - المرجع السابق ص ص 15 - 18

163 - المرجع السابق ص ص 13 - 14

ولكن بعد انقضاء خمسينات القرن العشرين بدأت أصواتهم تخبو وبدأ تأثيرهم ينحسر أكثر فأكثر. إن "عدم انحياز" ناصر أو "حياده الايجابي" قد اخذ يبدو في نظر إخوان دلاس ومنظري الحرب الباردة كحصان طروادة. وكذلك حدث فيما يتعلق بوطنية مصدق رئيس الوزراء الأيراني. وفي كلتا الحالتين، حينما تحركت إدارة أيزنهاور لمواجهة هذين النظامين، فإنها قد استخدمت واحدا من أخطر الأسلحة في ترسانتها، وهو الأصولية الإسلامية.

*

الفصل الرابع

الحرب ضد ناصر ومصدق

في بداية خمسينات القرن العشرين ظهر زعيمان في اثنتين من أقوى بلدان الشرق الأوسط - مصر وإيران. في مصر قام تنظيم الضباط الأحرار بقيادة ناصر بخلع الملك وهدد بإشعال الثورة في المملكة العربية السعودية قلب إمدادات الطاقة العالمية. في إيران تحدى رئيس الوزراء المنتخب ديمقراطياً ذو الميول الاشتراكية وهو محمد مصدق، تحدى سلطات شاه إيران الحاكم واضطره الى الهرب وأكد حق بلاده في تأمين صناعة البترول و الاستيلاء عليها من الشركة البريطانية "أنجلو بيرسيان أوليل كمباني" "Britain's Anglo Persian Oil Company".

في كلتي الحالتين بادرت بريطانيا والولايات المتحدة ومخابراتهما بشن عملياتهما للإطاحة بمصدق ولكنهما منيتا بالفشل بالنسبة لعبد الناصر. واستخدمت المخابرات البريطانية أم آى 6 والمخابرات المركزية الأمريكية، استخدما اليمين الاسلامى كمخالب قط.

في مصر تم استخدام الإخوان المسلمين وفي إيران جندت مجموعة من آيات الله بمن فيهم منظر الجماعة آية الله كاشانى (الأب الروحي) لآية الله روح الله الخميني.

ولربما كانت اكبر خسارتين متلازمتين أو فرصتين أفلتتا من الولايات المتحدة في الشرق الأوسط خلال النصف الأخير من القرن العشرين هي فشل الولايات المتحدة في استيعاب كل من جمال عبد الناصر ومحمد مصدق حينما ظهرا في خمسينات هذا القرن كقيادتين تعبران عن مطامح شعبيهما. وادي هذا الفشل الى تنامي الشعور بالرفض والمرارة والغضب في الشرق الأوسط مما أدى الى تأجيج هذه المشاعر وتغذيتها ضد الأمركة واستمرارها حتى يومنا هذا، بل لعلها ما تزال مصدرا لإمداد القاعدة بالمزيد من المجندين لصفوفها. وتزداد هذه الأمور تعقيدا نتيجة خطأ آخر فادح يتمثل في قرار الولايات المتحدة بتأييد العربية السعودية بوصفها القطب المناوئ للقومية العربية والقومية الفارسية وكذلك إصرارها على ان تربط نفسها بشبكة عالمية واسعة من الاسلاميين الذين ترعاهم السعودية. ان هذا

القرار كان له نتائجه التي أدت الى صعود (ثيوقراطية) الحكم الديني لأيه الله الخميني وتدمير افغانستان والإرهاب الدولي الذي يباشره اسامه بن لادن.

الاخوان المسلمون ضد عبد الناصر

في سنة 1954 حينما فرض عبد الناصر سيطرته علي منافسيه وحتى وفاته سنة 1970، ظفر عبد الناصر بتأييد غير مسبوق بل واسطوري في انحاء العالم العربي أو علي حد قول الكاتب الفرنسي المشهور (أندريه مالرو) 'Andre Marlaux عن عبد الناصر " انه سوف يدخل التاريخ ممثلاً لمصر مثلاً حدث لنابليون بالنسبة لفرنسا."164

أو كما قال ويليام بولك William R. Polk الذي كان يعمل في هيئة الأمن القومي في ستينات القرن العشرين " انه (أي عبد الناصر) هو جون كنيدي العرب."165" لقد شيع جنازته 5 خمسة ملايين شخص غير عشرات الملايين من العرب الذين بكوه شخصياً في السر "هؤلاء الذين بكوه في المقاهي والبيوت علي أفراد وفي جماعات هادئين أو صارخين. وفي صلواتهم وفي سياراتهم في كاليفورنيا النائية والذين قابلوا وفاته بجمود الخرس "166. ومرة بعد أخرى خلال خمسينات وستينات القرن العشرين كانت الولايات المتحدة تقبض يدها عن إمداد ناصر بالسلاح وأسوأ من هذا، وإن يكن من خلف ستار كانت تخطط لإسقاطه عن طريق المخابرات المركزية الأمريكية.

يذكر إد كين Ed Kane وهو ضابط عمليات سابق في المخابرات المركزية الأمريكية كان يعمل في القاهرة في أواخر الخمسينات وأواخر الستينات كانت الوكالة منخرطة في عملية سرية، عملية في غاية الإنحطاط - ويمكن أن أضيف - بالاعتماد علي أفراد من النظام السابق الذين لم يكونوا في الواقع يملكون أية قوة، كنا نحاول أن نجد عناصر يمكنها إسقاطه، معظمها عناصر مرتبطة بالنظام القديم مثل ملاك الارض ورجال الصناعة وأعداء ناصر القدامى - كان مشروعاً لايرجي منه."167.

164- مقتبس من مؤلف سعيد ك. ابو ريش " ناصر اخر العرب " (نيويورك - ط 2004) ص 314

165- المرجع السابق

166- المرجع السابق ص 315

167 - Ed Kane مقابلة مع المؤلف مايو 2004

كان عبد الناصر منذ نصف قرن مضي رمزاً للثورة العربية والإعتداد بالنفس والإستقلال. جاء إستيلاء الضباط الاحرار علي السلطة في مصر خلال عصر كان فيه العالم العربي من المغرب إلي العراق سجين عصر سياسي يتسم بالجمود - فالمغرب وتونس والجزائر كانت مستعمرات فرنسية أما الكويت وقطر والبحرين والإمارات العربية المتحدة وعمان واليمن فكانت مستعمرات بريطانية بينما كان العراق والاردن والعربية السعودية أنظمة ملكية يحكمها ملوك نصبتهم لندن. وكانت مصر، تحت حكم الملك فاروق الأيل للسقوط هي المركز السياسي والإقتصادي للعالم العربي. و بإستيلائه علي السلطة في مصر، أوقد ناصر الشعلة السياسية الطبقية في العالم العربي وأصبح مصدر إلهام للعديد ممن ساروا علي نهجه فيما بعد - أحزابا سياسية تتطلع للتحرير وثوريين في الجيش. ومنذ 1954 فصاعداً من خلال انصاره والذين يعضدونه سياسيا والصوت المدوي لإذاعة صوت العرب في القاهرة وبفضل شخصيته الكاريزمية قاد ناصر الحركة التحريرية في الشرق الأوسط العربي. وفي الفترة منذ 1956 - 1958 اهتزت لبنان والاردن والعراق تحت تأثير الإنتفاضات فسقط ملك العراق وإتحدت سوريا مع مصر في الجمهورية العربية المتحدة بقيادة ناصر التي برغم حياتها القصيرة إلا أنها كانت تجربة تسترعي الاهتمام فيما يتعلق بتوحيد العالم العربي. وحصلت الثورة الجزائرية علي دعم مادي ومعنوي من مصر قبل أن تحصل علي إستقلالها سنة 1962، أي نفس السنة التي حدثت فيها الثورة اليمنية التي كان ناصر مصدر إلهامها، وهي الثورة التي فجرت حرباً مضادة ادت بالسعودية الى الدخول في حرب بالوكالة ضد مصر. وحتى وقت متأخر من سنة 1969 أي قبل وفاة ناصر بعام أطيح بملك ليبيا وبالنظام اليميني في السودان الذي قضى عليه ضباط موالون لناصر.

خلال فترة الحرب الباردة الشيطانية سواء كانت لصالحنا أو ضدنا كان ناصر محط لعنة وسباب لندن وواشنطن ونيل أبيب. وفي كافة أنحاء العالم من جواتيمالا إلي الكونجو إلي اندونيسيا وحتى إيران كانت المخابرات المركزية الامريكية تعمل للتخلص من عدد من القيادات لا لأنها شيوعية ولكن بسبب ان السياسة الاستقلالية التي أتبعها جعلت منها عناصر غير جديرة بالثقة من وجهة نظر الغرب في خضم الحرب بين القوي العظمي، ولم يكن ناصر مستثنى من ذلك.

وبخلاف القادة الآخرين في امريكا اللاتينية وافريقيا، كان ناصر بنظرته الثورية مهدداً للإستراتيجية الامريكية لما بعد الحرب العالمية الثانية: حقول البترول

الشاسعة في العربية السعودية. لم تكن مصر مجرد منافس عسكري للسعودية ولم تكن مصر مجرد دولة إشتبكت مع الرياض في حرب في اليمن تبادل فيها الطرفان إطلاق النار _ وليس فقط لان ناصر ألهم العرب في العربية السعودية بالمثل الجمهورية بل لان الزعيم المصري استطاع ان يكسب الى جانبه بعض اعضاء الاسرة الملكية في السعودية الذين شكلوا بقيادة الامير طلال ما اطلق عليه " الامراء الأحرار" الموالون لمصر والذين يطالبون باقامة نظام جمهورى فى العربية السعودية.

وحيثما اقامت الولايات المتحدة شبكة من حلفائها فى الشرق الاوسط بالاعتماد اكثر فاكثرا على دول غير عربية مثل تركيا وإيران وإسرائيل نشبت من ثم حرب باردة تقع مصر فى احد طرفيها والسعودية فى الطرف الآخر.

وبدا الامر كما لو ان المعركة داخل العالم العربى تضم الدول العربية التى يساندها السوفيت ضد حلفاء الولايات المتحدة، ولكن الحقيقة أن الاتحاد السوفيتي لم يكن لديه حلفاء حقيقيون ولكن لديه عدد محدود من الاصدقاء فى المنطقة كما ان العوامل الديناميكية التى كان لها دور بين 1954 و 1970 كانت بين وجهات نظر متنافسة حول مستقبل الشرق الاوسط. فمن جانب كانت هناك افكار ناصر العلمانية التحديثية: عالم عربى مكون من دول عربية مستقلة اى جمهوريات عربية وفى الجانب الاخر كانت هناك مصفوفة الدول الملكية شبه الاقطاعية ومواردها الطبيعية تقع تحت سيطرة الغرب، وحيث تتواجد العائلات الملكية واحتياطيتهم من الاخوان المسلمين واليمين الاسلامى.

بالمصادفة رفض عدد من خبراء الشئون العربية الامريكان رفضوا استراتيجية عزل ناصر. بل أن البعض منهم رأى فيه منقذاً للعالم العربى. يقول كين Kane انه "خلال الفترة من 1952 الي 1954 لقي ناصر فى بداية الأمر تأييداً قوياً من جانب الوكالة والسفارة".¹⁶⁸ وطبقاً لأقتباس من مايلز كوبلند فى مؤلفه " لعبة الامم " فإن "المخابرات المركزية الامريكية وصلت إلى حد تشجيع الضباط الأحرار فى ثورتهم بعد أن فشل كيرميت روزفلت فى محاولة دفع الملك فاروق إلى تحديث مصر. يقول كيرميت روزفلت وهو الرجل الاسطوري الذي سيتعاون مع وكالة المخابرات المركزية الامريكية سنة 1953 لاعادة شاه إيران إلى عرشه والذي زار مصر سرا سنة 1952:

" كانت مهمتي علي وجه الخصوص أن أحاول أولاً تنظيم " ثورة سلمية " في مصر حيث يتولي الملك فاروق بنفسه الاشراف علي النظام القديم واستبداله بالنظام الجديد ومن ثم إحباط الخطوات الثورية التي كان عملاء المخابرات المركزية الامريكية قد تمكنوا من كشفها قبل الثورة بسنتين"¹⁶⁹ غير أنه طبقاً لما ذكره كوبلاند " كان فاروق من ضيق الأفق"¹⁷⁰ والفساد بحيث لم يستجب لهذه النصيحة مفضلاً ان ينشغل عنها بارتداء نظارات شمسية يتفادى بها الضوء الاحمر متجنباً القيام بمسؤولياته تجاه مصر .

وهكذا وافق كيرميت روزفلت علي لقاء الضباط الذين توسمت المخابرات المركزية انهم القادة المحتملين للجماعة العسكرية التي عرف انها تتأمر للقيام بانقلاب، وقد قام بذلك في مارس 1952 اي قبل انقلاب ناصر بأربعة اشهر. وقد تمت ثلاث لقاءات حضر الثالث منها احد الضباط الاكثر ثقة لدي عبد الناصر"¹⁷¹. وعاد روزفلت الي واشنطن ليقنع حكومة الولايات المتحدة بأن تتقبل خلع فاروق.

ليس هناك ما يحول دون قبول رواية كوبلاند، فأوراق الارشيف غير المبوبة لا تقدم اي مساعدة في هذا الصدد. ولم يتقدم أحد اخر بعد ليصادق علي تأكيدات كوبلاند بهذا الصدد. الا أن الولايات المتحدة أقامت من تلقاء نفسها علاقات جيدة عموماً مع الحكومة المصرية الجديدة. ويقرر جويل جوردن Joel Gordon في كتابه الرائع. "حركة ناصر المباركة " إن الوثائق غير المبوبة تتضمن اتهامات جوهرية بوجود علاقات وثيقة بين السفارة الامريكية في القاهرة والنظام الجديد. " ومن ناحية أخرى كان البريطانيون رغم تسليمهم بقيادة الولايات المتحدة واتباعهم خطواتها إلا أنهم كانوا يئزون غضباً من واشنطن خشية أن يمثل اعتلاء ناصر السلطة تهديداً لقناة السويس وقواعدها وممراتها "172 الي الهند غير أن هناك توابع أخرى أكثر خطورة فقد كان ناصر يمثل تهديداً لأنظمة الحكم الملكي في السعودية والعراق والمشيخات التابعة لبريطانيا في الخليج ومن ثم فقد ناهض البريطانيون ثم الامريكان ناصر ليس لأنه كان شيوعياً وليس بسبب أنه كان متأثراً بالنفوذ الشيوعي، فالحقيقة أن ناصر كان يقمع اليسار المصري والاحزاب الشيوعية بشدة. وبالإضافة فإن

169- مايلز كوبلاند لعبة الأمم (نيويورك 1969) ص 62

170 المرجع السابق ص 63

171 - المرجع السابق ص 65

172 - جويل جوردون "حركة ناصر المباركة" (ط 1992 نيويورك) ص 158.

الشيوعيين المصريين كانوا يفتقدون التنظيم الجيد وكانوا منقسمين وكانوا يتمتعون بتأييد المثقفين أساساً ولم يكن لديهم ثمة فرصة للاستيلاء على السلطة إلا بوصفهم اقلية فى حكومة وطنية يقودها الوفد.

ولكن الذى لم يكن محتملاً بالنسبة لبريطانيا وواشنطن (وكذلك فرنسا حتى سنة 1956) هو رفض ناصر للسيطرة الأجنبية وهو ما كان من شأنه تأليب القوى الكبرى ضد بعضها البعض وبعث الولاء له بين العرب خارج مصر بمن فيهم هؤلاء الذين يحتلون قمة العرش البترولي.

كان ما يقلق لندن وواشنطن بشكل خاص هو احتمال ان ينجح ناصر فى توحيد مصر والسعودية منشئاً بذلك قوة عربية كبرى. ومن احد مخبرات القدر فى العالم العربى ان مصر وسوريا ولبنان وفلسطين وهى مراكز الثقافة التاريخية والحركات السياسية العربية لم تكن دولا بترولية. ومن ناحية أخرى وباستثناء العراق وإيران غير العربية كانت كل من الدول العربية فى السعودية والكويت والإمارات العربية والبحرين وقطر تتمتع بكثافة سكانية هشة وليس لديها فعالية ثقافية (باستثناء ثيولوجية (حكم ديني) اسلامية سلفية بالغة التشدد) ويحكمها زمر استلابية بيروقراطية لا شرعية لها وتعتمد فى وجودها على الحماية العسكرية الأجنبية. ويدرك معظم العرب ان كلا من الملكيات القائمة والحدود المصطنعة لهذه الدول قد وضع خطوطها الامبرياليون ليقيموا فى عشرينات القرن العشرين أسيجة حول أبار البترول. ومن الناحية الاستراتيجية فلسوف يكسب العرب الكثير إذا ما تم التزاوج بين الثقافة والقوة البشرية فى حوض الدول العربية (بما فى ذلك العراق) مع الثروة البترولية فى الممالك الصحراوية. فى القلب من هذه الفكرة تقع مصر بسكانها الذين يبلغون عشرات الملايين والعربية السعودية بثروتها البترولية التى تبلغ 200 مائتي بليون برميل. ان الأهمية البالغة التى ينطوي عليها تعبير الوحدة العربية الشاملة هي ان هذه الوحدة بين مصر والرياض ستخلق مركزاً عربياً جاذباً يتمتع بنفوذ دولي واسع.

بعد مبادرتها بمغازلة عبد الناصر عادت الولايات المتحدة بقيادة جون فوستردلاس سكرتير الدولة للشئون الخارجية وشقيقه ألان دلاس مدير المخابرات المركزية الامريكية لتقف الى جانب بريطانيا ضد القومية العربية.

واخذ أنتوني إيدن وزير الخارجية البريطانية الذى كان يناصر عبد الناصر العداء بقوة طوال الوقت - اخذ يدرس مسألة تدبير انقلاب فى القاهرة تحت إشراف بريطانيا فى بواكير سنة 1953. كانت القوة السياسية الوحيدة التى يمكن ان تتحدى

عبد الناصر - باستثناء الجيش - هي الإخوان المسلمون ومن يتبعها من آلاف الأعضاء فضلا عن المتعاطفين معها من ضباط الجيش بمن فيهم اللواء محمد نجيب الذى كان لوقت طويل عضوا فى الإخوان المسلمين واحد الاعضاء المحافظين فى حركة الضباط الاحرار التى يقودها عبد الناصر .

فى سنة 1952 بعد انقلاب الضباط الذى اسقط الملك فاروق، سمي نجيب رئيسا للجمهورية ورئيسا لوزراء مصر وعبد الناصر نائبا للرئيس، غير ان عبد الناصر كان من وراء الستار هو القوة الحقيقية.

وقد ادرك وليم ليكلاند William Lakeland المسئول السياسى بالسفارة البريطانية، ادرك تقريبا فى التو ان نجيب لم يكن سوى واجهة لعبد الناصر "حسبما كتب مايلز كوبلند " بينما كانت الجماهير فى مصر والعالم الخارجى تحبى نجيب، كانت السفارة عن طريق ليكلاند قد بدأت فى التعامل مع ناصر بوصفه الرجل الذى يصدر حقا القرار 173 . ولكن نجيب وان كان اقل قوة من ناصر فقد كانت له علاقات مع حسن الهضبي خليفة حسن البنا فى قيادة الإخوان المسلمين. واخيرا نشبت معركة اختبار قوة بين عبد الناصر ونجيب. ولسوف تتطور المعركة ويتمكن نجيب بمعاونة بريطانيا من الوصول الى الإخوان المسلمين كحايف رئيسى.

كانت صلة عبد الناصر الشخصية المبكرة بالاعوان المسلمين خادعة وفاترة 174. ولدى استيلاء تنظيم الضباط الاحرار على السلطة 1952 كانوا بالغى الحرص على الا يعادوا الاعوان المسلمين حيث كان عدد من أعضاء الحركة أعضاء فى الاعوان، كما ان معظمهم بمن فيهم ناصر كان لهم إتصالات مكثفة مع تنظيم الاعوان تعود الى اربعينات القرن العشرين. فى البداية واجهت المجموعة العسكرية تحالفات العديد من المتنافسين بما فى ذلك الوفد واليسار والملكيين والفاشست اى حزب مصر الفتاة والاعوان المسلمين. كان ناصر يشرف بنفسه على العلاقات الحساسة بين العسكر والاعوان المسلمين، وقرر بادئ ذي بدئ أن يتعاون اويحيد الجماعة وألا يجابهها. وحينما أصدر النظام الجديد قرارا بحظر النشاط الحزبي فى مصر سنة 1953 استثنى الاعوان المسلمين. ولكن الفرصة على اية حال كانت ضئيلة فى لقاء الاعوان وعبد الناصر وجها لوجه. فالاعوان المسلمون يريدون مجتمعا اسلاميا بينما كان ناصر يريد مجتمعا علمانيا. وربما الاكثر أهمية

173 - كوبلند. ص 74

174 - توجد معلومات اكثر تفصيلا عن هذه الفترة فى مؤلف جوزبون " حركة ناصر المباركة" ص ص 106-98 و 175-190

أن ناصر كان يريد الإصلاح بما في ذلك الإصلاح الزراعي وإحداث تغييرات في التعليم وهو الأمر الذي كانوا يعارضونه بشدة وشراسة. في حديث له مع جيفرسون كافري - وهو نفس كافري الذي أوصي بأن يدعي سعيد رمضان الإخواني إلي ملتقي برنستون والبيت الأبيض سنة 1953 - صرح الهضيبي زعيم الإخوان المسلمين أنه "سيكون سعيداً جداً إذا تم القضاء علي العديد من الضباط الأحرار" 175

في نفس الوقت تقريباً عقد تريفور ايفانس Trefore Evans وهو أحد الدبلوماسيين البريطانيين (المستشار الشرقي) للغات بالسفارة البريطانية في القاهرة عقد علي الأقل اجتماعاً مع حسن اسماعيل الهضيبي المرشد العام للأخوان المسلمين وهو الاجتماع الذي اعتبره ناصر بعد أن شن حملته علي التنظيم خيانة وطنية. والواقع أن كلا من الدبلوماسيين البريطانيين والأمريكيين أقاموا علاقات مستمرة مع الجماعة. حدثت المواجهة المؤجلة مع الإخوان المسلمين سنة 1954 وتوافقت مع تصاعد المواجهة البريطانية مع الزعيم المصري خلال المفاوضات المصرية البريطانية حول نقل ملكية قنال السويس وقواعدها الي مصر. وبينما كان الجناح اليساري والأحرار من السياسيين البريطانيين يميلون الي إبرام صفقة مع ناصر كان اليمين البريطاني بقيادة الأمبرياليين البريطانيين الذين لم يتغيروا مثل ونستون تشرشل كانوا خرساً تقريباً فيما يتعلق بالنهضة المصرية. منذ 1952 فصاعداً كان انتوني ايدن رئيس الوزراء البريطاني يطالب برأس ناصر. اننا ندين لـ "ستيفن دوريل Stephen Dorril بقصة الجهاد التي تبناها ايدن تجاه عبد الناصر والتي بلغت قممتها سنة 1956. "كانت المخابرات البريطانية تبحث خطة لاغتيال الرئيس عبد الناصر طبقاً لما ذكره دوريل الذي يضيف ان محمد حسنين هيكل المستشار الصحفي للرئيس عبد الناصر نشر في كتابه (قطع ذيل الاسد) صورة برقية صادرة من رجل المخابرات المركزية الامريكية جيمس ايشيلبرجر James Eichelberger في لندن الي الان دلاس مدير المخابرات المركزية الامريكية يورد فيها مناقشاته مع جورج يونج رجل المخابرات البريطانية يقول فيها انه كان يتكلم بلا مواربة عن اغتيال ناصر بدلا من استخدام تعبيرات أكثر تهذيباً مثل (تصفية) وذكر ان رجاله كانوا علي اتصال مع العناصر المناسبة في مصر وسائر الدول العربية". ومثله مثل كوبلند كان ايشيلبرجر واحدا ضمن هذا الجانب من المخابرات المركزية الامريكية المتعاطف مع ناصر الذي بدا وجوده يتضاءل، ومثله مثل كوبلند

قام ايشيلبرجر بابلاغ عبد الناصر بما ذكره يونج 1761. بعد مضي شهر هدر ايدن قائلاً: ما هذا الهراء حول عزل ناصر او تحييده حسبما يقولون ؟ اننى اريد تدميره الا تفقهون ؟ اننى اريده مقتولا... ولا أبالى ذرة إذا عمت الفوضى أو الكارثة فى مصر. 177

فى خلال الشهور الاولى من سنة 1954 بدا ان الكارثة على وشك البدء، حينما بدا الإخوان المسلمون وناصر الحرب. بدا ذلك فى يناير حينما هاجم بلطجية الإخوان المسلمين الطلبة الوطنيين المؤيدين لناصر فى جامعة القاهرة. كتب أنور السادات عضو الإخوان المسلمين السابق الذى القي بثقله الى جانب ناصر ضمن تنظيمه السابق كتب مقالا يهاجم فيه الجماعات التى تتاجر بالدين. بعد يومين اصدر عبد الناصر مرسوما بحظر الجماعة الإرهابية واتهم الإخوان بأنهم مقلب قط للبريطانيين. كان المرسوم الصادر بحظر تنظيم الإخوان يقول:

"ان الثورة لن تسمح أبدا للفساد الرجعى ان يعود باسم الدين. 178 وتظهر الوثائق غير المبوبة ان المخابرات البريطانية كانت ترسل التقارير المتعلقة بنشاط الإخوان المسلمين وتورد الملاحظات الخاصة بالإشاعات عن الصدامات بين الإخوان والبوليس فى الدلتا والاجتماعات السرية التى تعقد فى الإسماعيلية. 179

وطبقا لما ذكره روبرت باير Robert Baer وهو اخصائى سابق فى المخابرات المركزية الامريكية متخصص فى العمليات السرية وكان قد صادق كذلك على خطة استخدام الإخوان المسلمين ضد ناصر. فى مؤلفه " النوم مع الشيطان " يصف باير الخطوط العريضة للجهود السرية فى اعلى مستويات الولايات المتحدة:

"فى القاع من كل هذا يوجد هذا السر الصغير القذر فى واشنطن. فالولايات المتحدة تعتبر الإخوان حليفا فى حالة نوم وسلاحا سريا ضد (ماذا غير ؟) الشيوعية. ان هذا العمل السري بدا فى خمسينات القرن العشرين على يد الأخوين دلاس: ألان فى المخابرات المركزية الامريكية وجون فوستردلاس فى الخارجية الامريكية حينما وافقا على ان تقوم العربية السعودية بتمويل الاخوان ضد ناصر. كانت الولايات المتحدة تعتبر ناصر - الى المدى الذى تصل اليه مصالحها - شيوعيا. فقد امم الصناعات الكبيرة بما فى ذلك قناة السويس. وادى منطق الحرب الباردة الى نتيجة واضحة:

176- ستيفن دوريل ، ام 16 (نيويورك - ط 2000) ص 610

177 - المرجع السابق ص 613

178 - جورديون ص 105

179 - المرجع السابق ص 106

إذا وافق الرب على أن يحارب معنا فهذا جيد وإذا قرر الرب أن الاغتيال السياسي مسموح به فهذا حسن أيضا طالما أن ذلك لن يحدث عنه أحد في رفقة ملتزمة.

ومثله في ذلك مثل أي عمل سري فعال حقا فانك لن تجده في أي كتاب ولا يمكن العثور عليه في محررات المخابرات المركزية الأمريكية، ولا في أي فكرة أو ملاحظة مقدمة إلى الكونجرس ولا شيء عن تمويله من الخزنة العامة ولو بمليم واحد. باختصار لا يوجد سجل بشأنه. كل ما كان على البيت الأبيض أن يفعله هو إعطاء إشارة¹⁸⁰ - أو إيماءة للدول التي تفتح أبوابها للإخوان المسلمين مثل العربية السعودية والأردن. "بينما كانت كل من بريطانيا والولايات المتحدة تلعب بالنار وتجند القنلة من بين صفوف الإخوان المسلمين ضد ناصر، كان هناك أيضا ما يثبت أن الإخوان المسلمين يتعاونون مع جماعة إسلامية تستخدم العنف والاغتيال في إيران، ويطلق عليهم "فدائيو إسلام" وأحد مؤسسيها واحد من إيات الله الإيرانيين عمل مع المخابرات المركزية الأمريكية لإسقاط مصدق. وقد لاحظ برنارد لويس Bernard Lewis وهو ضابط سابق في المخابرات المركزية الأمريكية واحد المستشرقين القيايين، لاحظ أن قرار الإخوان بالعمل كمعارضة مباشرة ضد عبد الناصر كان مرتبطا جزئيا باتصال الجماعة بفدائيي إسلام. كما يرى لويس أنها كانت مرتبطة كذلك بزيارة إلى القاهرة قام بها أحد قادة "فدائيي إسلام" الذي أطلق زناد التمرد الذي قام به الإخوان المسلمون ضد عبد الناصر:

"نفس المزيج بين المثالية والعنف بين التقوى والأرهاب، يمكن ملاحظته في التنظيم الإيراني المعروف باسم "فدائيي إسلام" وهو يستعير تعبيراً ذا مغزى سبق أن استخدمته بعثات القرون الوسطى التبشيرية المعروفة باسم Old Men of the Mountain. وبالرغم من كونهم شيعة إلا أنهم يتبنون أفكارا إسلاميا شموليا مماثلا لفكر الإخوان المسلمين في مصر ويرتبطون معا بعلاقات معينة. ففي مارس سنة 1951 أطلق أحد أعضائهم النار على رئيس الوزراء الإيراني الجنرال رازمارا وأرداه قتيلا وكانت زيارة نواب صفوي زعيم فدائيي إسلام إلى مصر سنة 1954 هي التي أطلقت أول صدام حاد وعلني بين الإخوان ونظام (ناصر) العسكري.¹⁸¹

180- Robert Baer, Sleeping With the Devil (New York, 2003) , p.99

181- Bernard Lewis. The middle east and the west (New York. 1964) .pp

يكشف الاتصال بين الاخوان وفدائيي اسلام في بنابر سنة 1954 الى اى حد كان الإسلاميون الأصوليون منذ خمسينات القرن العشرين دوليون حقاً. لقد تغلغلوا عبر الحدود الوطنية للعالم العربي وربطوا بين العرب المتطرفين ونظرائهم في باكستان وربطوا المجاهدين السنة بالمجاهدين الشيعة في ايران وغيرها، وحتى بعد مرور نصف قرن ليس واضحاً هل المخابرات المركزية الامريكية كانت تدرك الآفاق العالمية لهذه القوى التي تتعامل معها ومدى قوتها. هل كانت تدرك ان اليمين الاسلامي في مصر والعربية السعودية وايران وغيرها يعمل مستظلاً " بأخوة عالمية " مبهمه- ام هل كانت تعتقد انها يمكن ان تلتقط او تختار متى واين تقدم الدعم الى اليمين الاسلامي علي اساس كل حالة بذاتها ؟

الحقيقة انه بحلول خمسينات القرن العشرين انشأ الاسلاميون هيكلاً عابراً للأمم يبدو وجوده قادراً علي خداع المخابرات المركزية الامريكية لعقود. غير ان الدبلوماسية الامريكية وعادة المخابرات المركزية الامريكية كانت تفضل ان ترى النشاط الاسلاميين فقط في ضوء علاقاتها بالبلد الذي يقيمون فيه.

خلال سنة 1954 ازدادت توترات العلاقات بين ناصر والاخوان المسلمين. وبالرغم من انهم الآن يعتبرون تنظيمًا محظوراً فإن الإخوان المسلمين مازالوا يحتفظون بحضور قوي في انحاء البلاد. لقد تحرك ناصر أولاً ضد نجيب وخلال معركة طويلة في فبراير ومارس تمكن ناصر من تحجيم نجيب وإزاحته جانباً وإستطاع ان يحيد الإخوان المسلمين خلال هذه العملية. وفي ابريل قدم للمحاكمة أول قيادي للإخوان المسلمين من بين العديدين منهم. وبدأ واضحاً ان المواجهة مع تنظيم الإخوان لايمكن تجنبها. بدأ البوليس المصري يراقب أعمال التنظيم وينظم الحملات حتي ضد مساجدهم ويفرض القيود علي خطب الائمة الراديكاليين والسلفيين. وفي سبتمبر نزلت الحكومة المصرية الجنسية عن 5 خمسة من قيادات الإخوان المسلمين بينما كانوا في مهمات في سوريا. وكان منهم سعيد رمضان مفكرهم الرئيسي. وكان الخمسة ينظمون مؤتمراً في دمشق حشدوا فيه عدداً من الإخوان المسلمين من العراق والاردن والسودان لإدانة ناصر بينما أختفت قيادات الإخوان بمن فيهم الهضيبي.

وأخيراً في 26 أكتوبر أطلق أحد أعضاء جماعة الإخوان المسلمين ثمانى طلقات علي ناصر: كانت الحقائق التي تحيط بمحاولة الاغتيال ضبابية الي حد ما. ولكن طبقاً لمعظم الروايات كانت الطلقات موجهة إلي الهدف مباشرة بواسطة احد أعضاء جماعة الإخوان الذي القي القبض عليه فوراً. هل كانت هناك مؤامرة أوسع

نطاقاً ؟ هل دفع البريطانيون الإخوان إلى قتل عبد الناصر أم لعلمهم أوحوا إليهم بقتله ؟ من المؤكد ان الفكرة طبقاً للسجلات لم تكن بعيدة عن إيدن في منتصف خمسينات القرن العشرين. في خلال الإحداث التي كانت بمثابة النذر للمحاولات التي جرت لقتل فيدل كاسترو بواسطة المخابرات المركزية التابعة لكنيدي، دبّر البريطانيون خططاً لا تحصى بهدف قتل الزعيم المصري، وكان بعضها صريحاً لا موارد فيه. لقد سربوا أموالاً إلى مصر لرشوة طبيب عبد الناصر من أجل تسميمه. ودبروا مؤامرة لدس السم المميت في بعض أنواع الشيكولاتة المحببة للمصريين المهداة إليهم. وركبوا نوعاً من الشيكولاتة علي غرار ما يحدث في أفلام جيمس بوند "علبة سجاير معدلة تقذفه بقذائف مسمومة" وحاولوا "دس أقراص مسمومة في قهوة عبد الناصر" ¹⁸².

(يقول كوبلند الذي عرف الخطة الأخيرة، أنه كان يتبادل النكات بشأنها مع عبد الناصر ويمزح قائلاً "ادر رأسك يا جمال ودعني أري ما إذا كان بإمكانني أن أدس السم في قهوتك" ¹⁸³).

غير أن كل هذه المحاولات البريطانية الخادعة لم تكن فكاكية وتعطي مصداقية للنظرية التي تقول بأن البريطانيين قد يكونون إستخدموا قتلة الإخوان المسلمين المحترفين أيضاً.

كان رد الفعل ضد الإخوان المسلمين سريعاً ومميتاً. قبض علي أكثر من ألف منهم. وحكم علي عدد كبير منهم بالسجن لمدد طويلة ونفذ حكم الإعدام في ستة منهم وصودرت أموال التنظيم واستولت الهيئات الحكومية علي المقرات ومراكز الخدمة الاجتماعية. أما نجيب فقد تضاعلت مصداقيته في الجيش وتبعثر حلفاؤه من الإخوان وتم عزله نهائياً من السلطة في نوفمبر، الأمر الذي حدا بسولزبرجر C.I. Sulzberger إلى تشبيهه نجيب بـ (كيرنسكي - رئيس وزراء روسيا القيصرية الذي عزلته الثورة البلشفية) وأطلق عليه كيرنسكي ذو الطربوش ¹⁸⁴.

ومن أجل تضيق الخناق علي العناصر القيادية اللامعة من الإخوان المسلمين لجأ ناصر إلي اللعب بورقة سرية مستخدماً أسلوب المناورة وتعني الإمساك بالخصم بطريقة معينة بحيث تصبح قوته نفسها عبئاً عليه، واستخدم عصبة من

182 - Richard Mitchell, The Society Of the Muslim Brothers (London , 1969) pp. 141-142

183 - دوريل ص ص 633 - 634

184 - مقتبس من جوردون ، ص 186 حسبما جاء في نيويورك تايمس - عدد 17 نوفمبر 1954

قدامى النازيين الذين كانوا قد لجئوا إلى مصر بعد الحرب العالمية الثانية وافلتوا من محاكمات نومبرج. - وكان عدد كبير من اليمينيين الإسلاميين ونشطاء الإخوان المسلمين بمن فيهم الحاج أمين الحسيني مفتي فلسطين الذي كان قد استقر في القاهرة وكان لديه روابط وثيقة مع النازي والمخابرات الألمانية - حينما لجأ هؤلاء الألمان إلى مصر في أربعينات القرن العشرين كانوا موضع ترحيب خاص. وقامت المخابرات المركزية الامريكية والمخابرات البريطانية وقتئذ بتجنيد عدد منهم في الحرب الباردة ضد السوفيت. وبالتعاون مع رينهارد جهلن Reinhard Gehle

Reinhard GEhlen رئيس المخابرات الألمانية السابق قامت المخابرات المركزية الامريكية والجيش الأمريكي بإنشاء منظمة جهلن التي تضم جواسيس النازي السابقين الذين سبق ان استخدمهم جيمس كرتشفيلد من المخابرات المركزية الامريكية كقلب لجهاز مخابرات ألمانيا الغربية. مما لاشك فيه أن بعضهم دخل مصر بمعرفة المخابرات المركزية الامريكية والبريطانية - والبعض الآخر ببساطة هاجروا إلى مصر علي أمل أن يجدوا فيها ملاذاً لهم ويكونوا محل ترحيب فيها. كان فرانز بينش Franz Buensch هو احد هؤلاء النازيين الذين وصلت بهم نهايه المطاف الى مصر. وقد تمكن ناصر من استخدامه ليتصيد من خلاله متآمري الإخوان المسلمين. وطبقا لما ذكره مايلز كوبلند اقترح بينش خطة غير مالوفة باستخدام افراد النازي السابقين لتنظيم جهاز سرى عالمي للإخوان المسلمين بالتعاون مع الاخوان المسلمين انفسهم. وقد جذبت هذه اللعبة اهتمام ناصر في ذلك الحين كما يقول كوبلند واستخدمها رئيس جهازه الامنى لتضييق الخناق على اعضاء الاخوان المسلمين ومحاصرتهم. وطور بينش خطته التي سرعان ما لقيت الاهتمام من جانب المصريين، وهى خطة تقضى بجمع عملاء النازي السابقين من الاماكن التي يختفون فيها في كافة انحاء العالم (الارجنتين-البرازيل-ايرلندا-اسبانيا...الخ) واعطائهم اسماء اسلاميه والحاقهم بالرصيد السرى للجماعة التي قامت مصر باعدادها خلال الحرب العالميه الثانية. وتم بناء جهاز مخابرات يضم افضل العناصر الموهوبة في ألمانيا ومصر ووضعها تحت تصرف جمال عبد الناصر من اجل حربه العالميه ضد الشيوعية والامبريالية.

قدمت هذه الخطة الى سعد عفره المدير العام للمخابرات المصرية المسؤله أنئذ عن ادارة ومتابعة الالمان. (يعبر اسلوب سعد عن عبقرية تميز واحدا من ابرع العقول المصرية.) ابدى سعد اهتماما كبيرا بالخطة ولكنه اصر على ضرورة سماع المزيد عن هذه الارصده "الخفية"، وبدا بينش الذى كان لا يزال حتى ذلك الحين

يبدى تعجبه من اللامبالاة التي يبدوها المصريون تجاه هذا الموضوع، بدا يشعر انه اصبح اخيرا محل اهتمام وتقدير وانه ربما يكون على شفا شئ ذى اهمية كبيرة. وبتشجيع من سعد اظهر كل ما يتذكر من معلومات حول هذا الموضوع ثم اخذ يحفز الآخرين من اعضاء الجماعة الالمانية على تذكر كل ما لديهم. وكانت النتيجة كافية لشنق نصف الاخوان المسلمين بالاضافة الى جعل ضباط الامن المصريين مشغولين لمدة سنتين حتى يدركوا مدى نفوذ الجماعة ليس فقط فى مصر ولكن فى انحاء العالم العربى ايضا¹⁸⁵.

فى سنة 1954 وقعت مصر مع المملكة المتحدة اتفاقية حول قناة السويس والقواعد العسكرية البريطانية، ولكنها لم تعمر طويلا. ففى سنة 1956 دبرت بريطانيا العظمى وفرنسا واسرائيل مؤامرة تهدف الى اسقاط ناصر وبسط سيطرتهم على قناة السويس، ووضعوا الإخوان المسلمين ضمن هذه المؤامرة. وحينما تكاثفت الغيوم فى سماء العلاقات البريطانية المصرية سنة 1956 كان تنظيم الاخوان قد تفكك الى حد كبير. وادع اعضاءه السجون و المعتقلات او أجبروا على الاختفاء و لكن ذلك لم يمنع بريطانيا من اللجوء الى حلفائها القدامى.

ان قصة السويس قد حكيت مرات عديدة ! كيف التمس ناصر المساعدات من امريكا لبناء السد العالى و كيف رفض طلبه بشكل مهين _ كيف تقدم الاتحاد السوفيتى للمساعدة و بيع الاسلحة التشيكية. كيف وقف البريطانيون حجر عثرة فى المفاوضات من اجل تسليم القناة. و كيف قامت بريطانيا و فرنسا بالتآمر مع اسرائيل لشن الحرب. كانت كراهية ايدن لعبد الناصر قد وصلت به الى حافة الهاوية. غير ان ما لم يعرفه أحد إلا القليل هو انه عندما بدأت حقيقة المؤامرة تتكشف عقدت بريطانيا مؤتمرا مع الاخوان المسلمين فى جينيف. وطبقا لما ذكره دوريل قام اثنان من العملاء البريطانيين هما كولونيل نيل ماكلين Neil McLean و جوليان امرى Jullien Amery بمساعدة المخابرات البريطانية على تنظيم معارضة ضد ناصر فى جنوب فرنسا وسويسرا. لقد ذهبوا ايضا الى حد اقامة علاقات فى جينيف حيث كان نورمان داربششاير Norman Darbyshire يترأس مكتب المخابرات وكان معه عدد من اعضاء جماعة الاخوان المسلمين ولا يعرف احد شئ عن هذه التحركات الا المخابرات البريطانية ، وظلوا محافظين على هذه السرية ايضا فيما يتعلق بسائر جماعة السويس (التي كانت تخطط للقيام بعملية عسكرية). وقدم امرى الى سلوين لويد وزير الخارجية البريطانية حينذاك العديد من

الاسماء¹⁸⁶ ولا يعرف الشئ الكثير عن حقيقة اتصالات المخابرات البريطانية بالاخوان المسلمين في اوربا خلال هذه الفترة. ولكنها تتفاوت ما بين تنظيم الجهود من اجل الاغتيالات السرية الى تجميع حكومة سرية في المنفى للحلول محل ناصر بعد حرب السويس.

وتبدو المؤامرة الانجلوفرنسية التي كشف عنها سنة 1956 بمثابة خطة إمبريالية تمت صياغتها في القرن التاسع عشر. فقد قامت لندن وباريس باعداد الترتيبات اللازمة لاسرائيل لشن حرب غير معلنة ضد مصر. وطبقا للمؤامرة سوف تنتظر كل من بريطانيا وفرنسا لفترة ما قد تستمر بضعة ايام ثم تتدخلان عسكريا لفرض معاهدة على كل من مصر واسرائيل بحيث تكونان قد استولتا خلال هذه العملية على قناة السويس. وكانتا تاملان ان يسقط ناصر - او ربما يتم الاطاحة به. اما الاخوان المسلمون - فبالرغم مما آلوا إليه من ضعف فقد كان عليهم ان يكمنوا بحيث يكونون على اهبة الاستعداد.

وأخيرا - وخوفا من ان ينتهز الاتحاد السوفيتي الفرصة ليجنى ثمارا غير متوقعة - قام الرئيس ايزنهاور باستثمار العدوان الانجلو فرنسي الاسرائيلي بالتعاون مع بعض الدول الاخرى ليجنى ثمار المؤامرة. وبدا لفترة ان الولايات المتحدة لديها الفرصة لتبنى من جديد علاقة ايجابية مع ناصر. غير ان هذه الفرصة سرعان ما ضاعت وعاد الأخوان دلاس الى نفس الاسلوب السابق في مواجهة ناصر والقومية العربية.

ولكن كان هناك جانب من الادارة وضباط المخابرات المركزية الامريكية الذين استاءوا من رد فعل الادارة المعادى لوضع ناصر. واحدهم كوبلند الذي كان احد المعجبين الصريحين بناصر. كتب كوبلند بمزيج من الثناء والسخرية: "انه (ناصر) احد القادة الوطنيين ولكن بطريقته الخاصة - وهو من اشجعهم وانظفهم وابعدهم عن الفساد واكثرهم بعدا عن النظريات وهو بطريقته الخاصة اكثرهم انسانية"¹⁸⁷ غير انه بعد بانقضاء عقد الخمسينات اصبح كوبلند من الاقليه، ونجح ابطال الحرب الباردة في تحويل ناصر الى شيطان يتجسد في صورة انسان. كان مستشارو الادارة المختصون بالشئون العربية "لطيفين" بالنسبة لناصر كما يقول كوبلند غير ان هذا الاتجاه كان اكثر من مرفوض من قبل المعارضة في اوساط رجال الاعمال خاصة شركات البترول الامريكية والبنوك الكبيرة. وحينما تحول

186 - دوريل ص 629

187 - كوبلند ص 282

التيار ضد وجهة نظر كوبلند فيما يتعلق بعبد الناصر، تم استبعاده. وعلى حد الوصف الساخر لاحد زملائه في المخابرات وكان في زيارة لمصر حين قال له: " اعتقد اننا وضعناكم يا محبي ناصر على قائمة الانتظار (اي تحت الطلب) ". ويلاحظ كوبلند بأسى أن المسئول عن المخابرات المركزية الامريكية في القاهرة ابرق لواشنطن مطالباً اياها بان تحت اسرائيل على ان تتأكد بان " امكانيات الاخوان المسلمين جديرة بالثناء ويمكن الاعتماد عليها للاطاحة بناصر. "188

يقول جون فول John Voll وهو خبير ضليع في الشؤون الاسلاميه من المحقق ان مساندة المخابرات المركزية الامريكية للاخوان المسلمين خلال الحرب الباردة كان امراً سليماً. " كانت ادارة مخابراتية جيدة " على نحو ما يقول فول " لقد كانوا البديل الوحيد لناصر، فالحزب الشيوعي في مصر كان يفتقد المبادأة. ومن وجهة النظر المخابراتية والتخطيط السياسي كنا سنغدو اغبياء اذا لم تكن لدينا اى علاقات معهم. "189

اما اذا استعدنا الماضي فانه من الصعب ان نفكر في شئ اخر اكثر غباوة. فالولايات المتحدة لم تكن بحاجة الى بديل لعبد الناصر. كان من الافضل لو احتوته وساعدته في كسر شوكة اليمين الاسلامي. ولكن بدلا من ذلك جعلت سياستها اكثر خشونة تجاه ناصر وشاركت العائلة المالكة السعودية وحلفاءها الاسلاميين الاصوليين في تكثيف الجهود من اجل استخدام الاسلام الشمولى كحجر الزاوية للنفوذ الامريكي في الشرق الاوسط. واكثر من ذلك ان الصرامة الايديولوجية للنخب التى تضع السياسة الخارجية الامريكية لم تكن مقصورة على مصر. فبينما كانت الولايات المتحدة تحاول الغض من شأن ناصر توجهت نحو وطنى اخر فى منطقة اخرى هو رئيس الوزراء الايرانى محمد مصدق. وهو ما سوف يؤدى الى اخطر العمليات السريه التى قامت بها المخابرات المركزية الامريكية فى سنة 1953 اى تدبير انقلاب 1953 فى ايران. وكما هو الحال فى مصر يلعب الجناح اليميني الاسلامى الدور البارز.

188 - المرجع السابق ص 184.

189 - جون فول فى حديث مع المؤلف

المخابرات المركزية الامريكية والاب الروحي للخميني

من سخریات القدر فيما يتعلق بكل من ناصر ومصدق ان كلا الرجلين لم يحوزا إلا على تأييد متواضع من جانب الولايات المتحدة اثناء تسنمهما السلطة. واستمر موقفها كذلك حتى حسمت مقتضيات الحرب الباردة الموقف ليصبح ضدهما بشكل حاسم. في البداية ايدت الولايات المتحدة القوى الوطنية بقيادة مصدق، جزئيا بسبب اعتقادها المبكر بان وطني العالم الثالث اللبراليين قد يكونون قادرين على تمدين دولهم في نفس الوقت الذي يمكن فيه استبقاءهم في معسكر الغرب. غير ان ادارة ايزنهاور لم تستسغ ذلك. كان منطقها اما ان تكون معنا اي ان يقبل قادة العالم الثالث اقامة القواعد العسكرية والانضمام الى الاحلاف الغربية والقبول بتنازلات اقتصادية لدى تطبيق انظمة السوق الحرة - واما ان تكون ضدنا (اذا لم تقبل ذلك). وفي ظل عالم اقل استقطابا قد يكون مصدق مثله مثل ناصر قادرا على ان يصل الى تفاهم طويل الامد مع واشنطن.

وكما حدث في مصر حيث تم تعبئة الاخوان المسلمين ضد ناصر استخدمت قوى الاسلام السياسى الاصولى بدهاء ضد مصدق. نفس القيادة الاسلامية اليمينية التى يقودها رجال الدين التى اسقطت الشاه سنة 1979 - هى التى كانت قد مولتها المخابرات المركزية الامريكية لمساندته سنة 1953.

كان مصدق وهو محامى ايرانى تلقى تعليمه فى باريس وسويسرا شخصا معقدا يمثل تركيبة السياسة الايرانية التى استمرت عقودا قبل سنة 1953. عمل فى البرلمان الايرانى فى ظل اسرة الشاه السابق سنة 1915 ووزيرا للخارجية سنة 1924. ولكن ارتباطاته السابقة مع الملوك الايرانيين السابقين جعلته على خلاف مع رضا بهلوى وابنه محمد رضا بهلوى. وفى سنة 1944 انتخب فى البرلمان ثانية بوصفه داعية قويا لتاميم صناعة البترول فى ايران التى كانت وقتئذ تحت قبضة ما يعرف اليوم باسم شركة البترول البريطانية، واصبح مصدق رئيسا للجنة البرلمانية لشئون البترول وأنشأ حركة ائتلاف سياسى تحت مسمى الجبهة الوطنية، وبعد اغتيال الجنرال على رازمارا سنة 1951 رأى الشاه انه مضطر الى اختيار مصدق خلفا لرازمارا كرئيس للوزراء. ولكن مصدق مضى قدما نحو تاميم شركة البترول البريطانية الفارسية وكان ذلك يمثل لطمة كارثية بالنسبة لانجلترا - كانت هذه الشركة التى اصبحت بعد ذلك الشركة الانجليزية للبترول ثم شركة البترول البريطانية كانت عروس الاستثمارات البريطانية الامبريالية وبدأت اعمالها خلال الحرب العالمية الاولى بوصفها المشروع الرئيسى لونسون تشرشل الذى كان يرى

ان بترول الخليج الفارسي هو مصدر الطاقة للاسطول البريطاني على اتساع العالم. وسرعان ما اصبح مصدق رجلا كريها في لندن واصطدم بعنف مع الشاه الذي كانت دوافعه الوطنية تابعة لرغبته في الاحتفاظ بالعرش والمحافظة على علاقات جيدة مع لندن وواشنطن. في البدايه شارك كثير من ايات الله في الجبهة الوطنية ولكنهم تخلوا عنها وشاركوا المخابرات المركزية الامريكية حملتها ضد مصدق مما ادى الى حدوث انقلاب عسكري في اغسطس سنة 1953، واعيد الشاه الذي كان قد فر هاربا من البلاد، اعيد الى عرش الطاووس وألغى تامين صناعة البترول. في مجرى هذه العملية تمكنت الولايات المتحدة من فرض شراكتها واعطيت حصة في الكونسورسيوم الجديد - 40% قسمت بين الخمس الكبار من شركاتها بينما انكشيت حصة الشركة البريطانية. ان قصة هذا الانقلاب الذي تم بالمشاركة بين المخابرات المركزية الامريكية والمخابرات البريطانية ام آى 6 قد حكيت عدة مرات ولكنها لم تسجل ابدا. ايا ما كان الامر هل حقيقة ان جهازى المخابرات كانا يعملان معا بالتعاون مع رجال الدين الايرانيين من اجل اضعاف وفي النهاية اسقاط مصدق؟ فى حقيقة الامر ان دورا هاما فى هذه العملية قام به غوغاء الشارع الذين اشترتهم ودفعتم لهم المخابرات المركزية الامريكية وقد تم جمعهم بواسطة مثيرى الشغب المرتبطين بعلماء الدين الذين نادوا باسقاط مصدق وعودة الشاه. وكان الشخص المركزى فى هذه الحملة الهادفة الى اسقاط مصدق هو آيه الله ابو القاسم كاشانى الممثل الرئيسى للاخوان المسلمين فى ايران ومعلم آيه الله روح الله الخمينى وسلفه بوصفه الشخصية الاسلامية القيادية فى ايران - وطبقا للمسؤولين الرئيسيين الايرانيين، كان الخمينى فى ذلك الحين هو احد الملالي المغموين وكان فى منتصف العمر وواحدا من اتباع كاشانى وقام بدور فى المظاهرات التى نظمها المخابرات المركزية الامريكية المؤيدة للشاه ضد مصدق¹⁹⁰. ولعل من اكبر سخریات القدر ان نفس هذا الخمينى هو الذى قاد مرة اخرى الرعاع المتدينين ليطالبوا هذه المرة بخلع الشاه و إقامة جمهورية ايران الإسلامية.

كان آيه الله ابو القاسم كاشانى (1882-1962) هو الاب الروحى للخمينى - كان محنكا سياسيا بدأ حياته السياسية فى عشرينات القرن العشرين بالعمل فى البرلمان الايرانى. ومعروف عن رجال الدين فى ايران انهم لا يوقفهم شئ اذا تعلق الامر بحماية مكانتهم. ومعنى ذلك ان هيئة العلماء فرضت سنة 1920 الفيتو الخاص بها لتوقف انشاء جمهورية اسلامية. لقد اعجب رضا بهلوى الرجل العسكرى القوى الذى فرض سيرته على ايران فى اوائل العشرينات اعجب بكمال اتاتورك القائد العلمانى التركى واراد ان يعلن ايران جمهورية على النمط التركى،

190 - مقابلة مع مسؤولين ايرانيين سابقين

ولكن الملالي بمن فيهم كاشاني خشوا ان انشاء جمهورية علمانية سوف ينال من قوتهم بشكل مميت ومن ثم فقد طالبوا بالنظام الملكي. كتبت الاميرة اشرف بهلوي شقيقة الشاه التوام في مذكراتها عن مقاومة الملالي للنظام الجمهوري: " كان ابي يفضل جمهورية مثل تلك الموجودة في تركيا واقترح هذه الفكرة على قادة الملالي الشيعة. ولكن رجال الدين الذين كانوا يساندون النظام الاقطاعي والملكية وكل انواع الثقافة التي تحافظ على الوضع الحالي، رفضوا هذه الفكرة التي عرضها عليهم في الاجتماع الذي تم في مدينة قم، وقالوا لوالدي انهم سوف يعارضون اي خطة لاقامة الجمهورية¹⁹¹.

ولما كان الشاه على غير استعداد في ذلك الوقت لتحدي المؤسسة الدينية القوية فقد تخلى عن هذه الفكرة واعلن نفسه ملكا. كان الكاشاني الصغير واحدا من صانعي الملوك.

على مدى السنوات العشرين التالية سيكون لدى كاشاني عدوان: الشيعيون والشاه. ومثلهم مثل الاسلاميين في كل مكان كان العلماء الدينيون الايرانيون يخافون الشيعيين وحزبهم توده ويخشونهم. واستخدموا عضلاتهم الدينية ضد اليسار. غير ان الخطر الحقيقي لسلطة الملالي في ايران كان باتي من جانب الشاه الذي كان يحتقرهم جدا بوصفهم جامدين يحملون عقول القرون الوسطى ويعارضون جهوده من اجل تجديد البلاد. منذ ثلاثينات القرن العشرين وسائرا على نهج اتا تورك جاهد الشاه بقوة ضد هيئة علماء الدين ووضع المحاكم المختلفة التي تطبق الشريعة تحت سلطة الدولة وامم بعض اوقاف العلماء مقللا بذلك من قوتهم الماليه ومنع الجلاية الاسلامية ووضع قيودا على اجراءات الزواج والطلاق ودخل في معارك مع الاسلاميين من اجل تحرير المرأة وامر بان تكون الاماكن العامة مفتوحة امام النساء وحرم لبس النقاب والشادور المسئ للمرأة. وفي سنة 1939 حظر الشاه الممارسات الشيعية البشعة التي يمارسها الناس بضرب انفسهم.¹⁹² ولقيت هذه الاجراءات من قبولا حسنا من جانب المجددين الايرانيين غير ان علماء الدين تفجروا غضبا وشعر كاشاني انه مستبعد بصفة مستديمة من قبل الشاه فيداً بهدوء يبني قوته السياسية.

وكما اقدم الاخوان المسلمون في مصر في اربعينات القرن العشرين على القيام بعمليات ارهابية كذلك حدث في ايران حيث اقدم كاشاني وانصاره على اعمال

191- الاميرة اشرف بهلوي : وجوه في المرآه - مذكرات من المنفى - ص ص 8 : 9

192- للاطلاع علي المزيد من التفاصيل بشأن الاجراءات التي اتخذها الشاه ينظر مؤلف ديليب هيرد "الحروب المقدسة" نيويورك 1989 ص 153.

ارهابية ضد الشاه. ففي سنة 1945 ساعد كاشاني في انشاء الفرع الايراني غير الشرعي للاخوان المسلمين " فدائي اسلام " بقيادة احد الملالي الاصوليين وهو نواب صفوى. وحدثت موجة من الهجمات الارهابية قامت بها الحركة التي انشاها كاشاني منها محاولة اغتيال الشاه التي قام بها احد الاسلاميين الذين يعملون سرا وينتمى الى مجموعة تسمى " علم الاسلام ". وفي سنة 1950 قام احد المنتمين الى فدائي اسلام باغتيال عبد الحسين هاجر وزير العدل. وفي سنة 1951 قام اخر باغتيال رئيس الوزراء الجنرال على رازمارا في نفس الوقت الذي كانت فيه ايران تستأنف مفاوضاتها مع لندن فيما يتعلق بحقوقها في ثروتها البترولية. يقول الشاه في مذكراته " ان رازمارا كان يضع الاتفاق الذي توصل اليه في مفاوضاته مع شركة البترول الانجلو ايرانية في جيبه حين تم اغتياله " ¹⁹³.

وقد ساور الشك معظم المثقفين الايرانيين بمن فيهم الشاه ان يكون البريطانيون على علاقة برجال الدين والحركة الاسلامية هذا اذا لم يكونوا على اتصال مباشر بعمليات الارهاب ذاتها.

كان البريطانيون يريدون المحافظة على امبراطويتهم وخير طريقة لذلك هي التفريق والحكم (فرق تسد). يقول فريدون هوفيدا الذي كان سفيرا لايران في الامم المتحدة حتى ثورة 1979 وهو شقيق امير عباس هوفيدا رئيس وزراء ايران في سبعينات القرن العشرين واعدمه نظام خوميني - يقول " كان البريطانيون يلعبون على الجميع - كانوا يتعاملون مع الاخوان المسلمين في مصر و الملالي في ايران ولكنهم في نفس الوقت كانوا يتعاملون مع الجيش ومع العائلات المالكة " ويقول ان البريطانيين راوا في الاسلامية اداة اخرى يستطيعون من خلالها ان يسيطروا سيطرتهم. " كان لديهم صفقات مع الملالي يبحثون عن اكثرهم اهمية ويساعدونهم - وكان الملالي اذكياء، كانوا يعلمون ان البريطانيين هم اهم قوة في العالم، وكان الامر ايضا امر اموال. فالبريطانيون سوف يجلبون حقائب مملوءة بالنقود ويعطونها لهؤلاء الناس. وعلى سبيل المثال فان التجار والاغنياء الموجودين في البازار سيكون لدى كل منهم ايه الله الذي يموله، وكان هذا هو نفس ما يفعله البريطانيون ¹⁹⁴. " تكتب الأميرة اشرف في مذكراتها حول العلاقات غير المقدسة بين البريطانيين ورجال الدين في ايران:

193- فريدون هوفيدا- مقابلة مع المؤلف، مايو 2004.

194- فريدون هوفيدا- مقابلة مع المؤلف، مايو 2004.

"معظم رجال الدين شكلوا احلafa مع ممثلى القوى الاجنبية الذين غالباً ما كانوا بريطانيين. وثمة مزحة فى ايران تقول " اذا ازلت شعر ذقن رجل الدين لرايت كلمات" صنع فى انجلترا" مطبوعة على الناحية الاخرى. لقد مارس هؤلاء الملالي تاثيراً هائلاً على عقول الجماهير. فى بعض الاحيان كان يبدو كما لو ان صوت الاله يتحدث بنبرة انجليزية او روسية. كان من الصعب على الفلاح ان يتبين اين تنتهى العقيدة واين تبدأ السياسة" ¹⁹⁵. تضيف اشرف انه بعد الحرب العالمية الثانية صنعت لندن الاسلام اليميني باعتباره جزءاً من استراتيجيتها فى الحرب الباردة فى المنطقة، " فبتشجيع من البريطانيين الذين كانوا يرون الملالي قوة فعالة مضادة للشيوعية، كانت عناصر اليمين الدينى المتطرف تطفو من جديد على السطح بعد سنوات الكبت ¹⁹⁶. وبذكر الشاه نفسه فى مذكراته التى كتبها قبيل وفاته مباشرة فى المنفى، ان الرجل الذى قتل وزير العدل سنة 1950 فخر ارأى كان له روابط مع كل من " فدائى اسلام " والبريطانيين: " كان ارأى متورطاً مع جماعة دينية شديدة التطرف تتشكل من اكثر المتدينين تخلفاً وتعصباً " واضاف انه قد يكون لديه علاقات غير مباشرة مع السفارة البريطانية فى طهران: " كان للبريطانيين ايضا اصابعهم فى الكعكات الغريبة. كان للبريطانيين صلات مع معظم رجال الدين الرجعيين" ¹⁹⁷.

فى خمسينات القرن العشرين كان نصيب بريطانيا مهدداً. فقد كانت بريطانيا منذ الحرب العالمية الاولى تتمتع بحقوق مطلقة فى البترول الايرانى ومن ثم فقد كان مما يدعو الى الدهشة، ان تنظر الولايات المتحدة الى مصدق بادئ الامر نظرة ايجابية. ولكن مصدق كان يحاول ان يعيد التفاوض حول الاتفاقية الايرانية البريطانية وتغيير شروطها لصالح ايران. فبدأ البريطانيون يقنعون اسلحتهم ويهددون. وكانت واشنطن مختلفة مع لندن حول بترول الشرق الاوسط والمساعدات المقدمة ومبيعات الاسلحة الى حكومة مصدق. وفى سنة 1951 قام مصدق بزيارة الى واشنطن. "ارسل الرئيس ترومان مذكرة الى بريطانيا مناشدا اياها عدم مهاجمة ايران. ¹⁹⁸ على نحو ماكتب مؤرخ مشهور. ولكن حينما رفض مصدق عرضاً امريكياً بالسماح لشركات البترول الامريكية بدخول ايران غيرت الولايات المتحدة

195 - (الاميرة) اشرف بهلوى، ص 6

196 - المرجع السابق ص 47

197 - محمد رضا بهلوى ص 59

198 - Shah: Building a Client State in Iran ,(Ithaca, N.Y,1991), p.58 SMark J. Gasiorowsky, US Foreign Policy and the

مسارها وإدارتها ظهرها لمصدق. وعلى حين غرة أخذت المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية اللتين كانتا على خلاف منذ وقت قريب، أخذنا في التعاون معا لوضع خطة لاسقاط مصدق.

ويأتى كاشانى. فى سنة 1952 كان كاشانى فى وضع الحليف لمصدق فى الجبهة الوطنية، التحالف الوطنى الذى حكم ايران فى ظل الشاه. ولكن حينما بدأت الولايات المتحدة تتحرك ضد مصدق لفظه الكاشانى وتحرك فى الاتجاه المضاد.. كان كاشانى يحتفظ بعلاقات سرية مع الارهابيين الاسلاميين الذين يعملون سرا، ولكنه علنا، امام الجمهور كان يباعد نفسه عن "فدائى اسلام" وامثالهم. وكانت الولايات المتحدة تدرك جيدا مدى قوة كاشانى. تلاحظ المخابرات المركزية الأمريكية فى تقريرها المحرر فى اكتوبر سنة 1952 المعنون "توقعات استمرار نظام مصدق" فى ايران:

"منذ ان تسلم مصدق السلطة فى 6 يوليو سنة 1952 كانت هناك تقارير متتالية عن المؤامرات التى تحاك للاطاحة به. فكاشانى وضباط اليمين كانوا يذكرون باستمرار باعتبارهم القيادة... وكانت ثمة صدامات متوقع حدوثها فى الشوارع بين القوى التى تساند مصدق وتلك التى تساند كاشانى. ان هذه الصراعات ستكون مريرة ومدمرة"¹⁹⁹، ويختتم التقرير بالاشارة الى انه من بين القوى التى يمكن حشدها لصالح كاشانى كان رعا ع البازار والفرق التى نظمها ابنه "ومنظمة فدائى اسلام" التابعة للمسلمين المتطرفين. ومع ان هذا التقرير كتب به المحالون التابعون للمخابرات المركزية، الا ان وحدات العمليات السرية التابعة للمخابرات الأمريكية كانت تعمل فعلا مع كاشانى من اجل حشد قواته ولتثير بالتحديد هذه الصدامات فى الشوارع". جاء فى مذكرات الادارة الأمريكية سنة 1952 ان احد رجال كاشانى نقل عنه توقع استخدام القوة قائلا "انها قد تكون ضرورية لمعاقبة الشيوعيين بدنيا"²⁰⁰. خلال الفترة 1952-1953 تقربت المخابرات الأمريكية والانجليزية الى كاشانى وعدد اخر من كبار القادة من رجال الدين الايرانيين عارضة عليهم الاموال واغراءات اخرى للتخلي عن مصدق ومساندة الشاه:

199 - المخابرات المركزية الأمريكية "احتمالات استمرار نظام مصدق فى ايران" 14 اكتوبر سنة 1952 ص 2.

200 - U.S. State Department, "c.c. Finch conversation with Dr.Sepahbodi." December 10, 1952.

" شجعت المساعدات المالية المقدمة الى القادة الدينيين من اجل خط اكثر تشددا على التخلي عن مصدق. " طبقا لدوريل²⁰¹، تصدر البريطانيون القيادة مستخدمين شبكة مخابراتهم الواسعة في ايران بما في ذلك موارد شركة البترول الانجلو ايرانية التي احتفظت بجهازها السرى الخاص ومكتب استعلاماتها المركزية. كان البريطانيون بطبيعة الحال متحمسين فيما يتعلق بالعمليات السرية ضد مصدق قبل ان تظهر الولايات المتحدة على المسرح بزمان طويل. ولكن الامريكيين كما اشار التقرير كان لديهم قناة الاتصال الرئيسية التي تصلهم بكاشانى. وقد لعبت آن لامبتون Ann Lambton، وهى استاذ فى مدرسة اكسفورد للدراسات الشرقية والافريقية وضابط سابق فى المخابرات لعبت من وراء الستار دورا فى عملية الغض من دور مصدق، وأشارت فى تقريرها الذى كتبه حينذاك ان كاشانى حصل على قدر كبير من المال من جهة ما "كما ذكرت ان هذه الاموال ربما كانت قادمة من المخابرات المركزية الامريكية. " ²⁰²

فى الفترة من 1946 - 1963 كان جون ولر John Waller وهو عميل سرى محترف التحق بمكتب الخدمات الاستراتيجية خلال الحرب العالمية الثانية ثم خدم بعد ذلك فى المخابرات المركزية الامريكية حتى السبعينات من القرن العشرين وامضى معظم سنوات الحرب الثانية فى القاهرة وطهران واعطى وهو شاب مسؤولية قيادية. يقول ولر " هاهنا كنت رئيسا لمكتب مناهضة الجاسوسية فى منطقة الشرق الاوسط وانا فى التاسعة عشر " سنة 1946 وكان بالكاد فى العشرينات من عمره افتتح اولى محطات المخابرات المركزية الامريكية فى ايران ما بعد الحرب حيث جند الجواسيس الالمان السابقين ليساعدوا الولايات المتحدة فى الحرب الباردة وليعملوا مع شيوخ القبائل مثل قبيلة كاشكاى ويختيارى والأكراد.

يقول ولر وهو فى الثمانينات من عمره الآن " لقد كنا نحن الذين نعمل مباشرة فى هذا المجال نحب مصدق " للحقيقة فاننى زوجت ابنة اخيه من ضابط فى المخابرات المركزية الامريكية. " ولكن سرعان ما بدأ الامريكان يأخذون جانب البريطانيين الذين يمقتون مصدق، وكان لدينا التزاماتنا ازاء حليفنا القديم بريطانيا. وكان البترول هو بيت القصيد. " وطبقا لولر كان الملاى والبازار هم من اكبر

201 - دوريل ص 566

202 - يمدنا مؤلف دوريل بتفاصيل كثيرة عن العملية الانجلو الامريكية سنة 1953 بما فى ذلك مساندتهم للاسلاميين . ونجد تفاصيل اكثر فى مؤلف جسيروفسكى "Gasiorowski" المشار اليه سابقا.

الدعامات المسئولة عن كبح مصدق وكان البازار والملاي هم الأكثر قربا منا، وكان الملاي يسيطرون على الجماهير سيما الطبقات الدنيا"²⁰³

من بين كل الزعماء الدينيين كان كاشانى كما يقول وولر، هو الأكثر أهمية ضمن آيات الله الذين اقام وولر معهم بصفته، رئيس المخابرات المركزية الامريكية فى هذا الموقع، علاقات وثيقة خلال السنوات السبع التى قضاها فى ايران، " قمت بعمل صورة بورتريه بالباستيل للملا كاشانى. جلس امامى لوهلة وانا انهيها من الصور الفوتوغرافية". يذكر وولر ذلك مبتسما ويؤكد ان الكاشانى لم يصبح ابدا عميلا كاملا للمخابرات المركزية" ويضيف " انك لا تستطيع ان تجعل من اية الله عميلا لك" ولكنه يضيف ان للولايات المتحدة وبريطانيا عملاء عديدين وهامين فى التحالف المناهض لمصدق. " ومنهم من كان صريحا جدا فى كل من البازار والملاي". يقول وولر:

" من الواضح ان هيئة رجال الدين كانت مهمة.... ذكر لى كاشانى لماذا تخلى عن التحالف مع مصدق، ذلك ان حزب تودة كان مصرحا به من جانب مصدق. لقد كانوا على اتفاق مع الروس. والمتدينون لا يحبون الشيوعية. كان الكاشانى هو الرجل الاعلى بارادة ربه، وهذا ما اعطاه قوة سياسية على نحو ما هو حادث بالنسبة لليمين المسيحى هنا. كان بمثابة اية الله خمينى تلك الايام. كان لديه سلطة على المساجد وكان لديه سلطة على جماهير الفقراء الذين يشكلون غالبية الشعب فى الاجزاء الجنوبية من المدينة، وبالاضافة كان الملاي اقرب الى البازار (التجار) منذ زمن لا يمكن تحديده.

هل قامت المخابرات المركزية الامريكية بتمويل كاشانى بشكل مباشر؟ الاجابة حسبما يقول وولر هى نعم. كان المال لكاشانى وللذى يختاره، اموال لتمويل قنوات الاتصال بالجماهير فى جنوب طهران من منشورات وخلافه. " ويضيف وولر بنبرة ساخرة: حتى آيات الله هم، لا تؤاخذنى، فاسدون. ويضيف، مختارا كلماته بعناية " انا اعتقد انه كان حقبة متدبنا، ولكن -اغفر لى صراحتى- ان يكون الانسان متدينا لا يعنى الابتعاد عن حقائق السياسة او التجارة او الجنس."

بمساعدة كاشانى وجدت المخابرات الامريكية والبريطانية انه اصبح من الاسهل لها ان تسيطر على اضرابات ومظاهرات الشارع ضد مصدق وضد الشيوعية. كانت سيطرة كاشانى على الجماهير فى ازقة طهران وفى المساجد

203- جون وولر فى حديث مع المؤلف . فبراير 2004

كبيرة. وكان الانقلاب العسكرى الذى اطاح بمصدق مضاعفا بفضل المظاهرات التى مولتها المخابرات الامريكية باستخدام الجماهير الموالية لكاشانى التى نظمها رجال الدين وعصابات البلطجة الماجورة.

عاد وولر الى واشنطن ليتابع الانقلاب من المركز الرئيسى لادارة هناك. وفى طهران كان كيرميت روزفلت، رجل المخابرات الاسطورى يدير العملية على ارض الواقع. كان هناك شقيقان ايرانيان (اخوان بوسكو) تحت ادارة المخابرات المركزية الامريكية. وهناك ثلاثة اخوة ايرانيين آخرين (الرشيديين) تحت ادارة المخابرات البريطانية يتعاونون مع شعبان جعفرى وهو رياضى ايرانى مشهور وادارى للعمل مع كاشانى فى تجميع الغوغاء. أحد عملائنا كان يطلق عليه "الرجل المجرد من العقل"، حسبما يذكر وولر: كان بطلا رياضيا ومشعوذا، كان يعمل معنا ويستطيع ان يجمع الغوغاء بسرعة وقد دفعنا له مقابل ذلك.

كتب دوريل ان المخابرات الامريكية والبريطانية اقامتا من خلال (اخوة رشيديين) علاقات مع رجال الدين المحافظين مثل اية الله بورجودى وبهبهانى اللذان كانا يخشيان ان تؤدى الخطوات التقدمية التى يقدم عليها مصدق فى اتجاه اليسار الى تعرض الامن القومى للخطر" واعلن الملاي القادمين من الجبهة الوطنية مثل كاشانى ومكى ان الوزارات مليئة بالملحدين التابعين للكرملين²⁰⁴. وحسبما يذكر وولر فى ذلك الوقت ان الاسلام لم يكن قد قام بشكل منتظم بعد، غير ان الشيوعية والاسلام لا يمكن ابدا ان يتوافقا.²⁰⁵

اوائل الخمسينات كان جزء هام من عمل المخابرات المركزية الامريكية فى ايران يتضمن العمل من اجل استثمار الشعور الدينى فى ايران ضد الاتحاد السوفىيتى. وجاء ذلك خلال الوقت الذى كانت الولايات المتحدة تجرب فيه مع الاسلاميين فى مصر حملة مضادة للشيوعية فى مصر وباكستان واماكن اخرى. فى ايران كان تركيز المخابرات المركزية على حزب تودة الشيوعى بالرغم من انه لم يكن يمثل ابدا اي خطر حقيقى جاد. ولم يكن مصدق شيوعيا وتولى السلطة جزئيا بمساعدة الولايات المتحدة، ولكنه بمجرد ان وضع على قائمة اعداء واشنطن بذلت الولايات المتحدة ما وسعها من جهد من اجل تشويهه عن طريق تصويره بانه خاضع للشيوعية. كانت الدعاية ضده منظمة من قبل ضابطين يعملان فى

204- دوريل ص 585

205 - حديث وولر مع المؤلف

المخابرات المركزية سوف نعرض لهما فيما بعد هما دونالد ويلبر Donald Wilber وريتشارد كوتام Richard Cottam.

احيانا كانت الدعاية شديدة الوطأة :

كانت الخطوة التالية هي استعادة ارصدة الحرب النفسية "من اجل بذل الجهود الحديثة لتشويه اليسار كلية. ارسل آية الله بهبهاني الذي تلقى الاموال من الامريكان، ارسل خطابات تحمل شعار حزب تودة وتحتوى على تهديدات رهيبية مكتوبة بالحبر الاحمر بشنق كل الملاي على اعمدة الانارة في المدن الايرانية المختلفة.²⁰⁶ وطبقا لما ذكره دوريل استخدمت المخابرات المركزية الامريكية صحفيين مثل كنيث لاف Kenneth Love ودون شويند Don Schwind من الاسوشيتد برس كوكلاء لتوزيع هذه المواد الدعائية²⁰⁷. ولم تكتف المخابرات لمركزية باستخدام امثال بهبهاني من آيات الله لنشر التهديدات المزيفة المزعم صدورها من حزب تودة بشنق الملاي ولكنها بالاضافة دفعت عملاءها من المحرضين لاستتفار المجتمع الايراني المؤمن. وقامت المخابرات المركزية الامريكية والبريطانية بدفع الاموال للغوغاء ومثيري الشغب ليسيروا في مظاهرات عنيفة بزعم انهم اعضاء في حزب تودة يجوبون الشوارع ويهاجمون مؤسسات الشيعة الايرانيين.

تدقق الرعاع في الشوارع....كان الجانب الرئيسى من المؤامرة هو تصوير هؤلاء الرعاع باعتبارهم مؤيدين لحزب تودة من اجل توفير الحجة المناسبة للانقلاب واستعادة الشاه للسلطة. استأجر عملاء المخابرات البريطانية جمهورا مزيفا يمثل جمهور حزب توده ويتكون من خليط غير عادى من الايرانيين الشموليين واطباء حزب تودة مقابل 50 الف دولار وزعها عليهم ضابط فى المخابرات المركزية. ويلاحظ ريتشارد كوتام ان العملاء الذين يعملون لحساب بريطانيا انتهزوا الفرصة وارسلوا الناس الذين كانوا تحت سيطرتنا الى الشوارع ليتصرفوا كما لو كانوا من حزب تودة. كانوا اكثر من مجرد محرضين كانوا بمثابة قوات صدام يتصرفون بزعم انهم اعضاء فى حزب تودة فيلقون الاحجار فى المساجد وعلى الملاي. " كان الغرض على نحو ما ذكر كاتب اخر هو ارباب معظم الايرانيين وجعلهم يعتقدون ان انتصار مصدق يعنى انتصارا لحزب تودة

206 - دوريل ص 592

207 - المرجع السابق

والاتحاد السوفييتي ومعاداة الدين²⁰⁸ بعد أن استعاد الشاه العرش بدأت الجهود من أجل إعادة الجنى إلى القمم من جديد. ولكن قوة الاسلام السياسى الذى تعرض للقمع فى ايران منذ العشرينات أعيد إحيائها من جديد بقضيل المخابرات الامريكية والبريطانية ولم يكن من السهل اعادتها الى حالة السكون من جديد. ويتعبير اكثر دقة فان القوى التى اسقطت الشاه سنة 1979 كانت هى نفسها التى كان قد تم اطلاقها من قبل من أجل اعادته الى السلطة سنة 1953.

فى الخمسينات كان الشاه وجهازه السرى السافاك يحاول بكل قوة ان يبقى الاسلاميين محجمين وان يبتاع الفاسدين منهم وان يحافظ على حيادية المللى المعتدلين بمن فيهم الخمينى:

"خلال حكم الشاه كانت الحكومة تدفع للمللى ايضا" حسبما يقول فريدون هوفيدا سفير ايران السابق فى الامم المتحدة، وكان اخوه رئيسا لوزراء الشاه لسنوات عديدة"، "بعض هذه الاموال جاء من اخى والبعض الآخر جاء من السافاك" و"كان للسافاك رجالها الخاصين بها فى الهيئة الدينية"²⁰⁹. ومع ذلك فقد فضل الشاه ان يتخلص من كابوس الاسلام السياسى باعتباره ارثا من الماضى. ومن هنا حينما بدأت الحركة ضد الشاه واسط السبعينات لم يستطع الشاه ومعظم مساعديه المتملقين ان يدرك حقيقتها او اهميتها". بعد سنة 1953 بدأ كاشانى يختفى عن الانظار، ولكن تابعيه قدموا مجموعة من المتطرفين اشد قسوة- كانت قد بدأت للتو صعودها الى السلطة- ليمثلوا الاسلام السياسى.

كان عقدي الاربعينات والخمسينات هى سنوات التكوين للخمينى. كانت آراؤه السياسية متدفقة بالرغم من ان كتاباته خلال الحرب الثانية كانت تعكس كراهيته "للكثاتورية السوداء" لرضا شاه بهلوى الذى نحي عن العرش سنة 1941²¹⁰ كان الخمينى ميالا بالغريزة لرفض المؤسسة الدينية الشيعية الموالية للنظام فى طهران فانجذب ناحية كاشانى ونواب صقوى وفدائى اسلام. وبدأ يعدل آراءه الراديكالية. كان وضع الخمينى السياسى خلال هذه الفترة فى مكان ما بين المؤسسة الدينية وفدائى اسلام حسب تقدير باقر موان Baker Moin مؤرخ الخمينى. كان يؤيد آية الله بوروجردى المحافظ المعتدل ولكنه (الخمينى) "كان يعارض العلمانية معارضة

208 - المرجع السابق ص ص 592-593

209 - مقابلة المؤلف مع هوفيدا

210- المعلومات المتعلقة بالحياة السياسية المبكرة للخمينى مأخوذة من المؤلف المشهور لباقر موان عن

آية الله الخمينى "حياة آية الله" (نيويورك-ط 1999)

جزرية ويؤيد بقوة أحكام الشريعة وله ميول عملية. بكلمات أخرى فإنه استوعب أفكار فدائى اسلام، ربما اثناء مناقشاته مع نواب صفوى الذى كان، حسبما ذكرت ارملة زائرا دائما لبيت الخمينى.²¹¹

بدأ كاشانى يتصرف بوصفه معلم الخمينى فى هذه المسألة.

وكمؤشر آخر يدل على الافكار السياسية للخمينى فى ذلك الوقت، اعجابه الشديد بآية الله ابو القاسم الكاشانى (1852-1992) الذى كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بفدائى اسلام.... كان الخمينى دائم التردد على بيت كاشانى وكان معجبا بشجاعته وقدرته على الاحتمال ويشاركه فى الكثير من آرائه مثل معاداة الاستعمار، عالمية الإسلام وأهمية الفاعلية السياسية والشعبية.²¹²

خلال انقلاب 1953 كان الخمينى متورطا مع منظمة فدائى اسلام الارهابية، وحتى بعدما قرر كاشانى ان يحتفظ بمسافة ما بعيدا عنها الا انها ظلا قريبين من بعضهما البعض. وأخذ الخمينى بنصيحة كاشانى بالانفصال عن مصدق ونأيد عودة الشاه. ولكنه استمر محتفظا بعلاقاته بفدائى اسلام وتدخل ليحول دون اعدام نواب صفوى فى منتصف الخمسينات ولكن دون جدوى. غير انه بمكره استفاد كثيرا من خبراته سنة 1953. ادرك الخمينى ان كاشانى وفدائى اسلام كانا سياسيين اكثر مما ينبغى وفقدوا كل صلاتهم الهامة مع مؤسسة العلماء فى مدينة قم المقدسة. ومن جانب آخر كان بورجردى رغم اعجاب الخمينى به لتقافته الدينية كان بعيدا أكثر مما ينبغى عن السياسة.... وبعد عودته الى قم امضى الخمينى سنوات عمره العشر التالية محاولا ان يوحد بين السياسة وعناصر الدين فى الحركة الشعبية الاسلامية. وسوف يظهر ظهورا مدويا فيما بعد على المسرح السياسى خلال الفترة 1963 - 1964 راكبا موجة التحدى للشاه. فى هذه الاثناء تنسّى الولايات المتحدة كل شئ عن الاسلام فى ايران. الشاه اعيد الى العرش فى امان، الولايات المتحدة غنمت قزمة معتبرة من الصناعة البترولية فى ايران لصالح الشركات الامريكية. وانشغلت الولايات المتحدة فى مساعدة الشاه على بناء جيشه وقواته البوليسية وجهاز مخابراته المخيف - السافاك - وبالرغم من مساعدة بعض الملالي له فى اسقاط مصدق الا ان الشاه الامبراطورى لم يكن فى مزاج يسمح له بان يقبل مشاطرة اى احد سواه من الليبراليين او رجال الاعمال او رجال الدين فى السلطة، ومن ثم فقد اخذ الاسلاميون يرغون ويزبدون دون ان يلاحظهم احد.

211- باقر موان ص 60

212 - المرجع السابق ص ص 63- 64

الآن تتجه قصة الاسلام السياسى وتحالفه مع الولايات المتحدة وانتشاره بسرعة الى ناحية العالم العربى. ان عبد الناصر المنتصر بعد حرب السويس سنة 1956 والذى لم يقبل الخضوع كان يقدم مثالا يزداد تحديا لايدولوجى ادارة ايزنهاور انصار الحرب الباردة،

نم سحق الاخوان المسلمين فى مصر واضطروا الى الهرب ولجأوا الى دول اخرى. ومن اجل إيقاف ناصر ومساندة الاتجاهات المعادية للشيوعية والمعادية للقومية العربية فى انحاء العالم العربى ولت الولايات المتحدة وجهها شطر العربية السعودية.

*

الفصل الخامس

ملك كل المسلمين

" إن عبقريتكم أيها الأمريكان هي أنكم لا تقومون بتحركات غبية واضحة ولكن تحركات غبية معقدة تجعلنا نتساءل متعجبين ما إذا كان محتملا أن هناك شيئا مالا ندركه. "

جمال عبد الناصر" سنة 1957

(عن مايلز كويلند من مؤلفه " لعبة الأمم " نيويورك سنة 1969 ص 216).

كان دوايت ايزنهاور قائدا عسكريا ماهرا ورئيسا متواضعا ولكنه كان يفتقر إلى دراسة الإسلام.

بعد انجلاء غبار معركة السويس سنة 1956، وبعد أن تدخل ايزنهاور لإجبار إسرائيل على الانسحاب من سيناء، ومن أجل تفكيك المؤامرة الانجلوفرنسية ضد جمال عبد الناصر في مصر، أصبح لدى الولايات المتحدة الفرصة لتصحيح علاقتها بجمال عبد الناصر والقومية العربية - ولكنه بدلا من ذلك اتجه إلى بناء تحالف مع السعودية جاعلا القاعدة الرجعية للأصولية الإسلامية حليفا رئيسا للولايات المتحدة في العالم العربي. وحتى وفاة عبد الناصر المفاجئة التي أتت في غير وقتها سنة 1970، ستغدو المملكة العربية السعودية قلعة للنفوذ الأمريكي.

ومثله مثل سلفه فرنكلين روزفلت الذي سبق أن أعلن أن بترول السعودية هو الحصة الإستراتيجية للولايات المتحدة، أعلن ايزنهاور أن علاقات الصداقة مع العربية السعودية هي امر منطقي بالنظر لأهمية الثروة البترولية لهذه الدولة. ولكنه وسع هذه العلاقة لتشمل تحالفا شاملا مع ذلك النوع من الإسلام الظلامي الذي تتبناه السعودية، راسما بذلك معالم الطريق الذي قدر له أن يستمر خلال عهود إدارات كنيدي وجونسون ونيكسون. وأصبحت نظرية ايزنهاور أساس سياسة الإدارة الأمريكية في الشرق الأوسط. ومرددا صدى صوت روزفلت أعلن ايزنهاور أن هدف أمريكا الامبريالي هو إدماج الشرق الأوسط في مجال نفوذها الدائم.

"إن الفراغ القائم في الشرق الأوسط يجب أن تملأه الولايات المتحدة قبل أن تقدم روسيا على ذلك"²¹³. هكذا أعلن إيزنهاور في الرسالة التي وجهها إلى الكونجرس في يناير سنة 1957. و وعد الرئيس بأن تقوم الولايات المتحدة بتقديم المساعدة العسكرية والمالية لأي دولة من دول الشرق الأوسط "تطلب هذه المساعدة ضد أي عدوان صريح من أي دولة تخضع للشيوعية الدولية".²¹⁴ ومن أجل دعم هذه النظرية دعا إيزنهاور الملك سعود لأن يقوم بزيارة رسمية إلى واشنطن. ومؤكدا على أهمية السعودية بادر هو شخصيا باستقبال الملك لدى وصوله إلى المطار معبرا عن شكره الدائم على تبني الملك لنظرية إيزنهاور.

كان الأمر بالنسبة لإيزنهاور ذا مغزى حيث كان يرى في السعودية جائزة ثمينة، ذلك أن ربع الاحتياطي العالمي من البترول يكمن تحت رمالها، بل لعله رأى في السعودية ما هو أكثر من ثروة بترولية جديدة بالحماية، فدورها كمركز عالمي للإسلام أوحى إلى واشنطن أن الإسلام والإسلامية يمكن أن تستثمر كسلاح ضد الاتحاد السوفيتي وضد القوميين اليساريين من أمثال عبد الناصر.

كان كل من إيزنهاور وألان دلاس رئيس المخابرات المركزية الأمريكية وشقيقة جون فوستر دلاس سكرتير الدولة للشئون الخارجية يحاولون بناء تحالف إسلامي شمولي بالتعاون مع الحركة السعودية الوهابية، وسرا قام ألن دلاس المسئول عن المخابرات المركزية الأمريكية بتشجيع السعودية سرا على إعادة بناء الإخوان المسلمين في مواجهة ناصر. كان إيزنهاور يخشى أن يحاول الاتحاد السوفيتي استخدام الرئيس ناصر لإقامة "اتحاد إسلامي هائل يترأسه ناصر".

يذكر إيزنهاور فيما يتذكره أنه "لاختبار أي تحرك في هذا الاتجاه كنا نريد أن نستكشف إمكانية وضع الملك سعود كمثل معادل لناصر. كان اختيار إيزنهاور للملك للقيام بذلك اختيارا منطقيا إذ كان على الأقل معاديا أصيلا للشيوعية، ولكونه بفضل القاعدة الدينية التي يستند إليها فإنه يتمتع بمركز مرموق لدى كل الدول العربية"²¹⁵.

213- مقتبس من فرد هوليداي- "العربية بدون سلاطين"-ص 216

214- David Holden and Richard Johnes, "The House Saud, New York 1981, p.193

215- دوايت إيزنهاور "سنوات البيت الأبيض" -الجزء الثاني "فرض السلام" ط 1965 ص ص 115-

كانت فكرة غير صائبة.

أولاً- لأن مخاوف إيزنهاور بأن الاتحاد السوفيتي على وشك الحصول على مكاسب ضخمة في الشرق الأوسط كانت مبالغاً فيها إلى حد كبير، كما وان الإحساس بأن الاتحاد السوفيتي قد يحاول استيعاب الإسلام كان خارجاً تماماً عن السياق. صحيح أن موسكو كانت تحاول أن تتجاوز الدول المعادية للشيوعية في منطقة الحزام الأمني الغربي مثل تركيا وإيران وباكستان ولكنها كانت تحاول ذلك من خلال تأثيرها في العالم العربي خاصة بناء روابط مع ناصر، وبعد سنة 1958 كانت تأمل أن تقوم الحكومة الثورية في العراق بتشكيل تحالف عربي شامل مع مصر. غير أنه لا الحكومة المصرية ولا الحكومة العراقية كانت موالية للشيوعية. ولم يظهر قط أي تحالف مصري عراقي²¹⁶. وبالإضافة فعلى الرغم من أن الاتحاد السوفيتي كان ينظر بإيجابيه إلى اتحاد عربي شامل إلا أنه كان يؤكد على الهوية الوطنية، كان واضحاً أنه يخشى صعود الإسلام السياسي داخل حدوده في آسيا الوسطى، ولم يكن لديه أي نية لفرض الإسلام الشمولي في الشرق الأوسط. غير أن أياً من هذه العوامل لم تكن لتنتهي إيزنهاور عن المضي قدماً في تحالفه المشئوم مع الرياض. وبالإضافة فإن الانطباع بإمكان قيام تحالف أمريكي سعودي يعتمد على الإسلام، يتجاهل حقيقة إن الملك سعود لم يكن يتمتع بهذا القدر من الاعتبار لدى المسلمين. يقول جيمس أكينز James Akins وهو دبلوماسي أمريكي عريق سبق أن عمل سفيراً للولايات المتحدة في السعودية في ستينيات القرن (العشرين)²¹⁷: "كان سعود ضعيفاً وغيبياً وبالإضافة فإنه كان فاسداً ومحاطاً بحاشية من شرقي البحر الأبيض المتوسط كان في حقيقة الأمر شخصاً جاهلاً لا أمل فيه ولم يكن لديه سوى إدراك ضبابي ضئيل بما يجري في العالم الحديث، وعلى مدى واسع كان ينظر إليه باعتباره فاسقاً مدمناً للجنس، سكيراً وباحثاً عن اللذات، في كل مكان كان يقوم على خدمته خمارون وقوادون في عشر قصور مسرفة الترف ولديه أكثر من مائة²¹⁸ من الأولاد من سلسلة لا نهاية لها من الزوجات والمحظيات ولكنه أيضاً، كان يعتبر بشكل عام أباً لبلاده. باختصار كان سعود أقل من أن يكون عماداً لإمبراطورية شرق أوسطية خاصة إذا كانت هناك

216 - ملكولم ه. كير " الحرب الباردة، جمال عبد الناصرومنافسوه 1958-1970 (لندن مطبعة جامعة أكسفورد 1971

217 - جيمس أكينز مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

218 - هولدن وجونز ص 177

رغبة في نيل رضا المحافظين في العالم العربي. ومع ذلك فبوصفة ملكا للسعودية التي تشمل أراضيها مكة والمدينة، أقدس المدن الإسلامية، كان سعود يمثل فعلا على النطاق العالمي راعي المدينتين المقدستين في الإسلام. ومع نزوح الحرب الباردة أصبح دور العربية السعودية كمركز الإسلام على نطاق العالم يزداد تأثيرا أكثر فأكثر على تفكير استراتيجي الولايات المتحدة. وحاول سعود بدهاء، كما قد يدعى البعض أن يصور نفسه ملكا لكل المسلمين، وكان هذا كافيا بالنسبة لابزنهور إذ كتب يقول: "العربية السعودية هي البلد الذي يضم الأماكن المقدسة لمسلمي العالم". وخرج من ذلك بمنطق يقول بان: "الملك يمكن أن يصاغ كقائد ديني".²¹⁹ طبقا لما يقوله ناثان سيتينو Nathan Citino كان المجهود اللازم لإعداد الملك سعود بحيث يكون زعيما للإسلام جزءا من استراتيجيه مشتركة مع بريطانيا يطلق عليها "أوميغا" Omega. كان ابزنهور يصر على أن "مجهوداتنا يجب أن توجه نحو فصل السعودية عن المصريين"²²⁰. ومما شجع ابزنهور وإخوان دلاس بشكل اكبر هو أن الملك سعود طلب من رجال الدين الوهابيين فتوى دينية تحظر على المسلمين قبول المساعدات من الكتلة السوفيتية.

كانت الجهود من اجل تجميع خيوط استراتيجية إسلامية تجري مبكرا منذ سنة 1957. فبعد قمة سعود- ابزنهور مضت الإدارة في استثمار الإسلام كقلعة ضد الشيوعية وكجزء من هذه السياسة أخذت تبحث عن الفرص المتاحة للتغلب على الفوارق الاجتماعية التي ابتلى بها الشرق الأوسط.

وفي هذا الصدد كتب سيتينو الذي قام بدراسة للعلاقات السعودية العربية خلال حكم ابزنهور: "في أواخر يناير أقام أعضاء مجلس الأمن القومي لجنة عمل خاصة بالمنظمات الإسلامية التي تجمعها قائمة المنظمات الإسلامية في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا العاملة في المجالات الاجتماعية والثقافية والدينية كإخوان الصفا الذين يمكن إن تستهدفهم بدعايتها وكالة الاستعلامات الأمريكية".²²¹

ولم يكن رجال المخابرات الأمريكية المتخصصون في ذلك الوقت سوى دونالد ولبر الذي يشغل منصب خبير الشؤون الإسلامية Donald Wilbar وهو الرجل الذي

219- Nathan Citino ,From Arab Nationalism to OPEC;Eisenhour,King Saud and the making of US Relations,2002 , p.95

220- المرجع السابق

*- الحرف الاخير من الابدجية اليونانية وقصد بها النهاية

221 - المرجع السابق ص 126

نظم انقلاب سنة 1953 في إيران. كان ولبر يعلم الكثير عن الإسلام حسبما يقول جون وولر الذي كان ضابطاً في المخابرات المركزية الأمريكية وتتبعاً بالانقلاب عندما كان يعمل في مقر رئاسة المخابرات المركزية الأمريكية²²² في واشنطن، لكنه في مذكراته "مغامرات في الشرق الأوسط" يصف ولبر عمله بشأن الإسلام في ذلك الوقت بشئ من التواضع قائلاً:

"كان شغلي الشاغل طوال الوقت هو الإسلام ومسلمي الشرق الأوسط. ونظراً للافتقار إلى وجود شخص أكثر كفاءة فقد أصبحت خبير الوكالة المتخصص في الإسلام. وفي ربيع 957 كنت العضو المشارك الذي يمثل وكالة المخابرات المركزية في ورشة العمل المشكلة لدراسة الإسلام وشاركت في وضع مؤلف بهذا الخصوص. وفي مجال الدراسة وفي رئاسة المركز راجعت عدداً من الملفات وجمعت ما تم نشره بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بهذه الرحلة ووضعت عدة مؤلفات مثل: "الإسلام في إيران" و "الإسلام في باكستان" و "الإسلام في أفغانستان".... الخ. وكانت هذه المؤلفات الأكثر استخداماً من أي مواد منشورة أخرى. كان المقصود منها أن تستخدم كخطوط يسترشد بها في العمل مع الجماعات الإسلامية".²²³ وأوضح ولبر كذلك في أبحاثه الميدانية إلى أي مدى يمكن للسكان المسلمين في آسيا الوسطى داخل الاتحاد السوفيتي أن يجندوا للعمل ضد الاتحاد السوفيتي. وقام بتنسيق الجهود الدعائية في أواخر الخمسينات "لكشف موقف الاتحاد السوفيتي تجاه الإسلام".²²⁴ وقد حاول إيزنهاور أن يستعين أيضاً بثمرة جهود المتخصصين في الإسلام من غير التابعين للمخابرات المركزية الأمريكية بمن فيهم الأكاديميين و مستشرقين قياديين ساهموا في ملتقى برنستون الذي حضره أيضاً سعيد رمضان القيادي البارز في الإخوان المسلمين ونالوا الثناء على ما قدموا من خبرات. كتب سيتينو يقول :

"تولت الإدارة الأمريكية في عهد إيزنهاور رعاية مؤتمر عقد في واشنطن وحضره مؤرخون بارزون من الشرق الأوسط من بينهم مؤرخ بارز في تاريخ الدولة العثمانية، وأصبح فيما بعد أستاذاً في جامعة شيكاغو وهو البروفيسور خليل انالسيك Halil Inalcik.

222 - جون وولر - مقابلة مع المؤلف فبراير 2004

223 - دونالد ولبر "مغامرات في الشرق الأوسط"

224 - المرجع السابق

حضر هذا المؤتمر أيضا بشكل روتيني العاملون بمجلس الأمن القومي وجمعوا أوراق البحث العلمية الخاصة بالشرق الأوسط المعاصر. وثمة مثال واحد ذي دلالة خاصة، ذلك أن فروع البحث المتعلقة بالحرب الباردة قد تم استبعادها من أوراق مجلس الأمن القومي في مكتبة ابزنهور حيث يوضح برنارد لويس كيف أن الصوفيّين النقشبنديين الذين يعيشون في منطقة القوقاز بالاتحاد السوفيتي قد يستخدمون كطابور خامس داخل الإمبراطورية السوفيتية.²²⁵

أدار المناقشات مع سكرتير الدولة للشئون الخارجية جون فوستر دلاس، اثنان من المستشارين المقربين من الملك سعود هما يوسف ياسين ومحمد سرور صباحان.²²⁶ ياسين سوري الأصل من اللاذقية الواقعة على ساحل البحر الأبيض وكان رجلا ماكرا وعلى اتصال وثيق بحاشية الملك. جاء إلى السعودية بناء على توصيات الجناح اليميني من الساسة السوريين وهو يمثل مصالح الملك سعود المالية في دمشق، واستخدم الأموال السعودية واتصالاته السورية في التآمر من أجل التخريب وإثارة القلاقل في هذا البلد. وبدءا من الفترة 1956-1957 شنت المخابرات المركزية الأمريكية كذلك عملية سرية بهدف إسقاط الحكومة السورية.²²⁷ وفي سنة 1958 تورط ياسين في مؤامرة سعودية لاغتيال الرئيس المصري عبد الناصر الذي كان في طريقة إلى دمشق بالطائرة. وقد فضح المؤامرة رئيس المخابرات السورية الذي كشف أن السعودية، عرضت عليه رشوة مقدارها 1,9 مليون جنيه استرليني ليساعد في تنفيذها. ولم تكن هذه هي المؤامرة السعودية الأولى ضد القادة العرب الوطنيين.

وما هو أكثر إثارة في قصتنا هو دور محمد سرور صباحان. كان سرور قنا محررا. وأثناء عمله وزيرا منتدبا لوزارة المالية أواخر الأربعينات كان مسندا إليه مسؤولية تمويل الإخوان المسلمين في مصر. وفي خمسينات القرن العشرين أصبح سرور وزيرا للمالية وواحدا من اقرب مستشاري الملك. وفي الستينات أسندت إليه وظيفة رفيعة وهي الإشراف على جهود المملكة في كافة أنحاء العالم من أجل

225 - سيتينو ص 96

226 - هولدن وجونز ص 194

227 - العمل الذي قامت به المخابرات المركزية أمريكية ضد سوريا ، فضلا عن انه أذيع بشكل واسع فقد أكد لي حدوثه كثير ممن عملوا في المخابرات المركزية سابق وتورطوا في القيام به ومنهم راي كلوز

الارتقاء بشئون الإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية الراديكالية (الأصولية) الأخرى، من إفريقيا إلى اندونيسيا.

ليس معروفا على الإطلاق إلى أي حد ناقش سرور دالاس في وضع الإخوان المسلمين ولكن بوصفها الداعم الرئيسي للتحالف مع العربية السعودية ثم بوصفها السند المالي الرئيسي للإخوان المسلمين فإن الولايات المتحدة تكون في حقيقة الأمر قد أدخلت الإخوان المسلمين كأحد اللاعبين في الحرب الباردة. وردا على سؤال ما إذا كان قرار الولايات المتحدة يدعم الكتلة الإسلامية العربية السعودية ضد ناصر أجاب أحد رؤساء المخابرات المركزية السابقين والذي سبق له الخدمة في الشرق الأوسط، اختصر الكلام قائلا من هم الأقطاب الآخرون؟ الملك حسين؟ إن الذي نراه هو الحرب الباردة. كانت الحرب الباردة هي المحدد الواضح في ذلك الوقت. لقد كنا نرى ناصر بوصفه اشتراكيا ضد الغرب و ضد حلف بغداد و كنا نبحث عن أي غطاء. كنا نرى جهود السعودية من أجل أسلمة المنطقة وكنا نراها قوية و فعالة ومحتملة النجاح. كنا نحب هذا، كان لدينا حليف ضد الشيوعية.

كان من نتائج جهود إيزنهاور في الخمسينات من أجل بناء السعودية كقلعة ضد الشيوعية، صعود عائلة بن لادن. فمن أجل تقوية نفوذ السعودية بوصفها راعية المقدسات الإسلامية في مكة و المدينة، خصص إيزنهاور نصف مليون دولار للعربية السعودية لدراسة إنشاء الطرق لنقل الحجاج إلى مكة كجزء من الجهد البترولي لإعداد مكة لتكون مركزا للثقافة الإسلامية. واستأجر الملك سعود الشيخ محمد بن لادن لإعادة بناء المسجد الكبير في مكة. وعن طريق هذا العقد بدأ بن لادن يراكم ثروته الهائلة.

السعودية ملاذا للإخوان المسلمين

في البداية كانت السعودية تمول الإخوان المسلمين بالأموال فقط. بعد عام 1954 أصبحت البلاد نفسها قاعدة أساسية لعملياتهم. وحينما حطم ناصر الإخوان المسلمين في مصر، أمدتهم السعودية بملاذهم لتنظيمهم و تقاطر عدد كبير من أعضائهم إلى المملكة الصحراوية. حدثت هذه الهجرة حينما أشاحت الولايات المتحدة بوجهها عن ناصر وولته شطر السعودية. واستقر الإخوان في جدة حيث عملوا في مجالات الاستثمار (البرنس) كرجال أعمال وكذلك في الرياض ومكة

والمدينة حيث عملوا على تأصيل الحركة الوهابية. وخلال النصف الثاني من القرن العشرين أصبحت السعودية هي الملاذ الأخير للإخوان المسلمين، تتولى إسعافهم ومدهم بالمعونة بالإضافة إلى تمويلهم بغير حدود. يقول ديفيد لونج الذي كان يعمل في مكتب التخابر والأبحاث التابع للإدارة الأمريكية: "كان أحد أغبي ما أقدم عليه فيصل هو دعوته للإخوان للقدوم إلى السعودية."²²⁸ ولكن يبدو إن ذلك كان من مقتضيات السلامة. في ذلك الوقت. كان يبدو أن كل إنسان مشغول بمحاربة الشيوعية. كنا نحن كذلك - وكذلك كان فيصل.²²⁹ في ذلك الحين كان فيصل هو ولي العهد الذي سيؤول إليه العرش. و لكنه لن يصير ملكا إلا سنة 1960 حين أزيح الملك سعود في أحد انقلابات القصر. كان ينظر إلي فيصل باعتباره أوسع أفقا و أكثر استتارة و أكثر دهاء من الملك سعود الفاسق. و كان الإخوان المسلمون باعتبارهم تنظيمًا سياسيًا عالي المستوى معنيين بإقامة دولة خلافة إسلامية عالمية (على اتساع العالم). كانوا حلفاء للسعودية و لكنهم في نفس الوقت يمثلون خطرا عليها و حسبما يقول جون فول John Voll وهو استاذ في جامعة جورجيتاون "لم يكن السعوديون راضين كثيرا عن الإخوان المسلمين، ولكن إذا كنت أنت والسعوديون تخشون ناصر خشية الموت فالإخوان المسلمون هم إذن اللعبة الوحيدة المتاحة"، علي حد قول جون فول John Voll الأستاذ بجامعة جورجيتاون²³⁰ "في سياستها الخارجية استثمرت السعودية الإخوان المسلمين ضد مصر و سوريا و العراق و أقامت لهم قوة في السودان و شجعتهم في أفغانستان و باكستان حيث تحالفت مع جماعة (ابوالاعلى المودودي) الإسلامية - بل ولعبت لعبة مساندتها في وسط آسيا السوفيتية، ولكن داخليا لم تحتمل العائلة المالكة تصرفات الإخوان المسلمين. كان السعوديون ضجرين من الإخوان المسلمين.. لقد شجعوهم في مصر و السودان و غير ذلك و لكنهم كانوا يعارضون بصلابة نشاطهم داخل العربية السعودية." حسبما يقول راي كلوز Ray Close الذي كان يعمل مسئولا عن فرع المخابرات المركزية الأمريكية في السعودية خلال الفترة من 1970-1977²³¹.

أن السعوديين - كما تعلم - يعارضون أي أحزاب سياسية حسبما يقول هيرمان ايليتس أحد أكثر الأمريكيين خبرة في الشؤون العربية و شغل منصب سفير

228- ضابط عمليات سابق بالمخابرات المركزية في مقابلة مع المؤلف - يوليو 2004

229 - ديفيد لونج في حديث مع المؤلف - ابريل 2004

230- جون فول في حديث مع المؤلف

231- راي كلوز - في حديث مع المؤلف ابريل 2004

الولايات المتحدة فى السعودية. والنظام السعودي لديه خبرة منذ عشرينات القرن مع الإخوان ليس بالضبط الإخوان المسلمون بل رجال القبائل (الإخوان الوهابيون) الذين أصبحوا متطرفين. وألان فان ما فعله الإخوان المسلمون فى مصر و سوريا كان شيئاً متوافقاً بشكل عام مع فكر السعوديين بشأن أهمية الإسلام بوصفه مناقضاً للوطنية وباعتباره عامل التوحيد، ومع ذلك فقد كانوا غير متحمسين لان يكون لديهم إخوان مسلمون أو أى قوة سياسية أخرى تنظم نفسها داخل السعودية. لم يكونوا على استعداد للسماح بأى نشاط سياسى بما فى ذلك الإخوان المسلمين.²³² وفى الحقيقة فانه فى سنة 1946 عندما حاول حسن البنا أن يفتح فرعاً للإخوان المسلمين فى مكة رفضت السلطات السعودية ذلك صراحة²³³.

وبرغم أن السعوديين اتخذوا إجراءات مشددة للحيلولة دون إن يصبح الإخوان قوة داخل السعودية، فقد عمل الإخوان المسلمون هناك بشكل شبه سرى. كثير منهم اشتغلوا كرجال أعمال وأسسوا البنوك الإسلامية والاحتكارات التى جعلت منهم أثرياء. وأصبح بعضهم الآخر ذا نفوذ واسع فى أجهزة الإعلام. يتذكر كلوز رئيس فرع المخابرات المركزية الأمريكية السابق فى السعودية أن ريتشارد ميتشل مؤلف كتاب "جمعية الإخوان المسلمين" قدمه لشخصية هامة: "وكان ذلك من خلال ديك ميتشل، أن قابلت الرجل الوحيد الذى اعرفه من أعضاء الإخوان (وهو محمد صلاح الدين) الذى كان محرراً بجريدة المدينة، وهو من مواليد السودان وامضى بعض الوقت فى مصر ويعرف جميع الإخوان، وقد تحمل السعوديون وجوده على مضض ما دام يكتب المقالات ضد الشيوعية". ولكن لم يزل هناك آخرون يولون وجوههم وجهة أكاديمية ويخترقون شبكة الجامعات الإسلامية فى السعودية. ويعملون كجمعية سرية، يحتفظون بسرية عضويتهم وبوجود مستتر فى كثير من المؤسسات السعودية.

كان النظام الجامعي فى السعودية هو النظام الذى وجد فيه الإخوان المسلمون ملاذهم الأكثر أمناً. و لكن العربية السعودية لم يكن لديها فى أى وقت مثل هذا النظام من التعليم العالى الذى نعرفه، وإنما كان لديهم نظام موضوع بهدف تخريج رجال الدين وغرس القيم الوهابية لدى الشباب.

232 - هيرمان ايليتس فى حديث مع المؤلف ابريل 2004

233 - رينهاردت شولتز - التاريخ الحديث للعالم الاسلامى - نيويورك ط 2000 - ص 127.

انشأ السعوديون اثنين من المؤسسات التعليمية: جامعة المدينة الإسلامية سنة 1961 و جامعة عبد العزيز سنة 1967 اللتين أصبحتا أهم المراكز الثقافية لليمن الاسلامي. وبدأت جامعة المدينة الإسلامية مع المودودي، وهو ناشط اسلامي باكستاني يحظى بثقة السعودية. وقد أراد المودودي أن يحولها لجامعة أصولية بديلا عن جامعة الأزهر القديمة الموجودة في القاهرة منذ ألف عام وتعتبر المستودع الاساسي للتقاليد الإسلامية²³⁴. واستطاع الإخوان المسلمون و حلفاؤهم الوهابيون أن يقنعوا العائلة الملكية السعودية أن الأزهر أصبح أكثر قربا لناصر، ومن ثم فقد هبوا لتمويل الجامعة الإسلامية في المدينة، والتحق بها العشرات من الجامعيين المصريين المنتمين إلى الإخوان المسلمين أو المتعاطفين معهم و حصلوا على وظائف في الجامعة. كان عميد هذه الجامعة الشيخ عبد العزيز بن باز وكان ضريرا منذ الصغر وكان وهابيا متعصبا ويتزيا بزي الإسلام السياسي المتشدد وظل لعدة عقود يقاوم التحديث ويرد على مخالفيه في الرأي بالعنف والإرهاب. في سنة 1966 أصر بن باز أن نظرية كوبرنيك عن الكرة الأرضية انما هي هرطقة وأن الشمس تدور حول الأرض، وان الأرض منبسطة، واياها شخص لا يوفق على هذا فهو مذنب" يكذب على الله والقرآن والرسول"²³⁵. وأغضبت كلماته الملك فيصل، غير انه عينه سنة 1974 رئيسا للجنة البحوث الدينية، الأحكام الإسلامية الشرعية ولجنة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر²³⁶.

كانت جامعة المدينة الإسلامية تحت إدارة مفتي السعودية الكبير محمد إبراهيم آل شيخ و هو زعيم قبيلة آل شيخ الوهابية و كان 85% من طلابها غير سعوديين وفدوا من كافة بلاد العالم الإسلامي. و من خلال هذه الجامعة و شقيقاتها من الجامعات الأخرى في العربية السعودية استطاع الإخوان المسلمون أن ينشروا أيديولوجيتهم²³⁷ في كل مكان. وبالإضافة فقد حصل عشرات الألوف من الشباب السعودي على التعليم العالي من خلال نظام التعليم السعودي. واتسع نظام التعليم الجامعي السعودي اتساعا هائلا (تضاعف حسب الدالة الأسية) من 3625 طالبا سنة 1956 إلى أكثر من 113 ألف سنة 1986. نصف الجامعات السعودية الست كان التعليم فيها دينيا بطبيعته. وطبقا لإحدى الدراسات كان حوالي ثلث الطلبة

234 - نور جولد- "مملكة الكراهية" واشنطن- ط 2003

235 - هولدن وجونز ص 262

236 - جولد ص 110

237- جيلز كيبييل "الجهاد" كمبردج - ط 2002 ص 51

السعوديين متخصصين في الدراسات الإسلامية أما إل 70 % الأخرى فإن ثلث المقررات كانت دينية بطبيعتها²³⁸. يقول جون اكينز John Akins الذي عمل سفيراً للولايات المتحدة في السعودية في أوائل سبعينات القرن العشرين انه كان قلقاً بسبب هذا التركيز على الدين غير أن العائلة المالكة طلبت منه ألا يتدخل في هذا الأمر قالوا لي إن هذا ليس من شأنك. و لم يعد أمامنا ما يمكن عمله في هذا الشأن." غير أن اكينز عبر عن قلقه لبعض السعوديين التقدميين لان نظام التعليم السعودي لم يكن يدرّب إداريين و مديرين و علماء ومهندسين". "تحدثت معهم حول تدريب عدد اكبر من الأطباء والكيميائيين والمهندسين وعدد اقل من رجال الدين غير أنهم اخطروني أن هذا ليس من اختصاصي وانني أخوض في أمور ليس لي أن أخوض فيها. كنت أرى أنها درجة عالية من الغباوة، إنها كارثة مطلقة تدريب كل هؤلاء الملالي. حثني عدد من الأمراء أن أتحدث في هذا الشأن مع المراجع العليا" ولكن بلا فائدة. كانت وزارة التعليم السعودية تحت سيطرة آل شيخ وكانت قبضتها على هذا الجانب من الحكومة لا تتزعزع".

كانت العلاقة بين آل سعود وآل شيخ والإخوان المسلمين علاقة معقدة. فبعض أفراد الأسرة المالكة كانوا أتقياء وأصوليون وكانوا يرون أن الوهابية هي الطريق الصحيحة إلى الإسلام. والبعض الآخر بطبيعة الحال كالملك سعود والملك فهد ومئات آخرين من الأمراء السعوديين الأقل درجة، ممن يجرون وراء ملذاتهم كانوا متحررين وعلاقتهم بالإيديولوجية الوهابية على أحسن الفروض هشة، وكان آل شيخ وهم عادة دمويون واضحون قد بدؤوا يتزاوجون مع آل سعود. منشئين بذلك روابط دفعت بأجزاء من كل من القبيلتين في اتجاه مختلف: ملكي وديني. (والدة الملك فيصل على سبيل المثال من عائلة آل شيخ، معطية بذلك فيصل نفحة من التقوى يصعب على أبناء عبد العزيز الآخرين أن يدعوها. وحسبما يذكر ايلييتس كانت هناك (حرب دائمة بين العائلة المالكة والعائلة الدينية).

"مع مرور الوقت يمكن أن يجد المرء أيضا أن من بين آل شيخ من يتركها ولا يذهب إلى القيادة الدينية ولكن إلى الجيش وأشياء أخرى من هذا القبيل. وهكذا فإن الطبيعة الدينية لآل شيخ أخذت تضحل كثيرا إلى درجة أن الملك فيصل قام سنة 1971 بعد وفاة المفتي بإلغاء الوظيفة لفترة وإنشأ وزارة العدل، الأمر الذي كان البعض يراه بمثابة إضعاف لهذه العلاقة التي استمرت طوال قرنين من الزمان تربط بين آل سعود والقيادة الدينية. استمرت وزارة العدل لكن الملك أعاد بعد ذلك تأسيس

دار الإفتاء وسمى احد أعضاء أسرة آل شيخ رئيسا لها. كان العلماء ورجال الدين أقوياء وكانت عائلة آل شيخ قادرة على السيطرة عليهم ولكن بعد أن ضعف نفوذ العائلة بسبب تناقص عدد الذين يلتحقون منهم بهيئة العلماء بينما يزداد عدد الشباب من آل سعود ويصبح عدد كبير منهم علماء، أخذت العلاقة بين عائلة آل سعود وعائلة آل شيخ تتخلخل بعض الشيء. وهكذا نصل إلى الوضع الراهن حيث أصبح عدد كبير من الشباب الخاضعين لكبارهم وللعلماء وللعائلة المالكة السعودية يبحثون بأنفسهم عن طريقهم الخاص، بالأحرى بشكل جهادي.²³⁹ عندما بدأت التوترات تظهر بين آل سعود وآل شيخ بدأ آل شيخ يستعرضون آثار التواجد المستدام للإخوان المسلمين. ففي حين كان آل شيخ مؤسسة تقوم أساسا على العقيدة أكثر منها على السياسة وفوق كل شيء هي الأكثر استقرارا (سيما بالنسبة للعرش السعودي)، كان أعضاء الإخوان المسلمين عادة متهورين ولكن على مستوى سياسي عال، وأحيانا كانوا ذوى عقلية ثورية. بعد سنة 1954 حيث اخذ الإخوان يستقرون أكثر فأكثر في السعودية كان من الطبيعي أن يصبح آل شيخ أكثر جرأة. وإذا كان لآل شيخ مصالح تختلف عن مصالح آل سعود فإن الإخوان المسلمين، كانوا بالمثل وربما بشكل اقوي. وطبقا لمارثا كيسلر و هي محل سابق لشؤون الشرق الأوسط في المخابرات المركزية الأمريكية و درست الإخوان المسلمين و مدى إخلاص المؤسسة الوهابية في العربية السعودية للعائلة المالكة فإنها ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك. و كان هذا صحيحا بدرجة اكبر بالنسبة لأعضاء الإخوان المسلمين في المملكة: "كان الإخوان المسلمون بالسعودية ابعد (من آل شيخ) فيما يتعلق بدرجة الشعور بالولاء تجاه آل سعود" وتضيف انه ليس واضحا ما إذا كانوا يريدون الإطاحة بالنظام، ولكن في داخل الإخوان المسلمين كانت هناك دائما مجادلات بين هؤلاء الذين يريدون الإطاحة بما يرون انه نظام فاسد وهؤلاء الذين يريدون أن يقضوا الوقت في تنظيم وتطوير قاعدة لهم في المجتمع.²⁴⁰

أخذت العلاقة الهشة بين العائلة السعودية ومؤسستها الوهابية والإخوان المسلمين بل والجماعات الأخرى الأكثر راديكالية - الجماعات الإسلامية الإرهابية - تستمر في التطور، فالتوازن قد يختل اعتمادا على القوة النسبية. فصراعات القوة داخل العائلة الملكية والسياسات المحلية تزيد هذا التوازن تعقيدا بفضل الدور الذي تلعبه الصداقات الإسلامية التي عادة ما تكون مرتبطة بواحد أو أكثر من الأمراء

239- ايليتس - حديث

240 - مارثا كيسلر في حديث مع المؤلف ابريل 2004

السعوديين الذين بقصد أو بدون قصد كانوا مصدر التمويل للجماعات الإرهابية. وازداد الموقف تعقيدا نتيجة أن الأمراء كأفراد كانوا يتصرفون مستقلين عن الملك والحكومة وغيرهم من أعضاء الأسرة المالكة.

يقول راي كلوز: " أن العائلة المالكة ليست متوحدة باى معنى فهناك دائما من يعطى المال للآخر وهناك الكثير من المؤسسات الحرة التى تشتغل بسياسة العائلة الملكية "

وعندما اكتسب الإخوان المسلمون نفوذا داخل العربية السعودية عمل الملك سعود وبعده الملك فيصل بمهارة على دمج التنظيم فى إطار السياسة الخارجية الرسمية للمملكة. فى ستينيات القرن العشرين حدث حدثان كانا بمثابة العلامة المميزة لهذا المشروع الكبير، أولهما تأسيس رابطة العالم الاسلامى سنة 1962 والآخر تأسيس منظمة المؤتمر الاسلامى العالمى سنة 1969. وبقيادة فيصل عملت المملكة العربية السعودية بقوة من اجل إنشاء " الكتلة الإسلامية " بمساندة الولايات المتحدة الأمريكية التى سرعان ما نجحت فى فرض الكسوف على شمس مصر بزعامه عبد الناصر.

كتلة الملك فيصل الإسلامية

إن ما ساعد ايزنهاور على تحريكه فى خمسينيات القرن العشرين استمر فى الحركة خلال العقد التالى.

فالملك فيصل (1964 - 1975) كان ملكا مجددا بالمقارنة مع الملك سعود (1953 - 1964) ولديه رؤية واضحة فيما يتعلق بالسياسة السعودية الخارجية. يقول شارل فريمان Charles Freeman وهو سياسي امريكى كان يعمل فى إدارة العلاقات الخارجية وعمل سفيراً للولايات المتحدة فى السعودية: "اتخذ فيصل قرارا حاسما مدروسا بان الإسلام نقيض للناصرية".²⁴¹ واستقبلت واشنطن هذا التطور بحرارة بالرغم من أن بعض الدبلوماسيين الأمريكان العلمانيين وبعض ضباط المخابرات كانوا يبدون اعتراضهم بين حين وآخر. وهكذا رسا التحالف الأمريكى السعودى على ارض ثابتة. كذلك كان الأمر بالنسبة للعربية السعودية التى تقوم سياستها الخارجية على قاعدة إسلامية ولم تكن تقلق سوى القليلين.

241- شارلس فريمان -حديثم المؤلف -ابريل 2004

كان تأسيس رابطة العالم الاسلامى سنة 1962 مؤشرا على البداية الرسمية لظهور اليمين الاسلامى الراديكالي.

تأسست رابطة العالم الاسلامى فى مكة سنة 1962، وكانت بمثابة تحديد لهوية اليمين الاسلامى. لقد أصبح للحركة لأول مرة جهاز مركزي عصبى اكثر تنظيما من منظمة الإخوان المسلمين السرية. ومنحتها قدرة السعودية غير المحدودة على التمويل مرونة هائلة. من الأعضاء المؤسسين للمنظمة وقادتها كان هناك كل الذين يفترض وجودهم من قادة الإحياء الاسلامى بمن فيهم: ²⁴² سعيد رمضان زوج ابنة حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين و هو المنظم الرئيسى للجماعة على النطاق العالمى. وكان قد امضى عدة سنوات فى سوريا و الأردن و باكستان و غيرها قبل أن يفتح مركز جنيف الاسلامى سنة 1961 بمساعدة السعودية، وكذلك أبو الأعلى المودودى مؤسس "جماعة اسلامى" وهى الجماعة اليمينية الإسلامية الراديكالية (الأصولية) فى باكستان. وهو بمفرده اكثر شخصياتها أهمية فهو مؤسس نظرية الجمهورية الإسلامية و لعب دورا مركزيا فى ضرب المعارضة اليسارية العلمانية، وهو الذى دفع بباكستان تجاه معسكر اليمين الإسلامى المتشدد تحت رئاسة ضياء الحق الدكتاتور الذى سيطر على السلطة سنة 1977. من المؤسسين للرابطة أيضا الحاج أمين الحسيني مفتى فلسطين الموالى للنازية الذى كان عميلا للمخابرات البريطانية منذ العشرينات و الذى أصبح بعد الحرب العالمية الثانية معارضا لناصر و يتولى الدعاية ضده بتمويل من السعودية. ومنهم أيضا محمد صديق المجددى من أفغانستان الذى كان على علاقة بالمخابرات المركزية الأمريكية فى ذلك البلد البائس فى الستينات و الذى سوف يشكل ورثته عصب الجهاد الافغانى ضد السوفيت بمساندة المخابرات المركزية الأمريكية و العربية السعودية و مصر وباكستان خلال الفترة من 1979-1989. ثم محمد بن إبراهيم آل شيخ الذى اختارته الحكومة السعودية ليكون مفتيا للعربية السعودية و يرأس الحركة الوهابية و له مصالح هائلة داخل العائلة السعودية.

كذلك عبد الرحمن الإيريانى -المجاهد الإسلامى الاصولى الذى سوف يسيطر سنة 1967 على السلطة فى اليمن (الشمالى) ويقود هذه الجمهورية التى كانت ناصرية إلى المعسكر السعودى بعد حرب أهلية طويلة. باختصار شارك فى المنظمة 24 من قيادى العالم الإسلامى ²⁴³.

242 - للاطلاع على القائمة الكاملة للمؤسسين - Schulze - ص 172.

243 - شولتز ص 173

يقول جون اسبوسيتو John Esposito الأستاذ بجامعة جورجتاون: فى ستينات القرن العشرين تطورت الرؤية الوهابية لتصبح رؤية عالمية ردا على التهديد الذى تمثله الوطنية والاشتراكية. كانت العربية السعودية وملكيات أخرى مهددة بشكل خاص من قبل الناصرية. وبشكل عام من قبل الحكومات العربية الاشتراكية الراديكالية. وبادرت السعودية إلى تبنى سياسة إسلامية شمولية ضد علمانية واشتراكية" ناصر الشمولية التي ترتبط بالشيوعية الإلحادية. ووثقت السعودية كذلك علاقتها بالإخوان المسلمين و"جماعة اسلامي" ومع وجود فوارق هامة بينهما إلا إنهما يشتركان معا فى كراهية فطرية لأعدائهم المشتركين الناصرية والعلمانية والشيوعية.²⁴⁴ وأرسلت منظمة العالم الاسلامي بعثات و مطبوعات دعائية و حصص من التبرعات المالية للمباني المخصصة للمساجد الوهابية و المؤسسات الإسلامية." خصصت المنظمة تبرعات مالية سخية ودعتهم لزيارة العربية السعودية وأعطتهم توصيات (تزكية)، الأمر الذى سيساعد مستقبلا على إمدادهم بأموال كثيرة من متبرع خاص كريم من احد أعضاء العائلة المالكة السعودية، قد يكون أميرا أو رجل أعمال عادى. و كان يدير المنظمة أعضاء من المؤسسة الدينية السعودية التى تعمل مع عرب آخرين قد يكونون منتمين إلى الإخوان المسلمين أو مقربين جدا منهم بالإضافة إلى علماء من القارة الهندية على اتصال بمدارس ديوباند Deo Band * أو للحزب الذى أسسه المودودى²⁴⁵. ولم يكن لدى المخابرات المركزية الأمريكية سوى قدر ضئيل من الوضوح فيما يتعلق بأهمية هذه المنظمة. و مع ذلك استمرت واشنطن الرسمية فى تمسكها بكسب الحرب الباردة بغض النظر عن مدى مصداقية حلفائها بل و لم تطلب من المخابرات المركزية الأمريكية أن تتقصى الحقائق حول هذه المنظمة. يقول احد العاملين بالمخابرات المركزية الأمريكية الذى كان يعمل بالسعودية: كانت نظرتنا محدودة بالمدى المنظور - لم تكن نستشرف التوقعات البعيدة. و طبقا لما يقول هذا الضابط : فى بداية سبعينات القرن العشرين حاولت المخابرات المركزية الأمريكية أن تضع عميلا داخل رابطة العالم الاسلامي: " قمت

244 - جون اسبوسيتو "الحرب غير المقدسة: الارهاب ضد الإسلام" - نيويورك - ط 2002 ص ص

106-108

* تقع مدينة ديوبوند شمالى الهند على بعد 150 ميلا شمالى العاصمة دلهى . أنشئت المدرسة التى تحمل هذا الاسم سنة 1876 بعدما قضى الغزو البريطانى على الحكم الاسلامي والدولة المغولية وفشل ثورة 1857 فى الهند. بدأت مدرسة صغيرة تختص بالعلوم الدينية الاسلامية وأصبحت أكبر وأقدم جامعة اسلامية أهلية فى شبه القارة الهندية . التعليم فيها مجانى وتبلغ ميزانيتها السنوية 60 مليون روبية مصدرها تبرعات المسلمين من الداخل والخارج ولا تقبل معونات حكومية.

245 - كيبل ص 52

باختراق الرابطة مستخدماً الاسم العربي للمنظمة Rabitat غير أن واشنطن اعتبرت هذا من أقل الأعمال التي قمت بها أهمية". كانت الرئاسة مهتمة بالحروب و تدبير الانقلابات و تبادل النيران في الخليج الفارسي و ليس بأنشطة الرابطة. وجدت المسألة مثيرة للدهشة و هامة و لم أكن أرى الرابطة rabbitat بوصفها نشاطاً لتوسيع نفوذ العربية السعودية دولياً ولكن كطريقة لنشر نفوذ الإسلام في العالم العربي وفيما وراءه. ولم تكن العربية السعودية مثلها مثل تنظيم الفاتيكان. كان يبدو أنها عملية تجرى رغم انف السعودية. ويقول انه بالتأكيد لم يكن ينظر إليها كتهديد أو انه أمر ذو أهمية جيوبولوتيكية (تتعلق بالجغرافيا السياسية)، غير أن واشنطن لم تلق بالاً. (كان صوت الشخير يصم الآذان) وهكذا تخلينا عن العملية السرية²⁴⁶.

يقول تشارلس وترمان Charles waterman و هو من خبراء المخابرات المركزية الأمريكية و عمل لسنوات عدة في الشرق الأوسط، وأخيراً أصبح رئيس مكتب المخابرات المركزية الأمريكية في العربية السعودية. يقول انه بالنسبة للمخابرات المركزية الأمريكية كانت الرابطة الإسلامية مثلها مثل أي تنظيم إسلامي آخر يستحق المتابعة، ولكن ليس كشيء يخشى منه. و يضيف وترمان: إذا انتهى بهم الأمر إلى مساعدة حركات الطلبة الإسلاميين في مكان ما و تورطوا في صدام ما مع الطلبة اليساريين فإن رد فعلنا سيكون: حسناً، هذا شيء جيد. هذا عمل جيد يقصد به السيطرة على اليسار". هل كانت المخابرات المركزية الأمريكية مخطئة في ذلك الوقت لأنها لم تركز على هذه الجمعيات و هذه السلوكيات؟ هل يبدو أنهم يرغبون في أن تظل هذه الجماعات الإسلامية تنظيمات لتقديم الصدقات؟ وماذا بعد؟²⁴⁷

يوافقه في هذا الرؤية راي كلوز ray close الرئيس السابق للمخابرات المركزية و يتساءل ما إذا كانت المخابرات المركزية لديها ما يقلقها بشأن العلاقات التي تربط بين الإخوان المسلمين ورجال الدين الوهابيين، و يتابع قائلاً: إننا لم نتابع الأمر و إذا كان هناك احد على خطأ فهو أنا. إننا لم ننظر إليهم بوصفهم تهديداً. لم يكونوا هدفاً من أهدافنا. و قد يكون لدينا قوائم. وقد تكون لدى قوائم بهذه الأهداف. ولكن أحداً في واشنطن لم يطلب مني إلقاء نظرة عليها..... أن ذلك لم يتطرق إلى وعينا"

ان 99% من تمويل الرابطة جاء من حكومة العربية السعودية. لقد تم الكشف عن ارتباطاتها بالمؤسسة السعودية. كان احد أعضاء السكرتارية العامة لهذه الرابطة

246 - حديث اجراه المؤلف مع احد مسئولى المخابرات المركزية المتقاعدين - يونيو 2004

247 - شارلس وترمان في حديث مع المؤلف - يوليو 2004

هو محمد على الحرقان و هو وهابي و وزيرا سابقا للعدل فى العربية السعودية، و سوف يشغل فيما بعد من الناحية الواقعية منصب المفتى الأكبر للعربية السعودية و بالإضافة إلى وزارة العدل كانت المنظمة متشابكة مع وزارة التعليم ووزارة الحج والأوقاف القوية التي تسيطر على عدد هائل ممن يؤدون فريضة الحج سنويا إلى مكة و الأموال الهائلة المتاحة من أجل أعمال الخير والهداية وكان هذا كله بدوره يتسق مع النظام الجامعي سيما الجامعات الإسلامية. وعملت الرابطة بشكل وثيق مع جمعية الشبان المسلمين العالمية (wamy) التي أسست سنة 1972 وسوف تتهم فيما بعد بعلاقتها بالأنشطة الإرهابية فيما وراء البحار²⁴⁸.

خلال ستينيات القرن العشرين كانت المعركة بين مصر و السعودية فى حقيقة الأمر معركة بالوكالة. حيث أخذت الولايات المتحدة جانب السعودية وأسفرت عن اتجاهين: الاتجاه الأول وهو يعبر أيضا عن الإخوان المسلمين فى مصر. و الاتجاه الثانى معركة فى الركن الجنوبى من شبه الجزيرة العربية و يتبادل فيها الطرفان إطلاق النار وتضع ناصر فى مواجهه فيصل فى اليمن. وهى بلد صغير تقع على الساحل الشمالى الغربى للعربية السعودية. فى كلتى الحالتين كان الإخوان المسلمون ورابطة العالم الإسلامى و ملكيات العالم العربى المحافظة تساند السعودية بجهاز اقليمى قوى يدير الحرب ضد ناصر ببراعة.

رمضان و عودة الإخوان

كان سعيد رمضان هو المنظم المركزى للكتلة السعودية. وهو الرجل الذى قابله ابنزنهاور سنة 1953 فى المكتب البيضاوي.

وطبقا لتقرير سويسرى صادر خلال هذه الفترة كان يعتقد انه عميل للولايات المتحدة الأمريكية. و حصل أيضا على مساعدات من ألمانيا الغربية. و يتلقى مساعدات مالية من العربية السعودية. و قطر. و كان يمثل الأردن فى الأمم المتحدة فى جنيف فى نفس الوقت الذى كان يعمل فيه كالعقل العالمى المدبر لتنظيم

الإخوان. وفى سنة 1965 اتهم بشكل رسمى فى محاولة ثانية لاغتيال عبد الناصر. وحدثت المحاولة خلال انتفاضة أخرى قام بها الإخوان المسلمون فى مصر. هذه المرة بمساعدة الجهاز عالى التنظيم الذى شكله سعيد رمضان للمنفيين. و

كان جزء من هذا الجهاز يتخذ من السعودية قاعدة له و جزء آخر فى جنيف حيث استقر رمضان.

بالمقارنة بقوته فيما قبل سنة 1954 كان تنظيم الإخوان فى مصر صورة مما كان عليه من قبل. كان قد أرغم على اللجوء إلى السرية الشديدة منذ خمسينات القرن العشرين. و حاول أن ينشئ تنظيمًا جبهويًا وصالونات سياسية للاحتفاظ بوجوده التنظيمي غير أن جهاز أمن عبد الناصر كان فعالاً فى قمعه. فى منتصف ستينات

القرن العشرين أفرج عن عدد كبير من المسجونين السياسيين الذين كانوا قد قبض عليهم سنة 1954. غير أنهم حاولوا تنظيم أنفسهم من جديد ضد ناصر. كان سعيد رمضان من موقعه فى جنيف يحرك خيوط الكثير من المنظمات. فى سنة 1954 سحب منه ناصر الجنسية المصرية فذهب إلى المنفى. بمساعدة ألمانيا الغربية التي كانت غاضبة من مصر نتيجة اعترافها بحكومة ألمانيا الشرقية. مستخدماً جواز سفر الماني ذهب إلى ميونيخ غرب ألمانيا قبل أن يتوجه إلى سويسرا. وهناك و بتمويل من ملك العربية السعودية أسس رمضان المركز الاسلامي فى جنيف سنة 1961 ويستخدم كمقر رئيسي للإخوان المسلمين. وسوف يستقر رمضان هناك لمدة 32 عاماً حتى وفاته سنة 1995. و أصبح المركز هو العصب التنظيمي للنشر ومقرا لإجراء المقابلات لليمين الاسلامي و نشطاء الإخوان المسلمين الذين جاءوا من كافة أرجاء العالم الاسلامي. و طبقا لريتشارد لابيڤير Richard Labevier وهو صحفي كتب عن علاقات الإخوان المسلمين بالإرهاب، كان رمضان لا يتولى إدارة ميزانية التنظيم فحسب ولكنه بالإضافة وبمساعدة يوسف ندا - احد ممولي لإخوان المسلمين - ساعد فى إنشاء بنك الجماعة (بنك التقوى)²⁴⁹. فى سنة 1962 ساعد رمضان السعودية فى تأسيس رابطة العالم الاسلامي. Muslim World League. كتب هاني رمضان وهو ابن سعيد رمضان و مدير المركز الاسلامي فى جنيف، كتب قائلاً: "لم يكن والدي مجرد واحد من القادة الذين تولوا بناء المنظمة. لقد كانت فكرة إنشاء هذه المنظمة هي فكرته الحقيقية التي سرعان ما أصبحت قناة موازية يمكن من خلالها نشر أفكاره." و طبقا لما ذكره هاني رمضان استقبل إنشاء المركز الاسلامي فى جنيف استقبالا طيبا فى سويسرا وعند إنشائه لم تكن هناك تلك الحالة التي نشاهدها اليوم اى (الاسلامو فوبيا) أو الخوف من الإسلام. و يضيف "أن رد الفعل الأول لنشاط والدي ولوجود المركز الاسلامي فى جنيف كان ايجابيا سواء فى

249 - مقتبس من " اسرار تمويل الحرب المقدسة "مجلة لو نوفيل اوبزرفاتير -31 يناير 2004.

سويسرا أو بشكل عام في أوروبا" لكن هاني يعترف بان الهدف من كل هذه العملية كان لصالح الإخوان المسلمين فيقول " أن إنشاء المركز الاسلامي كان بهدف تحقيق رغبة والدي في إنشاء مركز يمكن من خلاله نشر تعاليم حسن البنا وليكون مكانا ينفذ إليه الطلبة من كل البلاد العربية يلتقون فيه ويتدربون طبقا لرسالة الإسلام".²⁵⁰

وهكذا منتشرين في المنافي وممارسين للعمل السري في مصر نما تنظيم الإخوان وأصبح أكثر راديكالية (أصولية) في ستينات القرن العشرين. في القاهرة كان الإخوان يستجمعون قوتهم استعدادا لجولة جديدة مع ناصر وفي الأماكن الأخرى كان الإسلام السياسي ينمو.

في السعودية كانوا يشنون حملة هجومية متزايدة ويتصرفون باعتبار أنهم قادة الكتل العربية والإسلامية وبدأ آية الله الخميني يتحرك في إيران. وكان الشيعة الأصوليون في العراق قد انشئوا حزبا سياسيا تآمريا (حزب الدعوة)²⁵¹

وفي باكستان كانت حركة المودودي تأخذ زمام المبادرة. وحينما تفجرت أزمة الإخوان سنة 1965 في مصر كان سعيد رمضان ومعه المفكر الرئيسي للإخوان المسلمين القائد المجاهد سيد قطب. وكانا كلاهما متهمين بأنهما وراء محاولة اغتيال عبد الناصر. كانا معا في مركز الأزمة. كان عبد الناصر هذه المرة أكثر استعدادا وطالب الأصدقاء والمؤيدين في مصر من رجال الدين المسلمين بمساندته مصورا سعيد رمضان والإخوان المسلمين بأنهم عملاء للولايات المتحدة الأمريكية. وفي 3 أغسطس علم الرأي العام في مصر من خلال خطبة أذاعها عبد الناصر من موسكو أن جمعية الإخوان المسلمين كانت القوة الكامنة وراء مؤامرة ضخمة كشفتها المخابرات المصرية ومن بين شركائهم كما أعلن عبد الناصر كان مصطفى أمين وهو صحفي ليبرالي قيادي سبق أن القي القبض عليه في 21 سبتمبر بتهمة "التجسس لحساب الولايات المتحدة". بعد الحملة عبأ النظام أجهزته الدينية والمتحدثون باسمه والكتاب عبثوا جميعا معلنين إدانتهم للعناصر المتمردة والإخوان المسلمين بوصفهم أروهابي القرون الوسطى

يكتب جيلز كيبيل Gilles Kepel وهو أحد أبرز المحللين العالميين للإسلام السياسي يقول: " تولت الصحافة فضح الارتباطات الأجنبية للمتطرفين الدينيين

250 - من حديث لهاني رمضان مع فالنتينا مارانو Valentina Marano سبتمبر 2004

251 - أسس حزب الدعوة سنة 1977 وانتشر في الستينات وقام في الثمانينات والتسعينات بعمليات تخريب بما في ذلك الهجوم على السفارة الأمريكية في الكويت وفي 2003 ظهر كقوة علنية فيما بعد نظام صدام حسين.

وقالت أن سعيد رمضان زوج ابنة حسن البنا هو الذى يحرك خيوط المؤامرة من عمان بالأردن بناء على تعليمات من الحلف المركزي لدول جنوب شرق آسيا (cento)²⁵² وقد يكون رمضان أو قد لا يكون عميلا للولايات المتحدة ولكن مما لا شك فيه انه وضع نفسه قريبا من مركز الدول التى تضم باكستان عضو السنتو والأردن والسعودية التى تساندها الولايات المتحدة ضد ناصر. وطبقا لما ذكرته جريدة الزمان Le Temps لم تكن الحكومة المصرية هي الوحيدة التى اعتبرت رمضان عميلا أمريكيا ولكن سويسرا أيضا اعتبرته كذلك. ففي سنة 1966 خلال قمة الأزمة فى مصر عقد اجتماع على مستوى عالي للمسؤولين السويسريين بمن فيهم الدبلوماسيين والشرطة السويسرية الفدرالية والمخابرات السويسرية عقدوا اجتماعا لمناقشة وضع سعيد رمضان. وتشير الوثائق الموجودة حاليا فى الأرشيف السويسري إلى أن المسؤولين السويسريين انتهوا إلى أن رمضان يمثل (اتجاهها محافظا مواليا للغرب وليس معاديا للمصالح السويسرية. ويوضح الأرشيف السويسري أيضا أن سويسرا - على الأقل - تعتقد أن رمضان كان عميلا للمخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية (كان أكثر من مجرد دعائي بسيط مشهور بعدائه للشيوعية". وطبقا لجريدة الزمان ينتهي محلل حكومي سويسري إلى أن سعيد رمضان هو من بين أشياء أخرى عميل للمخابرات البريطانية الأمريكية. وتلاحظ الزمان أيضا أن اتصالات رمضان بأجهزه مخابرات أخرى لعدد من الدول الغربية مطروحة فى وثائق أخرى عديدة.²⁵³

كانت حملة ناصر 1965 - 1966 ضد الإخوان المسلمين قد أنهكت تنظيمهم مرة أخرى، القى القبض على عدد كبير من قادتهم وهرب آخرون وأمر ناصر بان يعدم شنقا سيد قطب الزعيم الفكري للإخوان ومنظرهم. وكان سيد قطب قد منح لجوءا سياسيا قبل ذلك فى العربية السعودية²⁵⁴. وطبقا لهرمان ايليتس حاول الملك فيصل التدخل بقوة لدى عبد الناصر لصالح قطب لكن دون جدوى²⁵⁵.

252 - جيل كيبل - "التطرف الاسلامي في مصر" ص ص 33-34

253 - Sylvain Besson ,Le Temps , October 26,2004

254 - اسبوسيتو ص 106

255 - ايليتس فى حديث مع المؤلف

كندي وناصر واليمن

تطورت المعركة بين ناصر وفيصل من 1962 - 1970 حينما تقاوت الطرفان في معركة مريرة دامية في اليمن في حرب بالوكالة. كان الطرفان في أوج قوتهم في ستينات القرن العشرين. كان ناصر بمثابة رمز عربي لأنصاره في كل الأقطار العربية ، بينما كان فيصل الذي أطاح بالملك سعود في أوائل الستينيات يستخدم أموال السعودية ورابطة العالم الاسلامي والحركة الوهابية لتقوية التحالف المحافظ. وقام الزعيم المصري باستخدام قدرته الخطابية الرائعة في مهاجمة المملكة الصحراوية بسبب تصرفاتها الممائلة لمصالح الامبريالية الأمريكية بينما ساوى فيصل بين اشتراكية ناصر العربية والشيوعية الإلحادية.

وبالرغم من أن المعركة كانت خفية تماما عن أنظار الشعب الأمريكي فقد كان لها آثارها الواضحة على سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط وأدت إلى زيادة الروابط الأمريكية بالدول العربية المحافظة وفي مقدمتها العربية السعودية وكتلتها الإسلامية. أن تأثير حرب اليمن على سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في الشرق الأوسط يحكى قصتها بالتفصيل في مؤلف وارين باس Warren Bass في مؤلفه "اي صديق نساند" Support Any Friend التي توضح تفاصيل مناوشات إدارة كنيدي مع عبد الناصر. فبعد انتهاء ولاية إيزنهاور وموقفه المتشدد من سياسة عدم الانحياز قدمت إدارة كنيدي غصن الزيتون إلى مصر. فقد قبل بعض المسؤولين في إدارة كنيدي اعتبار ناصر مستقلا وليس أداة سوفيتية وعلى واشنطن أن تحاول التوصل إلى تفاهم معه. كان المتفائلون يعتقدون أن ناصر ليس شيوعيا بل انه في الحقيقة اعتقل أعضاء الحزب الشيوعي ويساريين آخرين وأنه يمكن إقناعه بفصم علاقاته مع الاتحاد السوفيتي وشعر معظم المحللين الواقعيين انه على الأقل يمكن إقناع ناصر بالوصول إلى حل وسط مع الولايات المتحدة ولكن مما لا شك فيه أن آخرين غيرهم كانوا لا يزالون - وبوجه خاص المناصرون لإسرائيل - ينظرون إليه، مثلهم في ذلك مثل العربية السعودية كشيطان رجيم.

يتذكر تالكوت سييلي Talcot Seelye وكان يرأس مكتب إدارة شئون شبة الجزيرة العربية خلال حكم كنيدي: "كنا نرى أن تحركاته تشكل تهديدا للنظام السعودي حيث كان في السعودية رد فعل مضاد، فالأمير طلال وهو واحد ممن يعتبرون من الأمراء الأحرار السعوديين الموالين لمصر واثنين من الطيارين السعوديين أيضا لجئوا إلى مصر ومن ثم فقد كنا في غاية القلق فيما يتعلق

باستمرارية النظام السعودي²⁵⁶ واعدت المخابرات المركزية الأمريكية تقدير موقف لمجلس الأمن القومي أطلقت عليه (ناصر ومستقبل القومية العربية) توضح للبيت الأبيض أن (القومية النضالية سوف تستمر في كونها أكثر القوى ديناميكية في الشئون العربية السياسية ومن المحتمل جدا أن يظل ناصر قائدها الأبرز ورمزها في المستقبل المنظور). "ومضى التقرير محذرا بان الأنظمة المحافظة والمالية للغرب ضعيفة وانه من المحتمل الإطاحة بالنظام السعودي".²⁵⁷ ورأى كنيدي أن الأمر يستحق محاولة مفاتيحة عبد الناصر فيما يتعلق بعلاقته بكل من إسرائيل والعربية السعودية وبدأ سلسلة من الأخذ والرد مع الزعيم المصري من خلال الاتصالات الدبلوماسية والخطابات واللقاءات الشخصية. وكتب ناصر إلى كنيدي يقول لماذا تعارض الولايات المتحدة وهي الدولة التي أقيمت على أساس الحرية وبواسطة الثورة لماذا تعارض النداء من اجل الحرية والحركات الثورية وتقف إلى جانب القوى الرجعية وأعداء التقدم.²⁵⁸ ومما لا شك فيه أن ناصر كان يعنى بالقوى الرجعية في المقام الأول العربية السعودية وكان تساؤله جيدا. وعلى خلاف إيزنهاور الذي كان بالسليقة يرى أن بلدان العالم الثالث التي تؤمن بالاستقلال هي أدوات شيوعية كان كنيدي عازما على استكشاف ما إذا كانت هذه الحركات غير متوافقة بالضرورة مع مصالح الولايات المتحدة. وفي الحقيقة فان كنيدي حينما كان نائبا (سناطور) في الخمسينات أدان موقف إدارة إيزنهاور التي تدفن رأسها في الرمال فيما يتعلق بالقومية العربية.²⁵⁹

ولكن محاولات كنيدي - ناصر تعثرت وفشلت في النهاية، ففي سبتمبر 1962 أطاحت القوات الموالية لناصر بحكومة اليمن التي تنتمي للعصور الوسطى. وكانت اليمن تحتل موقعا استراتيجيا هاما، وتقع على الجانب الغربي من العربية السعودية على ساحل البحر الأحمر والمحيط الهندي. في ذلك الوقت كان كنيدي يقول: "اننى لا اعرف أين تقع اليمن".²⁶⁰ كان زعيم اليمن في ذلك الحين سنة 1962 الإمام احمد كهلا معقدا يزن 300 رطلا، اتوقراطيا مشهورا بوحشيته، وكان ينظر إلى نفسه باعتبار انه حامى العقيدة الإلهية وكان يرفض برنامج ناصر الاقتصادي باعتباره

256 - تالكوت سيل في حديث مع المؤلف يونيو 2004

257 - مقتبس من وارن باس ص 77

258 - باس ص 79

259 - المرجع السابق ص 53

260 - المرجع السابق ص 99

برنامجا غير اسلامي.²⁶¹ وعندما توفي أطاح الثوار الذين يساندهم ناصر بابنه الذي يضارعه رجعية وهو محمد البدر. وطبقا لسييلي Seelye "كان ناصر وراء الإطاحة بالنظام. وكانت العربية السعودية في غاية الانزعاج."²⁶² ساند الثورة اليمنية آلاف الجنود المصريين الذين وصلوا اليمن وشكلوا تهديدا لوجود العربية السعودية ذاته. وقام روبرت كומר Robert Kumer مساعد البيت الأبيض للشئون السياسية بتحذير كينيدي قائلا: "أن آل سعود يعلمون جيدا أنهم سيكونون الهدف التالي."²⁶³ وقامت العربية السعودية وقد أقلقها ذلك الأمر بإمداد أنصار الملكية بالسلاح والمال. وترتب على هذه الحرب على مدى عقد من الزمان سقوط 200 ألف قتيل. وقامت المخابرات المركزية الأمريكية وغيرها بتحذير كينيدي بأن نظام العربية السعودية قد لا يستمر طويلا وأنه من المحتمل أن يصبح ناصر قادرا على تقرير مستقبل العالم العربي. حاول كينيدي في بادئ الأمر أن يكون متوازنا وعمليا وإن يعترف بالحكومة الجديدة في اليمن وأرسل الزورث بنكر Ellsworth Bunker ليتوسط في تحقيق تسوية بين مصر والسعودية ولكن الضغوط مورست على كينيدي من كل الاتجاهات، فالبريطانيون مازالوا متعلقين بنفوذهم المشكوك فيه في الخليج العربي وعدن و مرة أخرى كما حدث إبان أزمة السويس فقدوا أعصابهم بالنسبة لناصر. وكان هارولد مكميلان رئيس الوزراء البريطاني الذي كان أحد أعضاء الحكومة البريطانية أثناء أزمة السويس "كان يود لو يسلخ فروة رأس ناصر بأظافر يده"²⁶⁴ ومن ثم سرعان ما دبروا خطة بالتعاون مع المخابرات الإسرائيلية السرية، الموساد تقضى بتقديم يد المساعدة إلى القوات المناوئة لناصر في اليمن بإمدادها بالمساعدات المالية والأسلحة والتمس الموساد مساعدة جورج يونج نائب الرئيس السابق للمخابرات البريطانية وهو أحد رجال البنوك الحاليين العاملين مع كلينورت بينسون Kleinwort Benson كبريطاني مقبول لدى السعوديين لشن حرب عصابات ضد اليمنيين الجمهوريين ومسانديهم المصريين "حسبما يقول دوريل Dorril أجاب يونج قائلا "استطيع أن أجد لكم اسكتلنديا ثم قدم ماكلين Mclean إلى البريجادير دان حيرام الملحق العسكري الاسرائيلي الذي وعد بتقديم الأسلحة والأموال

261 - المرجع السابق ص 102

262 - سيل في حديث مع المؤلف

263 - مقتبس من باس ص ص 103-104

264 - المرجع السابق ص 273

والمدرّبين الذين يستطيعون أن يجيدوا تصنع الهوية العربية ويمرون بوصفهم عرباً وهي إستراتيجية سرعان ما اقتنصتها العربية²⁶⁵ السعودية بحماس. " ولجأت إسرائيل إلى اليهود اليمنيين الذين سبق أن لجئوا إلى إسرائيل ويستطيعون أن يقدموا أنفسهم بوصفهم يمنين عرباً وأرسلتهم إلى منطقة الحرب حيث عملوا بوصفهم مدرّبين عسكريين. وطبقاً لدوريل ساعدت المخابرات المركزية الأمريكية إسرائيل على تسريب عدد من هؤلاء الاسرائيليين ليقوموا بتدريب رجال العصابات على استخدام الأسلحة الحديثة. وقد حرص المدربون بطبيعة الحال على إخفاء حقيقة هويتهم الوطنية. كان كل من جهاز المخابرات الإيراني والمخابرات العربية السعودية أعضاء موهوبين في الجبهة المعادية لناصر في اليمن وساهمت إسرائيل كذلك في إمداد المتمردين بأسلحة سوفيتية سبق أن استولت عليها في صراعاتها السابقة مع الدول العربية ضمن الأسلحة الأخرى التي أمدتهم بها. واعتمدت كل من المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية على العقلية العملية لأعضاء الأسرة المالكة السعودية لتطوير تحالف سرى بين إسرائيل والعربية السعودية وإيران والأردن.²⁶⁶ وطبقاً لما ذكره هوارد تيتشر Howard Teicher وهو مسؤول أمريكي متعاطف مع إسرائيل تدخلت القوات الجوية الإسرائيلية لصالح العربية السعودية ضد مصر خلال الحرب مع اليمن: كتب تيتشر يقول: "حطت الطائرات الحربية الإسرائيلية جنوباً فوق البحر الأحمر لتحذر المصريين من الاقتراب من العربية السعودية.²⁶⁷"

في واشنطن اخذ البريطانيون يحثون كيندي على أن يتخذ موقفاً ضد عبد الناصر. وجاءت المزيد من الضغوط بطبيعة الحال من جانب إسرائيل على كيندي. وخلال الحرب في اليمن حاول الإسرائيليون أن يضغطوا على هؤلاء الذين كانوا يرون في ناصر أداة للاتحاد السوفيتي لبسط سيطرته على الخليج الفارسي وطرحوا إسرائيل نفسها بوصفها اخلص حلفاء الولايات المتحدة عداءاً للشيوعية في المنطقة.

على أن المزيد من الضغوط جاءت من شركات البترول الكبيرة التي ألقها التهديد الذي يمثله ناصر لبقرتهم الحلوب في المملكة العربية السعودية التي تدر لهم

265- ستيفن دوريل " المخابرات البريطانية ام 16 نيويورك ط 2000 ص 680

266 - المرجع السابق ص ص 680-685

267- Howard Teicher and Gayle Radley Teicher, Twin Pillars to DesertStorm - New York ,1993 ,p ,94-55

الثروات الطائلة فعلى مساعدتي كنيدي تدفقت جماعات الضغط من شركاء ارامكو وبتترول الخليج ، ويمثل الشركة الأخيرة كيرميت روزفلت الذي اخطر البيت الأبيض "أن مصالح الولايات المتحدة ومصالح ناصر لا يمكن أن تلتقي". وأرسل كنيدي مسئولاً تنفيذياً لارامكو- تيري دوس Terry Duce ليلتقى الملك فيصل كمبعوث خاص.²⁶⁸ وبدأ كنيدي يقوم بعمليات في اليمن و أماكن قريبة أخرى ضد مصر. يقول تشارلس فريمان السفير السابق أن " كنيدي كان يناور مستخدماً كل أنواع العمليات السرية وذوى القبعات الخضراء في العربية السعودية".²⁶⁹

انتهت محاولات الانفتاح التي كان يقوم بها كنيدي مع عبد الناصر. و الأمر الأكثر أهمية أن الولايات المتحدة قد وضعت نفسها بشكل مباشر ضد أحد الأهداف المركزية للقومية العربية: أن تتوحد مصر والدول العربية الأخرى التي تقتصر إلى البترول مع الثروة العربية الضخمة في العربية السعودية. كتب شيرين هنتر Shireen Hunter يقول: "القوميون العرب يعتقدون على سبيل المثال أن بترول العربية السعودية و بترول الدول العربية الأخرى الغنية بالبترول ملك للأمة العربية و ليس فقط للدول المنتجة و يجب أن يستثمر لصالح التطور الاقتصادي و أن يوضع في خدمة تحقيق أهدافها الأخرى.... و من ثم فإن العرب الراديكاليين كانوا يمثلون تهديداً قائماً بالنسبة للعربية السعودية".²⁷⁰ وفي المقابل فمن الممكن للمرء أن يتساءل: ماذا كان يمكن أن يحدث إذا قامت الولايات المتحدة بمناصرة ناصر أو احتمال تصرفاته و سمحت للنفط السعودي أن يقع في يدي ناصر في ستينات القرن العشرين وفي غمار الحرب الباردة. كان هذا اختياراً لا يمكن التفكير فيه. وقامت إدارة جونسون بتعزيز التحالف الأمريكي السعودي. وقد استأسد فيصل بالعرض الذي قدمه له جونسون بتزويد الحكومة السعودية بمساعدات عسكرية و تقنية لتحل محل تلك التي حصلت عليها أيام الملك سعود في بداية الحرب اليمنية. وعرضت مساعدات بـ 400 مليون دولار. مساعدات أمريكية و بريطانية لبناء قواعد عسكرية و إقامة بنية تحتية. و 100 مليون دولار مساعدة أمريكية لتزويد المملكة بسيارات ووسائل نقل عسكرية.²⁷¹ كانت المساعدة الأمريكية للسعودية على سبيل المساندة للجهود الضخمة التي بذلها الملك فيصل على المستوى الدولي ليجمع حوله المسلمين

268 - باس ص 114

269 - شارلس فريمان في حديث مع المؤلف ابريل 2004

270 - شيرين هنتر "مستقبل الإسلام والغرب" ط 1988 ص ص 151-157

271 - باس ص 141

فى الحرب الباردة. بدا الملك فيصل سنة 1965 جولة أخوية فى البلاد الإسلامية لجمع الحلفاء واصفا الماركسية بأنها: "عقيدة مخربة أنشأها شيطان يهودي حقير".²⁷² وأنه بات أكثر إصرارا من أجل القضاء عليها. و شارك الشاه دعوته لإنشاء حلف إسلامي و زار الأردن و السودان و باكستان و تركيا و المغرب و غينيا و مالي سنة 1966 طلبا للمساندة. فى الأردن ولول قائلا أن قوى الشر تخطط لشن حرب على الإسلام و المسلمين أينما كانوا وإنها تحاول أن تقضى على كل أثر للإسلام.²⁷³ و فى السودان قال فيصل: أما بالنسبة للشيوعيين فأنهم يهاجموننا لان الحركة الإسلامية سوف تؤدي إلى تدمير كل ما تعمل الشيوعية من أجله و بشكل خاص الكفر بالله سبحانه و تعالى ". و يلاحظ فيصل أن الاتحاد السوفيتي يضم مناطق إسلامية فيصيح قائلا: "الشيوعيون يخشون انتشار حركتنا لأننا سنصل إلى المناطق الإسلامية التي وقعت تحت سيطرتهم القاهرة".²⁷⁴

وفى باكستان اصدر نداء من أجل تشكيل كتلة إسلامية. بزعم أن الإسلام يواجه كثيرا من النكسات التي تمزق المسلمين بين يسار و يمين.²⁷⁵ و قامت باكستان وهي دولة تنتمي إلى الإسلام ومنظمة إلى حلفين رسميين مع الغرب وأرسلت قوات للعمل على استقرار السعودية وتأمينها من التهديدات الداخلية و الخارجية. بدءا من ستينات القرن العشرين اخذ الضباط الباكستانيون يشغلون وظائف هامة فى الجيش السعودي كمدربين و قادة واحداهم هو الجنرال ضياء الحق الذى سوف يقود فى باكستان انقلابا إسلاميا ضد ذي الفقار على بوتو.²⁷⁶

بالرغم من أن حملة فيصل من أجل التضامن الإسلامى لقيت استجابة من جانب الإسلاميين الأصوليين إلا أن مصر و سوريا والعراق كانت تعتبرها تهديدا لها. غير أن كتلة فيصل الإسلامية كانت محل تقدير لندن و واشنطن. ففي سنة 1966 اثني ضابط سياسي بريطاني فى السفارة البريطانية فى السعودية، اثني بوضوح على مجهودات فيصل و أضاف أن الولايات المتحدة توافق على ذلك أيضا:

272- هولدن وجونس ص 271

273 - وزارة الاستعلامات السعودية - مجموعة خطب فيصل (فيصل يتكلم)- غير مؤرخة

274 - المرجع السابق

275 - المرجع السابق

276 - هنتر - ص 159

"اننى اتفهم وجهة نظر فيصل التى تدعو إلى الاطمئنان فيما يتعلق بالجهود التى يبذلها....وقد سبق أن ناقشنا مع السفارة الأمريكية هنا هذا الموضوع معا على عدة مستويات.بمعنى أن مفهوم الإسلام كقوة عدوانية قد زالت تماما إلا بالنسبة لبعض السعوديين القدامى"²⁷⁷. على اى حال فقد كتب يقول انه يتفق تماما على أن خصومة السعودية موجهة فقط ضد الشيوعية و الصهيونية و عدد محدود من البعثات التبشيرية المسيحية.

وبينما كان نجم فيصل يصعد كان نجم ناصر يأفل إلى أن أتت نهاية الناصرية الساحقة سنة 1967 حينما، خلال ستة أيام مريعة من الحرب استطاعت إسرائيل أن تلحق الهزيمة بمصر و سوريا و الأردن وحلفائهم و احتلت القدس و أجزاء من الأقطار الثلاثة بما فى ذلك شبة جزيرة سيناء. سيعيش ناصر ثلاث سنوات أخرى و لكن حرب سنة1967 طعنت حيوية القومية العربية.

"كان ناصر قادرا على أن يصقل من جديد سلاح معاداة الاستعمار وأن يوقظ الشعب و لكن حرب سنة 1967 عصفت بهذه الأسطورة تماما لأنه خسر الحرب ليس فقط لأنه خسر الحرب و لكن لأنه خسرها بصورة مزرية " حسبما يقول ديفيد لونج David Long: "كنت فى ذلك الحين فى جدة حينما ابلغني رئيسي.القنصل السياسي "هذه هي نهاية ناصر."²⁷⁸

وضاعف فيصل جهوده لتنظيم كتلة من الدول الإسلامية. وجاب بلادا بعيدة كاندونيسيا والجزائر وأفغانستان و ماليزيا. كتب مؤلف "بيت سعود" يقول: "أصبح فيصل أكثر شهرة من اى وقت مضى فيما يتعلق بالمؤامرة الصهيونية-البلشفية"²⁷⁹، وكللت جهوده بالنجاح سنة1969 جزئيا بفضل التصرفات التى قام بها مواطن اسرائيلى مختل عقليا حاول إشعال النيران فى المسجد الأقصى. وسواء كان هذا العمل استفزازيا أو مجرد مسرحية فقد امسك فيصل بهذه الفرصة ليحث نخوة العالم الاسلامى ويدعو قاداته إلى الحضور إلى الرباط بالمغرب فيما سوف يتحول إلى أول مؤتمر قمة اسلامى عالمي.

ونظرا لأن صورة الأقصى كانت من القوة بحيث يتعذر حتى علي دولة مثل مصر تجاهل مثل هذه الدعوة فقد وجدت نفسها مضطرة لقبول هذه الدعوة وحضور

277- جولد ص 93

278- لونج فى حديث مع المؤلف

279 - هولن وجونز ص290

مثل هذا التجمع مما يعد انتصارا لفیصل²⁸⁰. وبالرغم من مقاطعة سوريا والعراق هذا الاجتماع فقد حضرته 25 دولة واتخذ مؤتمر القمة قرار بإنشاء منظمة المؤتمر الاسلامی وهو بمثابة أمم متحدة مصغرة للعالم الاسلامی، قابلة للاتساع وسرعان ما نجحت فی وضع المسألة الإسلامية فی مركز أجندة العالم الاسلامی دولة إثر دولة: فی باكستان وأفغانستان وتركيا والعرب عموما. وبالرغم من أن المقصود هو أن تكون ضد إسرائيل إلا أن الهدف الحقيقي لفیصل كان إقامة جبهة إسلامية ضد الاتحاد السوفییتی. كتب ديفيد لانج: " فی أواخر الستينات كنا لا نزال نحارب الشيوعية ومن ثم فقد دعمنا مساندة فیصل للإخوان المسلمين والشمولية الإسلامية." ويتابع القول: " كنا نريد أن نضعهم فی مواجهة ای حلفاء قد تكسبهم موسكو. وإذا كان بإمكان السعودية أن تنشئ إجماعا إسلاميا مؤسسيا فإن هذا يكون أفضل."

كان لونج محلا سياسيا نابها ويتمتع بنبرة ساخرة قوية. فهو یقرر انه بالرغم مما كان واضحا بكل جلاء فإن معظم صانعي السياسة والمحليين الأمريكان لم يكن لهم سوى القليل من القدرة على اتخاذ القرار بل أنهم لم يكونوا یقدرون إطلاقا طبيعة الإسلام السياسي المتفجرة ؛ ويواصل لونج القول: " لم نكن نرى الإسلام، كنا نرى السعودية. لم نكن نرى فی الإسلام السياسي تهديدا استراتيجيا لنا. صحيح اننا كنا نرى رجالا سیئین یفعلون أشياء سيئة لليسار ولناصر ولكنهم یحاربون الحمر، ومن ثم فإننا لم نر فی الإسلام السياسي ای خطر علينا."

فی سنة 1970 كان لونج یعمل محلا فی مكتب المخابرات والأبحاث التابع للإدارة الأمريكية وكان لديه إحساس بأن الطاقة الكامنة فی الإسلام السياسي يمكن أن توجه يوما ما فی الاتجاه المضاد لأمريكا، ولكن أحدا ما لم یصغ إليه، یقول لونج: " سنة 1970 كنت أعمل فی مكتب المخابرات والأبحاث وحاولت أن أكتب عن الإسلام ولكن أحدا لم یعرنی التفاتا، فشعرت انه لا يزال هناك أناس لا یسرهم ما أقول ولا یشعرون بأهميته ولا يزالون یركزون انتباههم على مسألة معاداة الاستعمار مع أن حرب 1967 قد حطمت أسطورة ناصر. ولكنني كنت أرى أن هناك الكثير من الأوهام فیما يتعلق بقضية القومية العربية وهو ما لا یراه معظم الناس. وشعرت أن هؤلاء الناس، طالما أن الهزيمة لم تقهرهم بعد سوف یتشبثون، عاجلا أم آجلا بشئ ما، وان هذا الشئ قد يكون هو الإسلام. لقد شعرت بأن الإسلام

280- Willard A. Beling , King Faisal and the Modernization of Saudi Arabia (London ,1980) , p. 190 .

سيكون هو النموذج الجديد " البديل". غير أن الذين فى القمة كانوا لا يزالون يتبعون المخطوطات القديمة.كنت اشعر بأن التحرر من هذا الوهم المسمى القومية العربية والناصرية قد بدأ يخبو. ولكن الشكوك أخذت تراودني بعمق بأنه لن يكون هناك استمرار للناصرية، وستنشأ حركة انتقالية بديلة يمكن أن تستجيب لدواعي السخط القائمة. ولم أر أحدا يتقدم ليفعل ذلك سوى الإسلام.²⁸¹

إن الهزيمة العربية فى حرب 1967 قد شجعت على إحياء حركة البعث الإسلامى. لقد أدت الخسائر الفادحة إلى بروز أسئلة ملحة حول مستقبل العالم العربى. لقد أثارت بذور الغضب بين شعوب البلاد المعنية وأثارت دوامات فى السياسات العربية. فمن جانب وخلال الفترة من 1967-1970 سقطت عدة أنظمة عربية فى ابدى الوطنيين ذوى الميول اليسارية. فى سوريا استولى حافظ الأسد على السلطة وأطاح القذافى بملك ليبيا واستولى جعفر نميري على السلطة فى السودان وصعد حزب البعث العربى الاشتراكي إلى السلطة فى العراق وكان الفلسطينيون على شفا الإطاحة بالملك حسين خلال الانتفاضة التى قامت فى أيلول (سبتمبر) الأسود سنة 1970. وبعض هؤلاء القادة كان يتخذ من ناصر ودوره نموذج البطولي. ولكن كانت هناك إيديولوجية أخرى تبحث إمكانية أن تحل محل النموذج الناصري القومي - الإيديولوجية الإسلامية.

أن عدم قدرة العرب الظاهرية على المنافسة مع إسرائيل وفقدان المزيد من الاراضى العربية (شبه جزيرة سيناء، غزة، مرتفعات الجولان، الضفة الغربية) كانت ضربات موجعة وقد استخدمها أعداء ناصر - بمن فيهم الإخوان المسلمون - ضده، واتهموا الناصرية والاشتراكية العربية بالفشل. وبدعوا ينادون بضرورة العودة إلى الإسلام بوصفه حلاً لأمراض العالم العربى. كانت هذه الرسالة غير مرتبطة بتوقيت معين فقد استخدمت سابقاً من قبل جمال الدين الافغانى وحسن البنا. ولكنها مع بداية كارثة 1967 ردد صداها ملايين العرب الغاضبين.

وإذ رأت السعودية سقوط العراق وليبيا والسودان نتيجة الانقلابات أضحت السعودية والولايات المتحدة فى حالة يأس من إمكانية احتواء التغييرات المدوية فى العالم العربى ولم يكن اقلها نمو قوة الحركة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية وراهننا على الإسلام المحافظ كنقيض للناصرية.

281 - لونج فى حديث مع المؤلف.

بعد ثلاث سنوات فى خضم حرب أيلول الأسود فى الأردن توفى جمال عبد
الناصر وحل محله أنور السادات. كانت وظيفة السادات كنائب لرئيس جمهورية
مصر خلال احد عشر عاما بمثابة نعمة للرياض وواشنطن، فبوصفه عضوا سابقا
فى الإخوان المسلمين ونائبا لناصر لمدة كبيرة أقام الرئيس المخادع حلفا مع العربية
السعودية وقمع اليسار المصري وأعاد الإخوان المسلمين ثانية ظافرين إلى القاهرة
وأعاد أخيرا وضعية مصر بالنسبة إلى الولايات المتحدة وإسرائيل. وسوف يقوم
السادات بتغيير مسار التاريخ. ومن أجل ذلك كله سوف يموت بيد القتلّة الإسلاميين.

*

الفصل السادس

أتباع الساحر

فى السبعينات وبارشاد كمال أدهم رئيس جهاز المخابرات السعودية أعاد السادات الإخوان المسلمين من جديد إلى مصر. وإذ كانت الولايات المتحدة قد تعودت العمل مع العربية السعودية فإن صعود الإسلاميين لم يقلقها. وفى الواقع فإن الولايات المتحدة كانت متحمسة للعمل مع أنور السادات لإعادة مصر من جديد إلى جانبها فى الحرب الباردة. كان صانعو السياسة والدبلوماسيون وضباط المخابرات الأمريكية قد شجعوا السادات على إعادة اليمين الإسلامى سواء بالرضا أو السكوت.

على إن السادات فى الحقيقة فتح أبواب جهنم، فبمجرد أن أطلق سراح الإخوان المسلمين لم يعرفوا حدودا. ومع عودتهم إلى دار السلفية عملوا بكل حمية من أجل نشر نفوذهم على اتساع العالم. وكانت النتيجة عميقة ومميّنة ليس فقط فيما يخص الرئيس المصرى.

بالتوازي مع نمو اليمين الإسلامى فى مصر، قام السادات بدور بارز فى مساعدة أمريكا على تفعيل وتوسيع سلطتها فى الشرق الأوسط. فى ظل ناصر كانت مصر أمة على خلاف مع الولايات المتحدة، وكان هناك آلاف من القوات السوفييتية بمن فيهم الفنيين والمستشارين يساندون القوات المصرية، وفى الأفق كانت تلوح نذر حرب ضارية على طول الحدود المصرية الإسرائيلية. كانت كل من مصر والولايات المتحدة تفتقر حتى إلى مجرد علاقات دبلوماسية عادية. ولكن السادات أنشأ علاقات سرية مع أدهم والمخابرات المركزية الأمريكية وهنري كيسنجر مستشار الأمن القومى للولايات المتحدة. وفى خلال سنة من اعتلائه السلطة وفى سنة 1972 فاجأ موسكو بطرد القوات السوفييتية. وبعد حرب رمضان سنة 1973 التى شنت بالتنسيق مع العربية السعودية ونظمت حول شعارات إسلامية أكثر منها عربية قومية، أعادت مصر والولايات المتحدة علاقاتهما. فى سنة 1977 طار السادات إلى القدس، متسببا بذلك فى شق العالم العربى وبادئا المفاوضات مع إسرائيل مما أدى إلى توقيع اتفاقية كامب ديفيد المصرية - الإسرائيلية. بحلول الثمانينات أصبحت مصر هى الحليف الأول بين الدول العربية للولايات المتحدة

الأمريكية وانشغلت في مساندة جهاد الولايات المتحدة في أفغانستان، وزودت الولايات المتحدة بقاعدة للنفوذ الأمريكي في منطقة الخليج الفارسي الغنية بالبترول. حتى بالنسبة لمعظم خبراء الولايات المتحدة في شئون الشرق الأوسط وأكثرهم حنكة، كان تحول مصر من عدو إلى حليف أمرا يصيب المرء بالدوار.

في بادئ الأمر لم يكن أحد يتوقع من السادات شيئا ما سوى قلة من الناس. فلثلاثين عاما خلت كان السادات يعمل في ظل عبد الناصر. كان عضوا في جماعة الإخوان المسلمين ولعب دور الوسيط بينهم وبين القصر وبينهم وبين حركة الضباط الأحرار. وبعد الانقلاب الذي قام به ناصر عمل السادات بوصفه ممثل عبد الناصر في الاتصال مع الإخوان ثم قام بدور السفير غير الرسمي لمصر إلى الإسلاميين على نطاق العالم، ولكنه سواء بالنسبة للمصريين أو مسئولى الولايات المتحدة لم يكن السادات يبدو أكثر من شخصية ثانوية. بعد وفاة ناصر في أكتوبر سنة 1970 كان ينظر إلى السادات عموما بوصفه مجرد شاغل وظيفة يحتل بصفة مؤقتة كرسي الرئاسة ولن يلبث حتى يطاح به في معركة خفية تجرى من وراء الستار في القاهرة من أجل السيطرة على السلطة " كانت التوقعات بالنسبة للسادات في الولايات المتحدة، على نحو ما يقول ديفيد لونج المسئول السابق في الخارجية الأمريكية أنه: " مجرد فقاعة هوائية وأنه لم يكن سوى نائب الرئيس المتلعثم".²⁸²

في سيرته الذاتية "البحث عن الذات" كتب السادات أن "المبعوث الأمريكى اليوت ريتشاردسون عاد إلى واشنطن بعد زيارته إلى القاهرة لتقديم واجب العزاء في وفاة عبد الناصر وتنبأ بأن السادات لن يستمر في السلطة لأكثر من أربعة أو ستة أسابيع".²⁸³

في مصر واجه السادات معارضة قوية بما فيها المعارضة الوطنية الناصرية التي كانت لديها شكوك قوية في السادات وكذلك هؤلاء الذين يساندهم السوفييت أو الموالين لهم فضلا عن ان السادات نفسه لم يكن يستند إلى قاعدة سياسية أو مؤسسية حقيقية. ولكن السادات لم يتمكن من الاستمرار فقط بل ونجح أيضا في إدارة سياسة تتجه بمصر إلى النقيض في سياستها الخارجية والداخلية. فبينما وثق ناصر علاقاته مع كل من سوريا والعراق والجزائر، احتضن السادات الملكيات المحافظة في العربية السعودية والخليج. وبينما اعتمد ناصر على الاتحاد السوفييتي لتوريد السلاح

282 - David Long في حديث مع المؤلف - ابريل 2004

283 - أنور السادات. "البحث عن الذات" In Search of Identity ط 1977 نيويورك ص 215

وتبنى سياسة عدم الانحياز دوليا، قام السادات بتمزيق علاقاته مع الاتحاد السوفيتي ودفع بمصر إلى مصاف الكتلة التي تقودها أمريكا في الحرب الباردة. وبينما عمل ناصر على تعزيز مكانة مصر في العالم الثالث إلى جانب يوغسلافيا والهند والدول الإفريقية ودول أمريكا اللاتينية، اتخذ السادات مسار سياسة خارجية انفرادية تتمحور حول مصر.

عمل السادات على تقوية دعائم حكمه المتداعي بإطلاق قوى اليمين الإسلامي واستخدمه كمطرقة ضد اليسار مستعينا بالمساعدة المالية السخية التي قدمتها العربية السعودية. وعلى عكس ناصر الذي كبح جماح الإخوان المسلمين وعمل على تحجيم قوة الجناح اليميني الإسلامي في مصر، قابل السادات عودة الإخوان المسلمين من المنفى بالترحاب وساعد على استعادة تنظيم الإخوان لقوته وتواجده في الجامعات والاتحادات المهنية والإعلام. قبل السادات كان الإسلاميون في معظم الأحيان متطرفين وهواة وراديكاليين ومحايدين ولكن بعد السادات أصبح الإخوان المسلمون وجناحهم الشبابي الأكثر راديكالية، أصبحوا جزءا من المنبع الأساسي لمجريات العمل السياسي في مصر.

هذا التغيير الشامل الذي حدث في سبعينات القرن العشرين كان مبعث دهشة ومفاجأة لهؤلاء الذين تعودوا على السفر إلى مصر بين حين وآخر. ففي المدارس والشوارع والمساجد والصحافة كانت الدلالات واضحة على الحضور الواضح والمتنامي للأصولية الإسلامية. يكتب ميخائيل دون المحرر بجريدة الشرق الأوسط انه لم يتمالك نفسه من الدهشة إزاء التحول المفاجئ الذي حدث في السبعينات: "لقد حدث تغير دراماتيكي. كان الناس ملتحين في كل مكان. كانت هناك أشياء يطلق عليها مجلات وصحف باسم الإخوان المسلمين، وكان الناس يرتدون الجلابيب البيضاء والمساجد مزدحمة ويتدفق الناس منها إلى الشوارع".²⁸⁴ والطلبة يتدافعون للانضمام إلى الجماعات الإسلامية وآلاف المساجد تقام والبنوك التابعة للإخوان المسلمين والمشاريع تنمو بسرعة وتتدفق عصابات البلطجة التابعة للإسلاميين لتخيف المعارضين السياسيين.

في حقيقة الأمر كان هذا بمثابة قبلة الموت بالنسبة للسادات. في الظاهر كان اليمين الإسلامي يعمل كحليف للسادات، ولكن شيئا فشيئا وأكثر فأكثر اخذ يتحول ضده خاصة بعد الاتفاقية المصرية الإسرائيلية. في مصر أساء السادات تقدير مدى عمق وعنف المعارضة الإسلامية النامية خاصة بين الأجنحة الإرهابية.

فى الولايات المتحدة فشلت الإدارة والمخابرات المركزية الأمريكية فى إعطاء الاهتمام اللازم لخطورة اليمين الإسلامى واعتمدتا بدلا من ذلك على تأكيدات المصريين انه تحت السيطرة. وفى الوقت الذى كان فيه السادات يتعرض للاغتيال سنة 1981 بواسطة الطلقات التى صوبها نحوه أعضاء فى احد تنظيمات الإخوان الجهادية، كانت ضرام هبة عنيفة تتقد تحت الرماد. اغتيل عدد من مسئولى الحكومة وروع السياح وهوجم المسيحيون واغتيل عدد من المثقفين العلمانيين المصريين أو اضطروا للصمت.

مرة أخرى تعود مصر لتكون القاعدة الأساسية لعمليات الإخوان المسلمين.

السادات يطلق سراح الإخوان

لم يكن احد مرتبطا بعملية إعادة هيكلة السياسة المصرية التى قام بها السادات بمثل ارتباط كمال ادهم رئيس المخابرات السعودية. كان ادهم يعمل فى القنوات الخفية لهنرى كيسنجر مستشار الأمن القومى فى الإدارة الأمريكية، وكان مشغولا بإعداد المسرح لإمبراطورية الحرب الباردة الأمريكية فى الشرق الأوسط.

قبل وفاة ناصر كانت العربية السعودية والكويت وعدد آخر من بلدان الخليج الغنية بالنفط قد وضعت أقدامها فى مصر بعد الهزيمة سنة 1967 مقدمة الوعود بالمساعدة لذلك البلد المنكوب فى محاولة لتقوية العلاقات السياسية. وبدأت السعودية فى مساندة الإخوان فى مصر. كان الإخوان المسلمون ينتقدون عبد الناصر بدعوى افتقاره إلى التقوى وقمعه للإسلام وان ذلك هو سبب النكسة والانكسار الذى أصابنا فى الحرب، وبدؤوا يثيرون الناس ضد ناصر. كتب رينارد شولتز: "بدأت الحملة السعودية تؤتى ثمارها ويحس بها الناس أثناء المظاهرات التى قام بها الطلبة فى القاهرة فى صيف 1969. فأول مرة منذ سنوات ظهر المعارضون علنا باعتبارهم (إخوانا مسلمين) وطالبوا بمعركة حاسمة ضد أنشطة النشاط اليسارى والشيوعى"²⁸⁵ بعد وفاة عبد الناصر كان لدى فيصل شكوك فى السادات، ولكن ادهم بذل ما فى وسعه من جهد لإقناع الملك الذى كان يتمسك دائما بنظرية المؤامرة الصهيونية البلشفية، انه حتى بافتراض أن هناك مؤامرة صهيونية بلشفية، فالسادات ليس "ناصرًا" آخر. كان لأدهم علاقات وثيقة بكل من فيصل والسادات. وبوصفه شقيق

285 - رينهارد شولتز "تاريخ حديث للعالم الإسلامى" مطبعة جامعة نيويورك 2000 ص 189.

عفت زوجة الملك فيصل، قاد رئيس المخابرات السعودي مجموعة من كبار المستشارين ليؤكدوا أن عضوية السادات في الإخوان المسلمين تؤكد على الأقل ميوله اليمينية²⁸⁶. في ذات الوقت كان لأدهم صلات عمل بالسادات. ولأنه يدرك أن الرئيس المصري ذواقة للأشياء الجميلة في الحياة فقد أوحى إليه بأن السعودية تستطيع أن تزوده بها. في الستينات كان رئيس المخابرات السعودية قد أقام سلسلة من المشاريع المشتركة مع السيدة جيهان زوجة أنور السادات معطيا بذلك الرئيس المصري الحافز لعلاقات أوثق بين مصر والرياض.²⁸⁷ ومنح الملك فيصل أدهم الترقية التي تؤهله ليكون حلقة الوصل بينه وبين السادات. بعد أقل من شهر توفي عبد الناصر وأرسل فيصل أدهم إلى القاهرة. من الواضح إن أدهم لم يصل إلى القاهرة فقط من أجل أن يحمل إليها وعود السعودية بالمساعدة ولكن أيضا تأكيدات أمريكية بأن واشنطن سوف تساعد مصر على استرداد أرضها من إسرائيل إذا قام السادات بفك الارتباط مع موسكو وأمر بانسحاب القوات السوفيتية من مصر.²⁸⁸

في أوائل سنة 1971 أصبح لأدهم تواجد ملحوظ في العاصمة المصرية. يلاحظ محمد حسنين هيكل الصحفي الموالى لناصر ورئيس تحرير جريدة الأهرام سابقا وكان السادات قد اختاره ليكون وزيرا للاستعلامات سنة 1970 ولكنه استقال من الحكومة بعد إن اختلف مع السادات سنة 1974، يلاحظ هيكل أنه "لم يكن هناك ثمة شيء يمكن إن نطمئن به الروس"²⁸⁹ فأدهم لم يكن يتصرف بوصفه حلقة اتصال مع فيصل ولكنه كان يعمل سرا لإدارة الاتصالات بين السادات وكيسنجر.²⁹⁰ يصف كيسنجر في مذكراته العلاقات مع السادات فيلاحظ إن الدور السعودي مكن السادات ونيكسون من إبقاء الاتصالات بينهما معا، متجاهلين "وزير الخارجية في كلا الطرفين"²⁹¹ في ذلك الوقت لم يكن للولايات المتحدة سفارة في القاهرة وكانت مصر مثلها مثل سائر معظم الدول العربية قد قطعت علاقاتها مع الولايات المتحدة بعد حرب 1967 بينما لم تقم السعودية بذلك. ومن هنا أصبحت السعودية في الحقيقة هي همزة الوصل في العلاقات الأمريكية المصرية في بواكير السبعينات.

286 - David Holden and Richard Johns - نيويورك ط 1981 ص 289

287 - المرجع السابق

288 - المرجع السابق ص 292

289 - محمد هيكل "أبو الهول والقوميسار" ط 1978 ص 219

290 - David Holden and Richard Johns - نيويورك - ص 293

291 - Henry Kissinger , The White House Years, London, 1979 ,p. 1293

فى مايو 1971 أقدم السادات على اتخاذ خطوته الأولى لتدعيم سلطته ولتفريغ الحكومة من الناصريين الموجودين فيها، معلنا إن لديه الدليل على وجود مؤامرة لاغتياله بواسطة المسؤولين السابقين فى عهد ناصر، ممن أطلق عليهم (عملاء السوفييت). لقد وجه السادات ضربته وشاركه اشرف مروان الذى كان على صلة صداقة حميمة بأدهم. قبض السادات على المتحدث باسم مجلس الأمة وعلى وزير الحرب ووزير الاستعلامات ووزير شئون الرئاسة وهم أعضاء فى اللجنة المركزية ومسؤولين قياديين آخرين ممن كانت "شعاراتهم الاشتراكية تافهة متنافية...مع عقيدتنا الدينية"²⁹² وأطلق السادات على هذه الاجراءات "الثورة الثانية". بعد عام وبالتنسيق مع ادهم أمر السادات بطرد القوات السوفييتية.

يقول رايموند كلوز الذى كان يعمل مع المخابرات المركزية الامريكية قريبا من كمال ادهم، يقول كلوز: "كمال ادهم حث السادات على طرد الروس من مصر"²⁹³. بطبيعة الحال كان السادات نزوعا للقيام بذلك، ولكن ادهم قدم المال ومساندة الإسلاميين.

بناءا على دعوة السادات وبمساندة كمال ادهم والملك فيصل بدأت قيادة الإخوان المسلمين تعود إلى القاهرة. وبالإضافة أطلق السادات بعد 1971 سراح أعداد كبيرة من الإخوان المسلمين السجناء، وكثير منهم كان مستاء وأكثر استعدادا للقيام بإعمال عنف والعمل السري المنظم. وسرعان ما اختفوا من اجل بناء حركتهم بينما فضل البعض الآخر سيما القدامى الذين ينتمون لأجيال سابقة إن يبدووا العمل كحلفاء علنيين للرئيس المصري الجديد، وكان ادهم هو عمر التلمسانى الذى اطلق سراحه سنة 1971 وكان محاميا وهو رئيس التحرير التالى لمجلة (الدعوة) جريدة الإخوان المسلمين وسوف يغدو المرشد العام للجماعة، بعد ان أطلق سراحه توجه الى القصر الرئاسى مباشرة ليقدم مع غيره من الأعضاء الذين أطلق سراحهم الشكر للرئيس السادات فى سجل التشريفات.²⁹⁴

292- السادات ص 224

293 - Raymond Close مقابلة مع المؤلف ابريل 2004

294 - Gilles Kepel. Muslim Extremism in Egypt - California. 1993, p.105.

الجماعات الإسلامية

خلال هذا العقد أعيد هيكلة تنظيم الإخوان وقسم الى عدة اجنحة وتيارات متنافسة. وبدا اعضاء الحرس القديم، ظاهريا على الاقل يضعون برنامجا للتحديث. كثير من مسئولى الإخوان القدامى الذين كانوا قد هربوا الى السعودية عادوا الى مصر كرجال اعمال ناجحين ويرتبطون بعلاقات جيدة مع غيرهم من رجال الأعمال الآخرين. على العكس من ذلك كان الشباب المتقدم حماسا من اعضاء الإخوان سيما الملتحقين بالجامعات الذين أسسوا نوادي وتنظيمات الجماعات الاسلامية الشبابية. هذه الجامعات حصلت على المساندة الكاملة من السادات والمخابرات المصرية وتنامت بسرعة واطلق عليها اسم "الجماعات الإسلامية"²⁹⁵. ونظرا لان السادات لم يعتمد تنظيم الإخوان بشكل رسمي فقد أخذت الحركة تنمو بشكل عشوائي بلا قيادة مركزية.

كانت مساندة الزعيم المصري لنمو الجماعات الاسلامية فى الجامعات طريقة أخرى يلجأ إليها لاستخدام الإسلام لتقوية سلطته. وحسبما ذكر جون اسبوسيتو فان "السادات، من اجل ان يتفادى الاستمرار تحت جناح الناصرية، غير اتجاهه وأعلن انه منحاز الى الإسلام." ويضيف اسبوسيتو:

"اتخذ السادات لنفسه لقب الرئيس المؤمن تيمنا بلقب الخليفة المسلم الذي يطلق عليه "أمير المؤمنين"، وكان يبدأ وينهى خطبه بآيات من القرآن، ويذيع التلفزيون المصري صورته فى المسجد وتركز الكاميرات على "الزبيبة" فى جبهته التى تدل على انه مواظب على الصلاة."²⁹⁶

كانت الجماعات الاسلامية فى الجامعات تتلقى سرا الدعم من جانب البوارجى السري التابع للسادات. يقول ليل انه "بعد ديسمبر 1972 اخذت الجماعات الاسلامية تنمو بشكل متصاعد فقد وجدوا أخيرا مفتاح النجاح: الكتمان، التعاون التكتيكي مع النظام من اجل إنهاء سيطرة اليسار على الجامعات"²⁹⁷، ومثلها مثل سائر الجماعات الاسلامية كانت تتبع تكتيكات عنيفة - العنف والترهيب فى مواجهة منافسيهم، وكانوا يتلقون باستمرار الدعم المالى من السعودية ومن رجال الاعمال

295 - الجماعات الإسلامية

296 - John Esposito, Unholy War: Terror in the Name Islam New York 2002-p,86.

297- كيبييل ، مرجع سابق ص 133

اليمنيين المصريين. وأصبحت الجماعات الإسلامية هي القوة السائدة في الجامعات المصرية خلال رئاسة السادات. "ويضيف: "لقد انشأوا الحركة الإسلامية الوحيدة المرتبطة حقيقة بمنظمات جماهيرية." وسرعان ما تصادمت الشعارات المطالبة بالديمقراطية بشعارات الله أكبر في مظاهرات الطلبة. وبعد عدة سنوات أصبحت الجماعات الإسلامية هي التي تبسط قبضتها فعلا على الجامعات المصرية وترغم الجماعات اليسارية على الاختفاء.²⁹⁸

لعب محمد عثمان إسماعيل وهو أحد مساعدي السادات دورا بالغ الأهمية في فرض سيطرة الجماعات الإسلامية ونشاطها وهو محام سابق عمل سنة 1971 بالقرب من الرئيس المصري عندما كان يناور وبعد ذلك سجن منافسيه الذين كانوا يقفون إلى يساره. يعتبر إسماعيل بمثابة الأب الروحي للجماعات الإسلامية في القاهرة منذ أواخر 1971 وفي مصر الوسطى بدءا من 1973.²⁹⁹ في سنة 1973 تم اختياره محافظا لأسبوط وهو يقع تحت سيطرة الإسلاميين ومن خلال موقعه كمحافظ مضى يحث الجماعات الإسلامية على محاربة الشيوعيين، الأمر الذي يذكر بما كان يحدث في الأيام الأولى للإخوان المسلمين حينما كان الجواله مفتولي العضلات والجهاز السري للإخوان يخرجون من المعسكرات الرياضية للولاد والشباب. كانت سبعينات القرن العشرين تشهد عصر الجماعات الإسلامية المنظمة والمدعمة وتتولى الدولة رعايتها في المعسكرات الصيفية. تم تنظيم أولها في جامعة القاهرة سنة 1973 حيث أرسل السادات مسئولا حكوميا كبيرا رمزا للتأييد الذي تحظى به من النظام.

أخذت معسكرات الصيف تعقد بمزيد من الانتظام خلال السنوات العديدة التالية. وأعاد السادات تنظيم اللائحة الطلابية من أجل تمكين الجماعات الإسلامية من فرض سيطرتها على المؤسسات الهامة. وأعلن أحد المراسيم الحكومية أنه منذ الآن فصاعدا فإن الهدف الأساسي للاتحاد الجامعي هو "تعميق القيم الدينية لدى الطلاب". كان الاستيلاء على اتحاد الطلبة هو خطوة أولى تتبعها خطوات: اتحاد الأطباء، اتحاد المهندسين، وسوف تسقط الاتحادات الأخرى كذلك وكذلك الحال بالنسبة للمهن الأخرى وكذلك بطبيعة الحال بالنسبة للأزهر المركز الإسلامي والحصن الدفاعي الذي سوف يسقط مرة أخرى ويقع تحت سيطرة اليمن الإسلامي

298- المرجع السابق ص 129

299 - كثير من المعلومات والاقتباسات في هذه الفقرة مقتبسة من كيبييل Kepel ، صفحات 133-140 ويعتبر عمله بشأن الإسلامية في مصر خلال هذه الفترة مرجعا معرفيا. definitive.

منهيا بذلك الدور الذي كان يقوم به وينمو كمؤسسة دينية متوازنة لا تسيطر عليها الأصولية.

فى سنة 1973 وقعت منظمة العالم الاسلامى، سلاح السعودية القوى الذى تستخدمه فى جهودها من اجل الاسلامة، وقعت ميثاقا مع الأزهر جاذبة هذه المؤسسة العريقة باتجاه القطب الوهابي³⁰⁰. فى نفس العام أنشأ السادات وظيفة نائب رئيس الوزراء للشئون الدينية كما أنشأ هيئة عليا من اجل صياغة القوانين طبقا للشريعة الاسلامية. وقدم الإسلاميون مشروعات قوانين للمجلس لمنع الكحوليات، ولتطبيق العقوبات المؤسسة على الشريعة ولجعل دراسة الدين إجبارية فى المدارس.³⁰¹

يقول عبد المنعم سعيد مدير مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية ان تأثير العربية السعودية فى مصر خلال السبعينات كان متغلغلا. توجه عدد من المصريين للعمل بالسعودية وعادوا منها يحملون وجهات النظر المحافظة للثيولوجيا الوهابية. ويضيف بان السعودية مولت كذلك بسخاء المؤسسات المصرية العطشى للتمويل. "لقد حركت الازهر باتجاه اليمين وأصدرت مطبوعات تحمل وجهات نظر شديدة المحافظة. وقام عدد من السعوديين المنتمين الى منظمات المجتمع المدني بالتبرع بالأموال للمساجد وشكل هذا أيضا دافعا لها للتحرك يمينا. ويضيف سعيد "ان عددا كبيرا من الصحفيين المصريين كان على قوائم الدفع السعودية، سرا بطبيعة الحال." ويلاحظ سعيد كذلك " ان التأثير السعودي كان واضحا كذلك فيما يتعلق بالقانون" لقد تغير التفكير القانوني أيضا واختلف عما كان عليه فى العشرينات والستينات حيث كان يتميز بالبساطة والتتوير، فهؤلاء الذين كانوا فى السبعينات فى الخليج بدأوا يعودون ومعهم تفسيرات ضيقة الأفق للقانون. وبدأت نظرة المصريين للسعودية تتغير كذلك، كانت السعودية تخشى باستمرار التأثير المصري على السعودية. الآن أصبح الأمر بالعكس. بدأت العادات فى التغير وأخذت النظرة للحياة تتغير وازداد الفصل بين الذكور والإناث"³⁰²

300 - Schulze , p.201

301 -Daniel Pipes ,In the Path of God ,New York 1983 ,p.209

302 - عبد المنعم سعيد مقابلة مع المؤلف يوليو 2004

حرب رمضان

فى اكتوبر 1973 شن السادات هجوما مفاجئا بالتنسيق مع سوريا على الأقاليم التي تحتلها إسرائيل فى كل من مصر وسوريا. ولكن حدث تحول تسبب فى إفشال الهجوم العسكري، ولكن آثاره السياسية كانت تمثل نجاحا مدويا. ونظرا لأنها كانت مبنية على أسس إسلامية وبدأت فى شهر رمضان وهو أقدس الشهور لدى المسلمين فقد أوقدت الحرب جذوة الحماس الاسلامى فى مصر.

بعد الانتصارات الأولية فى بعض المعارك الميدانية حيث استطاعت القوات المصرية ان تعبر قناة السويس وتقدمت تجاه القوات الإسرائيلية فى شبه جزيرة سيناء، تعرضت مصر لنكسات كبيرة عندما تمكن شارون من شن هجوم مضاد. وحاصر الإسرائيليون الجيش المصري بأكمله غرب قناة السويس وقطعوا الإمدادات عنه مما تسبب فى ظهور بوادر مواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي. ولاحق فى الأفق نذر حرب نووية عالمية ربما كانت اخطر ما واجهه العالم من أزمات خلال الحرب الباردة، وبدأ الأمر اقرب ما يكون الى معركة فاصلة.

غير انه فيما يتعلق بالسادات كان للحرب نتائج هامة، إذ أنها أولا أدت الى دخول الولايات المتحدة حلبة الصراع من اجل ترتيب وقف إطلاق النار ثم اتفاقيات الفصل بين القوات المصرية والإسرائيلية، الأمر الذى أدى الى تقوية التحالف المصري الأمريكى فى السبعينات. وثانيا أكدت العلاقات المصرية السعودية مما أدى الى فرض المقاطعة العربية والحظر العربى على تصدير البترول خلال الفترة 1973-1974. ومثلها مثل نظيراتها من الدول الغنية بالبترول من اعضاء أوبك وجدت السعودية نفسها وقد تجمعت لديها فجأة موارد حقيقية غير محدودة تتيح لها ان تدفع بقضية الأصولية الوهابية خطوات الى الإمام. وثالثا ان الحرب العربية الإسرائيلية سنة 1973 صقلت صورة السادات لدى جماهير المؤمنين المسلمين ودعمت قدرة الرئيس المؤمن على ان يلتحف برداء الرجل المقدس الذى يجاهد فى حرب مقدسة.

على أية حال فان حرب 1973 كانت من وجوه عديدة معلما يرمز الى إعادة ميلاد الحركة الإسلامية. فى مصر كان يرمز الى حرب أكتوبر بأنها "حرب رمضان" فقد أعدت القوات لتخوض المعركة تحت تأثير الحماس الذى تطلقه الأحاديث الاسلامية والشعارات الدينية حول تحرير المسجد الأقصى فى القدس.

ويلاحظ هيرمان ايليتس سفير الولايات المتحدة في القاهرة " ان القوات المصرية عبرت القناة وهي تصيح: "الله اكبر"³⁰³.

من الناحية الشكالية كانت حرب 1973 مخططة لتتأثر لهزيمة 1967. وحسب الدعاية التي أطلقها مناصرو السادات كانت الحرب مؤشرا على فشل الناصرية والاشتراكية العربية. كان أئمة المساجد منذ مدة قد ارجعوا السبب في الهزيمة الى افتقار ناصر الى الإيمان واستخفافه بتعاليم الإسلام. وعلى العكس من ذلك ومن اجل حشد اليمين الاسلامي لمساندته صور السادات انتصار 1973 الاسطوري باعتباره مؤشرا على قوة الإسلام. وبالرغم من حقيقة ان حرب رمضان لم تهزم إسرائيل وبرغم حقيقة ان مصر عانت من كارثة فقدان جيش بأكمله، فان حدث العبور المصري لقناة السويس توج باعتباره معلما. ومتعطين الى تحقيق النصر فقد اعتبر المسلمون المحافظون على اتساع العالم ان حرب رمضان شبيهة بالانتصارات الكبرى التي حققها الإسلام خلال عصوره الأولى حينما توسع الحكم الاسلامي ليشمل آسيا الوسطى واسبانيا وطرقت الجيوش الاسلامية أبواب فرنسا والنمسا. يمكن القول ان السادات لم يتوقع هزيمة إسرائيل أو حتى ان يحرر سيناء. لقد خططت حرب السادات كحرب "محدودة" تحركها اعتبارات سياسية صارمة. وحتى هذه اللحظة لا يعرف ما إذا كان بعض المسؤولين الأمريكيين قد اشتركوا مع السادات في التخطيط أو على الأقل تحملوا مسؤولية قعقة السلاح من اجل استكمال إعادة مصر الى جانب أمريكا في الحرب الباردة على حساب إسرائيل. ولكن ما هو مؤكد على أية حال ان المخابرات المركزية الأمريكية كانت على علم تام بخطط السادات الحربية، وكذلك كان كمال ادهم رئيس المخابرات السعودية. وفي الحقيقة قبل شن هذه الحرب بشهور عدة قام ادهم والمخابرات السعودية باطلاع المخابرات المركزية الأمريكية على الخطوط الرئيسية لخطة حرب رمضان بما في ذلك قرار العربية السعودية باستخدام ما يطلق عليه سلاح البترول، وقام مكتب المخابرات المركزية في السعودية وفق ما تمليه عليهم واجباتهم بإخطار واشنطن بكل ذلك³⁰⁴. تقول مارتا كيسلروهي من اكثر محلي المخابرات المركزية الأمريكية بصيرة في مجال الإسلام السياسي تقول ان الحرب كانت نقطة تحول:

" كانت حرب 1973 العربية الإسرائيلية تجري تحت علم الإسلام. وتشكل هذه الفترة علامة على تحرر الفكر العربي من إصار الأفكار الأوروبية بما في ذلك

303 - هيرمان ايليتس - مقابلة مع المؤلف ،ابريل 2004

304 - كلوز - مقابلة مع المؤلف

الشيوعية والبعثية والناصرية" وتضيف " في المقام الأول لم تكن هذه الأفكار هي المهمة، وما هو أكثر أهمية أنها لم تكن تعمل ومن ثم فإن فكرة ان تشن الحرب على أسس إسلامية كانت جد مقصودة: فأسماء الوحدات اعيد تسميتها والشعارات جرى تغييرها وهكذا، بحيث تعكس الشعارات الاسلامية. اننى ألاحظ صعود الإسلام السياسي على الأقل خلال هذه الحقبة³⁰⁵. غير ان عودة الإسلام السياسي الى مصر كان سلاحا ذا حدين. فتحت غطاء الإيمان والملابس المحافظة والأحكام التي تأخذ بالشرعية التي لا يحيط بها السادات ولا تلم بها المخابرات المركزية، تحت هذا الغطاء كانت تتجمع قوة جديدة وخطرة.

تأثير سيد قطب

عندما أوشك عقد السبعينات على الانتهاء خاصة بعد ان قام السادات برحلته الى القدس وبدأ المحادثات مع إسرائيل، أصبح اليمين الاسلامي اكثر راديكالية (تطرفا) وتحول الكثيرون منهم الى معارضة السادات أو اخذوا يتآمرون سرا. وبينما كان التحول في اتجاه اليمين الاسلامي يبدو فكرة ذكية من جانب السادات آنذاك، فقد كانت في الواقع ذكية اكثر مما ينبغي. فحتى حينما انتقد مجاهدو الجماعات الاسلامية المصريون منافسي السادات اليساريين فأنهم كانوا يقعون اكثر فأكثر تحت تأثير الراديكاليين من الأئمة الجدد الذين كانوا يعظونهم ليس فقط بان يقفوا ضد الشيوعية بل وكذلك ضد رسالة الغرب.

جاء المؤشر الأول على ان هناك ثمة خطأ ما سنة 1974، حينما قامت عصابة من المتطرفين الإسلاميين معظمهم من المصريين يقودهم فلسطيني، قامو باثارة تمرد دموي في الكلية الفنية العسكرية، وكان من المفترض ان يقود هذا الحدث الى اغتيال السادات. قتل جراء هذا كثيرون واعتقل آخرون كثير، وحمل السادات رسميا ليبيا مسئولية هذا التمرد. كان زعيم هذا التمرد صالح سرية وهو من سكان مدينة صغيرة بجوار حيفا في إسرائيل، وهي محل ميلاد مؤسس منظمة حزب التحرير الإسلامي، وهي جماعة يمينية شديدة التطرف تهدف الى استعادة الخلافة الاسلامية ولها علاقات واسعة بسعيد رمضان والإخوان المسلمين، وفيما يبدو كان سرية احد اعضاء هذا الحزب³⁰⁶، حسبما ذكر جيلز كيبل.

305 - Martha Kessler - مقابلة مع المؤلف - ابريل 2004

306 - لا يزال حزب التحرير الاسلامي موجودا ولكنه ترك الشرق الأوسط واتخذ من ألمانيا مقرا له ثم أقام قاعدة قوية له في آسيا الوسطى (السوفييتية سابقا)

كان سرية يقيم في الأردن حتى 1970، وقضى سنة في العراق ولكنه اضطر الى الفرار من بغداد حيث حكم عليه غيابيا بالسجن سنة 1972 بتهمة الانتماء الى هذا الحزب فشد الرحال الى القاهرة. اثر وصوله الى القاهرة بدأ يتردد على الإخوان المسلمين سيما المرشد الأعلى الهضيبي وزينب الغزالي فدائية الجماعة (الباسيوناري)، حسبما اطلق عليها المؤلف وهي إحدى شخصيات المقاومة الاسبانية ضد الفاشية) ونال ثقتها واجري مناقشات منتظمة معها³⁰⁷.

طبقا لعبد المنعم سعيد، حينما بدأ المحققون التحقيق وجدوا ما يبعث على القلق ويشير الى وجود انحرافات عميقة كامنة بين الطلبة:

" حينما اجرؤا عددا من المقابلات مع الطلبة وجدوا ان هناك الكثير من التغيرات داخل الكلية الفنية: صلوات اكثر من المعتاد، فصل بين الجماعات مؤشرات على التطرف" غير ان السادات كان من الإصرار على كسب الإسلام السياسي الى درجة انه لا المخابرات المصرية ولا المخابرات المركزية الأمريكية استطاعت ان تستدل على شيء من خلال ذلك.³⁰⁸

يعلق ايليتس قائلا: " كان التلمساني مرشد الإخوان في ذلك الحين من ضمن السجناء الذين اطلق السادات سراحهم. وكان قد أفرج عنهم على أساس أنهم سوف يسلكون مسلكا طيبا وقد فعلوا ذلك فعلا ولكن عادة ما كانت تظهر بين الحين والآخر مقالة في احد مطبوعاتهم تنتقد الحكومة وقد جرى مصادرتها لمدة شهر. كان السادات يرى ان مسألة السيطرة على تنظيم الإخوان لا يشكل مشكلة كبيرة."³⁰⁹

غير انه في حين بقى الإخوان المسلمون الرسميون هادئين بشكل معقول، فان المنظمات التي تعمل سرا والجماعات الاسلامية وما يتفرع عنها كانت تستعد للمعركة، فعلى امتداد السنوات المتوالية كان هؤلاء المجاهدون يثابرون على بناء قوتهم في مصر مستخدمين عادة أسلوب العنف والتربص أو الاغتيال. اخذ الكثير من الإسلاميين يعيشون على انفراد أو يتوجهون الى الصحراء لبناء حركتهم الخاصة، حسبما يقول محمد سعيد. "ولم تلاحظ المخابرات ذلك"³¹⁰. في سنة 1977 اغتال الإرهابيون الإسلاميون وزير الأوقاف السابق وبدأوا يواجهون القمع والاعتقال غير أنهم استمروا في الانتشار. وحينما صدم السادات مصر بذهابه الى

307 - كيبيل ص ص 92-94

308 - سعيد - مقابلة مع المؤلف

309 - ايليتس مقابلة مع المؤلف

310 - سعيد - مقابلة مع المؤلف

القدس سنة 1977 ليبرم صفقة مع مناحم بيجن رئيس الوزراء الاسرائيلي، اخذ
الإسلاميون في مصر بمن فيهم الإخوان المسلمون وعصابات الجماعات الاسلامية
تتجه الى المزيد من أشكال المعارضة الجهادية.

العديد من الإسلاميين المتطرفين كانوا إتباعا لسيد قطب الذي أعده ناصر
شنقا سنة 1966. خلال الستينات استطاع قطب ان يطور نظرية ثورية راديكالية
تساوى بين المسلمين الذين لا ينهجون النهج الراديكالي النصي الذي يؤمن به وبين
البدو البرابرة العرب الذين كانوا موجودين في الجاهلية قبل ظهور النبي. واستخدم
قطب وإتباعه هذه النظرية لتبرير اغتيال القادة العرب غير المخلصين. وبالرغم من
ان نظريات قطب كانت غير متسقة ومتناقضة فان بعض المستشرقين الغربيين
عظموا من شأنه باعتباره ناقدا فكريا للعلمانية في الشرق الأوسط. كان قطب
وكتابه "معالم الطريق" هو الملهم لأشد المتطرفين الإسلاميين المصريين (وأكثرهم
عنفا) ومعظمهم كانوا خارج متناول المخابرات المصرية والمخابرات الأمريكية.

حسبما يرى ايليتس فشل السادات في التنبه لاي خطر قد ينجم نتيجة تشجيع
جماعات اليمين الاسلامي الراديكالي، غير ان آخرين من نفس الدائرة المحيطة به
مباشرة بمن فيهم زوجته جيهان كان لهم وجهة نظر أخرى. تقول جيهان: "ان
السادات الذي كان عضوا سابقا في الإخوان المسلمين كان يتبنى وجهة نظر تقول
بان التأثير المتعظم للإسلام والإخوان المسلمين سيما في الجامعات لا يجعل منهم
اكثر من شباب يعبرون عن وجهة نظرهم الخاصة" ويضيف ايليتس: "انا أتذكر ان
العديد من الناس بمن فيهم زوجته كانوا يقولون له: "عليك ان تراقب هؤلاء الناس.
أنهم خطر ولكنه كان يكتفي بالتلويح بيده قائلا: "أنهم محض شباب ". كان ببساطة لا
يعتقد بان انشغالهم بالعقيدة وتنظيم الإخوان المسلمين يمكن ان يمثل خطرا. ولم يكن
بالاستطاعة ان يقتنع بواسطة عدد من وزرائه بأنهم يشكلون خطرا³¹¹

كذلك كان قليل من الدبلوماسيين ومسؤولي المخابرات المركزية من يدرك جيدا
ان اختراق الإخوان المسلمين للمجتمع المصري في أواخر السبعينات يشكل خطرا.
كما لم يدركوا أيضا كنه العلاقات الضبابية بين الإخوان المسلمين والجماعة
الاسلامية والجماعات السرية وأنصار سيد قطب. ولاحظ ايليتس وعدد من مسؤولي
المخابرات المركزية في مصر عملية "اسلمة مصر" ولكن كان من الصعب عليهم ان
يقروا ما وراء ذلك. على كل حال فان السادات كان يشجعهم ويبدو ان الزعيم

المصري كان يعتقد ان هذا لفائدة مصر ولا ضرر منه إطلاقاً. ولكن، حسبما يقول ايليتس، انه كان هناك "ثمة قلق خشية ان بعض العناصر في الحركة الدينية قد تسبب بعض المتاعب، وكنت اعتقد ان هذا شيء يجب وضعه في الاعتبار" غير ان ايليتس كان يعتقد ان الحكومة المصرية يمكن ان تسيطر على هذه الظاهرة وان العناصر الأكثر إعداداً والقادة المحافظين للإخوان المسلمين مثل التلمساني ضد التكتيكات العنيفة والأعمال الجهادية. وبحنكة يتساءل ايليتس: "صحيح ان التلمساني يرفض الراديكاليين (المتطرفين) ولكن هل هو يقصد ذلك حقاً؟". كان السفير يرى ان هناك انفصالا بين قيادة الإخوان المسلمين والجهاديين ولكنه لم يكن متأكداً من ذلك: "كان من الصعب التأكد من ذلك ومن ثم فقد كان على المرء ان يعتمد الى حد ما على تقدير الرئيس ووزرائه".³¹² ولم تكن المخابرات المركزية الأمريكية أسعد حظاً. يقول احد مسئولى المخابرات المركزية وقد قضى سنوات طوال في الشرق الأوسط، منها سنوات عديدة في القاهرة خلال السبعينات، يقول ان بعض العاملين في المخابرات المصرية حذروه بالا يستهدين بالخطر الذي يمثله الإسلاميون: "كان لي صديق في المخابرات المصرية وهو مسئول كبير فيها، قال لي: "عليكم أيها الناس ان تدركوا قوة المسجد. إننا سوف نفقد السيطرة ولن يثق الناس إلا بالمسجد".³¹³ ترى كاتى كريستيون التي التحقت بالمخابرات المركزية سنة 1971 وترأست مكتب المخابرات المركزية في مصر خلال الفترة من 1973-1977 - تقول ان الخطر الذي يمثله الإسلاميون في مصر خلال هذه الفترة لم يكن بالشيء الذي يقلق الوكالة. لقد سمعت عن الإخوان المسلمين بطبيعة الحال لكن لم يكن هناك إلا القليل من التركيز على الإسلام. كان من السهل جدا علينا في ذلك الوقت تجاهل الإسلاميين.³¹⁴ لم يكن هناك ثمة تساؤل حول السبب الرئيسي في تجاهل اليمين الاسلامي في مصر لان المخابرات ومسئولي الشرطة كانوا يرون انه من المناسب النظر الى الإسلاميين بوصفهم اعداء للسوفييت.

يلاحظ ايليتس انه عندما كان يباشر عمله كسفير للولايات المتحدة في مصر من 1974 بعد ان اعيدت العلاقات الدبلوماسية وحتى سنة 1979، كان من الصعب على السفارة ووكالة المخابرات المركزية ان تلتقى أو تتصل بالإسلاميين سيما

312- المرجع السابق

313 - ضابط سابق في المخابرات المركزية الأمريكية - مقابلة مع المؤلف

314 - Kathy Christison - مقابلة مع المؤلف مارس 2004

هؤلاء الذين بدؤوا بتبني سياسة معادية بوضوح للمواقف الحكومية. كانت الحكومة تتخذ موقفا غامضا فيما يتعلق بالاتصالات العلنية بين الولايات المتحدة والقوى المعارضة على أساس ان ذلك سوف يؤدي الى تدعيم موقف المعارضة باعتبار ان الولايات المتحدة تساندها. " حسبما يقول ايليئس " ومن ثم فقد كان على المرء ان يتعامل مع هذه الأشياء بحرص شديد وقابلتهم أثناء الاستقبالات التي ينظمها الآخرون"

خلال دبلوماسية الرحلات المكوكية التي كان يقوم بها كيسنجر أوائل 1973 أثناء الحرب العربية الإسرائيلية، وعدت الولايات المتحدة - حسبما يقول ايليئس - السادات بالا تقوم المخابرات المركزية الأمريكية بأى أعمال سرية ضد مصر، "ومن ثم فان النشاط المخابراتى الذي كان يمكننا القيام به كان محدودا" ويضيف "تستطيع ان تتحدث عن اتصالات سرية مع الإسلاميين ولكن كان من الصعب ان ترتبها"³¹⁵

وبالإضافة لم تكن المخابرات المركزية الأمريكية على استعداد لان تذهب الى مدى ابعد مع الملحقين من الأئمة الأصوليين ومع الجماعات الاسلامية ذات الأنشطة العنيفة. ويعبر ذلك عن مشكلة لازمت المخابرات المركزية لعقود ذلك أنها كانت تفتقر الى الخبرات اللازمة: عدد قليل من الموظفين غير الغربيين - عدد قليل من الذين يجيدون التحدث بالعربية - عدد قليل من الملمين بالتاريخ الاسلامى والثقافة الاسلامية. يحكى واحد ممن عملوا فى المخابرات المركزية الأمريكية فى الشرق الأوسط ولا يريد ان يعرف اسمه، يحكى قصة معبرة عن احد المجهودات التي بذلت للاتصال بالإسلاميين ولكن الفشل كان مآلها فيقول: " أتذكر اننى رأيت هذا المكتب الصغير الذى يديره هذا الضابط احمر الرأس الذى اخطرني أن هذا المكتب كان مختصا بـ "اختراق المسلمين الأصوليين" ويقول ضاحكا " لا تعطى أحدا من ذوى الرؤوس الحمر الايرلنديين تكليفا بان يخرج و"يخترق الإسلاميين. ان ذلك يتطلب تخطيطا كثيرا وإستراتيجية وإدراك. اننى لا أتذكر انه كانت هناك مشكلة يجب على المخابرات ان تتعامل معها اكثر تعقيدا، إلا إذا كنت مسلما وتستطيع ان تذهب الى المسجد وتتحدث مع هؤلاء الناس وتتاور فيما يخص هذه المشكلة، ونحن لم نقوم بذلك."³¹⁶

315 - - إيايئس - مقابلة مع المؤلف

316 - ضابط سابق متقاعد كان يعمل فى المخابرات المركزية الأمريكية - مقابلة مع المؤلف يونيو

بالنسبة لليمين الاسلامى كانت السبعينات هي عقد التحول. كان نوع المشاكل الخاصة بالأصولية الاسلامية التي تواجهها الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لا تزال قائمة حتى اليوم ولكن الى جوارها أخذت تبرز مشاكل أخرى جديدة وأكثر تعقيدا، كانت لا تزال فى مرحلة التكوين، واتخذت فى مصر شكل الجماعات الاسلامية الراديكالية التي كونت فيما بعد قلب الإسلام الجهادي بقيادة أيمن الظواهري القائد الثاني فى تنظيم القاعدة. وكان فى إيران ممثلا بالأصولية الشيعية الأصوليون الجهاديون الأكثر تطرفا الذين شكلوا الجناح الراديكالي لحركة آية الله الخميني. وفى السعودية البيت الصحراوي الصارم للوهابية التي مثلت التربة الملائمة لصعود أسامة بن لادن وأتباعه الذين اعتبروا انه حتى رجال الدين السعوديين النصوصيين غشاشون ومدعو إسلام غير مؤمنين.

لقد فشلت الإدارة والمخابرات المركزية الأمريكية فى ان إدراك التغييرات الجذرية الانتقالية التي طرأت على اليمين الإسلامى فى السبعينات. وبدلا من ذلك رأوا ما أرادوا ان يروه: إسلام سياسي محافظ ضد الشيوعية ويكتفى بان يشغل نفسه مع النقاط الحساسة فى الشريعة التي يفسرها سدنتها الملتحون. فقط حفنة من الأمريكيين المتخصصين فى الإسلام والشرق الأوسط هم الذين جادلوا بان الإسلام اليميني لم يكن ضد الشيوعية فحسب ولكنه كان كذلك ضد الديمقراطية وضد الغرب ويلجأ للعنف. ولكنهم لم يعودوا سوى أقلية. فى أواخر السبعينات.

حتى بعد الإحداث الصادمة التي حدثت فى السنوات التالية: الثورة فى إيران، الاستيلاء على المسجد الكبير فى مكة، اغتيال السادات، تفجير السيارة الذي قام به حزب الله فى لبنان وتسبب فى قتل 241 من المارينز - حتى بعد ذلك كانوا لا يزالون ينظرون الى اليمين الاسلامى باعتباره حليفا وخاصة خلال الجهاد الافغانى (ضد السوفييت).

احد الأسباب التي تفسر لماذا استمر الغرب فى القبول بالإسلام السياسي هو بروز الإسلام الاقتصادي فى السبعينات. فالكثير من نفس هؤلاء الجهاديين الذين تورط تابعوهم فى الإرهاب ارتدوا أيضا جلابيب رجال الأعمال وأقاموا المشاريع وأسسوا البنوك وظهروا أمام العالم اجمع بأنهم ليسوا سوى رجال اعمال ناجحين ومواطنين مؤمنين غير ان المشاريع الرأسمالية والبنوك تنتج إرباحا وتنتج أيضا متطرفين ينتمون الى الإسلام.

بنوك الإخوان المسلمين

بالإضافة الى السياسة لعب الاقتصاد خلال السبعينات دورا حاسما فى انتشار الإسلاميين فى مصر. فحينما اعتلى السادات السلطة سنة 1970 رأت القوى ذات المصالح الراسخة والصوت العالي، وهى نفس القوى التي حاولت المخابرات المركزية الأمريكية أواخر الخمسينات ان تستخدمها ضد ناصر ولكنها فشلت، رأت هذه القوى أمامها الفرصة سانحة لاسترداد ثرواتها وعلاقاتها السياسية. كثير منهم سيما ملاك الأرض شبه الإقطاعيين الذين حد النظام الناصري من قدراتهم ولكنه لم يقض عليها كانت لهم علاقات قوية مع اليمين الإسلامى. والواقع انه عبر الشرق الأوسط من باكستان الى إيران الى تركيا الى مصر كانت العائلات التي تملك الأرض والبازار (التجار) وعائلات التجار الأغنياء كانت لهم علاقات وثيقة مع الإسلاميين. فى حالات كثيرة كانت العلاقات عائلية، مالك ارض غنى أو بازار قد يكون لديه أخ أو ابن عم يشغل منصب إمام أو ملا أو آية الله، كانوا يعملون معا يدا بيد.

أصبح الإخوان المسلمون مناصرين كبارا لخطة السادات من اجل تشجيع الاستثمارات فى مصر وتحمسوا معا لمساندة سياسة السادات الاقتصادية الانفتاحية الجديدة. من الخارج كان يبدو ان الانفتاح يجرى وفق متطلبات صندوق النقد الدولي الصارمة. فخلال الستينات والسبعينات فرض الصندوق تغييرات وحشية على اقتصاديات العالم الثالث كشرط لتلبية طلبات الاقتراض وأفضت هذه الشروط الى نتائج اقتصادية شديدة الإيلام من بلد الى بلد فألغيت الإعانات المالية وقلصت الوظائف وخصصت الصناعات. وعادة ما تؤدي سياسات صندوق النقد الدولي الى مواجهات مع اليسار ومع منظمات العمال، ولم تكن مصر استثناء من ذلك، فمطالب صندوق النقد الدولي الصارمة بفرض القيود المشددة والاستقطاعات المالية كانت نتيجة مباشرة لجهود الولايات المتحدة الحثيثة لتشجيع الاقتصاد الحر على مستوى دول العالم الثالث ودحر الاشتراكية. فى مصر سرعان ما وجد اليمين الإسلامى ورجال الأعمال المحافظون وأصحاب المشاريع الرأسمالية قضية مشتركة تجمع بينهم.

تلقت مجلة الدعوة التي يصدرها الإخوان المسلمون المفرج عنهم مساندة مالية معتبرة من أغنياء اليمين المصريين، وأمدتهم المشاريع الرأسمالية المستثمرة طبقا لسياسة السادات الانفتاحية بمجمل ثمن الإعلانات المنشورة فى الدعوة. فمن بين

180 إعلانا نشرتها الدعوة كان 49 منها لأصحاب ضياع ومشاريع ومقاولين، و52 لشركات كيماوية وبلاستيك و20 لمستوردي سيارات و12 لبنوك وشركات استثمار إسلامية و45 لشركات مواد غذائية. وفقا لما ذكره جيلز كيبل: "40% من الإعلانات جاء من ثلاث شركات فقط يملكها أعضاء في الإخوان ممن كونوا ثروات في السعودية"³¹⁷ واضطر التلمساني في حديثه مع مجلة مصرية أسبوعية الى الاعتراف بان معظم مفاتيح سياسة الانفتاح الاقتصادي هي الآن في ابدى اعضاء سابقين في الإخوان المسلمين كانوا في المنفى وعادوا الآن الى مصر³¹⁸.

في سنة 1974 صدر عن الإخوان بيان رسمي طالبوا فيه الاعضاء بتأييد سياسة السادات الانفتاحية الموالية لصندوق النقد الدولي. كان هذا الإجراء ملائما للإسلام السياسي. خلال تاريخهم كان الإسلاميون موالين مخلصين باستمرار للرأسمالية" معارضين مبدئيين لسياسة الصراع الطبقي. وقلما اتخذوا جانب الفقراء والمستعبدين والمضطهدين. في مصر على وجه الخصوص لم يقم الإسلاميون ابدا بتعزيد قضايا العمال المظلومين أو الفلاحين الذين لم ينجحوا في تحقيق أى مكسب من سياسات السادات الاقتصادية أو الذين عصفت بحياتهم سياسة الانفتاح - وبدلا من ذلك انضم الإخوان الى جانب المخربين للإضرابات ووقفوا بحماس ضد النقابات العمالية وضد المثقفين المؤيدين لليسر.

كان ظهور ما يطلق عليه البنوك الاسلامية أمرا مركزيا لأسلمة الاقتصاد المصري. وإذ جرى تنظيم هذه البنوك الاسلامية على أساس ان البنوك التجارية العادية لا تعمل طبقا للشريعة الاسلامية خاصة لأنه يفترض عدم السماح بالفوائد على القروض فان البنوك الاسلامية عايرت منافسيها من البنوك غير الاسلامية بأنها ضد الدين بل وأكثر من ذلك هاجمتها باعتبارها "يهودية" واتبعت تكتيكات داخلية لتسويق خدماتها فحذرت بان المتعاملين مع البنوك التقليدية معادين للإسلام ومن ثم فان " مصيرهم هو ان يلقوا مباشرة في الجحيم"³¹⁹

أدى تطور الاقتصاد الإسلامي في مصر إلى المزيد من تشجيع انتشار الاسلام السياسي. فأعضاء الإخوان المسلمين استنزفوا الموارد المالية والوظيفية لصالح مؤيدي هذا النظام الأغنياء في تدعيم التنظيم الاجتماعي والسياسي الخاص بهم.

317- - كيبل - مرجع سابق ص 108

318 - المرجع السابق ص 108-109

319 - سمير سليمان " صعود وأول نمط البنوك الإسلامية في مصر " في " سياسات التمويل الاسلامي "

تحرير Clement Henry and Rodney Wilson أنبيرة ط 2004 ص 266

ووجه أنصار اليمين الإسلامي والإخوان المسلمون الأموال للمساجد والمشروعات الصغيرة ووسائل الإعلام الصديقة وللمنفذ الأخرى التي تهاجم الشيوعية. ونظرا لان جماعة الإخوان كانت تعمل بشكل جماعة أخوية سرية فان جزءا من هذا الإنفاق يمكن ان يتم خفية، بمجرد إيماءة أو إشارة... ويستمر اليمين الاسلامي في مصر في جذب المساعدات من السعودية وان يكن قد أصبح مستقلا من الناحية المالية. يقول احد المحللين المصريين القياديين: " لقد انشأوا مشاريع كثيرة وبنوك وهم متضامنون فيما بينهم، وعضو الإخوان المسلمين يكون مسرورا إذا أعطى نصف دخله الى جمعية الإخوان المسلمين"³²⁰

أعطى تأسيس بنك فيصل الاسلامي المصري سنة 1976 للإخوان المسلمين مزيدا من الحيوية في مصر بالتوازي مع جهود السادات من اجل استخدام الإخوان المسلمين. كان البنك هو حجر الزاوية في بناء إمبراطورية من البنوك الاسلامية يديرها الامير محمد الفيصل بالعربية السعودية وهو نجل الملك فيصل ولعبت دورا حاسما في اسلمة مصر والمنطقة.

طبقا لكل الحسابات لم يكن الأمير فيصل عضوا في جماعة الإخوان المسلمين، ولكنه كان متوافقا مع العائلة الملكية السعودية في استخدام الجماعة كذراع لسياستها الخارجية. غير انه كان حريصا على ألا يكون قريبا منها اكثر من اللازم. وفضل الأمير ان يعتمد اكثر على شخصيات مؤسساتية بمن فيهم مفتي الجمهورية ليكسب البنك شرعيته، ونجح في كسب مساندة السادات له من اجل إصدار قانون خاص لأشهار البنك³²¹ من ضمن مؤسسي بنك فيصل: رئيس وزراء مصر السابق عبد العزيز حجازي الذي سوف يصبح رئيس الحركة الاقتصادية الاسلامية وعثمان احمد عثمان وهو ثري مصري صناعي كبير كان يطلق عليه روكفلر مصر ولعب دورا أساسيا في إدارة تمويل الحركة الجهادية للإخوان المسلمين في السبعينات³²² ومنهم من يتمتع بنفوذ كبير في الإخوان المسلمين مثل يوسف القرضاوي وعبد اللطيف الشريف ويوسف ندا وجميعهم انضموا مبكرا كأعضاء في مجلس إدارة البنك³²³ وسوف يلعب كل منهم دورا كبيرا في نمو اليمين الاسلامي ليس فقط في

320 - سعيد - مقابلة مع المؤلف

321 - منذر كاف " The rise of a New Power Alliance," in Henry and Wilson, p.22

322 - Ibrahim Warde ,Islamic Finance in the Global Economy, Edinburgh, 2000, p.211.

323 - سليمان ، هنري و ويلسون ص 273

مصر وإنما في المنطقة بكاملها. وكل منهم سيظهر خلال السنوات التالية محققا على أطراف أقصى الأجنحة تطرفا في حركة الإخوان المسلمين. ومن ابرز مؤسسي بنك فيصل الاسلامي رجل الدين الاسلامي الأعمى مثير الفتن الشيخ عمر عبد الرحمن. والشيخ عمر عبد الرحمن هو المرشد الروحي لتنظيم الجهاد الاسلامي، وهو التنظيم الاصولي الذي سيقوم أعضاؤه باغتيال السادات. وفيما بعد سيقوم عمر عبد الرحمن بمساعدة المخابرات المركزية الأمريكية بتجنيد الراغبين في الاستشهاد المحاربين ذوي الفراسة ليخوضوا الجهاد ضد الاتحاد السوفيتي في أفغانستان وسوف يهاجر فيما بعد الى الولايات المتحدة حيث يلقي الفيض عليه ويدان بسبب دوره في تفجير مركز التجارة العالمي في نيويورك. قدمت الدولة لبنك فيصل عند تأسيسه مساعدة غير مسبقة. فالقانون الخاص منحه الضمان بعدم جواز تأميمه وبالا تسري عليه القوانين البنكية للدولة وإعفائه من الضرائب وان له الحق في ان يباشر عمله في سرية تامة³²⁴. ويلاحظ أن المسئول الذي تولى عرض هذا القانون على البرلمان لم يكن وزير الاقتصاد بل وزير الأوقاف. وأخذ تمرير هذا القانون مجراه لأنه حتى النواب اليساريين كانوا يخشون الظهور بمظهر من يعطى صوته معارضا الله.³²⁵

" أما الشريف الذي سوف يسجن في التسعينات فقد كان تاجرا جوالا وكان يتخذ من الاتجار مع المتعاملين معه وسيلة لتمويل الجهاديين الإسلاميين. ومن موقعه في بنك فيصل انخرط مع شركات توظيف الأموال الإسلامية التي تدر عوائد متغيرة واندمجت في الثمانينات كشركات استثمار حرة عرضت أحداها عائدا بلغ 25% أى ضعف ما تمنحه البنوك التجارية. وكان أول هذه الشركات وأهمها مجموعة الشريف المرتبطة بجماعة الإخوان المسلمين³²⁶ وهي (مجموعة شركات توظيف الأموال الإسلامية) على مستوى سياسي عال وقامت سرا بالإنفاق على مرشحي جماعة الإخوان في الانتخابات البرلمانية المصرية خاصة سنة 1987. ولكن هذا النظام انهار في أواخر الثمانينات مهددا الشبكة البنكية الإسلامية وخاصة بنك فيصل الاسلامي، وأشيع في ذلك الوقت ان الأمير محمد الفيصل أرسل طائرات

324 - المرجع السابق ص 270

325 - المرجع السابق ص 270-271 تم إعادة النظر في نظام البنوك الإسلامية في الثمانينات بعد اغتيال السادات وأوضحت عملية إعادة تقييم النظام مدى خطورة الحركة الإسلامية مع استخدامها لمثل هذه الأداة

326 - كاف ، هنري و ويلسون ص 211

تجمل بلايين الدولارات (آلاف الملايين) وأوامر بان يتم إرسالها فوراً من ميناء القاهرة الجوى الى فروع بنك فيصل للوفاء بطلبات السحب التي يقوم بها المودعون" حسبما كتب سليمان³²⁷. فى سنة 1993 اشترى صالح كامل صاحب شركة " البركة" مجموعة الشريف مقابل 170 مليون دولار.

أما يوسف القرضاوى الناشط فى حركة الإخوان المسلمين فى قطر وهو احد مؤسسي بنك فيصل الإسلامى فهو معروف فى العالم العربى بخطبه الجهادية التي توزع فى كاسيتات. وهو مساند قوى لمفجري القنابل الانتحاريين ضد إسرائيل، وبعد الغزو الأمريكى للعراق اصدر بيانات تبرر قتل المدنيين المنتمين إلى الولايات المتحدة المتواجدين هناك، ولكنه كان يخفف من حدة كلماته عندما يتحدث فى اللقاءات الغربية كما حدث سنة 2004 حينما دعي لحضور لقاء دولي عن الإسلام نظمته مؤسسة بروكنجز.

ربما كان يوسف ندا احد أهم عناصر الإخوان المؤسسين لبنك فيصل الإسلامى. وهو من أهم اعضاء الإخوان المسلمين الأصليين فيما قبل حقبة ناصر. وقد اتهم سنة 1954 بمحاولة اغتيال الزعيم المصري، ومثله مثل سعيد رمضان هرب من مصر الى ألمانيا الغربية ومنها الى ايطاليا. وبالتعاون مع عدد من الإخوان المسلمين المحترفين ساعد ندا فى تأسيس بنك التقوى، وله فروع فى جزر بهاما وايطاليا وسويسرا. وينظر الى بنك التقوى باعتباره البنك شبه الرسمي للإخوان المسلمين. ويلاحظ عبد القادر شبيب وهو صحفى مصرى امضى عدة سنوات يتابع ندا، يلاحظ ان "بنك التقوى كان ينظر له فى البداية باعتباره جهازاً مركزياً اقتصادياً للإخوان المسلمين وبوجه خاص باعتباره فرعه الدولي" وكان هذا الفرع الدولي مرتبطاً لمدة طويلة بسعيد رمضان وهو زوج بنت حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين، وهو الذى أسس فرع الإخوان المسلمين فى جنيف فى سويسرا. كما يقول عبد القادر شبيب كان بنك التقوى تحت إدارة يوسف ندا³²⁸. وتضم قائمة مؤسسي البنك الموثوقة قادة من الإخوان المسلمين فى سوريا وتونس بالإضافة الى يوسف القرضاوى الذى شغل منصب رئيس لجنة الشؤون الإسلامية فى البنك³²⁹.

327 - سليمان ، هنري وويلسون ص 276

328 - مقتبس من ريتشارد لابييفير Richard Labeviere, Dollars for Terror: The United states and Islam (New York, 2000), p. 138

يقدم لابييفير صورة مفصلة لمدى انخراط بنك التقوى فى كل من مصر وتركيا وغيرهما.

329 - المرجع السابق ص 139

كثير من هؤلاء الذين كانوا مرتبطين بدوائر بنك فيصل - التقوى أدرجوا في قائمة التحقيقات التي أجريت المتعلقة بالقاعدة وحلفائها. وفي سنة 2001 أدرج ندا من قبل الإدارة الأمريكية بوصفه ممولا للإرهاب.³³⁰

لم تكن علاقة بنك فيصل الاسلامي بالإسلاميين الأصوليين هي العامل الوحيد الذي هددته في الثمانينات. فقد كان البنك على علاقة وثيقة ببنك الائتمان والتجارة الدولي وكان يعرف باسم "بنك الغش والجريمة الدولي" ويملكه باكستاني وأحد المستثمرين في الخليج وكان متورطا في عمليات تمويل الإرهاب وتهريب الأسلحة والمخدرات والغش المالي حتى تمام انهياره المعروف سنة 1988. كانت المخابرات المركزية الأمريكية زبونا دائما لدى هذا البنك حيث استخدمته لإيداع الودائع المالية الأمريكية والسعودية لتمويل حرب أفغانستان التي مولت الجهاديين الإسلاميين المتطرفين المرتبطين بالمجاهدين الأفغان. وبالرغم من ان هذا البنك (بنك الائتمان والتجارة) ليس بنكا إسلاميا من الناحية الرسمية إلا انه استخدم إيداعاته ولغته ورموزه. وعندما انهار البنك وجد المحققون ان لدى البنك 589 مليون دولار "كإيداعات غير مسجلة" منها 245 مليوناً تخص "بنك فيصل الاسلامي المصري".³³¹

بعد مقتل السادات وجد عدد كبير من الأصوليين (الراдикаليين) الذين سبق أن وضعوا في مراكز قيادية في بنك فيصل الاسلامي وجدوا أنفسهم وقد أزيحوا بمن فيهم ندا والقرضاوى والشريف. فقد طلبت المخابرات المصرية من الامير فيصل بوجه خاص اعفاءهم من مناصبهم³³² ولكن بعد فوات الأوان. لقد ساعد الامير فيصل على قيام الاحياء الاسلامي في مصر على اسس مؤسسية مما ادى الى تعزيز الارهاب السري العنيف في مصر. خلال الثمانينات والتسعينات ستقاوم هذه الشبكة كل جهود حكومة حسنى مبارك لتصفيته.

كانت وفاة السادات هي النهاية لطريق الرئيس المؤمن. ولكن إيران كانت تترنح حينذاك تحت تأثير إسلام الخميني. " كانت مساندة الولايات المتحدة للجهاد في أفغانستان في الذروة وأصبحت الاسلامية هي الإيديولوجية المحددة للنشطاء الإسلاميين من شمال إفريقيا الى عمق وسط آسيا السوفييتية. هذه السلسلة غير

330 - دوجلاس فرح Douglas Farah, Blood from Stones: The Secret Financial

Network of Terror (New York , 2004), p.148

331 - Warde , p. 84

332 - Soliman, in Henry and Wilson, p. 273

العادية من التطورات ما كان لها ان تتم إلا بفضل السادات من ناحية والعربية السعودية الحليف المفضل للولايات المتحدة الأمريكية من ناحية أخرى، وكذلك بفضل تدفق عشرات البلايين من الدولارات نتيجة الزيادات المتوالية فى أسعار البترول التي فرضتها منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) التي استخدمتها السعودية لبناء إمبراطورية موالية لأمريكا من البنوك الإسلامية والمؤسسات التمويلية فى مصر والسودان والكويت وتركيا وباكستان وغيرها. كان هذا بمثابة زواج بين إيديولوجية الإخوان المسلمين والقوة الإسلامية البنكية المترامية، تكالبتا معا لتمكين الجناح اليميني للإسلام السياسي ليصبح فى النهاية قوة دولية على مدى اتساع العالم.

*

الفصل السابع

صعود الإسلام الاقتصادي

فى السبعينات اصبح الإسلام السياسى مدعما بفضل ظهور قوة موازية هى الإسلام الاقتصادى.

جزء من هذه الثروة الهائلة التى تصب فى الدول العربية المصدرة للبترول كان يشق طريقه إلى شبكة واسعة من البنوك وشركات الاستثمار التى يسيطر عليها اليمين الإسلامى والإخوان المسلمون. من بلد إلى آخر كانت هذه البنوك أكثر من مجرد مصارف إذ قامت أحيانا بشكل سرى وأحيانا أخرى بشكل علنى بتمويل الساسة وضباط الجيش المتعاطفين ومولت النشاط والأحزاب السياسية وشركات الإعلام التى يسيطر عليها الإسلاميون والمؤسسات الرأسمالية التى يسيطر عليها الإخوان المسلمون.

وبداية من سنة 1974 فصاعدا عمل النظام البنكى الإسلامى بمثابة العمود الفقرى التمويلي لليمين الإسلامى وخلال ذلك كله كان هذا النظام الذى بدأ من الصفر سنة 1974 ليصعد خلال عقدين إلى ذروة القمة العالمية، كان يعتمد بشكل رئيسى على النصائح والمساعدة التقنية التى يتلقاها من مجموعة من المؤسسات الأمريكية والأوروبية بما فى ذلك بنوك ضخمة مثل سيتي بنك.

من وجهة نظر المسئولين التنفيذيين للبنوك وصندوق النقد الدولى ومنظري السوق الحرة كانت البنوك الإسلامية تبدو مثالية. فاليمين الإسلامى أوضح بجلاء انه يفضل الرأسمالية على الشيوعية الإلحادية. أيا من الحركات الإسلامية الهامة بدءا بالإخوان المسلمين فى مصر إلى الجماعة الإسلامية فى باكستان إلى الأصولية الشيعية فى العراق لم يكن أيا منها ينادى بالعدالة الاجتماعية والاقتصادية. وبدلا من ذلك كانوا يعارضون ملكية الدولة والإصلاح الزراعى وبرامج الخدمات الاجتماعية. مثلها مثل الإخوان المسلمين ولدت البنوك الإسلامية فى مصر ومولتها العربية السعودية ثم انتشرت فى كل ركن من أركان العالم الإسلامى. فى البداية كانت تبدو شيئا جيدا، نظام شرقى للسوق الحرة ذات قوة مالية وتتبع بإخلاص تعاليم القرآن وتمد مؤيديها العديدين بالعملة الصعبة. وسرعان ما عبرت الحركة البنكية الإسلامية

عن أبعادها السياسية وأصبحت محركاً ليس فقط لتصدير الإسلام السياسي بل وراعية كذلك للعنف. وعادة ما كانت تتلقى الدعم من البنوك والحكومات الغربية سواء بشكل مباشر أو غير مباشر.

في البداية كان يبدو أن نمو الاقتصاد الإسلامي يتلاءم تماماً مع خطط واشنطن للحرب الباردة في الشرق الأوسط، وظهرت معبرة عن التزاوج بين منظري الاقتصاد الجهادي لليمين الإسلامي في العالم العربي والتقنية وحرفية المعرفة في العديد من البنوك الرائدة والمؤسسات المالية والجامعات في الغرب. بدأت في الخمسينات ببطء عندما بدأ اقتصاديو الإخوان واثنان من القيادات الدينية العراقية يطورون مبكراً أسس الاقتصاد الإسلامي. واكتسب ذلك قوة دفع حينما أسس أحد رجال المال من الإخوان المسلمين في الستينات أول بنك إسلامي، ثم اكتسب قوة دفع قوية في السبعينات بالمساعدة الكاملة من السعودية والكويت ودويلات الخليج الناشئة سيما بعد تضاعف أسعار البترول أربعة مرات خلال الفترة من 1973-1974. وأخيراً استطاع الأمير محمد الفيصل شقيق وزير خارجية السعودية أن يجمع بينها جميعاً منشئاً بذلك أول شبكة من البنوك الإسلامية متعددة البلاتين من الدولارات ومكتسباً بذلك سمعته بوصفه " أمير العشور المسلم".

خلال هذه السنوات تم تنظيم الشبكة الإسلامية للأعمال البنكية واستكملت هيكلها الوظيفي عادة تحت إدارة الأثرياء من الإخوان المسلمين الذين استخدموا هذه البنوك لتمويل عمليات التحول السياسي اليمني في مصر والسودان والكويت وباكستان وتركيا والأردن.

لقد عمل الاقتصاد الإسلامي خلال السبعينات على مستويين: - أولاً في السعودية نفسها حيث جمعت فوائض دولاريه هائلة وتم التلويح بهذه الثروات أمام الدول الإسلامية التي ضربها الفقر مثل مصر وتركيا وباكستان وأفغانستان وعرضت عليها المساعدات مقابل التحول إلى اليمين، وثانياً أخذت شبكة منظمة تنظيمياً دقيقاً من البنوك الإسلامية أنشئت في القاهرة وكراتشي والخرطوم واسطنبول لتقوم بدورها ليس فقط بوصفها لاعبا مالياً هاماً وتقوم بدور تمويلي هام بل ولتعمل بهدوء على تنمية اليمين الإسلامي. في مصر تعاون هؤلاء البنكيون الإسلاميون مع السادات من أجل مساندة التحول السياسي في مصر من الاشتراكية العربية إلى الانفتاح الساداتي (الانفتاح الاقتصادي) وإعادة سياسات السوق الحرة، وفي مجرى هذه العملية ساعدوا في بناء القوة الدافعة السياسية للإسلام اليمني. في الكويت دعت العائلة المالكة المرتبطة بالإخوان المسلمين إلى تمويل قوة سياسية ضد

الوطنيين والفلسطينيين في هذه الإمارة البترولية الصغيرة. وفي السودان والأردن وتركيا قام الإخوان المسلمون والسياسيون اليمينيون ببناء إمبراطورية مالية مؤسسة على البنوك الإسلامية واستخدموا ثرواتهم واتصالاتهم في خدمة قضية الإسلام السياسي اليميني. وفي العادة كما حدث في مصر كانوا يجلبون سياستهم الاقتصادية بجلباب الإصلاحات الاقتصادية التي يطالب بها صندوق النقد الدولي وبدعوة الاحتكارات عابرة القارات والمقرضون الأجانب.

بفضل الإسلام الاقتصادي أصبح هناك خط مباشر يربط بين السعودية فائقة الغنى وأمراء ومشايخ الخليج وقطر وأمراء الإخوان المسلمين بدءاً بكبار الرأسماليين والبنكيين وانتهاءً بغوغاء الشارع التابعين لليمين الرأسمالي، وكلها ممولة من قبل البترودولار.

كانت قوة تمكنت من تحويل الشرق الأوسط.

البنوك الإسلامية والغرب

كل البنوك الكبيرة وشركات البترول ومؤسسات حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، كلها شجعت بقوة البنكيين الإسلاميين في السبعينات من القرن العشرين. إن الزيادات في أسعار بترول الأوبك سنة 1973 جعلت الخليج أكثر أهمية ليس فقط بسبب آبار البترول الموجودة فيه بل وكذلك من أجل مساهماته المالية وتدفقت كميات ضخمة من السلع العسكرية إلى السعودية وإيران وغيرهما من دول الخليج، ولحقت مصر بحلفاء الولايات المتحدة التقليديين مثل إسرائيل وتركيا كمنافذ للنفوذ الغربي. وبدأت كل من الولايات المتحدة وبريطانيا تبنيان وتوسعان قواعدهما الجوية والبحرية وتستعرضان أساطيلهما في المحيط الهندي والقرن الإفريقي وجنوب العربية السعودية وشرق البحر الأبيض المتوسط.

ولكن، لا رجال الدين الإسلامي السعوديين ولا كتبة الإخوان المسلمين الذين يفكرون بعقلية القرون الوسطى استطاعوا أن يقيموا البنوك الإسلامية بمجهوداتهم الخاصة، فالبنكيون الغربيون الذين يتطلعون إلى طرق أبواب المخازن الواسعة للبتر ودولار الذي يتراكم بعد زيادة أسعار بترول دول الأوبك خلال الفترة 1973-1974 قاموا بما هو أكثر. فالبنوك الكبيرة أصبحت بالفعل لاعبا رئيسيا مع السعودية ومع بنكيي الخليج العربي، ومن ثم فانه مع ظهور الحركة البنكية

الإسلامية فقد رأت فيها البنوك الأجنبية فرصة لا تعوض. دخلت بنوك الغرب الكبيرة ومؤسساته المالية لتقديم الخبرة والتدريب وفق آخر ما وصلت إليه التكنولوجيا البنكية من أجل تسهيل توسع القوة البنكية لليمين الإسلامي. وإذا اطمأنت إلى تأكيدات المستشرقين والأكاديميين بأن انتماء الإسلام للرأسمالية يعود إلى سالف العصر منذ أيام النبي محمد فقد سارعت البنوك الكبيرة ذات المراكز النقدية القوية إلى الانخراط في هذه العملية.

من بين المشاركين الرئيسيين سيتي بنك، اتحاد بنوك هونج كونج وشنغهاي، بانكرز ترست، تشيس مانهاتن، شيكاغو، ميلتن فريدمان، صندوق النقد الدولي، برايس وترهاوس، الولايات المتحدة، بريتيش آند سويس تكنولوجيز، شركات البترول الرئيسية، جامعة هارفارد، جامعة كاليفورنيا الغربية وغيرها.

إن إنشاء نظام بنكي لا يتعامل بنظام الفوائد وله القدرة على الاستثمار على أساس من القانون والكفاءة في مجال التمويل عالميا ليس مجرد خدعة وضيفة. وليس من شأن هذا الكتاب أن يناقش نظرية التمويل الإسلامي وميكانيكيته التي سمحت للمقرضين الذين يقدمون القروض بدون فوائد أن يستعيدوا قروضهم ومع ذلك يستطيعون أن يحققوا أرباحا. يكفي أن نقول إن ثمة نظرية معقدة وذات إبعاد متعددة توضح كيف يتم ذلك وتم صياغتها في السبعينات³³³، والأكثر أهمية لقضيتنا هو أن نوضح كيف أن هذه البنوك قد عجلت بنمو الإسلام السياسي باقتناع البنكيين الغربيين.

ينتهي إبراهيم ورد، وهو واحد من ابرع المتابعين لدنيا التمويل الإسلامي، إلى الآتي:

"كان النظام البنكي العالمي.... أداة فعالة في نفس عملية خلق البنوك الإسلامية، البنوك الإسلامية الناشئة كانت تعوزها الخبرة والموارد ولم يكن لديها اختيار سوى أن تعتمد على خبرة شركائها الدوليين، وعندما اكتسبت البنوك

333 - للاطلاع على تفاصيل آلية التمويل الإسلامي دون فوائد (ربا) ينظر:

* مؤلف هنري كليمنت Clement M. Henry وروdney ويلسون Rodney Wilson -

The Politics of Islam and Finance (Edinburgh, 2004) سياسات التمويل الإسلامي.

** رودني ويلسون: أسواق التمويل الإسلامية (London 1990) Islamic Financial Markets

*** تيمور كران: الإسلام والمأمن (N.J. 2004) Islam and Mammon

**** وأخيرا مؤلف إبراهيم ورد الذي وفي الموضوع حقه بشكل مدهش: وضع التمويل الإسلامي في

الاقتصاد العالمي. (Edinburgh, 2000) Islamic Finance in the Global Economy

الإسلامية الخبرة كان عالم التمويل يمر بتغييرات كبيرة، ومن ثم فبدلاً من أن تتعزل، عجلت بالتعاون مع البنوك الغربية - في صورة استثمارات مشتركة، اتفاقات للإدارة، تعاون تقني، وعمليات تبادل بنكية مما أدى إلى التقارب بين هذه وتلك وانصهار عمليات التمويل التقليدية والإسلامية. ³³⁴ معا

من الأعمال ذائعة الصيت بشأن تطور النظرية البنكية الإسلامية بما في ذلك كيفية تنظيم بنك إسلامي حديث باستخدام ضمانات لا تحمّل بالفوائد، الأعمال التي أنجزت في باكستان وفي لندن، وفي جامعة شيكاغو في الستينات على يد الاقتصادي Lloyd Metzler للويد ميتزلر. ³³⁵ وأصبح كل شيء جاهزاً حال ارتفاع سعر البترول الإسلامي في السبعينات.

" في ذلك الوقت كان سيتي بنك، بانكرز ترست، تشيس مانهاتن وجميع البنوك الأمريكية تؤدي دوراً كبيراً للسعودية ومن ثم فعندما برزت ظاهرة البنوك الإسلامية، كان واضحاً أنها جاءت في الوقت المناسب للقيام بمهامها في الاستثمار على نحو ما يقول ورد:

" كان جولدمان ساكس جاهزاً لاستتباط أنواع معينة من المنتجات الملائمة من أجل البنوك الإسلامية. ³³⁶ فيما بين 1975-2000 بادرت بعض المؤسسات الأمريكية مثل فني ماي وفريدي ماك بإنشاء مشروعات رائدة للإقراض الإسلامي، وبدأت فدرالية الاحتياطي الأمريكية إعداد البرامج البنكية الإسلامية وانخرط في هذه العملية كذلك مؤسسة الاتحاد الدولي للتمويل التابعة للبنك الدولي ؛ حتى مؤسسة بج أول استخدمت أدوات تمويل إسلامية في مشروعاتها التمويلية" وفتحت الشركات العابرة للقارات منافذ إسلامية لتلقى الودائع من عملائها من أغنياء الخليج" وحسبما ذكر كليمنت هنري شارك الفرنسيون بقيادة البنك القومي بباريس الأمريكيان والبريطانيون وعلى رأسهم سيتي بنك وكليمنورث بنسون. في هذه الأنشطة ³³⁷

334 - ورد ص 108

335 - ينظر " آمال بشأن مستقبل التمويل الإسلامي" ل عباس ميرأخوّر Abbas Mirakhor وهو مدير تنفيذي في صندوق النقد الدولي وأحد علماء الشريعة في جمهورية إيران الإسلامية

336 - إبراهيم ورد - مقابلة مع بار بارا دريفوس - أغسطس 2004

337 - كليمنت هنري " حركات التمويل الإسلامية: مولدات التغيير السياسي في الشرق الأوسط؟" (ورقة مقدمة في الاجتماع السنوي لسنة 2001 للمؤسسة الأمريكية للعلوم السياسية جامعة تكساس - أوستن)

في الواقع أقامت البنوك الإسلامية مراكزها الرئيسية في أوروبا وغيرها من مراكز المال العالمية. و"قامت البنوك الإسلامية بعملياتها من لندن وجنيف وجزر الباهاما بما يفوق ما قامت به من جدة وكراتشي والقاهرة" حسبما لاحظ ورد. كانت تفضل التحالف مع الاقتصاديين من الليبراليين الجدد. "من الناحية الإيديولوجية كان كل من الليبراليين والاقتصاديين الإسلاميين مدفوعين بمعارضتهما المشتركة للاشتراكية والاقتصاد الموجه"³³⁸

لقد اعتمد التمويل الإسلامي مرارا على الاقتصاديين اليمينيين والسياسيين الإسلاميين الذين يدعون إلى الخصخصة والأسواق الحرة على نحو ما ترى مدرسة شيكاغو"، حتى الجمهوريات الإسلامية بهذه المناسبة احتضنت بصراحة النيوليبرالية (البرالية الجديدة) حسبما كتب ورد "في السودان بين 1992 و1993 لم يتردد وزير الاقتصاد عبد الرحيم حمدي وهو من تلامذة ميلتن فريدمان وهو بالمناسبة بنكي إسلامي سابق في لندن - لم يتردد في تبني اشد توصيات السوق الحرة تشددا التي يفرضها صندوق النقد الدولي. وأكد انه ملتزم بتغيير الوضع الاقتصادي القائم "وفقا لقواعد السوق الحرة لأن هذا هو ما ينبغي أن يسير عليه الاقتصاد الإسلامي".³³⁹ وبالمثل عبرت الحركة الإسلامية الراديكالية الجزائرية التي سوف تجر هذه الأمة إلى حرب أهلية طويلة في تسعينات القرن العشرين معتمدة صراحة على توصيات صندوق النقد الدولي للجزائر. كتب كليمنت هنري وهو خبير متابع لعملية التمويل الإسلامي: "عند تأسيسه سنة 1989 قدمت الجبهة الإسلامية الجزائرية للمصالحة توصيات بإجراء تعديلات في برنامجها الحزبي بما في ذلك معادلة الدينار الجزائري بأسعار السوق الدولية وفقا لتوصيات صندوق النقد الدولي في ذلك الحين فضلا عن القواعد البنكية الإسلامية"³⁴⁰

كان سيتي بنك بنكا رائدا وحسبما يقول ورد: "إن سيتي بنك أصبح أول بنك غربي يفتح نافذة إسلامية"³⁴¹، وسوف يستمر في سداد الأنصبة. وقد قام شوكت عزيز الذي كان عضوا في مجلس إدارة سيتي بنك الإسلامي والبنك السعودي الأمريكي المرتبط بسيتي بنك، قام بوضع برنامج سيتي بنك الإسلامي في البحرين³⁴². وسرعان ما سوف يترقى عزيز ليصبح وزيرا للشئون الاقتصادية في

338 - ورد ص 107

339 - ورد ص 99

340 - كليمنت هنري "حركات التمويل الإسلامية: مولدات التغيير السياسي في الشرق الأوسط؟"

341 - ورد - مقابلة مع المؤلف

342 - ناظم على - مقابلة مع بار بارا دريفوس - أغسطس 2004 .

باكستان وفى 2004 سيرقى إلى منصب رئيس الوزراء بواسطة الرئيس برويز مشرف.

إن ما أدهش دهاقنة السوق الحرة الغربيين هو أن يكون الإسلام بطبيعته نظاما رأسماليا وإن النبي كان رأسماليا وتاجرا يبحث عن الربح ويؤمن بالسوق الحرة والضرائب المخفضة والمؤسسات الخاصة وغياب القواعد المنظمة، وإن النظام الإسلامي الذى أقامه مبكرا فى مكة كان يتبع القواعد التى ستضع البسمة على شفاه الاقتصاديين الليبراليين الجدد (النوليبراليين) - على الأقل كانت هذه هي الصورة التى رسمها الأصوليون الإسلاميون وإيديولوجيو (منظرو) السوق الحرة الغربيون. هذه الصورة لا تفسر فقط التأييد الغربى للمشروعات الاقتصادية لليمين الإسلامى ولكنها تشكل أيضا المبررات لمهاجمة الاشتراكية العربية والمؤسسات التى تديرها الدولة والتخطيط المركزى بوصفها ضد الإسلام.

ورغم أن فكرة بناء نظرية إسلامية على نسق نظريات القرن السابع والقرن الرابع عشر الميلادى تبدو فكرة مثيرة للضحك إلا إن بنكيي الغرب وسياسيي الشرق الأوسط العلمانيين لم يستطيعوا مقاومة إغراء الأموال التى ضخمها ممولو الإسلام السياسى.

أصدرت مؤسسة السوق الحرة الإسلامية - وهى مؤسسة محافظة فى ولاية فرجينيا - أصدرت ورقة بعنوان " الإسلام والسوق الحرة " لفتت الأنظار وهى تقتبس آيات من القرآن تعنى حسبما تقول مؤسسة السوق الحرة الإسلامية معارضة الاشتراكية والضرائب واحترام حقوق الملكية وإتباع قانون العرض والطلب الذى لا يتغير:

" إن القرآن يأمر صراحة بحرية السوق وحرية التجارة التى تقوم على التراضي والتبادل الحر....والحقيقة إن الإسلام يطالب المؤمنين به أن يرتادوا السوق وأن يكسبوا عيشهم وإرباحهم منه ليعولوا عائلاتهم ويهنئوا بالنجاح....والإسلام بنص على حقوق الملكية. وعلى النقيض من الاشتراكية يشرع الملكية الفردية بشكل مطلق. كذلك يعترف الإسلام بحقوق التعاقد والقرآن يطالب أتباعه أن يوفوا بعقودهم إذا تعاقدوا. وتوضح تعاليم محمد أيضا أن الأسعار يقررها العرض والطلب فى السوق الحرة وإلا يتدخل احد ليقررها إجباريا. وإن هذا يعكس الخبرة التجارية العريقة لقبيلته كما يعكس خبرته التجارية الذاتية.... وفى خلال حكمه فى المدينة اختار محمد بجلاء ألا يفرض أى ضرائب على التجارة وجعل من المدينة منطقة تجارة حرة نشطة. وإن سياسات السوق الحرة الكاملة للإسلام

أفرزت انتعاشا اقتصاديا هائلا في البلاد التي حكمها كما كان الأمر كذلك في كل مكان طبقت فيه هذه السياسات. ومن ثم فإنه بينما كانت أوروبا تلتفها ظلمات العصور الوسطى خلال النظام الإقطاعي المعادي للسوق، كان العالم الإسلامي هو القوة الاقتصادية السائدة في الأرض لمدة خمسة قرون تقريبا³⁴³

إن الفكرة التي تقول بأن القرآن يوفر الإرشادات التي يمكن استخدامها لتشريع قوانين معادية للاشتراكية والإصرار على النشاط الاقتصادي الفردي هي فكرة لا تستند إلى أي أساس نظري لأن مكوناتها أبعد ما تكون عن الوضوح وبالتأكيد لا يمكن تطبيقها على الأنظمة الاقتصادية الحديثة. ولكن هذا لم يوقف الاقتصاديين الغربيين المحافظين عن ترديد ما يقولون كما أنها لم توقف رجال الدين المسلمين بمن فيهم آيات الله المشهورين في العراق وإيران عن إصدار الفتاوى التي تؤيد مثل هذه التفسيرات محدودة الأفق.

يرى جراهام فوللر المسئول السابق بالمخابرات المركزية الأمريكية الذي كان يترأس في بداية الثمانينات مكتب الشرق الأوسط التابع للمجلس الوطني للمخابرات الذي يتبع المخابرات المركزية الأمريكية ؛ يرى أن المصالح الأمريكية لا تتفق مع صعود الأصولية الإسلامية. وبوصفه مسئولا في المخابرات المركزية أجاز تقريراً مخابراتياً يقترح أن تقيم الولايات المتحدة علاقات أوثق مع النظام الذي يقوده آيات الله في إيران من أجل حرمان الاتحاد السوفييتي من الحصول على الأوراق التي ساهمت في مبادرة أوليفر نورث ووليم كيزي بإدارة ريجان التي أصبحت تعرف باسم "إيران كونترا". وكتب فوللر وهو حالياً مؤلف بروفيليك - كتب باستفاضة موضحاً أن التطور الاقتصادي لليمين الإسلامي يتفق ومنظور الداعين للسوق الحرة: "لا يوجد حالياً تنظيم إسلامي أساسي المنبع.... لديه وجهات نظر اجتماعية راديكالية"³⁴⁴ ويستأنف فوللر قائلاً: "إن الإسلام لا يفضل من الناحية المبدئية تدخل الدولة تدخلاً قوياً في السوق أو في الهيكل الاقتصادي للمجتمع.... ومن الغريب أن يظل المسلمون متناقضين مبدئياً أو حتى معادين للثورة الاشتراكية"³⁴⁵

343 - بيتر فيررارا وخالص صافوري "الإسلام و السوق الحرة" المؤسسة الإسلامية للسوق الحرة -

سبتمبر 2004 - الانترنت. <http://www.islamicinstjtute.org/freemrkt.htm>

344 - جراهام فوللر "مستقبل الإسلام السياسي" نيويورك 2003 ص 26

345 - المرجع السابق

أن الإسلاميين يعارضون بقوة التفسير الماركسي للمجتمع³⁴⁶.... ولكنهم يعانون تناقضا فيما يتعلق بدور الدولة في الاقتصاد، وهذا يشكل انفصاما بين النظرية والتطبيق.... إن النظرية الإسلامية الكلاسيكية ترى أن للدولة دورا محدودا فيما يتعلق بتقديم التسهيلات إلى السوق أو التجار أكثر منه في التضيق عليهم. لقد عارض المسلمون بقوة دائما الاشتراكية والشيوعية. إن الإسلام لم يكن لديه أية مشكلة فيما يتعلق بقضية سوء توزيع الثروة.³⁴⁷

تطور النظام البنكي الإسلامي بصورة فلكية. فطبقا للمجلس العام للبنوك الإسلامية ومؤسسات التمويل أصبح هناك في سنة 2004 أكثر من 270 بنكاً إسلامياً تبلغ أصولها 260 بليون دولار والودائع لديها 200 بليوناً³⁴⁸. وكانت القروض الرئيسية لرجل دين عراقي وبنكي مصري وأمير سعودي ومجموعة من أمراء العائلة المالكة الكويتية، نتابع فيما يلي حكاياتهم.

آية الله والأمير

كان الرجل الذي وضع حجر الأساس لـ "الإسلام الاقتصادي" رجل دين شيعياً عراقياً يدعى محمد باقر الصدر وهو عميد عائلة الصدر واحد أقرباء رجل الدين الثوري مقتضى الصدر الذي ظهر جيش المهدي التابع له كقوة عراقية قوية سنة 2003. ومثلت أفكار آية الله الصدر مددا نظرياً لتبرير السياسة الاقتصادية للإسلاميين.

في سنة 1960 وضع الصدر كتابه "اقتصادنا" الذي أصبح بمثابة الإنجيل المقدس لنظريات الأصولية الإسلامية الاقتصادية. ويعتبر مؤلفه "البنوك غير الربوية في الإسلام" (1973) من أوائل المراجع التي توضح أسس النظام البنكي الإسلامي³⁴⁹. كلا العاملين سوف يكونان من الوثائق المؤسسة لسياسة اقتصادية

346 - المرجع السابق ص 35

347 - المرجع السابق ص 141

348 - وكالة الأنباء الفرنسية "البنوك الإسلامية مؤسسات تباهى بإبداعات تبلغ 260 بليوناً من الدولارات" 25 أبريل 2004

349 - حنا بطاطو "الحركات السرية الشيعية" صحيفة الشرق الأوسط 35 (خريف 1981) ع 4 ص

مساندة للرأسمالية ومناهضة للاشتراكية بشكل عنيف ومؤسسة للاقتصاد السياسي الإسلامي. ولم يكن مستغرباً أن يساعد محمد باقر الصدر في خمسينات القرن العشرين في تأسيس حزب سرى إرهابي جهادي هو حزب الدعوة. تأسس حزب الدعوة كقوة معادية للشيوعية في بغداد وكان ينظم الطلبة العراقيين المحافظين ضد الماركسيين في الجامعة، وتلقى فيما بعد حسبما ذكر، مساندة السافاك (المخابرات السرية الإيرانية) التابعة للشاه من أجل إضعاف حزب البعث في العراق وقام بعمليات اغتيال وتفجيرات ضد الزعماء العراقيين استمرت لعدة عقود.

كان شريك الصدر في حزب الدعوة هو آية الله موسى الحكيم وهو مؤسس حزب سياسي اصولي عائلي آخر استمر لفترة أطول، سيقوم الموالون له بدور في النظام الذي أقامته الولايات المتحدة بالعراق سنة 2003 من خلال المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق. شارك الصدر والحكيم في تنظيم الجناح اليميني للإسلام السياسي في العراق أواخر خمسينات القرن العشرين. إن ما دفعهم إلى تنظيم حركتهم هو نمو الحركة اليسارية في العراق وقوة الحزب الشيوعي العراقي. كان الشيوعيون واليسار هم الأكثر قوة بين شيعة العراق المبعثرين سيما في أزقة بغداد المنتشرة التي يسيطر عليها الشيعة. وحسبما ذكر مسئول سابق في المخابرات المركزية الأمريكية: "كانت العضوية في المنظمات اليسارية خلال هذه الفترة من القوة إلى درجة أن أحد المؤرخين لهذه الفترة يصف الحزب الشيوعي العراقي باعتباره الحزب السياسي الوحيد الذي يمثل الشيعة".³⁵⁰ كان أكثر ما يخيف الصدر والحكيم أن مئات الشباب من الشيعة سيما الذين في الجامعات كانوا يتغافلون انتماءهم للإسلام وينضمون للاشتراكيين والشيوعيين والبعثيين والناصريين. وبقيادة ابن الحكيم - مهدي الحكيم تم تنظيم حزب الدعوة طبقاً لخطوط تنظيمية صارمة... وعمل الحزب بصورة سرية كخلايا صغيرة وعلى أساس شمولي ووفق آلية توريثية صارمة.³⁵¹

كان لعدد كبير من رجال الدين العراقيين علاقات قديمة مع المخابرات البريطانية. فمذ أكثر من قرن حافظت لندن على علاقاتها برجال الدين الشيعة في

350 - جراهام فوللر و رند رحيم فرانك " الشيعة العرب : المسلمون المنسيون (نيويورك 1999) ص 47

- فوللر مسئول سابق في المخابرات المركزية الأمريكية ومعروف عنه أنه مدافع صريح عن الأصولية الإسلامية أما فرانك فهو الرئيس السابق للمؤسسة العراقية كان أول سفير للعراق لدى الولايات المتحدة يعين بعد سقوط نظام صدام حسين في عهد حكومة إياد علاوي المؤقتة سنة 2003

351 - المرجع السابق ص 48

العراق وإيران، سيما هؤلاء الذين يقيمون في مدينة النجف المقدسة بالعراق. ومنذ 1852 وحتى أوائل الخمسينات من القرن العشرين ومن خلال آلية تمويلية ذكية يطلق عليها "Oudh-Bequest" حافظت بريطانيا ومخابراتها على مئات من رجال الدين الشيعة في النجف وكربلاء مدرجين على قوائم الاستحقاق.³⁵²

بعد الإطاحة بملك العراق الموالي لبريطانيا سنة 1958 بدأ كثير ممن يطلق عليهم آيات الله ينتظمون ضد اليسار العراقي والحزب الشيوعي العراقي. كانت هذه هي الفترة التي تأسس فيها حزب الدعوة بروابطه المباشرة مع الإخوان المسلمين في مصر (رغم أن الإخوان المسلمين سنة بينما العراقيون شيعة³⁵³). في سنة 1960 صدر بيان سني شيعي يمثل ما يطلق عليه الحزب الإسلامي الذي قام بهجوم حاد على الحكومة العراقية وحلفائها الشيوعيين وهي هجمة باركها آية الله الحكيم. يختتم اسحاق نقاش مؤلف (شيعة العراق) بان "الحكيم لم يكتف بتعزيد المذكرة ولكنه اصدر بنفسه فتوى يهاجم فيها الشيوعية بالاسم مؤكدا أنها لا تتفق والإسلام.³⁵⁴

كان التنظير الاقتصادي الصادر من آيات الله العراقيين المناوئ للشيوعية دافعا لأحد السعوديين الشبان ممن يشار إليهم بالبنان لإنشاء أول إمبراطورية بنكية: ذلك هو الأمير محمد الفيصل ابن الملك فيصل وشقيق الأمير سعود الفيصل وزير خارجية السعودية. قام الأمير محمد، "أمير العشور" مؤسس مجموعة الفيصل، الشبكة العالمية للبنوك الإسلامية بالتعاون مع صالح كامل الأخ غير الشقيق للأمير فهد (وريث العرش آنذاك) وهو بليونير انشأ إمبراطورية البركة البنكية. قاد الاثنان المبادرة من اجل التوسع السريع للإسلام الاقتصادي.

دشن كل من الأمير محمد الفيصل وصالح كامل وحلفاؤهم ليس فقط حركة النظام البنكي الإسلامي ولكنهم غيروا وجه الشرق الأوسط. لم يكن جميع البنكيين الإسلاميين سياسيين بل إن القليلين فقط هم الذين اتجهوا وجهة العنف التي انتهجها الجناح اليميني للإسلام السياسي. كانت بعض دوائر النظام البنكي الإسلامي تدار بواسطة بعض المسلمين المؤمنين غير المنتمين إلى هذا الجناح ممن انتهزوا الفرصة ببساطة لجني بعض المال، غير أن كثيرين آخرين كانوا أكثر تحمسا رأوا في النظام البنكي الإسلامي وسيلة لتقدم قضية الإسلام السياسي الجهادي واستخدموا بنوكهم لمساندة الإخوان المسلمين وحلفائهم. ومع ذلك كان هناك آخرون ممن انشأوا

352 - للحصول على معلومات وافية عن هذا النظام ينظر: أسحاق نقاش "شيعة العراق" - مطبعة جامعة برنستون 1994 ص ص 211-229.

353 - فولر وفرانك ص 48 Fuller and Franck

354 - نقاش ص 135

بنوكا إسلامية أو استخدموا البنوك القائمة كواجهات آمنة للإرهاب وتجارة السلاح وغيرها من الأنشطة غير المشروعة.

من سوء حظ المخابرات المركزية الأمريكية وبنك سيتي بنك أنه كان من المستحيل التمييز بين ما إذا كان آيا منها يمارس هذا النوع من النشاط أو ذاك، كان التمييز بينها امراً مستحيلاً - وعادة ما عمل الثلاثة معا كتفا إلى كتف، المؤمن والسياسي والمتآمر.

كثير من قادة النشاط الإسلامي خلال العقود الأربعة الأخيرة كانوا منخرطين مع نظام البنوك الإسلامية سواء نظريا أو عمليا ولكن دائما تحت جناح الأمير فيصل. وكثير منهم ينتمي إلى الإخوان المسلمين. وكان سيد قطب أكثرهم تطرفا في مصر، واعدم شنقا سنة 1966. كتب سيد قطب كتاب (العدالة الاجتماعية في الإسلام) وهذا الكتاب له دلالة خاصة إذ يوضح كيف إن المسلمين الأصوليين يجب إن يهتموا بالجانب الاقتصادي. أما يوسف القرضاوي وهو من رجال الشريعة الإسلامية في مصر واستقر في قطر وهي أحد مشيحات الخليج الوهابية وقام بعرض آراءه الدينية في مجالس إدارات العديد من البنوك الإسلامية. ومن القيادات الأخرى للإخوان المسلمين الشيخ محمد الغزالي الذي لجأ إلى دول الخليج وكتب عن الاقتصاديات الإسلامية بما في ذلك مؤلفه (الإسلام والقضايا الاقتصادية).

في مصر كان الرجل الذي بدأ بداية جديدة هو احمد النجار وهو مصري تدرب في البنوك الألمانية. في سنة 1963 انشأ (بنك ميت غمر) ووصفه بأنه أول بنك إسلامي في مصر والعالم³⁵⁵. بدأ بنك ميت غمر بمساعدة كبيرة من البنوك الألمانية، ومن خلال عائلة النجار وبمساعدة قوى أخرى داخل المخابرات المصرية. وقد حدث ذلك بشكل سري، فلا الجمهور ولا الحكومة المصرية اخطروا بان المقصود هو إنشاء بنك إسلامي³⁵⁶. في ذلك الوقت كان الإخوان المسلمون هم أعداء ناصر. وابتعد النجار - علنا على الأقل - عن الحركة السرية العنيفة للإخوان المسلمين. غير أنه كان بكل تأكيد متورطا، فالمقدمة التي كتبها لأحد مؤلفاته تصف تجربته باعتباره رائدا من رواد البنكية الإسلامية. كتبها جمال البنا شقيق حسن البنا مؤسس الإخوان المسلمين. يقول جمال البنا: "إن ما يميز الدكتور النجار عن غيره من الاقتصاديين بشكل رئيسي انه لا يعتبر الاقتصاد الإسلامي علما أو دراسة بل هو قضية لإيقاظ المسلمين ووسيلة لإعادة إحيائهم، ومن ثم فانه يعتبر أن الاقتصاد

355 - سامر سليمان "نموذج البنوك الإسلامية في مصر" في هنري وويلسون ص 267

356 - سليمان ، في هنري وويلسون ص 267

الإسلامي هو جوهر رسالته³⁵⁷ وكتب النجار نفسه يقول إن السبب الرئيسي الذي دفعه لإقامة أول بنك إسلامي هو "إنقاذ الهوية الإسلامية التي كانت قد أخذت تضمحل في مجتمعنا....تمهيدا للانحراف باتجاه الماركسية." وهاجم النجار ناصر بشدة وأبدى ألمه بزعم أن المصريين كانوا يخلعون من الإسلام ويفخرون بالاشتراكية أو الوطنية" ويستطرد النجار قائلا "غير أنني لم أكن أستطيع أن أكشف عن أهدافي الحقيقية."³⁵⁸

كان الإخوان المسلمون منخرطين بعمق في عمل الدكتور النجار وكثير من أعضائهم استثمروا أموالهم في المشاريع التي بدأت مبكرا.³⁵⁹ في سنة 1967 أصبح واضحا أن الإخوان المسلمين قد وضعوا أيديهم فعلا على ميت غمر وأغلق البنك. يقول منذر كاف "إن التجربة المصرية الخاصة بالبنكية الإسلامية تحلت في الستينات لأن دعاة الإحياء الإسلامي وأعضاء الإخوان المسلمين السابقين أخذوا يخرقونها كعملاء ومودعين وربما موظفين أيضا."³⁶⁰ في قمة ازدهارها أصبح لدى هذا البنك تسعة فروع ومائتين وخمسين ألفا من المودعين. ولكن النجار في مذكراته يلوم عبد الناصر لأنه كان السبب في حل البنك. توجه النجار متخفيا إلى السودان حيث استقبل هناك بحفاوة من قبل الإخوان المسلمين. "إن المجتمع في السودان (أي مجتمع الإخوان المسلمين) هو مجتمع متوافق مع الإسلام وهو مجتمع مدني ديمقراطي" هكذا كتب النجار هناك مشيرا إلى أن مرافقه هناك هو حسن الترابي مرشد الإخوان المسلمين في السودان الذي اعتلى السلطة أواخر السبعينات.³⁶¹ حينما أطيح بالحكومة السودانية بواسطة جعفر النميري الذي يدين بالولاء لناصر هرب النجار وتوجه إلى ألمانيا والعربية السعودية والإمارات العربية المتحدة وماليزيا، داعيا إلى إنشاء البنوك الإسلامية. وخلال عقود ثلاثة أخذ ينتقل من دولة إلى أخرى حالما يافتتاح بنك إسلامي. "كان مروجاً لفكرة البنكية الإسلامية لدى كل من يستمع إليه." حسبما يقول عبد القادر توماس مؤسس مجلة جريدة التمويل

357 - جمال البنا - مقدمة مخطوط غير منشور لـ "أحمد النجار" ترجمة رباح الفتوح و عبد القادر توماس

358 - النجار - مخطوط غير منشور - الفصل الثالث

359 - محمد مالى: "عواقب التمويل الإسلامى السياسية فى الأردن" ورقة أعدت بمناسبة الاجتماع السنوي لمؤسسة دراسات الشرق الأوسط - سنة 2001 (جامعة تكساس - أوستن

360 - منذر كاف "بزوغ قوى تحالف جديدة" هنرى وويلسون ص 19

Monzer Kahf, "The Rise of a New power Alliance," in Henry and Wilson

361 - مخطوط غير منشور - الفصل الرابع

الاسلامى الامريكىة "American Journal of Islamic Finance" وعمل مع سبتي بنك - فرع التمويل الإسلامى فى البحرين. وحينما قامت منظمة المؤتمر الإسلامى بمساندة السعودية وإنشاء البنك الإسلامى للتنمية فى جدة سنة 1975 كان النجار هناك. كان البنك الإسلامى بمثابة الجد للبنوك الإسلامية وسانده السعودية وليبيا والكويت والإمارات العربية المتحدة وبعده قام بنك اسلامى آخر هو بنك دبي الإسلامى (1975) ثم دار التمويل الكويتى (1977) والبنك الإسلامى فى السودان (1977) وبنك الأردن الإسلامى من أجل للتنمية والتمويل (1978) والبنك الإسلامى فى البحرين (1978)

تمكن النجار من حشد أهم تابعيه عندما نجح فى إقناع الأمير محمد الفيصل وصالح كامل بعملية إنشاء البنوك الإسلامية. يقول توماس: "كان هو نفس الرجل وكانت نفس اللقاءات التي نظمها وحضرها فى السبعينات. كانت أفكارهما متماثلة لأنه هو الذى ألهمهما، وبدءا معا فى نفس التوقيت الزمنى، كما عمل معهما من نفس الأشخاص كثيرون." ³⁶² حسبما ذكر النجار كان أول من قابله هو الأمير محمد فى اجتماع المؤتمر الإسلامى للتنمية أوائل السبعينات. ³⁶³

بدأت إمبراطورية الأمير محمد الفيصل الخاصة بالبنوك الإسلامية مع إنشاء بنك فيصل الإسلامى فى مصر سنة 1976. من بين كل البنوك الإسلامية كان بنك فيصل الإسلامى المصرى هو أكثرها استيفاء للإجراءات الرسمية وأدقها بناءا. وأنشئ له مجلس للشرعية تم اختيار أعضائه بعناية من بين رجال الدين الموثوقين. وأنشأ الأمير فيصل أيضا الاتحاد الدولى للبنوك الإسلامية كما وضع مرجعا للبنوك الإسلامية Handbook of ISLAMIC BANKING وأقام شبكة عالمية اسمها (مجموعة فيصل)، وضمت هذه المجموعة كل أو جزء من بنوك: الأردن الإسلامى، بنك فيصل الإسلامى فى السودان، ومؤسسة فيصل للتمويل فى تركيا (1985). فى 1981 عقد مؤتمر قمة اسلامى فى الطائف فى المملكة العربية السعودية، وضع الأمير محمد الفيصل تفاصيل دار المال الإسلامى فى جزر البهاما ومركز عملياتها فى جنيف، ويشارك فيها مساهمون من 10 بلدان تشمل البحرين وباكستان وتركيا والدنمرك ولكسمبرج وغينيا والسنغال والنيجر ³⁶⁴ فى خلال هذه الفترة كان صالح

362 - بربرا دريفوس مقابلة مع المؤلف - أغسطس 2004

363 - Najjar, النجار مخطوط لم ينشر الفصل التاسع .

364 - Richard Labeviere, Dollars for Terror: The United States and Islam (New York, 2000), p240

كامل يقيم إمبراطوريته الخاصة (مجموعة البركة) - وصالح كامل سعودي الجنسية وهو بليونير ينتمي إلى العائلة المالكة عن طريق المصاهرة، كان يتولى الإشراف على ملتقى سنوي يحضره عشرات من الاقتصاديين والبنكيين حيث يلتقون وعلماء الشريعة الإسلامية.³⁶⁵ وفي الأزهر (مركز العلوم الإسلامية لألف عام) أنشأ ما يطلق عليه "مركز صالح كامل للدراسات الاقتصادية الإسلامية". وكان الذي يتولى إدارة شركة البركة للاستثمار والتنمية عضوا قياديا في الإخوان المسلمين³⁶⁶ كما كانت فروعها في السودان وتركيا وغيرها تعمل في ارتباط وثيق مع الإخوان المسلمين.

خلال السبعينات والثمانينات وجدت كل من دار المال الإسلامي ومجموعة البركة حلفاء لها في لندن ونيويورك وهونج كونج وسويسرا ومراكز مالية في أماكن أخرى مثل البهاما وجزر التمساح. يقول إبراهيم كامل نائب رئيس مجلس إدارة دار المال الإسلامي وعضو التنظيم الدولي لرجال الإدارة المتميزين، يقول في مؤتمر تشاوري (كونفرنس) عقد في بادن بادن في ألمانيا الغربية أن وجود مركز عمليات دار المال الإسلامي في جنيف ما كان ممكنا لولا المساعدة التي قدمها برايس ووتر هاوس: "إن الأشخاص الذين أوضحوا طبيعة البنوك الإسلامية للجنة البنوك السويسرية هم برايس ووترهاوس الذي كان يراجع عملنا منذ أكثر من ثلاثة سنين". في الواقع عقدت عشرات المؤتمرات التشاورية في مراكز مالية غربية من أجل مناقشة الأنظمة البنكية الإسلامية وشارك فيها مؤسسات أكاديمية محترمة. وعلى سبيل المثال شاركت جامعة هارفارد ببرنامجها الإعلامي بخصوص عملية التمويل الإسلامي، وساهم في تمويل هذا الملتقى كل من الدوائر البنكية الغربية والإسلامية.

لقد أعدت البنكية الإسلامية الآلية التي تتيح الجمع بين المحافظين الأغنياء والنشطاء الإسلاميين وعلماء الشريعة الإسلامية اليمينيين في إطار بيئة واحدة مما يمكن من تقوية الثلاثة معا. فالبنوك الإسلامية تقدم الآلية التي تمكن الإحياء الإسلامي من التقدم. خلال الحرب الباردة لم يقدم أحد فكرة أن البنوك الإسلامية يمكن أن يكون لها آثار وبيلة على المجتمعات الشرق أوسطية وأنها يمكن أن تكون

365 - Kahf, in Henry and Wilson, p. 24

366 - Andre Stiansen, Interest Politics: Islamic Finance in the Sudan, 1977-2001, "in Clement and Henry, p.157

سلاحاً يرتد ضد الغرب. يشير تيمور قرآن المؤلف التركي لكتاب (الإسلام والمأمون) إلى أن "الاقتصاديات الإسلامية قد أدت إلى انتشار ظاهرة (معاداة الحداثة) وأنها قد تؤدي في بعض جوانبها إلى انتشار التيارات المعادية للغرب عبر العالم الإسلامي".³⁶⁷

وتوضح كتابات منذر كاف وهو إسلامي راديكالي سوري حصل على درجة الدكتوراه من جامعة أوتاه وتخرج من جامعة دمشق ودرس الشريعة الإسلامية- توضح كتاباته إلى أي حد أدت البنكية الإسلامية إلى انتشار الإسلام السياسي. فممنذ 1975-1980 قام كاف بإدارة الشؤون المالية للجمعية الإسلامية في شمال أمريكا وهي مؤسسة إسلامية أصولية جهادية تتخذ من إنديانا مقراً لها ولها اتصالات وثيقة بالإخوان المسلمين. فبعد إن عمل لفترة زمنية في الأعمال البنكية في نيويورك اتجه إلى العمل لصالح (المؤسسة الإسلامية للبحوث والتدريب) التابعة للبنك الإسلامي للتنمية في جدة خلال الفترة 1985-1999. ومنذ ذلك الحين شغل كاف منصب مستشار ومحاضر في شؤون التمويل الإسلامي في كاليفورنيا وكتب عن هذا الموضوع باستفاضة.

في ورقة قدمت سنة 2002 في ملتقى هارفارد بخصوص التمويل والنظام البنكي الإسلامي يصف كاف كيف إن البنوك الإسلامية الكبيرة قد تمكنت من إقامة تحالف سياسي اقتصادي مع العلماء من رجال الدين: "إن الاتصالات الرسمية المنتظمة بين البنوك الإسلامية وعلماء الشريعة جاءت خلال التحضيرات الجارية لتأسيس البنوك الإسلامية في مصر والأردن في النصف الثاني من السبعينات.

عندما ظهرت أنواع جديدة من الاستثمارات الدولية الإسلامية كان عليهم أيضاً إن يجلبوا علماء الشريعة بالرغم من أنها كانت تدار بواسطة رجال بنوك ووسطاء ومراكز استثمار غربية ليحوزوا القبول والشرعية.

إن اللقاءات العديدة والمقابلات والمؤتمرات والكونفرنسات التي تمت منذ منتصف السبعينات في أركان الأرض الأربعة قد عززت أكثر فأكثر هذا التحالف بين البنكيين الإسلاميين وعلماء الشريعة الإسلامية وطورت علاقات العمل المتبادلة.

من وجهة نظر العلماء فإن هذا التحالف الجديد قد أعادهم مجدداً إلى المسرح السياسي في الوقت الذي كانوا يتطلعون فيه إلى ذلك بشوق كبير. وبالإضافة فإن هذا التحالف يعطي العلماء مورداً جديداً لزيادة دخولهم ويفتح لهم نافذة على نوع

جديد من الحياة يتضمن رحلات جوية قد تكون أحيانا على طائرات خاصة والإقامة في فنادق خمسة نجوم ويجعلهم في مركز اهتمام وسائل الإعلام بما يتيح لآرائهم إن تذايع مما يتيح للشخصيات ذوى المراتب الرفيعة اقتصاديا واجتماعيا إن يهرعوا لسماعهم، بالإضافة الى هؤلاء الذين يتطلعون إلى إن يقوموا بدور الوساطة ويحصلون على مقابل لفتا ويهم.... لقد أصبحوا في حقيقة الأمر مشهورين في بلادهم المحترمة وحتى خارج حدودها.

إن هذا الحلف قد خلق جوا يتيح لفتاويهم وللحركة الإسلامية السياسية وللحكومات في الدول الإسلامية خاصة العربية مما يعطى للفتاوى مذاقا سياسيا أكثر طزاجة.³⁶⁸ ويعنى كاف بالفتاوى اسلمة المجتمع اجتماعيا وسياسيا فى العالم الاسلامى. ويضيف كاف أن علماء الشريعة الذين عينوا فى المجالس الاستشارية وغيرها من الوظائف كانوا يختارون بعناية شديدة، والمبالغون فى الراديكالية لا يقبلون من جانب المسئولين الحكوميين العاديين أو رجال البنوك الغربيين ويتم تجنيبهم. كذلك كان العلماء الذين يحظون برضاء الحكومة.³⁶⁹

إن هذه العملية قد خلقت طبقة جديدة تماما وثرية من الإسلاميين اليمينيين ولهم منافذهم إلى المال والإعلام.

تصغير الكويت

تمدنا حالة الكويت بخبرة نموذجية حية فيما يتعلق بكيفية نجاح البنوك الإسلامية فى تغيير الشرق الأوسط. هنا نجد نموذجا واضحا لكيفية تطور العملية الخاصة بنظام البنوك الإسلامية أو ما نطلق عليه البنكية الإسلامية. إن بنكا واحدا أو عدة بنوك إسلامية تشكل رأس حربة، فالبنك يودى وظيفة المركز الرئيس الاقتصادى لرجال الأعمال من الإخوان المسلمين وغيرهم من نشطاء الإسلاميين. والبنك ينشئ قاعدة للأتباع المخلصين بينما يبنى تحالفات مرنة مع السياسيين سواء

368 - منذر كاف ورقة مقدمة فى ملتقى هارفارد حول نظام البنوك والتمويل الإسلامى ، جامعة هارفارد، 6-7 ابريل 2002. Monzer Kahf " Strategic Trends in the Islamic Banking and

Finance Movement.

369 - المرجع السابق

كانوا دينيين أو علمانيين. وتستمد المنظمات الإسلامية مزيداً من القوة من قوة البنك الاقتصادية ومن المؤسسات الإسلامية بما في ذلك المساجد ومؤسسات البر ومؤسسات الأعمال وتحقق النجاح نتيجة لذلك. وهكذا تظهر طبقة جديدة من الإسلاميين الأغنياء تساعد في تمويل الإخوان المسلمين والجهة السياسية الإسلامية. على خلاف السعودية المتأثرة بالمذهب الوهابي، كانت الكويت الدولية الصغرى الغنية أكثر ليبرالية وتحرراً. ولكن في السبعينات التقت العائلة المالكة مع اليمين الإسلامي ومع الجماعات البنكية الإسلامية وتعاونوا معاً في المعركة ضد الحركة الوطنية الناشئة. ونتيجة لذلك حدث تغير جذري في إمارات الخليج كافة. وكان مركز هذه الجهود بنكا إسلاميا يطلق عليه (دار الكويت التمويل). لم تكن الكويت أبداً ملاذاً للإسلاميين، فالحركة الوهابية الجهادية التي سيطرت على العربية لصالح آل سعود وكان لديها نفوذ في قطر وأجزاء من الإمارات العربية المتحدة لم تجد لها في الكويت موطئ قدم قط. فالعائلة المالكة التي سيطرت عليها وصلت إلى السلطة بقوة الأسلحة التي حصلت عليها من بريطانيا. وكانت عموماً فيما يبدو قانعة بنصيبها. ولكنها في واقع الأمر كانت مهزوزة، مصنوعة، مقطّعة من الأقاليم الجنوبية للعراق ومن الإمبراطورية العثمانية وخلقت عمداً لتصبح مركزاً بريطانياً في الخليج ولتضاعف إنتاجه البترولي لصالح شركة البترول البريطانية وشركة بترول الخليج. وطالب عدد من الحكومات العراقية أن تضع يدها عليها، وأمكن المحافظة على وجودها الهش ضد التدخل العراقي مرتين على الأقل بفضل القوات البريطانية سنة 1961 عند حصولها على الاستقلال، ثم بقوات التحالف التي تقودها الولايات المتحدة سنة 1991. وحتى بعد سنة 1961 كانت تعتمد على العاملين البريطانيين وضباط الجيش وخبراء البترول الانجلوأمريكان، وكانت الترتيبات مرضية لكافة الأطراف: الانجلوأمريكان لهم كل الحق في الحصول على بترول الكويت والعائلة المالكة ستقبل شاكرة حمايتها وحصة مناسبة من العمليات. مع ذلك كانت الكويت مجتمعاً علمانياً إلى حد كبير. في الخليج كان معروفاً عن الكويت تقاليداً الليبرالية نسبياً ووجود برلمان ينعقد أحياناً ولا ينعقد أحياناً أخرى، وكانت وسائل إعلامها مستقلة في الغالب والمناقشات السياسية فيها منتعشة إلى حد ما، ذلك أن العدد الضئيل من سكانها كان يفضل ألا يعمل إذا لم يكن مضطراً. كانت الكويت تستورد مئات الألوف للعمل فيها من الدول العربية وآسيا سيما من الفلسطينيين. وكانت هذه هي المشكلة.

يلاحظ تالكوت سيبل الذي كان مبعوث وزارة الخارجية الأمريكية إلى الكويت في أواخر الخمسينات: "كانت الكويت مركزا للاستماع إلى القومية العربية. كانت الناصرية العلمانية هي القوة السياسية شبه المسيطرة في ذلك الحين وكان الاسلاميون في الظل." ولقيت الثورة العراقية سنة 1958 التي قام بها الشيوعيون والوطنيون، لقيت تعاطفا كبيرا في أنحاء الكويت بما في ذلك أقلية من عائلة آل الصباح المالكة. يتذكر سيبل: "أتذكر بينما كنت جالسا مع الشيخ جابر آل صباح وهو حاكم الكويت الآن، انه حينما ذكرت اسم ملك العراق، أشار بيده إشارة تدل على أن الملك عليه أن يرحل." وذكر سيبل انه حتى ذلك الحين كان هناك عدد كبير من الفلسطينيين الذين تجمعوا في الكويت "كانت الكويت مجتمعا علمانيا إلى حد كبير ولكن البريطانيين كانت لهم السيطرة"³⁷⁰. خلال الستينات كانت الحكومة الكويتية بالرغم من أنها لا يمكن تصنيفها باعتبارها مثل دولة المدينة اليونانية إلا أنها كانت من اقل دول الشرق الأوسط شمولية. كان الفلسطينيون الذين يشكلون عددا كبيرا من القوة العاملة في الكويت ومن المهنيين بالإضافة إلى الطلاب كانوا قوة هامة بينما لم يكن للإسلاميين ويمثلهم الإخوان المسلمون، سوى تأثير ضئيل في ذلك الحين. يقول احد الدبلوماسيين الأمريكيين وكان يعمل في المخابرات المركزية الامريكية: "كنت معتادا على حضور اجتماع المجلس الوطني وكنت استمتع دائما بما يقوله المحافظون الاسلاميون الذين كانوا دائمي الانتقاد لآل الصباح، ولكنهم لم يكونوا معلما بارزا كما لم يكونوا منظمين. كان هناك دائما الإخوان المسلمون القادمين من مصر لكن لم أكن أظن أبدا أن" الجانب الاسلامي كان مؤثرا.³⁷¹

عدد كبير من الفلسطينيين التقدميين في الكويت جاءوا من صفوف الحركة القومية العربية التي أسسها في الأربعينات جورج حبش الذي سوف يؤسس فيما بعد الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. القوميون العرب كانوا ليبراليين وعلمانيين تلقوا دعما من ناصر ومن حزب البعث العربي الاشتراكي الذي كان له عضوية يعتد بها بين الفلسطينيين في بيروت وعمان والكويت. يقول مسئول سابق آخر في المخابرات المركزية الأمريكية ممن كان لهم تعاملات مع بعض القيادات الفلسطينية: "في سنة 1968 عندما تأسست الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين كان جميع أعضائها من القوميين العرب. وقد تحدثت في ذلك الحين مع الكثير ممن كانوا ينتمون إلى

370 - Talcott Seelye في مقابلة مع المؤلف - يونيو 2004

371 - مسئول سابق في المخابرات المركزية الامريكية في مقابلة مع المؤلف - يونيو 2004

حركة القوميين العرب³⁷². القوميون العرب مجرد تعبير واحد عن القومية العربية والعروبة الشاملة التي بدأت تجذب أعضاء لها من الكويت خلال الخمسينات والستينات أولا من بين المهاجرين العرب الذين يعملون في الكويت ثم توسعوا لتشمل العضوية مواطنين كويتيين متميزين بل ويكتسبون تأييدا بين عدد من أعضاء الأسرة الحاكمة في الكويت. في منتصف السبعينات أزعت القوة التي يتمتع بها القوميون العرب في الكويت، أزعت فرع قبيلة آل صباح. ومثلما حدث للسادات في مصر اخذوا يتطلعون إلى مساندة الإسلاميين.

إننا ندين لكريستين سميث مؤلفة الكتاب الذي يتناول احد الدراسات الهامة واللامعة التي توضح حكاية كيف استطاع بنك اسلامي أن يحدث تغيرا في الكويت وكيف انه من اجل المساعدة في إحداث تحول في الكويت حشد اليمين الاسلامي³⁷³ قواه المالية إلى جانب القوى الاوليغاركية الحاكمة التي شعرت بأنها أصبحت مهددة، تقول كريستين: " قامت الحكومة الكويتية التي أزعتها مزيج من بيانات المعارضة ونمو التجمع الفلسطيني المجتمعي للعاملين الفلسطينيين في الكويت، قامت الحكومة سنة 1976 " بحل البرلمان لأول مرة منذ التحرير وأخذت تلتمس المساعدة من حلفاء جدد لمجابهة القومية العربية فوجدت ضالتها في القوى الإسلامية.³⁷⁴

وإذ تطلع الكويتيون إلى الإسلاميين فقد تمثلوا ما سبق أن حدث في الأردن حينما ساعد الإخوان المسلمون الملك حسين على سحق التمرد الفلسطيني. فهذه الدولة الصغيرة- التي أقامها ت.لورنس وتشرشل والمكتب العربي التابع للمخابرات البريطانية- وينحدر ملكها من سلالة الأسرة الهاشمية، كانت قد استضافت عددا كبيرا من اللاجئين الفلسطينيين. وبعد عدة سنوات من التوتر اشتعلت هناك حرب أهلية سنة 1970. وفي مذبحه يتذكرونها باسم (أيلول الأسود) حشد الملك حسين الجيش البدوي في الأردن ليهزم الانتفاضة الفلسطينية، والقي الإخوان المسلمون بثقلهم في المعركة ضد منظمة التحرير الفلسطينية من اجل مساندة الملك. هكذا فكر حكام الكويت حيث استنتجوا أن اليمين الاسلامي يمكن أن يزود المشيخة الخليجية (الكويت) بمساندة هامة ضد القوميين العرب والفلسطينيين الوطنيين.

372 - المرجع السابق

373 - Kristin Smith, "The Kuwait Finance House and the Islamization of Public Life in Kuwait," in Henry and Wilson, pp.168-90

374 - المرجع السابق ص 172

فى ذلك الوقت لم تكن النساء الكويتيات يرتدين الحجاب فعلا. وكان معظم من يرتادون المساجد من كبار السن. وفى الجامعات الكويتية كان الرجال والنساء يتلقون العلم معا جنبا إلى جنب. وكان معظم الكويتيين يعتقدون أن الدين أمر هام فى الحياة الخاصة والأنشطة الثقافية ولكن ليس فى السياسة. لم يكن الإسلام السياسى له وجود فى الكويت سوى وجود محدود رغم أن الإخوان المسلمين كانوا منظمين بشكل جيد من خلال الجمعيات الخيرية التى تأسست سنة 1962.

فى منتصف السبعينات ضم آل الصباح أيديهم إلى ايدى الإخوان المسلمين. وحينما تصاعد الضغط السياسى من جانب القوميين العرب ومؤيدي منظمة التحرير وسائر الكويتيين الذين كان قد تم إزاحتهم من السلطة بواسطة عائلة آل صباح، قام آل صباح بإلغاء القوانين المثيرة للضجة، قبل حل البرلمان بالتأييد من جانب الإخوان المسلمين والمجتمع الاصلاحى وعين رئيسهم وزيرا للأوقاف فى الحكومة الكويتية. وبدورها ساعدت هذه الوزارة وشجعت على إقامة مؤسسة بنكية بدون فوائد وهى (دار التمويل الكويتية) سنة 1977 ويجرى إدارتها على أساس النظرية التى تقول أن القرآن يحرم الفوائد على القروض. وهى النظرية التى يرفضها علماء الإسلام المحدثين. كان الاسلاميون فى الكويت، يساندتهم الإخوان المسلمون فى مصر يضغطون من اجل إقامة مثل هذا البنك منذ أوائل السبعينات. وفجأة ما بين ليلة وضحاها نمت هذه المؤسسة لتصبح كما لو كانت اكبر بنوك الكويت تحت رعاية آل صباح.

أقيمت دار التمويل الكويتية بمساهمة حكومية تبلغ 49% من رأس المال وحظيت بمعاملة خاصة لا تحظى بها البنوك الأخرى خاصة فيما يتعلق بالإعفاء من قواعد البنك المركزى كما حظيت بوضع احتكاري خاص بصفتها البنك الإسلامى الوحيد فى الكويت.... إن دار التمويل الكويتية هى التعبير الدقيق عن تحالف الأمر الواقع بين الأسرة الحاكمة والحركة الإسلامية. منذ ذلك الحين أصبح التمويل الإسلامى فى الكويت يجسد النمو المستمر لاسلمة الحياة العامة فى الكويت تحت الملاحظة الدقيقة والمستمرة من جانب الحكومة الكويتية.³⁷⁵

كذلك كان لدار التمويل الإسلامى الكويتية تأثير آخر فقد تخطت النخبة التجارية الكويتية والتجارة الخاصة التى رفضت سيطرة آل صباح على هذه الأمة الصغيرة. كان عدد كبير من الطبقة التجارية قد جذبتهم الحركة القومية فى معارضة

آل صباح غير انه حيل بينهم وبين الانخراط في سوق التمويل الإسلامية، وحشدت الحكومة الكويتية بدلا من ذلك بدو الصحراء ضد التجار. كانت قبائل البدو هي القوة التي استخدمها الملك حسين ضد منظمة التحرير الفلسطينية وبدو السعودية هم أيضا قلب القوى الأكثر رجعية في المملكة العربية السعودية.

أطلق احد الأساتذة الكويتيين البارزين (البروفيسور شفيق جبرا) أطلق على عملية تصاعد نفوذ البدو في الكويت "عملية التصحير":

" لقد نضج الزواج بين قيم البدو وقيم الحركة الإسلامية. لقد نزحت معظم قبائل البدو من الهامش الذي كانت تعيش فيه إلى المقدمة في المطالبة بالاعتراف الاجتماعي والمساواة المجتمعية وهما من الأسس التي يقوم عليها الإسلام. ومن صفوفهم صعد عدد من الإسلاميين الشعبين ذوي النفوذ...عملية التصحير هذه حسبما يطلق عليها المفكر البحريني محمد أنصاري هي من أكثر العمليات تدميرا في الشرق الأوسط. فهي تحط من قدر التحديث في المجتمع الحضري إذ تجلب إليه أكثر قيم الصحراء محافظة ومزجها بالشعبية الإسلامية."³⁷⁶

كان آل صباح مستعدين أن يذهبوا في مغامرتهم إلى ابعد مدى من اجل تشجيع الإسلاميين ضد اليسار. وهكذا كان. بعد أن قرر آل صباح ذلك أصبحت مسألة إعادة البرلمان شيئا لا خوف منه. وسرعان ما اهتبل الاسلاميون الفرصة حيث حصلوا على مقعدين في انتخابات 1981 والمزيد فيما بعد. كتب جبرا قائلا: " في انتخابات 1981 هزمت القوى العربية الشمولية من قبل الإسلاميين الذين اصبحوا القوة السياسية الوحيدة المنظمة في البرلمان."³⁷⁷ لم يكن أيا من هذا بطبيعة الحال نتيجة انتفاضة محلية إسلامية مشروعة، بل كان النتيجة المباشرة " لقرار اتخذه حكام الكويت ويؤيده بيت التمويل الكويتي.

كان من شأن هذه الدرجة من النمو التي بلغها بيت التمويل الكويتي تعزيز نمو الإسلاميين في الكويت بداية من 1977 فصاعدا. كان معروفا في الكويت أن بيت التمويل الكويتي يمول الإسلاميين السياسيين تمويلا نوعيا ويضع موارد ضخمة تحت تصرف دعايتهم الانتخابية". كتبت كريستين سميث تقول: " المال، الضياع، الوظائف.... من اجل التأثير في الانتخابات."³⁷⁸ وقد أعلن أن هذه الصيغ قد

376 - شفيق جبرا " الدولة المتوازنة والمجتمع: الحركة الإسلامية في الكويت" (السياسة الشرق أوسطية -

مايو 1977 - ص ص 61-62

377- مرج سابق ص 60

378 - سميث- * هنري وويلس ص 178

استخدمت في التجمعات والمظاهرات. واندرجت قوة العمل الهائلة في حملات الإسلاميين. وأصبحت دار التمويل الكويتية كذلك ملاذا لمئات المؤسسات الخيرية الإسلامية المرتبطة عادة بالجماعات الإسلامية. بعض الأموال التي استخدمت لتمويل الجماعات الإسلامية في مصر وأفغانستان والجزائر قد تم تحويلها من دار التمويل الكويتية. كما حولت بشكل مباشر الأموال من دار التمويل الكويتية لصالح الجمعيات الخيرية والجماعات الاجتماعية التي يديرها المسلمون أو على الأقل فإن واحدة من هذه الجمعيات الخيرية المرتبطة مباشرة بدار التمويل الكويتية كانت حسبما أعلن مرتبطة بالقاعدة.³⁷⁹

وفرض بيت التمويل فصلا صارما بين الذكور والإناث وأنشئت خارجة مؤسسات "تدار على أساس القواعد الإسلامية" كالمباني والمحال التجارية الكبيرة والمدارس وكلها منظمة طبقا للمبادئ الصارمة الأشد محافظة. كانت لها قرون استشعار في كل مكان.

أعطت دار التمويل الكويتية اهتماما خاصا للتعليم. ونظمت رحلات إليها وخصصت جوائز لتشجيع الطلاب على دراسة الاقتصاديات الإسلامية وإقامة المباريات الإسلامية (حفظ القرآن) وما شابه وإنشاء المدارس الإسلامية الخاصة، ومن خلال مجلتها الشهرية الخاصة (النور) التي توزع قرابة 10 آلاف نسخة³⁸⁰ تستطيع دار التمويل الإسلامية الكويتية أن تتواصل مع المجتمع.

عجل وجود دار التمويل التي أضحت مؤسسة بليونية، عجل من انتشار الإسلام السياسي اليميني في الكويت التي كانت من قبل علمانية. واستطاع المسلمون أن يسيطروا على اتحاد المدرسين ووزارة التعليم وتغيرت إصداراتها لتجاري هذا التحول الديني. كذلك سقطت وزارة الإعلام تحت نفوذ الإسلاميين وأصبحت برامج التلفزيون أكثر محافظة وتحت الرقابة. وروقت الكتب بينما أغرقت البلاد سيول من النشرات والشرائط التي تفرض وجهات نظر الإسلاميين والوعاظ الإحيائيين الجدد.³⁸¹

379 - المرجع السابق - إحدى المؤسسات الخيرية الكويتية أدرجت ضمن القائمة التي أعدتها الحكومة الأمريكية للمنظمات التي يشتبه في إن لها صلات بإسمه بن لادن حسبما ذكر تقرير لاسوشايتد برس في 29 ديسمبر 2001 بعنوان "الكويت تسائل مؤسسة خيرية فما يتلق بتمويل الإرهابيين".

380 - سميث - "هنري وويلسون" ص 81

381 - جبرا ص 61

إن تصحير الكويت هو مثل واحد على مدى التأثير الذى بلغته قوة اليمين الاسلامى المدعم بالاموال. غير أن ما كان يبدو فى الظاهر أعمالاً رأسمالية فى نظر المخابرات المركزية الأمريكية والكثير من الحكام فى الشرق الأوسط، كان له جانبه المظلم الذى يتبدى فى النمو الاسطورى للإسلاميين تحت الأرض الذين وجهوا السخط ليس فقط ضد اليسار والوطنيين بل وكذلك ضد الولايات المتحدة والغرب وحلفائهم من العرب فى الشرق الأوسط.

إن مؤسسات الإسلام الاقتصادى من بنوك ومؤسسات تمويل وجمعيات خيرية أنشأها الإخوان المسلمون وحلفاؤهم فى الخليج قد ساعدت على بذر بذور هذا الجيل الجديد من الإسلاميين بمن فيهم قادة القاعدة.

غير أن الولايات المتحدة والعربية السعودية وباكستان استمروا فى استخدام الإسلام اليميني فى حساباتهم السياسية الخارجية وتبعته بلدان أخرى. فى أواخر السبعينات بينما كانت الولايات المتحدة تمهد الأرض من أجل الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي فى أفغانستان، كان اثنان من حلفائها: إسرائيل والأردن يدشنان جهازاً مصغراً لصالحهما باستخدام اليمين الإسلامى ضد سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية.

*

الفصل الثامن

إسلاميو إسرائيل

فيما يبدو لم يكن وضع الولايات المتحدة في الشرق الأوسط في أفضل حالاته أمنا مثلما كان أواخر السبعينات. ولم يعد هناك مما يطلق عليه دولا رافضة سوى عدد لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة (العراق، سوريا، ليبيا فضلا عن منظمة التحرير الفلسطينية)، وقفت خارج الإمبراطورية الأمريكية الناشئة. كانت الولايات المتحدة في وضع هجومي، وبالتعاون مع حلفائها بمن فيهم إسرائيل ومصر والاردن وملكيات الخليج حاولت الولايات المتحدة أن تضعف وتعزل سائر الرافضين وإضعاف تأثيرهم في المنطقة بل ومحاولة إحداث تغييرات في أنظمة المنطقة مستخدمة في ذلك مزيجا من التهديدات والإغراءات والرشاوى. وجد عضوان من الكتلة المناوئة للولايات المتحدة وهما سوريا ومنظمة التحرير وجدا نفسيهما مواجهين بحروب أهلية متزامنة ضد قوى يقودها الإخوان المسلمون واليمينيين الإسلاميين. من جانبهم كان الإخوان المسلمون مؤيدين من جانب اثنين من حلفاء الولايات المتحدة هما إسرائيل وإيران. وتكتيكيا ساندت الولايات المتحدة حلفاءها في تصعيد حالة عدم الاستقرار الذي يتسبب فيه الإسلاميون ضد دمشق وضد ياسر عرفات. وتصاعدت الجهود الاسرائيلية الأردنية في مساندة الإخوان المسلمين في أواخر السبعينات واستمرت خلال الثمانينات. خلال هذه الفترة بدأ اليمين الإسلامي يستعرض سماته الراديكالية والمعادية لأمريكا، الأمر الذي سوف يؤدي فيما بعد إلى المرحلة الموسومة بالإرهاب المرتبطة بأسامة بن لادن.

خلال الفترة من 1979-1981 تفجرت معا الأحداث التالية: انقلاب إسلامي معادي في إيران يستولي على السلطة- تمرد إسلامي كبير في السعودية- اغتيال السادات بواسطة إرهابيين مرتبطين بالإخوان. ولكن قبل ذلك وخلال وبعد، تتابع عمان وإسرائيل سياستهما غير المحسوبة في مساندة الجماعات المتحالفة مع الإخوان المسلمين في سوريا وفلسطين. وبالرغم من انه لا يوجد دليل على أن الولايات المتحدة كانت متورطة في الجهود الاسرائيلية الأردنية إلا انه طبقا لمسؤولين أمريكيين خدموا في الشرق الأوسط خلال هذه الفترة، فان المخابرات

المركزية الأمريكية كانت تتابع هذه التطورات وكان هؤلاء المسئولون على علم بما تفعله إسرائيل والاردن. ولم يحدث قط أن طلبت منهما الولايات المتحدة ألا يقوموا بذلك.

قد يبدو مثيرا للدهشة أن دولة يهودية ودولة علمانية ملكية يضمن قواهما إلى الإسلاميين الأصوليين. ولكن في كل من عمان وإسرائيل كان ينظر إلى الإخوان المسلمين بخبث باعتبارهم سلاحا ضد سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية .

في سوريا كان الإخوان المسلمون يقومون بهجمات منظمة، إرهاب، تمرد وحرب إرهابية ضد سوريا خلفت وراءها آلاف من القتلى. ومنذ بداية 1976 حتى أواخر الثمانينات ساعدت إسرائيل الإخوان المسلمين ليبنوا قوتهم في الأراضي المحتلة. ساعدت احمد ياسين زعيم الإخوان المسلمين في إنشاء حماس مراهنه بذلك على أن طبيعتها الإسلامية سوف تدفعها إلى إضعاف منظمة التحرير، وكذلك كان، بالرغم من أنها تبادلت إطلاق النار بطريقة دفعت مؤيدي حماس الى عدم الاعتداد بذلك مما تمخض عنه ظهور جماعة إرهابية قامت في خلال التسعينات بتفجيرات إرهابية أدت إلى قتل المئات من اليهود الإسرائيليين. معا أطلقت إسرائيل والاردن عنان الوحش.

حماس التي دربتها إسرائيل

يعلق شارلس فريمان وهو دبلوماسي امريكي مخضرم وسفير سابق للولايات المتحدة في السعودية: " كان هذا مشروع الشين بت (وكالة المخابرات الاسرائيلية المحلية) التي كانت تشعر بأنها يمكن أن تستخدمهم في تهذيب منظمة التحرير الفلسطينية"³⁸²

ومع أنها أنشئت سنة 1987 إلا أن جميع المنتمين إليها كانوا من الإخوان المسلمين سيما من قطاع غزة. في بداية حرب 1967 واحتلال إسرائيل للقطاع والضفة الغربية انتعش الاسلاميون بمساندة كل من إسرائيل والاردن. من الناحية الرسمية كان الإخوان المسلمون يخضعون في الناطق المحتلة لإشراف الإخوان المسلمين في الأردن وكانت حماس جزءا لا يتجزأ من المنظمة.

تعود جذور حماس إلى ثلاثينات القرن العشرين حين بدأ نشاطها مع نشاط الحاج أمين الحسيني مفتي القدس الموالي للنازي (ولبريطانيا كذلك). لم يكن الجانب الفلسطيني من كفاح الحاج أمين الحسيني طوال هذه الفترة يضم في تكوينه الكثير من الفلسطينيين. كان المفتي قد التقى مبعوثي حسن البنا سنة 1935. وكانت جمعية المكارم بالقدس في فلسطين ويديرها الإخوان المسلمون قد أنشئت سنة 1943³⁸³، ولكن عددا كبيرا من المسلمين الوطنيين الذين سوف يصبحون قادة في الحركة العلمانية غير الإسلامية من أجل إنشاء دولة فلسطينية قد انجذبوا في ذلك الوقت إلى الإخوان المسلمين، وعندما بدأت فروع الجماعة تمتد إلى عمان وعدة مدن سورية منها حلب وحماه ودمشق، وكذلك غزة والقدس والرملة وحيفا وغيرها من المدن. افتتح أول مقر للجماعة في القدس سنة 1945 بواسطة سعيد رمضان. وفي سنة 1947 أصبح للجماعة 25 فرعا تضم حوالي 25 ألف عضو³⁸⁴. في أكتوبر 1946 وكذلك 1947 عقد الإخوان المسلمون اجتماعا إقليميا في حيفا حضره مندوبون من لبنان والاردن داعيا إلى نشر فروع الجماعة في كل أنحاء فلسطين.³⁸⁵

في أيامها الأولى كان للحركة شعبتين. في غزة كانوا تابعين للمركز الرئيسي للإخوان في القاهرة. وفي الضفة الغربية وهي المنطقة التي ألحقت بالإدارة الأردنية بعد سنة 1948 ألحقت الشعب بفرع الإخوان المسلمين في الأردن. في سنة 1950 اتحد الفرعان في غزة والضفة الغربية ليشكلوا معا جماعة الإخوان المسلمين في الأردن. كانت جماعة ضعيفة ومحافضة وطورت بشكل متزايد علاقات وثيقة بملك الأردن وكانت تلقى الاحتقار من جانب الوطنيين.³⁸⁶ وبدورها شجعت العائلة المالكة نشطاء الإخوان المسلمين حيث رأوا فيها قوة يمكن أن تحقق توازنا مع القوى الأخرى من شيوعيين ويساريين وفيما بعد العناصر المتعاطفة مع الناصريين والبعثيين. كان مؤسس الإخوان المسلمين وقائدهم التنظيمي في الأردن هو أبو قرة وهو تاجر غنى لا يعنيه سوى نفسه. كان لقره علاقات مع رجال أعمال سوريين في عمان ومع البنا ورمضان في مصر. ومنح الملك عبد الله الإخوان وضعاً قانونياً

383 - خالد حروب حماس: أفكارها السياسية وممارساتها (واشنطن - مؤسسة الدراسات الفلسطينية 2000) ص 15.

384 - زياد ابو عمرو الأصولية الإسلامية في الضفة الغربية وغزة 1994 ص 3.

385 حروب ص 16.

386 - المرجع السابق ص 20.

بوصفهم تنظيم خيري على أمل إن يحتفظ بتأييدهم تجاه المعارضة العلمانية.³⁸⁷ غير أن الملك كان ينظر إلى الإخوان ببعض الريبة ولكنه كان يأمل في التعاون معهم بما يمكن أن يحفز زعامته الدينية من الناحية القانونية. كان أبوه هو شريف مكة سابقا وهو رجل لورنس الذي كان لا يزال يحظى بشعبية- ولكن مشكوكا فيها- باعتباره من سلالة النبي محمد. وبالرغم من أن ذلك اخذ يتضاءل إلا أنه ظل كما فعل حفيده الملك حسين يعمل كل ما في وسعه من أجل المحافظة عليها.

مثلهم مثل اليمين الاسلامي في كل مكان كان الإخوان المسلمون في مصر يعارضون الشيوعية ويدعون أن "مصر والعالم الاسلامي سوف يصبحون في القرن العشرين عرضة لتهديد الإيديولوجية الشيوعية والقومية التي تتكرر سيادة الشريعة³⁸⁸. كان الإخوان المسلمون قوة موالية مؤيدة للملك حسين وتعارض بشدة القومية العربية. وقاعدتها الاجتماعية في الأردن مغروسة بين العائلات الغنية وملاك الأرض الذين يرون في الاشتراكية وتوزيع الأرض تهديدا فعليا لهم. وحينما قام سليمان النابلسي رئيس وزراء الأردن سنة 1957، وهو يساري متأثر بعبد الناصر، حينما قام النابلسي باستعراض للقوة كاد أن يودي بالنظام الملكي وقف الإخوان المسلمون إلى جانب الملك وأنقذوا عرشه. يكتب بولبي قائلا: "من هذه اللحظة فصاعدا كان هناك تفاهم متبادل غير موثق يقضى بالتعايش بين الملك والإخوان"³⁸⁹ كتب يوسف العظم وهو من قيادات الإخوان في الأردن يقول: "لقد اتفقنا مع الملك لأن ناصر شن عليه هجوما غير معقول، وكذلك من أجل حماية أنفسنا لأنه إذا استولى أنصار ناصر على السلطة فإنه سيصفى الإخوان المسلمين في الأردن كما فعل في مصر"³⁹⁰. وابتد مساندة الإخوان المسلمين في الأردن في لحظة حرجة فعلا. فنجم ناصر وحلفائه كان في صعود بينما أطيح بملك العراق (وهو أيضا من العائلة الهاشمية) وكانت سياسة الولايات المتحدة قد اتجهت بحسم ضد مصر. وفي سنة 1958 أرسلت الولايات المتحدة قواتها إلى لبنان وأرسل الجيش البريطاني إلى الأردن والكويت لوقف المد الوطني وشارك الإخوان في ذلك. بينما كان الشيوعيون والبعثيون والناصريون يقمعون بواسطة الملك كان يجري تشجيع الإخوان المسلمين على النزول بمرشحيهم في انتخابات البرلمان الأردني ويفوز

387 - ماريون بولبي الإخوان المسلمون وملوك الأردن - اطلنطا - كاليفورنيا 1999 ص ص 37-43.

388 - المرجع السابق ص 43

389 - المرجع السابق ص 61

390 - مقتبس من ابو عمرو ص 5

مرشحوهم بمقاعد في القدس ونابلس وغيرها من مدن الضفة الغربية. وقدم الجيش الاردني أيضا التدريبات لقوات الإخوان المسلمين شبه العسكرية³⁹¹. وفي غزة التي أصبحت فيما بعد قاعدة قوية لحماس غرس الإخوان المسلمون جذورهم بين الطلاب الفلسطينيين القادمين من القاهرة والكويت. وانشأ الإخوان المسلمون رابطة الطلبة الفلسطينيين الذين سيهجر كثير من قادتهم فيما بعد الإسلاميين ويشكلون قلب منظمة التحرير الفلسطينية بما فيهم ياسر عرفات وصلاح خلف وإخوان حسان³⁹².

وفي غزة التي كانت في ذلك الوقت تحت الإدارة المصرية شعر الإخوان المسلمون بالقلق حينما قام الرئيس عبد الناصر بسحق تنظيمهم بالقاهرة. في يوليو سنة 1957 كتب خليل الوزير وهو احد قيادات منظمة التحرير الفلسطينية فيما بعد، اقتراحا بان "يقوم الإخوان المسلمون بتأسيس تنظيم خاص لهم إلى جانب التنظيم الحالي بحيث لا يكون له لون اسلامي ظاهر أو برنامج ولكن له هدف واضح هو تحرير فلسطين". ومن هذه اللحظة فصاعدا أصبحت الحركة الفلسطينية منقسمة، فمن جانب هناك الوطنيون وهم الذين يتفقون مع الوزير، الذين وضعوا أسس إنشاء حركة التحرير الوطني الفلسطينية أو فتح خلال الفترة 1958-1959. ومن جانب آخر هؤلاء الذين فضلوا الاستمرار مع الإخوان المسلمين، الذي رفضوا الالتحاق بفتح، وفي 1960 عارضوا بصراحة التنظيم الجديد³⁹³ أما فتح التي بدأت حرب العصابات بالهجوم على إسرائيل سنة 1965 فهي تضم الوطنيين الفلسطينيين وتتفق أحيانا نشئ من الضيق مع وجهة النظر الناصرية بشأن القومية العربية. ومن ناحية أخرى ظل الإخوان المسلمون في معسكر اليمين المحافظ بالتحالف مع ملك الأردن وبمساندة العربية السعودية والكويت ومشيخات الخليج التي ستصبح عاجلا مستقلة. وقد تراجعت عضوية الإخوان المسلمين بحدة بين الفلسطينيين وكانت قد وصلت آلاف عديدة خلال الأربعينات. والفضل في هذا التراجع يعود إلى ظهور القومية العربية التي أصبحت هي الصيحة التي تلتف حولها الجماهير في الشرق الأوسط. وحققت الأحزاب الموالية لناصر والشيوعيين والبعث وفتح مكاسب عندما تراجعت عضوية الإخوان المسلمين فأصبحت لا تتعدى الألف في الضفة الغربية والألف في غزة وذلك قبل أن تنشب حرب 1967 مع إسرائيل. بينما كان وجود الإخوان

391 - حروب ص ص 21-23

392 - مسئول سابق في المخابرات المركزية الأمريكية خدم في الكويت في خمسينات القرن العشرين وعرف الكثيرين من قادة منظمة التحرير الفلسطينية - مقابلة مع المؤلف 2004

393 - حروب ص ص 21-23

المسلمين مقبولا في الضفة الغربية من قبل السلطات الأردنية إلا انه تم قمعهم في غزة بواسطة نظام عبد الناصر.

كانت هذه هي الفترة التي ظهر فيها لأول مرة احمد ياسين بوصفه الطبعة الأصولية من الإخوان المسلمين وسوف يحظى بتأييد إسرائيل في السبعينات والثمانينات وسوف يقوم بتأسيس حماس سنة 1987³⁹⁴. في سنة 1965 تعقله المخابرات المصرية في احدى الحملات التي تقوم بها سلطات عبد الناصر. وبعد 1967 تغيرت الأوضاع بعد أن سيطرت إسرائيل على الضفة الغربية وقطاع غزة، فأفرج عن ياسين. يقول شاول ميشال وأفراهام سيلا، وهما من العلماء الإسرائيليين، في مؤلفهما " حماس الفلسطينية":

كانت إسرائيل أكثر تسامحا فيما يخص النشاط الاجتماعي والثقافي الاسلامي، ولأن قطاع غزة والضفة الغربية كانتا تخضعان لحكومة واحدة فقد أصبح ممكنا تجديد اللقاءات بين النشطاء الإسلاميين في كلتي المنطقتين، وهذا بدوره مهد الطريق لتطوير أنشطة إسلامية تنظيمية مشتركة.... في أواخر الستينات ظهرت أنشطة إسلامية تنظيمية مشتركة، وتم تأسيس منظمة " اتحاد الإخوان الفلسطينيين (المسلمين)"... وشهدت الستينات نمو الاتصالات بين الإخوان المسلمين في المناطق التي تحتلها إسرائيل وسكان إسرائيل من العرب، وادي هذا إلى قيام شخصيات قيادية من الإخوان المسلمين في الضفة الغربية وغزة مثل الشيخ ياسين بزيارة مجتمعات المسلمين الموجودة في إسرائيل من الخليل إلى النجف للوعظ وليؤموا صلاة الجمعة.³⁹⁵

سرعان ما ستتم إسرائيل الشيخ ياسين والإخوان المسلمين وتجد فيهم حلفاء نافعين ضد منظمة التحرير الفلسطينية.

في سنة 1967 بدا الإخوان المسلمون يقيمون بنيتهم التحتية تحت سمع وبصر السلطات الاسرائيلية البالغة القوة. وقامت الجمعيات الخيرية وازدادت الأوقاف ثراء، وهي تسيطر على 10% من كل عقارات غزة، وقامت مئات المشاريع واستثمرت آلاف الأفدنة من الأرض الزراعية. ومثلما كان يحدث في مصر والسودان وغيرها بعد 1967 كان يجري اسلمة الفلسطينيين. (حسب النمط الإخواني) ومنذ 1967

394 - شاول ميشال و ابراهام سيلا حماس الفلسطينية نيويورك 2000 ص 17

395 - المرجع السابق ص 18

حتى 1987 زاد عدد المساجد في القطاع من 200 إلى 600 وفي الضفة من 400 إلى 750 مسجدا.³⁹⁶

في سنة 1970 طردت منظمة التحرير من الأردن بعد هزيمتها في الحرب الأهلية التي نشبت في الأردن في سبتمبر. وساند الإخوان المسلمون في الأردن الملك حسين وجيشه البدوي ضد منظمة التحرير وساعدت إسرائيل الملك حسين مهددة الجيش السوري إذا قام بأي عمل لمساندة منظمة التحرير. في نفس العام طلب احمد ياسين زعيم الإخوان في غزة، طلب من الإدارة العسكرية الاسرائيلية الإن بأكامة تنظيم ورفض طلبه، غير انه بعد مرور ثلاثة سنوات وتحت عيون "الشن بت التي لا تغفل أسس احمد ياسين المركز الاسلامي وهو جماعة إسلامية متخفية في رداء ديني شفاف. وبدأ الشيخ احمد ياسين في السيطرة على أكثر من مائة مسجد. عملت هذه المساجد إلى جانب الجمعيات الخيرية والمدارس كمراكز للتجنيد ومراكز للتنظيم السياسي للإسلاميين. في 1976 انفصل المركز الاسلامي عن الاتحاد الاسلامي ويضم مجموعة من الأعضاء وله فروع في كافة أنحاء قطاع غزة. ونمت الحركة.

تم التأييد الرسمي للإسلاميين من جانب إسرائيل بعد 1977 حينما صدم حزب حيروت، حزب مناجم بيجين وكتلة الليكود حزب العمل الاسرائيلي بفوزهم في الانتخابات العامة. في سنة 1978 أجازت حكومة بيجين رسميا الاتحاد الاسلامي برئاسة احمد ياسين. كان ذلك جزءا من حملة شاملة ضد منظمة التحرير الفلسطينية. كانت الحرب الأهلية تفرع أبواب لبنان حيث كانت إسرائيل تؤيد المليشيا المسيحية المارونية التي كانت تقاتل الفلسطينيين. في الضفة الغربية والقطاع حاول بيجين أن يقلل من النفوذ القوى لمنظمة التحرير الفلسطينية بطريقتين: الأول تقوية الحركة الإسلامية والثانية خلق ما يطلق عليه اتحادات القرى، وهي مجالس محلية يديرها فلسطينيون مناهضون لمنظمة التحرير الفلسطينية، يتم اختيارهم بعناية من قبل السلطات العسكرية الاسرائيلية. وحقق احمد ياسين والإخوان المسلمون نفوذا كبيرا بين اتحادات القرى. كان ما يقرب من 200 من أعضاء اتحادات القرى قد أعطوا تدريبا شبه عسكري بواسطة إسرائيل وتمكنت الشين بت من تجنيد عدد كبير من جامعي المعلومات من خلال شبكة المعلومات.³⁹⁷ أما مجالس القرى نفسها التي

396- أبو عمرو ص 17

397 - راي حنانيا طفل شارون الارهاب مجلة كاوتنر بانث 18-19 يناير 2003

كان يديرها خونة فقد كان مآلها الفشل والاحتقار من جانب الفلسطينيين في الأرض المحتلة. ولكن الإخوان المسلمين استمروا في تحقيق مكاسب على حساب كل من منظمة فتح والمنظمات اليسارية كالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين:

يستشهد ديفيد شيلر وهو مراسل سابق للنويويورك تايمس بأقوال الحاكم العسكري لغزة وهو يفخر بان إسرائيل تمول الإسلاميين بالمساعدات ضد منظمة التحرير الفلسطينية:

" من الناحية السياسية يمكن القول أن الإسلاميين الأصوليين كان ينظر إليهم من جانب إسرائيل على أنهم مفيدون لها حيث كان لهم تناقضاتهم مع العلمانيين من مؤيدي منظمة التحرير، وكانت تنشب بين الجانبين باستمرار في جامعات الضفة الغربية خلافاً عنيفة. أخبرني ذات مرة الحاكم العسكري الإسرائيلي لقطاع غزة البريجادير جنرال ايزاك سيرجيف كيف تم تمويل الحركة الإسلامية كثقل معادل لمنظمة التحرير والشيوعيين: " لقد أعطت الحكومة الإسرائيلية ميزانية والحكومة العسكرية أعطت المساجد ". في سنة 1980 حينما أشعل الأصوليون النار في مبنى جمعية الهلال الأحمر التي يرأسها الدكتور حيدر عبد الشافي وهو مؤيد للشيوعيين ومنظمة التحرير الفلسطينية لم يفعل الجيش الإسرائيلي شيئاً، وتدخل فقط عندما توجهت الجماهير إلى منزله وبدأ أنها تهدده شخصياً.³⁹⁸

لم تكن إسرائيل وحدها هي التي تساند أحمد ياسين والإخوان المسلمين. فالشخصيات الرئيسية في السعودية أيضاً كانت تريد أن تغض من شأن العلمانيين ومنظمة التحرير كما ساهم رجال الأعمال السعوديين الأغنياء في تمويل ياسين بالرغم من أن قدرته على العمل في غزة كانت تستند على حسن نوايا السلطات الإسرائيلية. كانت اتصالات ياسين مع الإخوان المسلمين في الأردن فعالة في تمكينهم من إقامة علاقات وثيقة مع المنظمات الإسلامية في السعودية التي قامت في السبعينات والثمانينات بتزويد الجمعيات الإسلامية بمساعدات مالية سخية.³⁹⁹ ومع ذلك كانت الحكومة السعودية لا تزال لديها شكوكها في ياسين وكانت على وشك أن تبحث في مسألة وقف المساعدات الخاصة للحركة التي يقودها ياسين. وربما من أجل بناء الثقة مع إسلامي السعودية المحافظين وأعضاء الحركة الوهابية من الأسرة المالكة هاجم الإخوان المسلمون منظمة التحرير الفلسطينية بدعوى

398 - ديفيد شيلر العرب واليهود : نفوس جريحة في أرض الميعاد نيو يورك 1987 ص 187

399 - ميشال و سلا ص 21

نظرتها اللادينية. زعم الإخوان أن منظمة التحرير " لا تخدم الله " وأعلن ياسين أن "منظمة التحرير علمانية، وأنه لا يمكن القبول بها كممثلة للشعب الفلسطيني ما لم تصبح إسلامية." ⁴⁰⁰

فى ذلك الوقت لم يكن يبدو محتملا أن يكتسب الإخوان أرضا بين الفلسطينيين، ذلك أن كثيرا من الفلسطينيين كانوا مسيحيين ولا سبيل لهم مع منظمة تريد إن تنشئ دولة إسلامية. وكان الفلسطينيون أيضا من ضمن أكثر الشعوب العربية حداثة وتعلما وتأثرا بالغرب. ولأنهم فى الشتات فقد كانوا كثيرون الإسفار ولهم ارتباطات جيدة فى كافة أنحاء العالم العربى والولايات المتحدة وأوربا فضلا عن الاتحاد السوفييتي، وفوق ذلك كله فهم وطنيون. وعلى الناحية الأخرى كان من طبيعة الإسلاميين الفلسطينيين أن يعارضوا الوطنية وأن يعارضوا تأسيس دولة لفلسطين وأن يركزوا بدلا من ذلك على ضرورة أسلمة فلسطين والعالم العربى أولا. غير أنه بين الفلسطينيين نما شعور بالإسلامية طالما أن إسرائيل تواصل قمعها لمنظمة التحرير، الأمر الذى دعا الجماهير فى الضفة وغزة إلى البحث عن البدائل.

كان دبلوماسيو الولايات المتحدة والمخابرات المركزية الأمريكية على علم بأن إسرائيل تشجع الإسلاميين فى المناطق المحتلة. تقول مارتا كيسلر وهى من كبار المحللين السياسيين فى المخابرات المركزية ممن كانوا على علم مسبق بأهمية الحركة الإسلامية والتهديد الذى يمكن أن تمثله بالنسبة لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية فى المنطقة ⁴⁰¹، تقول كيسلر: "لقد رأينا إسرائيل تزرع الإسلام كبديل للوطنية الفلسطينية."

ولكن لا المخابرات المركزية الأمريكية ولا الإدارة الأمريكية وبيروقراطية الأمن القومى فى واشنطن حاولت إيقاف ذلك. كان هناك انقسام بشأن ما يعنيه ذلك. فقد رأى فيه البعض شيئا لا بأس به أو مفيدا، ورأى البعض الآخر أنه ضار بينما رأى آخرون ببساطة أنه شيء لا يعنيههم، وأن الإسلاميين لن تجتذب أتباعا لها من بين الفلسطينيين. تقول كيسلر:

" لم يستخدم الإسلام الراديكالي أو التطرف - على الأقل مبكرا على نحو ما كان عليه الأمر فى أماكن أخرى، فكثير من الفلسطينيين فى الشتات كانوا متعلمين، سفستائيين، وعلمانيين ولم يتحركوا تجاه الإسلام الراديكالية إلا فى وقت متأخر. وقد شجعها الإسرائيليون بشكل هادئ قليلا بالرغم من أنهم لم يكونوا

400 - أبو عمرو ص ص 29 - 31

401 - مارتا كيسلر مقابلة مع المؤلف إبريل 2004

مسؤولين عنها بشكل كامل فأنهم لم يهاجموها وسمحوا لها بان تترعرع، وحينما اتضح لهم أنه يمكنهم أن يناوروا ليدفعوا بالإسلاميين للإضرار بفتح فقد كانوا يفعلون. وكانوا يتعاملون مع الشخصيات الدينية باحترام.⁴⁰²

يقول ديفيد لونج، وهو خبير سابق في شئون الشرق الأوسط في مكتب التخابر والبحوث: "لم أكن أدرك أنهم سوف ينتهون إلى خلق وحش. غير أنى لا أظن أنه كان يتوجب عليك أن ترتبك بسبب احتمالات التعصب."⁴⁰³ فقد كنا نقوم بذلك بالتحديد في هذه الأثناء، في سوريا وإسرائيل والأردن.

الهدف: دمشق

في السبعينات كانت إسرائيل والأردن من الناحية الاصطلاحية في حالة حرب مع بعضهما البعض، ولكن الواقع انه كان يوجد بينهما علاقات معقدة وتعاون من خلف الستار. كان الملك حسين ضمن الذين تدرجهم المخابرات المركزية الأمريكية في قائمة الاستحقاقات أى الذين تؤدي لهم مبالغ مالية معينة. وكانت هناك علاقات بين المخابرات الاسرائيلية والأردنية وان لم تكن مما توصف بالدافئة إلا أنها على الأقل من الناحية المهنية كانت سليمة. حسبما يقول فيليب ولكوكس⁴⁰⁴ - وهو مسئول سابق كفاء كان يعمل في العلاقات الخارجية الأمريكية - كان لكل من إسرائيل والأردن كذلك عدو مشترك هو سوريا.

كان الرئيس السوري حافظ الأسد يقف على ارض إسلامية. صحيح انه كان زعيما علمانيا وبعثيا ولكنه كان أيضا عضوا في أقلية دينية في سوريا هي طائفة العلويين وهي شبه شيعية، كان ينظر إليها نظرة ازدراء من قبل بعض الإخوان المسلمين الأكثر تطرفا. وتعد غير إسلامية من قبل علماء الوهابية. وربما أكثر من أى بلد آخر كان الإخوان المسلمون في سوريا على درجة عالية من التنظيم وتتغير نظرتهم تبعا لذلك ولهم مراكز قادرة على الحركة والاستطلاع سواء في المناطق السنية التي يسيطرون عليها مثل حمص وحلب وحماة أو في المنفى في ألمانيا وسويسرا ولندن حيث يوجد قادة الإخوان المسلمين.

402 - الرجوع السابق

403 - ديفيد لونج مقابلة مع المؤلف ابريل 2004

404 - فيليب ولكوكس مقابلة مع المؤلف مارس 2004

كانت جماعة الإخوان المسلمين في سوريا احد الفروع المبكرة لحركة حسن البنا في مصر. واستمد الإخوان المسلمون في سوريا عضويتهم من بين صفوف الطلاب السوريين الذين عادوا من الأزهر بالقاهرة في أواسط الثلاثينات وأسسوا عدة فروع في المدن السورية الرئيسية باسم شباب محمد. وأصبحت حلب في شمال سوريا بمثابة المركز الرئيسي للإخوان المسلمين في سوريا منذ 1935.⁴⁰⁵ في سنة 1944 انتقل المركز الرئيس إلى دمشق بقيادة مصطفى السباعي وهو من خريجي الأزهر وكان صديقا لحسن البنا. في الخمسينات حينما هاجم ناصر الإخوان المسلمين لجأ عدد منهم إلى سوريا. ولكن حينما انتقلت سوريا إلى المعسكر القومي، عن طريق التحاقها أولا بناصر كجزء من الجمهورية العربية المتحدة، ثم بعد أن أصبحت تحت حكم البعث في الستينات وجد الإخوان المسلمون سوريا أقل ترحيبا بهم. في سنة 1964 قاد الإخوان المسلمون حركات تمرد ضد حزب البعث تحت شعار "الإسلام أو البعث". في سنة 1967 خلال وبعد هزيمة سوريا في حربها مع إسرائيل، أعلن أكثر أجنحة الإخوان المسلمين تطرفا الجهاد ضد الحكومة السورية، ولكن بعد سنة 1973 عندما أعلن الأسد دستورا جديدا علمانيا لسوريا يصفها بأنها "دولة ديمقراطية شعبية اشتراكية" بلغ عداؤهم وحقدهم على النظام أشده. بعد ذلك تفجرت المظاهرات الإسلامية العنيفة.⁴⁰⁶

في أواسط السبعينات تفجرت الحرب الأهلية اللبنانية العنيفة في لبنان جارة إسرائيل وسوريا إلى حمايتها وشن الإخوان المسلمون هجوما شاملا على الحكومة السورية. بداية من 1976 قام الإخوان المسلمون بسلسلة من الاغتيالات والهجوم بالقنابل وغيرها من أعمال العنف في العديد من المدن بما فيها دمشق. في لبنان بلد الجوار كانت سوريا مشغولة في حرب بالوكالة مع إسرائيل في حمأة الحرب الأهلية. في لبنان برهن الإخوان المسلمون أنهم قوة شديدة العداء للأسد واتهموا النظام السوري بأنه نظام يقوده "مسلم مزيف" وأعلنوا الجهاد ضده وتولى قيادة حملتهم عدنان سعد الدين وهو عضو سابق في جماعة الإخوان المسلمين المصرية وقامت طليعتهم المحاربة وهي ذراعهم شبه العسكري السري باغتيال الموظفين البعثيين وشخصيات علوية وعملاء في المخابرات ومرشدين بالإضافة إلى مستشارين عسكريين سوفيين يعملون في سوريا. وتدرجيا أخذت الأزمة تتصاعد

405 - ديليب هيرو الحروب المقدسة-نيويورك 1989 ص 87 Dilip Hiro , Holy Wars

406 - يورد هيرو في الفصل الرابع بيانا مفصلا عن تطور الإخوان المسلمين في سوريا خلال الفترة من ثلاثينات القرن العشرين وحتى خلال الفترة من 1976 حتى 1982 فترة الحرب الأهلية في سوريا.

فى مظاهرات عنيفة وإضرابات ثم هجمات إرهابية كبيرة. فى يونيه 1979 هاجمت عصابة من ارهابى الإخوان مدرسة عسكرية فى حلب وقتلت 83 من طلبتها أو حبستهم داخل بناية وأطلقت عليهم أسلحتها الأوتوماتيكية وقنابلها الحارقة. فى العام التالى حاول الإخوان المسلمون اغتيال الأسد وردت الحكومة بهجوم مضاد غير محدود. فى سنة 1980 تأسست ما يطلق عليها الجبهة الإسلامية لسوريا، موحدة حزب التحرير الإسلامى بجناحيه الإخوان المسلمين والجماعات الأصولية الإسلامية الأخرى. سنة 1981 تصاعدت المعركة ففي نوفمبر قتل 200 شخص جراء انفجار هائل.⁴⁰⁷

من أجل تنفيذ مثل هذه العمليات المدبرة بإحكام ضد دولة مشهورة بجهازها الأمنى اعتمد الإخوان المسلمون على المساندة التى تلقوها من الأردن وإسرائيل كليهما. ولم يعط البلدان عناية تذكر للمحافظة على سرية المساعدات التى قدماها، فأقاما معسكرات لتدريب مقاتلي الإخوان المسلمين فى شمال لبنان وشمال الأردن بالقرب من الحدود السورية، وقامت إسرائيل بإرسال مساعداتها للإخوان عبر لبنان وذهب جزء منها إلى قوات لبنان الحرة وهى جيش خاص معظمه من المسيحيين وجزء منه شيعي وميليشيا من جنوب لبنان تحت إدارة الرائد سعد حداد وهو ضابط متمرد من الجيش اللبناني ويتمتع بشخصية كاريزمية. فى سنة 1978 فى غمرة الحرب الأهلية اللبنانية أرسلت إسرائيل 20 ألفاً من قواتها لاقتحام لبنان. وعند انسحابها تركت جزءاً من لبنان تحت سيطرة جيش سعد حداد الذى ظل متحالفاً مع إسرائيل حتى أواسط 1980. وفى سلسلة من الاتصالات أوائل الثمانينات كان حداد يفاخر بأنه كان يدرب الإخوان المسلمين. وعلى سبيل المثال⁴⁰⁸ :

"بالأمس افتتح قائد جيش لبنان الحر الرائد سعد حداد معسكر التدريب السابع للإخوان المسلمين فى مكان ما من لبنان الحر حيث كان يتدرب حوالي 200 فرد معظمهم من السوريين وبعض اللبنانيين الذين حضروا هذه الدورة. وفى خطابه حث الرائد حداد المتدربين على أن يتدربوا على حرب العصابات حتى يمكنهم مع أحزابهم أن يحرروا سوريا من النظام العلوى....وأضاف الرائد قائلاً: "إن التدريب الذى سوف تتلقونه هو تدريب من النوع العالى المستوى ويشتمل على فن مفاجأة

407 - هير - الفصل الرابع

408 - هيئة الإذاعة البريطانية موجز إذاعات العالم - مقتطفات من صوت الأمل - بالعربية - مرجعيون

29 سبتمبر 1981

العدو وهو غير متوافر في أي مكان آخر في المنطقة أو حتى على مستوى العالم.⁴⁰⁹

في الحقيقة كان التدريب الذي يوفره سعد حداد بمساندة إسرائيل متاحا على الأقل في مكانين آخرين في ذات اللحظة: شمال الأردن والمنطقة المارونية المسيحية المغلقة في لبنان حيث كان الفالانج وهي مليشيا شبه فاشية تديرها قبيلة الجميل الموالية للنازية وتساندها إسرائيل، وهناك كانت تدار معسكرات الإخوان المسلمين استعدادا للحرب في سوريا.

كذلك كان الأمر بالنسبة للمعسكرات في الأردن وتدار بنفس المستوى من العلنية. في سنة 1981 شجب وزير الخارجية السوري الملك حسين قائلا: "إن سياسة الملك حسين قد دفعته إلى تحويل الأردن إلى قاعدة لعصابة من القتل والمجرمين، الإخوان المسلمين من أجل ممارسة الضغط على سوريا وإرباكها."⁴¹⁰ بعد أسبوعين القي الأسد خطابا مطولا انتقد فيه الأردن بمرارة لمساندتها الإخوان المسلمين في هجماتهم الإرهابية التي قاموا بها في سوريا:

"إن المشاكل التي خلقها الإخوان المسلمون قد أخذت تظهر أكثر فأكثر في سوريا. من الطبيعي أن يكون الإخوان المسلمون على علاقة تاريخية أساسية بسلسلة الرجعيين الامبرياليين في المنطقة.... وكان من الطبيعي لعصابة الإخوان المسلمين أن تنفذ الأوامر وأن تجد كل الأسلحة اللازمة والتدريب والتسهيلات التمويلية في منطقة الأردن.... لقد القينا القبض على مجرمين ينتمون لعصابة الإخوان المسلمين في سوريا وعلى الحدود السورية الأردنية واخبرونا أنهم كانوا في الأردن حيث تلقوا كميات من الأموال والأسلحة وبطاقات هوية مزورة."⁴¹¹ وبعد شهر ذكر عبد الله عمر - وهو أحد قياديي حزب البعث في سوريا - أن سوريا لديها الدليل على أن الإخوان المسلمين كانوا يتلقون المساعدة من الأردن ومن عصابات الفالانج في لبنان الذين تساندهم إسرائيل وامبريالية الولايات المتحدة الأمريكية.⁴¹² بعد التفجير الذي حدث في دمشق وأدى إلى مقتل المئات اتهمت سوريا الإخوان المسلمين بأنهم يعملون "عملاء لإسرائيل"⁴¹³

409 - هيئة الإذاعة البريطانية - موجز الإذاعات العالمية - مقتطفات من راديو دمشق 28 فبراير 1981

410 - هيئة الإذاعة البريطانية موجز إذاعات العالم مقتطفات من راديو دمشق 11 مارس 1981

411 - هيئة الإذاعة البريطانية موجز إذاعات العالم مقتطفات من راديو دمشق 10 أبريل 1981

412 - هيئة الإذاعة البريطانية 4 ديسمبر 1981 موجز الإذاعات العالمية - مقتطفات من راديو دمشق

413 - ستيفن ستراسر مجلة نيوز ويك 14 ديسمبر 1981

كانت اتهامات كل من الأسد وعمر صحيحة:

" أعلن في الولايات المتحدة عن حجم الهجمات في سوريا. وظهر في النيوزويك كاستثناء نادر الحدوث. " خلال السنوات الخمس الماضية اغتال الإخوان المئات من العلويين من أعضاء حزب الأسد، حزب البعث الحاكم ومعهم أقرباؤهم ومنهم طبيب الأسد الخاص وعدد من المستشارين السوفييت". وقالت النيوزويك: " اتهم الأسد الأردن بإعداد الملائم والتدريب للإخوان السوريين".⁴¹⁴ ولكن في معظم الأحوال كانت حملة الإخوان المسلمين في سوريا غير معروفة لدى الأمريكان. على إن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة للمخابرات. " كنا نعلم عن الإخوان المسلمين هناك أكثر كثيرا مما تتضمنه الأوراق" حسبما يقول ديفيد لونج: " كنت رئيس قسم الشرق الأدنى في مكتب التخابر والأبحاث ولكننا كنا ننظر للأمر بدون اكتراث. كنا ندرك أن هناك مخاطرة، ولكن الحياة نفسها مخاطرة".⁴¹⁵

بالنسبة للأسد كان الإخوان المسلمون يمثلون تهديداً آنياً للوجود. تقول مارتا كيسلر المحلل سابقاً بالمخابرات المركزية الأمريكية أن إسرائيل والأردن " كانتا تلعبان بالنار ولا أظن أنهما قدرا مدى الخطر الذي يمكن أن يحدث. ولكن بالنسبة للأسد كان الموقف حرجاً. لقد امضي حوالي خمس سنوات وهو يحاول أن يتوافق أو يتعاون معهم. وفي النهاية فقد السيطرة على الثلث الشمالي من البلاد. كان نجمه قد أخذ في الأفول في ذلك الوقت. كان في أزمة حقيقية".⁴¹⁶

كان دبلوماسيو الولايات المتحدة على علم بالمساندة الأردنية، على الأقل فيما يتعلق بالإخوان المسلمين في سوريا، ولكنهم كانوا يعلنون ألا علاقة للولايات المتحدة بالأمر. يقول تالكوت سييلي سفير الولايات المتحدة في سوريا حينذاك: " كنت سفير الولايات المتحدة في سوريا خلال الفترة من 1978 - 1981. وكان ذلك عندما أصبحت على دراية بأن هناك حركة سرية في سوريا حيث حدثت حملة تفجيرات واغتيالات لقادة بعثيين سنة 1979. أدركت الحركة الإسلامية في سوريا. في سنة 1983 بينما كنت خارج هذا البلد تسلل شخص ما إلى مكتب الأسد والقي قنبلة قتلت واحداً من حرسه ولكنه أخطأ الأسد نفسه. كان السوفييت الذين كان لهم ناس كثيرون هناك يمتطون المركبات المدرعة في تنقلاتهم.

414 - لونج مقابلة مع المؤلف

415 - كيسلر مقابلة مع المؤلف

416 - تالكوت سييلي مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

يقول سييلي إن الأسد استدعاه ليشتكو له تعنت الإخوان المسلمين.

لقد نال الملك حسين رضاء الإخوان المسلمين الذين أقاموا المعسكرات في شمال الأردن. وذهبت لأرى الأسد فقال لي: "أنا أعلم أن الولايات المتحدة وراء ذلك." فقلت له: "أحب أن أرى الدليل.... وأنا أقول لك أننا 100% لسنا كذلك." أما فيما يتعلق بالملك حسين وما إذا كان متورطا حقيقة في الأمر فهذا ما لا أعلمه. ولكن سييلي يضيف: "لا اعتقد أنه بهمنا كثيرا ما إذا كانوا حقا يثيرون المتاعب للأسد."⁴¹⁷

في الحقيقة كان الملك حسين متورطا، فقد اعترفت الأردن بعد سنوات أربع بدورها في مساندة الإخوان المسلمين واعتذرت لسوريا. وكتب الملك خطابا إلى الأسد يقول فيه: "لقد اتضح أن البعض ممن كانوا على صلة بالإحداث الدامية في سوريا كانوا موجودين في دوائرنا."⁴¹⁸ وفيما أطلق عليه "اعتراف غير عادي" قال حسين أن بلاده منحت الإخوان الذين شنوا الحرب على سوريا انطلاقا من أراضي المملكة، منحهم الفرصة للقيام بذلك. ولكنه في محاولة للمصالحة مع الأسد يعتقد الآن أن الإخوان المسلمين كانوا خارجين على القانون ويرتكبون الجرائم وينشرون بذور الفتنة بين الشعب". وزار رئيس وزراء الملك حسين دمشق وأعلن الملك أنه يريد أن يحذر "من الخطط الشريرة لهذه الجماعة الفاسدة."⁴¹⁹ بعد عدة أيام حوشر المئات من أعضاء الجماعة المناهضين لسوريا في الأردن.

روبرت باير ضابط عمليات في المخابرات المركزية الأمريكية سابقا عمل في الشرق الأوسط والهند كتب حول مقابلاته مع الإخوان المسلمين منتقدا الوكالة بسبب رغبتها في اللعب مع الإخوان. يقول باير في مؤلفه "النوم مع الشيطان" أنه "يبدو أن سوريا كانت هي المشكلة الحقيقية." فهذا البلد يحتل موقعا حساسا فيما يتعلق بمستقبل السلام في الشرق الأوسط، وكانت واشنطن تريد رسميا من الأسد أن يرحل. ولكن كما يقول باير: "إذا كان للإخوان المسلمين أن يحلوا محله فلا بد أن يضع المرء في حسبان أنه الأمور سوف تزداد سوءا." ويسال باير رئيسه توم تويتين عن الإخوان المسلمين:

هز كتفيه قائلا: "إن الأردنيين يعطونهم أموالا وملاذا لا شيء إلا لأنهم يكرهون السوريين. إن (عدو عدوى هو صديقي) يشكل نوعا من الصفقة.. فسألت: "ماذا يقول الأردنيون عنهم؟ فرد قائلا: "إننا لا نضغط على الأردنيين فيما يتعلق

417 - صحيفة لندن تايمز 12 نوفمبر 1985 الأردن تنهى لجوء اعداء الأسد إليها

418 - شارلس والاس صحيفة لوس انجلوس تايمز 13 نوفمبر 1985

419 - هيئة الاذاعة البريطانية موجز الاذاعات العالمية 18 نوفمبر 1985

بالتفاصيل. وهم لا يقدمون شيئاً. إن الإخوان المسلمين ليسوا هدفاً لنا." إن ما ذكره تويتين هو أنه ليس لديه تعليمات بالتجسس على الإخوان المسلمين طالما أنهم ليسوا هدفاً لنا (ومن المعروف أن المخابرات المركزية الأمريكية في عمان لا يفترض أن تتفق عليهم أي نقود⁴²⁰)

هل تساعد الولايات المتحدة الإخوان المسلمين مباشرة؟ طبقاً لباير فإن الإجابة مختارة بعناية: "هناك أناس يقولون أنه توجد ملفات مشفرة (مكودة - لكل منها كلمة سر خاصة أي لا يستطيع أن ينفذ إليها إلا الأشخاص المنوط بهم الإطلاع على هذه الملفات فائقة السرية)، "أنا لا أعرف أن السعودية هي التي تساندهم. ونحن نساند السعودية وما حدث هو أنك تذهب ببساطة إلى الحكومة وتقول: هذه بعض الأموال فقوموا بأعمالكم القذرة أو سوف نعطيهم الإمدادات والمعدات."⁴²¹

طبقاً لباير لم يكن الإخوان المسلمون يتلقون المساندة فقط من حداد قائد الميليشيات التي تساندها إسرائيل في جنوب لبنان. "ليس فقط الرائد حداد، ولكنها الجبهة اللبنانية برمتها" كما يقول يعنى الجناح اليميني من الكتلة اللبنانية المسيحية التي لها علاقات وثيقة مع إسرائيل. "كانت الجبهة اللبنانية تحمي الإخوان المسلمين في بيروت، في قسمها الشرقي." يقول باير أن المخابرات المركزية الأمريكية قد فشلت في أن تأخذ المنظمة بوصفها تهديداً محتملاً - فشلت في أن تأخذ هذا الاحتمال مأخذ الجد، لقد تجنبنا الإخوان المسلمين ورأينا أنهم يشكلون نفس المشكلة الخاصة للآخرين. "وحسبما يقول: "كانت مقاربتنا للشرق الأوسط محدودة بحدود أهمية الحرب الباردة بالنسبة لنا. وحتى إذا كان هؤلاء الناس يشكلون خطراً على الأمن، فماذا بعد؟ إننا بكل تأكيد لن نجابه الملك حسين بسبب هذه المسألة."⁴²¹ ولن نجابه أو نتحدى الإسرائيليين بسبب ذلك أيضاً.

حماة، حماس

بلغت مساندة إسرائيل والأردن للإخوان المسلمين أوجهاً في الثمانينات. وجاءت قمة المواجهة بين حكومة الأسد والإخوان المسلمين في حمص وهي مدينة سورية يقطنها 200 ألف نسمة وكانت دائماً قلعة للسنة الأصوليين. وبدأت هذه

420- روبرت باير النوم مع الشيطان (نيويورك 2003) ص ص 95-97

421 - روبرت باير مقابلة مع المؤلف مارس 2004

المواجهة حسبما يذكر سييلى سفير الولايات المتحدة السابق فى سوريا: "بدأت بإشاعة تقول إن الأسد قد أطيح به." وإذ استثارهم هذا النبأ انطلق الإخوان فى موجة قتل فى المدينة فذبحوا مئات الجنود والموظفين" يقول سييلى: "إن الإسلاميين قتلوا كل المسؤولين البعثيين فى المدينة"⁴²² كان هذا بالنسبة للأسد استفزازا لا يمكن احتماله، فجمع القوات الخاصة التابعة للجيش تحت قيادة أخيه رفعت الأسد وهو معروف بقوة الباطشة وعنفه الشديد. وانطلق الألوف من قواته (12 ألفا حسب تقدير منظمة العفو الدولية أو 50 ألفا حسبما يقدر الإخوان)⁴²³ فدخلوا حماة وهم يقمعون بلا رحمة الانتفاضة ومخلفين وراءهم العديد من القتلى الذين تختلف التقديرات بشأن عددهم هنا أيضا. طبقا لتقدير معاصر نشرته التايم بلغ عدد القتلى ألفا بينما قدر بعض المراقبين العدد بخمسة آلاف. وتقدر المصادر الاسرائيلية ومصادر الإخوان المسلمين كلاهما أن العدد يتعدى العشرين ألفا. وبمرور الوقت بولغ فى ملحمة حماة واستخدمت بواسطة منتقدي سوريا لتصوير الأسد كرجل لا يرحم، قاتل من أمثال ستالين، وهى مسألة لم يشأ الأسد أن يقلل منها لأن من شأنها بث الرعب فى قلوب مثيري المتاعب من الإخوان المسلمين. وذكرت مجلة التايم بعد الأزمة بأسابيع انه "لم يكن هناك ما يشير إلى إن هذه المتاعب التى حدثت فى حماة سوف تمتد إلى مكان آخر."⁴²⁴ كان هذا كما يقول سييلى "هو نهاية الحركة الإسلامية فى سوريا"⁴²⁵

غير انه فى المناطق التى تحتلها إسرائيل كان الإخوان المسلمون لا يزالون يكتسبون قوة دافعة. ففي أوائل الثمانينات ساندت إسرائيل الإسلاميين فى جبهات متعددة. كانت بطبيعة الحال تساند اسلامى غزة والضفة الغربية الذين سيقومون سنة 1987 بتأسيس حماس. وكان ذلك بمساعدة الأردن التى سبق أن ساعدت الإخوان المسلمين فى حربهم ضد سوريا. وفى أفغانستان ساندت إسرائيل بهدوء الجهاد ضد الاتحاد السوفييتي بمساعدة الإخوان المسلمين المرتبطين بالأصوليين الذين تولوا قيادة المجاهدين كما ساندت إيران - قلب الحركة الإسلامية الجهادية فى حربها الطويلة ضد العراق.

422 - سييلى مقابلة مع المؤلف

423- جوديث ميللر : لله تسعة وتسعون اسما (نيو يورك 1996) ص 295.

424 مجلة تايم (الأمريكية) 8 مارس 1982 التحدي الدموي للأسد

425 - سييلى مقابلة مع المؤلف

لم يكن الجميع في إسرائيل سعداء بسياسة التعاون مع الإسلاميين. كان المسئول عن ذلك بشكل أساسي ومن كافة الزوايا هو اليمين الإسرائيلي الأكثر تطرفاً: بيجين ورئيس الوزراء، اسحق شامير ووزير الدفاع ارييل شارون هم الذين اتبعوا هذه السياسة بعدوانية شديدة، أما حزب العمل الإسرائيلي فكان ينحو إلى اعتبار منظمة التحرير هي الشريك المناسب في المفاوضات من أجل الوصول إلى تسوية نهائية. لكن اليمين الإسرائيلي كان رافضاً من حيث المبدأ للتسوية النهائية ويريد أن يظل مسيطراً على الضفة الغربية مستشهداً بالآيات الواردة في الكتاب المقدس بشأن ضرورة السيطرة على جوديا وسامراء وهي الأسماء القديمة لهذه الأراضي المختلف عليها.

يقول باتريك لانج وهو المدير السابق لوكالة المخابرات التابعة لوزارة الدفاع في الشرق الأوسط: "في الحقيقة كانت سياسة إسرائيل خاطئة من حيث المنظور البعيد." ويلاحظ لانج أنه ليس كل من في الموساد والمخابرات الإسرائيلية كان موافقاً على أن مساعدة أحمد ياسين كان فكرة جيدة، فقد كان يعارضها بشكل خاص هؤلاء الذين يعرفون أكثر من غيرهم الثقافة العربية والإسلامية. "إن المتخصصين في الشؤون العربية من رجال الخدمات الأمنية في إسرائيل لم يكونوا يحبون ذلك. غير أن القادة الإسرائيليين كانوا يظنون أنهم سوف يقتلون كل ارهابيي منظمة التحرير الفلسطينية - ثم بعد ذلك يستطيعون أن يتعاملوا مع حماس. إنهم أساءوا فهم حقيقة الظاهرة. كان الإسرائيليون في معظمهم علمانيين أيضاً وكانوا يعتقدون أن هؤلاء الإرهابيين الدينيين يمثلون شيئاً عقيماً. لقد كانوا يحاولون هزيمة القومية العربية باستخدام الإسلاميين المتطرفين"⁴²⁶

حسبما يقول فيكتور استروفسكي وهو ضابط سابق في الموساد ترك الخدمة وأصبح ناقداً قوياً وألف كتابين عن الموساد⁴²⁷. "كان الجناح اليميني من الموساد يخشى أن شعبية الرئيس المصري أنور السادات قد تجبر إسرائيل على التنازل عن المناطق التي تتمسك بالاستمرار في احتلالها ومن ثم فقد ساندوا الجماعات الأصولية المصرية بحجج زائفة أي بالتغطية على حقيقة أن المساعدات تأتي من جانب إسرائيل"⁴²⁸. ويتهم استروفسكي اليمين الاسرائيلي صراحة بأنه يغذي الإسلامية الأصولية بين الفلسطينيين:

426 - باتريك لانج مقابلة مع المؤلف مارس 2004

427 - انظر فكتور اوستر

428 - اوستروفسكي الوجه الآخر للخداع ص ص 196-197

" إن مساندة العناصر الراديكالية من المسلمين الأصوليين تتفق تماما مع الخطة العامة للموساد في المنطقة فالعالم العربي إذا سيطر عليه الأصوليون لن يكون طرفا في أى مفاوضات مع الغرب تاركا بالتالي إسرائيل بوصفها البلد الديمقراطي المعقول الوحيد في المنطقة. وإذا استطاع الموساد أن يعد الترتيبات اللازمة لحماس... من أجل الاستيلاء على الشارع الفلسطيني من منظمة التحرير فسوف تكتمل الصورة.⁴²⁹

خلال معظم الثمانينات لم يؤيد الإخوان المسلمون في غزة والضفة المقاومة ضد الاحتلال الاسرائيلي ووجهوا معظم جهودهم في المعركة ضد منظمة التحرير الفلسطينية خاصة أجنحتها اليسارية في الجامعات. واستخدم أنصار ياسين العصي والسلاسل وحتى البنادق في مصادماتهم مع الفلسطينيين الوطنيين المؤيدين لمنظمة التحرير. وكانت الجامعة الإسلامية في غزة ميدانا لكثير من المعارك بين أنصار منظمة التحرير الذين يحاولون علمنة الجامعة من جانب والإخوان المسلمين الذين يحاولون أن يحافظوا على طابعها الإسلامي من جانب آخر. في مصادمة واحدة وقعت في 4 يونيو 1983 جرح أكثر من 200 طالب. وحدثت مواجهات مماثلة في جامعة بيرزيت والنجف في الضفة الغربية.⁴³⁰ وحاولت فتح وهي المكون الرئيس لمنظمة التحرير أن تتعاون مع الإخوان المسلمين وأن تبحث عن ترتيبات لتنظيم اتفاق مشترك، ولكن الإخوان المسلمين مع ذلك طالبوا بما لا يقل عن السلامة الكاملة لمنظمة التحرير بما في ذلك القضاء على الجناح اليساري لمنظمة التحرير. وحثت قيادة الإخوان المسلمين فتح على أن تظهر صفوفها من العناصر الماركسية وأن تدرك عبثية العلمانية وأن تعمل بتعاون وثيق مع الجماعات الإسلامية.⁴³¹

في سنة 1983 وقع حادث غريب لم يزل في حاجة إلى تفسير، وادي ببعض منتقدي ياسين إلى أن يشتبهوا بأنه على علاقة سرية ب"الشن بت". ففي بواكير هذا العام قبضت السلطات الإسرائيلية على ياسين بعد أن أمر أعضاء ينتمون إلى المركز الإسلامي بأن يجمعوا سرا السلاح الذي كان قد وزع على عدد مختار من العناصر النشطة.⁴³² وكان بعض هذه الأسلحة مخزنا في منزل ياسين نفسه، فتم إيداعه السجن. في ذلك الوقت كانت المقاومة الفلسطينية ضد إسرائيل قد وصلت إلى

429 - المرجع السابق ص 197

430 - أبو عمرو ص ص 43-44

431 - المرجع السابق ص 49

432 - ميشال و سيللا ص 34

درجة ادني كثيرا مما كان عليه الأمر في الانتفاضتين خلال السنوات السابقة حينما كان المقاتلون الفلسطينيون يعملون معا. في 1983 كانت حيازة مثل هذه المجموعة من الأسلحة الفتاكة يعتبر جرما خطيرا. ولكن مع أن ياسين حكم عليه بالسجن لمدة 13 عاما، فقد أفرج عنه بعد عام واحد، الأمر الذي أثار شكوك منظمة التحرير. وادعى ياسين أن الأسلحة جمعت لا من أجل الهجوم على القوات الإسرائيلية ولكن من أجل التغلب على جماعات فلسطينية أخرى.

خلال 1986-1987 أسس ياسين حركة حماس، حتى ذلك الحين وقد أخذت الانتفاضة تنمو " كانت ثمة تقارير بان إسرائيل تساند حماس، وكانت هناك إشاعات ملحة بان الشرطة السرية الاسرائيلية تعضد حماس سرا باعتبارها منافسا لمنظمة التحرير. " حسبما يقول فيليب ويلكوكس سفير الولايات المتحدة السابق وخبير مكافحة الارهاب الذي كان يترأس قنصلية الولايات المتحدة في القدس في ذلك الحين. " انني لم أر قط وثيقة مخبرات بهذا الصدد ولكنني لن أصاب بالدهشة إذا كان ذلك حقيقيا. " ويقول ويلكوكس أن موظفي الولايات المتحدة في القدس تعاملوا بانتظام وبكثافة مع حماس أواخر الثمانينات ويقولون أنها " منظمة معقدة لها كوابح عدة... فيها الكثير من العناصر المعتدلة التي كنا نعتقد دائما أنها ميالة للتفاوض وكان هناك المتعصبون والجهاد يون. " ⁴³³

وبالرغم من أن حماس حصلت على تأييد الكويت وعدد من السعوديين الأثرياء إلا أنها كانت موضع شك من جانب الحكومة السعودية. يقول شارل فريمان سفير الولايات المتحدة الأمريكية السابق لدى السعودية: " لم تكن السعودية راغبة في أن تذهب الأموال إلى تنظيم على الجبهة الإسرائيلية، ومن ثم فقد استدعى الأمير سلمان محافظ الرياض وعين رئيسا للجنة ليوقف جمع المال من المساجد ويجد طريقه إلى حماس. " على أية حال عندما ظهر أن حماس أصبحت أكثر استقلالا عن إسرائيل وعندما اكتسبت الانتفاضة زخما توقفت اللجنة عن العمل وبدأت السعودية تغيير موقفها. يقول فريمان:

" من المحتمل أن هناك أعضاء في الأسرة الحاكمة يعطون المال لحماس. " ⁴³⁴

لم يكن الجميع في الحكومة الأمريكية سعداء بظهور حماس وبصفة خاصة المتخصصون في الشئون العربية وأيضا الذين يناهضون المراكز الإسرائيلية التي تشكل قوة ضغط في البنتاجون. وحذرت وكالة المخابرات التابعة لوزارة الدفاع

433 - ويلكوكس مقابلة مع المؤلف

434 - فريمان مقابلة مع المؤلف

الأمريكية من قوة الإسلاميين الفلسطينيين وبدأت تجمع المعلومات لتحليل هذه الظاهرة خلال المدة من أواسط حتى أواخر الثمانينات. يقول لانج: "بالنسبة لنا في البداية كانت الحركة الإسلامية الفلسطينية أقل من أن تستحق الرصد." وحاولنا أن نكتب تقريراً (تقدير موقف مخابراتي) في أواخر الثمانينات نظراً لأنه لم يكتب شيء عن ذلك من قبل ولكن أصدقاء إسرائيل في إدارة ريجان استطاعوا أن يحولوا دون ذلك.⁴³⁵

عندما بدأت الانتفاضة الفلسطينية سنة 1987 اتهمت منظمة التحرير الفلسطينية حماس وأحمد ياسين بالعمل "بمساندة مباشرة من الأنظمة العربية الرجعية، وبالتواطؤ مع الاحتلال الاسرائيلي." وقد ذكر ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ورئيس السلطة الفلسطينية، ذكر لمراسل إحدى الصحف الإيطالية: "إن حماس خلقتها إسرائيل التي - في زمن شامير رئيس الوزراء الاسرائيلي السابق أعطت حماس الأموال وكذلك أكثر من 700 مؤسسة منها مدارس وجامعات ومساجد."⁴³⁶ وقال عرفات للجريدة أن رئيس الوزراء السابق إسحاق رابين اعترف له بأن إسرائيل كانت تعضد حماس وكان ذلك في حضور الرئيس المصري حسني مبارك. وقال عرفات إن رابين وصف هذا التصرف بأنه "خطأ قاتل".

كان تأسيس حماس متوافقاً مع بدء الانتفاضة الأولى 1987-1993 التي كانت أول انتفاضة رئيسية منسقة في الأراضي المحتلة، وكل الفصائل الفلسطينية التي كانت قائمة بما فيها حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية عضدتها. وكان لهذه الانتفاضة التي جمعت بين مختلف التكتيكات عنيفة وغير عنيفة آثاراً هامة، فقد وضعت الصراع الفلسطيني الاسرائيلي في مركز اهتمام العالم ودفعت الإسرائيليين المعتدلين مثل إسحق رابين وشيمون بيريز وإيهود باراك إلى التفاوض مع منظمة التحرير. وكان تدشين محادثات السلام في أوسلو بالنرويج التي بدأت ما يطلق عليه "عملية أوسلو" بادرة أول أمل حقيقي من أجل تسوية إسرائيلية- فلسطينية منذ 1967. ولكن حماس التي استخدمت العنف من قبل فقط ضد الجماعات الفلسطينية الأخرى، قامت باستخدام السلاح ضد إسرائيل أثناء الانتفاضة مما أدى إلى انهيار اسرائيلي. وقبض على الكثير من قادة حماس بمن فيهم ياسين سنة 1989. وبرغم تأييد حماس للانتفاضة فإن منظمة التحرير الفلسطينية وحماس كانتا منشغلتين فيما بينهما بصراع مستمر أشبه ما يكون بلعبة شد الحبل. فحالما تتحرك منظمة التحرير

435 - باتريك لانج مقابلة مع المؤلف مارس 2004

436 - صحيفة كوريير دالاسيرا - 11 ديسمبر 2001

وحزب العمل الاسرائيلي نحو اتفاق تسارع حماس بشن موجة عنيفة من الهجمات من اجل إفساد المحادثات. كتب حنانيا وهو محلل سياسي اسرائيلي يقول: "كان إفساد عملية السلام هو الهدف الدائم لحماس ولعب دورا في الطموحات السياسية لليكود،" ففي كل مرة يبدو فيها وكأن المحادثات الإسرائيلية الفلسطينية ناضجة لإحراز خطوة هامة لتحقيق السلام يأتى عمل ارهابى من جانب حماس ليفسد عملية السلام ويدفع بالجانبين كلا منهما بعيدا عن الآخر.⁴³⁷

كانت حماس تسعى إلى أن تكون فى المقدمة أمام منظمة التحرير بإظهار نفسها كالمنظمة الجهادية الأكثر قوة. يقول راي حنانيا

" كلما تقدمت عملية السلام التي يقودها حزب العمال الاسرائيلي ومنظمة التحرير الفلسطينية كلما لجأت حماس إلى العنف. حينما أدان مسئولو منظمة التحرير قتل السياح فى مصر فى فبراير 1990 ردت حماس بإرسال سيارات تحمل مكبرات الصوت تجوب شوارع المدن الفلسطينية الرئيسية تنثى على الهجمات وتدين منظمة التحرير الفلسطينية بسبب النقد الذى وجهته.⁴³⁸

بالإضافة إلى حماس التي انضمت إلى المنظمات الإسلامية الأخرى كالجهاد الإسلامي وحزب الله فى تبني موقف رافض، كان اليمين الاسرائيلي بقيادة بنيامين نتنياهو واريل شارون من الليكود يعارض بشدة مثل هذا النوع من التنازلات التي يزمع رابين وبيريز وباراك تقديمها. ومنذ 1993 فصاعدا يقوم الليكود وحماس بتقوية دور بعضهما البعض الرافض لمحادثات السلام منتهزين كل فرصة ليتخذا اكثر الأوضاع تشددا لتحريض جانب ضد الآخر.

فى الواقع وجدت حماس نفسها معزولة نتيجة أوسلو. "خلال السنوات التي استغرقتها عملية أوسلو (بين سبتمبر 1993 - سبتمبر 2000) انتساب الضعف الجوانب السياسية والعسكرية للحركة الإسلامية التي تسيطر عليها حماس بفعل عدة عوامل.⁴³⁹ فقد توافقت منظمة التحرير وحكومة حزب العمل الاسرائيلي معا على التقليل من شأن حماس بالإضافة إلى عمليات الاعتقال والاغتيال لعدد من قادة حماس. وتحمس الفلسطينيون العلمانيون لمساندة محادثات السلام. وكانت المعارضة الشعبية للعمليات الإرهابية تتسع. ولكن اليمين الاسرائيلي بمن فيهم ارهابي أقصى

437- حنانيا صص 9 و 14

438- المرجع السابق ص 9

439- سارا روى " حماس وتحول الاسلام السياسي فى فلسطين " التاريخ المعاصر - يناير 2003 ص 14

اليمن قاموا بالتهوين من شأن أوصلو بشكل خطير. وفي فبراير 1994 قام ارهابى اسرائيلى اسمه باروخ جولدشتين وهو عضو فى حركة كاخ المتطرفة باقتحام مسجد فى القدس بالضفة الغربية وقتل عشرات المصلين المسلمين العزل من السلاح. وأثارت المذبحة حمية حماس التي صورت الهجوم باعتباره هجوما على الإسلام وانطلقت تطالب بالجهاد المسلح كرد عليه، ومن ثم انطلقت موجة من التفجيرات الانتحارية: وفي نوفمبر 1993 قام ارهابى اسرائيلى باغتيال رئيس الوزراء اسحق رابين. ترك اغتيال رابين فراغا فى السياسة الإسرائيلية، كما أن الهجمات الانتحارية بقيادة حماس أفزعت الناخب الاسرائيلى مما أدى إلى فوز نتتياهو الليكود سنة 1996. وأدت لهجة نتتياهو المتعجرفة إلى شن حملة من القمع شملت كل الجماعات الفلسطينية. وفي 1997 أمر بقتل مسئول كبير من حماس فى الأردن. كانت محاولة خرقاء ولكنها فشلت ونجا المستهدف من المحاولة. بعد انجلاء الغبار توصلت إسرائيل والأردن إلى اتفاقية تم بمقتضاها إطلاق سراح الشيخ ياسين من السجن حيث كان يقضى العقوبة منذ القبض عليه سنة 1989. وفجأة عاد ياسين إلى غزة صاخبا ضد أوصلو وبدأت المعارضة ضد منظمة التحرير.

تكرر نفس السيناريو سنة 2000 عندما سقط نتتياهو وحل محله باراك الذى عاد إلى المفاوضات مع منظمة التحرير الفلسطينية بمساعدة الرئيس كلينتون وكان على وشك التوصل إلى اتفاق شامل.

ولكن اليمن الاسرائيلى لا يلبث أن يستفز الإسلاميين. ففي سبتمبر 2000 يقدم شارون على تصرف فى غاية الاستفزاز إذ يقوم بزيارة إلى موقع اسلامى فى المدينة المقدسة (الحرم الشريف- معبد الجبل) متعمدا إثارة الأصوليين من الإخوان المسلمين. وكذلك كان. كانت النتيجة هي اشتعال الانتفاضة الثانية 2000-2004 وتسببت الهجمات الانتحارية داخل إسرائيل فى قتل المئات من اليهود وأثارت حفيظة النخب الإسرائيليين المتطلعين إلى الأمن ودفعتهم إلى التصويت لصالح شارون فانتخب بأغلبية كبيرة رئيسا للوزراء قاضيا بذلك على إمكانية التوصل إلى اتفاق اسرائيلى فلسطيني. وأصيب عدد من محلى السياسة الإسرائيلية المخضرمين بصدمة أن يصبح شارون رئيسا للوزراء وهو الذى قاد الهجمات الإرهابية ضد الفلسطينيين فى الخمسينات عندما كان يرأس الوحدة رقم 101 سيئة السمعة ويتحمل مسئولية المذابح التى ارتكبت بحق المئات من اللاجئين الفلسطينيين فى معسكرات صابرا وشاتيلا بالقرب من بيروت بواسطة حلفائه من الفالانج خلال الهجوم الاسرائيلى على لبنان سنة 1982. شن شارون الذى يطلق عليه البلد وزر هجوما

شاملا ليقضى على منظمة التحرير الفلسطينية والسلطة الفلسطينية وكان عرفات محاصرا بين حماس وشارون: فالإسلاميون يقومون بارتكاب الفظائع وشارون يعتبر عرفات مسئولا وينتقم من منظمة التحرير. ورفض كل من شارون وإدارة بوش إجراء محادثات مع عرفات واضعين إياه في عزلة وخالفين فجوة تزداد اتساعا لتحملها حماس. والنتيجة كان من السهل التنبؤ بها. فبينما كانت استطلاعات الرأي سنة 1996 تشير إلى أن 15% فقط من الناضحين الفلسطينيين يؤيدون حماس ازدادت إلى ما يقرب من 17% سنة 2000 ولكنها بلغت 27% سنة 2001. وفي سنة 2002 أوضح استطلاع للرأي أجرته جامعة بيرزيت أن المؤيدين لإنشاء دولة إسلامية طبقا لرؤية حماس بلغت 42%، وهو ما لم يحدث من قبل قط.⁴⁴⁰ على نحو ما يقول روى.

أحيانا كان شارون يبدو مصمما على القضاء على أى إمكانية للاتفاق بين حماس ومنظمة التحرير الفلسطينية. حتى فى الوقت الذى كانت فيه الحكومة الإسرائيلية تطالب بإصرار وقف الهجمات الانتحارية لحماس، ففي سنة 2001 حينما حصلت منظمة التحرير على موافقة حماس على وقف هجماتها الإرهابية أمر شارون بتصفية أحد قادة حماس على نحو ما كتب اليكس فيشمان فى جريدة يديعوت احرونوت: "أيا كان الذى أعطى الضوء الأخضر لهذه التصفية فإنه كان يعلم جيدا أنه بهذا العمل يحطم بضربة واحدة الاتفاق الودى بين حماس والسلطة الفلسطينية". ومرة أخرى سنة 2002 وفقط قبل 90 دقيقة من إعلان ياسين قائد حماس وقف إطلاق النار قصفت إسرائيل مقر رئاسة حماس فى غزة لتقتل 17 شخصا بينهم 11 طفلا. كتب روى يقول: "يعتقد بعض المحللين أنه فى الوقت الذى يستهدف فيه قادة حماس، تتابع إسرائيل إستراتيجيتها القديمة للإعلاء من شأن حماس على الأجنحة العلمانية الوطنية كوسيلة للقضاء على الهوية الوطنية الفلسطينية إلى الأبد."⁴⁴¹

لقد تم اغتيال ياسين وعدد آخر من قيادى حماس بواسطة الجيش الاسرائيلى والمخابرات السرية سنة 2004 ولكن حماس لا تزال تواصل النمو. فى سنة 2004 يعلن شارون عن خطة للانسحاب من قطاع غزة من جانب واحد. وبعد سنوات من العنف هناك يعلن أن حماس هي الأقوى تواجدا على الأرض. وإذا انسحبت إسرائيل بالفعل فسوف تقدم حماس على لعبة ما لتبرز بوصفها القوة القائدة فى غزة خاصة فى ظل الفراغ الذى خلفته وفاة عرفات.

440 - المرجع السابق ص ص 18-19

441 - المرجع السابق ص 20

إن قصة حماس من وجهة نظر المشروع الاسرائيلي التجريبي المفضل من اجل الانتقام من منظمة التحرير بوصفها المصدر الأساسي للعنف ضد إسرائيل في غزة والضفة الغربية قد أدى إلى سلسلة كاملة من انتشار الإسلام السياسي بدءا من الستينات إلى التسعينات وفيما بعد ذلك أيضا.

من وجهة النظر الاسرائيلية كان نمو حماس وتحولها خلال هذه العقود بمثابة زلزال وكان مؤشرا للكثيرين في إسرائيل بان الإسلام السياسي لم يكن بالقوة التي يستهان بها. بل إن تأصيل الحركة الفلسطينية الإسلامية كان بمثابة زلزال حقيقي بقدر ما كان صدمة. غير أن الزلزال الاصلى كان هذا الذي هز إيران سنة 1979 وادي إلى سقوط الشاه والى إنشاء جمهورية إيران الإسلامية، هذا الحدث الذي أثار حماس اليمين الاسلامي في كل أرجاء المنطقة.

ربما كانت القوة التي استخدمها الإسلام السياسي ضد سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية بالنسبة للولايات المتحدة مجرد أشياء صغيرة. لكن إيران كأحد العمودين التوأمين لأمريكا في الخليج الفارسي يعتبر ما حدث بمثابة طعنة موجهة إلى قلب المصالح الأمريكية في المنطقة. ف لأول مرة بعد الثورة الشيعية في إيران تتحرك الولايات المتحدة لترى بشكل جدي ما إذا كان ممكنا للإسلام السياسي أن يكون سلاحا ذا حدين ويمكن أن يشكل تهديدا خطيرا للغرب.

*

الفصل التاسع

جسيم آيات الله

لم يحدث أبدا أن ثورة ما فاجأت الولايات المتحدة وأصابتها بالدهشة أكثر مما فعلت الثورة التي اجتاحت إيران خلال الفترة 1978-1979.

للهولة الأولى كان يبدو أن مركز الولايات المتحدة بأكمله في الشرق الأوسط قد ينهار. فالعربية السعودية ودول الخليج قد تقع ضحية ثورة مثل تلك التي حدثت في إيران ولم يعد هناك نظام ملكي عربي من الأردن حتى المغرب في أمان. واصدر المسئولون الأمريكيان الذين أصيبوا بالذعر أوامره للمخابرات المركزية الأمريكية ليروا ما إذا كان ممكنا للثورة الإيرانية أن تمتد. وهرعت حكومة الولايات المتحدة الأمريكية الى استئجار سلسلة من الخبراء المتخصصين في الاسلام لإمدادها بوجهات نظرهم وتنبؤاتهم.

وثار قلق خبراء الأمن القومي الأمريكي خشية أن يكون خط الدفاع بطول الحدود السوفييتية الجنوبية قد تم اختراقه وان الاتحاد السوفييتي سوف ينتهز فرصة انهيار إيران ليتدفق الى المنطقة ويقتلع منها الولايات المتحدة.

لأول مرة يتقدم الاسلام السياسي الى منتصف المسرح وتغدو العواقب وخيمة في إيران وأفغانستان وباكستان في دوائر تزداد اتساعا وتتحد في المركز. لم يعد الإسلام السياسي قوة فاصلة ولكنه أصبح الطاقة الدافعة خلف تغيير محتمل واسع يشمل المنطقة.. بالنسبة للمحليين لم يعد مستبعدا تصور تواجد سلسلة من الأنظمة الإسلامية تمتد من شمال إفريقيا عبر مصر والسودان الى سوريا والعراق والسعودية الى باكستان وأفغانستان.

غير انه عند انجلاء الغبار أدركت أميركا الوضع. فإيران لم تعد - أو هكذا يبدو - خاضعة للنفوذ الأمريكي، ولكن سائر الامبراطورية كان يبدو آمنا باستثناء السودان حيث تمكن اليمين الاسلامي من السيطرة خلال ثمانينات القرن العشرين، ويبدو أن عدوى إيران قد تم استيعابها. وهكذا كما هي العادة عاد صانعو السياسة الأمريكية والأشباح المتخصصون في شئون الشرق الأوسط الى سابق ما كانوا عليه، واستبعدت الثورة الإيرانية بوصفها حالة خاصة، بالرغم من انه كان ينظر

الى إيران نفسها كمصدر تهديد للمنطقة ولكن الولايات المتحدة لم تنظر الى اليمين الاسلامي في حد ذاته كعدو. كانت الولايات المتحدة تحتفظ بعلاقات وثيقة - بما في ذلك علاقات سرية - من خلال العلاقات المخبرانية مع المملكة العربية السعودية وباكستان قلعتا الاسلام السني الاصولي. وعندما تصاعدت هجمات اليمين الاسلامي ضد سوريا ومنظمة التحرير في الثمانينات فان ذلك لم يؤد الى اى قلق فى دوائر صنع السياسة الامريكية. فى الثمانينات أنفقت الولايات المتحدة اكثر من ثلاثة بلايين دولار لحساب المجاهدين الأفغان الذين كان من الصعب تمييز أهدافهم السياسية عن أهداف آيات الله فى إيران، ومضى تحالف أميركا مع اليمين الاسلامي فى طريقه المعتاد.

وحاولت الولايات المتحدة أيضا وبطرق مختلفة أن تقيم اتصالات مع الجمهورية الإسلامية فى إيران. حاولت ادارة الرئيس كارتر الليبرالية أن تكون صديقة مع من توسمت فيهم الاعتدال وسبق أن تلقى تعليما فى أمريكا وأوروبا الغربية ممن كانوا حول الخميني ويرتدون البديل بدلا من هؤلاء الذين يرتدون أردية رجال الدين، بينما كان الكثير من المحافظين الجدد بمن فيهم المسؤولون فى ادارة ريجان يحاولون الوصول بدلا من ذلك الى رجال الدين المتشددين وآيات الله فى مراكزهم بمدينة قم ممن يمثلون القوة الحقيقية فى طهران، غير أن أيا من هاتين المحاولتين لم تأت بنتيجة - وتغدو إيران - على مدى ربع القرن التالي - هي كابوس السياسة الامريكية.

لقد صدمت الثورة فى إيران الولايات المتحدة الامريكية وأربكتها. وهكذا اتسمت السياسة الامريكية تجاه إيران منذ 1977 عندما بدأت تبشیر الثورة تلوح فى الأفق. وخلال الثورة وسقوط الشاه والحرب الأهلية التى بدت قريبا حتى 1981 اخذ النظام الذى أقامه رجال الدين فى إيران فى الثمانينات تتعزز مواقعه.

فى البداية اختطت واشنطن خطأ يقوم على الاعتماد الثابت المبنى على ثقافتها غير المحدودة فى الشاه.

خلال السبعينات كانت تقارير المخابرات تنتهي باستمرار وحتى عشية قيام الثورة بما يفيد انه ليس هناك ثمة ما يمثل تهديدا خطيرا للشاه. فى هذه التقارير كان يتم تجاهل الحركة الإسلامية الإيرانية أو ينوه عنها فى ذيل التقارير. كانت مساعدات المخابرات المركزية الإيرانية لاسلامى إيران 1953 قصة قديمة. وخلال العقود التالية كان الشاه يعمل على تحييد آيات الله مكتفيا بنفي البعض بمن فيهم الخميني ويشترى آخرين. وتجاهلت الإدارة الامريكية والمخابرات المركزية الامريكية معا

الاسلام فى ايران وهو ما كان يناسب الشاه تماما. كان الشاه يعارض بقوة علاقات الولايات المتحدة مع رجال الدين الإيرانيين حتى باستخدام وسائل أكثر نعومة مثل وضع آيات الله الموالين للنظام فى قائمة العطايا.

ولكن بعد أن أعادت إدارة كارتر طاقم أمنها القومي الى مكانه سنة 1977 بدأت الولايات المتحدة تضغط على الملك الايرانى لإدخال إصلاحات وأقامت نموذجا من الاستشارات السرية مع جماعة المعارضة الايرانية بمن فيهم القيادات الدينية الأساسية. كان لهذا تأثيره فى إضعاف قرارات الشاه مما أدى الى إرباك نظامه وتعويم اليمين الاسلامى. لم تكن الثورة هي الهدف الذى توخته الولايات المتحدة من إقامة مثل هذه الاتصالات. ولكن ما كان يؤمله الكثيرون هو ضمان وجود ملكية دستورية أكثر استقرارا وموالية للولايات المتحدة. كان وراء هذا الجهد الإشاعات الملحة التى كثيرا ما كانت تساندها تقارير المخابرات المركزية الامريكية بان الشاه مصاب بالسرطان (وهو ما كان بالفعل وقد مات فى المنفى متأثرا به فعلا سنة 1980). إن الذين تابعوا هذه السياسة كانوا يعتقدون كما هو واضح أن الشاه كان قادرا على ترتيب انتقال سلمى للسلطة مما يؤدى الى مزيد من القوة للنخب الايرانية، الورثة المسنين لجبهة محمد مصدق الوطنية من التكنوقراط والى نظام من العناصر الشيعية المعتدلة. غير أن ما لم يدركوه هو أن الحركة المعادية للشاه سوف يدفع بها تدريجيا بواسطة اليمين الدينى الشيعي وبشكل خاص بواسطة شخصية فولاذية أشبه ما تكون بـ"لنين" هو أية الله الخمينى. ومن ثم فخلال الثورة نفسها سيما من نوفمبر 1978 وحتى سيطرة الخمينى على طهران فى فبراير سنة 1979- وقعت إدارة كارتر فى صراع داخلي مرير بين البعض ممن يجادلون بان على الولايات المتحدة أن تتخلى عن الشاه، والآخرين ممن يرون أن على الولايات المتحدة إن تؤيد انقلابا دمويا عسكريا ضد الثورة. خلال هذه الشهور الأربعة العصيبة لم يكن للولايات المتحدة اى سياسة على الإطلاق. وأيا كان الأمر فقد بات الوقت متأخرا جدا لتغيير مسار الأحداث. هرب الشاه وانهارت الحكومة وولدت جمهورية إيران الإسلامية، أما هؤلاء الذين كانوا يرون التخلي عن الشاه فمن الواضح أنهم استهانوا بالثوار الإسلاميين وأصبحوا يعتمدون الآن على ظهور نظام ديمقراطي ذي نكهة إسلامية وليس دكتاتورية. أما هؤلاء الذين كانوا مع أحداث انقلاب كان من شأنه أن يؤدى الى عشرات الآلاف من القتلى فقد هونوا كذلك من عمق وقوة حركة الخمينى. وتأثرت آراؤهم باعتقاد ملح ولكنه يدعو الى السخرية بان الاتحاد السوفييتى كان وراء المتاعب فى إيران، إذ كيف يمكن أن يسقط نظام قوى موال للولايات المتحدة مثل نظام الشاه ما لم تكن موسكو وراءه؟

لم تصبح سياسة الولايات المتحدة بعد الثورة أكثر نضجا. كان لدى الولايات المتحدة عدد قليل ولكن ضليع من الخبراء في شئون الحركة الإسلامية الإيرانية ولم يكن الدبلوماسيون الأمريكيون الذين توجهوا الى إيران بعد الثورة خبراء في الشؤون الإيرانية ولا يعرفون سوى القليل عن الاسلام أو الخميني وأمثاله، وعمل كثير منهم بجهد لتطبيق السياسة الرسمية من اجل مصالحة مؤقتة مع الجمهورية الإسلامية غير أن هذه الجهود تحطمت على أعتاب الهجوم الذي قامت به الجماهير على السفارة الأمريكية في نوفمبر 1979. أما مساعدو الخميني الذين تلقوا العلم في الغرب ويرتدون الملابس الإفرنجية مثل إبراهيم يازدى وصديق قطب زادة وأبو الحسن بني صدر فقد أطيح بهم في الثورة الثانية التي أعقبت الاستيلاء على مبنى السفارة الأمريكية وأكد رجال الدين من مدينة قم والخميني، أكدوا سلطتهم شبه الدكتاتورية. في هذه الفترة لم يكن الساسة الأمريكيان المتشددون على استعداد للتسليم بما حدث، فقد رأى بعضهم أن اسلمة إيران تشكل تهديدا للاتحاد السوفييتي معتمدين في ظنهم هذا على تخوف إيران من جارتها الشمالية وعلى عداة الإسلاميين للشيوعية، الأمر الذي يجعل إيران تعود مجددا للاتفاق مع الولايات المتحدة. ولكن المساندين لإسرائيل وبطبيعة الحال إسرائيل نفسها - رأوا أنه حتى النظام العسكري للملاي يعتبر حليفا محتملا - وحتى خلال أزمة السفارة الأمريكية كان ريجان والمحافظون الجدد يقومون بمحاولات للانفتاح على الملاي - وفي منتصف الثمانينات شرع المحافظون الجدد والمخابرات الإسرائيلية والكولونيل أوليفر نورث من هيئة الأمن القومي بمشاركة بيل كيزي من المخابرات المركزية الأمريكية شرعوا في القيام بمبادرة سرية للاتصال برجل إيران القوى على أكبر هاشمي رفسنجاني.

لقد نجحت الثورة الدينية في إيران في أن تقوم بما هو أكثر من اقتلاع أمريكا من أهم مواقعها في المنطقة، لقد بلورت تغيرا جذريا في طبيعة اليمين الإسلامي الذي كان قد اخذ في التشكل منذ عقود بظهور الإخوان المسلمين. فعندما اخذوا يكتسبون قوة منذ السبعينات نما الاسلام اليميني وقد تدعمت ثقته بنفسه وأصبح جزء منه راديكاليا. وتفرعت منه فروع تأثرت بظهور حركة سرية اسلامية إرهابية في مصر تتحدى الأنظمة الموالية للغرب وتتطبع بطابعها كما اكتسبت حركة حزب الله الإرهابية في لبنان قوتها. بل إن أكثر منابع الجماعات الإسلامية كان يلهمها المثال الإيراني كما اتخذت المنظمات المرتبطة بالإخوان المسلمين طبيعة سياسية أكثر تعبيراً.

إن الأخطاء التي ارتكبتها الولايات المتحدة خلال وبعد الثورة في إيران كانت بمثابة تراجعياً شكسبيرية في مداها، وجزء كبير من هذه المسؤولية يتحمله نظام المخابرات الأمريكية. كان سقوط الشاه هو أبرز الإخفاقات التي منيت بها مخابرات الولايات المتحدة خلال الفترة ما بين بيرل هاربور وهجمات سبتمبر 2001. ذلك أن الولايات المتحدة كانت تساند المجاهدين الأفغان بحماس شديد وحاولت أن تتواصل مع من كانت تظن أنهم معتدلون من ملالي طهران ولكن أحداً في مجتمع المخابرات لم يهتم بإلقاء نظرة على مجمل الصورة. بالنسبة للجمهور الأمريكي كانت ملامح آية الله الخميني العابسة وعيونه السوداء رمزا لبروز قوة جديدة تهدد الوضع العالمي.

غير أنه بالنسبة للدبلوماسيين الأمريكيين وضباط المخابرات ظل اليمين الإسلامي أمراً يستعصى عليهم أن يفهموه بعمق، وحتى عندما كشف اليمينيون المسلمون بصراحة عن مدى ما لديهم من قوة في حادث العنف الذي شهدته مكة والحرب الأهلية في سوريا واغتيال السادات فشلت الولايات المتحدة في أن تستوعب ما يعنيه ذلك. وحتى بعد إيران عندما اتضح أن الحركة الإسلامية العالمية ليست حركة متأثرة متباينة الإيديولوجية تبعا لكل بلد، وإنما هي مرتبطة بمواثيق الإخوة والجمعيات السرية. كان السذج يجادلون بأن إيران حالة فريدة، دكتاتورية محافظة وقعت فريسة لشكل غريب من أشكال الجهادية الإسلامية التي لن يكون لها صدى بين الأغلبية السنية المسلمة. كذلك وقع غيرهم من السذج ممن يفكرون بطريقة أخرى أكثر خطورة وقعوا في وهم أن الإسلام الإيراني والإخوان المسلمين يمكن أن يستخدموا في أفغانستان وآسيا الوسطى كأداة لتفسيخ الاتحاد السوفييتي. وبرغم الكراهية الشديدة الصريحة في قلوب الإسلاميين للولايات المتحدة، استمر المسؤولون الرئيسيون في الإدارة الأمريكية بدءاً من برجنسكي مستشار الرئيس كارتر لشؤون الأمن القومي إلى كيزي مدير المخابرات المركزية الأمريكية في عهد ريجان، استمروا بإصرار متمسكين بوجهة نظرهم بأن الإسلام السياسي ليس سوى مجرد عسكري على ما أطلق عليه برجنسكي " رقعة الشطرنج الكبيرة " (يعني المنطقة المشار إليها التي تمتد على طول الحدود السوفيتية الجنوبية ويشمل إيران وأفغانستان وباكستان في دوائر تزداد اتساعاً وتشمل السعودية ودول الخليج والعراق وتمتد إلى تركيا وسوريا وإلى شمال إفريقيا عبر مصر والسودان. -المترجم)

عودة آية الله

فى الثانى من فبراير 1979 بعد يوم واحد فقط من العودة الظافرة لآية الله الخمينى الى ايران ابرق جورج لامبراكيس احد كبار المسئولين فى السفارة الامريكية بطهران رسالة خطية مطولة الى واشنطن اوضح فيها انه يفكر مليا فيما يعنيه استيلاء الخمينى واثرا به على ايران ولكن ذلك لا يقلقه كثيرا، وتستحق رسالته ان تقتبس بكاملها لأنها توضح الى اى حد اساءت الولايات المتحدة التقدير فيما يتعلق بحركة الخمينى حتى قبل ايام من سيطرته على ايران:

" ان افضل تقدير اتنا حتى الآن هى ان الحركة الشيعية الاسلامية هى الاكثر تنظيميا والاكثر تنورا وانها قادرة على مقاومة الشيوعية اكثر مما يصوره لنا هؤلاء الذين يحطون من قدرها، فهى متجذرة فى الشعب الايرانى اكثر من اى ايديولوجية غريبة بما فيها الشيوعية. ومع ذلك فان التعاليم التى تحكمها ليست واضحة والارجح انها لم تتشكل على اساس شمولى ومن المحتمل ان عملية الحكم قد تعزز نوعا من التوافق مع العناصر المناهضة لحكم رجال الدين من المثقفين المتواجدين فى المعارضة الامر الذى قد يفرز شيئا اقرب الى العملية الديمقراطية الغربية عما قد يبدو واضحا فى البداية...

ان المؤسسة الاسلامية ليست بهذا الضعف او الجهل الذى كانت عليه حكومة الشاه كما قد يصورها بعض المراقبين الغربيين. فهى اكثر سيطرة على انفعالات الجماهير وعلى اموال البازار من اى جماعة اخرى. انها تساند وجهات نظر الاصلاحيين التقليديين فى ايران، وهى الاقرب الى اجتذاب معظم الايرانيين حاليا من نماذج الشيوعية التى يمثلها الاتحاد السوفييتى او الصين الأم.

من ناحية اخرى فان العمل بطريقة برلمانية ديمقراطية على نحو ما هو مفهوم فى الغرب ليس امرا مضمونا. والاقرب احتمالا هو ان يمارس المجلس الإسلامى قدرا اكبر من السلطة بالرغم من ان طريقة تشكيل مثل هذا المجلس لم تزل غير واضحة. وفى ضوء برنامج الحركة يبدو ان القادة السياسيين هم الذين يقدر لهم ان يلعبوا الدور الأكبر فى صياغة وتطبيق سياسة الحكومة.... اننا نشك فى قدرة المؤسسة الاسلامية على تجنب القيام ببعض التوافقات مع الافكار الحكومية المنمذجة وفق النمط الغربى التى ياخذ بها الكثيرون فى صفوف حركة المعارضة.⁴⁴²

442- جورج لامبراكيس - برقية سرية بتاريخ 2 فبراير 1978 " إدراك الحركة الإسلامية

الشيعية" George Lambrakis, Understanding the Shiite Islamic Movement

كان الخميني قد عاد لتوه الى ايران قادما من باريس في اول فبراير قبل يوم واحد من كتابة مذكرة لامبراكيس. بعد تسعة ايام انهارت الحكومة الايرانية الانتقالية واقام الملاي دكتاتوريتهم التي تحكم منذ اكثر من ربع قرن. رحب الرئيس كارتر بالحكومة الايرانية الجديدة وتمكن متفائلا من التواصل مع قيادتها. غير انه لسوء الحظ في 14 فبراير قامت مجموعة من المؤيدين للخميني باقتحام السفارة الامريكية في طهران ولم تتسحب الا بعد مفاوضات مكثفة. بعد تسعة شهور قامت مجموعة مماثلة بالهجوم على السفارة واحتجزت العشرات من الشخصيات الامريكية واحتفظت بهم كرهائن لأكثر من سنة، خالقة بذلك واحدة من اكبر الازمات الدبلوماسية في التاريخ الامريكي. وبانتهائها تولى الخميني الحكم دكتاتورا لايران لا ينازعه في ذلك احد.

كيف يمكن ان يخطئ لامبراكيس الى هذا الحد؟ كيف تأتي لاحد كبار مسئولى الادارة الامريكية - ولم يكن فريدا في هذا- ان يعتقد ان الخميني وعصابة علماء الدين التابعين له سوف يسلمون السلطة الى زعماء سياسيين وليس الى الملاي؟ وكيف له ان يصف حركة الخميني بانها حركة مستتيرة؟ وكيف له ان يتوقع ان شيئا ما "قريبا من العملية الديمقراطية على النمط الغربى سوف تظهر؟

ان الكثير من اللوم لايقع على هؤلاء وحدهم. فلا الادارة الامريكية ولا المخابرات الامريكية ولا هيئة الحكماء (Think-tank). التي نفاخر بها وتعمل فى مجال السياسة الخارجية ولا الأكاديميين، فهموا ايران على الوجه الصحيح. ان معظم اللوم ينبغى ان يوجه الى حكومة الولايات المتحدة الامريكية التي مزجت جهلها الاعمى بايران بعجزها المطبق. وامتد العمى ليشمل العديد من اكاديميى الولايات المتحدة المتخصصين فى الشأن الايرانى والعديد من الجامعات مثل جامعة جيمس بيل فى تكساس، مارفين زونيس فى تكساس وجامعة بتسبرج - جامعة ريتشارد كوتام ضابط المخابرات المركزية الامريكية لسابق الذى كان يعمل شبه مستشار رسمى للبيت الابيض والادارة الامريكية خلال الفترة 1978-1979، كذلك بيل كيزى الذى عادة ما يتم اللجوء الى كتابه (النسر والاسد) للاقتباس منه بوصفه مرجعا موثوقا فى العلاقات الامريكية- الايرانية والمسئول عن جانب كبير من جريدة الشؤون الخارجية، جريدة مجلس الشؤون الخارجية، مثله مثل لامبراكيس كان خاطئا وفشل فشلا تاما فى ادراك المؤشر، حتى حينما شن الخميني هجوما عاصفا على الشاه من العراق ثم بعد ذلك من فرنسا، وكانت الجماهير تحمل صورته وهى تطوف شوارع المدن الرئيسية كلها.

فى مؤلفه "ايران وازمة 1978" ينتهى بيل الى القول:

" اذا قدر لسلالة الشاه بهلوى ان يقضى عليها بالقوة والعنف فان اكثر البدائل احتمالا هو أن تحل محله جماعة يسارية تقدمية من ضباط الجيش ذوى الرتب الوسيطة... والاحتمالات الأخرى المطروحة فى المستقبل تتضمن عصابة عسكرية، الجناح اليميني، نظام ديمقراطى ليبرالى مؤسس طبقا للنموذج الغربى او حكومة شيوعية"⁴⁴³... لا ذكر اطلاقا لاحتمال قيام جمهورية اسلامية، بالرغم من ان آية الله الخمينى كان هو القائد المعلن بشكل واضح للثورة. ولكن بيل، وهو من الخبراء القليلين بالولايات المتحدة المتخصصين فى الشؤون الايرانية لم يكن هو الوحيد الذى اخطأ قراءة مستقبل ايران. حينما بلغت الثورة الايرانية اوجها فى نوفمبر 1978 وجهت الدعوة لعقد اجتماع على المستوى للادارة الامريكية لتحليل الازمة التى لم يكشف عنها بعد. يتذكر هنرى بريخت وهو رئيس المكتب المختص بالشؤون الايرانية - يتذكر كيف انه - برغم كل المعلومات المخبرانية المتاحة له - اكتفى بصياغة تحليله من واقع المعلومات التى استقاها من مجموعة من الطلبة الايرانيين التقى بهم فى الليلة السابقة:

" فى اواخر نوفمبر 1978 استدعينا كل الخبراء فى الشؤون الايرانية: الضباط الذين خدموا هناك وغيرهم. وكان لدينا كل المناقشات لتداول فيما يجب ان نقوم به وما الذى سوف يجرى هناك. فى الليلة السانقة كنت مدعوا لالقاء محاضرة فى احد فصول الجامعة الامريكية واتضح وجود العديد من الطلبة الايرانيين بين الحضور. وحينما طرحت عليهم سؤالا عما يظنون انه سوف يحدث فى ايران، ردوا جميعا: "حكومة اسلامية". فى اليوم التالى كنا جميعا نروح ونجئ فى ارجاء الحجرة متسائلين عما يمكن ان يحدث، وكان الناس يقولون أشياء مثل: " ستكون هناك حكومة ليبرالية مع جبهة وطنية، والخمينى سوف يتوجه الى قم"، وحينما جاء دوري قلت " حكومة اسلامية" وكنت الوحيد الذى قال ذلك.⁴⁴⁴

ان حقيقة ان الولايات المتحدة اخطأت على هذا النحو لا يمكن ان ينظر اليه الا باعتباره خطأ جسيما للمخابرات. ولكن الفشل لم يكن يعود الى الافتقار الى المعلومات لان الثورة كانت تكشف عن نفسها فى الشوارع ولأن الخمينى لم يكن ممثلا يلبس طاقية الاخفاء. الا ان الولايات المتحدة التى كان لديها ثقة مطلقة هائلة

443 - جيمس بيل James Bill, Iran and the Crisis of 1978 مجلة الشؤون الخارجية شتاء

1978-79 ص 340

444 - هنرى بريخت Henry Brecht مقابلة مع المؤلف ابريل 2004

فى شاه ايران كانت تعتقد ان ايران مستقرة وانها ليست عرضة للثورة. وحتى حينما اكتسبت الثورة قوة دفع رفضت الولايات المتحدة ان تصدق ان الخمينى ورجال الدين سوف يستولون على السلطة لحسابهم الخاص مفضلة ان تعتقد ان نوعا ما من الديمقراطية المهجنة بالدين والعلمانية معا سوف تتبثق من خلال الفوضى التى تتلو سقوط الشاه.

يقول توماس اهيرن رئيس مكتب المخابرات المركزية فى ايران سنة 1976 وكان قد وصل الى ايران بعد بضعة اشهر من قيام الثورة وأخذ رهينة من قبل الجماهير التى دفعها الخمينى للسيطرة على السفارة فى نوفمبر وقضى 414 يوما كرهينة- يقول اهيرن انه كان ينبغي ان تكون الثورة واضحة لنا ولاى انسان يعنيه ان ينظر من النافذة سنة 1978. وهو يتذكر انه عندما عاد الى المقر الرئيس للمخابرات المركزية سنة 1981 بعد تحريره كانت الوكالة تئن تحت وطأة ما عانت من فشل فيما يتعلق بتوقع قيام الثورة: "بعد ان عدت كان هناك شخص مسئول فى قسم الشرق الاوسط يندب اخفاق الوكالة فيما يتعلق بسقوط الشاه" ويتذكر اهيرن: "نظرت اليه وسالته عما اذا كان لم يلاحظ ما يجرى فى الشوارع؟! يقول اهيرن ان المخابرات المركزية تعاملت مع مشكلة ما قبل الثورة الايرانية وفقا للنمط التقليدي القائم على التجسس مقابل التجسس، محاولة أن تستكشف سر حركة الخمينى ومدى استقرار نظام الشاه، ولكن حسبما يقول - فشلت المخابرات المركزية فى ان تستخلص النتائج الواضحة لما كان موجودا فيما يتعلق بمجريات الشئون اليومية"، ومن ثم فقد علقت بما يبدو انه توقعات آمنة بان الشاه سوف يتخطى الازمة. "لقد اقتفينا أثر سائر الاجهزة فى إخطار البيت الأبيض بما كان يجب ان يسمعه وهو ان هذا مجرد ازعاج وان الشاه بخير وانه بفضل المساعدات غير المحدودة التى تقدمها له الولايات المتحدة سوف يتخطى العاصفة. كان هناك فشل على مستوى العمل القائم فى مصارحة السلطة بالحقائق".⁴⁴⁵

فى السبعينات استقرت السلطة فى الولايات المتحدة فى ابدى ثلاث مجموعات من الدوائر السياسية، كل منها تنفذ الى المشكلة الايرانية من منفذ مختلف، وكل منها بطريقته الخاصة دون ان يرى الانتصار القادم للخمينى. كان آية الله الخمينى بالنسبة لكل منها اشبه ما يكون بلعبة الروشاخ* كان الخمينى بالنسبة لكل من هذه

445 - توماس اهرن Thomas Ahern مقابلة مع المؤلف - يونيو 2004

* بقع من الحبر تعرض الواحدة تلو الاخرى على الشخص المراد فحصه ويطلب منه ان يركز انتباهه عليها ويطلق تعليقا حرا على ما يراه فتكون النتيجة ان كل شخص ما يرغب فى ان يراه- المترجم. ولمن يرغب فى المزيد ينظر: د. احمد عزت راجح- اصول علم النفس ص 401 ط 9 المكتب المصرى الحديث (1973).

المجموعات اشبه بهذا الهيكل المعتم الذي يرى فيه الخبراء فى الشئون الايرانية وكبار واضعى السياسة الامريكية ما يريدون ان يروه. كلهم وقعوا فى الخطأ وبذلك ساعدوا على نجاح الخمينى.

كانت اولى هذه المجموعات مجموعة الواقعيين التى يقودها كيسنجر، الذى قاد سياسة الولايات المتحدة تجاه ايران فى النصف الاول من هذه الحقبة. كان الخمينى بالنسبة لهم مجهولا تماما، وقضوا السبعينات يقيمون ايران كقوة اقليمية، رجل شرطة الخليج، قلعة امريكا ضد الاتحاد السوفييتى والقومية العربية. كان حلفاء هذه المجموعة فى المخابرات المركزية يضمون ريتشارد هيلمز رئيس المخابرات المركزية الذى عين سفيرا لدى طهران سنة 1973. وعندما كان صبيا كان يذهب مع الشاه الى المدرسة السويسرية فى الثلاثينات وكان سنة 1953 فى فريق المحاربين المحترفين مع كيرميت روزفلت العميل السرى فوق العادة وآرشى وهو محترف ايضا فى المخابرات المركزية وكان احد المسئولين فى بنك روكفلر - بنك تشيس مانهاتن - وقد استمر كيسنجر وهيلمز واخوان روزفلت وروكفلر وشركات البترول الكبرى وشركات الدفاع التى قضت سنوات طويلة وهى تحول ايران الى مستعمرة امريكية حقيقية سيما تحت حكم ريتشارد نيكسون. كانوا يريدون تذرهم تجاه جهود الشاه المستمرة من اجل تأكيد الاستقلال اطرادا مع النمو الايرانى، وكانوا يريدون ضيقهم من اسراف الشاه وما يبدو انه جنون العظمة. وكانو يتصرفون بجفاء تجاه استعداد الشاه من حين الى آخر - لعقد صفقات مع الاتحاد السوفييتى، متجاهلين ما هو اكثر اهمية وهو ماكان قائما بالفعل: فايران كانت السوق الاكثر اهمية لانظمة الدفاع باهظة الثمن وأنها حليف يمكن الاعتماد عليه فى الحرب الباردة فى اى مكان، وانها اكثر الاماكن التى يمكن عمل البزنس فيها تحقيقا للربح، وانها قلعة امامية فى قلب مناطق امدادات البترول فى العالم. خلال ادارة كارتر كان برجنسكى مستشار الامن القومى هو الاكثر قربا من من وجهة نظر نيكسون وكيسنجر تجاه ايران، ويأتى بعد ذلك الليبراليون فى ادارة كارتر. لم يكن الخمينى بالنسبة لهم شخصية خفية ولكنه كان قوة غامضة تقف فى خلفية الصورة، اقل اهمية فيما يبدو من مختلف مجموعات المثقفين من اليسار الليبرالى والإصلاحيين ونشطاء الجبهة الوطنية المتحدة السابقين. كان لبراليو كارتر فى واشنطن قلقين على الشاه ومهتمين ببناء القوة العسكرية فى ايران. لم يكونوا فى مستوى صقر مثل برجنسكى، وانما كان يقلقهم عزم نيكسون - كيسنجر اعطاء الشاه شيك على بياض لبناء قوته العسكرية، كانوا كذلك غير سعداء بسجل الشاه فى مجال حقوق الانسان

وبطابع النظام كنظام شمولي. وفي حرصهم على التمسك برغبة كارتر التي كان يعبر عنها باستمرار من اجل الارتقاء بحقوق الانسان في الخارج فقد كانوا يضغطون على الشاه من اجل تحرير النظام. وشعر بعضهم بوضوح ان الإصلاح الشامل بل نهاية نظام الشاه نفسه كان هدفا مهما لسياسة الولايات المتحدة الخارجية. وبهذا الصدد فان قوات الخميني لم يكن ينظر اليها كتهديد بل كنظام مناسب مناهض للشيوعية، وهو من ضمن الاصلاحات الوطنية التي يتعين على الشريك الاصغر القيام بها. خلال هذه الفترة كان الليبراليون ممثلين في الادارة الامريكية وخاصة في مكتب ايران وفريق حقوق الانسان. وثالث هذه الاتجاهات هو اليمين المتشدد دعاء التفوق في الحرب الباردة والعظمة الامريكية وهؤلاء يطلق عليهم اليوم المحافظون الجدد. خلال ادارة كارتر كان اليمين في معظمه في المعارضة ثم بدأوا يتحولون تدريجيا حول المرشح رونالد ريجان اواخر السبعينات. كان وثيق الارتباط باسرائيل التي لحقت بها ايران بدورها في المحور المناهض للعرب، لكن المحافظين الجدد لم يكن يقلقهم الخميني. فبالرغم من انهم كانوا يؤيدون الشاه الا انهم لم يترددوا في تطوير علاقات قوية وان كانت سرية مع نظام خميني بعد 1979. وفي 1980 انشغل فريق ريجان في محادثات سرية حول السلاح والرهائن مع آيات الله في طهران في محاولات مقصودة لأضعاف كارتر فيما اصبح يعرف فيما بعد بفضيحة "مفاجأة اكتوبر". فالى جانب السلاح مدت اسرائيل ايران بالمعلومات المخابراتية طوال حربها مع العراق وبالإضافة تعاونت اسرائيل مع المحافظين الجدد اضافة الى وليم كيزي في تدشين فضيحة إيران - كونيترال التي تضمنت أيضا مبيعات أسلحة إضافية لنظام الخميني من جانب كل من اسرائيل والولايات المتحدة

كارتر والشاه

كان تولى كارتر رئاسة الولايات المتحدة مصدر قلق للشاه. وشجعت المعارضة الايرانية، بدءا من المثقفين في الجبهة الوطنية الى آيات الله في اليمين الاسلامي. ان تولى كارتر رئاسة الولايات المتحدة سنة 1977 قد حفز ذاكرة الكثير من الايرانيين واعادها الى زمن سابق حيث كانت العلاقات الامريكية الايرانية (وليس الانقلاب الذي دبرته المخابرات المركزية الامريكية واعاد الشاه الى العرش سنة 1953) في أوائل الستينات حينما كانت ادارة كنيدي تلعب بفكرة خلع الشاه

واستبداله بنظام اقل شمولية. كان البيت الابيض فى عهد كارتر يعطى اهمية اكبر لحقوق الانسان، وكان الكثيرون من مسئولى الادارة الامريكية يعارضون السياسة القديمة فيما يتعلق ببناء قوة الشاه.

تذكر كل من الشاه والمللى ادارة كنىدى واعتبروها سابقة.فخلال سنوات حكم كنىدى كتب جون باولنج الخبير بالشئون الايرانية فى الادارة الامريكية كتب ورقة يحلل فيها قوى المعارضة الايرانية ويناقش مزايا تحول السياسة الغربية نحو تاييد القوى الوطنية التى تعتمد على التاييد الشعبى " انقلاب مصدق"⁴⁴⁶ ولكن الشكوك حول الشاه - حسبما ذكر خبير سابق على المستوى فى المخابرات المركزية الامريكية كان قد شارك فى المناقشة- هذه الشكوك لم تبدأ مع كنىدى:

"كان هناك جدل يدور فى الحكومة الامريكي والسفارة عما اذا كان ينبغى علينا ان نؤيد الشاه او حكومة وطنية ؟ كان ذلك يجرى منذ حوالي سنة 1978 حينما بدأت الجبهة الوطنية تعيد بناء نفسها. كان السؤال هو: هل نريد ان نزرع الشاه او نؤيد الوطنيين؟ كان هناك حديث حول شئ مشابه لنظام ملكى على النمط الانجليزى حيث القوة الحقيقية فى يد الحكومة المنتخبة. فى النهاية اتخذ كنىدى قراره بتأييد الشاه ولكن بشرط ان تكون هناك اصلاحات حقيقية وان يقبل الشاه تعيين الاصلاحى على امينى رئيسا للوزراء"⁴⁴⁷

يلاحظ جيمس بيل فى كتابه ان "شكوك كنىدى تجاه الشاه كانت من القوة لدرجة انه بحث فى امكانية أجباره على التنازل عن العرش وتعيين مجلس وصاية على العرش حتى يبلغ ابنه السن القانونية"⁴⁴⁸ من الناحية المبدئية لم يكن اهتمام كنىدى امرا خارج السياق ولكن المشكلة انه فى اوائل الستينات كما فى أوائل السبعينات ، لم يكن هناك بديل خارج إطار رجال الدين يمكن احلاله محل الشاه. كانت الجبهة الوطنية قد فقدت تقريبا كل مؤيديها خلال سنوات ما بعد مصدق، وشيئا فشيئا أصبحت معزولة داخل صالونات طهران ولا يؤيدها سوى المثقفين فى اوربا الغربية.

تحت ضغوط الولايات المتحدة بذل الشاه بعض الجهد شبه الصادق للإصلاح فيما اطلق عليه الثورة البيضاء. واذ استشعر رجال الدين الخطر بدأوا يتحركون.

446 - مقتبس من مؤلف جيمس بيل The Eagle and the Lion: The Tragedy of American Iranian Relations(New Haven,1988) p.133

447 - مسئول سابق متقاعد فى المخابرات المركزية الأمريكية مقابلة مع المؤلف مايو 2004

448 - بيل النسر والأسد ص 137

وفى الأحياء المتطرفة بدأ اليمين الديني الذي يرتبط بعلاقات وثيقة مع العائلات الغنية من ملاك الأرض يحشد الجماهير ضد الإصلاح الزراعي. ونشبت صدامات عنيفة فى كثير من المناطق، كان الملاي هم محركوها الأساسيين تحت القيادة متزايدة التأثير لروح الله آية الله الخميني الذي لم يكن قد وصل بعد الى الصدارة، ولكنه تمكن من الوصول اليها بعد ان القى خطبة ديماجوجية سنة 1963 يشجب فيها الشاه. ومن اجل ان يقيم الخميني تنظيمه أسس تحالف الجمعيات الاسلامية بقيادة 21 شخصا من اغنياء التجار - البازار من مساجد طهران الرئيسة الثلاث. وسيغدو كثير من هؤلاء الذين شاركوا فى تحالف الخميني قادة النظام سنة 1979 ومسؤولين رئيسيين فى حزب الجمهورية الاسلامية بمن فيهم محمد حسيني بهشتي.⁴⁴⁹

لم يكن الشاه يحمل فى نفسه لرجال الدين شيئا سوى الازراء، ففي خطابه فى يناير 1963 صب جام غضبه على الملاي بقيادة الخميني:

" لقد كانوا دائما عصابة من الاغبياء والرجعيين الذين لم تتحرك عقولهم منذ الف عام. من هم هؤلاء الذين يعارضون الثورة البيضاء؟ انهم الرجعية السوداء. الرجال الاغبياء الذين لا يفهمونها وذوى القصد السيئ. لقد كانوا هم الذين شكلوا جمعا صغيرا مثيرا للسخرية من عدد محدود من الملتحين والبازار الاغبياء ليثيروا الضجة. انهم لا يريدون لهذا البلد ان يتقدم⁴⁵⁰

مثل هذا الكلام لم يحجب الشاه لرجال الدين. فى سنة 1963 اعتقل الخميني بواسطة السافاك وراجت اشاعات تقول بانه سوف يحاكم ويعدم. ولكن ذلك كان يمثل سابقة لم تحدث من قبل ان توقع عقوبة الاعدام على احدايات الله. فى سنة 1964 طرد الخميني من ايران الى تركيا اولا ثم الى العراق حيث أقام فى مدينة النجف وسيظل هناك حتى 1978.

فى 1977 - متذكرين ايام كنيدي - توقع كل من الشاه ورجال الدين ان النظام الجديد فى الولايات المتحدة قد يبدأ فى الضغط على الملكية متيحا الفرصة لرجال الدين للتنظيم، فعلا هذا ماتم فحسبما ذكر السفير الايراني فى لندن كان الشاه يخشى

449 - باقر موان Baquer Moin " الخميني : حياة آية الله " (نيويورك 1999) ص 80 تاريخ حياة الخميني كما سجلها باقر موان تعتبر تسجيلا وافيا ويعتبر صورة للرجل اجيد التعبير عنها وبأى مقياس يعتبر افضل كتاب عن الخميني كتب باللغة الانجليزية.

450 - موان ص 88

ان يخنو جيمى كارتر حذو كنيدي⁴⁵¹. كان الشاه قد شن حملة على رجال الدين مرة اخرى فى اوائل السبعينات والقى القبض على الكثير من حلفاء الخمينى بمن فيهم على اكبر هاشمى رافسنجاني، رجل المستقبل القوى فى ظل النظام الذى اقامه الخمينى. ولكن انتخاب كارتر وقد ذاعت شهرته فى ايران بسبب تمسكه بحقوق الإنسان، أثارت مجددا ثائرة رجال الدين. فى مايو 1977 زار سايروس فانس طهران ليقابل الشاه. "سرعان ما اشيع على نطاق واسع بعد زيارة فانس انه قد صدر امر من واشنطن الى الشاه: اما ان تكون لبراليا او ان تعزل". يعلق بيل أنه "سرعان ما استقبل ذلك فى طهران على أنه حقيقة....وانتهت المعارضة الى انها يجب ان تعمل الآن تحت مظلة الحماية الامريكية التى رفعها فانس.⁴⁵²

حسبما ذكر شارلس كوجان وهو مسئول سابق فى المخابرات المركزية الامريكية وكان يرأس قسم الشرق الاوسط، تتبأ فانس بثورة سلمية فى ايران تؤدى الى نظام يمكن أن يستوعب حتى الخمينى:

"كان فانس. (هل لنا ان نقول، والادارة بشكل عام) كانت تتطلع الى امكانية حدوث تحول هادئ يمكن للملكية من خلاله ان تسلم بعض السلطة الى خلفاء لا يعتبرون كالخمينى ولكن من المعتدلين حوله - وبعضهم كان موجودا بالفعل، وان هذا يمكن ان يؤدى الى التحول الناجح الى نظام ملكى برلمانى دستورى.⁴⁵³

فى اول الامر بدا أن ذلك يتم فى هدوء ثم تسارع مع تعاظم زخم الثورة ضد الشاه. واخذ مسئولو السفارة الامريكية والمسئولون الأمريكيون والمخابرات المركزية والمبعوثون شبه الرسميين من واشنطن بدأوا يقومون بالاتصال بالمعارضة "كان الشاه غاضبا جدا فى اواخر السبعينات نظرا لأن شخصيات من المعارضة واعضاء من هيئة رجال الدين يؤمون السفارة الامريكية دخولا وخروجا " يذكر جوان كول وهو استاذ فى جامعة متشجان وخبير فى شئون الاسلام⁴⁵⁴ ان وجهة النظر هذه يؤكدھا شارلس ناس وهو مسئول سياسى كبير فى السفارة الامريكية

451 - مقتبس من مؤلف جارى سيك Gary Sick الجميع يفشلون: المواجهة الأمريكية المأساوية مع ايران All Fall Down: America's Tragic Encounter with Iran (نيويورك 1985) ص

452- بيل Bill, The Eagle and the Lion النسر وا لآسد ص 228

453 - مقابلة مع شارلس كوجان مقابلة مع شارلس كوجان، الحلقة 20 جند الله الانترنت مايو 2004. www.Gwu.edu/~nsarchiv/coldwaar/interviews/episode-20/coganI.html

454 - جوان كول Juan Cole مقابلة مع المؤلف يوليو 2004

بطهران وكان يعمل تحت رئاسة السفير بيل سوليفان وهو إيرلندي جاف اللهجة خدم في بعض الوظائف الصعبة بما في ذلك في لاوس خلال الحرب السرية للمخابرات المركزية الأمريكية في هذا البلد، ووصل الى ايران سنة 1977 ليحل محل هيلمز. طبقاً لما ذكره ناس، حاول سوليفان جاهدا ان يقيم صلات مع المعارضة: "حينما خرج بيل سوليفان ذكرت له اننى لم اعمل ابدا في بلد لا اعلم سوى القليل عن السياسة فيه" ويتابع ناس قائلا " وحينما وصل الى هناك بدأ يشجع القسم السياسي على الخروج ومقابلة الناس وفعلاً تحدثوا مع عدد من شباب التكنوقراط وعدد من اعضاء الجبهة الوطنية بمن فيهم اناس يكون مشاعر طيبة للقادة الدينيين"⁴⁵⁵

يقول ناس ان الشاه " قد شعر باننا غيرنا موقفنا وبدأنا نشجع المعارضة. " يضع الشاه هذه المسألة في مذكراته على النحو التالي: "يريد الامريكان ان اخرج.... لم يقل لى احد ابدا عن الانقسام الموجود في ادارة كارتر ولا عن الآمال التى يضعها بعض المسئولين الامريكان على إمكانية قيام جمهورية اسلامية كقلعة ضد الشيوعية"⁴⁵⁶

كان اللاعب الاساس فى محاولة عمل اتصال بين الجبهة الوطنية العلمانية وعلماء الدين هو مهدي بازرجان مؤسس حركة التحرير وهو حزب دينى موالى لرجال الدين، ومقدر له ان يصبح اول رئيس وزراء لإيران بعد الثورة. كان لبازرجان تاريخ طويل فى العمل مع الملالي، ولكنه يحتفظ ايضا بعلاقات حوار جارية مع الادارة الأمريكية وضباط المخابرات المركزية الأمريكية. فى حقيقة الأمر كان بازرجان نفسه ملالا على نحو ما. يقول مسئول عمليات سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية عمل فى ايران "ان بازرجان كان اساسا احد آيات الله او ما يطلقون عليه " آية الله بلا عمامة "⁴⁵⁷ ان جهود الولايات المتحدة للاتصال بالمعارضة عملت بما لا مناص منه ليس فقط على اغضاب الشاه ولكنها أيضا شجعت المعارضة وبوجه خاص قسمها الدينى. يقول ناس " ان هذه الاشارات فسرهما بازرجان خطأ وكذلك فعل غيره " بعد الثورة ذكر لى بازرجان " ليس لديكم فكرة الى اى حد شجعنا الرئيس كارتر. هذه واحدة من الاشارات التى فسرت خطأ. "

455 - شارلس ناس Charles Naas مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

456 - محمد رضا بهلوى (إمبراطور إيران المخلوع) إجابة للتاريخ Answer to History (نيويورك 1980) ص 165

457 - ضابط عمليات سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية - مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

من مركزه فى الامم المتحدة كممثل لايران كان فريدون هوفيدا يراقب ما كانت تقوم به ادارة كارتر من الحط من شأن الشاه. كان هناك تحالف يتكون بين المعارضة الليبرالية وحركة بازارجان الدينية ورجال الدين بقيادة الخمينى. " كان الامريكان على اتصال دائم مع الليبراليين فى ايران بعد 1977. وكانوا يطالبون الليبراليين سيما بازارجان والجهة الوطنية بالخروج والتعبير عن الرفض والاحتجاج وقد آن لذلك الاوان. انا متأكد من هذا. اخبرنى بعضهم فى ذلك الحين: ان الامريكان يقولون لنا هذا وقت الاحتجاج....وقلت للامريكان ان هذا مثل اللعب بالنار. انكم تاتون باكثر اعداء الغرب عداوة". يتذكر مسئول كبير فى الادارة الامريكية انه عقد اجتماع سنة 1977 استخدم فيه نفس الكلمات جيسىكا تتشمان وآخرون فى لجنة الامن القومى كانوا يتجادلون ضد مساندة الشاه وضد امداده بالغازات المسيلة للدموع ليستخدمها ضد المتظاهرين " ويضيف: " لقد قلت لهم" انتم لا تدرون عم تتحدثون. انتم ليست لديكم فكرة عن ديناميكية السياسة فى ايران، لأنه لا احد يعلم انتم تلعبون بالنار." ⁴⁵⁸

المخابرات الامريكية وايران

اخذت ثورة آية الله الخمينى تكشف عن نفسها ببطء على مدى سنوات عديدة. ولا يمكن ان يندهش من نتائجها سوى اكثر الناس تبليدا فى الذهن. ان سلسلة من تقارير المخابرات الامريكية عن ايران كانت ابعد ما تكون عن الحقيقة. فاحد التحاليل الذى وضعته الادارة سنة 1972 يمارى بانه حتى ذلك الحين كان بعض الدبلوماسيين يرون ان الخمينى يجسد " قيما لبرالية" ولو أنها غير جذابة المظهر: " يتمتع شاه ايران بتعاطف عام ويتبنى بشجاعة القضايا الاسلامية بالرغم من ان الإيرانيين....ليسوا متعاطفين كثيرا مع المشاعر الاسلامية الشمولية، وان رجال الدين الإيرانيين لم يعد لهم هذا النفوذ الدينى الكبير....الذى كانوا يتمتعون به خلال العقد الماضى وانهم اصبحوا فى المؤخرة ويفتقدون المبادأة تجاه المد المتنامى الذى تمارسه الدولة العلمانية....وان آية الله الخمينى، قبض عليه ونفى الى العراق سنة 1964 نتيجة لانشطته المعادية للحكومة بالرغم من انه لايزال يطمح الى قيادة مسلمى ايران الا ان تعاونه الوثيق مع الحكومة العراقية فى دعايتها ضد الشيعة وفى

458 - مسئول سابق بالإدارة الأمريكية - مقابلة مع المؤلف - يوليو 2004

اعمالها قد افقدته اى فرصة للمصالحة مع الشاه الحالى وحدث من تقبله لدى الكثير من المسلمين الإيرانيين الذين قد يشاطرونه بعض القيم الليبرالية الاساسية التى ينادى بها.⁴⁵⁹

تعود شارل ناس وكان يعمل مديرا لقسم الشؤون الايرانية التابعة للإدارة الامريكية خلال الفترة من 1974-1978 فى طهران اثناء الثورة- يقول ان تحليلات الادارة الامريكية لما جرى حتى 1979 كانت ضحلة خاصة اذا كان كانت صادرة عما يطلق عليه "تقديرات المخابرات الوطنية" التى كان يعدها المجلس القومى للاستخبارات التابع للمخابرات المركزية الامريكية. " فى ذلك الحين كانت الفكرة العامة عند وضع هذه التقديرات مبنية على اساس ان اليمين الدينى لا يمثل اى خطرا بالنسبة للنظام - ويستمر ناس قائلا- لم يكن هناك عمليا اى تقارير حقيقية عن الجماعات الاسلامية فى هذه البلاد، ومن ثم فقد كنا معزولين تماما". فى اغسطس 1977 حسب التقرير التقديرى حول " ايران فى ثمانينات القرن" تنتهى المخابرات المركزية فيه الى ان " الشاه سوف يكون مشاركا فعالا فى الحياة الايرانية خلال الثمانينات، وانه لن يكون هناك تغيير جذرى فى مسيرة السياسة الايرانية فى القريب العاجل." بعد عام فى اغسطس 1978 انتهى تقرير اخر للمخابرات المركزية الى ان ايران تبدو متجهة الى تغيير هادئ متى ترك الشاه السلطة. وتضيف بان " ايران ليست فى وضع ثورى او حتى على وشك الثورة"⁴⁶⁰. فى 1978 كان الرئيس كارتر يشاهد من خلال التلفزيون برنامجا بعنوان تفكك إيران، فكتب الى بيروقراطى الامن القومى شاكيا انه " غير راض عن نوعية المعلومات السياسية المخابراتية التى يتلقاها عن ايران"⁴⁶¹ ، الا ان المخابرات المركزية التى كانت تفتقر الى الاختصاصيين فى الشؤون الايرانية ممن يتكلمون الفارسية والخبراء فى الشؤون الاسلامية لم يكن باستطاعتهم ان يقدموا افضل من ذلك. يقول الاميرال ستانسفيلد مدير المخابرات المركزية الامريكية الذى عينه كارتر: " فى سنة 1977 لم يكن الاسلام يتبدى لنا فى المدى المنظور قوة سياسية. ولم يكن مجتمع المخابرات مؤهلا

459 - تقرير عام صادر عن الإدارة فى مايو 1972 بعنوان " الدوائر الدينية" وهو من الوثائق التى أفرجت عنها السلطات الإيرانية ضمن الوثائق التى وضعت يدها عليها بعد الاستيلاء على السفارة الأمريكية سنة 1979

460 - تقارير المخابرات المركزية الأمريكية بهذا الصدد غير مصنفة وكان ذلك موضع استجواب فى الكونجرس أعلن للجمهور فى يناير 1979 . والمقتطفات التى أوردها مأخوذة من سبك .

461 - Sick ص 90

لادراك كنهه. لقد قلل إلى حد كبير من تقدير امكانيات الخميني.⁴⁶² ولكن الأسوأ انه خارج نطاق هذا العدد المحدود من الخبراء في الشؤون الايرانية لم يكن هناك فى الواقع احد فى ادارة كارتر لديه اية فكرة عما يكون الخمينى الا فى وقت متأخر. يتذكر هنرى بريخت الذى كان مسئولاً عن مكتب الشؤون الايرانية سنة 1978 انه تلقى برقية من طهران فى ذروة احداث الثورة: "تلقت الادارة برقية من السفارة فى طهران تذكر فيها الخمينى وتعرفه بانه "زعيم ايران الدينى" ويضيف أن تعريفه على هذا النحو" يعنى بالنسبة للقراء ان وشنطن تقول لهم انه ليس هناك معلومات يعتقد بها عن حقيقة من يكون".

وبالرغم من وجود الآلاف من الامريكان فى طهران بمن فيهم مئات المسؤولين بالاضافة الى قاعدة المخابرات المركزية الامريكية الموجودة هناك، لم يكن من احد لديه معرفة بالبنية التحتية الثقافية والدينية والسرية وقوى المعارضة فى ايران سوى اقلية ضئيلة. فى الواقع فان جميع مسئولى الولايات المتحدة الذين كتبوا مذكراتهم عن الثورة الايرانية، يذكرون ان الولايات المتحدة كانت تعتمد على الشاه والحلقة الضيقة المحيطة به لمدتها بالمعلومات عن سياسة ايران الداخلية. ويعود هذا جزئياً الى ان وشنطن كانت تثق فى الشاه ثقة مطلقة وانها كانت تعتقد ان مخابراته ونظامه الامنى لا يمكن اختراقهما، وقد يعود هذا جزئياً الى ان الشاه كان يعترض بشدة على أى مجهود تقوم به الولايات المتحدة للاتصال برجال الدين والمعارضة. يذكر وولتر كتلر وهو سياسي امريكى مخضرم كان يعمل فى تبريز ثانياً اكبر المدن الايرانية فى الستينات انه حتى ذلك الحين كان من الصعب اقامة علاقات مع رجال الدين. " حينما كنت فى تبريز صدرت لى تعليمات بان اتحدث مع المللى ولكنه يذكر انه" فيما يتعلق بالشاه كان الامر واضحاً: لاتقترب من العناصر الدينية، فالسافاك حاضرة هناك حضوراً آمناً⁴⁶³ فى السبعينات حينما اقام نيكسون وكيسنجر شراكة مع الشاه" لم تشجع وشنطن ايضاً موظفيها على ان يكونوا بعيدين عن المعارضة والعناصر الدينية. كان عمل القاعدة الضخمة للمخابرات المركزية الامريكية فى ايران مركزاً بشكل اساسى على أحداث الحرب الباردة وتعقب شخصيات الكتلة السوفييتية فى ايران والاشراف على جهاز المراقبة الموجود شمال ايران والموجه نحو الاتحاد السوفييتى.

462 - ستانسفيلد تيرنر رسالة عبر الانترنت إلى المؤلف ابريل 2004

463 - وولتر كتلر مقابلة مع المؤلف مايو 2004

ذكر مسئول كبير في المخابرات المركزية الامريكية كان يعمل في ايران انه " نظرا لان الشاه كان حليفا للولايات المتحدة ولا يريد لجوايسيس الولايات المتحدة ان يكون لهم علاقات برجال الدين، فقد كانت المعارضة الدينية بالتالى خارج انشطتنا"⁴⁶⁴

يلاحظ برشت ان اتصالات الولايات المتحدة برجال الدين كانت تحت مراقبة المخابرات الايرانية: "من ناحية كان المسئول السياسي للسفارة يرتب للقاء مع الملالى، فتلقى السفير رسالة من وزير شئون القصر يقول له فيها " مسئولكم السياسي على موعد مع فلان وفلان، ونحن لانراها فكرة جيدة"⁴⁶⁵ على اية حال، بدءا من منتصف السبعينات التقطت اصوات دمدمة كانت تبدو اول الامر بعيدة، بواسطة احدى مجموعات المخابرات الامريكية. طبقا لأقوال العديد من الموظفين الامريكيين، كان البريطانيون اول من استشعر وجود متاعب وكان لديهم القدرة على استحضار خبراتهم التى تعود الى تواجدهم فى ايران طيلة قرون عدة. كذلك الاسرائيليون الذين كانت مخابراتهم - الموساد - لها تواجدها فى البازار.؟ يقول بريشت " كان البريطانيون هم أفضل مصادرى، كان لديهم معلومات اكثر وفرة وكانوا أبعد نظرا ومصادر معلوماتهم لا يدانيها احد". استشعرت اسرائيل ايضا ان الشاه قد انتهى أمره قبل ان تدرك الولايات المتحدة ذلك بوقت طويل. يقول برشت انه حوالى 1976 وكان برفقة سناتور امريكى فى جولة فى ايران بدا السفير هيلمز عرضه وأخطر عضو الكونجرس ان ايران فى امان. يقول برشت: "على اننا عندما التقينا يورى لوبرانى ممثل اسرائيل المنتدب فى ايران قال له ان الشاه يواجه متاعب خطيرة من جانب المعارضة الدينية. وكانت هذه هى المرة الاولى التى اسمع فيها ذلك. لم يقل لى احد ذلك فى السفارة." بعد سنتين حسبما يقول برشت كانت التحذيرات من جانب اسرائيل اكثر عجلة. "فى 1978 جاءنا فى الادارة احد رجال المخابرات الاسرائيلية ليقول " نحن بالفعل فى عصر ما بعد الشاه ويجب ان نكون على استعداد"⁴⁶⁶ فى ذلك الوقت كان معظم المسئولين يعتقدون ان الشاه سوف يتغلب على العاصفة.

بداية من اواسط السبعينات بدأ يخيم على واضعى السياسة الامريكية ومسئولى المخابرات المركزية ان الشاه سوف يسقط. يقول هارولد سوندرز وكان حينئذ يشغل

464 - - مسئول سابق متقاعد فى المخابرات المركزية الامريكية مقابلة مع المؤلف مايو 2004

465 - برخت مقابلة مع المؤلف مايو 2004

466 - المرجع السابق

وظيفة السكرتير المساعد للإدارة الأمريكية لشؤون الشرق الأدنى وجنوب آسيا: "كنت تستطيع ان تحصل على اجندة لكل من سنتي 1977 و 1978 وان ترتب الناس على الاجندة تبعا للتاريخ الذي يرون ان الشاه لن يعود موجودا فيه. "ثمة سبب خطير لم يتم فحصه يتعلق بالقرار الذي يمكن ان تتخذه الولايات المتحدة عند تحديد سياستها تجاه ايران في السبعينات، وهو المرض الخطير الذي كان يعاني منه الشاه. وهو هام لانه كان معروفا ان الشاه مصاب بمرض خطير، الامر الذي يمكن ان يؤثر تأثيرا خطيرا على كل الحسابات المتعلقة بمستقبل ايران. هل يمكن ان يموت الشاه في مكتبه دون ان يكون هناك تحديد واضح للشكل الذي ستتقل به السلطة من بعده ؟ قد يكون هناك خطر جسيم جاثم، خطر ان تغرق ايران في الفوضى. وقد شخص مرض الشاه حسبما ذكر هوفيدا شقيق رئيس الوزراء في ذلك الحين - في بواكير سنة 1969" كان ذلك في اواسط السبعينات حينما سمعت انه مصاب بالسرطان. وبالرغم من ان هذا كان يعتبر سرا يجب الحفاظ عليه بحرص شديد، الا انه يصر على ان الولايات المتحدة لابد وان تكون عرفت به لان مثل هذه الاسرار لا يمكن كتمانها سيما وان الشاه كان لديه آراء ثانية وثالثة ولانه كان يستشير اطباء امريكان ايضا.⁴⁶⁷ ولكن صانعي السياسة الأمريكية ومسئولي المخابرات المركزية يوردون شهادات متضاربة بشأن مدى معرفة الولايات المتحدة باصابة الشاه بالسرطان ومتى عرفت بذلك. يقول هارولد سوندرز رئيس قسم الشرق الاوسط في الادارة الأمريكية ان الولايات المتحدة لم تعرف ان الشاه مريض حتى بعد ان ترك ايران. ولكن شارلس كوجان المسئول السابق بالمخابرات المركزية يقول ان الازمة الايرانية بدأت في الحقيقة حينما اصبح مرض الشاه واضحا ليس لنا ولكن للفرنسيين في وقت مبكر جدا سنة 1972.⁴⁶⁸ واعتقد اننا اصبحنا اخيرا على علم بمدى خطورته سنة 1976.⁴⁶⁹ حسبما يقول كوجان فان ريتشارد هيلمز سفير الولايات المتحدة في طهران راوده الشك في اصابة الشاه بالسرطان وخطر وشنطن بذلك. واعتقد ان ذلك حدث سنة 1975 حينما كتب هيلمز شيئا عن ذلك، ولكن ذلك لم يسترع الانتباه. "يضيف كوجان: " ان الفرنسيين كان لديهم علم بذلك منذ سنة 1972 وان احد الاطباء المعالجين للشاه كان بطريقة ما متصلا بالمخابرات الفرنسية.⁴⁷⁰

467 - فريدون هوفيدا مقابلة مع المؤلف مايو 2004

468 - مقابلة مع شارلس كوجان ، الحلقة 20 جند الله الانترنت مايو 2004

www.Gwu.edu/~nsarchiv/coldwaar/interviews/episode-20/coganI.html

469 - شارلس كوجان مقابلة مع المؤلف مايو 2004

470 - مسئول سابق متقاعد في المخابرات المركزية الأمريكية مقابلة مع المؤلف مايو 2004

ويقول مسئول كبير بالمخابرات المركزية يتمتع بخبرة كبيرة جدا فى الشئون الايرانية، يقول بصراحة: "نحن نعلم ان الشاه كان مريضا، كان لدينا تقارير من مصادر جيدة جدا."⁴⁷¹ فى اواخر السبعينات لم يكن يصعب على مخابرات الولايات المتحدة ان تستنتج ذلك بسهولة وان تستخلص ان الشاه يقترب من نهايته. يقول ديفيد لونج الذى كان يعمل فى مكتب المخابرات التابع للادارة الامريكية ان هذا كان كافيا لاتخاذ قرارات عملية:

" ان حقيقة ان الشاه كان مريضا وانه كان مصابا بالسرطان كان امرا معروفا، ولكن هذا لم يتم ادراكه بشكل كاف. ولكننا - نحن خلية النحل العاملة - كنا نعلم بمافيه الكفاية انه كان فى حالة ميؤوسا منها وكان من واجبنا ان نعالج هذا الامر."⁴⁷²

من بين هؤلاء الذين لم يصلوا الى هذه النتيجة الا مؤخرا، اى ان الشاه قد انتهى، كان برجنسكى وروكفلر - كيسنجر شركاء الشاه المقربين الذين - اواخر 1978 تعلقوا بامل ان الشاه سوف ينجو. كانت السفارة الامريكية فى طهران بطيئة فى ادراكها مدى الخطر الذى يتعرض له الشاه. ولكن القنصليات الامريكية خارج طهران كانت اكثر قبولا للاستجابة لنفض البلاد، وكانت تقاريرها الموجهة الى واشنطن أكثر ادراكا. ولكن خبراء المخابرات المركزية - كافراد، ومنهم من قضى سنوات فى طهران - كانوا من بين اوائل من ادركوا ان ايران تنهار. يقول احد مسئولى المخابرات المركزية: "تركنا ايران سنة 1967 واخبرت اربعة من اصدقائى القريبين ان يخرجوا اموالهم من البلاد لأن ايران تتحدر الى الهاوية."⁴⁷³ لكن هذا التشاؤم لم يجد طريقه الى سيناريو التقديرات الوردية لتقارير المخابرات المعدة للارسال الى واشنطن، ولكن سوليفان سفير الولايات المتحدة فى طهران تمسك بالاعتقاد فى صيف 1978 ان نظام الشاه سوف يستمر. فى مذكراته التى كتبها تحت عنوان "بعثة الى ايران" يلاحظ ان بعض الدبلوماسيين كانوا يشعرون ان الشاه سوف يسقط، مستشهدا بصفة اساسية بمسئولى السفارة الفرنسية الذين كانوا يتوقعون ان الشاه سوف يسقط خلال سنة واحدة". يؤكد سوليفان "غير اننا كنا نشعر ان الشاه يواجه متاعب... لكننا لم نر نذر الثورة."⁴⁷⁴ منذ عام مضى، فى برقية الى واشنطن

471 - ديفيد لونج مقابلة مع المؤلف ابريل 2004

472 - - مسئول سابق متقاعد فى المخابرات المركزية الامريكية مقابلة مع المؤلف مايو 2004

473 - وليم سوليفان بعثة الى ايران نيويورك 1981 ص 142

474 - وليم سوليفان ، "قش فى مهب الريح : المعارضة الفكرية والدينية فى ايران" برقية سرية من طهران الى واشنطن 25 يوليو 1977

معنونة "قش في مهب الريح" يلاحظ سوليفان حدوث المزيد من المتاعب الدينية في إيران". كان هناك ما يشير الى انه بالرغم من التعصب الموجود في الاوساط اليمينية الدينية كان عدد من الأئمة الاسلاميين المحافظين البراجماتيين يريدون ركوب موجة حقوق الانسان والتحالف مع اليسار (الجبهة الوطنية مثلا) حيث يمكن التوافق على اهداف مشتركة. ويذكر سوليفان بوضوح انه في حالة مماثلة تم فرض الاستقرار الديني بين المسلمين المتنفسين في كل من باكستان والعربية السعودية وتركيا، غير انه انتهى الى القول بان حكومة الشاه سوف تحتفظ بالحركة الدينية تحت السيطرة.⁴⁷⁵ ويعترف سوليفان في مذكراته بانه كان مضللا فيما يتعلق بالاسلام، وانه لا العاملين معه ولا المخابرات المركزية استطاعوا ان يقدموا له يد المساعدة، وان جهوده في ان يتقدم بمزيد من المقترحات للمذهب الشيعي كانت تكبت دائما.... فلا رؤساء السياسيين او المخابراتيين كانوا قادرين على تلبية اهتماماتي بالحصول على المزيد من التبصر في فكر الشيعة.⁴⁷⁶

ريتشارد كوتام والامريكان

ريتشارد كوتام هو احد المسؤولين الامريكان السابقين الخبراء في العقل الشيعي. عمل في ايران في اوائل الخمسينات مع فريق العمليات السرية التابع للمخابرات المركزية الامريكية، يقول عنه جون وولر رئيس مكتب المخابرات المركزية في ايران في اواخر الاربعينات واول الخمسينات⁴⁷⁷ انه حالة فريدة منه ". اصبح كوتام استادا في جامعة بتسبرج سنة 1958 غير انه لم يترك المخابرات المركزية او الاعيها بشكل تام. خلال الستينات والسبعينات كان كوتام يحتفظ بعلاقات وثيقة مع شخصيات من اصل ايراني من الجبهة الوطنية ومن الشخصيات الدينية. وكان قريبا بشكل خاص من اثنين ممن سيعملون سنة 1978 كاقرب مساعدي الخميني خلال نفيه في باريس بينا كانت الثورة الايرانية لا تزال في طور تبرعها، وهما: ابراهيم يازدي وصادق قطبزادة - وكنيتهم "الأمريكيان" - كلا الرجلين قضيا سنوات عديدة في رعاية الولايات المتحدة الامريكية، وكل منهما عمل

475 - سوليفان بعثة إلى إيران ص 92

476 - جون وولر - مقابلة مع المؤلف فبراير 2004

477 - مذكورة عن المحادثات " جبهة التحرير الوطني الإيرانية " 8 مايو 1978 - سرى من أرشيف الأمن القومي.

مع جماعة الاخوان المسلمين المرتبطة بجمعية الطلبة المسلمين التي ساعد يازدى في تأسيسها سنة 1963. قابل كوتام يازدى لأول مرة في ايران في الخمسينات عندما كان كوتام يعمل ضابطا في المخابرات المركزية الامريكية وارتبط الرجلان بعري صداقة وثيقة. خلال الستينات كان يازدى يتردد فيما بين ايران وباريس والولايات المتحدة ويعمل مع قطبزادة وكثير غيره من ذوى العقليات الدينية من النشطاء الايرانيين الذين يؤيدون آية الله الخميني. في سنة 1967 استقر يازدى في هيوستون في تكساس حيث عمل في وظيفة باحث ومدرس في كلية طب بايلور. بدأ اسم كوتام يظهر مبكرا سنة 1978 في مهام سرية او موثوقة لمرافقة مبعوثي الادارة او المخابرات المركزية الامريكية القادمين من ايران. في مايو التقى جون ستمبل من سفارة الولايات المتحدة في ايران مع احد القيادات القريبة من الخميني ويدعى محمد تافاكولي الذي تساعل ما اذا كان ستمبل يعرف الاستاذ (البرفيسور) ريتشارد كوتام. وطبقا لبرقية ستمبل تساعل تافاكولي ما اذا كان لدى ستمبل طريقة ما ليثبت بها انه ضابط في الادارة الامريكية وما اذا كان لديه مانع في ان يراجع اسمه مع البروفيسور كوتام.⁴⁷⁸ بعد عدة اسابيع التقى ستمبل تيفاكولي وبازرجان زعيم ما يطلق عليه الآن حركة التحرير الوطنية وتساعل تيفاكولي مندهشا - واضح انه يقصد كوتام - ما اذا كانت ادارة كارتر لديها قناة اتصال منفصلة داخل السفارة عن سائر القنوات. كتب ستمبل يقول: "لقد لاحظ ان الحركة امدت كوتام بكثير من المعلومات حينما كان ضابطا في الادارة وظل يعمل كذلك"⁴⁷⁹. ظل كوتام يتردد على طهران وباريس حيث قابل الخميني ويازدى وقطبزادة. في يونية 1978 كتب شارل ناس من السفارة الامريكية الى هنري برشت المسئول عن مكتب ايران: "لقد وجدناه امرا مدهشا ان يكون ريتشارد كوتام كما كان يظن الكثيرون منا لا يزال على صلة وثيقة بـ "حركة التحرير" في الولايات المتحدة، وكانوا يريدون التأكد من ذلك."⁴⁸⁰

478 - مذكرة عن المحادثات (مزيد من المناقشات مع جبهة التحرير الوطني الإيرانية) 30 مايو 1978

- سرى - من ارشيف الامن القومي .

479 - رسالة سرية من شارل ناس إلى هنري بريخت بتاريخ 6 يونيو 1978 - من أرشيف الأمن القومي (الامريكي)

480 - برخت مقابلة مع المؤلف . ينظر أيضا تاريخ برخت كما رواه في صحيفة الشرق الأوسط - 58 (شتاء 2004)

فى ديسمبر عندما بدا بوضوح ان الثورة على وشك ان تحقق النجاح، لاحظ احد مبعوثى الادارة الامريكية الموثوقين فى السفارة ان ثمة اشاعات بان كوتام قد يصل سرا الى طهران " فى حدود افضل ما نعلم فان كوتام لم يكن هنا، وسوف نكون شاكرين اذا تفضلت الادارة بالتأكد من تواجدہ فى بتسبرج." ولكن كوتام فى ذلك الحين كان يبحث اقامة علاقات علنية بين يزدى وقطبزادة وغيرهم فى ادارة الخمينى مع وشنطن الرسمية من خارج قنوات الادارة. يقول برشت ان كوتام حاول مرارا ان يفتح حوارا بين دوائر الخمينى والحكومة الامريكية. يضيف برشت انه فى اواخر سنة 1978 ذكر كوتام ان ابراهيم يزدى سوف يصل الى وشنطن وانه ينبغي علينا مقابلته وتم اخطار جارى سيك من هيئة الامن القومى بنفس الفكرة. غير ان كوتام لم يكن من الشخصيات المرغوب فيها من جانب الإدارة نظرا لان لديه كل هذه الاتصالات مع العناصر ذات الاصل الايرانى...الذين احيانا يتعامل معهم العاملون فى مكتب حقوق الانسان الذى يتراسه ستيف كوهن." وفعلا سرعان ما قام بريشت وغيره من العاملين بالادارة بفتح حوار مع الثوار بمن فيهم يزدى وشهريار روحاى -ابن يزدى بالتبنى. واستمرت اللقاءات فى باريس. فى طهران قام كوتام قبل عدة اشهر من قيام الثورة بتقديم موظفى السفارة الى آية الله بهشتى، الممثل الرسمى للخمينى فى ايران. وقد اكد الايرانيون لموظفى السفارة ان الخمينى شخصا لا يخشى منه وانه لبس اية طموحات شخصية.

بعد ذلك بـ عدة اشهر استولى الخمينى على السلطة وبدأ فى اقامة المؤسسات التى تضمن استمرار بقاء السلطة فى يد رجال الدين خلال ربع القرن التالى: المجالس الاسلامية، البازداران، الحرس الثورى، الهياكل المختلفة للخبراء المسلمين، المحلفين، المحاكم الثورية والمجلس الثورى. واعدت مئات وربما الالوف من الموظفين فى عهد الشاه وقتل اتباع الخمينى عددا آخر لا يحصى من الناس.

جاهدت الولايات المتحدة من اجل ان تفيق من الصدمة التى احدثتها الثورة الايرانية فى يناير - فبراير 1979. وبذلت مجهودا ضخما فى اقامة ما يشبه العلاقات الدبلوماسية مع النظام الجديد فى طهران، ولكنها بدأت بداية سيئة. يقول وولتر كترالدبلوماسى الذى كلف بان يكون سفيراً للولايات المتحدة لدى جمهورية ايران الاسلامية منتصف سنة 1979: " كنا نريد ان نقيم حوارا وكنت اتاهب للتوجه الى هناك وان نقيم نوعا من التجاوب مع النظام الجديد بدءا من الخمينى نزولا الى الأدنى".⁴⁸¹ كان كتر يعمل سابقا فى ايران كقنصل للولايات المتحدة فى تبريز فى

481 - والتر كتر مقابلة مع المؤلف مايو 2004

منتصف الستينات ثم امضى معظم الوقت من الثمانينات سفيرا في العربية السعودية، ثم اختير ليحل محل بيل سوليفان السفير السابق الذى نالت من سمعته كثيرا علاقته مع الشاه. وطلب من كتلر ان ينظم فريقا يصحبه الى ايران بسرعة. " كان هناك استعجال ان اقوم بمهمتي، وكان على ان اشكل طاقما جديدا على وجه السرعة. طلب منى وزير الخارجية سايروس فانس اختيار من اشاء وسوف يقوم بتعيينه." غير ان ما لم يعرفه كتلر أن كثيرا ممن عينوا ضمن فريقه سوف يؤخذ رهينة فى نوفمبر ويوضع لمدة 15 شهرا فى ظروف سيئة. يقول كتلر: " كان علينا ان نثبت للايرانيين اننا لسنا الشيطان الأكبر." ان حقيقة ان الثورة الايرانية تقوم على الاسلام وليس الوطنية اليسارية كان امرا مستحبا للكثيرين من صانعى السياسة الامريكية والدبلوماسيين ومسئولى المخابرات المركزية بدءا من برجنسكى فى هيئة الامن القومى الى الادنى. يقول كتلر: " كنا فى حرب باردة وها هنا ثورة اسلامية، وكنت هناك لفترة كافية لأعرف ان ثمة شبهات تحوم حول الروس. وكنت اظن اننى استطيع ان اتعامل مع فرضية ان الاتحاد السوفييتى يمكن ان يحاول توسيع نفوذه بسبب قوة الاسلام.... فاذا كنت تبحث عن مصالح مشتركة فان اهتماماتنا المشتركة فيما يتعلق بالتغلغل السوفييتى فى هذه المنطقة من العالم كان واحدا منها.."

غير ان كتلر لم يصل الى ايران أبدا، ذلك ان صدور قرار من الكونجرس بادانة الخمينى سنة 1979 اشعل آيات الله غضبا. وطبقا لكتلر كما اخطره يازدى فيما بعد، اراد الخمينى ان يقطع العلاقات مع الولايات المتحدة تماما. ولكن يزدى حث الخمينى على اتخاذ نصف خطوة والاكتفاء برفض السفير. وهكذا الغى تعيين كتلر.⁴⁸²

ولكن بعض من تم تعيينهم - ومعظمهم قدر لهم ان يكونوا رهائن فى نوفمبر كانوا قد بداوا فى الوصول، بعضهم وليسوا كلهم. كانوا قد عملوا فى ايران من قبل ولكن من الناحية النظرية لم يكن لدى اى منهم سابق خبرة او معرفة بالاسلام. كان بروس لينجن الذى ترأس السفارة خلال غياب السفير قد عمل من قبل لفترات قصيرة فى ايران لكنه حسبما يقول صراحة لم تكن له سابق خبرة فيما يتعلق بموضوع الاسلام. " وكان قد اعفى من مهمة خاصة كان من المفروض ان تاخذه الى اليابان ولكنه أرسل الى طهران لان الادارة كانت تبحث عن بديل. "هل كان لديه

استعداد جيد ليتعامل مع الايديولوجية الاسلامية والخميني؟ بصراحة يقول: لا. تقريبا لا شيء.⁴⁸³

يصف توماس أهيرن المسئول الاساسي الجديد عن المخابرات المركزية الامريكية في ايران، يصف الامر بانه " صدفه بيرقراطية"، ويضيف بانه لم يتلق اى مساعدة من الحكومة تمكنه من ادراك ديناميكية الحركة الاسلامية الخاصة بالخوميني ويقول: يمكن ان تقول على لسانى انه لم يكن ثمة تعليمات اكااديمية بشأن السياسة والثقافة والاقتصاد فى ايران. بالكاد هى معلومات من نوع تلك التى تتلقاها فى مدرسة تجارية وتعدك لتقلد بعض الوظائف واقامة بعض العلاقات.⁴⁸⁴ يقول جون لمبرت وهو دبلوماسي امريكي اخر يتحدث الفارسية بطلاقة انه تلقى برقية تقول ما معناه: " اننا نريد اناسا نرسلهم الى طهران ليعيدوا بناء او استخلاص شئ من هذه الاحداث." وبرغم سذاجتى فقد كنت اعتقد انا وبعض الزملاء انه يمكننا اخيرا ان ننشئ علاقات صحية مع ايران." لكن هل كان لمبرت ولينجن ورفاقهم الآخرين يعرفون الاسلام والطبيعة اليمينية التى يتبعها الخميني؟ لم نكن نعرف.⁴⁸⁵ فى نوفمبر يغدو لينجن وأهرن ولمبرت وعشرات غيرهم من زملائهم سجناء لعصابة تدار سرا بواسطة الخميني.

كانت الحكومة الايرانية الجديدة برأسين: كانت هناك الحكومة الرسمية برئاسة رئيس الوزراء بازرجان ومعه يزدي وقطبزاده بالاضافة الى الرجل الذى سيقع عليه الاختيار فعلا كاول رئيس للجمهورية الاسلامية: ابو الحسن بنى صدر. ولكن كانت هناك الحكومة الموازية غير الرسمية التى تتشكل من الخميني وعدد محدود من آيات الله والكوميئات والبازداران وعدد آخر من المسئولين عن المؤسسات الاسلامية تحت الانشاء التى تشكل قلب النظام من اجل تطبيق النظام الثيوقراطى للخميني. كان طاقم السفارة الامريكية الجديد والزائرين من مسئولى المخابرات المركزية الامريكية الذين يقتصر معظم عملهم على التعاطي مع موظفى الحكومة الايرانية الذين تتضاءل سلطاتهم باستمرار فى نفس الوقت الذى يحرص فيه الخوميني على ان تظل الولايات المتحدة على اهبة الاستعداد. عكف الخميني على وضع خطة لعزل العلمانيين واليسار والقوى الدينية المعتدلة والقضاء عليهم برغم تعاونهم السابق مع الثورة ضد الشاه خلال الستينات ، اخذا كلا من هذه القوى على

483 - بروس لينجين مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

484 - توماس أهرن مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

485 - جون لمبرت مقابلة مع المؤلف مايو 2004

انفراد. كان هدفه النهائي هو تدعيم السلطة تحت قيادته الشخصية والمجلس الثورى ثم هيئة الظل التى كانت تضم اساسا كل آيات الله الموالين للخمينى. حسبما قال لينجن:

" لم يكن لدينا سوى صلات قليلة بهيئة رجال الدين، ولم ار الخمينى اطلاقا، ولم نتبادل الحديث ابدا مع المجلس الثورى. فقط كنا نشعر بوجوده وادركنا انه موجود فعلا، ولكننا لم ندرك مقدار السلطة التى لديهم. وكنا نرى ان مهمتنا هى ان نستعيد تقبل الثورة لنا، وان ننقل اليهم اننا بلد ذو عقلية روحية، وانه من السهل على الولايات المتحدة ان تصل الى فهم طبيعة الاسلام السياسى وانه لا مستقبل امام الشاه. غير اننا كنا لا نزال فى اسار الاعتقاد بان الجانب العلمانى فى الثورة هو الذى سوف يتغلب كبازرجان ويزدى وقطبزاده، وقد كانوا يعتقدون انهم سوف يكونون قادرين على اللحاق وانهم سوف يكونون قادرين على احتواء نفوذ الخمينى.⁴⁸⁶

تحدث موظفو السفارة فعلا مع عدد محدود من علماء الشيعة الاكثر اعتدالا ولكن دون ان يؤدى ذلك الى فتح الباب الى الدائرة الداخلية الضيقة للخمينى. واكن عددا كبيرا من هؤلاء الملالى المسلمين الذين يبدون اكثر ميلا للتعاور، تم اقصاؤهم جانبا او ذبحوا او اجبروا على اللجوء الى المنافى بينما مضى الخمينى قدما فى تعزيز قوته.

لم تحصل السفارة ايضا على مساعدات تذكر من المخابرات المركزية التى فشلت فى تقديم اى تقدير مخابراتى عن مستقبل ايران خلال سنة 1979. يقول اهيرن:

" اننى لا اتذكر اى تقدير موقف او استقراء (تنبؤ) لما سيحدث مستقبلا. كان كل ما تريده وشنطن من السفارة هو ان تشجع او تساند يزدى وبازرجان على امل ان ذلك سوف يؤدى الى ان يصبح النظام اكثر اعتدالا او ان يساعد ذلك فى الحد من من الاتجاهات الرجعية للنظام. وحسبما ذكر كان ذلك كله لا يتعدى الآمال المستحيلة وليس على مستوى التخطيط الجاد او البناء على مؤشرات صادرة من الايرانيين بامكان حدوث ذلك.⁴⁸⁷

ولكن اذا كانت المخابرات المركزية قد عجزت عن الوصول الى نتائج بشأن مستقبل ايران الا انها اعطيت تعليمات بان توصل الى المخابرات الايرانية معلومات مخابراتية بالغة الحساسية عن جارتها العراق. وقبل انقضاء سنة كان البلدان

486 - - لينجن مقابلة مع المؤلف

487 - - أهرن مقابلة مع المؤلف

مشتبكان في صراع دامي، خلف وراءه أكثر من مليون قتيل. بالإضافة الى رئيس المخابرات المركزية الامريكية في ايران قام مسئولون آخرون من المخابرات المركزية سنة 1979 ، قبل الاستيلاء على السفارة الامريكية بزيارات الى ايران ومنهم روبرت أيمس وجورج كيف. في احدى المناسبات على الاقل قام ايمس الذي يرأس فرع المخابرات المركزية في الشرق الاوسط بزيارة الى آية الله بهشتي كما قابل مسئولين آخرين مثل يزدى وامير عباس ونظام وغيرهم من المسئولين من غير رجال الدين ووضع نظام مشترك للمخابرات خاصة فيما يتعلق بالعراق. " بمجرد تشكيل حكومة بازرجان حاولت ان تحصل على منافع اقتصادية. " ذلك ما يذكره احد رجال المخابرات المركزية الذي كان يعمل في مجال الشئون الايرانية في ذلك الوقت، ويضيف ان المخابرات المركزية حذرت ايران سنة 1979 من نوايا العراق بشن الحرب⁴⁸⁸، ويؤكد لينجين على التقارير التي تشير إلى أن الولايات المتحدة سربت الى المخابرات الايرانية معلومات عن نوايا العراق الحربية.:

"كنا مهتمين بما يحدث في العراق. وكانت العلاقات بين ايران والعراق في ادنى مستوياتها. كان الخميني لايقبل صدام حسين. وكان لديه رغبة في تصدير الثورة الى العراق. ومما لا شك فيه ان العراق كان هدفا رئيسيا. واتذكر اننا كنا نقوم بتلخيص التقارير التي تضعها المخابرات المركزية عن العراق. واتذكر اننا قمنا بامدادهم بمعلومات عن قدرة القوات العرقية واماكن تواجدها واهدافها، وكانت هذه تجربة جديدة بالنسبة لي: ان اجد نفسي فجأة مشغولا بالجانب المخابراتي من الدبلوماسية".⁴⁸⁹

في الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحدة تمرر المعلومات المخابراتية الى الملالي بمن فيهم بهشتي، أخذ يتضح لنا اكثر فاكثر ان بازرجان ويزدى وقطبزادة ليس لديهم في الواقع اى سلطة، و ان هيئة رجال الدين الشيعية تسيطر على كل شئ. كان هذا حقيقيا خاصة فيما يتعلق بالجانب العسكري. " لم يكن هناك ثمة روابط بين بازرجان والجيش. وانا اعلم ذلك علم اليقين. " على نحو ما يقول مسئول سابق بالمخابرات المركزية. " ان الشئون العسكرية كانت تحت القبضة الحديدية للملالي. والملالي يقسمون ايران الى 17 قرية ويختارون الاشخاص الذين يديرون كلا منها من خلال ما يعرف باسم "الكوميتا"⁴⁹⁰

488 - مسئول سابق متقاعد في المخابرات المركزية الأمريكية مقابلة مع المؤلف يوليو 2004

489 - لينجن مقابلة مع المؤلف

490 - مسئول سابق متقاعد في المخابرات المركزية الأمريكية مقابلة مع المؤلف يوليو 2004

بالرغم من ذلك فان عددا محدودا من واضعى السياسة الامريكية بدأوا يرون فى التوجه الاسلامى لايران عامل تهديد للاتحاد السوفييتى. وكان امرا مثيرا للدهشة ان يكون من اكثر المتحمسين لهذا الاتجاه هو برجنسكى مستشار الامن القومى المتشدد الذى كان يدعو الى اللجوء الى الانقلاب العسكرى فى ايران لوقف ثورة الخمينى. بدأ برجنسكى يغير رأيه تدريجيا متبنيا الرأي الذى أطلق عليه "قوس الازمات" الذى يمتد من شمال شرق افريقيا الى آسيا الوسطى وهى منطقة المنافسة والصراع المحتكم بين القوتين الاعظم، وتشمل المنطقة المخضبة بالمقاومة الاسلامية. يتذكر هنرى بريشت، وهو احد المسئولين الامريكيين الاكثر انحيازا ضد الشاه ويحبذ اقامة علاقات جيدة مع الجمهورية الاسلامية، يذكر بريشت الوضع فى الشرق الاوسط سنة 1979 على النحو التالى:

بعد الثورة كنا لا نزال نعتبر ايران فى غاية الاهمية بالنسبة للمصالح الامريكية فى الشرق الاوسط. ذات يوم توجه هال سوندرز مساعد سكرتير الادارة لشئون الشرق الاوسط الى البيت الابيض لاجراء مقابلة هناك، وعندما عاد قال لى: "سوف تسعد جدا فسنقوم بمحاولات جديدة لتطوير علاقة جديدة مع ايران." كانت فكرة استخدام القوى الاسلامية ضد الاتحاد السوفييتى تدور حول وجود ما يطلق عليه قوس الازمات ومن ثم يمكن حشد قوس اسلامى لاحتواء السوفييت. وكانت هذه فكرة برجنسكى.⁴⁹¹

يذكر برجنسكى فى مذكراته انه بدأ يضغط من اجل سياسة امنية امريكية تهدف الى الاحتواء الكلى عبر قوس الازمات حتى قبل ان تتحقق الثورة الايرانية. كان يعنى انه فى ذلك الوقت كان كان معنيا ببناء روابط عسكرية امريكية قوية بمصر والعربية السعودية وباكستان وتركيا، اى البلاد الاسلامية الاربع الموجودة داخل هذا القوس، بالاضافة الى المساندة التى تلقاها الولايات من عمان والصومال وكينيا والقواعد العسكرية للولايات المتحدة المنتشرة فى عدة بلاد وفى المحيط الهندى. يقول برجنسكى "فى اواخر سنة 1978 بدأت اضغط فى اتجاه نظرية "قوس الازمات" من اجل ايجاد اطار للامن" من شأنه تأكيد قوة الولايات المتحدة ونفوذها فى المنطقة⁴⁹². كان برجنسكى يرى ان فقدان الشاه كان كارثة حسبما ذكر كوتام. فى بداية الامر كان برجنسكى يريد بينوشيت ايرانى اى دكتاتور عسكرى يقمع الثورة الاسلامية باى ثمن. غير انه بعد ان اصبح ذلك مستحيلا تطلع برجنسكى الى اقامة "تحالف واقعى" جديد مع قوى الجهاد الاسلامى ومع الجمهورية

491- برخت مقابلة مع المؤلف

492 - برجنسكى القوة والمبدأ (نيويورك 1983) ص ص 446-47

الاسلامية في ايران. " كما يقول كوتام " ان الاستقرار لم يكن ببساطة هدفا له. ان همه الاول هو ان يشكل تحالفا مضادا للسوفييت في المنطقة التي يطلق عليها " قوس الازمات ". في صيف 1979 كان برجسكى يؤمن باخلاص الخوميني الشرس المناهض للشيوعية.⁴⁹³

بعد اشهر قلائل ومن خلال مجهوداته لتحقيق هذا الحلم قابل برجسكى في الجزائر رئيس الوزراء الايراني بازرجان ووزير الخارجية يزدي ووزير الدفاع مصطفى شميران، ولم يكن هناك وقت اسوأ من ذلك. فقبل هذا بعدة اسابيع سمحت ادارة كارتر للشاه الذي كان يعاني سكرات الموت بالسرطان ان يسافر الى نيويورك للعلاج، وهو التصرف الذي اشعل نار الغضب لدى اكثر انصار الخميني تعصبا، وانتهر الخميني هذه الفرصة ليتحرك ضد جناح بازرجان - يزدي في الحكومة الايرانية، بعد ثلاثة ايام فقط من مقابلة برجسكى لبازرجان في الجزائر، حدث ما كان يبدو في ذلك الوقت حركة تلقائية من قبل جماهير الطلبة التي هاجمت السفارة الامريكية في طهران وهو ما يشكل واحدة من اكثر الازمات الدبلوماسية في تاريخ الولايات المتحدة. لم يعد من ثمة مجال للحوار امام الولايات المتحدة مع طهران حيث تم احتجاز دبلوماسييها في ايران.، وتذرعت الحكومة الايرانية بان الذين احتجزوا الرهائن كانوا ببساطة مجرد طلبة متظاهرين. ولكن لم يكن هناك ادنى شك ان الحدث باكماله كان مدبرا من قبل الخميني ويطانته المقربة كوسيلة لتدعيم السلطة السياسية للحكومة الموازية غير الرسمية التي كانت تزداد قوة.

كان لدى فلاديمير كيزتشكن رئيس المخابرات الروسية في طهران الذي لجأ الى الغرب منذ سنوات قلائل، كان لديه معلومات مباشرة عن نظم العملية الارهابية: " لقد علمنا من مصادرنا من هو الذي اجاز ثم نفذ عملية الاستيلاء على السفارة. "لقد ووفق على عملية الاستيلاء على السفارة في نفس لقاء القيادة الايرانية ونفذ كلية بواسطة فريق مدرب من اعضاء من الحرس الثوري.⁴⁹⁴

لم يكن لدى ادارة كارتر اية علامة للاسترشاد بها لكيفية التعامل مع الخميني بعد الاستيلاء على السفارة. لقد كتبت اوراق كثيرة عن ازمة الرهائن ولكن لم يكن هناك ما يشير الى عبثية جهود كارتر اكثر من فقرة وردت في مذكرات هاملتون

493 - ريتشارد كوتام ، " الولايات المتحدة ومدى استجابة الاتحاد السوفييتي " لا غربا ولا شرقا (نيو هافن 1990) ص ص 276-78

494- فلاديمير كوزيشكين ، من داخل جهاز المخابرات السوفييتية: حياتي أثناء عملي في الجاسوسية السوفييتية (نيويورك 1990) ص 293

جوردان رئيس موظفي البيت الابيض الذي كان يتحمل مسؤولية حسم الموقف. يصف جوردان كيف كان كارتر يبدو في نكبته فبقول:

"ارجو ان تقابلني فيما بعد. اننى اكتب رسالة الى الخميني." اعجبتنى فكرة ان يقوم بابا الغرب بالكتابة الى المسلم المتعصب، فقلت فيما بينى وبين نفسى: ترى ماذا يقول له؟ فكرت فى انه ربما يمهر هذا الخطاب بتوقيع "الشيطان الاعظم". قال كارتر: "اذا كان الخومينى هو القائد المؤمن كما يصورونه، فاننى لا اعرف كيف ينظر الى احتجاز رجالنا."⁴⁹⁵

كانت هذه هى بداية النهاية لادارة كارتر ايضا. لقد تسبب الاستيلاء على السفارة فى خلق ازمة عويصة لم يستطع الرئيس كارتر ان يتخلص منها - لا بالمفاوضات ولا بالتهديدات ولا بارسال بعثة عسكرية للانقاذ. وبالرغم من ان طهران شاركت عدة مرات فى المحادثات مع واشنطن مستخدمة وسطاء غير معروفين فى محادثاتها فقد كان واضحا ان الخمينى كان له اجندته السياسية الداخلية الخاصة التى تتضمن الافراج عن المحتجزين متى يكون جاهزا. يقول هارولد سوندرز: "فى يناير 1980 صرح احد رجال الدولة المسلمين اللامعين " انكم لن تستعيدوا الرهائن حتى يقوم الخمينى بوضع كل عناصر الجمهورية الاسلامية كل فى مكانه."، وهذا هو ماحدث."

لقد غيرت الثورة فى ايران كل شئ. بالنسبة للولايات المتحدة ازاحت حليفا موثوقا كما ازاحت مراكز الاستماع وقواعد العمليات. أما بالنسبة للاعبين الآخرين فى مجال الحرب الباردة فلربما كانت الثورة الايرانية اكثر مدعاة للقلق. فبالرغم من تحالف الشاه الصريح مع الولايات المتحدة الا ان الاتحاد السوفييتى قد تمكن من انجاز معاملات كثيرة ومريحة مع ايران على أسس اكثر مما كان يمكن ان تحتمله نوع العلاقات المعروفة القائمة بين هاتين القوتين الجارتين. فى مجال العلاقات الاقتصادية بوجه خاص كان الامر يسير بشكل جيد لكلا الطرفين. والاكثر اهمية ان استقرار ايران كان يعنى ان الاتحاد السوفييتى يجب الا يقلق فيما يتعلق بعدم الاستقرار او اقتطاع اجزاء من حدوده الجنوبية الغربية فى آسيا.

الآن تنتهى كل الرهانات الاخرى. لأول مرة منذ العشرينات بدأ الاتحاد السوفييتى يقلق من الاسلام.

وكان على الولايات المتحدة ان تبحث عما يستوجب قلقها.

*

الفصل العاشر

الجهاد الأول: "القوس الإسلامي"

كانت الثورة الإيرانية سببا في انهيار احد العمودين اللذين يقوم عليهما الصرح الأمريكي في الخليج الفارسي، أما الآخر فهو العربية السعودية. دفع هذا الحدث بمحلي البنتاجون والمخابرات المركزية الأمريكية إلى التدافع ليحسبوا تأثيره على حلفاء الولايات المتحدة الآخرين في المنطقة وعلى مجمل التواجد الأمريكي في الشرق الأوسط. بدءا من العربية السعودية إلى المغرب، اخذ الخبراء الأمريكيان يجوبون الآفاق لعلمهم يستطيعون تحديد كيف ومتى يمكن لظاهرة الخميني أن تتكرر مع الأنظمة الملكية في الشرق الأوسط.

ولكن وجنبا إلى جنب مع التهديد الذي يمثله الخميني لا يزال عدد من صانعي السياسة الأمريكية يرون انه لا تزال هناك فرصة لكي يكون الإسلام الاصولي المتشدد بوصفه السلطة الحاكمة في إيران مصدر قلق لكل جيران إيران بمن فيهم أكبرهم: الاتحاد السوفييتي. كان نظام الخميني عاملا جديدا مفاجئا وغير متوقع في المنطقة. بعض المحللين يعتقدون إن عملية الإحياء الإسلامية التي يقودها آية الله يمكن أن تستثير التعاطف داخل الجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي. لقد شكلت هذه الفكرة حافزا جديدا للفكرة القديمة بأنه يمكن استخدام اليمين الاسلامي في عمق آسيا لإضعاف الاتحاد السوفييتي من داخل إمبراطوريته. وفي نفس الوقت كانت الخطط توضع لاستخدام التنظيمات التي لها صلة بالإخوان المسلمين في البلدان المجاورة لأفغانستان لإضعاف دور الاتحاد السوفييتي في هذه البلدان التي كانت تعتبر لعقود طويلة جزءا من المجال الحيوي للاتحاد السوفييتي. إن الحركات الإسلامية المتمثلة في إيران وأفغانستان دفعت برجنسكي مستشار الرئيس كارتير لشئون الأمن القومي وبيل كيزي رئيس المخابرات المركزية الأمريكية في عهد ريجان إلى المضي قدما في متابعة مسألة "الإسلام في آسيا" بمزيد من الإصرار خاصة خلال الحرب المقدسة في أفغانستان.

إن الحرب بالوكالة التي شنتها الولايات المتحدة في أفغانستان و كلفتها 3 بليون دولار ومئات الآلاف من الأرواح قد شدت أمريكا لعدة عقود إلى التحالف مع اليمين الاسلامي السياسي الأشد رجعية ودفعته إلى مستوى جديد اشد عدوانية.

كانت الفرضية السائدة من قبل هي أن الإسلام السياسي يشكل قلعة ضد التوسع السوفييتي. ولكن في حرب أفغانستان أصبح النموذج الاسلامي سيفاً. أصبح الإسلام السياسي سلاحاً هجومياً مما يشير إلى تصاعد سياسة التعاون مع الإخوان المسلمين في مصر والكتلة الإسلامية بقيادة العربية السعودية وسائر عناصر الإسلام السياسي.

بالرغم من أن الحرب في أفغانستان كان يجري تصويرها أحياناً على أنها تجسد مجهودات تحالف ذي قاعدة عريضة، فإن المجاهدين كانوا جميعاً من المسلمين. وكان ثلثي مساعدات الولايات المتحدة للمجاهدين في أفغانستان تذهب إلى الأحزاب الإسلامية الأصولية من خلال قنوات في باكستان والعربية السعودية.

وقد أدى الجهاد في أفغانستان إلى تحول في بنية الحركة الإسلامية نفسها. فاولاً أدى الجهاد في أفغانستان إلى تقوية الأجنحة الأكثر راديكالية التي نالت شرف القتال وجها لوجه في مواجهة قوة عظمى في أفغانستان، وثانياً خلقت الحرب الأفغانية كادراً جديداً من الإسلاميين يجيد حرب العصابات وفن التخاطر وفنون القتال والسيارات المفخخة، وثالثاً أنها قوت العلاقات العالمية التي ربطت معاً الإسلاميين في شمال إفريقيا ومصر والخليج ووسط آسيا وباكستان. والخلاصة إن الحركة قد بلغت أوجها في سبعينات القرن العشرين، رابكة الموجة القوية الجديدة للثروة البترولية في السعودية، وظهور نظام البنوك الإسلامية السياسية عالية المستوى وإنشاء المؤسسات المالية القوية الجديدة في مصر والدول الإسلامية المحافظة الأخرى. غير أنه بعد أفغانستان أصبحت الحركة الإسلامية أكثر راديكالية وأخذت تستشعر قوتها أكثر من أي وقت مضى وتفرد عضلاتها. في أواخر الثمانينات استولى المسلمون على السلطة في أفغانستان والسودان وأصبح لديهم قوة متميزة في العربية السعودية وباكستان وهددت بالاستيلاء على مصر والجزائر. في خلال هذه السنوات وضع الأساس لتنظيم القاعدة وأعماله السرية الإرهابية. تجاهلت المخابرات المركزية الأمريكية وصناع السياسة الأمريكية، الذين كانت عيونهم مفتوحة على آخرها على إمكانية توجيه ضربة ثانية إلى الاتحاد السوفييتي في أفغانستان، تجاهلوا كل ذلك بل ربما لم يروه أصلاً، ليس هذا فقط بل إن أكثر المسؤولين الأمريكيين راديكالية كانوا يرون أن آسيا الوسطى تشكل الضربة الإسلامية تحت الحزام للاتحاد السوفييتي وكانوا يتصورون إن تفكيك الاتحاد السوفييتي يبدأ من جمهورياته الإسلامية في آسيا الوسطى.

مجلد القول، إذا استخدمنا التعبير الاستراتيجي بمعناه الواسع، فإن الجهاد الأفغاني فعل ما كان سنة 1980 مجرد حلم للمحافظين الجدد: الاحتلال العسكري

للخليج الفارسي وما يحوى من حقول بترول. ثم صلة مباشرة بين الحرب فى أفغانستان والحضور العسكري الراهن المتغلغل فى كازاخستان وأوزبكستان وغيرها من مناطق آسيا الوسطى الغنية بالبترول. إن هذا الصراع هو الذى جاء بالولايات المتحدة إلى هذا الجزء من العالم الذى كان حتى ثمانينات القرن العشرين خارج مجال نفوذ الولايات المتحدة. لقد بدأ ذلك فى الثمانينات حينما حصل المجاهدون فى أفغانستان على الأسلحة من الولايات المتحدة والصين وإسرائيل وغيرها من وسائل أخرى لمحاربة الجيش الأحمر واستمر ذلك فى التسعينات حينما تعاونت الولايات المتحدة مع صعود حركة طالبان واستمر الوضع كذلك حتى الوقت الحاضر حينما نشبت حرب أفغانية جديدة سهلت تغلغل الولايات المتحدة فى جمهوريات آسيا الوسطى الإسلامية الناشئة. لقد تمكنت الولايات المتحدة بضربة واحدة من ربط إمبراطوريتها فى الشرق الأوسط والخليج الفارسي بالكامل مع أرخبيل (مجموعة جزر) القواعد العسكرية فى الخليج الفارسي والمحيط الهندي ونقاط أخرى فى الشرق فيما هو أشبه ما يكون بعقد من القواعد العسكرية التي تحيط بالعراق وأفغانستان وآسيا الوسطى. وإذا كان لتناقضات القرن الواحد والعشرين أن تدفع الولايات المتحدة سواء ضد روسيا أو الصين أو كليهما فى معركة من أجل السيطرة على مصادر البترول والغاز فى جنوب غرب آسيا فإن الولايات المتحدة سوف يكون لها اليد العليا، ذلك انه بدءا من الجهاد الافغانى بدأت الولايات المتحدة فى تجميع قوة احتلال أكثر تفوقا للخليج والمنطقة المحيطة.

لم يكن شئ من هذا موجودا فى زمن الثورة الإيرانية وبدء الجهاد فى أفغانستان، ولكن الحرب فى هذه الدولة مكن الولايات المتحدة لأول مرة من البدء فى مشروعها الجديد لتوجيه قواتها العسكرية مباشرة إلى جنوب غرب آسيا والخليج مما أدى إلى علاقات عسكرية جديدة مع مصر والعربية السعودية وباكستان وإنشاء نظام إمداد سريع للقوات والقيادة المركزية لقوات الولايات المتحدة وإنشاء قواعد عسكرية جديدة تحيط بالمنطقة. بدأت هذه العملية بعد عدة أسابيع من تحريك الاتحاد السوفييتي قواته إلى داخل أفغانستان حينما أعلن الرئيس كارتر فى يناير سنة 1980 ما أطلق عليه فيما بعد " نظرية كارتر" وهى إعادة إحياء بالقوة لمطالب الولايات المتحدة السابقة فى الخليج الفارسي التي كان الرئيس فرانكلين روزفلت قد أعلنها سنة 1943 وكذلك دوايت ايزنهاور سنة 1957. أكد كارتر: " يجب إن يكون موقفنا واضحا بشكل مطلق. إن أى محاولة من قوى خارجية للسيطرة على منطقة الخليج سوف ينظر إليها باعتبارها عدوانا على المصالح الحيوية للولايات المتحدة." ولكن توجيه حديثه بشكل مباشر إلى الاتحاد السوفييتي، جعل منه فى مجمله جعجعة

مظهرية، ففي سنة 1980 لم تكن الولايات المتحدة قد اتخذت فى الخليج أى إجراء من شأنه الرد على أى هجوم سوفياتي، وكانت تنقصها القدرة على النقل السريع لقواتها العسكرية إلى الخليج سواء جوا أو بحرا. طبعاً لم يكن لدى الاتحاد السوفياتي أى نية لمهاجمة أو احتلال الخليج وكان تحركه إلى أفغانستان سنة 1979 على مضض ويفسر على أنه الملاذ الأخير كرد فعل دفاعي ضد التهديد المتعمد المحسوب من جانب الاستفزازيين الإسلاميين الأفغان الذين تساندتهم الولايات المتحدة وباكستان. وإذا كان ثمة تهديد لمصالح الولايات المتحدة فى الخليج فإنه تهديد داخلي تماماً وإن تكن حتى إمكانيات الولايات المتحدة فى هذه المنطقة مشكوكاً فيها، إذا افترضنا أن إيران أو العراق أرادت أن تشن حرباً ضد دول الخليج العربى وفيما لو حدث انقلاب فى العربية السعودية مثلاً لخلع الأسرة المالكة فإن قدرة الولايات المتحدة على أن تتخذ إجراءً مضاداً كانت أبعد ما تكون عن التأكيد.

لوقت طويل قبل الأزمة فى أفغانستان كان يجرى الحديث فى الولايات المتحدة عن هجوم امريكى ضد العربية السعودية واحتلال آبارها البترولية. بدأ هذا فى السبعينات بعد الحظر العربى على تصدير البترول ومضاعفة السعر أربع مرات الذى فرضته منظمة الدول المصدرة للبترول خلال الفترة 1973-1974. وإنما جاء الفكر الاستراتيجى بشأن تحرك عسكري امريكى من جانب هنري كيسنجر سكرتير الدولة للشئون الخارجية. ففي سنة 1975 ظهرت مقالة بعنوان "الاستيلاء على البترول العربى" فى مجلة هاربرز، وقّعها كاتبها باسم مايلز اجنتوس قدمته المجلة باعتباره استاذاً جامعياً يقيم فى واشنطن وأنه مستشار لوزارة الدفاع وله علاقات وثيقة بالدوائر العليا لوضع السياسة الأمريكية. وأشيع أن كاتب المقال هو ادوارد لوتواك وهو محلل سياسى من المحافظين الجدد ويعمل فى مدرسة جو هوبكنز للدراسات الدولية المتقدمة (بالرغم من أن لوتواك ينكر أنه كاتب هذه المقالة). فى حوالى نفس التوقيت كتب أستاذ آخر من نفس الجامعة يدعى روبرت تكرر مقالاً مشابهاً لمجلة "جويش كوميتى أدفوكيتج كومنتارى"، وكذلك بدأت تظهر مقالات أخرى فى مواقع أخرى تحض على احتلال آبار البترول فى السعودية. طبقاً لجيمس أكينز سفير الولايات المتحدة السابق فى المملكة السعودية فى منتصف السبعينات كانت مقالة "هاربرز" تعطى الخطوط العريضة "لكيفية حل كل مشاكلنا الاقتصادية والسياسية بالاستيلاء على آبار البترول العربية واستحضار رجال من تكساس وأوكلاهوما لإدارتها". يقول أكينز الذى لاحظ الظهور الوبائي المفاجئ لهذه المقالات: "أننى أعلم أنه لابد وأن تكون هناك خلفيات عميقة من التوجيهات

وراء ذلك. انه لا يمكن لثماني أشخاص أن يصلوا إلى نفس الفكرة المجنونة من تلقاء أنفسهم.⁴⁹⁶

ويمضى اتكنز معترفا بأنه أقدم بعد ذلك على ما اعتبره "خطأه القاتل" الذي سرعان ما تسبب في إعفائه من منصبه كسفير للولايات المتحدة. حينما قال: "أيما إنسان يقترح هذا إما أن يكون مجنوناً أو مجرماً أو عميلاً للاتحاد السوفيتي". بعد ذلك مباشرة علم أن هذه التوجيهات قد صدرت من رئيسه هنري كيسنجر. في نفس العام أعفى اكينز من منصبه. ولم يعترف كيسنجر قط بدوره في التشجيع على كتابة هذه المقالات، ولكنه في مقابلة مع مجلة "بزنس ويك" في نفس هذا العام وجه للسعوديين تهديداً مبطناً حول إمكانية تخفيض الأسعار من خلال إجراءات سياسية مكثفة ضد بلدان مثل السعودية وإيران تؤدي إلى زعزعة استقرارها وربما أمنها إذا لم تتعاون. "يمكن ملاحظة أن نفس هذا الموقف من جانب كيسنجر تجاه السعودية ودول الخليج ورد أيضاً في قصة يذكرها أحد مسئولى المخابرات المركزية الأمريكية ممن عملوا في الخليج الفارسي في السبعينات. فمن أجل أن يخيف كيسنجر السعودية قام بعملية استعراض للقوة فاستدعى أحد المسئولين التنفيذيين بالمخابرات المركزية الأمريكية وكان في طريقه إلى الشرق الأوسط في مهمة غير معروفة وقال له: "إن علينا أن نعطي السعودية درساً" وطلب منه أن "يختار مشيخة من مشيخات الخليج - أي مشيخة - ويسقط حكومتها كدرس للسعودية" وحسبما يذكر ذلك الموظف: "كانت الفكرة أن أقوم بذلك في أبو ظبي أو دبي غير انه حينما ذهب إلى الخليج وعرض الفكرة على كل رؤساء المخابرات في المنطقة لم يوافق عليها أحد باعتبارها غير صالحة ومن ثم فقد تم العدول عنها ولم يعرضها كيسنجر بعد ذلك أبداً."⁴⁹⁷

حتى نشوب حرب أفغانستان، كان المخططون العسكريون للولايات المتحدة يعلمون أن الولايات المتحدة ليس لديها القدرة في السبعينات على الحشد السريع لعشرات أو مئات الألوف من القوات في الخليج. كان وجود الأسطول الأمريكي هناك مجرد وجود رمزي برغم التهديدات الجوفاء باحتلال آبار البترول العربية. ومع إعلان مبدأ كارتر اخذ الرئيس خطوات بدأت - تعطي الولايات المتحدة القدرة على التدخل بشكل مباشر في الخليج الفارسي وان يكن بشكل بدائي. أمر كارتر بإنشاء قوات للتدخل السريع تتكون من وحدة عسكرية "تغطي آفاق المنطقة"، قادرة

496- جيمس أكينز مقابلة مع المؤلف نوفمبر 2002

497 - مسئول سابق في المخابرات المركزية الأمريكية - مقابلة مع المؤلف - نوفمبر 2002

على نجدة على الأقل بضعة آلاف من القوات الأمريكية الموجودة في الخليج في حالة وجود أزمة. وسوف يتم، تحت قيادة الرئيس رونالد ريجان، التوسع في هذه القوة وتحويلها إلى قيادة مركزية، وهي شكل جديد من الهياكل العسكرية مخول لها السلطة على الخليج الفارسي والمنطقة المجاورة من شرق إفريقيا إلى وسط آسيا وأفغانستان. وكانت هذه هي القوة المركزية التي قاتلت في حرب الخليج سنة 2001 في أفغانستان وفي سنة 2003 في الحرب العراقية.

في سنة 1979 كان الوجود العسكري للولايات المتحدة في الشرق الأوسط والخليج ووسط آسيا، كان من وجهة نظر برجنسكي مجرد ومضة لأن مستشار الأمن القومي الأمريكي كان يرى أن "قوس الإسلام" هو الحل لاضطرابات "قوس الأزمات".

ضرب الاتحاد السوفييتي تحت الحزام

إن فكرة حشد الإسلاميين ضد الاتحاد السوفييتي لها تاريخ طويل منذ الحرب الباردة. وكان ينظر إليها غالبا بعين الشك من جانب معظم الخبراء الاستراتيجيين خاصة خلال الخمسينات والستينات. كان هناك إحساس بأنه من غير الممكن إغراء المسلمين السوفييت أو تشجيعهم على الثورة ضد حكم موسكو نظرا لأن السوفييت قد نجحوا فيما يبدو في تهدئة جمهوريات آسيا الوسطى، وإسكان الروس هناك وإعادة تأهيل الشعوب الإسلامية الاثنية هناك بالقوة وقمع الحركات الدينية، وبالإضافة فإنها كانت منطقة نائية مما يحد من إمكانية الوصول إلى الجماهير فيها. غير أنه في السبعينات تجمعت عدة عوامل من شأنها أن تمد هؤلاء الذين طالما تطلعوا للعب بكارث الإسلام ضد موسكو بأسباب قوية. في السبعينات اثبت إحصاء أجرى في الاتحاد السوفييتي أن الشعب المسلم في وسط آسيا السوفييتية كان ينمو بمعدل يفوق النمو في أماكن أخرى بشكل أكبر كثيرا من شعوب الاتحاد السوفييتي الأخرى وخاصة الروس. ثم جاءت الثورة الإيرانية التي دفعت بالإسلام الجهادي إلى مقدمة السياسة الإقليمية في أفغانستان وأذربيجان وغيرها من الجمهوريات الإسلامية. وفجأة بدا أن النظام الموجود في كابول الذي يستند إلى الاتحاد السوفييتي آيل للسقوط من قبل تحالف متهاالك من القوى الإسلامية، وأضحت أفغانستان نفسها ميدانا محتملا للمعارك الأرضية، على الأقل هذا ما بدا لبعض الزملاء من العاملين بالمخابرات المركزية الأمريكية بقيادة برجنسكي. داخل إدارة كارتر كانت هناك

مجموعة تسمى " مجموعة العمل الخاصة لشئون القوميات"، وهى بمثابة المركز التنظيمي لهذا التخطيط الاستراتيجي. ولكنها تنظيم تابع تم إنشاؤه بموافقة عاجلة من "مجلس الأمن القومي"، ويضم موظفين من المخابرات المركزية الأمريكية وإدارة الدولة والبنّاجون وبعض الوكالات الأخرى. كان رئيس هذا التنظيم هو بول هاينز وهو احد مساعدي برجنسكى ومستول سابق فى المخابرات المركزية الأمريكية كان يعمل مع مجموعة مرتبطة بشبكة من اللاعبين والمستشارين الذين كانوا يعتقدون منذ زمن بعيد أن الأقليات الموجودة فى الاتحاد السوفييتي هي التي ستفكك الاتحاد السوفييتي وكثير منهم كانوا مرتبطين منذ الخمسينات بمنشأة إذاعة راديو الحرية التي تساندها المخابرات المركزية الأمريكية، وهى موازية لراديو أوروبا الحرة التي كانت توجه إذاعتها إلى الكتلة السوفييتية إبان الحرب الباردة. إن تركيز راديو أوروبا الحرة على وسط آسيا قد بدأ مرحلته المتواضعة فى الخمسينات. وطبقا لجيمس كريتشلو الذى عمل لمدة طويلة فى راديو أوروبا الحرة وراديو الحرية الأمريكى وهو مؤلف " الوطنية فى أوزبكستان". بدأ راديو الحرية أولى إذاعاته الموجهة إلى آسيا الوسطى من خلال مكتب تركستان الموجود فى أوزبك و، تركمانيا، وكازاك، وطاجيك، وقيرغيزيا جنبا إلى جنب مع الإذاعات الأخرى من خلال مكتب القوقاز فى جورجيا وأذربيجان والشيشان. كانت الإذاعة مقصورة على نصف ساعة يوميا لكل لغة وكانت تشمل مجموعة من الإخبار والمقالات، " تعليقات تنتقد النظام السوفييتي وبشكل خاص سياساته القمعية للإسلام والديانات الأخرى. وكانت هى المكونات الرئيسية، كما يقول كريتشلو. ولكن مع الإبقاء على الأهداف المتواضعة للبرنامج فى الخمسينات. كانت الإذاعة تحظر الإشارة بشكل واضح وهو ما كان مرفوضا من قبل بعض العاملين".⁴⁹⁸

بين حين وآخر كان محبذو الحرب الباردة يطالبون بان تركّز دعاية الولايات المتحدة بل وان تقوم بالتحريض ضد جمهوريات آسيا الوسطى، على سبيل المثال فى سنة 1958 كتب شارلس هوستلر وهو ضابط سابق فى المخابرات البريطانية فى جريدة الشرق الأوسط " إن السوفييت يخشون بشدة العمل المشترك بين الشعب التركى فى آسيا وان تركيا المرتبطة بحلف الاطلنطى يمكن أن تحرض هؤلاء المسلمين على " الاستقلال السياسى عن السوفييت" وان الغرب يجب أن يكرس نفسه أكثر من اجل هذه الجماهير وتطلعاتها" وطالب بالتوسع فى بث برامج إذاعة راديو الحرية فى وسط آسيا باللغة المحلية وان تتوسع الولايات المتحدة فى تمويل

498- جيمس كريتشلو -مقابلة مع كاثلين كلينيتسكى - يوليو 2004

برامج البحث في آسيا الوسطى والقوقاز، مناطق ولغات.⁴⁹⁹ في الستينات التحق برجنسكى نفسه بصفوف هؤلاء الداعين إلى مساندة قوية من جانب الولايات المتحدة لمسلمي آسيا الوسطى. يلاحظ جين سوزان المدير السابق لتخطيط برامج راديو الحرية وأوربا الحرة: إن برجنسكى كان داعما دائما لراديو أوروبا الحرة وراديو الحرية، ولكنه لم يكن يتفق دائما مع بعض سياساته. أصبح هذا واضحا أوائل 1966 حينما دعاه بعض رعاة البرنامجين من العاملين في المخابرات لمركزية أن يشاركهم في تحليل موثق لكلا البرنامجين.... فانتقد كل من البروفيسور برجنسكى والبروفيسور جريفيث سياسة راديو الحرية الوطنية التي كانوا يرون أنها سلبية أكثر من اللازم، وطالبوا بتبني سياسة أكثر نضالية في الإذاعات غير الروسية الأمر الذى سوف يساعد على استثارة المشاعر المناهضة للروس.⁵⁰⁰

بصفته سليلا لعائلة بولندية كان لبرجنسكى مشاعر نضالية ضد الشيوعية، وكان يرى أن الاتحاد السوفييتي قوى ولكنه كالموزاييك المفرغ المشكل من أقليات اثنيه ودينية. فى مجلس الأمن القومي جمع فريقا من مساعديه ومستشاريه الذين يريدون إثارة التناقضات داخل الاتحاد السوفييتي من أجل تسريع سقوطه. وحسبما ذكر روبرت جيتس وهو مسئول سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية وأصبح مديرا لها فيما بعد كانت الإدارة متحفظة إزاء التدخل لمساندة الأقليات فى جمهوريات آسيا الوسطى السوفييتية. من ناحية أخرى كان برجنسكى مهتما اهتماما عميقا باستثمار المسألة الوطنية فى الاتحاد السوفييتي. فى مذكراته يقول جيتس أن برجنسكى كان يريد أن يتبع أسلوب العمل السري.⁵⁰¹

كانت نواة مجموعة برجنسكى - هنز المسماة "مجموعة العمل الخاصة بالقوميات" تتبع الكسندر بينيجسين وهو أرسقراطي (كونت) أوروبى أكاديمى ومؤلف خصب ومرشد روجي للمدرسة التي ترى فى الإسلام قوة تشكل تهديدا للسلطة السوفييتية. إن خلفية عائلة بينيجسين تعطيه انتماءا طبيعيا لبرجنسكى، فقد ولد فى سان بطرسبرج فى روسيا وهو ابن كونت روسي حارب فى صفوف الجيش الأبيض ضد البلاشفة فى الحرب الأهلية التي نشبت بعد الثورة الروسية. ففى

499 - شارلس هوستلر : الأتراك وآسيا الوسطى السوفييتية - صحيفة الشرق الأوسط 1958 ص ص 69-268

500- جين سوزان Gene Sosin, Sparks of Liberty: An Insider Memoir of Radio Liberty(Pennsylvania,Unjversity StatePress,1999),p.115

501- روبرت جيتس Robert Gates, From the Shadows(New York ,1996), p.93

الخمسينات صاغ بنجيسين شخصيته أولا في مدرسة الدراسات العليا في العلوم الاجتماعية في باريس ثم في جامعة شيكاغو. إن كتبه ومقالاته العديدة عن الإسلام في وسط آسيا كانت دافعا لإنشاء حركة خريجي الجامعة والعاملين في جهاز الدولة الذين يؤمنون بأهمية استخدام الورقة الإسلامية والذين اتخذوا من جامعة شيكاغو مقرالهم " في مؤسسة راند" Rand Corporation وفي "هيئات الفكر" (Think- tanks) وفي أماكن أخرى من بيروقراطية الأمن القومي⁵⁰². وممن تأثروا ب (بنجيسين) كان برجنسكي وبول هنزوس و. إندرز ويمبوش الذي عمل فيما بعد في " مؤسسة راند" أخصائيا في الشؤون السوفييتية وواحد من العاملين في مكتب راديو الحرية في ميونيخ.

أخذ بنجيسين منذ أواخر الخمسينات يدبج سبلا متدفقا من الكتب والمقالات وأوراق البحث التي تقدم النظرية القائلة بأن حركة سرية من الإسلاميين قد أخذت تكتسب زخما داخل الاتحاد السوفييتي. في كتابه " التهديد الاسلامي للدولة السوفييتية " يقول بنجيسين إن الحركة لجأت أخيرا إلى "المقاومة الداخلية المسلحة التي بدأت أواخر القرن الثامن عشر ويقودها الإخوة الصوفيون (الطريقة الصوفية) التي تقاتل من أجل إقامة حكم الله في الأرض " وتعارض الامبريالية الروسية.⁵⁰³ يقول بنجيسين انه رغم الجهود الهائلة التي قامت بها السلطة السوفييتية لتمزيق وقمع الإسلام فان هذه الحركة قد نمت وحتى خلال الخمسينات حينما هاجم خروشتشوف الإسلام فانه كان " ابعد ما يكون عن اقتلاع المشاعر الدينية للشعب المسلم بل وعلى العكس من ذلك خلق حافزا جديدا لدى اكثر الاتجاهات أصولية ومحافظة ممثلة في التنظيمات السرية الموازية من السلفيين الإسلاميين.⁵⁰⁴ وأكد أن هذه الإخوة الصوفية قادت المقاومة ضد السلطة السوفييتية في التجمعات السكانية العريضة في آسيا الوسطى.

" منذ انتصار البلاشفة حتى وقتنا الراهن كانت المقاومة الوحيدة والجادة والمنظمة التي واجهت السوفييت في المناطق الإسلامية تجئ من الطريقة الصوفية

502 - في سنة 1961 كتب بنجسن Bennigsen تطور القوميات الإسلامية في الاتحاد السوفييتي، في

1967 كتب الإسلام في الاتحاد السوفييتي وفي 1983 ، بمشاركة ابنته ماري بروكساب كتب التهديد

الاسلامي للاتحاد السوفييتي

503 - الكسندر بنجسن Bennigsen وابنته ماري بروكساب، التهديد الاسلامي للاتحاد السوفييتي

(نيويورك 1983) ص 64

504 - المرجع السابق ص 48

التي أطلق عليها السوفييت "الإسلام الموازي" أو "الإسلام غير الرسمي" أو "المجموعات الانعزالية". إن الإسلام الموازي هو الأكثر قوة وهو الأكثر جذرية من الإسلام الرسمي. إن الإخوان الصوفيين هم جماعة مغلقة ولكنهم ليسوا مجتمعات سرية تماما. إن السلطة السوفييتية تقدم الصوفيين باعتبارهم خطرين، إرهابيين، معادين للسوفييت، معادين للاشتراكية، معادين للروس، قوى رجعية، ولكنهم يعرفون مدى كفاءتهم وديناميتهم.⁵⁰⁵ وطبقا لـ "بنجسين" فإن أكثر ما يميز الإخوان الصوفيين هو الجمعية السرية التي يطلقون عليها "النقشبندية" وهي على نمط الإخوان الماسونيين وترتبط ارتباطا وثيقا بالنخب التركية التي لها ارتباطات قديمة ووثيقة بآسيا الوسطى. كان النقشبنديون يتمتعون بقوة خاصة في الشيشان وداغستان وأجزاء من آسيا الوسطى بما فيها غرب أوزبكستان. يقول بنجسين إن "النقشبنديين المهرة كانت لهم تقاليد خاصة في "الحرب المقدسة ضد الروس" وينتهي إلى القول بأن الشعور الوطني في وسط آسيا كان مرتبطا بالإسلام السياسي الراديكالي ارتباطا لا انفصام له.:

"منذ الحرب العالمية الثانية تفاعلت بعض الأنظمة أكثر فأكثر مع الوطنية. والنتيجة أن أي حركة وطنية تظهر - حتى لو كانت تقدمية - سوف تكون متأثرة تأثيرا كبيرا بالنظرة التقليدية المحافظة للصوفية، وإن ظهور مثل هذه الحركة أمر لا شك فيه⁵⁰⁶.

واخذ بنجسين وآخرون من دائرته، يحثون الولايات المتحدة على بذل المزيد من الجهد لتشجيع الإسلام السياسي في الجمهوريات السوفييتية على الثورة. ولكن بنجسين يستدرك قائلا: "إن الحصيلة على الأرجح سوف تكون إسلاما راديكاليا مشابها لما هو حادث اليوم في "الثورة الإسلامية في إيران"⁵⁰⁷

إن موقف بنحسين المزهو بنفسه فيما يتعلق بظهور حكومات إسلامية راديكالية في آسيا الوسطى موازي بالدقة لما يراه برجنسكي من أنه يتعين على الولايات المتحدة أن تدفع باتجاه انتشار الإسلام السياسي في أفغانستان وإلا تخشى نتائج ذلك.

يقول جيرمي أزرانيل في مؤلفه "قومية الأمم الصاعدة في الاتحاد السوفييتي" (1977): "في السبعينات كنت حاضرا في سيمينار (ملتقى) تعليمي حول شئون

505- المرجع السابق ص 73

506- المرجع السابق 77

507- المرجع السابق 130

الأمم الإسلامية، أفرز برنامج جامعة شيكاغو مجموعة من الخبراء في شئون وسط آسيا السوفييتية والإسلام معظمهم من أتباع نظرية بنيجسين المثيرة للجدل وبعضهم مثل بول جوببل أصبحوا من المحللين المشهورين لهذا الموضوع في المخابرات المركزية الأمريكية. التحق أزرائيل نفسه بالمخابرات المركزية الأمريكية سنة 1978 بصفته محللاً زائراً. يقول أزرائيل: "ما إن عملت هناك حتى أصبحت عضواً ممتازاً ضمن" مجموعة عمل الأمم السوفييتية". خلال عهد برجنسكى كانت الجهود مقصورة في بادئ الأمر على أعمال صغيرة كتوزيع القرآن بلغات وسط آسيا ثم صعدنا جهودنا بالتنسيق مع مخابرات العربية السعودية من أجل الاتصال بالمسلمين السوفييت الذين يزورون مكة من أجل الحج. ولكن الثورة الإيرانية حركت خيال كل من انخرط في العمل"⁵⁰⁸. و يتذكر أزرائيل: "عندما أطيح بالشاه أحضرت بنيجسين إلى المخابرات المركزية ليلقى محاضرة. كانت لحظة مثيرة تبعث على الدهشة والتحدي، فبإسقاط الشاه أعاد الخميني صياغة الأحكام بشأن ما سوف يستكملة الإسلام. وكان المحللون في الولايات المتحدة مفعمين بالاحتمالات. فالمحافظون الجدد على وجه الخصوص، جنبا إلى جنب مع أنصار الحرب الباردة المتشددين رأوها فرصة جديدة للجهاد ضد السوفييت، ليس فقط في أفغانستان ولكن في المنطقة بأكملها. بعد الغزو السوفييتي لأفغانستان في ديسمبر 1969 كتب زلماي خليل زاد وهو محلل من المحافظين الجدد واستراتيجي من مؤسسة راند والسفير مستقبلاً للولايات المتحدة في أفغانستان، كتب ورقة تتبأ فيها بالمشاكل التي خلقها نظام الخميني للاتحاد السوفييتي: "لقد خلق نظام الخميني مخاطر جديدة للسوفييت. إن تغيير النظام قد شجع حركات مماثلة في العراق وأفغانستان وقد يؤثر حتى على مسلمي آسيا الوسطى السوفييتية."⁵⁰⁹ وأضاف يقول:

"إن الثمن بالنسبة للاتحاد السوفييتي قد يشمل....عدم الاستقرار الإقليمي في هذه المناطق من الاتحاد السوفييتي التي يسميها السوفييت "مستعمراتنا الداخلية" - أي الشعوب الإسلامية في آسيا الوسطى التي يمكن أن يصل تعدادها إلى 100 مليون نسمة مع سنة 2000- حيث برغم المحاولات الرسمية الجارية لاستيعابها، فإن الوعي الإسلامي يشكل نوعاً من الثقافة المضادة ويمكن أن يكون حساساً لدرجة تستثير المسلمين إذا استمر السوفييت في حربهم على عقيدتهم وعلى رفاقهم

508- جيرمي أزرائيل مقابلة مع كاثلين كلينتسكي أغسطس 2004

509- زلماي خليل زاد العودة إلى اللعبة الكبرى The Return of the Great Game ملتقى لمناقشة

الأمن العالمي والسياسة الخارجية ، ورقة رقم 88 - 1980) ص 41

المسلمين عبر الحدود.... إن العداوة للاتحاد السوفييتي يمكن أن تزيد عموماً في البلاد والجماعات الإسلامية.⁵¹⁰ كان هذا بلا شك استنتاجاً صحيحاً من جانب بينجسين.

أما هنز رئيس مجموعة عمل القوميات السوفييتية فقد كان هو نفسه منذ أمد طويل أحد الدعاة لوجهات نظر بينجسن. كان هنز الذي تتضمن مهنته عملاً محدداً بوصفه رئيساً للمخابرات المركزية الأمريكية في تركيا خلال منتصف السبعينات كان يتبنى وجهات نظر راديكالية وشاذة، فقد اكتسب شهرته في الثمانينات كأحد الذين قادوا الحملة من أجل اعتبار أن المخابرات السوفييتية والبلغارية هي التي كانت وراء محاولة إصاق تهمة محاولة اغتيال البابا جون بول الثاني بتركي فاشي.⁵¹¹ فمُنذ وقت مبكر سنة 1958 كتب هنز مقالا عن "مشكلة شامل" فأشار إلى ما حدث في القرن التاسع عشر لقائد مسلم معارض للتوسع الروسي في آسيا. كان هنز مثل بنجسن تستفز قضية شامل ويعتقد أن انهيار الاتحاد السوفييتي يمكن أن يبدأ من آسيا الوسطى.

كتب هنز مقالا في سنة 1958 يقول فيه:

"سيكون من الصعب جدا على الشيوعيين السوفييت أن يستمروا في سياستهم الفعالة الموالية للعرب " سياسة معاداة الاستعمار " لعدة سنوات دون أن يخاطروا بإثارة القلاقل بين نفس شعوبهم في القوقاز وآسيا الوسطى. وتتنبأ مناقشة شامل بأن فئة من المثقفين المعتدلين بوطنيتهم قد ظهرت بين هذه الشعوب.... إن الاتحاد السوفييتي ليس بمؤمن من ظاهرة تشابه الوضع في الجزائر أن تصيبه هو نفسه رغم أن هذه الظاهرة لاتزال نسبيا في مراحلها الأولى ويوم نضوجها لا يزال بعيدا.⁵¹²

في أواخر السبعينات لم يعد هذا اليوم بعيدا بمثل هذه الدرجة بالنسبة إلى بنجسين وبرجنسكي وهنز. لقد جمعوا قواهم إلى جانب ريتشارد بايبس وهو لاعب آخر بورقة الإسلام كان يكتب عن مسلمي آسيا الوسطى والتهديد الذي يواجهه الاتحاد السوفييتي منذ الخمسينات بما في ذلك تحليل من جزأين نشر في جريدة

510- المرجع السابق ص 70- 71

511- في سنة 1983 كتب هنز Henze كتابا عن مؤامرة اغتيال البابا تطويرا لنظريته

512- بول هنز Paul B. Henze, "The Shamil Problem," in the Middle East in

Transition (نيويورك 1958) ص 442

الشرق الأوسط سنة 1955 بعنوان "المسلمون فى آسيا الوسطى السوفيتية: الاتجاهات والمستقبل". يكتب بايبس: إن منطقة آسيا الوسطى بكاملها بما فيها تركستان الصينية المرتبطة بها بشكل مستمر، قد تتجه مع الوقت إلى التحرك نحو الاستقلال. انه ليس من غير المتصور أن هذه المنطقة الشاسعة يمكن أن تستوعب فى دولة إسلامية تركية جديدة تتجه نحو الشرق الأوسط.⁵¹³ هذا ما كتبه بايبس الذى كان قد كتب من قبل قائلًا إن المسلمين السوفيت سوف يتفجرون فى غضبة عرقية ضد موسكو.⁵¹⁴ كذلك كتب بتوسع عن مشكلة الأمم فى آسيا الوسطى السوفيتية. وحينما حل الرئيس ريجان محل كارتر سنة 1984 اعتلى بايبس رئاسة "مجموعة العمل الخاصة بالقوميات". ولكن عدداً آخر من الجامعيين والخبراء فى شئون الاتحاد السوفيتي اختلفوا مع بينيجيسين وتابعيه. وعلى أى حال فلم تظهر هذه الثورة الإسلامية ضد السوفيت. والحقيقة إن الإسلام الراديكالي لم يكن من أسباب تفكك الاتحاد السوفيتي بعد البروسترويك وانهيار حائط برلين وإنشاء جمهوريات آسيا الوسطى فأنظمة وسط آسيا التى ظهرت فى التسعينات لم يكن فيها أى رائحة للإسلاميين. وبدلاً من ذلك وجدت هذه الأنظمة نفسها مواجهة بالإسلاميين الجهاديين بدءاً من القاعدة إلى حزب التحرير الإسلامى. ويمكن صياغة تعبير يقول: إذا كان قد حدث أى شئ فهو أن مساندة أمريكا للإسلام السياسى فى آسيا قد ساعد على نمو الحركات الإسلامية السرية الإرهابية فى الشيشان وأوزبكستان وغيرها من دول المنطقة.

المخابرات المركزية الأمريكية فى افغانستان قبل 1979

فى سنة 1979 وضعت النظرية التى تقول إن الإسلام قد يقلص الوجود السوفيتي فى آسيا، موضع التطبيق. فالولايات المتحدة وباكستان والعربية السعودية شنوا رسمياً الجهاد الإسلامى الذى هدد الحكومة فى كابول ودفع الاتحاد السوفيتي إلى الهجوم على افغانستان وأشعل الحرب الأهلية لمدة عشر سنوات.

513- ريتشارد بايبس مسلمو آسيا الوسطى السوفيتية. الميول والتطلعات-ج2-جريدة الشرق الأوسط - صيف 1955-ص 308

514- ريتشارد بايبس Richard Pipes, Survival Is Not Enough : Soviet Realities and America's Future (New York 1984,p. 185

بالنسبة لبرجنسكى ربطت الحرب الأهلية وجهتي النظر معا. الأولى تتعلق بفكرته بشأن "القوس الاسلامى" فى جنوب غرب آسيا كحاجز ضد الاتحاد السوفييتى، حسبما كتب فواز جرجس مؤلف "أمريكا والإسلام السياسى":

"إن احتواء الشيوعية السوفييتية، كما يقول برجنسكى، يملى علينا تجنب أى شئ يمكن أن يشق المعارضة الإسلامية للسوفييت سيما المجابهة العسكرية بين الولايات المتحدة وإيران:" يبدو لي الآن أن الأكثر أهمية هو إذكاء تحالف اسلامى مضاد للسوفييت " وكما حدث فى خمسينات وستينات القرن العشرين كانت الولايات المتحدة تأمل فى استخدام الإسلام ضد القوى الراديكالية والعلمانية وحليفهم الملحد الاتحاد السوفييتى، يعترف الآن العاملون بإدارة كارتر بالإمكانات الجديدة للتعاون مع الإسلاميين الجهاديين على أمل إن يسخروا إيديولوجيتهم ومصادرهم المادية ضد التوسع الشيوعى. كانت دروس خمسينات وستينات القرن العشرين حينما تم استخدام الإسلام السياسى كسلاح إيديولوجى فى المعركة ضد القومية العربية والعلمانية، هى التى تحتل الأولوية فى ذهن المسئولين الأمريكان⁵¹⁵. أما العامل التالى فى الأهمية بالنسبة لهذه الخطة الإستراتيجية فهى المتعلقة بنظرية بنيجنسن وبرجنسكى لاستخدام الإسلام كسلاح يوجه إلى ما يروونه نقطة الضعف لضرب الاتحاد السوفييتى تحت الحزام أى فى آسيا الوسطى. ولكن الإسلاميين الأفغان لم يكونوا ليظهروا بهذه الدرجة من النضج من لاشئ. فلمدة كبيرة قبل سنة 1979 كان اليمين الإسلامى قد ظهر كقوة واعدة فى أفغانستان، و كان خلال الخمسينات فصاعدا يقاتل مع القوى التقدمية من اليساريين والعلمانيين فى كابول. لقد بدأت اتصالات أمريكا باصوليين أفغانستان المرتبطين بالإخوان المسلمين فى وقت مبكر فى خمسينات القرن العشرين وبدأت مساندتها لحركة اليمين الإسلامى فى أفغانستان سنة 1973.

برغم أن المخابرات المركزية الأمريكية لم يكن لها وجود كبير فى أفغانستان خلال العقود الأولى من الحرب الباردة، إلا انه كان لها بعثة أرسلت إلى هناك من خلال "المنشأة الأسيوية" وهى تنظيم امامى تابع للمخابرات المركزية. خلال الخمسينات والستينات، قامت المنشأة الأسيوية بتقديم مساعدة مميزة لجامعة كابول وكان لديها العديد من المشروعات البسيطة التى تتعامل مع المجتمع الإسلامى المنظم فى أفغانستان. حسبما يقول جون و روز بانيجان قام العاملون بالمنشأة الأسيوية الذين كانوا يعملون فى كل من باكستان وأفغانستان فى الستينات، ساعدت المنشأة مؤسسة البحوث الإسلامية فى لاهور بباكستان فى نشر كتاب "انسكلوبيديا

515- فواز جرجس أمريكا والإسلام السياسى - كامبردج 1999 ص 68

الإسلام" (دائرة المعارف الإسلامية) باللغة الاوردية. يقول جون بانيجان: " كنا أيضا منخرطين مع الجامعات الأساسية من خلال " إدارة الشؤون الدينية الإسلامية". فى كل من باكستان و افغانستان عملت أسرة بانيجان مع الجامعات الطلابية من اجل التغلب على التنظيم الطلابي الموالى للسوفييت. كما يقول بانيجان: " كان الطلبة هم هدفنا الأول" وتقول روز بانيجان إن منشأة أسيا أقامت علاقات مع عائلة مجددى وهى عائلة قيادية لرجال الدين الاسلامى، وبالتعاون مع وزارة العدل التى كان يرأسها لفترة احد أفراد عائلة مجددى، أرسلت المنشأة أيضا شفيق كاموى نائب رئيس وزارة العدل إلى سيمينار (مؤتمر) حول الشؤون الدولية فى هارفارد. وكما تلاحظ " كان عدد كبير من العاملين فى وزارة العدل بمن فيهم المستشار القانونى لمنشأة أسيا، من المللى (رجال الدين)"

لم يكن واضحا إلى اى مدى كانت المخابرات المركزية تحتفظ بعلاقات منتظمة مع إسلامي افغانستان خلال الستينات، حيث لم تكن افغانستان تشغل الاولوية فى سياسة الولايات المتحدة حتى العقد التالي:

" عندما كنت هناك سنة 1957 كانت افغانستان قد أصبحت دولة تابعة للسوفييت " حسبما يقول مسئول سابق فى المخابرات المركزية " كانوا يريدون منى إن ابحث عن كل شئ يتعلق بالوجود السوفييتى فى افغانستان لان الرئيس إيزنهاور كان يريد إعداد دراسة عن أهمية هذا البلد بالنسبة لإستراتيجية الولايات المتحدة وتوضيح كل شئ عنها لواشنطن". ولكن الدراسة لم تثبت سوى أن افغانستان ليست بذات أهمية تذكر. وانتهينا إلى انه ليس هناك اى فائدة تذكر حتى إذا استولى عليها الاتحاد السوفييتى فان ذلك لا يمثل خطورة تذكر بالنسبة للولايات المتحدة.⁵¹⁶

مع ذلك حتى الستينات كانت منشأة أسيا لها وجود فى افغانستان يعمل فيها اثنان أو ثلاثة من الموظفين الأمريكان الدائمين وربما 12 أو أكثر من المستشارين والاستشاريين.⁵¹⁷

خلال الستينات كانت الحركة الإسلامية فى افغانستان تمر بمرحلة تسييس يجرى ببطء ولكن بانتظام. وبالرغم من أن المجتمع الافغانى كان دائما مجتمعا محافظا وتقليديا نظرا لان الإسلام يلعب دورا مركزيا فان المذهب الاسلامى السائد على الأقل خلال الستينات كان إيمانيا وليس سياسيا. كان الإسلام فى افغانستان

516- مسئول سابق فى المخابرات المركزية الامريكية -مقابلة مع المؤلف مايو 2004

517- روز بانيجان Rose Bannigan - مقابلة مع المؤلف يوليو 2004

مجرد دين وليس عقيدة اجتماعية سياسية. ولكن تحت تأثير النفوذ الديني الخارجي وتحت تأثير المتقنين - خاصة الإخوان المسلمين المصريين وجماعة اسلامى الباكستانية والتنظيم الدولي للإخوان المسلمين الموجود فى جنيف بقيادة سعيد رمضان، بدأ الإسلام الافغانى يتعرض لتغيير جوهري حيث تم تسييسه وأصبح أكثر جهادية ومعارضا للشيوعية. وإذا بالقادة الأفغان الإسلاميين المنظمين والجامعيين يعودون الى افغانستان قادمين من مصر حيث التقوا خلفاء الحركة التى أسسها حسن البنا. حسبما يذكر أوليفر روى، وهو مستشرق فرنسي وخبير فى الشؤون الأفغانية والإسلامية فان مصدر الإسلام السياسي فى افغانستان بدأ مع عصبة شبه سرية يطلق عليها "الأساتذة" الذين تولوا مراكز مرموقة فى افغانستان بعد أن درسوا فى الأزهر فى القاهرة وحيث عاشروا الإخوان المسلمين. ولكن فرض الحظر عليها سنة 1958 بعد أن اصطدم احد القادة الدينيين الجامعيين مع محمد داود ابن عم الملك الذى اصبح فيما بعد رئيسا للجمهورية الأفغانية. قبض على الكثير من الإسلاميين واضطر التنظيم الناشئ إلى العمل سرا وأطلق على نفسه اسم "الجمعية الإسلامية"⁵¹⁸

فى أواسط الستينات أصبحت الجمعية الإسلامية والتنظيمات المتفرعة عنها تسير على نفس الدرب الذى سبقتها إليه التنظيمات الإسلامية فى مصر وباكستان والعراق وغيرها حيث تعتدي على الطلبة اليساريين والشيوعيين وتستخدم العنف ضد منافسيها السياسيين، يقودها الكثيرون من نفس الأشخاص الذين سيغدون سنة 1979 المنتفعين من سخاء المخابرات المركزية الأمريكية، وبدئوا كذلك فى إثارة الاستقرايات السياسية بشكل مكشوف. يكتب روى:

" اثر (الأساتذة) تأثيرا كبيرا فى تلامذتهم. فى سنة 1965 وهو عام تأسيس الحزب الشيوعي تظاهر الطلبة الاسلاميون علنا ووزعوا منشورات بعنوان....علامات الحرب المقدسة." كانت الفترة من 1965- 1972 إحدى فترات الحراك السياسي فى حرم جامعة كابول....كانوا يعارضون الشيوعيين بشدة ونشبت معارك كثيرة عنيفة فى الحرم الجامعي بينهم وبين الماويين. وبالرغم من أنهم كانوا فى البداية أقل عددا من الشيوعيين إلا أن نفوذهم اخذ ينمو تدريجيا وحصلوا على الأغلبية فى انتخابات سنة 1970⁵¹⁹.

518- أوليفير روى Islam and Resistance in Afghanistan كامبردج 1985 - ص ص 69-

.70

519- المرجع السابق ص 71.

فى بدايات يونيو 1970 أرسلت برقية سرية من السفارة الأمريكية فى كابول تحدد القيادة الدينية الأفغانية بوجه خاص عائلة المجددى الدينية باعتبارها قوة فعالة، وانتهت إلى أن الإثارة التى قام بها الملاى قد" حدث من نفوذ اليسار على الأقل فى الريف وأن اليمين الدينى المحافظ اخذ يظهر بحيوية لأول مرة منذ سنوات وأنه لا يزال القوة التى يجب على الحكومة أن تخشاها، وأن الملاى قد وافقوا حسبما أفادت التقارير على أن يستمروا فى المعركة التى تسير بشكل جيد فى الأقاليم" وكتب المسئول السياسى فى السفارة يقول: " هنا فى كابول كانت هناك بعض المجهودات من أجل إبقاء الشعلة الدينية فى البازار" وأضاف أنه ببعض الجهود الصادقة فيما يتعلق بالمستقبل " ليس من المحتمل أن يعرف - لبعض الوقت - الكثير عن القوة التى ما زالت فى يد رجال الدين المجاهدين.⁵²⁰

من بين قادة الحركة الإسلامية الأفغانية أوائل السبعينات كان عبد الرسول سياف التى كانت منظمته تنتمي إلى الإخوان المسلمين والعربية السعودية، ومنهم برهان الدين ربانى وقلب الدين حكمتيار. كان كل منهم يقود أجزاء هامة من قوات المجاهدين فى الثمانينات. وطبقا لما يقوله روى: " كانت الحركة تعمل على مستوى مفتوح بالنسبة لـ "الشباب المسلم"، ومستوى أكثر سرية ويركز على "الأساتذة". كان قائد الأساتذة هو الرجل الذى قاد منظمة الشباب المسلم شبه السرية وهو البروفيسور غلام محمد نيازى من كلية رجال الدين فى جامعة كابول وهو أحد المنتفعين بالمساعدة التى كانت تقدمها المخابرات المركزية الأمريكية من خلال منشأة آسيا. فى 1972 شكل كل من ربانى وسياف ثم حكمتيار مجلسا قياديا للحركة واشرف حكمتيار على جناحها العسكري السري. كانت المنظمة بأكملها تعمل على أساس خلايا من خمسة أعضاء. فى أوائل السبعينات ومرة أخرى حسب النموذج الذى أرساه الإخوان المسلمون فى مصر وباكستان بدئوا يخترقون القوات المسلحة.⁵²¹ فى سنة 1972 تكشف وثائق السفارة الأمريكية غير المبوبة عن إن أحد أعضاء الشباب المسلم قابل مسئولا أمريكيا عدة مرات طلبا للمساعدة، وقدم وصفا مفصلا للأنشطة المناهضة للشيوعية التى تقوم بها جماعته (بما فى ذلك قتل 4 يساريين) وطالب بمساعدة سرية من الولايات المتحدة لشراء مطبعة، ولكن الوقت لم يكن قد حان بعد لتقديم مساعدة مباشرة مما حدا بموظف السفارة إلى رفض

520- الوثائق السرية غير المبوبة - الإدارة الأمريكية - 24 يونيو 1970: قلق رجال الدين الافغان.

521- المرجع السابق ص 73

الطلب مع إظهار تعاطفه مع أهداف الجماعة.⁵²² منذ ذلك الحين بدأت المخابرات المركزية الأمريكية تأخذ موقفا أكثر ايجابية لصالح الإسلاميين الأفغان. قبل ذلك كانت مساعدة المخابرات المركزية متواضعة ومعظمها كان يأتي من خلال منشأة آسيا الى جامعة كابول ومؤسسات أخرى تابعة للقوات الإسلامية. ولكن في سنة 1973 قام الأمير محمد داود بمساعدة الشيوخين بالإطاحة بالملك وأسسوا الجمهورية الأفغانية. واذ فوجئ الحرس بذلك فقد انقسم على نفسه انقسامات مؤسسية على الهوية والايديولوجية ولكن اليمين الاسلامي لم يتحرك في اتجاه معارضة داود صراحة وسرعان ما لقي معينا وافرا من الأصدقاء في الخارج.. سرعان ما تضافرت قوى المخابرات المركزية الأمريكية وباكستان (أولا بقيادة ذو الفقار علي بوتو ثم الجنرال الاسلامي ضياء الحق بالإضافة الى شاه ايران وبدؤوا جهودا مكثفة من اجل اضعاف الحكومة الانتقالية الجديدة، وكان ذلك قبل سنوات من الغزو السوفييتي لأفغانستان اى قبل جهاد الثمانينات بمدة طويلة. غير ان سحب الحرب الإسلامية المقدسة في هذه الدولة الاسيوية مقفولة الحدود كانت تتجمع بالمشاركة الكاملة للمخابرات المركزية الأمريكية. بعد سنوات عدة اعترف مسئول سابق بالحكومة الباكستانية كان يعمل مع ابنة بوتو التي كانت في ذلك الحين رئيسة للوزراء - اعترف بان مساعدة المخابرات المركزية الأمريكية للإسلاميين في افغانستان بدأت مباشرة بعد انقلاب داود سنة 1973. طبقا لأحد المصادر⁵²³ أن " نصير الله بابار المساعد الخاص لرئيسة الوزراء بناظير بوتو صرح في مؤتمر صحفي في ابريل 1989 أن الولايات المتحدة كانت تقوم بتمويل المنشقين الأفغان منذ 1973 وإنها أخذت زعيم الحزب الاسلامي قلب الدين حكمتيار تحت مظلتها قبل عدة شهور من التدخل العسكري السوفييتي".

واعتمادا على ديجو كورديفيز و سيلج هاريسون اللذين يعتمدان على الأرشيفات السوفييتية التي كشف عنها حديثا يصفان بالتفصيل الجهود التي بذلتها كل من الولايات المتحدة وإيران والعربية السعودية وباكستان لتعبئة اليمين الاسلامي داخل افغانستان:

522 - وثائق السفارة الأمريكية في كابول - سرية غير مبوبة 29 مايو 1972 الوضع كما صورته شاب متطرف.

523 - Robert Wirsing, Pakistan Security under Zia, 1977-1988 (New York:1991) p.73, n. 26, "أمن باكستان في ظل حكم ضياء الحق".

"كان ذلك فى أوائل السبعينات وكانت أسعار البترول فى صعود حيث اخذ شاه ايران فى محاولة منه لإرضاء طموحه بإزاحة النفوذ السوفييتى فى الدول المجاورة وإنشاء صيغة جديدة من الإمبراطورية الفارسية.... بدأ منذ 1974 فى بذل جهود كبيرة لجر كابول الى الكتلة الموالية للغرب. كان المجال الذى تركز فيه طهران مساعداتها الاقتصادية والأمنية يشمل الهند وباكستان ودول الخليج.... وكانت الولايات المتحدة تشجع بقوة هذه السياسة التجميعية كجزء من شراكتها الواسعة مع الشاه فى المجال الاقتصادي والأمنى وكذلك فيما يتعلق بالعمل السري فى أنحاء جنوب غرب آسيا.⁵²⁴

كان الهدف الأمريكى الإيرانى الذى تؤيده السعودية وباكستان هو تقوية الجناح اليميني والقوى المحافظة فى حكومة داود المعدلة من أجل جر أفغانستان بعيدا عن الفلك السوفييتى. وطبقا لأقوال كوردفيز وهاريسون:

"كان السافاك والمخابرات المركزية الأمريكية يعملان جنبا الى جنب، أحيانا فى تعاون مرن مع الجماعات الإسلامية الأصولية الأفغانية التى تشاطرهم أهدافهم المعادية للسوفييت ولكن كان لها أجندتها الخاصة كذلك. وكان الأفغان الأصوليون بدورهم على صلة وثيقة كذلك بالإخوان المسلمين فى قاعدتهم بالقاهرة وكذلك برابطة العالم الإسلامى وهى تنظيم قيادي موالى للوهابية الأصولية السعودية.... وعندما ارتفعت أسعار البترول ارتفاعا هائلا بدأ مبعوثون من هذه الجماعات الأصولية العربية الجديدة يتدفقون الى المسرح الأفغانى ومعهم إيداعات ضخمة. ومثلهم مثل السافاك استأجروا مرشدين للكشف عن المتعاطفين مع الشيوعيين فى الحكومة والقوات المسلحة. ويضيف المؤلفان أن المخابرات الإيرانية مدت الجماعات السرية المرتبطة باليمين الإسلامى بالأسلحة وغيرها من المساعدات. وبينما كانت المخابرات السرية الباكستانية تساعد فى تنسيق الهجمات على الأهداف الأفغانية، انخرط السافاك والمخابرات المركزية الأمريكية وعملاء المخابرات الباكستانية فى دعم المحاولات الانقلابية الاجهاضية التى يدبرها الأصوليون الأفغان ضد داود فى سبتمبر وديسمبر 1973 ويونيو 1974.⁵²⁵

فى سنة 1975 شعر الإسلاميون الأفغان أن لديهم القوة اللازمة للقيام بثورة شاملة ضد داود الذى برغم ترده كان لا يزال حليفا للشيوعيين الأفغان. ولكن تم

524- ديجو كوردفيز و سيليغ هاريسون , Out of Afghanistan, 1995, p.15.

525- المرجع السابق ص 16

القضاء على هذه الهبة وقبض على الكثير من المتمردين وتم إعدامهم وهرب آخرون مثل حكمتيار ورباني الى المنافي - باكستان غالبا، حيث بدؤوا يتلقون مساعدات هامة من المخابرات العسكرية الباكستانية. خلال السنوات الأربع التالية طورت المخابرات الباكستانية من علاقتها الوثيقة المتزايدة بتحالف المتمردين الأفغان سيما قلبها الاسلامي. يشير تحليل سري للإدارة الأمريكية الى أن الأزمة في افغانستان سنة 1975 بشكل خاص تربط بين الإخوان المسلمين والمخابرات الباكستانية:

" إن الشيء الذي مر دون أن يلاحظه احد تقريبا في عملية تورط باكستان الرسمية في افغانستان هو حقيقة إن داود كان يضع حدا لمظاهر "تدويل" الإسلام. لقد كان الأفغان المحليون الذين كانوا قادة الحلقة الداخلية للمقاومة، بالإضافة الى كونهم مضللين بالأهداف المزعومة لباكستان، كانوا حسبما تشير التقارير أعضاء في الإخوان المسلمين بينما كان الإخوان المسلمون أنفسهم بدورهم أعضاء في جماعة اكبر يقال أنها أبرمت اتفاقا مع الجنرال جيلاني رئيس المخابرات الباكستانية.⁵²⁶

أما في افغانستان فقد اخذ المتذبذب داود يجنح يمينا متأثرا بضغوط الولايات المتحدة وشاه ايران وباكستان. كان داود خلال الفترة 1970-1978 يراوح موقفه، ويستبعد مسانديه من اليسار ويحتضن الجيش والمؤسسة المحافظة الأفغانية. في سنة 1976 التقى داود مع الشاه ورئيس الوزراء بوتو وبدأ يستجيب للضغوط فيعين الضباط ذوي الاتجاه اليميني وقادة آخرين موالين للغرب ويضعهم في وظائف رئيسية. سنة 1978 بدأت فرق الموت الأفغانية التابعة للحكومة تغتال القادة اليساريين والشيوعيين واستبعد اليساريون والشيوعيون من نظام كابل. تدريجيا أخذت القاعدة التي يستند إليها داود تضعف حتى أصبحت حفنة صغيرة من عصبة من غلاة المحافظين إضافة الى القوات المسلحة. وحسبما يورد كوردفيز وهاريسون كان السافاك وحلفاء السعودية، ومنظمة العالم الاسلامي والإخوان المسلمون، من وراء الستار يتولون السلطة⁵²⁷. أخذت المشكلة تتفاقم حتى ابريل 1978 حينما قام نور محمد طراقي وهو شيوعي بانقلاب موالي للسوفييت ووقع معاهدة صداقة مع الاتحاد السوفييتي، فقام اليمين الاسلامي بمساعدة المخابرات الباكستانية بحملة

526- برقية سرية من السفارة الأمريكية في كابول ، ديسمبر 1975 تقرير آخر العام عن الوضع الداخلي في افغانستان

527- المرجع السابق ص 23

إرهابية اغتال خلالها المئات من المدرسين والموظفين المدنيين وقام بهجمة مماثلة لتلك التي قام بها بول بوت ضد العلمانيين والمتقنين.

كانت الولايات المتحدة تعلم جيدا أن المنظمات الأفغانية التي تقوم بالحملات الإرهابية ضد السوفييت تنتمي إلى الإخوان المسلمين، طبقا للعديد من تقارير وبرقيات السفارة الأمريكية. أحد هذه التقارير الصادرة عن اجتماع السننتو (حلف جنوب شرق آسيا) سنة 1978 يقول صراحة أن " التهديد الأساسي للنظام الجديد يأتي من جانب القبائل وجماعات أخرى مثل الإخوان المسلمين.⁵²⁸ ويلاحظ تحليل آخر في أبريل 1979 أن " المعارضة الصادرة من بعض رجال الدين يمكن أن تكتمل مع الإخوان المسلمين.⁵²⁹ يلاحظ أحد ضباط السفارة الأمريكية في وثيقة محررة في يونيو 1979 بعنوان " الوضع الحالي للمقاومة في أفغانستان " أن أقاليم بأكملها في وسط وشرق وغرب أفغانستان قد وقعت تحت سيطرة المتمردين " ذكرت أن المتمردين يعرفون بأسماء عديدة مثل المجاهدين والإخوان المسلمين. " ولاحظت الوثيقة دونما أي تعليق أن الحكومة الأفغانية كانت تصم المعارضة بأنها "صناعة مللى لندن.⁵³⁰

خلال هذه الفترة حتى بعد قيام الثورة في إيران 1978-1979 أصبحت العلاقات بين باكستان والإسلاميين الأفغان أكثر قوة وكذلك الحال بالنسبة للإسلاميين في باكستان أنفسهم. أسس الجنرال ضياء الحق نظاما يقوم على أساس الشريعة الإسلامية وشجع نمو لجماعة الإسلامية بزعامة " أبو الأعلى المودودي ". وبينما كان أية الله الخميني مشغولا بإقامة الجمهورية الإسلامية في طهران، كان برجنسكي والمخابرات المركزية الأمريكية يزرعان جيشهما اليميني الإسلامي في أفغانستان. ولكن ذلك لم يكن مجرد استراتيجية أفغانية. لقد كان برجنسكي يركز جهوده للتخطيط لوضع النظرية الكاسحة لمدرسة بنيجيسين الخاصة باستخدام اليمين الإسلامي كسلاح ضد الاتحاد السوفييتي نفسه.

528- برقية إلى السفارات الأمريكية في الشرق الأوسط ، يونيو 1978- وثائق سرية غير مبوبة " اجتماع المندوبين في مجلس حلف السننتو .

529- بروس أمستوتز تحليل سرى خاص بالإدارة الأمريكية

530- برقية يونيو 1979 عن الوضع الحالي للمقاومة في أفغانستان

جيش برجنسكى وبيل الاسلامى

فى حديثه مع مجلة لونوفيل اوبزرفاتير الفرنسية سنة 1998 يكشف برجنسكى سرا وراء سر، فيقول ان مساعدة المخابرات المركزية للمجاهدين فى افغانستان بدأت قبل وليس بعد الغزو السوفييتى:

" وفقا للتاريخ المتعارف عليه رسميا بدأت مساعدات المخابرات المركزية الأمريكية للمجاهدين خلال 1980 أى بعد ان غزا الجيش السوفييتى افغانستان فى 21 ديسمبر 1979. ولكن الحقيقة التى نعتبرها من الإصرار حتى الآن تختلف عن ذلك تماما. صحيح انه فى يوليو 1979 وقع الرئيس كارتر توجيهه الأول بان تساعد سرا معارضي نظام كابول الموالى للسوفييت. فى ذلك اليوم كتبت مذكرة الى الرئيس أوضحت فيها وجهة نظري بان هذه المساعدة سوف تدفع السوفييت للقيام بتدخل عسكري.⁵³¹ غير ان وراء هذا السر بطبيعة الحال يكمن سر آخر، وهو ان الولايات المتحدة أصبحت منخرطة فعلا مع اليمين الاسلامى فى افغانستان والشرق الأوسط خلال السبعينات. وبالإضافة فان الحرب الأفغانية المقدسة بدأت بالفعل ليس سنة 1980 حينما عبرت القوات السوفييتية الحدود وليس سنة 1979 حينما بدأت مساعدات المخابرات المركزية تتدفق ولكن سنة 1978 حينما بدا اليمين الاسلامى الافغانى هبة منظمة بمعاونة الباكستانيين بدءا من الشمال الشرقى لأفغانستان. وفى مارس 1979 بدأ النصف الغربى من افغانستان الانفجار سيما فى هيرات وهى عاصمة إقليمية فى الغرب مجاورة لإيران. إذ قامت منظمة إسلامية متشددة مرتبطة بإسماعيل خان أمير الحرب وبمساندة جمهورية ايران الإسلامية، قامت بذبح أعداد كبيرة من موظفي الحكومة الإيرانية كما تعرض للذبح اكثر من 12 من المستشارين الروس و زوجاتهم وأطفالهم. خلال هذه الفترة كانت الولايات المتحدة تحتفظ بعلاقات مع الجيش الايرانى وجهاز مخابراته ومع حكومة ايران الجديدة برئاسة بازرجان وكانت المخابرات المركزية الأمريكية تمد ايران بالمعلومات حول الاتحاد السوفييتى والعراق وافغانستان، كان هناك تعاون عسكري استمر حتى الاستيلاء على مقر السفارة الأمريكية فى طهران بواسطة عملاء الخميني فى ديسمبر 1979. فى مارس 1979 أكملت المخابرات المركزية أول عرض رسمي لها بالمساعدة المباشرة لاسلامى افغانستان فى تزامن مع التمرد فى هيرات. طبقا

531- مقتطفات من حديث برجنسكى إلى صحيفة لانوفيل اوبزرفاتير - 15 - 21 يناير 1998

لجيتس كان البعض في المخابرات المركزية الأمريكية يعتقد ان تورط الاتحاد السوفييتي في افغانستان سوف يشجع على استقطاب مشاعر المسلمين والعرب ضد الاتحاد السوفييتي" ليس ذلك فحسب. فهناك جانب عملي أيضا فقد مسحت المخابرات المركزية افغانستان بوصفها موقعا يمكن ان يحل محل المواقع الموجودة في إيران كمراكز استماع للمخابرات الأمريكية حتى سنة 1979 حسبما يقول جيتس.⁵³² في بداية 1979 بدأت الولايات المتحدة تدرس إرسال مساعدات فعالة وسرية الى الجهاديين، وطالبت كل من باكستان والعربية السعودية الولايات المتحدة بالمزيد من التدخل. "في العربية السعودية تتبأ احد كبار المسؤولين بتراجع الاتحاد السوفييتي في افغانستان وقال ان حكومته تدرس التقدم بشكل رسمي الى الولايات المتحدة باقتراح تقديم مساعدات الى المتمردين."⁵³³ وبالرغم من ذلك كان بعض المحليين الأمريكيين بمن فيهم بعض العاملين في المخابرات المركزية، كانوا يرون ان تقديم مساعدات مباشرة من أمريكا لمساعدة الأفغان المتمردين يمكن ان يدفع الاتحاد السوفييتي الى مهاجمة باكستان ونشوب أزمة عالمية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ولكن حكومة الولايات المتحدة مضت قدما. اتصلت المخابرات المركزية الامريكية بالعربية السعودية وباكستان فيما يتعلق بتقديم مساعدة الى المتمردين الأفغان وقام الرئيس كارتر كما يؤكد برجنسكي في يوليو سنة 1979 بتوقيع القرار الرئاسي الأول أي إيجاد طريقة لتقوم المخابرات المركزية الامريكية بإمداد اليمين الاسلامي بالمساعدات "غير القائلة" بما في ذلك أجهزة الاتصال.

في حديثه الى مجلة لونغويل اوبزرفاتير يقر برجنسكي انه كان يقصد من وراء كل هذا استفزاز السوفييت ليقوموا بغزو افغانستان، بالرغم من انه بعد ان حدث ذلك، أعرب المسؤولون الأمريكيون عن صدمتهم ودهشتهم. يقول برجنسكي: "إننا لم ندفع الروس الى التدخل ولكننا عن قصد كنا نزيد من احتمالات ان يفعلوا ذلك". وحينما سئل إذا ما كان له ان يستعيد الماضي، فهل يندم على مساعدته الإسلاميين الأصوليين وعلى إمداد الإرهابيين بالسلاح والتدريب؟ وكانت إجابته:

"ما هو الأكثر أهمية بالنسبة لتاريخ العالم؟ طالبان ام انهيار الإمبراطورية السوفييتية؟ ان يقوم البعض بإثارة المسلمين أو تحرير أوروبا الوسطى ونهاية الحرب الباردة؟ الآن - موجهها الحديث الى الرئيس كارتر سنة 1979 - تستطيع ان تعطى الاتحاد السوفييتي الحرب الفيتنامية."⁵³⁴

532- جيتس Gates ص 132

533- المرجع السابق ص 144

534- المرجع السابق

مع نهاية سنة 1979 أصبح أكثر من ثلاثة أرباع أفغانستان في ثورة علنية. قبيل عيد الميلاد هاجم الجيش الأحمر أفغانستان ليحمي الحكومة الأفغانية المحاصرة. واحدة من ألعيب الجهاد الأمريكي في أفغانستان أنها سمحت منذ البداية للمخابرات الباكستانية وللجنرال ضياء الحق أن يضبط توزيع المعونة على المجاهدين الأفغان. كتب ستيف كول وهو صحفي وكتابه "حروب الأشباح" يصف بشكل دقيق الجهاد في أفغانستان. كتب يقول: "كان ضياء الحق يريد أن يجلب المساعدات وأن تكون له السيطرة على أسلحة وأموال المخابرات المركزية. وأصر على أن كل سلاح وكل دولار مخصص للمجاهدين يجب أن يمر أولاً عبر أبدى باكستانية.... هو الذي كان يقرر أي نوع من حرب العصابات هي التي تفيد.... ولكن المخابرات المركزية الأمريكية وافقت على وجهة نظر المخابرات الباكستانية بقليل من عدم الرضاء"⁵³⁵ وقد حدث أن الأمير تركي آل فبصل الذي كان يرأس وقتئذ الإدارة العامة للمخابرات السعودية زار واشنطن وقابل برجنسكي والمخابرات المركزية ووافق على أن يدقق مساهمات الولايات المتحدة للجهاديين الأفغان (على داير ملين). ولكن ما ظهر أنه كان هناك تحالف بعد سنة 1980 بين الجنرال ضياء الحق والإسلاميين في باكستان من جانب وسلسلة مترابطة تتكون من الحكومة السعودية وشبكة خاصة من المخابرات السعودية ومنظمة العالم الإسلامي إلى أسامة بن لادن من جانب آخر. لسنوات عديدة كانت هناك علاقة وثيقة بين السعودية وباكستان بما في ذلك روابط عسكرية وثيقة، قوات باكستانية ومتطوعون أرسلوا للمساعدة في حماية العائلة المالكة السعودية وتدريب للقوات السعودية وغيرها من دول الخليج، تعود إلى الستينات. كان ضباط الجيش الباكستاني على سبيل المثال يدرّبون جيوش السعودية ودول الخليج. أحد هؤلاء الضباط هو الجنرال ضياء الحق.⁵³⁶ وبالإضافة ففي السبعينات كان بوتو أولاً ثم ضياء الحق بعده يعتمدان على المعونة السعودية سيما منذ الزيادات التي طرأت على أسعار بترول دول الأوبك خلال الفترة 1973-1974 مما تسبب في نضوب الخزائن الباكستانية من العملة الصعبة التي تمكنها من شراء البترول. ولكن المساعدة السعودية جاءت ومعها قيود. أن يكون نمو الإسلاميين في باكستان مرتبطاً بشكل مباشر بالمساعدة السعودية لإسلام أباد.

535- ستيف كول Steve Coll حروب الأشباح (New York 2004) Ghost Wars ص 63

536- شيرين حنتر مستقبل الإسلام والغرب

بالنسبة للولايات المتحدة كان التحالف السعودي الباكستاني في صالح الولايات المتحدة ما دام الطرفان حلفاء مخلصين للولايات المتحدة ويمكنها الاعتماد عليهما سيرا على خطاهما في حصار الاتحاد السوفييتي. ولكن الحقيقة ان البلدين وان كان لهما دوافع متماثلة الا أن مشروعاتهما الكبرى كان يتم تجاهلها من قبل إدارة كارتر ثم ريجان اللذين كانا يتطلعان الى إغراق الاتحاد السوفييتي في معركة أفغانستان الدامية أيا كان الثمن. كانت باكستان تهتم دائما بعدوها الرئيسي الهند، وكانت ترى في أفغانستان عمقا استراتيجيا لها وحليفا لها في شبه القارة الهندية ضد نيودلهي، كما كان الجنرال ضياء الحق يتطلع الى قيام "باكستان الكبرى". أما العربية السعودية فقد كان لها هي الأخرى أهدافها الخاصة وكانت ترى في الصراع في أفغانستان جزءا من المنافسة الأبعد مدى بينها وبين إيران الذي كان نظامها الشيعي الاصولي يهدد العراق ودول الخليج. كانت العربية السعودية تنظر الى أفغانستان واسيا الوسطى كميدان لمعركتها مع إيران وترى دعم الوهابيين والسنة الأصوليين في أفغانستان وما وراءها لتضعف إيران.

احتضن برجنسكي ثم كيزي من بعده المحور الباكستاني - السعودي. في باكستان كان قلب الدين حكمتيار الاسلامي الجهادي الذي يطلق على جماعته اسم "الحزب الاسلامي" ويتمتع بسمعة اكتسبها باعتباره متعصبا وحشيا: "كان قلب الدين حكمتيار محببا الى قلب ضياء الحق والمخابرات الباكستانية. ومثله مثل غيره من قادة المجاهدين كان يعمل مع المخابرات الباكستانية منذ أوائل السبعينات. وعندما بدأت باكستان تساند سرا الطلبة الأصوليين في جامعة كابل (الذين كانوا يناوئون النفوذ السوفييتي في الحكومة الأفغانية، في ذلك الحين كان قلب الدين حكمتيار جزءا حميما من الموجة العالمية للإسلام الراديكالي. بكل الحسابات كان مسئولا عن إلقاء الأحماض على وجوه النساء الأفغانيات اللاتي لم يقمن بتغطية أنفسهن بالشكل اللائق.⁵³⁷ وكانت هواية حكمتيار هي سلخ السجناء إحياء.⁵³⁸ سماه المجددي - وهو اسلامي اقل راديكالية - سماه: "وحش حقيقي"⁵³⁹ يلاحظ شارلس ولسون وهو نائب جمهوري عن تكساس وكان يقود الداعين الى دعم المجاهدين الأفغان في الكونجرس، يلاحظ ان ضياء الحق ينتمي كلية لحكمتيار لان ضياء الحق كان يرى ان العالم هو صراع بين المسلمين والهندوس وانه يرى انه يمكن الاعتماد

537- جورج كريل George Crile حرب شارلي ولسون نيويورك 2003 ص 222.

538 - المرجع السابق.

539- المرجع السابق ص 212.

على حكمتيار للعمل من اجل وحدة إسلامية شاملة تكون قادرة على مواجهة الهند⁵⁴⁰

كان حزب حكمتيار الاسلامي واحدا من بين 6-8 أحزاب أفغانية قادت المقاومة ضد السوفييت. كان أكبرها ومشهور عنه ان لديه أشرس المقاتلين وازداد عددا بعد اتصاله بالمخابرات المركزية الأمريكية. يقول احد مسئولى المخابرات المركزية ممن شاركوا في الإشراف على الجهاد:

" في البداية لم نكن نظن انه سيهزم السوفييت، ولم نكن نرغب ان نقتل من الروس أكبر عدد ممكن، لكن كان يبدو ان حكمتيار هو الرجل الذي يمكنه ان يقسم بذلك.⁵⁴¹

"كذلك فان ضباط المخابرات المركزية في قسم الشرق الأدنى الذين كانوا يديرون البرنامج الافغانى اعتبروا حكمتيار كأفضل واحد من حلفائهم الذين يمكن الاعتماد عليهم وأكثرهم فعالية." وطبقا ل "كل" Coll

"كان حكمتيار على الاقل يعرف من هو العدو - هكذا كان ضباط المخابرات المركزية الأمريكية يطمنون أنفسهم⁵⁴²

أما بالنسبة لهؤلاء من أمثال كافري وبرجنسكى الذين كانوا يرون ان افغانستان هي مفتاحهم لاختراق الاتحاد السوفييتى فى جمهورياته الإسلامية، فان لحكمتيار جاذبيته هو الآخر سيما وانه يريد ان يمد الحرب الى ما وراء افغانستان. يرى " ديليب هيرو" ان حكمتيار يتحدث عن القيام بهجمات فيما وراء "نهر اوكساس" فى وسط آسيا السوفييتية وان يهزم الشيوعية بتحرير الارض الإسلامية فى بخارى وطشقند ودوشانبي⁵⁴³

أما الشخص المحبب لدى السعودية فهو عبد الرسول سيف قائد الإخوان المسلمين الأفغان.

مع تطور الحرب يبرز حكمتيار وسيف باعتبارهما القادة الأفغان الأشبه بالفرق الأجنبية ومعظمهم من العرب المقاتلين الذين انطلقوا الى افغانستان للحاق بالجهاد. بنهاية ثمانينات القرن سيكون هناك من يطلق عليهم "الأفغان العرب" الذين

540- كوردوفيز وهاريسون 162 Cdoez and Harrison

541- مسئول سابق فى المخابرات المركزية الامريكية -مقابلة مع المؤلف مارس 2004

542 - Coll كول ص ص 120-121

543- ديليب هيرو الحروب المقدسة - نيويورك 1989 ص 259

يتخرجون ليكونوا قادة الميليشيات والإرهابيين الإسلاميين في مصر والجزائر والعربية السعودية والعراق وغيرها بما في ذلك الشيشان وأوزبكستان. وبرغم أن حكمتيار وسياف ليسا حلفاء إلا إنهما قريبان من بن لادن، الذي بدأ صعوده إلى القمة منذ 1979-1980 حينما تم تسجيله في الجهاد الأفغانى:

حينما كان حكمتيار في المنفى في باكستان، جمع حوله أكثر الإسلاميين راديكالية ومعاداة للغرب بالإضافة إلى الإسلاميين الأمميين المنخرطين في الجهاد بمن فيهم بن لادن وغيره من العرب الذين جاءوا متطوعين.⁵⁴⁴

وهكذا تم إعداد المسرح للمواجهة الكبرى بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي في أفغانستان. في باكورة الثورة الإيرانية مضت الولايات المتحدة قدما في حلمها الشيطاني بحشد الكتلة الإسلامية ضد الاتحاد السوفييتي، موجهة باكستان والعربية السعودية ومصر إلى معركة في جبال آسيا الوسطى المنعزلة. وهرع مئات الألوف من الجهاديين مفعمين بنار الحرب المقدسة إلى المعسكرات عبر الحدود الأفغانية الباكستانية قادمين من شتى أنحاء الأرض. لم يكن لدى الولايات المتحدة سوى القليل من الإدراك بنوعية القوى التي تطلقها. ولكن هذا لم يمنع إدارة ريجان من دفع الحرب في أفغانستان إلى داخل الاتحاد السوفييتي نفسه ومحاولة أن تدرج الخميني في إيران على قائمة الجهاد.

*

الفصل الحادى عشر

الجهاد الثانى : داخل آسيا الوسطى

حينما بدأ الجهاد فى افغانستان سنة 1979 برعاية الولايات المتحدة فإنه كان يأخذ مكانه خلال اكثر فترات التحول حرجا فى تاريخ الإسلام السياسى .

منذ 1945 حتى 1979 بدا اليمين الاسلامى ملتصقا بالغرب وضد الشيوعية فى معسكر الحرب الباردة. خلال هذه الفترة كان من المفهوم لدى الكثير من المحليين أن يروا الإسلام السياسى شيئا لطيفا وانه إذا لم يكن مواليا لأمريكا فإنه على الأقل يتعاطف مع السياسة الأمريكية وأهدافها الاقتصادية فى المنطقة. فى جبال افغانستان كان الملاى الشرسين يعبرون عن كراهيتهم للشيوعية، فى الصحراء السعودية كانت المؤسسة الوهابية تهدر ضد قوى اليسار والقومية، فى شمال إفريقيا والشرق الأوسط وباكستان وفى الحرم الجامعى فى كابول وإسلام أباد الى بغداد والقاهرة كان الإخوان المسلمون يشتبكون مع العلمانيين ويخطبون ضد الماركسية.

منذ سنة 1979 بدأت الأشياء تتغير. كانت ثورة آية الله الخميني فى إيران تتحدى المصالح الأمريكية فى الجبهة الأمامية. وأكثر من هذا أن اليمين الاسلامى اخذ ينشر الهجمات الإرهابية المميتة التى تهاجم مصالح الولايات المتحدة والقادة الموالين للغرب بدءا من الجامع الكبير فى مكة الى أنور السادات الى الاستعدادات الإرهابية لحزب الله فى لبنان.

كانت الولايات المتحدة جد بطيئة فى استخلاص الدروس من هذه التطورات. فاولا فشلت فى تركيز الموارد على الإرهاب الاسلامى بعد 1979 بالرغم من النداءات التى وجهها بعض الزعماء العرب مثل الرئيس المصري حسنى مبارك. والأكثر أهمية أن الولايات المتحدة فشلت فى أن تدرك الدرس الأكبر وهو: أن اليمين الاسلامى لم يكن فقط معاديا للشيوعية ولكنه معارض اصولى للغرب ولأقرب شركائه فى الشرق الأوسط أى العلمانيين والوطنيين الديمقراطيين.

وبالرغم من تصاعد الشواهد على أن اليمين الإسلامى لم يكن فقط معاديا للشيوعية ولكنه معارض اصولى للغرب ولأقرب شركائه فى الشرق الأوسط أى العلمانيين والوطنيين الديمقراطيين.

وبالرغم من تصاعد الشواهد على أن اليمين الاسلامى كان حليفا شيطانيا خطرا فان إدارة ريجان شاركت فى الجهاد.

لعله من الصعب تصور مجال التحالف الاميركى الاسلامى الآن فى غمرة ما تطلق عليه إدارة بوش الحرب على الإرهاب ضد القاعدة وأمثالها، ولكن مثلما حدث سنة 1953 حينما دلف سعيد رمضان عضو الإخوان المسلمين الى المكتب البيضاوي ليقابل الرئيس أيزنهاور، وفى سنة 1981 حينما تابع مسئولو الأمن القومي ومحترفو المخابرات التابعين لريجان ضيقو الأفق الذين ينتمون فى غالبيتهم الى المحافظين الجدد - حينما اقتفوا مدفوعين بروح النثار خطى الجهاد الافغانى، نفس هؤلاء المحافظين الجدد هم الذين يقودون اليوم هجمة "الصدام بين الحضارات" بنفس أسلوب الحرب على الإرهاب ويضغطون بأقصى ما وسعهم من جهد من اجل التحالف مع الإسلاميين الأفغان وفى نفس الوقت يحاولون مرارا التوصل الى صفقة مع آيات الله فى طهران.

إن تحالف الولايات المتحدة مع اسلامى الثمانينات كان ينظر إليه باعتباره حصافة. فى الفترة من 1979-1982 اعتبرت إدارة كارتر وريجان انه يوجد تهديد من جانب اليمين الاسلامى ولكنها قررت أن تتجاهله.

بعد الثورة الإيرانية عقد موظفو إدارة ريجان اجتماعا موسعا لتحليل الإسلام السياسى، كان يجمع اخصائى الإدارة ومحلى الاستخبارات وبعض السفراء من الشرق الأوسط. "كان هناك مجهود تحليلي كبير" كما يقول هارولد سوندرز الذى كان سكرتيرا مساعدا لشئون الشرق الأدنى فى الإدارة الأمريكية وكان يركز على الدول العربية المحافظة والنظم الملكية:

"كان التركيز الأساسي هو أن نتفهم ما إذا كان ممكنا أن يحدث ذلك فى الأردن أو مصر أو السعودية أم انه أمر يخص إيران وحدها." طبقا لسوندرز وغيره من المسؤولين و من ضباط المخابرات، فان ما يمكن استخلاصه هو أن هذا الإسلام السياسى ليس أمرا يخشى تهديده. يقول سوندرز: "لقد أدركنا انه سوف يكون هناك تضبيب للإسلام السياسى" إن المسألة هي ما إذا كان ممكنا للحكومات القائمة أن تتعامل معه؟ وقد قمت بالضغط بشدة على السعودية ولم استطع أن أجد من يقول لي أن العربية السعودية سوف تسقط. فى نفس الوقت كنا نعتقد بالنسبة لمصر أن السادات يمكنه أن يتعامل مع هذا الأمر." 545

545- مقابلة مع المؤلف مارس 2004 هارولد سوندرز Harold Saunders.

بالتأكيد لم يبذل أى مجهود لإثاء السعودية عن الاستمرار فى سياستها الخارجية طويلة الأمد التي تعتمد على اليمين الاسلامى. ولم يبذل أى جهد لإثاء السادات عن استرضاء الإخوان المسلمين. ولم يبذل أى جهد لإثاء إسرائيل والأردن عن الاستمرار فى سياستهما المساندة لحملة الإخوان المسلمين الإرهابية ضد سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية. وبطبيعة الحال فان الولايات المتحدة استسلمت للجنرال ضياء الحق فى باكستان الذى كان نظامه مرتبطا بالإخوان المسلمين والمخابرات الباكستانية وكانوا ينظمون الجهاد الافغانى. يقول سوندرز: "جملة القول أن حركة الإخوان المسلمين كان ينظر إليها بوصفها قوة يمكن أن تحتويها الحكومات القائمة. ولم يبذل أى جهد حقيقي لإدراك أن هذه الحكومات قد يمكن تغييرها أيا كان تأثير ذلك على المجتمعات التي تسيطر عليها هذه الحكومات، ولا كيف أن هؤلاء الإسلاميين منظمون عبر الحدود الدولية. واستمر واضعو السياسة فى اعتقادهم بأن الإسلاميين على قدر من التفريق بما لا يستدعى معاملتهم على أساس عالمي وأصروا على التعامل معهم على أساس كل حالة على حدة تختلف من بلد الى آخر. حسبما يذكر سوندرز:

"لقد انتهينا الى نتيجة انه لا يمكن أن تكون لنا سياسة تجاه الإسلام السياسي" 546

فى بداية الثورة الإيرانية كانت هناك توجيهات مختصرة من واشنطن الى فروع المخابرات المركزية فيما وراء البحار لتقدم تقييما لآثار الثورة الإيرانية. وكان تحليل الانطباعات الذى أجرى فى المخابرات المركزية وفى الإدارة يدور حول البلاد التي يمكن أن تتهددها ثورة الخميني وانتهت الى أن احتمالات هذا التهديد تبدو ضعيفة. وطالما أن الأنظمة الموالية للولايات المتحدة ليست فى خطر، فما من احد من المسؤولين عنى بأن يدق جرس الإنذار لينبه الى القوة المتنامية لليمين لإسلامى وآثار ذلك بالنسبة للدول التي ابتليت به أو الى احتمال تحول الإسلاميين الأصوليين ضد الولايات المتحدة. يقول احد مسؤولي المخابرات المركزية الذى كان يعمل فى المغرب: "فى البداية كنا نظن انه سوف ينتشر وانسه سوف يغزو المغرب والأردن والعربية السعودية حيث كانت الأنظمة الملكية قد تخطاها التاريخ ولكن عندما ذهبت الى المغرب لم أجد شيئاً من هذا. كانت هناك حركة إسلامية صغيرة." فى الكتيب الارشادى عن المغرب الذى أعدته المخابرات

المركزية وجدت ثماني صفحات عن الإسلام والسياسة. سأعرض الأمر على مرويوسي من الضباط. سأقول لهم خذوا الأمر ببساطة، وعندما يتحدثون مع أحد الإسلاميين قولوا له: لا أفهم هذا أو ذاك ثم استمع.⁵⁴⁷ كانت النتيجة التي توصلنا إليها في المغرب مثلما كانت في أماكن أخرى، انه ليس هناك ما يخشى منه.

في المخابرات المركزية الأمريكية، تعتبر مارتا كيسلر أحد المحللين القلائل الذين يثابرون على الاهتمام بالإسلام السياسي والإخوان المسلمين. وهو الأمر الذي يفتقده، حسبما تقول كثير من العاملين بهذا الجهاز أثناء عملهم الميداني، ذلك أن معظم الإسلاميين الجهاديين يباشرون نشاطهم التنظيمي تحت المراقبة الرادارية. "كان لدينا نظام يعود إلى زمن الحرب العالمية الثانية لا يسعف موظفينا إلا في حدود المدن الرئيسية، ولكن الحركة الإسلامية لم تكن تعمل في هذه المدن وإنما تباشر نشاطها في الأقاليم وفي المدن الصغيرة" وكان من رأيها أن هذه الحركة تأخذ طابعا معاديا للولايات المتحدة. في ذلك الوقت كتبت تحليلا تحذر فيه بأنه إذا قامت حكومات بلدان مثل مصر والسودان وباكستان باللعب مع الإسلاميين فإن العواقب ستكون وخيمة. "لقد ذكرت انه إذا أخذت الحكومات في المنطقة تعمل من أجل التعاون مع الإسلاميين فإن ذلك سوف يؤدي إلى تغيير سلوكيات هذه الحكومات، وتضيف "لقد كنت من المدرسة التي تقول بان هذا من شأنه إن يجعل لهجتها معادية للغرب.⁵⁴⁸ غنى عن البيان أن تحليل كيسلر لم يثن واضعي السياسة الأمريكية عن تأييد الجهاد الأفغاني.

نفس وجهة النظر هذه كانت هي السائدة بين المحترفين من المسؤولين الحكوميين المناهضين للإرهاب. يذكر روبرت باير وهو مسئول تنفيذي سابق بالمخابرات المركزية: "بعد اغتيال السادات كنت في مركز مقاومة الإرهاب، وعثرت على بعض الوثائق، بعض مخطوطات محاكمة قتلة السادات، وبدأت أتساءل: من هم هؤلاء الناس؟ ما هو برنامجهم؟ ما هي اتصالاتهم؟ وبدأت أبحث الوثائق المتعلقة بالإخوان المسلمين. ولكن لم يكن في ذهننا أن نتابع هؤلاء الأشخاص.⁵⁴⁹

كان السادات يستخدم الإخوان المسلمين ومواردهم المالية من شبكة البنوك الإسلامية ليحكم قبضته على السلطة بعد أن أصبح رئيسا لمصر سنة 1970، كان أقل الناس حذرا من مدى خطورة اليمين الإسلامي. والتحق السادات بحماس، بعد

547 - مسئول سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية 0 مقابلة مع المؤلف مارس 2004

548 - مارتا كيسلر - مقابلة مع المؤلف - ابريل 2004

549 - روبرت باير - مقابلة مع المؤلف مارس 2004

أيام قليلة من الغزو السوفييتي لأفغانستان، التحق بالولايات المتحدة والعربية السعودية وباكستان بإرسال المجاهدين الى يشاور والحرب. وهكذا اتسع الجهاد في افغانستان ليأخذ مداه كحرب شاملة. وقام فريق ريجان المشغول بالحرب الباردة بعقد صفقة مع آيات الله في إيران سنة 1980. وغض الطرف عن قيام إسرائيل بإمداد إيران بالسلاح من 1980-1987 وأعطى نظام الخميني سرا معلومات استخباراتية عن اليسار الإيراني وأخيرا في محاولة منه للعثور على إسلاميين معتدلين باع إيران صفقة أسلحة أمريكية- فيما يعرف بمسألة إيران- كونترا.

العرب الأفغان

الحرب في افغانستان قام بها في معظمها المجاهدون من تحالف مشكل من قوى متعددة بمساعدة باكستان وجرت في معظمها بأسلوب حرب العصابات ذات العلاقة بأربع من المنظمات الأصولية. يقول مسئول سابق في المخابرات المركزية الأمريكية ممن كانوا مكلفين بالقيام بعمليات سرية: "في افغانستان كان يوجد حوالي 300 ألف مقاتل كلهم - باستثناء 15 ألفا من المعتدلين - كانوا إسلاميين.⁵⁵⁰ كانت غالبتهم العظمى من الأفغان ولكن بعضهم كان من الجهاديين الذين توافدوا الى المعركة من أجزاء مختلفة أخرى من العالم سيما من مصر والأردن والعربية السعودية ودول الخليج. كان هؤلاء هم "الخامة" بالنسبة لأسامة بن لادن وتنظيم القاعدة الذي نشأ من بطن الجهاد. وهؤلاء الذين يطلق عليهم "العرب الأفغان" يضمون بن لادن نفسه وأيمن الظواهري من الجهاد الاسلامي وهو الشخصية الثانية في تنظيم القاعدة وعشرات الآلاف من الجهاديين من الدول العربية واندونيسيا والفلبين والشيستان وآخرين من كافة أرجاء العالم الاسلامي.

كانوا هم الذين شكلوا بنية حرب العصابات، الذين بعد انتهاء الحرب الأفغانية عادوا الى مواطنهم الأصلية في الجزائر ومصر ولبنان والسعودية وآسيا الوسطى لمتابعة الجهاد بعد أن تعلم الكثيرون منهم بطبيعة الحال فنون الإرهاب - الاغتيال، اسر الرهائن، السيارات المفخخة على يد مدربين من الولايات المتحدة وحلفائها.

في يناير 1980 زار برجنسكي مصر ليحشد التأييد العربي للجهاد. في خلال أسابيع من الزيارة أذن السادات بالمشاركة الكاملة لمصر في الجهاد وأعطى الإذن

550- مسئول سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية 0 مقابلة مع المؤلف مارس 2004

للطيران الحربي الامريكى باستخدام مصر كقاعدة لتوريد شحنات كبيرة من الأسلحة الى المتمردين وتجنيد وتدريب وتسليح نشطاء من الإخوان المسلمين للمعركة. وطبقا لـ "جون كولى" اصبح السادات وحكومته لفترة، _جاويشية وقادة وحدات للجيش السرى من المتحمسين الذين حشدوا لمحاربة السوفييت فى جنوب ووسط آسيا⁵⁵¹ وقامت طائرات الشحن الأمريكية من قنا وأسوان فى مصر تحمل المؤن الى قواعد المجاهدين فى باكستان. وطبقا لجون كولى " أدخلت تعديلات مصرية على الأسلحة السوفييتية السابق إرسالها الى مصر حتى يتسنى إرسالها الى المجاهدين. فى الحال حول مصنع قديم للأسلحة فى حلوان لإمداد المجاهدين بهذه النوعية من الأسلحة.⁵⁵²

ولكن مصر وغيرها من البلاد العربية لم تكن ترسل إمدادات الأسلحة فقط، فعدد من بلاد العالم الاسلامى رأت أنها سوف تكون ساذجة إذا أرسلت مجرد مجاهدين إسلاميين ليحاربوا فى افغانستان، ربما ظنوا أنهم سوف يصيبون عصفورين بحجر واحد فمن ناحية يحوزون على رضا الولايات المتحدة التى كانت تبحث عن مجندين ومن ناحية أخرى فإنها سوف تتخلص من بعض المشاغبين. والسادات مثله مثل غيره من القادة ربما شعر أن معظمهم سوف يلقي حتفه أثناء الجهاد: "أخلت الحكومات الإسلامية سجونها وأرسلت هؤلاء الأولاد الأشرار الى هناك.⁵⁵³ غير أنهم لم يشحنوا على الطائرات وعلى ظهر السفن الى افغانستان فحسب بل وتلقوا تدريبات متخصصة على يد خبراء القوات الخاصة الأمريكية. يكتب كولى: "بنهاية سنة 1980 أرسل الى مصر مدربون عسكريون لنقل خبرات القوات الأمريكية الخاصة الى هؤلاء المصريين الذين بدورهم سوف ينقلون هذه الخبرات الى المتطوعين المصريين الذين سيطيرون لمساعدة المجاهدين فى افغانستان.⁵⁵⁴

أما البريطانيين فقد كانت افغانستان بالنسبة لهم ملعبهم الذى مارسوا فيه لعبتهم الكبرى فى القرن التاسع عشر وكانت لهم علاقات كولونىالية قديمة بباكستان ولهم تاريخ طويل فيما يختص بالتعامل مع القبائل والقادة الاثنيين فى منطقة باكستان-افغانستان.

551- جون كولى الحروب غير المقدسة ص ص 31-32

552- المرجع السابق ص 32

553- مسئول سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية 0 مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

554- كولى ص 32

جس افراكوتوس احد المسؤولين فى المخابرات المركزية الأمريكية الذين عملوا عن قرب عدیدا من السنوات مع المجاهدين فى افغانستان، اعد تقريراً يذكر فيه: "لدى البريطانيين أشخاص عديد ون عاشوا هناك لمدة عشرين عاماً كصحفيين ومؤلفين أو زراعاً للتبغ، وحينما هاجم السوفييت افغانستان قامت المخابرات البريطانية بتفعيل هذه الشبكة القديمة." ويضيف قائلاً:

"كان البريطانيون قادرين على أن يشتروا ما لم نكن قادرين على شرائه لأنه يتعلق بأشياء محرمة دينياً أو أخلاقياً كالجرائم، الاغتيالات، التفجيرات. كان يمكنهم شراء بنادق مجهزة بكاتم الصوت مثلاً وهو ما لم يكن بإمكاننا شراءه لأن كاتم الصوت يعنى الاغتيال-والعربات المفخخة التي حرمتها تعاليم السماء!. لم يكن هناك ثمة ما يقترح ولكن كان يمكنني أن أقول للبريطانيين: "فضل الله القائد الشيعي الراديكالي في بيروت كان فعالاً هذا الأسبوع فقد فجر سيارة مفخخة قتلت 300 شخصاً." يمكنني أن أعطي المخابرات البريطانية أم آى 6 درساً في العقيدة أما ما يفعلونه بها فهو شأنهم الخاص.⁵⁵⁵

كثير من هذه التدريبات على الاغتيالات والسيارات المفخخة وأمثالها وجدت طريقها الى المتطوعين العرب الذين سرعان ما أصبحوا الأساس الذي قام عليه تنظيم القاعدة. بعض المجاهدين كانوا مدربين على تنظيم التقنيات البسيطة مثل النوع الافغانى من العربات المفخخة. يشير "ستيف كل" الى انه "تحت إدارة المخابرات الباكستانية تلقى المجاهدون تدريبات على استخدام المتفجرات فى الطرق لتدبير الهجمات فى المدن التي يحتلها السوفييت بعربات أو حتى بجمال مفخخة مصممة لقتل الجنود والقادة السوفيت. وبارك كيزى (مدير المخابرات المركزية) هذه التقنيات برغم الاعتراض المهني من جانب بعض الضباط فى المخابرات المركزية.⁵⁵⁶ على أن ضحايا هذه التفجيرات لم يكونوا الجنود السوفيت فقط. على سبيل المثال قام المجاهدون بتوسيع المعارك التي طالت جامعة كابول خلال الستينات والسبعينات وانفجرت حقيبة مفخخة تحت مائدة فى حجرة الطعام بالجامعة.⁵⁵⁷ وكان تعليق كيزى "انه مجرد عمل صرف، إذا كنا نخشى أن نضرب الإرهابيين لأن شخصاً ما سوف يصيح (اغتيال) فان هذا لن يتوقف."⁵⁵⁸ وسرعان

555- جورج كريل - Geoege Crile , Charlie Wjlson's War (New York ,2003),pp.197-

556 - ستيف كول Steve Coll, GhostWars , New York ,2004 ,p129

557- المرجع السابق ص 132

558- المرجع السابق ص 129

ما أخذت المخابرات المركزية والمخابرات الباكستانية تمد المجاهدين بأجهزة التفجير المفاجئة بما فيها قنابل على شكل أقلام وساعات وولاعات وأشرطة تسجيل.⁵⁵⁹ طرح افراكتوس السؤال: هل يتعين على أن أمر بوضع دراجات مفخخة و"تجريحها" أمام مقر رئاسة الضباط؟ وكانت الإجابة: "نعم فهذا هو ما يثير الرعب!"⁵⁶⁰ من الأماكن التي استهدفتها قنابل المجاهدين أماكن لطيفة مثل دور السينما في كابول ودور العرض الثقافية. وبالرغم من أن المجاهدين الأفغان رفضوا فكرة الهجمات الانتحارية، فإن المتطوعين العرب لم يفعلوا:

"بعض المتطوعين العرب من العربية السعودية والأردن والجزائر وغيرها تلقوا ثقافة مختلفة كلياً. كانوا يتحدثون بلغتهم الخاصة ويلقون خطبهم وفقاً لتفسيرهم الخاص للإسلام بينما يقاتلون بعيداً عن ديارهم وعائلاتهم، وهم الذين استقدموا الهجمات الانتحارية. أما المجاهدون الأفغان الذين نشئوا في عائلات وقبائل وشبكة من العلاقات الإقليمية والاجتماعية فإنهم لم يحتضنوا أبداً عدداً كبيراً من الهجمات الانتحارية."⁵⁶¹

كذلك تدرب المجاهدون الأفغان في الولايات المتحدة بدءاً من سنة 1980 برعاية برجنسكى في أماكن عديدة معدة لهذا الغرض على الساحل الغربي بواسطة ذوى القبعات الخضراء والضفادع البحرية وأتيح للمحاربين الأفغان المتدربين الاطلاع على أسرار مميتة بلغ عددها 60 شملت استخدام محفزات التفجير ومؤقتات ومتفجرات وأسلحة أوتوماتيكية تطلق ذخيرة قادرة على اختراق الدروع وأجهزة التحكم عن بعد لتفجير الألغام والقنابل (تم استخدامها فيما بعد في أوطان المتطوعين وضد إسرائيل) والاحتجاز الاستراتيجي للرهائن وعمليات التدمير والإحراق المتعمد.⁵⁶²

مرت الحرب الأفغانية في عدة مراحل. بدأت ببطء. وخلال السنوات الخمس الأولى لم تكن أهداف الولايات المتحدة كسب الحرب ولا هزيمة الاتحاد السوفيتي وإجباره على الانسحاب وإنما ببساطة أن تستنزفه وأن تربكه وأن تكسب نقاطاً دعائية. في سنة 1984 تحت ضغوط بنجسين حث السناتور الجمهوري شارلي ويلسون وبمساعدة كيزى الماسية تصاعدت الحرب بفضل ازدياد تمويل المخابرات

559- المرجع السابق ص 132

560- المرجع السابق ص 136

561- المرجع السابق ص 134

562- Cooley, pp.88-89.

المركزية والمنح المعادلة التي قدمتها السعودية. وبلغ التمويل سنة 1984 ما يقارب 285 مليون دولار أى ما يعادل ما انفق على الحرب فى السنوات السابقة.⁵⁶³ واستمرت تتصاعد حتى بلغت 470 مليوناً سنة 1986 ثم 630 مليوناً سنة 1987. وجاهدت الولايات المتحدة كذلك لإشراك دول أخرى بما فيها الصين. وطبقاً لما ذكر تشارلس فريمان الذى كان سفيراً للولايات المتحدة لدى الصين: "فى الفترة من 1981-1984 دفعت بكين ما يعادل 600 مليون دولار من الأسلحة الى أفغانستان".⁵⁶⁴

ولكن كيزى لم يوسع تمويل الحرب فقط ولكنه ازداد طموحاً من أجل تحقيق أهدافه، والتماساً للنصر اخذ يبحث تزويد المجاهدين بالمزيد من الأسلحة الحديثة بما فيها صواريخ ستجر ارض-جو التي كان لها تأثير حاسم على المجال العسكري من الصراع.⁵⁶⁵

باتساع الجهاد أهدافاً ومجالاً أمكن جلب المزيد من حشود العرب والأجانب الى الحلبة. وقامت بلدان عديدة منها مصر والسعودية ومنظمات دولية مرتبطة باليمين الإسلامى مثل الإخوان المسلمين ورابطة العالم الإسلامى و"المنظومة الإسلامية العالمية لتقديم المساعدات" والمنظمة الإسلامية للدعاة و"تبليغى جامات"- قامت بحملات من أجل جلب المتطوعين للجهاد. كان هذا هو حلم بن لادن الذى تحقق: الجماعات الإسلامية الأصولية تحتشد معاً على نطاق العالم لتجد المقاتلين المجاهدين وتجمعهم معاً فى باكستان ثم تقوم بتسريبهم الى أفغانستان للجهاد. يذكر كولى: "عرض على الكثيرين القيام برحلات الى باكستان ثم تهريبهم الى أفغانستان للجهاد، وكثير عرض عليهم القيام برحلات الى باكستان للقيام بدراسات دينية. خلال حوالي ستة أسابيع من الدراسات الدينية، لم يكن القادمون الجدد يعرض عليهم فوراً القيام بتدريبات عسكرية أو حتى يذكر لهم باختصار الجهاد ضد الروس والشيوعيين أعداء الله". كان هذا يحدث فى نهاية فترة الأسابيع الستة حيث يتقدم ضابط

563 -Coll, pp.102,151

564- تشارلس فريمان -مقابلة مع المؤلف - ابريل 2004

565- يرى بعض المحللين أن الاتحاد السوفييتى كان يبحث عن طريقة للخروج من أفغانستان وكان يضع الخطط للانسحاب ، فى ظل حكم جورباتشوف بعد ظهور صواريخ ستجر وبعد أن اتضح أن الصواريخ تأثيرها محدود أصبح تدفق الصواريخ يشكل مشكلة كبيرة بالنسبة للمخابرات المركزية الأمريكية بعد انتهاء الحرب وفضلت الوكالة أن تعيد بيع الفائض حتى لا يقع فى ايدى الارهابيين فى مختلف بقاع العالم

المخابرات الباكستاني في هيئة المفتى ويعرض فرصا للتدريب. وقد تم تدريب الآلاف من الجزائريين والمصريين والسودانيين والسعوديين وغيرهم⁵⁶⁶.

حسبما ذكر أحمد راشد وهو صحفي باكستاني ومؤلف "طالبان" أنه فيما بين 1982-1992 قاتل 35 ألفا من الإسلاميين الراديكاليين من 43 بلدا إلى جانب المجاهدين في الحرب وملحقاتها بالإضافة إلى عشرات الآلاف من الجهاديين الآخرين الذين تلقوا تدريبا في المدارس التي أنشأها الجنرال ضياء الحق على طول الحدود الباكستانية الأفغانية "أي أن أكثر من 100 الفامن المسلمين الراديكاليين كان عليهم أن يتصلوا بالباكستانيين والأفغان وأن يتأثروا بالجهاد"⁵⁶⁷

بعض عمليات التجنيد لصفوف المجاهدين تمت في الولايات المتحدة وفي المجتمعات العربية والإسلامية. في مركز الكفاح للجنين الأفغان في بروكلين وقسم الكثير من العرب طلبات الجهاد. كانت الحقائق المقدسة بالمال مما يصعب تتبعه وعدد الشيكات يصعب عدها ومحررات بنكية من رابطة العالم الإسلامي، وتبليغي جامات وغيرها من جماعات الدعوة والمنظمات الخيرية الموجودة في باكستان.⁵⁶⁸

عبد الله عزام أحد الذين كانوا منخرطين في جهود التجنيد للجهاد في أواسط الثمانينات. وهو فلسطيني راديكالي إسلامي، كان أحد أساتذة بن لادن واحد المشاركين في تأسيس التنظيم السابق على تنظيم القاعدة أي مكتب الخدمات الذي شارك في تأسيسه بن لادن وعزام في يشاور في باكستان سنة 1984، ولعب هذا المكتب الذي أطلقت عليه التسمية البريئة (مكتب الخدمات) لعب دورا مركزيا في نقل المجاهدين الأجانب إلى ساحة الحرب.

ولد عزام في جنين في فلسطين سنة 1941 والتحق بالإخوان المسلمين كواحد من الشباب الفلسطيني في سوريا حيث درس الشريعة الإسلامية أوائل الستينات حينما كان الإخوان المسلمون يقودون حركة المعارضة لناصر في العالم العربي.⁵⁶⁹ وبالرغم من أنه كان ينتمي إلى منظمة التحرير الفلسطينية إلا أنه انفصل عنها خلال الصدام مع الملك حسين في أيلول الأسود (سبتمبر) 1970 حينما ساند الإخوان النظام

566- Cooley , p.85

567- أحمد راشد طالبان: الإسلام الجهادي و البترول والاصولية في آسيا الوسطى ، نيوهافن 2000 ص 130

568- المرجع السابق ص 87

569- قصة عزام مقتبسة من مؤلف جيلز كيبييل : الجهاد : درب الإسلام السياسي كامبردج 2002 ص 144- 147

الملكى الاردنى. قضى عزام بعض الوقت فى جامعة الأزهر بالقاهرة فى الوقت الذى كان فيه أنور السادات يعيد الإخوان الى مصر وانتهى به المطاف أستاذًا للشرعية فى جامعة الملك عبد العزيز فى العربية السعودية حيث كان بن لادن تلميذا له. وتعاقدت معه رابطة العالم الاسلامى لرأس قسمها التعليمى. وفى 1980 سافر بادئ ذى بدء الى باكستان، وفى سنة 1984 أسس - بالإضافة الى مكتب الخدمات مجلة الجهاد وكتب باستفاضة عن واجبات المسلمين. وكان سباقا فى وضع خارطة الطريق لبيان خطته من اجل الجهاد العالمى. وأطلق عزام نداءه الذى ستردد أصداؤه باللجوء الى السلاح قائلا: "أن الجهاد سيظل فريضة على كل فرد مسلم حتى تتحرر كل الاراضى التى كانت سابقا اسلامية وتعود لنا ويحكم الإسلام فيها مرة أخرى. أمامنا مهام تحرير فلسطين وبخارى ولبنان وتشاد واريتريا والصومال والفلبين وبورما واليمن الجنوبي وطشقند والاندلس..⁵⁷⁰ ومن اجل أن يجعل الأمر مقبولا لدى المجندين المحتملين للجهاد أعلن عزام أن بن لادن سوف يمنح كل من يريد القتال فى افغانستان من العرب 300 دولار شهريا.

كتب مايك شويير وهو مسئول فى المخابرات المركزية الأمريكية وسوف يغدو المسئول عن جهود الولايات المتحدة لاصطياد بن لادن، تحت عنوان "بالاجماع من خلال عيون أعدائنا" كتب شويير سنة 2002 تقريرا مفصلا عن صعود بن لادن والقاعدة وذكر فى هذا الكتاب دور مكتب الخدمات المعروف اختصارا بحروف م. ا.ك.:

"عرف بن لادن عندما شارك الشيخ عزام فى تأسيس مكتب الخدمات م.ا.ك. فى يشاور فى أواسط الثمانينات، وكان هذا المكتب يمد ضحايا الحرب الأفغانية بالمساعدات وفى نفس الوقت ينظم ويرسل المتطوعين والسلاح والأموال التى تنهال من إنحاء العالم الاسلامى الى المجاهدين فى افغانستان. حسبما جاء فى مجلة الوطن العربى انه بين 1979-1989 أرسل 600 مليون دولار الى تنظيم بن لادن من خلال المؤسسات الخيرية فى دول الخليج العربى خاصة السعودية والكويت وعمان والإمارات والبحرين وقطر.⁵⁷¹ طبقا لما يقوله شويير كان كل من بن لادن وعزام مرتبطا بشكل جيد بجملة من المؤسسات الخيرية اليمينية الإسلامية بما فى ذلك هيئة الإغاثة الإسلامية ورابطة العالم الاسلامى. طبقا للمسئولين فى المخابرات المركزية

570 - المرجع السابق ص 147

571 - Anonymous, Through Our Enemies Eyes (Washington , D.C.Brassey's ,2002),

الأمريكية المنخرطين مع الجهاد لم تشارك المخابرات المركزية بشكل مباشر عزام وبن لادن في تجنيد المتطوعين العرب ولكنها لم تعترض على جهودهم. ويكشف جيتس رئيس المخابرات المركزية في ذلك الحين أن المخابرات المركزية درست الطرق لزيادة مشاركتها " بالرغم من أنها أيضا لم تقم بأي مجهود " لإثراء الأفغان العرب⁵⁷²

عندما بدأت - المخابرات المركزية - بعد فترة طويلة من الجهاد الافغانى تقيّمها، وجدت أن التمويل المشترك لهذه الحرب لم يكن المورد الوحيد للأموال النقدية التى تدفقت على المجاهدين، فالتبرعات الفردية وشبه الفردية من الإخوان المسلمين وأجهزتهم كانت تصب فى الجهاد ولم يكن أيا منها عرضة حتى لأدنى مراجعة من جانب المخابرات الباكستانية التى كانت تتولى توزيعها.

حسبما يورد كتاب " افغانستان: مصيدة الدب" وهو تقرير خاص عن الجهاد كتبه ضابط المخابرات الباكستانية السابق محمد يوسف، كان هناك نظام موازى للتمويل ينمو خارج القنوات الرسمية نموا كاملا، وجزء كبير منه يتم بواسطة التبرعات العربية. كتب يوسف: " كانت الأموال العربية هي التى أنقذت النظام واعني الأموال العربية النقدية التى وصلت من الأفراد الأغنياء أو من المنظمات الخاصة فى العالم العربى وليست أموال الحكومة السعودية. لولا هذه الأموال الإضافية التى وصلت الى المجاهدين لوصل تدفق السلاح المتجه إليهم الى الحضيض. المشكلة انها وصلت كلها الى الأحزاب الأربعة الأصولية ولم تصل الى المعتدلين.⁵⁷³

وأشار يوسف الى أن جزءا كبيرا من هذه الأموال ذهب الى عبد الرسول سيف عضو الإخوان المسلمين الرئيسى فى افغانستان واحد الأساتذة الإسلاميين الذين ساعدوا على تنظيم الجمعية السرية التى ظهرت فى الستينات والسبعينات من القرن العشرين. كان سيف بالإضافة الى حكمتيار قائد المجاهدين المتعصب الذى كان حزبه اكبر وأشرس التنظيمات الإسلامية فى الجهاد وأقربهم الى بن لادن. حصل سيف وحكمتيار وغيرهم من الأصوليين على نصيب الأسد من هذه الأموال العربية لأن جزءا كبيرا منها تم تحويله الى المجاهدين عن طريق الجماعة الإسلامية الباكستانية المرتبطة بالإخوان المسلمين التى أسسها ابو الأعلى

572 - Coll , pp. 135.

573- محمد يوسف و مارك أدكين افغانستان: مصيدة الدب ، بنسلفانيا 1992 ص 106

المودودي.⁵⁷⁴ يذكر أن الجماعة الإسلامية تأسست في باكستان سنة 1940 وقضت معظم فترة الخمسينات والستينات تحارب اليسار والعلمانيين الباكستانيين. في السبعينات أصبحت الجماعة الإسلامية هي الأقوى واستطاعت أن تمتص فائض أموال البترودولار التي وجدت طريقها إليها عن طريق دول الخليج العربية وساعدت على دفع باكستان الى اليمين في السبعينات تحت حكم رئيس الوزراء ذو الفقار علي بوتو ثم الجنرال ضياء الحق. " كان الإخوان المسلمون ينثرون أموالهم حولهم " كما يقول سليج هاريسون وهو خبير في شئون جنوب آسيا واحد مؤلفي " خارج افغانستان ". طبقا لهاريسون كان زعيم الجماعة الإسلامية احد أقرباء ضياء الحق وعمل قريبا منهم وساعدهم. وكثير من اللاعبين في المخابرات الباكستانية والجيش كانوا أعضاء في الجماعة الإسلامية. ومن خلال رابطة العالم الاسلامي وعناصر أخرى من الإخوان المسلمين في دول الخليج العربي بدأت الأموال تتدفق الى "كفلاء" المجاهدين حتى قبل الغزو السوفييتي لأفغانستان كما يقول هاريسون: " كان كل شيء يتم من خلال باكستان بمساعدة الرابطة (رابطة العالم الاسلامي) والجماعة الإسلامية التي أصبحت غنية أيضا. " ⁵⁷⁵

في ذلك الوقت لم يفتن احد الى أهمية بن لادن وعزام وبدا كما لو أن المتطوعين للجهاد من غير الأفغان يلعبون دورا ثانويا في تجنيد مئات الآلاف من الأفغان المجاهدين. وكانت المخابرات المركزية الأمريكية قد بلغت من التركيز على الجهاد في الحرب الباردة الى الدرجة التي جعلتها غير قادرة على التريث لتقدير عواقب تقوية قوة إسلامية عالمية مسلحة. في هذه الأثناء كان كيزي مشغولا بفتح جبهة ثانية، ضاغطا بقوة من اجل توسيع الحرب الأفغانية لتصبح حربا في آسيا الوسطى ولها موارد ما كانت لتخطر ببال برجنسكي وبنجسين منذ سنوات قلائل.

عبر نهر آمو

ينقل الجهاد الافغانى الى داخل اراضى الاتحاد السوفييتى نفسه، كان كيزي يستعرض مذهبا من معاداة الشيوعية مدفوعا بعقيدته الدينية المسيحية من جانب وبنوع من المغامرة الخطرة في معالجته للسياسة الخارجية من جانب آخر. في

574 - كيبييل ص 142

575 - Slig Harrison مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

داخل ادارة ريجان كانت توجد على الاقل مدرستان متنافستان فكريا.. الاولى مستوحاة من القواعد التقليدية للدبلوماسية الامريكية التي ترى في الاتحاد السوفييتي منافسا قويا يجب مواجهته عالميا من اجل منعه من إحراز أية مكاسب، والمدرسة الأخرى تشمل المحافظين الجدد وكيزي التي تدعو الى سياسة من شأنها دفع الاتحاد السوفييتي الى الخلف في العالم الثالث وأوروبا الشرقية ووسط آسيا. يقول هربرت ماير الذي كان يعمل رئيسا لهيئة العاملين تحت ادارة كيزي في الثمانينات: "إن الانقسام الحقيقي كان بين هؤلاء الذين يريدون ألا يخسروا الحرب الباردة وأولئك الذين كانوا يريدون كسبها"⁵⁷⁶ وكان كيزي من المعسكر الأخير وكان يرى أن افغانستان هي المفتاح.

من اجل كسب الحرب كان كيزي يرى ضرورة وجود تحالف قوى بين البلاد التي أطلق عليها مسمى "قوس الإسلام" وتشمل مصر وباكستان والسعودية، وأعطى كيزي اهتماما خاصا للسعودية باعتبارها محور المجهود. كان كيزي يرى أن السعودية ليست مجرد مورد تمويلي لمساعدة الجهاد. كان يرى أنها أكثر من مركز للإسلام الاصولي الأكثر تطرفا. وطبقا لماير كان كيزي يرى أيضا ضرورة حشد بترول السعودية كسلاح ضد الاتحاد السوفييتي. يقول ماير: "كان السعوديون متعاونين معنا جدا في كسب الحرب الباردة، ونظرا لأن الاتحاد السوفييتي كان يعتمد على البترول في صادراته لجلب العملة الصعبة، فقد طلب كيزي من السعودية أن تضاعف إنتاجها وان تخفض أسعار البترول تخفيضا كبيرا. لقد لعب بيل (كيزي) دورا حاسما في العمل مع السعودية من اجل تخفيض سعر البترول. كانوا يكرهون السوفييت" وعمدت السعودية الى مضاعفة الإنتاج فانخفض سعر البترول الى مستويات تاريخية من 28 دولارا للبرميل الى 10 دولارات للبرميل في ظرف أسابيع معدودة وهبط دخل الاتحاد السوفييتي هبوطا شديدا. كانت ضربة قاصمة للسوفييت، بمثابة الضغط على أنبوب الأكسيجين."⁵⁷⁷

كان كيزي كاثوليكيًا مؤمنا جمع بين إيمانه العميق بقوة وأهمية الدين من جانب والسياسة المكيافيلية فيما يتعلق بالاستخدام السياسي للعقائد الدينية. من جانب آخر "كان رجلا عميق التدين وكان لديه علاقة عمل طيبة مع البابا." كما يقول ماير. ويقول "كل" في كتابه "حروب الأشباح: كان كيزي يرى في الإسلام السياسي والكنيسة الكاثوليكية حليفين طبيعيين في الإستراتيجية المضادة الواقعية باستخدام

576- Herbert Meyer مقابلة مع المؤلف اكتوبر 2004

577- المرجع السابق

العمل السري الذي كان يدعو إليه في المخابرات المركزية الامريكية من اجل الإطاحة بالامبريالية السوفييتية.⁵⁷⁸ هذه الرؤية لقيت تشجيعا من جانب المستشار الرئيس للمخابرات المركزية في الشرق الأوسط روبرت أيمس وهو الخبير الرئيس للمخابرات المركزية في شئون المنطقة. وفي إحدى خطبه أشاد كيزى بأيمس لأنه أكد له أهمية الجهود المبذولة من جانب الاتحاد السوفييتي وحلفائه في العالم الاسلامي لاستئصال الدين المنظم لأنه يشكل تهديدا للأحزاب الشيوعية أو الوطنية التي يسيطر عليها. إن الشيوعيين يريدون أن يقتلعوا أو يغيروا بالكامل العناصر التقليدية الرئيسية للمجتمع. هكذا قال كيزى وهو يقتبس من أيمس "كان هذا يعنى الحط من نفوذ الدين وبأخذ الشباب من آبائهم لتعلمهم الدولة" لهذا السبب على العقيدتين العالميتين الكبيرتين أن تتعاونا "لان السوفييت كانوا يرون في كل العقائد الدينية عقبات في طريقهم فقد كانوا يقمعون الكنائس والمساجد على السواء." كان كيزى مقتنعا بان الإسلام الجهادي والمسيحية الجهادية يجب أن يعمل معا من اجل الهدف المشترك.⁵⁷⁹

كان كيزى داخل المخابرات المركزية الامريكية يثير زملاءه المحترفين بوجهة نظره غير المرحب بها عن القوة الصاعدة للإسلام السياسي. يقول ريتشارد كرويجر وهو من العاملين التنفيذيين بالمخابرات المركزية قضى فترة السنوات الأخيرة من حكم الشاه يعمل بشكل مباشر داخل مكتب الشاه نفسه: "بعد الثورة حضرت مع كيزى وكل رؤساء الادارات في المخابرات المركزية في كامب برى - معسكر برى - دورة تدريبية لتحليل الحركة الإسلامية ". طبقا لكرويجر أن مكماهون نائب كيزى اصطدم به بخصوص هذا الموضوع. يتذكر كرويجر: "اننى اذكر الكثير والكثير من الخلافات الحادة بينهما حول التداخيات بعيدة المدى للثورة الإسلامية حيث كان مكماهون يتخذ موقفا متحفزا بينما يتخذ كيزى موقفا يتسم بعدم إعطاء الأمر أهمية كبيرة" ويتذكر كرويجر: "كان كيزى يريد مجرد تأجيل الموضوع فإذا بمكماهون يقفز بشكل غير مألوف. كان مستثارا واخذ يتحدث كيف أن الإسلام الاصولي سوف ينتشر في اندونيسيا والفلبين. كان يعتقد انه من الطبيعي أن تأخذ الحركة (الأصولية الإسلامية) طابعا أمميا من خلال كل أشكال ارتباطاتها العقائدية والاجتماعية وأنها كما يبدو ليست مما يقبل بإشراف الدولة." ولكن كيزى لم يوافق على هذا.⁵⁸⁰

578 - Coll, p.97

579 - المرجع السابق ص 98

580 - ريتشارد كرويجر مقابلة مع المؤلف مارس 2004

كانت آراء كيزى حول العقيدة والسياسة تتفق مع العقيدة الراسخة للرئيس ريجان ولم يريا ما يمكن أن يتسبب فى اى متاعب من جانب الجهاد الافغانى باعتبار الأمر حربا دينية يتحالف فيها مع المسيحية والإسلام ضد الاتحاد السوفييتى الملحد. يكتب فواز جرجس أن ريجان استمر فى الموقف التقليدي للولايات المتحدة الذى يساند القوات الإسلامية المؤمنة فى الشرق الأوسط:

" استمرت سياسة الولايات المتحدة تحت حكم ريجان على دعمها للعناصر الدينية المحافظة ضد العلمانيين والاشتراكيين والقوى الوطنية فى العالم الثالث. وبينما كانت بيانات الإدارة عموما معادية بشكل استثنائي إلا انه لم يطرأ عليها تغيير تجاه الإسلاميين الجدد.... إن انعطاف ريجان تجاه فصائل المجاهدين الإسلاميين فى أفغانستان يجب وضعه فى إطار المرحلة الثانية من الحرب الباردة، ومثله مثل سابقه فى الخمسينات والستينات قام ريجان بإنشاء التحالف بين الولايات المتحدة والجماعات والدول الإسلامية: أفغانستان والعربية السعودية وباكستان من أجل هزيمة ما أطلق عليه " إمبراطورية الشر " وعملاتها فى العالم الثالث.⁵⁸¹

فى بعض الأحيان كانت رغبة كيزى فى تشجيع الإسلام السياسى تبدو فى منتهى الخبث. كان ذلك صحيحا تماما بشكل خاص حينما يتعامل كيزى مع الملك فهد ملك العربية السعودية. يحكى جاس افرانكوتوس قصة حوار جرى حول رحلة كيزى الى السعودية من أجل تسوية مساهمة السعودية فى مخصصات الجهاد عن ذلك العام. " طلبت من كيزى أن يتحدث مع الملك بشأن " إخوانك المسلمين " لاستخدام الأموال من أجل تزويد العائلات بالطعام والملابس والأسلحة ومن أجل إصلاح المساجد. يجب أن نتحدث معه بشأن أن يكون " راعيا للعقيدة " فأجاب كيزى: " يا للمسيح. اننى أحب ذلك - راعى العقيدة "⁵⁸² وقد أكد هذه القصة مسئول سابق بالمخابرات المركزية كان ضالعا فى الجهاد. " سوف نقول للسعوديين أنه لشيء جيد للغاية أن يقوم المؤمنون الأفغان بطرد الشيوعيين الملحدين " ويضيف: هذا هو الموضوع السياسى الذى ينبغى أن نتحدث فيه مع الملك فهد. "⁵⁸³

بدءا من 1984 سوف يضغط كيزى على التحالف السعودى الباكستانى ليأخذ على عاتقه مهمة إستراتيجية أكثر تأثيرا وهى شن عملية تخريبية دعائية وأنشطة حرب عصابات عبر نهر آمو داخل جمهوريات الاتحاد السوفييتى الإسلامية

581- فواز جرجس امريكا والاسلام السياسى، كمبردج 1999 ص 71

582- كريل Crile, pp 340-341

583- مسئول سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية 0 مقابلة مع المؤلف مارس 2004 - بطبيعة الحال قد

يكون لفهد بوصفه لاعبا متمرسا تفسيره الخاص لدوره " كحامى حمى العقيدة

"الحدود داخل هذه المنطقة من نوع الحدود الرخوة " حسبما يقول ماير مساعد كيزى. " وهكذا يمكن أن تحدث أشياء كثيرة مثيرة للإعجاب." ⁵⁸⁴ يقول احد مسئولى المخابرات المركزية ممن كانوا يعملون مع كيزى فى ذلك الوقت: " اندلعت مناوشات داخل الاراضى السوفييتية بين حين وآخر جعلت موسكو تخرج عن طورها." ⁵⁸⁵ بالإقدام على مثل هذه الخطوات الاستفزازية كشف كيزى الغطاء عن خطط تنفيذية جرى تطويرها أصلا خلال ادارة كارتر ولكنها كانت قد رفضت آنذاك بسبب الخطورة التى قد تتجم عنها مثل إقدام الاتحاد السوفييتى على هجوم مضاد بأشكال لا يمكن التنبؤ بها بما فى ذلك إمكانية توجيه ضربة مباشرة الى باكستان أو اللجوء الى إشعال الثورة فى إقليم بلوشستان المضطرب الذى يعانى من عدم الاستقرار.

يورد رجل المخابرات الباكستانية يوسف بيانات مفصلة عن تحركات الجهاد عبر حدود افغانستان الشمالية. " فالشعوب على جانبي الحدود كانت من الازبك والطاجيك والتركمان ويشاركون معا فى الهوية الاثنية، وبالرغم من القبضة السوفييتية على الأنشطة الدينية، فقد كانت تجمعهم معا نفس العقيدة، الإسلام." ⁵⁸⁶ وحسبما يقول يوسف أعلن كيزى أن هذه المنطقة الرخوة تعتبر منطقة تحت الحزام بالنسبة للاتحاد السوفييتى". خلال زيارته للإدارة العامة للمخابرات الباكستانية، كان كيزى أول مسئول امريكى يقدم بشكل جاد مقترحات بشأن القيام بعمليات ضد الاتحاد السوفييتى من داخل الحدود السوفييتية نفسها.... كان مقتنعا بان إثارة القلاقل فى هذه المنطقة سوف يوجه بكل تأكيد ضربة موجعة تحت الحزام للدب الروسى." فى البداية اقتصر الأمر على تهريب مواد دعائية الى داخل جمهوريات الاتحاد السوفييتى الإسلامية فى محاولة لإثارة الحماس الدينى. خلال الثمانينات تم طبع الآلاف من نسخ القرآن بلغات آسيا الوسطى وتم إدخالها عبر الحدود الأفغانية. طبعت بعض النسخ فى العربية السعودية وقامت المخابرات المركزية الامريكية بطبع عدد آخر منها مستخدمة اتصالاتها الإسلامية فى أوروبا الغربية.

كانت السعودية مهتمة بآسيا الوسطى لان إيران كانت هناك ولأن نظام الخميني الجديد كان هناك باعتباره منافسا يحاول أن ينشر مفهومه الخاص عن الأصولية الشيعية الى داخل آسيا الوسطى فى مقابل المذهب السعدي النصي

584 - Meyer مقابلة مع المؤلف

585- مسئول سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية 0 مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

586- يوسف و ألكين ص 47

المُطَرَف أو المذهب السني بمفهومه الوهابي. يذكر مسئول عمليات سابق بالمخابرات المركزية كان يعمل بارتباط وثيق مع العربية السعودية، أن ضباط المخابرات السعودية أخطروه بفكرتهم حول "السيطرة على ال...ستان" (المقصود الدول أو المناطق السوفييتية التي ينتهي اسمها ب: ستان مثل تركستان، طاجيكستان، أوزبكستان.....الخ - المترجم)

"إنهم يريدون أن يدخلوا هناك ويحرزوا قصب السبق على الإيرانيين ويقطعوا الحدود الروسية ويتأكدوا أن الإسلام السني سوف يحقق الفوز على الإسلام الشيعي، إن السعوديين مستعدون إن يقوموا بذلك وهم يقولون: إن علينا أن نذهب إلى هناك، إلى ال...ستان، وكان علينا أن نعمل معا وإن نستخدم الإسلام لتحطيم القبضة الشيوعية على كازاخستان وأوزبكستان وما بينهما." كانت المنطقة خالية، ويمكن لمختلف الأمراء السعوديين ورجال الدين أن يتوجهوا إلى هناك أو يرسلوا إغراضهم من المصاحف وغيرها إلى هناك".⁵⁸⁷

على كل حال بدءا من 1984 لم يعد الأمر مجرد إرسال مصاحف وكتب إسلامية ومواد دعائية ". شحنت الولايات المتحدة كل ما كان من شأنه أن يؤدي إلى تصاعد كبير في الحرب التي ستخيم خلال السنوات الثلاث التالية في صورة غارات عديدة وبعثات تخريبية عبر الحدود شمال نهر آمو. كتب محمد يوسف: "خلال هذه الفترة كان علينا أن ندرب بشكل خاص ونرسل مئات المجاهدين إلى عمق يصل إلى 25 كيلومترا داخل الاتحاد السوفييتي. وربما كانت هذه أكثر عمليات الحرب سرية وحساسية." وأضاف أن أكثر ما كان يشكل مصدر قلق خاص للسوفييت هو نشر الأصولية ونفوذها بين مسلمي آسيا الوسطى السوفييتية.⁵⁸⁸ كانت المخابرات الباكستانية على استعداد "لإرسال فرق عبر النهر لنقل الهجمات الصاروخية وبعث الألغام وخلع قضبان السكك الحديدية ونصب الكمائن".⁵⁸⁹ وحاولت الفرق التي عبرت حدود الاتحاد السوفييتي أن تقيم علاقات بين نشطاء المسلمين في هذه المنطقة. "لقد تأثرت بعدد من التقارير الواردة من بعض الناس الذين يريدون المساعدة." كتب يوسف "أراد البعض أسلحة وأراد البعض الآخر أن يلتحق بالمجاهدين في أفغانستان، وغيرهم أراد المشاركة في عمليات داخل الاتحاد السوفييتي".⁵⁹⁰ حسبما ذكر يوسف:

587- مسئول سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية 0 مقابلة مع المؤلف يوليو 2004

588- يوسف وأدكين ص ص 189-190

589- المرجع السابق ص 193

590- المرجع السابق ص 195

"وصلت الضربات الموجهة عبر الحدود أعلى مستوياتها سنة 1986. عشرات الهجمات شنت عبر نهر آمو من ناحية أقاليم جوزجان الى إقليم باداكشان. وشارك أحيانا كثير من المواطنين السوفييت في هذه العمليات أو عادوا الى أفغانستان للحاق بالمجاهدين ولا أدل على أننا كنا نضرب في المناطق الحساسة من ردود الفعل بالغة العنف التي كان يقوم بها السوفييت. فسرعان ما كانت كل غارة نقوم بها تثير قصفا جويا عنيفا بالقنابل والسفن الحربية في الهجوم على القرى الواقعة الى الجنوب من النهر على المناطق القريبة من مصادر ضرباتنا.⁵⁹¹ كان ذلك العمل بكل تأكيد عملا هجوميا يمكن أن يؤدي ليس فقط الى مخاطرة توجب مشاعر المسلمين داخل الاتحاد السوفييتي فحسب بل الى استفزاز موسكو للإقدام على عمل انتقامي ضد باكستان نفسها وهو ما يمكن أن يؤدي بدوره الى إشعال مواجهة عالمية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، والانكى من ذلك أن يحدث ذلك كله سرا دون معرفة الشعب الأمريكي. طبقا لمصادر مختلفة حول الصراع الأفغاني وطبقا لشهادة يوساف نفسه استعادت الأوساط الأكثر عقلانية في واشنطن زمام المبادرة وأوقفت الهجمات عبر الحدود. يندب يوساف الموقف قائلا: "من الواضح انه في سنة 1985 وضعت الولايات المتحدة يدها في الماء البارد، ويبدو أن هناك شخصا ما في قمة الإدارة الأمريكية قد أدركه الخوف." ولكنه يؤكد أن المخابرات المركزية الأمريكية وآخرين غيرها شجعونا بشكل غير رسمي على أن نستمر في نقل الحرب الى داخل الاتحاد السوفييتي.⁵⁹²

في نهاية الأمر فشل الهجوم الذي شنّه كيزي بالتعاون مع المخابرات الباكستانية على الاتحاد السوفييتي في التحريض على قيام ثورة إسلامية داخل الاتحاد السوفييتي. وثبت أن النظرية المشتركة لبرجنسكي وبنجسين بان الجماهير الإسلامية الموجودة داخل الاتحاد السوفييتي تتشوق للقيام بثورة ضد الأمراء السوفييت وان الولاء الذي تكنه للشبكة السرية من المتصوفة الإسلاميين هو على اقل تقدير أمر مبالغ فيه. ولكن الذي لا شك فيه أيضا أن تصرفات كيزي والمخابرات الباكستانية ساعدت على نمو شبكة من الجناح اليميني من الإسلاميين المتطرفين الذين لا يزالون حتى يومنا هذا مصدر إزعاج لحكومات الجمهوريات السوفييتية السابقة، وبشكل خاص فان الحركة الإسلامية في أوزبكستان وحزب التحرير الاسلامي والجماعات القوية في الشيشان وداغستان بالإضافة الى الغموض

591- المرجع السابق ص 200

592- المرجع السابق ص 195

الذى يكتنف تواجد القاعدة فى آسيا الوسطى، كل هذه الجماعات اكتسبت المبادأة فى الثمانينات بفضل فيض الجهاد الافغانى.

جهاد بلا نهاية

لم ينته الجهاد الافغانى بانسحاب القوات السوفييتية. لم يكن للولايات المتحدة إستراتيجية للانسحاب كما لم يكن لديها خطة لأفغانستان عند بدء الحرب. كان معظم واضعي السياسة الامريكية يعتقدون أن الحكومة الضعيفة الممالة للسوفيت التى تركوها وراءهم فى كابول سوف تسقط بعد مدة قصيرة، ولكن ذلك الأمر تباطأ، أما المجاهدون الذين انقسموا على أنفسهم وحارب بعضهم بعضا بعد الحرب فقد استمروا يتقاتلون. أما باكستان التى كانت ترى فى افغانستان شريكا لها فى تحالف ضد الهند فقد ساندت الإسلاميين بقوة فى هذا البلد الممزق.

ولكن شيئا من ذلك فيما يبدو لم يكن يعنى أحدا من المسئولين الأمريكيين حينذاك، حسبما يقول كاسبار وينبرجر سكرتير الرئيس ريجان لشئون الدفاع فى ذلك الوقت: "كنا نعلم أنهم ليسوا أناسا طيبين جدا. ولم يكونوا جميعا ممن يعنون بالديمقراطية. ولكن كان لدينا مشكلة صعبة فى تحديد خياراتنا....ولنتذكر مقولة تشرشل: إذا غزا هتلر الجحيم فليس امامى سوى الشيطان على الاقل ليكون مرجعي المفضل أمام مجلس العموم".⁵⁹³ كان هذا معلما مميزا لقابلية السياسة الامريكية للتغيير تجاه افغانستان واسيا الوسطى، "قوس الإسلام" فى الثمانينات.

مما لاشك فيه أن مساندة الولايات المتحدة للمجاهدين التى ذهب معظمها الى الإسلاميين الأكثر تشددا هو خطأ كارثى فى حساباتها. لقد أدى ذلك الى تمزق افغانستان نفسها كما أدى الى انهيار حكومتها وأدى الى ظهور إقطاعيات واسعة يسيطر عليها أمراء الحرب الإسلاميين وغيرهم وخلق شبكة واسعة عالمية من الإسلاميين المحاربين المدربين من العديد من البلدان الذين ارتبطوا معا وغدوا ينتمون الى التنظيم الذى سوف يقيمه بن لادن بعد ذلك ويطلق عليه اسم تنظيم القاعدة، وترك وراءه امة ممزقة قامت بدور المضيف للقاعدة والتشكيلات الإرهابية الأخرى المماثلة كما خلق البيئة التى يمكن فى إطارها أن تقوم المخابرات الباكستانية بتشجيع حركة طالبان فى التسعينات.

ومع ذلك فإن دعاة الجهاد بمن فيهم هؤلاء الذين فى سنة 2005 كانوا اشد دعاة الحرب العالمية على الإرهاب الموجهة ضد المنظمات الإسلامية، لا يزال هؤلاء يؤكدون أنها كانت سياسة سليمة. يقول دانيال بابيس داعية شن الحملة ضد الإسلام السياسي وهو ابن ريتشارد بابيس الذى قام بتنسيق " جماعة العمل مع القوميات" فى بواكير السنوات الاولى من ادارة ريجان، خلال هذه السنوات كان دانيال بابيس هو المسئول عن الإدارة وعن جماعة العمل مع القوميات، يقول: "لقد ساندنا ستالين ضد هتلر" على هدى نظرية وينبرجر فى التعامل مع الشيطان: " هذه اختبارات دنيوية حقيقية " فالأكثر نضالية بين المجاهدين كانوا هم أفضل المقائلين وفقا لبابيس. " وإذا كان من ثمة شىء يقال فهو أن الإسلاميين الراديكاليين كانوا - حسبما نراهم - الأكثر حماسا بين المعادين للسوفيت.⁵⁹⁴ هذا الرأي رده أيضا العديد من خبراء الحرب الأمريكان فيما يتعلق بالحرب الأفغانية بمن فيهم العديد من مسئولي المخابرات المركزية الأمريكية وواضعي السياسة الأمريكية. " لقد كنا نساند أردأ الناس، الأكثر تعصبا بين المجاهدين. " حسبما يقول ستيفن كوهن الذى كان على رأس الإدارة فى الثمانينات. " إذا كنت تريد أن تنتصر فى الحرب الباردة وتهزم السوفييت فى افغانستان فانه لا يمكنك أن تستخدم (جيش الخلاص).⁵⁹⁵

غنى عن البيان أن (الأنواع المتعصبة) لم تختف فور اعتزام الاتحاد السوفييتي الانسحاب من افغانستان بالرغم من أن دعائهم قد تغيروا بشكل درامي: بيل كيزى توفى. الجنرال ضياء الحق ورئيس المخابرات الباكستانية قتل فى حادث تحطم طائرة لم يكشف النقاب عنه، غير أن اليمين الاسلامى كان قد تترس فى كل من افغانستان وباكستان. كانت الجماعة الإسلامية فى باكستان غنية وقوية وعلى صلة وثيقة بشبكة الإخوان المسلمين الممتدة فى كافة أنحاء العالم. ومعظم الذين يتواجدون حاليا فى قمة جهاز المخابرات الباكستانية اصبح مؤكدا الآن أنهم إسلاميون مرتبطين بالإخوان المسلمين. ومن جهة أخرى فان الإخوان المسلمين والجماعة الإسلامية يرتبطون بدورهم برباط وثيق مع قلب الدين حكمتيار وغيره من المجاهدين الإسلاميين فى افغانستان ومع شبكة المجاهدين الناشئة فى العشرات من الدول الأخرى الذين كانوا يغدون ويروحون بحرية من خلال " نظام المدرسة". وقد تم الاحتفاء بانسحاب الاتحاد السوفييتي باعتباره نصرا مدويا للمخابرات المركزية الأمريكية والبنجاجون وسارعوا فى معظم الأحوال الى مغادرة افغانستان وفى

594- دانيال بابيس - مقابلة مع المؤلف ابريل 2004

595- مقتبس من 16 Omaha World Herald سبتمبر 2001

تقديرهم أن النظام الموالي للسوفييت الذى لا يزال يباشر الحكم فى كابول بقيادة الرئيس نجيب الله سرعان ما سيسقط، فقد استخلصت المخابرات المركزية درس فيتنام حيث سرعان ما انهارت حكومة فيتنام الجنوبية بعد انسحاب الولايات المتحدة وهكذا استخلصوا أن حكومة نجيب الله سوف تسقط هي الأخرى فى المدى القصير. ومع ذلك ففي دوائر الحكومة الأمريكية اخذ ينتشر نوع غريب من الاضطراب يشبه غثيان ما بعد الصباح الذى ينتاب الإنسان.

فى الإدارة الأمريكية وحتى فى المخابرات المركزية الأمريكية كان ثمة قلق مما يمكن أن يؤول إليه الموقف بعد أن يتغلب حكمتيار وغيره من الأصوليين فى أفغانستان. كان المسئولون السوفييت من بين الذين حذروا واشنطون من مغبة الأخطار الكامنة فى الحركة الإسلامية. وحاول وزير الخارجية السوفييتى ادوارد شيفرنادزه أن يصل مع جورج شولتز سكرتير الدولة للشئون الخارجية الأمريكية الى إمكانية التوصل الى اتفاقية ودية بين الدولتين تقضى بالانسحاب السوفييتى من أفغانستان و"طالب الولايات المتحدة بالتعاون فى وضع حد لانتشار الأصولية الإسلامية". على أية حال بغض النظر عن شولتز كانت الإدارة الأمريكية غبر متعاطفة مع هذا الاقتراح. ولم يكن احد من قيادات ادارة ريجان يعطى أى اهتمام لهذه المسألة. إنهم أبدا لم يحاولوا الضغط على المخابرات الباكستانية لإبعاد مساندتها عن الإخوان المسلمين والأطراف الأخرى المتصلة بهم. كانت موسكو تشعر بقلق متزايد من الأصولية الإسلامية التى أخذت تضرب بجذورها على طول حدودها الجنوبية، حتى أن فلاديمير كرويتشكوف الذى كان يرأس المخابرات السوفييتية جلس الى جيتس مدير المخابرات المركزية الأمريكية ليوضح له أسباب خشية القادة السوفييت من صعود حكومة أصولية أخرى الى السلطة فى أفغانستان فتكون مكملا سيئا لإيران الشيعية⁵⁹⁶ ولكن بلا جدوى.

بحكم العادة سمحت الولايات المتحدة لباكستان والمخابرات الباكستانية أن تتحكم فى مفاتيح السياسة الأفغانية. كان المركز الرسمي للمعونة النقدية السعودية قد أغلق أبوابه، ولكن ظلت المنافذ الأخرى غير الرسمية تتدفق من خلالها الأموال التى يصبها الأمراء الأثرياء المتعددون من خلال منظمة العمل الإسلامى ومن خلال شبكة الإخوان المسلمين. طبقا لأقوال اثنين من السفراء الأمريكيين الذين عملوا فى السعودية فى ذلك الوقت كانت الولايات المتحدة سيئة التدبير فى تعاملاتها مع هذه الحرب. "حيثما كنت اعمل لم يكن احد يمعن التفكير فيما يمكن أن يحدث لهؤلاء

المقاتلين في حالة البطالة." حسبما يقول وولتر كاتلر سفير الولايات المتحدة في السعودية خلال معظم الثمانينات. " اننى لا أتذكر اى مناقشة حول ذلك الأمر. كنت أقول له (جبلز): " جى اننى أتعجب ما إذا كان فى إمكان هؤلاء الناس أن يشكّلوا تهديدا ما؟ إننا فى الحقيقة لم نركز كثيرا على الإسلام السياسي، فقد كانت هناك الحرب الباردة. حقيقة أن لديك هؤلاء المتحمسين المدربين والمسلحين بصواريخ ستينجر. هذه الفكرة لم تخطر على البال.⁵⁹⁷ لقد بدأنا الحرب دون أن نضع فى اعتبارنا كيف نهيها " يقول تشارلس فريمان سفيرنا لدى السعودية فى نهاية الثمانينات وخلال حرب الخليج الاولى سنة 1991 كانت افغانستان تتزلق خلسة باتجاه الحرب الأهلية ولكننا أساسا لم نعط ذلك أهمية تذكر، يضيف فريمان:

" لم يتوقف الجهاد الافغانى. كان البعض منا وأنا منهم مهتمين بذلك، وكذلك كان اوكلى(سفير الولايات المتحدة فى باكستان) الذى كان مشغولا بالمخابرات الباكستانية وما تقوم به فى افغانستان وكشمير وضلوع السعودية فى هذا الأمر. ولكنك لن تستطيع فى الحقيقة أن تعرف ما إذا كانت السعودية قد استخدمت من جانب المخابرات أم أنها تلجأ للخداع. لقد تحدثت فى هذا الأمر مع الأمير تركي رئيس المخابرات السعودية والى المخابرات المركزية الامريكية وكانت رسالتي أساسا هي: إننا يجب أن نبدأ التفكير فى تخلص أنفسنا. ولكن كانت هناك بعض التساؤلات حول ما إذا كانت المخابرات السعودية قد أصبحت أسيرة للمخابرات الباكستانية. كانت المخابرات الباكستانية تأخذ أموالهم وتقوم هي بالتصرف فيها. ولم نكن نعرف ماذا نفعل. من المؤكد أن الكثير من أموال السعودية كانت تذهب الى حكمتيار، ولكننا لم نكن نعرف حقيقة أهداف السعودية. كان هناك ما يربو على ثلاثة بلايين دولار تتدفق سنويا على الحرب من الولايات المتحدة والسعودية وغيرها، انك لن تستطيع أن تغلق صنبور الأموال المتدفقة بين عشية وضحاها. كلانا نعرف أنا وبوب ونعتقد انه كان يتعين علينا أن نجرى حوارا حول هذا الموضوع. ولكننا لم نجد أحدا غيرنا مهتما بذلك، بمن فيهم جيتس و وبستر وكلاهما كان مديرا للمخابرات المركزية الأمريكية. هذا الموقف فى واشنطن يعود جزئيا الى مقولة البعض: " لماذا نذهب خارج بلادنا ونحدث الى أناس لا يعنهم الأمر. ومن ثم فأنا لم نفعل شيئا..⁵⁹⁸

597- وولتر كاتلر مقابلة مع المؤلف مايو 2004.

598- فريمان مقابلة المؤلف

طبقاً لما ذكره يوسف الذى كان له عينا صقر فيما يتعلق بنهاية الحرب بحكم عمله فى المخابرات الباكستانية بعد أن انجاب غبار الحرب فى أفغانستان، بدأ بعض الأمريكيين يشعرون بالقلق حول ما سيؤول إليه أمر حكمتيار ورفاقه الأصوليين عندما يستولون على السلطة "بدأ الأمريكان ينظرون الى أفغانستان بدون الجيش الأحمر وما رأوه كان نذيراً لهم" ولكنه ذكر أن الجنرال "اختار عبد الرحمن خان" مهندس المخابرات الباكستانية للشئون المتعلقة بالجهاد حاول أن يواجه جهود الولايات المتحدة غير المجدية من أجل تقوية إمكانيات الجماعات الأفغانية غير الأصولية بما فى ذلك القوات الموالية للملك المنفى زاهر شاه والأمراء والجماعات الإسلامية الأقل تطرفاً. "لقد أدرك الجنرال اختار أهداف الأمريكان وأساليبهم وعارض كل حركة يقومون بها." عارض اختار كذلك ما أطلق عليه يوسف " فكرة الأمريكان اللامعة بإعادة الملك المنفى منذ مدة طويلة ليرأس حكومة المصالحة الوطنية."⁵⁹⁹

لكن حتى لو أرادت الولايات المتحدة أن تأخذ على عاتقها تحجيم قوة الإسلاميين بعد الحرب وإن تحفز قوة المعتدلين والوسطيين والعلمانيين فإن ذلك سوف يكون مسألة صعبة لسبب بسيط هو أن معظمهم قد مات. كما أن العدد الكبير من المجاهدين الإسلاميين الذين كانوا يقاتلون السوفييت كانوا يقتلون فى نفس الوقت المعارضين الأفغان الذين يحتمل أن يواجهوهم بعد الحرب، كانوا يقتلونهم بالآلاف فى المواجهة الثانية للجهاد التى لا يعرف عنها سوى القليل والتى كانت موجهة ضد الأفغان غير الشيوعيين. "تقول شيريل بنيارد وهى خبيرة بمؤسسة راند لشئون الإسلام السياسي وزوجة زلمای خليل زاد الذى عمل سفيراً للولايات المتحدة فى كابول:" فى البداية كان الجميع يظن أنه لا سبيل لهزيمة السوفييت، ومن ثم فكل ما كان علينا أن نفعله هو أن نقدفهم بمن كنا نعتبرهم الأكثر جنونا من الناس. وكان هناك الكثير من الخسائر غير المباشرة. كنا نعرف بالضبط من يكون هؤلاء الناس وعلى أى شكل كانت تنظيماتهم ولم نعبأ بغير ذلك. "وتضيف:" ومن ثم فقد سمحنا لهم بالتخلص من وقتل كل القيادات المعتدلة من هذه العناصر. إن السبب فى أنه ليس لدينا الآن قيادات معتدلة فى أفغانستان هو أننا تركنا هؤلاء المجانين يقتلونهم جميعاً. لقد قتلوا اليساريين والمعتدلين والوسطيين لقد قضى عليهم خلال الثمانينات وفيما بعد."⁶⁰⁰

599- يوسف و أنكن ص 208-209.

600- Cheryl Benard مقابلة مع المؤلف يوليو 2004

الصفات السرية مع آيات الله

لو قدر النجاح للمبادرات التي أطلقتها إدارة ريجان تجاه إيران خلال الفترة من 1980-1986 لأصبح الدمار الذي حل بأفغانستان أفدح كثيرا مما حدث فعلا. فيما يتعلق بإيران كانت هناك 3 مراحل سارت بالتوازي مع التحالف الأمريكي - الإسلامي الاصولي في افغانستان: أولاها ما أطلق عليه مفاجأة أكتوبر 1980 والثانية تتعلق بالعلاقة السرية بين إسرائيل وإيران في الثمانينات - والثالثة المحاولات السرية لإدارة ريجان للتقارب مع آية الله الخميني في إيران.

في سنة 1980 بينما كان المسئولون في إدارة كارتر يحاولون قدر جهدهم أن يفكوا أسر الرهائن الأمريكيين في إيران، فإن بعض أعضاء حملة ريجان الانتخابية بمن فيهم كيزي كانوا قد أقاموا علاقات مع المسئولين الإيرانيين وحاولوا فيما يبدو أن يؤجلوا الإفراج عن الرهائن الى ما بعد الانتخابات.

وقد خلص جاري سيك وكان ضابطا بالبحرية الأمريكية خدم في مجلس الأمن القومي تحت إدارة فورد وكارتر وريجان، خلص بعد عدة سنوات الى أن حملة ريجان - بوش الانتخابية دخلت في حقيقة الأمر في محادثات سرية مع بعض القادة الإيرانيين للحيلولة دون الإفراج عن الرهائن والوعد بشحن أسلحة أمريكية وإسرائيلية الى إيران سنة 1981. وقد كتب تقريرا مفصلا عما أسفرت عنه أبحاثه في كتابه (مفاجأة أكتوبر: الرهائن الأمريكيين في إيران وانتخابات رونالد ريجان). ويخلص في هذا الكتاب الى أن " حملة ريجان بوش الانتخابية قامت على عملية مخابراتية احترافية منظمة من شأنها تخريب مسار العملية الديمقراطية في أمريكا".⁶⁰¹

كان سيك يشك في أن أساس المفاوضات بين الحزب الجمهوري الأمريكي وإيران يقوم على أساس وعد من الإدارة الجمهورية بأن توافق على شحن أسلحة إسرائيلية وغير إسرائيلية الى إيران بحيث تشمل شحنات الأسلحة التي كان الشاه قد طلبها وسدد ثمنها. كانت إيران في اشد الحاجة الى هذه الأسلحة من اجل معركتها مع العراق التي اندلعت في سبتمبر 1980 كحرب شاملة. وكانت إسرائيل التي تربطها علاقات عسكرية ممتدة مع إيران تعود الى الصفة العسكرية الأساسية التي

601- جاري سيك مفاجأة أكتوبر: الرهائن الأمريكيين في طهران وانتخاب رونالد ريجان نيويورك 1991

أبرمها البلدان سنة 1966، كانت متعطشة لإمداد النظام الديني في إيران بالأسلحة رغم أزمة الرهائن. "كانت مجهودات إسرائيل الدعوية من أجل إعادة العلاقات العسكرية مع إيران قد أحبطت من جانب الرئيس كارتر الذي رفض بإصرار إجازة أو حتى الإشارة إلى شحن أي أسلحة إسرائيلية إلى إيران قبل الإفراج عن الرهائن.⁶⁰² حسباً ذكر سيك. ومما هو جدير بالملاحظة أن الوسيط الأساسي في المحادثات الإسرائيلية الإيرانية حول الأسلحة هو أحمد كاشاني ابن آية الله سيد أبو القاسم كاشاني رجل الدين الذي تلقى أموالاً سنة 1953 من المخابرات المركزية الأميركية من أجل تنظيم الدهماء الذين تظاهروا مطالبين بإسقاط مصدق وعودة الشاه. وقد زار كاشاني إسرائيل سنة 1980 حسبما ذكر سيك الذي قال أيضاً أنه "كانت هناك ثمة قنوات مفتوحة بين إسرائيل وإيران كانت تعمل قبل وصوله بزمان طويل." في ربيع سنة 1980 وصلت إلى إيران حمولة سفينة صغيرة من الأسلحة الإسرائيلية.⁶⁰³

يورد سيك بياناً مفصلاً عن الاتصالات والمقابلات التي تمت بين كيزي وغيره من المسؤولين السابقين لريجان وبين مجموعة من الوسطاء الإيرانيين تبين فيما بعد أن العديد منهم كان ضالعا في فضيحة إيران-كونترا خلال الفترة 1984-1986⁶⁰⁴ والبعض الآخر كان له بدوره علاقات وثيقة مع إيران، فقد بدأت إسرائيل وإيران التعاون العسكري فيما بينهما أواخر الثمانينات بما في ذلك بالتحديد الغارة الإسرائيلية على مفاعل أوزيراك النووي العراقي في 7 يونيو 1981 التي دمرت هذا المفاعل قبل بضعة أيام فقط من نشوب الحرب العراقية الإيرانية. "قامت إسرائيل بإمداد إيران بالأسلحة والمعلومات الخاصة بكيفية الهجوم على المفاعل النووي العراقي....ولكن سلاح الدفاع الجوي العراقي كان أكثر كفاءة من نظيره الإيراني." ⁶⁰⁵ هكذا يقول سيك. وهكذا فعلتها إسرائيل.

يضيف سيك أن كيزي ساعد إيران على كسر الحصار الذي فرضته الولايات المتحدة على إمدادات الأسلحة الإسرائيلية إلى إيران. لقد فعل ولیم كيزي الصواب

602- المرجع السابق ص 59

603- المرجع السابق ص ص 69-71

604- لمتابعة المزيد من التفاصيل بشأن وقائع المبادرة الجمهورية تجاه إيران خلال أزمة الرهائن وجمعها الصحفي روبرت باري Robert Parry في مؤلفه: خداع الخيانة: مفاجأة أكتوبر الغامضة (نيويورك 1993).

605- المرجع السابق ص 115

حينما قام بتحديد نوع الصفقة غير متأثر بالعواطف مع هيئة رجال الدين الإيرانيين، تلك الصفقة التي طالما تطلع إليها اللوبي الإيراني في إسرائيل. "كما ذكر سيك" إن المقاربة التي تمت مع إسرائيل في أغسطس لم يبق بها كيزي فقط ولكن أيضا مسئولون آخرون في المخابرات المركزية ساعدوا إسرائيل على التعاون مع مبادرة الجمهوريين لتحرير الرهائن.⁶⁰⁶ كان سيك يتلقى في هيئة الأمن القومي رسائل تفيد قيام إسرائيل بإمداد إيران بالأسلحة في تحد صارخ لمعارضة كارتر. "لقد قامت الإدارة الإسرائيلية في أعلي مستوياتها بإدارة ظهرها كلية وبكل احتقار لإدارة جيمي كارتر."⁶⁰⁷ وأخيرا تم تحرير الرهائن، ولكن في 20 يناير 1981 قبل دقائق من قيام الرئيس ريجان بحلف اليمين بوصفه الرئيس الأربعين للولايات المتحدة. "قليلون هم الذين تشككوا في الأمر." كما ذكر سيك الذي أضاف بأن تحرير الرهائن كشف بوضوح سر المؤامرة التي كانت قد حيكّت خيوطها قبل ذلك بعدة أشهر من جانب وليم كيزي.⁶⁰⁸

كانت اتصالات كيزي-ريجان السرية مع إيران خلال الفترة 1980-1981 إيذانا بالجهود التي بذلت خلال إدارة ريجان لإنشاء علاقات سرية مع آيات الله في إيران. بعض مسئولى الولايات المتحدة كان ينظر الى إيران بوصفها حليفا للولايات المتحدة في الحرب الناشبة في أفغانستان بحكم أن الخميني يعادى الاتحاد السوفييتي بمرارة وكان يرى إن نفوذ إيران يجب إن يمتد الى أفغانستان ووسط آسيا، وآخرون كانوا يرون في إيران معادلا للعراق لسببين أولهما أن الاتحاد السوفييتي له علاقات وثيقة مع بغداد والسبب الثاني الأكثر أهمية أنهم يرون إن عراقا قويا يمثل تهديدا لإسرائيل.

خلال الحرب العراقية الإيرانية اتبعت الولايات المتحدة سياستين في نفس الوقت. كان الاتجاه الأساسي لواشنطن هو إظهار الميل نحو العراق خلال حربها مع إيران، المسئولون الذين كانوا يميلون الى العراق كانوا يرون عن حق أن إيران هي مصدر التهديد الرئيس للمصالح الأمريكية في المنطقة نظرا لان هزيمة العراق على يد النظام الإيراني الاصولي سوف يفتح الباب لسيطرة إيران على كامل الخليج الفارسي، بما في ذلك الكويت والعربية السعودية. وفي الحقيقة فإن كل العالم العربي كان يساند العراق في حربها ضد إيران، واكتفت الولايات المتحدة بمساندة محدودة

606- المرجع السابق ص142

607- المرجع السابق ص167

608- المرجع السابق ص192

للعراق بما في ذلك المعلومات المخبرائية حول إمكانيات إيران وحشودها العسكرية.

ولكن إسرائيل، بالإضافة الى المسؤولين في الإدارة الامريكية من المحافظين الجدد بمن فيهم كيزي كانت لهم وجهة نظر أخرى. منذ 1970-1987 حتى حينما كانت الولايات المتحدة تساند العراق رسميا كانت إسرائيل تمد إيران بسيل متدفق من الأسلحة والذخائر وقطع الغيار. سواء كان الأمر جزءا من صفقة سرية بين كيزي وإسرائيل وإيران أم انه لم يكن كذلك فان ادارة ريجان لم تفعل شيئا لوقف إمدادات الأسلحة الإسرائيلية الى آيات الله. بقيامها بذلك كانت تستعيد علاقاتها السابقة العتيقة مع إيران الى ما كانت عليه في عهد الشاه. حينما سقط حكم الشاه استمرت إسرائيل في التعامل مع الجيش الايراني وضباط المخابرات الذين كانت تعرفهم من قبل بالرغم من أن ضباط المخابرات المركزية الامريكية كانوا يتعاملون الآن مع المللي وآيات الله. كانت علاقات إسرائيل بإيران الخميني متعددة الوجوه. كانت لديهم علاقات مع القوات المسلحة الإيرانية ومع الأجهزة التي خلفت مخابرات الشاه السرية، وبالإضافة كان آلاف اليهود المقاتلين المتعاملين مع طبقة البازار التجارية التي هاجر الكثيرون منهم الى إسرائيل ولكنهم احتفظوا بروابطهم مع إيران بما في ذلك علاقاتهم مع عائلات آيات الله المحافظين الأكثر ثراء واستثمرت إسرائيل كل هذه العلاقات أيضا.

"كانت إسرائيل تتعامل مع النظام الايراني بوصفه شبه حليف " حسبما يقول باتريك لانج الذي كان يرأس قسم الشرق الأوسط في وكالة المخابرات التابعة لوزارة الدفاع الامريكية.⁶⁰⁹ كانوا يتعاملون مع نفس الأشخاص الذين سبق لهم التعامل معهم في ظل الشاه. خلال هذه السنوات كان الإسرائيليون يعقدون اجتماعات مرة شهريا على الأقل في أوروبا مع أشخاص من القوات الجوية الإيرانية. " وطبقا للانج فان هذه المقابلات الإسرائيلية الإيرانية كانت تعقد لعدة سنين. وأضاف أن إسرائيل كانت تسال إيران اي أنواع من الأسلحة تحتاجها ثم تأخذ قائمة الأسلحة المطلوبة لترى ما الذي يمكن إن تعطيه لطهران. في ذلك الوقت أقامت ادارة ريجان ما أطلقت عليه (عملية الوفاء) سنة 1984 لقطع إمدادات السلاح عن إيران والعراق. ولكن الإسرائيليين سخروا منها ولم يستخدم ريجان إطلاقا نفوذ أمريكا على إسرائيل لجعلها توقف إمدادات السلاح الى إيران. " كان الإسرائيليون يقومون بذلك طوال الوقت " حسبما يقول لانج: " في وكالة المخابرات التابعة لوزارة الدفاع

609- باتريك لانج مقابلة ع المؤلف مارس 2004.

اكتشفنا كل شئ عن ذلك، حينما قام احد ضباط سلاح الجو الايرانى - وهو برتبة كولونيل - بإبلاغنا بالأمر وأخطرنا بكل من له علاقة به. " ولكن - كما يقول لانج - كان فريق ريجان ينظر الى الناحية الأخرى. " كان انطباعي أننا لم نبذل محاولة جادة لوقف ذلك. " وبمجرد تحرير الرهائن سارعت إسرائيل بإمداد إيران بما قيمته 300 مليون دولار من المعدات العسكرية. واحتوت الشحنات التى أقلتها السفن على قطع غيار للطائرات الامريكية ف4 للنقل الجوى ودبابات أم 48 وحاملات جنود مدرعة أم 113⁶¹⁰.

فى سنة 1983 حدثت حادثة تكشف الى اى مدى عملت المخابرات المركزية الامريكية تحت ادارة كيزى مع المخابرات الإيرانية حينما كان من مصلحة البلدين المتبادلة أن يفعل ذلك. فى سنة 1983 كشف فلاديمير كيزيشكين الذى كان يعمل رئيسا لفرع المخابرات السوفييتية فى إيران وسرّب لبريطانيا ما يعرفه. خلال الثورة كان كيزيشكين يمثل بكفاءة مصالح الاتحاد السوفييتى فى إيران، ولكن الحضور السوفييتى فى إيران كان فى حقيقة الأمر صغيرا جدا ولا يهدد لا الولايات المتحدة ولا الشاه. طبقا لكوزيشكين الذى ألف فيما بعد كتابا عن خبرته، كان للمخابرات السوفييتية عميلان كبيران فى الحكومة وفى الدوائر الرسمية الإيرانية. كتب يقول: "لم استطع ان اصدق عيناى، ولكنها كنت حقيقة والحقائق لا تذهب هباء. لقد فوجئت بالعدد الصغير من العملاء فى إيران." ⁶¹¹ وكتب كوزيشكين أيضا ان الاتحاد السوفييتى كان يثمن الاستقرار فى إيران فى ظل نظام الشاه وان موسكو لم يكن لديها اى اتصالات سواء بالثوار الإسلاميين أو ما يطلق عليهم الجماعات الإسلامية الماركسية التى وجدت لها قضية مشتركة مع الخمينى ⁶¹². ولكن فرع المخابرات السوفييتية فى إيران لم يساند حزب تودة الشيوعى الصغير حجما والضعيف تأثيرا. وعندما ارتد كوزيشكين قرر أن يكتسب عطف الدوائر الانجلو أمريكية عن طريق تسليم المخابرات البريطانية والمخابرات المركزية الامريكية كل ما يعرفه عن حزب توده وأعضائه. " زود البريطانيين بقائمة تتضمن عدة مئات من أسماء العملاء السوفييت فى إيران. " حسبما ذكر جيمس بيل، وسرعان ما قامت المخابرات البريطانية والمخابرات المركزية الامريكية بتسليم المعلومات التى أفضى بها كوزيتسكين الى المخابرات الإيرانية:

610- سيك ص 200

611- فلاديمير كوزيتسكين من داخل المخابرات السوفييتية السرية (نيويورك 1990) ص ص 104- 105

612- المرجع السابق 200- 201

" شاطرت السلطات الإيرانية المعلومات التي أفضى بها كوزيتسكين وقامت بالقبض على 1000 من أعضاء حزب تودة وكان الكثير منهم موضوعين فعلا تحت المراقبة. ومن ضمن الذين القي القبض عليهم نور الدين كيا نوري (زعيم حزب تودة الذي أدلى باعترافات) تفيد انه كان على علاقة مع العملاء.⁶¹³ السوفييت منذ 1945، وكان تحطيم حزب تودة سنة 1983 مكملًا لتفكيك اليسار الإيراني ."

بطبيعة الحال لم يعلن شئ من ذلك على الجمهور في ذلك الوقت. الأمريكان العاديون لم يعلموا شيئًا عن تعاون المخابرات المركزية الأمريكية مع إيران الخوميني، ولم يعلموا شيئًا عن امدادت الأسلحة الإسرائيلية الى إيران، وفيما بعد لم يعلن شئ عن مبادرة إيران-كونترا الى أن قامت صحيفة لبنانية بالكشف عنها. يؤكد ميل جودمان وهو محلل سابق في المخابرات المركزية الأمريكية كان يرأس فريق الوكالة المختص بتحليل السياسة السوفييتية في العالم الثالث. يؤكد أن المخابرات المركزية الأمريكية كانت طرفًا في اتصالات كوزيتسكين - المخابرات البريطانية مع إيران. يقول جودمان " أن المخابرات المركزية الأمريكية كانت متورطة في ذلك أيضا. كانوا يتعاونون مع آية الله في وضع حزب تودة داخل الكفن. وكانت هناك اتصالات عديدة وبرقيات بشأنه. لم يكن كوزيسكين سوى أداة في يد البريطانيين وأمدهم بكثير من المعلومات." وحسبما يقول جودمان: " إن المخابرات المركزية الأمريكية والمخابرات البريطانية كانا يعملان مع العاملين في المخابرات الإيرانية الذين كانوا من قبل جزءا من تنظيم السافاك القديم الذي ببساطة حول ولائه الى الجمهورية الإسلامية الجديدة."⁶¹⁴

يعتبر حسين فردوست هو الأكثر شهرة بين مسؤولي السافاك السابقين الذين يتعاونون الآن مع النظام الجديد. كان فردوست صديق طفولة الشاه حيث كانا معا في المدرسة السويسرية، وكان معهما ريتشارد هيلمز مدير المخابرات المركزية الأمريكية فيما بعد. يشغل فردوست حاليا مركزا مرموقا في المخابرات الإيرانية منذ سنة 1970 واصبح سنة 1976 رئيسا لمنظمة التفتيش الامبراطوري التي أعاد الشاه تنظيمها. في مذكراته يصف الشاه هذه المنظمة بأنها " صيغة جديدة لما كان الفرس القدامى يطلقون عليه " عيون وآذان الملك"⁶¹⁵ كانت مهمتها تتبع التيارات السياسية في البلاد بما في ذلك رجال الدين، ولكن فردوست التحق سرا بالمعارضة الموالية للخميني. تذكر الأميرة اشرف شقيقة الشاه وهي داهية لا ترحم، تذكر أن فردوست

613- جيمس بيل النسر والأسد - ط 1988 ص 273

614- ميل جودمان Mel Goodman مقابلة مع المؤلف مارس 2004

615- محمد رضا بهلوي إجابة على تساؤلات تاريخية - ط 1980 ص 125

السافاك اخفق بشكل كامل فى إخطار الشاه بتصرفات المللى: "من الغريب أن السافاك المفترض فيهم أن يكونوا مصدر كل ما يعرف وما يجرى لم يقدموا أى تقرير عن مدى وكيفية استخدام المللى لمنابرهم المشرفة من أجل الحط من شأن الشاه. كان آخى يلتقي يوميا مع فردوست.... نفس فردوست صديق الطفولة الذى كانت مهمته جمع وتقييم واستقصاء كل تقارير المخابرات.... اننى متأكدة أن فردوست حجب معلومات هامة عن الشاه، وكان فى واقع الأمر يقوم بمفاوضات مكثفة مع الخميني خلال السنوات الأخيرة للنظام. اننى اعتقد أن الأحداث التى تلت قيام الثورة تؤكد وجهة نظري، فى وقت كان فيه كل فرد على علاقة ولو بعيدة بالشاه يتم إعدامه، ببساطة بقى فردوست حيا وفى وضع جيد يحقق النجاح فى ظل الإدارة الجديدة باعتباره احد قيادات السافاما (الاسم الذى أطلقه الخميني على السافاك)⁶¹⁶

سواء كان الأمر متعلقا بفردوست الغامض أو بغيره فان كلا من المخابرات المركزية الامريكية والمخابرات الإسرائيلية كان لكل منهما قنواته الخاصة فى المخابرات الإيرانية منذ أول يوم للثورة وحتى بداية مؤامرة كيزى نورث فى أواسط الثمانينات. ومن هذه الزاوية فان فضيحة إيران كونترا لا تعتبر انحرافا ولكنها ببساطة امتداد لعلاقة قديمة تعود الى سنة 1979. داخل ادارة ريجان كانت هناك عصابة صغيرة من المحافظين والمحافظين الجدد ممن تورطوا فى فضيحة إيران - كونترا خاصة من المسؤولين والمستشارين الذين كانوا اقرب للمؤسسة العسكرية الاسرائيلية ومؤسسة المخابرات.

إن سجل الشئون الإيرانية قد حكي وأعيدت حكايته فى العديد من الكتب والمذكرات والتقارير الحكومية الرسمية.⁶¹⁷ والعملية كلها كانت معقدة وذات أبعاد متعددة وتربط ما بين الولايات المتحدة وصفقة الأسلحة الإسرائيلية التى تم شحنها الى إيران عن طريق البحر بدعم مالي سرى لحرب العصابات فى نيكارا جوا التى ساندتها ادارة ريجان. يربط منتقدو طريقة معالجة الولايات المتحدة للمسألة الإيرانية باتهام ادارة ريجان ومستشاريه بأنهم اتخذوا من مسألة بيع الأسلحة لإيران ذريعة لإطلاق سراح الرهائن الأمريكيين فى لبنان الذين تم أسرهم بمعرفة حزب الله وهو مخلب القط بالنسبة لإيران. وفى الحقيقة فانه بالنسبة للرئيس ريجان نفسه كانت

616- أشرف بهلوى - وجوه فى مرآة: مذكرات من المنفى ط 1980 ص ص 195-196

617- ينظر على وجه الخصوص تقرير لجنة الكونجرس المكلفة باستقصاء مسألة إيران - كونترا نوفمبر

1987؛ تقرير لجنة تاور الذى أعدته اللجنة الخاصة التى شكلها الرئيس برئاسة السناتور جون تاور

(نيويورك 997)

الصفقة مع إيران تبدو ببساطة مجرد مجهود بذل للإفراج عن الرهائن، بالرغم من أن ريجان (في شهادته الأخيرة) قال انه لا يتذكر انه وافق على نقل الأسلحة الى إيران. أما بالنسبة لمستشاريه بوجه عام - خاصة المحافظين الجدد بالإضافة الى كيزي فقد كان لها هدف أكثر اتساعاً - أي أنها كانت محاولة لإعادة العلاقات مع إيران في تعارض مباشر مع سياسة الولايات المتحدة الرسمية بمساندة العراق في مقاومتها للتوسع الإيراني.

إن الذريعة التي تزرع بها كيزي ونورث للتقارب مع إيران هي إعادة التقييم لسياسة الولايات المتحدة تجاه إيران التي قام بها مجلس الأمن القومي سنة 1984. إن إعادة التقييم هذه كان وراءها عصابة صغيرة من موظفي الولايات المتحدة المعارضين للتوجه الأمريكي لصالح العراق خلال الحرب الإيرانية العراقية فقد أمر روبرت ماكفرلين، وهو مستشار الأمن القومي بمراجعة وجهة النظر المشار إليها ومن ثم بدأ العديد من العاملين بمن فيهم هوارد تيتشر ودونالد فورتير من هيئة الأمن القومي وجراهام فوللر من المخابرات المركزية وغيرهم، بدأوا حملة لمدة سنتين من أجل تغيير سياسة الولايات المتحدة لصالح إيران، ولاقت جهودهم نجاحاً طيباً وتلاقت مع جهود إسرائيل لعزل العراق والارتباط بإيران في الوقت الذي كانت فيه إسرائيل تمد إيران بالأسلح وتساند صعود اليمين الإسلامي في المناطق المحتلة والثورة الإسلامية في أفغانستان.

في سنة 1985 قام فوللر بالتعاون مع تيتشر وفورتير بعمل التقييم سيئ السمعة للأمن القومي الذي كان يدعو الولايات المتحدة لإمداد آيات الله بالأسلح واعد ورقة عمل تدعو الولايات المتحدة الى تشجيع حلفائها الغربيين وأصدقائها الى مساعدة إيران واستيراد احتياجاتها.... بما فيها احتياجاتها من بعض المعدات العسكرية المختارة.⁶¹⁸ عارض الفكرة بكل شدة كل من جورج شولتز سكرتير الدولة للشئون الخارجية و وينبرجر وزير الدفاع ولكن كيزي مدير المخابرات المركزية الأمريكية أيدها. أثناء هذه المعركة الداخلية، تدخلت إسرائيل، مستخدمة الوسيطاء مقترحة القيام بجهود أمريكية إسرائيلية مشتركة للتقارب مع إيران وبيعها الأسلحة. تولى مايكل ليدن وهو من المحافظين الجدد ومستشار هيئة الأمن القومي - تولى الاتصالات فيما يتعلق بخطة المخابرات الإسرائيلية وكلفه ماكفرلين بالسفر الى إسرائيل لمناقشة هذه الخطة. كانت إسرائيل بوجه خاص تريد أن تشحن صواريخ هوك المضادة للطائرات وقذائف ثاو المضادة للدبابات الى الإيرانيين وهي من الأسلحة التي تعد

حاسمة في حرب إيران ضد العراق بالإضافة الى تعهدات أمريكية بإعادة إمداد إسرائيل بهذه القاذفات بمجرد إرسالها. كانت الحجة التي تذرعت بها إسرائيل هي الإفراج عن الرهائن الأمريكيين، غير أن إسرائيل بطبيعة الحال - وكذلك عناصر أخرى داخل الإدارة الأمريكية كان لها أهدافها الإستراتيجية الأخرى الأبعد مدى من أجل تلبية الاحتياجات الإيرانية الاستراتيجية ولا علاقة لها بالرهائن الأمريكيين.

أيد تيتشر بوجه خاص بحماس المبادرة تجاه إيران. في سنة 1980 حينما نشبت الحرب بين إيران والعراق كتب تيتشر في مذكراته: "جددت حملتي ضد هذا الاتجاه المستجدي إزاء العراق". وأضاف أن بعض المسؤولين الأمريكيين يريدون الحرب كوسيلة لتحجيم التهديد الإيراني الذي كان في ذلك الوقت يتمثل في احتجاز 53 من الرهائن الأمريكيين. إن العاملين في الحكومة الأمريكية المختصين بالشئون العربية يرون أن الهجوم العراقي هو فرصة للقضاء على التهديد الذي تمثله الأصولية الإسلامية التي ترعاها إيران.⁶¹⁹

عرض الداعون الى بيع الأسلحة الى إيران باستفاضة وجهتي نظر جادتين. الأولى انه يوجد معتدلون داخل إيران يريدون أن يتعاملوا مع الولايات المتحدة ويستبشرون بعروض الولايات المتحدة الطيبة بتجديد ترسانة إيران الحربية المتهاكلة، ووجهة النظر الثانية التي تقول بان إيران ضعيفة داخليا وغير مستقرة وآيلة للسقوط في يد الاتحاد السوفييتي مما يمكنه أن يأتي الى منطقة الخليج. كل من وجهتي النظر المشار إليهما غير صحيحة تماما. وكذلك الاعتقاد بان شحن الأسلحة الى إيران كبادرة حسن نية يمكن أن تساعد على تحرير رهائن الولايات المتحدة في لبنان. في بداية المبادرة قال احد مسؤولي المخابرات الإسرائيلية لماكفرلين أن "الإسرائيليون يخططون لإمداد المعتدلين في إيران الذين سوف يقفون موقف المعارضة من الخميني ببيع الأسلحة" كانت الفكرة القائلة بان بعض أجنحة المعارضة الإيرانية المعتدلة سوف تظهر لتحيا الولايات المتحدة وإسرائيل وتفتح لهما ذراعيها وتقوم بالعمل ضد الخميني، هذه الفكرة أسرت الكثير من الأمريكيين المشاركين في مسألة إيران - كونترا بمن فيهم كيزي نفسه ولكنها كانت مجرد سراب. حسبما ذكر احد المسؤولين الكبار في المخابرات المركزية فان إقناع كيزي بان المعتدلين المزعومين ليسوا سوى وهم وليس لهم وجود، إن إقناع كيزي بوجهة النظر هذه سبق أن اخذ مجهودا كبيرا في أواسط الثمانينات، ويضيف هذا المسئول

619- هوارد تيتشر و جايل رادلي تيتشر - Howard Teicher and Gayle Radley Tejcher ,

Twin pillars to Desert Storm نيويورك 1993 ص ص 102 - 103

انه لم يكن هناك معتدلون يمكن التحدث إليهم سنة 1986. "حينما كان كل من أولى نورث Ollie North وماكفرلين McFarlane وغيرهم من المسؤولين الأمريكيين يخططون للقيام بزيارة سرية الى إيران لمحاولة إبرام اتفاق، أراد كيزى الذى كان قد وافق على الخطة، أراد أن يعرف ما إذا كانت الخطة قابلة للتنفيذ. "استدعاني كيزى وسألنى ما إذا كنت اعتقد أن هناك ثمة فرصة لنجاح هذه المهمة ؟" فأجبته: ليس كثيراً. وفي الحقيقة لم تكن هناك ثمة فرصة للنجاح. "وسئل عما إذا كان كيزى يعتقد أن الإيرانيين المعتدلين سوف يقومون فى النهاية بالاستجابة لمناورة الولايات المتحدة هذه بشكل ايجابي فكان ردى على ذلك المسئول "بعد أن تحدثوا معى فإن هذا الأمر ليس محتملاً." ⁶²⁰ يقول و. باتريك لانج وكان فى ذلك الحين يشغل وظيفة مدير قسم الشرق الأوسط فى وكالة المخابرات فى الشرق الأوسط التابع لوزارة الدفاع: "كانت وجهة نظرهم أن هناك العديد من المعتدلين فى إيران الذين ليسوا على النحو الذى يظهرون به وهو أنهم مجموعة من الجحوش. وصدقت على كلامه قائلاً: بالضبط هم كذلك - مجموعة من الجحوش."

أما بخصوص الافتراض الهام بأن إيران قد تسقط فى يد الاتحاد السوفيتى فهو واضح الخطأ. فقد كان الاتحاد السوفيتى يقاتل المتمردين فى أفغانستان ولم يكن له سوى القليل من الأرصدة وربما لم يكن له أرصدة على الإطلاق داخل إيران، ولم يكن لدى القادة السوفيت أى نية لعبور الخط الأحمر فى الخليج الفارسي وهى المنطقة التى أعلنها أيزنهاور وكارتر منطقة سيطرة أمريكية. ومع ذلك ففي مايو 1985 فى مذكرة الى كيزى بعنوان "نحو وضع سياسة تجاه إيران" حاجج فوللر (من المخابرات المركزية الامريكية) بأن "نظام الخميني يترنح.... إن الولايات المتحدة لا يكاد يكون لديها أوراق تلعب بها، بينما لدى الاتحاد السوفيتى الكثير منها." طبقاً لفوللر كان محطو المخابرات المركزية الامريكية يشعرون بأن موسكو تحرز "تقدماً فى تطوير فعاليتها فى طهران" وأن سياسة الولايات المتحدة بحظر بيع الأسلحة الى إيران قد تخدم الاتحاد السوفيتى وتسهل مصالحه أكثر مما تقدم لنا" ويضيف:

ربما تبدو عمليين أكثر إذا فكرنا فى إطار أكثر جرأة - وربما أكثر مغامرة - بسياسة تفرض إن تكون الولايات المتحدة لديها صوت على الأقل فى الوضع الذى اخذ يتكشف الآن. فنحن الآن - إلا إذا كنا محظوظين حقاً - نقف موقفاً لا يجعلنا

620 - - مسئول سابق بالمخابرات المركزية الأمريكية 0 مقابلة مع المؤلف يوليو 2004

نكسب شيئاً ونخسر المزيد فى مجرى التطورات الراهنة فى إيران التى تقع كلها خارج سيطرتنا.⁶²¹

كان فولر يطور وجهة نظر من شأنها إن تجعله يزداد تعاطفا مع الأصوليين الإسلاميين. فى شهادته أمام لجنة تاور المشكلة من ثلاث شخصيات اختارها الرئيس ريجان ويقودها السناتور جون تاور من تكساس شكلت لتقوم باستقصاء دور هيئة الأمن القومي فى فضيحة إيران- كونيترأ ذكر فولر إن ثمة إشكالية تتمثل فى إن النظام الإيرانى ينظر إلينا كأعداء نكن الحقد على الجمهورية الإسلامية بصفة مبدئية⁶²² ويصر فولر فى تقريره المثير للجدل وفى تحليلاته الأخرى إن الولايات المتحدة سوف تدفع بإيران الى المعسكر السوفييتى ما لم تسمح لإسرائيل وغيرها بتسليح الملاى ويرى بأنه الى الحد الذى يمكن لحلفاء الولايات المتحدة بمن فيهم إسرائيل إن تملأ الفراغ العسكري فى إيران فان ذلك سوف يكون مقياسا لقدرة الغرب على تحدى الاتحاد السوفييتى⁶²³

حظي تحليل فولر بمناقشة ساخنة من قبل مسئولين آخرين فى المخابرات. يقول تقرير فولر إن " الثورة الإيرانية كانت زيفا وكان يقودها شلة من الإصلاحيين الزراعيين الذين لا يعنيه الإسلام حقيقة وانهم سوف يصلون الى تفاهم مع الاتحاد السوفييتى." حسبما يذكر لانج " لقد حصلت على تقرير آخر جديد صدر بعد خمسة أشهر، وانتهى الى العكس تماما ولكنه لم يحدث نفس التأثير" فى خلال ذلك كان فولر وتيتشر وغيرهما مستمرين فى الضغط لوضع تقرير فولر فى إطار السياسة الأمريكية محاولين استصدار مشروع قرار رئاسي يدعو الى: "سياسة عنيفة ترمى الى الحيلولة دون أى تقدم سوفييتى فى المدى القصير بينما تجرى محاولة استعادة وضع الولايات المتحدة فى إيران الى ما كانت عليه أيام الشاه." إن الدافع وراء ذلك يكمن فى ظروف الحرب الباردة التى كانت موجهة ضد الاتحاد السوفييتى بما فى ذلك الدعوة الى قيام تحالف مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية التى تتضمن " مقاومة مستمرة من جانب إيران للتوسع السوفييتى (بوجه خاص فى أفغانستان)." ويشجع مشروع القرار إسرائيل وغيرها من حلفاء الولايات المتحدة على تسليح إيران ودعوة الولايات المتحدة الى " إنشاء اتصالات مع إيران ومساندة القادة

621- تقرير لجنة تاور ص 112-113

622- المرجع السابق ص 114

623- المرجع السابق ص 115

الإيرانيين الذين يستجيبون لتحسين العلاقات مع الولايات المتحدة " ويطالب أيضا
إذاعة " صوت أمريكا " بزيادة جهودها من أجل فضح ادعاءات موسكو الإسلامية "

يكتب تيتشر: " مازالت إيران تمثل الهدية الإستراتيجية فى اللعبة الكبرى
الجديدة " ويتفق ماكفرلين مع تحليل فولر ويوجهني ومعني فورثير لإعداد مشروع
قرار خاص بتوجيهات الأمن القومي. ويستند المشروع الى تحليل فولر ويناقش
مسألة.... إن الولايات المتحدة يجب إن تقيم حوارا مع القادة الإيرانيين. ويتضمن
الاقتراح إمداد إيران بمعدات عسكرية مختارة طبقا لمتطلبات كل حالة على
حدة. ⁶²⁴ ومضت هذه المبادرة الخاصة بإيران فى طريقها ولكنها ضربت فيما بعد
من قبل شولتز و وينبرجر. اشر الأخير على مشروع تيتشر بكلمة: " عبث " وذكر
وينبرجر انه أضاف تعليقا يقول: " انه يشبه الدعوة الموجهة الى القذافي لحضور
مأدبة عشاء فاخرة " ⁶²⁵ وحسبما يذكر تيتشر فان نائب الرئيس بوش وكذلك كيزى
مدير المخابرات المركزية الامريكية قد أيدا المشروع بقوة ⁶²⁶

بنهاية ادارة ريجان أصبحت مبادرة إيران - كونترا تحت الأضواء، وتسم
استقصاؤها من قبل بعض الصحفيين ومن مدع خاص ومن لجان برلمانية. لقد سقط
غصن الزيتون الذى لوحث به الإدارة الامريكية للإيرانيين لم يفرج سوى عن
رهينة واحدة خلال المبادرة ولم يكن الإفراج بالضرورة نتيجة لها. ولم يتحدث احد
من الإيرانيين المعتدلين، أما هؤلاء الذين تعاونوا مع ادارة ريجان واسرائيل سرا
مثل على اكبر هاشمى رفسنجانى الذى سيغدو رئيسا لإيران فقد تخفوا تحت مظهر
الأكثرين تشددا.

مع انسحاب القوات السوفييتية انتهى الجهاد الافغانى أو هكذا بدا الأمر.
ولكن يظل مستمرا مدى مشروعية هذا الصراع، بما فى ذلك منفذي العمليات
الإرهابية المدربين جيدا والآلية الإسلامية المنتشرة فى ربوع العالم كمصدر قلق
للولايات المتحدة والغرب.

وتسقط افغانستان فى يد حركة طالبان الوهابية وتداهم الجزائر بحرب أهلية
مع اليمين الاسلامى. ويشن الإرهابيون الاسلاميون هجمات مدمرة فى مصر

624- تيتشر و تيتشر ص ص 331-332

625- تقرير لجنة تاور ص 119

626- تيتشر و تيتشر ص 332

والعربية السعودية ولبنان ويوحّد بن لادن القاعدة. في خلال ذلك تجاهد الولايات المتحدة لتبني سياسة متماسكة تجاه الإسلام السياسي. ويكون من نتائج فشلها في ذلك واستمرار نظرتها المعتدلة تجاه اليمين الإسلامي ما أسفرت عنه بشكل مؤلم أحداث 11 سبتمبر 2001.

*

الفصل الثاني عشر

صدام الحضارات؟

انتهت الحرب الباردة سنة 1991. ولكن إذا كانت الحرب الباردة هي الحرب العالمية الثالثة، فهل يعنى هذا كما يجادل بعض المحافظين، أن الولايات المتحدة متورطة حاليا فى الحرب الرابعة، ولكن هذه المرة ضد الإسلام؟ هل الأصولية الإسلامية هي الشيوعية الجديدة؟ هل الحرب على الإرهاب فى القرن الواحد والعشرين يعادل الحرب ضد الاتحاد السوفييتى؟ وإلى أى حد فى الحقيقة كان تهديد الإرهاب الإسلامى خطيرا؟ وكيف تغيرت - إذا كان ثمة تغير على الإطلاق - علاقة أمريكا بقضية الإسلام السياسى فى نهاية الحرب الباردة؟

إن الموضوع الأساسى لهذا الكتاب هو أن الإسلام السياسى كان ينظر إليه باعتباره حليفاً ثميناً للولايات المتحدة أثناء الحرب الباردة. هل صار هذا التحالف باطلاً أو غير ذي جدوى بعد اختفاء الاتحاد السوفييتى بوصفه منافساً للولايات المتحدة؟ هل يوجه اليمين الإسلامى غضبه إلى شياطين الغرب العلماني بعد القضاء على العدو الشيوعى؟ هل تواجه الولايات المتحدة الآن عدواً على النطاق العالمى، وحشاً مثل الهيدرا متعدد الرؤوس مرتبطاً بشبكة من الدول - إيران، سوريا، ليبيا، السودان، والعربية السعودية الذين يطلق عليهم مايكل ليدن، بطل إيران كونترا اسم "أرباب الإرهاب"؟

منذ 11 سبتمبر 2001 اكتسب الإحساس بأن الولايات المتحدة والعالم الإسلامى يقفان على شفا صدام، اكتسب هذا الإحساس مصداقية، وإذا كانت الحرب العراقية الأولى سنة 1991 قد شهدت بداية النظام العالمى الجديد التى لم تدم سوى لفترة قصيرة فهل ترمز الحرب العراقية الثانية (سنة 2003) إلى عصر مختلف تماماً: عصر الصدام بين الحضارات؟

إن أصحاب هذه النزعة التى اكسبها الشعبية كل من برنارد لويس وصمويل هنتجتون - يرون أن حرب الرئيس بوش على الإرهاب ليست مجرد حرب على القاعدة وحلفائها الأصوليين وإنما هي معركة هائلة تضع الحضارة المسيحية اليهودية على شفا جرف هار من الصراع الجهنمي مع العالم الإسلامى، واتساقاً مع

هذا المفهوم جاء تعبير الحرب على الإرهاب المعروفة فى البنتاجون اختصاراً بالحروف الاولى من (Global War on Terrorism= G.Wot (gee what فى تناعم مع كلمة "جهاد". "Jihad"

ومن هنا كانت تصريحات شخصيات قيادية مثل جيمس وولسي المدير السابق للمخابرات المركزية الامريكية والمعلق نورمان بود هورتز بان المعركة ضد الإسلام هي فى حقيقة الأمر حرب عالمية رابعة، ويلحق بهم فى هذا الاتجاه عدد من الشخصيات الأساسية فى ادارة بوش الذين يضعون قوة اليمين الاسلامى وأحياناً قوة العقيدة الإسلامية نفسها موضع المقارنة مع الفاشية أو الشيوعية. أنها، حسبما يقولون، منافس عبر العالم يشكل وجوده خطراً يهدد الوجود الأمريكى، ولذلك فإنه يجب القيام بإجراءات لم يجر التفكير فيها من قبل. إن خوض غمار الحرب العالمية الرابعة يتطلب نظرية جديدة لحروب وقائية شاملة، يتطلب وضعاً هجومياً يتضمن حروباً ضد أفغانستان والعراق ودول أخرى وزيادات كبرى فى موازين القوة العسكرية والمخابراتية. أنها تعنى خلق حالة من المراقبة فى الداخل بالتعاون مع ادارة الأمن الداخلى وقانون الأمن الوطنى وقيادة شمالية للبنتاجون لتحريك القوات المسلحة الى داخل الولايات المتحدة وأحكام جديدة لإدارة وزارة العدل تعطى المباحث الفدرالية والبوليس والقوات المشتركة لمحاربة الإرهاب موزعة على 53 مدينة من المدن الأمريكية تعطيها سلطات خاصة جديدة.

غير أنه بالفحص الدقيق لمقولة تصادم الحضارات نجد أن الحرب على الإرهاب وحملة بوش من أجل إعادة هيكلة الشرق الأوسط، نجد أنها تعج بالأوهام المتنافرة والتناقضات والأكاذيب المفضوحة. فالعدو الذى هاجم الولايات المتحدة فى 11 سبتمبر 2001 لم يكن هو الإسلام ولا الأصولية الإسلامية ولا الإخوان المسلمون ولا حزب الله ولا حماس ولا أى جماعة أخرى من الجماعات الإسلامية الميالة للعنف المنتمية الى اليمين الاسلامى، ولكنها كانت القاعدة. إن تنظيم أسامة بن لادن ليس قوة دولية وهو لا يشكل تهديداً للولايات المتحدة. إنه جماعة من المتعصبين يحكمه بناء محكم التنظيم والإدارة يتطلب ما هو أشبه بأسلوب المافيا أو الولاء القائم على قسم الدم، وهجومه على نيويورك وواشنطن سنة 2001 اغضب العالم كله. والهجوم المضاد الفعال باستخدام المخابرات والإجراءات القانونية والضغط الدبلوماسي والضربات العسكرية المحكمة يمكن أن يضعفه ثم يقضى عليه. ومما لا شك فيه أن القضاء على القاعدة كان يمكن أن يتم بدون الحرب فى أفغانستان وبدون الحرب على العراق وبدون "الحرب على الإرهاب". غير أن ادارة

بوش بالغت كثيرا فى التهديد الذى تمثله القاعدة نفسها. ومن المؤكد أن جماعة بن لادن تستطيع أن تسبب دمارا شديدا. فمذ 9/11 ضربت أهدافا فى العربية السعودية واسبانيا وتركيا وأماكن أخرى. وبالرغم من أن الادعاء غير المؤسس للمدعى العام اشكروفت سنة 2001 بان الآلاف من ناشطى القاعدة قد اخترقوا الولايات المتحدة، على الرغم من ذلك لم يحدث طيلة أربع سنوات من 2001/9/11 لم يحدث حادث عنيف واحد من جانب القاعدة فى الولايات المتحدة. ولا يوجد هناك أى دليل على أن القاعدة حصلت أو على وشك الحصول على أية أسلحة نووية أو بيولوجية أو كيميائية. باختصار فانه بينما يمكن لبن لادن أن يوجه ضربات إرهابية وقد يمكنه أن يفعل ذلك مستقبلا فان التهديد الحقيقي الذى تمثله القاعدة يمكن أن يجهض ويمكن التعامل معه. إن الكثير من الدول الأخرى بما فى ذلك إسرائيل وايرلندا وإيطاليا قد مرت عبر تهديدات إرهابية أكثر خطورة خلال سنوات عديدة.

كذلك فانه لا القاعدة ولا رفاقها فى الايدولوجيا ولا اليمين الاسلامى كله ولا العالم الاسلامى يمثل هذا التحدي للسيطرة الامريكية التى كان يمثلها بوضوح الاتحاد السوفييتى، وليس هناك أى نوع من التوحيد بين دول الشرق الأوسط ومعظمها يعانى من الإفقار والعنف وتضربها الانقسامات الداخلية ولا يمكنها أن تشكل تهديدا للولايات المتحدة على النحو الذى يبرر الإقدام على ما يطلق عليه " الحرب العالمية الرابعة". غير أن إطلاق صفة التهديد الاسلامى بهذه المبالغة الشديدة مقصود به اصطناع حجة تستند إليها ادارة بوش وحلفاؤها من المحافظين الجدد لتوسيع التواجد الامريكى فى الشرق الأوسط الكبير الذى يشمل باكستان واسيا الوسطى ومنطقة شرق البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر والمحيط الهندي. يحق لنا أن نتساءل ما إذا كان الاحتلال الامريكى للشرق الأوسط يعود الى أهداف أخرى غير مناهضة الإرهاب، وما إذا كان المقصود به محاولة المحافظين الجدد أن يبسطوا السيطرة العالمية للولايات المتحدة وزرع العلم الامريكى فى هذه المنطقة الحيوية برغم أنها تعانى من عدم الاستقرار؟ أم هل يحدث ذلك لان حوالى ثلثي بترول العالم يوجد فى العربية السعودية والعراق؟ أم بسبب أن الولايات المتحدة أقامت هذه العلاقات الحميمة مع ارييل شارون واليمين الاسرائيلى؟

إن تصوير الأمر على أن الإرهاب الاسلامى هو الهدف الحقيقي للولايات المتحدة يتناقض مع الأهداف السياسية لإدارة بوش فى الشرق الأوسط. وإذا كان العدو حقا هو الإرهاب الاسلامى فلماذا توجه الإدارة كل هذه الجهود ضد العراق وسوريا ومنظمة التحرير؟ فكل من رئيس سوريا بشار الأسد ورئيس منظمة التحرير

الفلسطينية الراحل ياسر عرفات كانا منافسين لدودين للإخوان المسلمين بل لقد وجدا نفسيهما يضافان بلا مناسبة لقائمة حلفاء القاعدة. كذلك اختارت ادارة بوش بمهاجمة العراق هدفا غير مناسب. فمنذ توليه السلطة سنة 1968 كان صدام حسين عدوا لدودا للإسلاميين بدءا من إيران الخوميني الى الجماعات الإرهابية الشيعية وحتى القاعدة نفسها. وكان حزب البعث العربي الاشتراكي في كل من العراق وسوريا علمانيا مؤكدا وكانت جهود ادارة بوش لإلحاق العراق بالقاعدة موضع سخيرية من جانب المخابرات المركزية الامريكية ومن جانب ادارة الدولة. وفي الحقيقة فإنه بمهاجمة العراق خلق الرئيس بوش قضية مشتركة مع اليمين الاسلامي: فقبل وأثناء وبعد الغزو ساندت الولايات المتحدة التحالف الموجود في المنفى المسمى المؤتمر الوطني العراقي الذي كان يلعب دورا أساسيا، إذ يضم حزبين شيعيين أصوليين هما المجلس الأعلى للثورة الإسلامية في العراق وحزب الدعوة الاسلامي. وكل من هذين الحزبين له ارتباطات وثيقة بجمهورية إيران الإسلامية وعمل كلاهما مع آية الله على السيستاني.

إن ادارة بوش لم تنتق فقط الأهداف الخاطئة بل إن حربها العسكرية على الإرهاب تمت كذلك بالطريقة الخاطئة التي تتبعها للحد من دعاوى اليمين الاسلامي. فوضع القاعدة والجهاد الاسلامي ومثيلاتها من الجماعات الإرهابية في جانب وتكديس جماعات اليمين الاسلامي الأخرى أكثر اتساعا في المؤسسات والأحزاب السياسية في العالم الاسلامي إنما يمثل في الواقع تهديدا خطيرا ليس فقط لأمن الولايات المتحدة وإنما للحكومات والمتقنين والتقدميين والمفكرين الأحرار في مجموعة الدول التي تمتد من المغرب الى اندونيسيا. ولكن هناك تهديدا حقيقيا آخر في الشرق الأوسط يتمثل في جبهة الخلاص الإسلامية في الجزائر والإخوان المسلمين في مصر الى حماس في فلسطين الى الأصوليين الشيعة في العراق الى حزب الجماعة الإسلامية في باكستان وجميعهم يساندون رجال الدين الوهابيون النصوصيون في العربية السعودية، بالإضافة الى منظمات أخرى مثل رابطة لعالم الاسلامي والبنوك الإسلامية. ولكن هذا التهديد ينبغي ألا يتم التعامل معه بالوسائل العسكرية. وفي الحقيقة فإن الأمر سوف يزداد سوءا بالتناسب مع التدخلات السياسية والعسكرية الاقتصادية في شؤون المنطقة. إن الولايات المتحدة لن تستطيع التغلب على الغضب والقمع والرفض الذي يغذي الجماعات الإسلامية إلا بالانسحاب السريع من أفغانستان والعراق وخفض التواجد الصلف للولايات المتحدة في العربية السعودية والخليج وتوجيه المساعدات الامريكية الى الوطنيين الفلسطينيين بدلا من إسرائيل. ويجب أن تكف الولايات المتحدة عن مساندة المعارضة العدوانية من

جانب إسرائيل للقضية الوطنية الفلسطينية. هذا هو الموقف الذي تستطيع الولايات المتحدة أن تتخذه لتطفئ نار الغضب والكبت والرفض الذي يثير ثائرة الإسلاميين.

إن تحجيم التدخل الأمريكي في الشرق الأوسط يتناقض مع سياسة الإدارة الأمريكية المتبعة حالياً في الشرق الأوسط. ولكن الإدارة طرحت ربما بخبت شديد فكرة المعركة الواسعة ضد الإرهاب لتواصل سياستها الرامية إلى إعادة رسم خريطة الشرق الأوسط بكامله. إن المحافظين الجدد الراديكاليين أو "المثاليين" من مسئولى الإدارة الأمريكية إلى المتربعين على كراسيهم من الاستراتيجيين في "مواقع إعداد الأفكار" (مثل المؤسسة الأمريكية للمشروعات الرأسمالية ومؤسسة هدمسون ومشروع القرن الأمريكي الجديد) الذين أعلنوا أن الحروب في أفغانستان والعراق هي أولى الخطوات التحريرية الجامعة ضمن خطة كاسحة للسيطرة على إيران وسوريا والعربية السعودية ودول الخليج بل وأكثر من هذا أن أغلبية المسئولين في إدارة بوش في نفس الوقت الذي يتجنبون فيه عرض وجهات نظر المحافظين الجدد يؤيدون فكرة أكبر وجود أمريكي عسكري في المنطقة من شمال إفريقيا إلى اندونيسيا.

ويجادل المفكرون الجادون المنتقدون لسياسة بوش الحالية التي تقوم على محاربة الإرهاب بالقوة المسلحة وادعاءاته الامبريالية - يجادلون بأنها تمثل إستراتيجية لضمان الرد المسلح وإنها مخططة لخلق المزيد من الإرهابيين أكثر منها لقتلهم. إن الغضب الناجم عن احتلال العراق وأفغانستان من شأنه أن يجذب المزيد من الجهاديين إلى المعركة في هذين البلدين وإن هذا الصراع يمكن أن يمتد إلى باكستان والعربية السعودية حيث يمكن أن يتسبب في إسقاط الحكومات المحافظة التي تلتحف العباءة الإسلامية ليخلفها في الحكم جماعات متأسلمة متضاربة منشقة أكثر راديكالية مرتبطة بين لادن والمجاهدين وطالبان والوهابيين الأكثر تطرفاً وتعمل سرا.

ثمة وجه آخر لسياسة إدارة بوش الشرق أوسطية التي يمكن أن تؤدي إلى نتائج لا تقل ضرراً، وهي دعوته المتبجحة من أجل إجراء إصلاح ديمقراطي.

إن مساندة إدارة بوش لدعوى الديمقراطية في المنطقة هي على الأقل السطح الظاهر من سياسته الصادمة ذات الوجهين - فلعدة سنوات، خاصة خلال الحرب الباردة كانت الولايات المتحدة تساند الدكتاتوريات التي قفزت إلى السلطة نتيجة الانقلابات سواء كانت ملكية أو إماراتية أو رؤساء جمهوريات مدى الحياة في المنطقة وحول العالم، في العربية السعودية والأردن ومصر والخليج واستمر الكثير

فى الحكم جزئيا بفضل تحالفهم مع اليمين الاسلامى، وبتأييد واضعى السياسة الامريكية وخلال هذه السنوات كانت المعارضة للأوتوقراطية اللصوصية وللأنظمة اليمينية الحاكمة تأتى أساسا من اليسار ومن الليبراليين الأمريكيين ومن اليسار الاوروبى ومن الاتحاد السوفييتى. مما لاشك فيه أن القضاء على الدكتاتوريات وقيام الديمقراطيات الناشئة فى العالم العربى وإيران وباكستان وأفغانستان وإفريقيا الإسلامية ينبغى أن يقيم بوصفه هدفا نبيلًا. ولكن النص الديمقراطى الذى تقدمه ادارة بوش أمر مشكوك فيه - أولا لأنه انتهازي فالدافع لإدارة بوش للتركيز على الإصلاح الديمقراطى العربى إنما جاء لان غزو العراق سنة 2003 تم بزعم العثور على أسلحة دمار شامل أعدها صدام حسين ولكشف علاقاته المزعومة بتنظيم القاعدة. وعندما تكشف كذب هذين الادعاءين تحول بوش الى ذرائع جديدة وهى أن هدف الحرب هو استحضار الديمقراطية للعراق. وثانيا لان ادارة بوش تفرق بخبث بين الدكتاتوريات الموالية لأمريكا فى الشرق الأوسط والديمقراطيات المعارضة لها فتركز ضغوطها على النوع الثانى. وبخصوص سياسة ادارة بوش الامبريالية فى الشرق الأوسط فان مطالبتها بتطبيق الديمقراطية ليست فى الواقع سوى رأس حربة لمزيد من تكثيف التدخل السياسى والعسكرى فى المنطقة. إن الديمقراطيات الحقيقية فى الدول المنتجة للبترول يجب أن تتبع سياسة جريئة ومبادرات وطنية، وهذا هو الضمان الوحيد لكشف خطط بوش الطائشة طويلة الأمد تجاه المنطقة. إن الاعتقاد الساذج بان الولايات المتحدة باستمرارها فى إتباع إستراتيجية تغيير الأنظمة فى جزء من العالم يحوى ثلثي بتروله يتطلب ظهور حكومات قد تقاوم السيطرة الإقليمية للولايات المتحدة. من المؤكد أن ادارة بوش لا تفضل التطور الديمقراطى فى البلاد العربية أو إيران مما يمكن أن يؤدى الى توثيق الروابط مع دول مثل روسيا والصين على حساب الولايات المتحدة الأمريكية ومن هنا فهى تتادى بدلا من ذلك بتغيير ديمقراطى فى الشرق الأوسط يسمح لإدارة بوش أن تمارس الكثير أو القليل من الضغوط حسبما ترى على حكومات المنطقة من اجل تحقيق أهداف معينة تتعلق بأمنها القومى. وهكذا يتم حاليا عصر سوريا بين إسرائيل من ناحية والعراق المحتل وأفغانستان الذى تحكمه قوات الناتو (حلف شمال الاطلسى)، من ناحية أخرى. وقد حققت الولايات المتحدة منذ سنة 2001 وضعًا متفوقًا لم يسبق له مثيل فى المنطقة ولا يرغب المحافظون الجدد الذين سعوا من اجل نشوب الحرب فى العراق ونجحوا فى ذلك، لا يرغبون فى اكثر من جهود أمريكية متزايدة من اجل فرض تغيير النظام بالقوة فى سوريا وإيران وإيجاد كتل من الدول الجديدة تتعاون مع إسرائيل وتركيا وباكستان ولكنها تنظم وتدار تحت الهيمنة الأمريكية.

ولكن ماذا عن الأوتوقراطيات الموالية لأمريكا كالعربية السعودية والأردن ومصر؟ هنا يجب أن توزن الجهود المبذولة بميزان الذهب الى الحد الذي يمكن فيه للرئيس بوش أن يوسع ضغوطه من اجل ديمقراطية امبريالية فيما وراء العراق وسوريا وإيران ومنظمة التحرير الفلسطينية الى الدول الموالية للغرب فى المنطقة لأنها تتشكل من مكونات لها تطلعات مختلفة ورؤى مختلفة. وقد أرسلت الإدارة الامريكية إشارات مختلفة الى حليفتيها العربيتين الأكثر أهمية. يريد التيار الأساسي من واضعى السياسة الامريكية والمسؤولون فى المخابرات المركزية الامريكية والإدارة الامريكية وحلفاؤهم ممن لهم استثمارات فى المنطقة كشركات البترول والبنوك ومقاولو الدفاع، يريدون من إدارة بوش إن توالى الضغوط على مصر والرياض من اجل التغيير بينما يحاول غيرهم الذين يبدو أنهم يسرون طبقا لمزيد من التوجهات الإيديولوجية، أن يستعرضوا عقيدتهم المسيحية بان تجربة العراق ينبغي أن تفرض بالقوة فى كل من مصر والسعودية. وبعض المحافظين الجدد الراديكاليين من أمثال ريتشارد بيرل ومايكل ليدين يضع العربية السعودية مع سوريا وإيران فى كومة واحدة كمساندين للقاعدة ويطالب بإضافة السعودية الى قائمة محور الشر التى يصنفها الرئيس كأعداء وجميعهم تجاھلوا أن مصر والسعودية كلتاھما كانتا تحت ضغوط داخلية وخارجية استمرت عدة عقود من اجل لبرلة (تحرير) أنظمتھما وان كلا منھما كان يقوم من حين لآخر وبحرص ببعض الإصلاحات الديمقراطية ثم لا يلبث أن يتراجع. أن الحاجة الى استخدام الأساليب الناعمة مع هذين البلدين عادة ما يغيب عن شركاء بوش فى الإدارة، الأكثر تعلقا بالاعتبارات الإيديولوجية.

غير انه فى سياق اختبار سياسة الولايات المتحدة تجاه اليمين الاسلامى فإننا نجد أن الحالتين التوأمين لمصر والسعودية محفوفة باحتمالات خطيرة. فالضغوط الزائدة من اجل "اللبرلة" فى اى منھما قد تؤدى الى وقوع السلطة فى ابدى اليمين الاسلامى. وكما حدث أثناء الحرب الباردة مثلا حينما فضلت الولايات المتحدة الاتجاهات الإسلامية على القومية العربية. وعبرت ادارة بوش وحلفاؤها من المحافظين الجدد أيضا عن تفضيلها لليمين الاسلامى. وإذا اضطرت الولايات المتحدة أن تختار بين الأنظمة فى مصر والسعودية، وأیها تفضل: القومية العربية ذات التوجه اليساري أو اليمين الذى يستند الى الإسلام فان واشنطن سوف تفضل الإسلام كل مرة برغم دعاویها وبياناتها البليغة بشأن الصدام بين الحضارات. إن ادارة بوش لم تتردد إطلاقا فى البحث عن حلفائها فى اليمين الاسلامى. فى العراق وجدت نفسها بعد الحرب فى شراكة مع آية الله السيستانى وحزبان إيرانىان

متصلان معا والقوى المنظمة للشيعة الأصوليين. كذلك فضل القادة من المحافظين الجدد مساندة اليمين الشيعي في أماكن أخرى بما في ذلك داخل السعودية نفسها حينما تجاوزوا الشعارات المنادية بالإصلاح الديمقراطي ليطالبوا بتقسيم العربية السعودية، وإنشاء دولة شيعية في الإقليم الشرقي للسعودية حيث يشكل الشيعة الأغلبية. وفي غزة والضفة الغربية مضى أرييل شارون يتلاعب باستخدام حماس والجهاد الإسلامي وحزب الله ليقطع أوصال منظمة التحرير الفلسطينية. وفي سنة 2005 ظهرت حماس كأقوى قوة انتخابية في غزة. ويبدو أنه حتى هؤلاء الذين يصرون أشد التحذيرات حول معركة هائلة بين الإسلام والمسيحية جاهزون لمحاولة البحث عن توافق مع الجناح اليميني للإسلاميين.

ومع ذلك وبهدف كسب الرأي العام تكتفي إدارة بوش بتصوير سياستها في الشرق الأوسط على أنها تقوم على أساس تصادم الحضارات ويقوم بعض حلفائها وخاصة اليمين المسيحي بالخط من قدر الإسلام وتصويره كعقيدة للشر والعنف. والادعاء بأن الأصوليين الإسلاميين وابن لادن يكرهون ما نتمتع به من حريات أكثر مما يكرهون سياساتنا. إن بوش في واقع الأمر يعد مسرح الحرب على الإرهاب بأشد التعبيرات صرامة حيث يصور أمريكا بأنها بلد يخشى الله في مواجهة محور الشر. وبالرغم من الادعاءات المتناقضة بشأن الحرب على الإرهاب فإنه يمكننا القول بأن الملايين من شعب الولايات المتحدة قد تم بيعهم لفكرة أن العالم المسيحي والعالم الإسلامي لا مجال أمامهما في النهاية سوى أن يحارب أحدهما الآخر.

ماذا حدث خلال الفترة من 1991-2001 ليتحول الإسلام من حليف إلى عدو لدود. الإجابة السهلة تلقى اللوم على الصدمة التي تلت هجمات القاعدة سنة 2001. ومن أجل متابعة التحول من النظام العالمي الجديد إلى تصادم الحضارات يجب أن نشير إلى ثلاث أزمنة للإسلام السياسي خلال التسعينات: الجزائر، مصر وصعود طالبان. كانت السنوات الاثنتي عشر بين الحربين العراقية الأولى إلى الحرب العراقية الثانية، كانت مرحلة من التغييرات المذهلة بالنسبة للشرق الأوسط. ففي الجزائر دفع الإسلام اليميني البلاد إلى حرب أهلية وحشية حينما أنكر عليه حقه في الانتصارات التي حققها في انتخابات 1991. وفي مصر كادت حركة سرية إرهابية يؤيدها الإخوان المسلمون سرا أن تسقط مبارك في منتصف التسعينات. بعد ذلك ساندت باكستان حركة طالبان التي سيطرت على كابول وفرضت على البلاد أكثر الأنظمة الثيوقراطية صرامة.

خلال هذه الأزمة فشلت ادارة بوش وبيل كلينتون فى تطوير سياسة متماسكة تجاه الإسلام السياسي. وبالرغم من أن الإخوان المسلمين واليمين الاسلامى السياسى سيطروا على إيران وأفغانستان وباكستان والسودان وهددوا مصر وسوريا والجزائر والسلطة الفلسطينية لم يستطع أيا من كلينتون أو بوش أن يدرك النتائج والتداعيات، ولم يتنبه نظام المخابرات المركزية الامريكية المزهو بنفسه وآلياته المضادة للإرهاب لم يتنبه بادئ ذي بدء الى ظهور القاعدة، ثم وبعد أن تمكنت المنظمة من إثبات تواجدها بسلسلة من الهجمات التى قامت بها أواخر التسعينات، فشلت (المخابرات الامريكية) فى وقفها. ولو أنها تجاوبت بشكل مختلف وفيما لو تمكنت من إدراك مغزى الحركة الإسلامية فى ذلك الحين، وفيما لو تمكن محللو المخابرات المركزية والعاملين فيها من تتبع التنظيمات العديدة التى خرجت من عباءة الإخوان المسلمين وطالبان فلربما تغير مجرى أحداث سنة 2001، وما كان ليحدث ما حدث بعدها. وبالتأكيد لو كانت الولايات المتحدة قد وضعت سياسة متماسكة تجاه الإسلاميين خلال التسعينات لأصبح الادعاء بوجود خطر يواجه أمريكا فيما يطلق عليه تصادم الحضارات، ما كان ليكتسب ما يتمتع به الآن من جاذبية.

بنهاية الحرب الباردة تباينت ردود الفعل فى الولايات المتحدة - إزاء حركة إعادة البعث الإسلامية بين الاتجاهات الأكاديمية والهيئات المختصة برسم السياسات. فالبعض كان يرى تطوير سياسة عقلانية تجاه الإسلاميين، وآخرون كانوا يريدون التعامل معهم على أساس كل حالة على حدة أى تختلف من بلد الى آخر. كان البعض يرى ضرورة مجابهة الإسلاميين والبعض الآخر يرى ضرورة التعامل معهم أو مهادنتهم. كان البراجماتيون يرون أن سياسة الولايات المتحدة يجب أن تظل قائمة على مساندة الأنظمة الحالية الموجودة فى مصر وعمان والجزائر وغيرها. ولكن ذوى الفكر المثالى كانوا يرون انه ينبغى تأييد الفكرة القائلة بضرورة إتاحة الفرصة للديمقراطية كي تزدهر فى المنطقة حتى لو كان الاسلاميون فى وضع يمكنهم من كسب الانتخابات. خلال الفترة من 1991-2001 كانت سياسة الولايات المتحدة إزاء اليمين الاسلامى مرتبكة ومتناقضة فى حالة عدم تجاهلهم، كان الجميع متفقين على أن الارهاب الاسلامى شئ سئ، ولكن يتوقف اتفاقهم عند هذا الحد.

إن انتهاء الصراع الامريكى السوفييتى فى الشرق الأوسط ترك الولايات المتحدة تواجه منطقة كان الإسلام السياسى هو اللاعب الأساسى فيها. ويشمل الإسلام السياسى اطيافا من الأنظمة المحافظة فى باكستان والعربية السعودية الى

الأنظمة الراديكالية في إيران والسودان الى منظمات متطرفة في إطار حكومي مثل الإخوان المسلمين وطالبان وحزب الله الى خلايا إرهابية تنتمي الى اليمين الراديكالي (الاصولي) مثل القاعدة، كان بعضها حليفا والبعض الآخر يشكل تهديدا غامضا وغيرها كان عدوانيا بشكل خطير. فكيف التمييز بين العدو والصديق؟

ثلاث أزمات في التسعينات

خلال التسعينات تعاملت الولايات المتحدة بشكل يشوبه التردد مع اليمين الاسلامي المشتعل غضبا أولا في الجزائر ثم في مصر ثم في افغانستان. في الحالات الثلاث كان الاسلاميون قادرين على التقارب مع المقاتلين الذين صقلتهم المعارك في عمليات الجهاد الافغاني التي تمت برعاية الولايات المتحدة وطبقوا فيها المهارات التي اكتسبوها في الحرب بما في ذلك صناعة القنابل والهجمات الانتحارية والهجمات الخاصة بحرب العصابات.

عندما رحل السوفييت عن افغانستان بدأ اليمين الاسلامي يظهر مهددا الاستقرار والأمن ومصالح الولايات المتحدة. بعد عام واحد من قيام الثوار الإسلاميين بإسقاط الحكومة الشيوعية في افغانستان -أخذت أصداء الحرب الأفغانية تتردد في أنحاء العالم الاسلامي، بعد أن امتشق المجاهدون الذين كانوا في المعركة السلاح في محاولة لإسقاط الحكومات في الجزائر ومصر وغيرها من الدول العربية... وحسبما جاء في تقرير لمراسل نيويورك تايمس سنة 1993 يقول الدبلوماسيون الغربيون والمسؤولون العرب أن الآلاف من المجاهدين الإسلاميين انخرطوا في حملات سرية عنيفة لإسقاط الحكومات في الجزائر ومصر واليمن وتونس والأردن وتركيا وغيرها من البلاد الإسلامية القائمة وأنهم يستخدمون افغانستان كقاعدة لهم.⁶²⁷ ومشبعين بوعي جديد وإيمان أن تمردهم قد مكنهم من هزيمة قوة عظمى في افغانستان، اخذ اليمين الاسلامي يختبر أبعاد قوته الجديدة.

627- كريس هيجز الجهاديون الاسلاميون يشاركون الخط الافغاني - صحيفة نيويورك تايمس -28

مارس 1993 ص14

الجزائر

فجرت أزمة 1992-1999 في الجزائر أول مراجعة حكومية من جانب الولايات المتحدة لسياستها الخارجية تجاه الإسلام السياسي منذ الثورة الإيرانية. خلال سبع سنوات من الحرب الأهلية في الجزائر كانت سياسة الولايات المتحدة تتذبذب في هذا الاتجاه أو ذاك طبقا لوجهات نظر متعارضة وسط اتهامات في باريس وغيرها من دول أوروبا بأن واشنطن تميل في سياستها الخارجية إلى الإسلاميين الجزائريين من أجل مصالحها الخاصة فيما يتعلق بالبتروول والغاز ومصالحها الصناعية في شمال إفريقيا على حساب أوروبا. كان الموقف الذي تتخذه الولايات المتحدة فيما يتعلق بالجزائر مشكلة محيرة، إذ هو الاختيار بين المتمردين الإسلاميين الذين استطاعوا إحراز مكاسب انتخابية وبين حكومة متمترسة يسيطر عليها العسكريون ولكن نظامها علماني وأوقفت الديمقراطية لمنع الإسلاميين من تحقيق الفوز. لم تكن المسألة المطروحة هي ما إذا كان على الولايات المتحدة أن تتدخل بشكل مباشر، فلا احد من الجانبين يريد ذلك، ولم يكن ذلك على أية حال أمراً عملياً، ولكن كان على واشنطن الاختيار بين أن تؤكد مساندتها لتجربة الجزائر في الديمقراطية وهذا يصب في مصلحة الحركة الإسلامية الراديكالية (الأصولية) أو أن تقف إلى جانب الجيش الجزائري. وبالرغم من أن واشنطن كانت تبحث عن حل وسط فإنها في نهاية الأمر تسامحت فعلاً تجاه قمع الجيش للإسلاميين. ولم تكن هذه نتيجة سعيدة بالمرّة. غير أنه لو أن الولايات المتحدة أدانت النظام الجزائري وألقت بتقلها إلى جانب اليمين الإسلامي لأصبحت النتائج في الجزائر وعلى نطاق المنطقة كارثية.

بدأت الأزمة الجزائرية سنة 1989 بتأسيس جبهة الخلاص الإسلامية. وفي يونيو 1990 حققت الجبهة انتصاراً مدوياً في الانتخابات المحلية. ثم - في ديسمبر 1991 صدمت الجبهة الحزب الحاكم (جبهة التحرير الوطني) حيث فازت بـ 118 مقعداً مقابل 16 مقعداً للحزب الحاكم. ولكن قبل أن تبدأ الجولة الثانية وقبل أن تأخذ جبهة الخلاص الإسلامية السلطة تدخل الجيش فألغى التصويت وتم القبض على عشرة آلاف من أعضاء الجبهة ومؤيديها. وإذ أنكر على جبهة الخلاص فوزها شنت حملة من الإرهاب وتم اغتيال رئيس الجمهورية وأطلقت على الوزراء القنابل وقتل المئات من موظفي الأمن والشرطة بواسطة مسلحي جبهة الخلاص وبدأت الحرب الأهلية. وخلال عقد ظهرت منظمة أخرى تسمى " الجماعة الإسلامية المسلحة"

ترابطها علاقة ضبابية بجبهة الخلاص. وعندما ازداد العنف كثافة بدأ استخدام شرطة محلية تابعة للإسلاميين وظهرت جماعات ظل برلمانية وبدأت حملة من الذبح وهدم القرى وتعذيب وذبح النساء والأطفال ومات عشرات الآلاف.⁶²⁸ غير أن جبهة الخلاص لم تظهر فجأة سنة 1989. فكما حدث في باكستان ومصر وسوريا والسودان وأفغانستان خلال الحرب الباردة قام اليمين الإسلامي ببناء قوته في المعركة ضد اليسار والوطنيين الجزائريين خاصة في حرم الجامعات. وكما حدث في أفغانستان حيث ارتبط " الأساتذة" بالإخوان المسلمين في مصر، وقاموا ببناء جمعية سرية من الإسلاميين في كابول في الستينات والسبعينات، ظهرت في الجزائر مجموعة من الأساتذة والمدرسين من مصر كان الكثيرون منهم من الإخوان المسلمين الذين كانوا قد تعلموا في الجامعات السعودية واستقدموا إلى الجزائر لتعليم اللغة العربية للجزائريين الذين يتحدثون الفرنكفونية. كان هذا الكادر بالإضافة إلى إسلاميين آخرين منهم الشيخ محمد الغزالي والشيخ يوسف القرضاوي وهما من قادة الإسلاميين في مصر الذين لجئوا إلى دول الخليج وكانوا رفاق طريق للإخوان المسلمين ويحبون كثيرا ملوك البترول أو الذين شجعوا الصحوة الإسلامية أثناء عملهم بالجزائر في أواسط الثمانينات.⁶²⁹ خلال الثمانينات قام هذا الكادر من الناشطين من اليمين الإسلامي بجملة من الهجمات الإرهابية ضد الحكومة الجزائرية. كثير من هؤلاء الإرهابيين المتورطين كانوا في أفغانستان أو كانوا يذهبون ويعودون من وإلى الجهاد. أحدهم يدعى عبدا لله أنسي، التحق بقوات بن لادن وعزام في تنظيم مناضلي القاعدة (مكتب الخدمات) وحينما اغتيل عزام حل محله أنسي.

في الوقت الذي أنشئت فيه جبهة الخلاص الإسلامي كانت تسيطر على آلاف المساجد في كافة أنحاء البلاد وأنشأت جهازا سياسيا دينيا. ومثلها مثل طالبان كانت حينما تسيطر على حكومات إقليمية أو محلية تخلق ما يناسبها من المحرمات الثقافية الإسلامية مجبرة النساء على ارتداء الحجاب وتغلق مخازن الشراب وأندية الفيديو وعادة ما تعاقب هؤلاء الذين لا يخضعون لتعليماتها. أدانت جبهة الخلاص الإسلامي المتعلمين الجزائريين والطبقات الوسطى العلمانية وأعلنت عن نيتها " لمنع فرنسة

628- من أجل متابعة الحرب الأهلية في الجزائر بتعقيدها خلال الفترة من 1992-1999 ينظر الفصل

11 من " منطق المذابح في الحرب الجزائرية الثانية " من مؤلف Gilles Kepel : الجهاد : فريضة

الإسلام السياسي" كامبردج 2002 ص ص 254-275 - ..

629- كيبييل ص 165

الجزائر ثقافيا وإيديولوجيا "630 قبل شهر واحد من انتخابات ديسمبر التي فازت فيها جبهة الخلاص، قامت فرقة قد تكون مستقلة أو من الرجعيين الإسلاميين الجزائريين بعمل ارهابي بالغ العنف كان صادما للبلاد:

" كان المشهد الأول من العملية هجوم دموي على موقع حدودي قامت خلاله مجموعة من الجزائريين الأفغان المحترفين بقطع رؤوس عدد من جنود الجيش أو المجندين إلزاميا.... وتم اختيار تاريخ هذه العملية بعناية - قبل أربعة أيام - من الاحتفال بالذكرى الثانية لاستشهاد عبد الله عزام في يشاور. كان هذا بداية الجهاد على ارض الجزائر. "631

كثير من الجزائريين كان يخشي أن تقوم حكومة إسلامية فتؤسس عهدا من الارهاب. كان هذا بمثابة إنذار لعدد من الحكومات العربية تشمل مصر والأردن وتونس والمغرب خوفا من أن تؤدي ظهور حكومة إسلامية في الجزائر الى انتشار العدوى في المنطقة. بالنسبة للولايات المتحدة، فرض عليها الجيش الجزائري مشكلة سياسية حساسة. هل تبارك واشنطن قمع الجيش لنتائج الانتخابات أم تدافع عن حق جبهة الخلاص واليمين الاسلامي؟

كان هذا مشكلة محيرة بالنسبة للإدارة الامريكية المشغولة بالنظام العالمي الجديد. وأصبح بوش ووزير الخارجية جيمس بيكر قلقين فيما يتعلق بمستقبل الإسلاميين بالجزائر ولكنهما انحازا بصفة شبه رسمية الى الجيش الجزائري واتخذا موقفا أطلق عليه احد النواب في تقرير قدمه بعنوان " نوع من الغمز والإيماء "632، (الغمز بالعين علامة الرفض والإيماء بالرأس علامة الموافقة). قال بيكر موضحا موقفه فيما بعد " حينما كنت في الإدارة اتبعنا سياسة استبعاد الراديكالية الإسلامية في الجزائر حتى حينما أدركنا أن هذا كان الى حد ما على النقيض من اتجاهنا المساند للديمقراطية. "633

غير أن كثيرا من المسؤولين الأمريكيين الآخرين بمن فيهم مسئولو المخابرات المركزية الامريكية الذين كان لديهم اتصالات بجبهة الخلاص الوطني لم يوافقوا على سياسة بوش - بيكر هذه.

630- المرجع السابق ص 170

631- المرجع السابق ص 174

632- لجنة الكونجرس للعلاقات الخارجية-المعركة تتصاعد: الإسلام والسياسة في الشرق الاوسط 1993، ص ص 6 و 2 ، مقتبس من أمريكا والإسلام السياسي (كمبردج ماسوشتس، 1999) ص 75.

633- مقابلة مع جيمس بيكر 3 - مجلة الشرق الأوسط ربع السنوية سبتمبر 1994 ص 83

كان هناك خلاف حول سياسة بوش - ببكر فيما يخص منع الإسلاميين في الجزائر، حسبما يرى روبرت بللترو، وهو سفير سابق ومسئول عالي المستوى في الإدارة الأمريكية: " فوراً بعد انجلاء غبار قيام العسكريين بإلغاء نتيجة الانتخابات كنا في وضع حرج "، وبعد 24 ساعة اتخذنا موقفاً عكسياً. واختارنا وجهة نظر أكثر مرونة.⁶³⁴

كانت إدارة بوش في حيرة من أمرها فيما يتعلق بكيفية التعامل مع التحدي الإسلامي في الجزائر وقررت مراجعة موقفها، ولكن ذلك كان ضرباً من العشوائية، إذ كيف يمكن الوصول إلى اتفاق في مسألة لا يعرف عنها سوى القليل حتى من جانب الخبراء ويختلف حولها السياسيون في قمة المسؤولية في الإدارة ويجعلها أعضاء الكونجرس تماماً. لم تكن خطوط المعركة قد تحددت بعد، ولكن كان هناك على الأقل وجهتا نظر أخذتا في التبلور، أحدهما وهي توفيقية وترى أن الولايات المتحدة لا ينبغي لها أن تخشى اليمين الإسلامي وأن الدبلوماسيين ومسؤولي المخابرات المركزية عليهم أن يبدووا مجهوداً على النطاق الدولي من أجل فتح اتصالات مع الإسلاميين العازمين على نبذ العنف ابتغاء بدء الحوار، أما وجهة النظر الثانية - وهي لا تزال ناشئة - فهي تمثل مدرسة تصادم الحضارات التي تعتقد أن العالم الإسلامي وبأساس وبشكل غير قابل للتغيير معادى للغرب. طبقاً لوجهة النظر هذه فإن عدو الولايات المتحدة ليس القاعدة فقط وليس حتى الجناح اليميني من الإسلام السياسي ولكنه عداً مستحكما يعود إلى أصل الديانة الإسلامية والقرآن، والحضارة الإسلامية في تطورها خلال ثلاثة عشر قرناً. خلال التسعينات اكتسبت كل من هاتين المدرستين زخماً وواجهت إحداهما الأخرى. وسوف يبرز قياديان أكاديميان يمثلان الجانبين: الجانب التوفيقى ويمثله جون إسبوسيتو من جامعة جورجيتاون؛ وبرنارد لويس من جامعة برنستون ويمثل مدرسة " تصادم الحضارات "

في سنة 1992 اتخذ قرار بتعيين إدوارد جرجيان، وكان في ذلك الحين مساعداً لسكرتير الدولة لشئون الشرق الأدنى ليكون مشرفاً على الجهود المبذولة من أجل وضع سياسة جديدة تجاه الإسلام. ووقع عليه الاختيار ليلقى خطاباً في يونيو 1992 في ميريديان هاوس في واشنطن. يقول ديفيد ماك: " جاءتني الإدارة الأمريكية وقالت لي:، نحن نريد سياسة بخصوص الإسلام،". كان ماك وقتئذ نائباً لجرجيان ويقول أن الخطاب صمم جزئياً ليكون معارضاً لوجهة نظر مسؤولي

634- روبرت بللترو مقابلة مع المؤلف إبريل 2004

الإدارة الأمريكية الذين كانوا قد أخذوا في مناقشة وجهة النظر التي تقول انه ينبغي على الولايات المتحدة أن تتعامل مع الإسلام باعتباره العدو العالمي الجديد." كان البعض وبوجه خاص ريتشارد شيفتر من مكتب حقوق الإنسان، يقولون أن الإسلام يمثل خطراً، بطبيعة الحال كان هذا معاصراً للوقت الذي بدأت فيه نظرية تصادم الحضارات تطفو على السطح. "يقول ماك:" حاولنا جهدنا أن نحزز تقدماً. كان لدينا مؤتمر داخلي كبير مع رجال من "شئون الشرق الأدنى" ومن "مكتب المخابرات والأبحاث"، و"حقوق الإنسان" وعدد من الخبراء من خارج الإدارة - في شئون الشرق الأدنى. كتبت مشروع الخطاب الذي سوف يلقيه جرجيان وعرضناه على جيمس بيكر الذي قال: "موافق، عظيم لو سمحتم قوموا بذلك."⁶³⁵

يقول شيفتر سكرتير الدولة المساعد لشئون حقوق الإنسان انه ينضم الى جين كيرك باتريك في وجهة نظرها فيما يتعلق بالتمييز بين النظامين "السلطوي" و "الشمولي". وأضاف بأنه فيما يتعلق بالأزمة الجزائرية فانه يؤيد وجهة النظر المؤيدة لمساندة الجيش الجزائري في قمعه للإسلاميين، لكن بالنسبة لشيفتر وغيره الكثير من المتشددين والمحافظين الجدد، فهم يرون أن المسألة اكبر بكثير من الجزائر وان "مانراه هو أن ثمة حركة مشابهة للشيوعية آخذة في التطور وهذا هو الهجوم الثالث الشمولي على الديمقراطية بعد الفاشية والشيوعية."⁶³⁶ طبقاً لماك كان شيفتر يريد خطاً أكثر تشدداً في الخطاب مما اتفق عليه. ويضيف ماك "لقد شعر شيفتر ومكتب حقوق الإنسان أن المقاربة الفكرية كانت أكثر ليونة"⁶³⁷

أخيراً وضع خطاب جرجيان علامات مهمة، ولكنه تجنب الخوض في مسائل حرجية. كان جرجيان يقصد مباشرة فكرة تصادم الحضارات. قال: "إن حكومة الولايات المتحدة لا ترى الإسلام بوصفه شمولية جديدة تواجه الغرب أو تهدد السلام العالمي، وإن الحرب الباردة ليست بالمسألة التي يحل محلها منافسة جديدة بين الإسلام والغرب. إن الحروب الصليبية قد انتهت منذ أمد طويل ويعرف الأمريكيون الإسلام كقوة تمدن تاريخية من بين قوى أخرى عديدة أثرت في ثقافتنا وأغنتها." ولكنه مضى أبعد من ذلك ليقول:

"لقد أعطى مزيد من الاهتمام لظاهرة سميت "الإسلام السياسي، الإحياء الإسلامي، الأصولية الإسلامية.... إننا نرى في أنحاء الشرق الأوسط وشمال

635 - ديفيد ماك ،مقابلة مع المؤلف ابريل 2004

636- فيتشارد شيفتر Richard Shifter مقابلة مع المؤلف مايو 2004

637- ماك ، مقابلة مع المؤلف

إفريقيا جماعات أو حركات تريد أن تصلح مجتمعاتها بواسطة المحافظة على مثاليات الإسلام.... إننا لا نلاحظ وراء هذه الحركات بناءا متكاملا أو جهودا دولية منسقة، إن ما نلاحظه هو مؤمنون يعيشون في دول مختلفة ويؤكدون مجددا على المبادئ الإسلامية، وحكومات تتوافق مع الأنشطة الإسلامية السياسية بدرجات متفاوتة وبطرق مختلفة.

ومضى جرجيان مضيفا بان الولايات المتحدة تريد انتخابات حرة ومنطقة تضطرد فيها الحريات المدنية، ولكنه أضاف، في إشارة واضحة الى الأزمة في الجزائر: "إننا نشك في هؤلاء الذين يستخدمون العملية الديمقراطية للوصول الى السلطة، فقط من اجل تدمير نفس هذه العملية حفاظا على سلطتهم وسيطرتهم السياسية" وأضاف أن الولايات المتحدة تعارض هؤلاء الذين يلجئون الى العنف والقمع أو المواجهة الدينية و السياسية.⁶³⁸

في لقاءات أخرى تحدث جرجيان بايجابية ولكن بغموض عن "الإسلاميين المعتدلين" بالرغم من انه فشل في تحديد ماذا يعنى بمصطلح "معتدلين".⁶³⁹ وبينما أدان جرجيان الارهاب ملاحظا أن الولايات المتحدة لديها علاقات جيدة مع البلدان التي تضع حكوماتها نفسها بثبات على المبادئ الإسلامية مثل السعودية وباكستان فانه تجنب تماما مناقشة اليمين الاسلامي نفسه وتجلياته. يكتب جرجس: "لسوء الحظ أن خطاب المريديان لم يوضح موقف ادارة بوش تجاه هذه الجماعات الإسلامية تحديدا."

ولكن إذا كان خطاب جرجيان قد فشل في إعطاء فكرة عن السياسة الأمريكية تجاه الإسلام السياسي فانه كان واضحا فيما يتعلق بالإجابة المحددة عن أحداث الجزائر حيث ساندت الولايات المتحدة ضمنا بسكوتها قمع الجيش للعملية الديمقراطية. ولكن الموقف اخذ يتطور من سيئ الى أسوأ حيث تورطت الجزائر في دائرة من الهجمات العنيفة والهجمات المضادة دافعة الجيش الى الصدام مع هؤلاء المحاربين الجهاديين الذين صقلتهم المعارك.

في سنة 1993 حاولت ادارة كلينتون أن تشجع على قيام حوار بين السلطات الجزائرية وعناصر من المعارضة الإسلامية. ولكن أوربا الغربية لا سيما فرنسا

638- إدوارد جرجيان Edward Djerejian الولايات المتحدة والشرق الأوسط في عالم متغير يونيو 1992

639- جرجس ص ص 80-81

اتهمت الولايات المتحدة باستخدام الحوار مع الإسلاميين الجزائريين للمحافظة على المزايا السياسية والتجارية التي تتمتع بها في الجزائر في وقت يتوقع فيه الكثيرون قيام ثورة إسلامية في الجزائر. "هاجم الفرنسيون الدوافع التي تكمن وراء المقابلة مع الإسلاميين يملؤهم الشك بأن حكومة الولايات المتحدة تفضل جبهة الخلاص الوطني على النظام الجزائري". حسبما ذكر جرجس في تقريره عن قيام شارل باسكا وزير الداخلية الفرنسي باتهام واشنطن بتوفير المأوى للأصوليين الإرهابيين.⁶⁴⁰ في إشارة إلى أنور هدام ممثل جبهة الخلاص الإسلامية في واشنطن الذي كانت له اتصالات بين حين وآخر مع مسئولين حكوميين في أوائل التسعينات. "كان الفرنسيون يريدون منا أن نطرد رجل جبهة الخلاص الإسلامية الموجود هنا" حسبما يقول بللترو الذي كان يعمل تحت إشراف كلينتون كسكرتير مساعد للإدارة لشئون الشرق الأدنى، ولكنهم لم يطلبوا منا أن نطرده.⁶⁴¹

ولكن جراهام فوللر المحلل السابق في المخابرات المركزية الأمريكية والذي عمل مع كيزي في تفريق مبرر لعملية إيران- كوندرا 1984-1986 من أجل التقارب مع طهران، كان الأعلى صوتاً في المطالبة بالمصالحة مع الإسلاميين- وفيما بعد عندما استقر وضعه في مؤسسة (راند كوربوريشن) وضع فوللر كتاباً بعنوان: "الجزائر: هل تكون هي الدولة الأصولية التالية؟". في هذا الكتاب يرشح فوللر جبهة الخلاص الإسلامية لتكون الحكومة الحقيقية التالية في الجزائر ويطلب من الولايات المتحدة ألا تقلق من ذلك ويكتب: "إن جبهة الخلاص لن تشكل على الأرجح أي تحدٍ ذي شأن للولايات المتحدة وللمصالح الغربية." ويضيف متسائلاً هل الولايات المتحدة مستعدة أن تدشن عملية ديمقراطية يستطيع المسلمون من خلالها أن يأخذوا الفرصة بجدارة ليكون لهم صوت يعتد به في السلطة؟⁶⁴² ويغترف فوللر أن جبهة الخلاص سوف تقمع حقوق الإنسان وتنتشر عقيدتها في الخارج "لتشجع الحركات الإسلامية الأخرى في مصر وتونس وليبيا والمغرب وتقديم لها الملاذ والمساعدات المالية وحتى الأسلحة."⁶⁴³ ولكنه يجادل بأن هذا الزخم لا يمكن إيقافه: "سوف يكون من الصعب جداً إن لم يكن مستحيلاً وقف القوات الإسلامية." حسبما يقول فوللر. "والأكثر احتمالاً أن يتضاعف عدد الحكومات الإسلامية في

640- المرجع السابق ص 155

641- بللترو -مقابلة

642- جراهام فوللر ، الدولة الأصولية التالية- مؤسسة راند 1996 ص xx.

643- المرجع السابق ص xiv

الشرق الأوسط خلال السنوات القادمة بحيث تأخذ أشكالاً متعددة- وان على هذه الحكومات والغرب أن يتعلموا التعايش معا.⁶⁴⁴ ويرى فوللر أن جبهة الخلاص الإسلامية سوف ترحب بالاستثمارات الأمريكية الخاصة في الجزائر وان تأخذ على عاتقها إقامة علاقات تجارية وثيقة مع الولايات المتحدة....وان جبهة الخلاص الإسلامية لديها علاقات جيدة وممتدة مع العربية السعودية وأنها تلقت منها تمويلاً ضخماً الى وقت قريب.⁶⁴⁵ ومما هو جدير بالذكر أن مدونة فوللر هذه كتبت للجيش الأمريكي وبرعايته.

بالنسبة لفوللر تمثل جبهة الخلاص الإسلامية في الجزائر تجربة غنية وواحدة من التجارب التي لا يجوز للولايات المتحدة أن تغض الطرف عنها. ومن المؤكد أن وجهات نظره كان لها تأثيرها داخل إدارة كلينتون. غير أن الكثير من الجزائريين وخاصة محاربي الثورة التي وضعت أوزارها سنة 1962 لم يكونوا على استعداد لنبد العلمانية و الاشتراكية من اجل السوق الحرة الإسلامية. يقول مولود الابراهيمى الرئيس السابق لجمعية حقوق الإنسان الجزائرية: "من السهل على الآخرين أن يتحدثوا عن إدارة تجربة سياسية كبرى في الجزائر. ولكن ماذا سيكون من أمرنا....مجرد فئران بيضاء؟"⁶⁴⁶

مصر

في أعقاب الانفجار الجزائري، كثر غول الإسلام السياسي عن أنيابه في مصر في التسعينات خالفاً معضلة أخرى لإدارة الرئيس كلينتون. هل كانت مصر وهى المنبع الاصلى للإخوان المسلمين على وشك أن تسقط في يد ثورة إسلامية؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف ستكون سياسة الولايات المتحدة. إن المراجعة التي قامت بها إدارة بوش للسياسة الأمريكية سنة 1992 ولجنة العمل الموحدة التي أقامها جرجيان لم تقدم لنا عوناً يذكر. على خلاف الجزائر التي كانت على اى الأحوال في أطراف منطقة الشرق الأوسط، بينما مصر في القلب منها... ومبارك حليف قوى للولايات المتحدة.

644- المرجع السابق ص 4

645- المرجع السابق ص xv

646- جوديث ميللر الموجة الإسلامية مجلة نيويورك تايمس 31 مايو 1992 ص 23

في التسعينات شن الاسلاميون المصريون هجوما على النظام بلغ من شدته انه هدد الاستقرار في البلاد وقتل مئات الأشخاص من قبل الميليشيات المسلحة بمن فيهم عسكريون وضباط شرطة وموظفون حكوميون وكتاب مصريون مشهورون ومتقنون. برغم القمع الشديد بعد موت السادات والهجمات الدورية لقوات الأمن في الثمانينات، حقق الإخوان المسلمون مكاسب مضطردة سيما في المجتمع المدني. واستطاعت الجماعة أن تحقق سيطرتها على الكثير من التجمعات المهنية في مصر: أطباء، محامون، مهندسون بالإضافة طبعا الى الجماعات الطلابية وهي من مراكز قوتها التقليدية. في سنة 1993 أشارت صحيفة الصنداي تايمز البريطانية أن المخابرات المركزية الامريكية أصدرت تقريرا (تقدير موقف مخابراتي قومي) تحذر فيه بان "الأصوليين الإسلاميين الإرهابيين سوف يستمرون في تحقيق مكاسب في مصر مما يؤدي الى السقوط الفوري لحكومة مبارك".⁶⁴⁷ يقول جيمس وولسي مدير المخابرات المركزية الامريكية في ذلك الوقت: "كنا في غاية القلق وكما اذكر عرضنا على مصر تقديم اي مساعدة يمكننا أن نقدمها في حدود المعقول، وعموما فهناك قدر كبير من الدعم تستطيع أن تقدمه الحكومة الامريكية، وبالتأكيد فإنها تستطيع أن تقدم الى مبارك في مجال الخدمات الأمنية ما يمكنه من الحيلولة دون استيلاء الإسلاميين على السلطة".⁶⁴⁸ وقدمت الولايات المتحدة مساعدات أمنية الى الشرطة والمخابرات المصرية "قمنا بمساعدة المخابرات المركزية الامريكية بتدريب فرقة للعمليات الخاصة تم اختيارها بمعرفة السلطات المصرية المختصة" حسبما يذكر ادوارد ووكر سفير الولايات المتحدة في مصر خلال الفترة 1994-1997 "وتم استخدامها في تطهير عدد قليل من هذه الخلايا"⁶⁴⁹ والحقيقة انه برغم أن الولايات المتحدة تعاونت مع مصر الى درجة معينة في التغلب على الارهاب الاسلامي في مصر إلا أن هذا التعاون كان اقل بكثير مما ينبغي لأسباب عديدة أهمها يعود الى الحكومة الامريكية حيث كان هناك اعتقاد ملح بان الإخوان المسلمين يشكلون شريكا مهما محتملا لاستحضار الديمقراطية الى مصر. وكان هذا الاعتقاد سببا في تقليص المساعدات لقوات الأمن والمخابرات المصرية في التسعينات. وثاني هذه الاعتبارات أن نظام مبارك يستخدم القمع شديد الوطأة ضد المعارضة بما في ذلك الاعتقالات لكل أشكال المعارضة وممارسة

647- جرجس ص 171

648- جيمس وولسي مقابلة مع المؤلف مايو 2004

649- ادوارد ووكر مقابلة مع المؤلف فبراير 2004

التعذيب ضد المسجونين - كل ذلك وضع الولايات المتحدة في وضع حرج فيما يتعلق بتقديم المساعدات الى مصر. ويقول كل من وولسي و ووكسر أن الولايات المتحدة لها تحفظات قوية فيما يتعلق بفضاظة الأساليب المستخدمة. "كانوا عدوانيين جدا - عدوانيين لدرجة تعوق رغبتنا في المساعدة. فبعض الذين قبض عليهم تبين أن الرصاص أطلق عليهم وهم مكتوفو الأيدي" حسبما يقول ووكسر "وكان علينا أن نوقف هذا البرنامج".⁶⁵⁰ وثالثا انه كان هناك خلاف حاد بين المخابرات المركزية الامريكية والدبلوماسيين حول طبيعة الإخوان المسلمين أنفسهم: هل كان تنظيم الإخوان يتعاون مع الراديكاليين (الأصوليين)، الجماعات التابعة التي تمارس الارهاب علنا مثل الجماعة الإسلامية أو الجهاد الاسلامي ومن ضمن قاداتهم أيمن الظواهري الذي سيغدو المساعد الرئيس لبن لادن؟ أم أن الإخوان المسلمين جماعة معتدلة أو حتى جماعة مؤسسية يمكن التعويل علي دعاويها الديمقراطية؟

بالنسبة لمبارك على الأقل كانت الجزائر هي الرد. فالرئيس المصري كان يراقب بجزع ما يجري في ذلك البلد المتورط في حرب أهلية واقسم إلا يدع الإسلاميين في مصر يكسبون مزيدا من القوة التي تمكنهم من تشكيل تحدى واسع لنظامه. بداية من رئاسته للجمهورية في أوائل الثمانينات وحتى 11 سبتمبر 2001 انتقد مبارك الولايات المتحدة مرارا لفشلها في اتخاذ موقف ضد اليمين الاسلامي في قواعده في غرب أوروبا وداخل الولايات المتحدة نفسها بما في ذلك التنظيمات العلنية التابعة للإخوان المسلمين في لندن وألمانيا والمركز الاسلامي في جنيف الذي يشرف عليه سعيد رمضان والخلايا في نيويورك ونيوجرسي مثل تلك التي تنتمي الى الشيخ الضير عمر عبد الرحمن قائد الحلقة التي قامت سنة 1993 بالهجوم على مركز التجارة العالمي وعدد آخر من الخلايا الموجودة في الولايات المتحدة والمساجد والمراكز الإسلامية. ولكن حتى سنة 2001 لم يكن هناك ثمة جهود مركز من جانب الولايات المتحدة لاستقصاء أمر هذه الشبكات.

يقول عبد المنعم سعيد من مركز الأهرام للدراسات الإستراتيجية بالقاهرة: "لم تتعاون أوروبا ولا أمريكا مع مصر حتى 2001/9/11، لقد وجد عمر عبد الرحمن ملاذا في الولايات المتحدة بعد إن هرب من مصر أثناء المحاكمات وذهب الى السودان. لم تتعاون الولايات المتحدة معنا وكانوا يقولون " انتم لستم ديمقراطيين. انتم لا تقومون بإصلاحات " وبذلك فإنهم كانوا يخلقون شبكة إرهاب واسعة على

مدار العالم. كنا عمليا بمفردنا. وكنا نريد من الولايات المتحدة أن تسلمنا هؤلاء الأشخاص وان يقضوا على شبكاتهم الدعائية وشبكاتهم التمويلية وان يشيعوا الاضطراب في اتصالاتهم مع مناطق الاضطراب في افغانستان. وحاولنا عدة مرات أن نشرك الولايات المتحدة في الأمر بداية من 1986 حينما طالب الرئيس مبارك بعقد مؤتمر دولي لبحث الارهاب وقال ذلك في البرلمان الاوربي في ستراسبورج وكنا نعلم الكثير وقتئذ: إن المراكز الدولية لهذه الحركة موجودة في لندن ونيوجيرسي وفرنكفورت ومراكز أخرى في هامبورج وجنيف وكوبنهاجن كانوا جميعا في أوروبا غير متنبهين الى هذا في الثمانينات والتسعينات.⁶⁵¹ بالنسبة لسفيري الولايات المتحدة في مصر خلال هذه الفترة فقد كانت لهما وجهات نظر متضاربة بشأن الإخوان المسلمين. وكرر الذي عمل خلال الفترة من 1994-1997 كان يشك في الإخوان المسلمين ولكنه يتعاطف مع إسقاط مبارك. أما بللترو الذي عمل خلال الفترة 1991-1993 فقد كان أكثر ميلا للنظر الى الإخوان المسلمين بشكل أفضل بالرغم من أن ذلك قد استرعى انتباه المخابرات المصرية. يقول بللترو: "كان لي ولوكرر سياسات مختلفة. لقد شعرت أن علينا أن نتحدث مع بعض أعضاء الإخوان المسلمين. وقد فعلت. " ولكن اتصالات بللترو بالإخوان المسلمين قد أغضبت مبارك. يعلق بللترو: "تلقيت ذات مرة رسالة قوية من الحكومة المصرية تطلب مني قطع هذه الاتصالات. وقلت لهم اننى لن افعل. لم اقابلهم بنفسى ولكن أشخاص من القسم السياسي. لقد طورنا علاقات مع بعض الأشخاص الذين كانوا فى داخل الحركة. ولكن فى مصر عليك أن تكون فى منتهى الحذر لأن لدى المصريين إمكانيات فى غاية الكفاءة فيما يتعلق بالتخابر المضاد."⁶⁵²

يذكر بللترو زيارة قام بها مبارك الى واشنطن حين فقد الرئيس مبارك أعصابه إزاء الموقف الأمريكى غير المبالي.

بعد ذلك جاء مبارك الى واشنطن ودعاه وزير الخارجية على العشاء. سأل وارين كريستوفر مبارك عن أفضل الطرق للتعاون مع الإسلاميين. اننى لن أنسى أبدا ما حدث بعد ذلك فقد اعتدل مبارك فى جلسته بحدة وخشونة وقال بغضب: "هذه ليست ظاهرة جديدة فى مصر. هؤلاء الناس قتلوا الرئيس السابق!" ثم رفع قبضته الضخمة وضرب بها المائدة بقوة حتى أن كل شئ على المائدة قفز واصدر صوتا "بانج!" قال مبارك: "حينما ظهروا كان يجب أن نضربهم."⁶⁵³ يقول بللترو: "قلت

651- عبد المنعم سعيد مقابلة مع المؤلف يونيو 2004

652- بللترو مقابلة

653- المرجع السابق

لمبارك إن هذه السياسة صائبة في حالة القيام بحملة على الإرهابيين ولكن ليس على الإخوان المسلمين." لكن المخابرات المركزية الامريكية لم تستطع الإجابة على السؤال حول كيفية تحديد الفرق بين الحالتين حسبما ذكر دبلوماسيون وضباط مخابرات أمريكيان، فالخط الفاصل بين التنظيمات الإرهابية الصريحة والإخوان المسلمين لم تكن واضحة. الإخوان المسلمون يديرون العيادات ومراكز الخدمة الاجتماعية والمساجد ولهم وجود قوى بين الجماعات المهنية وقيّمون ما يشبه الحزب السياسي.

حسبما يقول بللترو و ووكر فإن الصلة بين الإخوان المسلمين الرسميين والخلايا الإرهابية السرية من المحتمل أن يجرى تنظيمها من خلال المساجد المستقلة والمراكز الإسلامية في مصر التي يديرها أمراء الجماعة ومن الواضح أنهم يحتفظون بعضويتهم في الجماعة التي كانت جمعية سرية بينما تقدم للجماعات الإرهابية التشجيع والمساندة والفتاوى الدينية التي تبرر الارهاب. يقول بللترو: "أعلن المصريون أنهم اكتشفوا بعض قنوات الاتصال. وأنا أستطيع أن أخمن أنه يمكنك القول بأن الخط الفاصل بين الإخوان المسلمين والجماعات المسلحة أصبح ضبابيا. يبدأ عدد من الامراء المستقلين بالظهور هنا وهناك في أجزاء مختلفة من القاهرة. ويبدأ بعض رجال الدين في تكوين مجموعة من الأتباع. هؤلاء لا يتورطون شخصا في أعمال عنف بأنفسهم ولكنهم يتسامحون معها. فمثلا قد يلجأ إليهم احد الناس ويسألهم "هل من المسموح أن افعل كذا وكذا؟ فيردون عليه: "نعم طبقا للإسلام".

كان ليوكر الذي خلف بللترو وجهة نظر مختلفة الى حد ما: "كنا ندرك أنها مشكلة اكبر كثيرا. كنا جد قريبين من الأوربيين في التعاون من اجل القضاء على هذه التهديدات. ووضعنا خريطة لمعرفة كيفية تفاعل هذه الجماعات مع بعضها البعض. كان كثير من القادة في أماكن مثل ايطاليا ولندن وكنا نتعاون عن طريق التقاط الاتصالات وإعادتها الى مصر ثم يقوم المصريون بتجميعها " ولكن المصريين كما يقول ووكر لم يكونوا مقتنعين بالتعاون الامريكي الاوروبى. ولا يستطيع أن أحصى عدد المرات التي صاح فيها مبارك قائلا لي كيف أن البريطانيين يعطون الإخوان المسلمين وغيرهم من الإسلاميين الملاذ الآمن " ويقول " يدرك كل شخص في مصر إن هذه مشكلة. ولكنهم لم يستطيعوا أن يقنعونا."⁶⁵⁴

مثله مثل بللترو أقام ووكر علاقة مع الإخوان المسلمين " حينما كنت في مصر اتصلنا ببعض أعضاء الإخوان المسلمين بصفاتهم الشخصية على مستوى القنصل السياسي. ولكنهم كانوا تنظيماً غير شرعي ومن هنا كان الأمر حساساً وكان الإخوان المسلمون أكثر تقبلاً من الجماعات الأخرى مثل الجهاد الإسلامي. كان الإخوان المسلمون يتمتعون بكثير من التعاطف من بعض الناس في واشنطن الذين كانوا يرون أنه يجب الوصول إلى تفاهم معهم. "ويضيف قائلاً: "بالنسبة لكثير من هؤلاء الذين يؤيدون استعادة الديمقراطية إلى المنطقة، كان الإخوان المسلمون في نظرهم قوة معارضة محلية شرعية. " ولكن ووكر وبعض ضباط المخابرات المركزية الأمريكية لم يوافقوا على وجهة النظر هذه، إذ أن "لإرهاب مصدران، أحدهما الفلسطيني والآخر هم الإخوان المسلمون، ذلك أن لهم تاريخاً متقلباً، فقد تكون ذات يوم صديق لهم ثم يحاولون اغتيالك. " حسبما يقول ووكر. " كان رجال المخابرات لدينا ينظرون إليهم باعتبارهم من قبيل التآخي العالمي بين الإرهابيين. كان عدد معين من المساجد متورطاً في هذا الأمر. أنه ليس بناءاً تنظيمياً محكماً. ولكن إذا لجأ إليهم أحد فأنهم يقدمون له المساعدة. "655

لطالما انتقد مبارك علناً الولايات المتحدة سيما بعد أن دبر الإسلاميون محاولة اغتياله سنة 1995 وقتلوا العديد من الموظفين المصريين في الخارج كما قذفوا السفارات المصرية في الخارج بالقنابل. وفيما يتعلق بالأمريكان الذين طالبوه بالتعاون مع الإسلاميين المعتدلين بمن فيهم الإخوان المسلمين اختصر مبارك القول مجيباً بازدراء " من هم هؤلاء المعتدلون؟ إن أحداً لم ينجح في تحديد ماهيتهم لي. " وسخر من جدوى الحوار مع الإسلاميين قائلاً: " حوار مع من؟ أنه سيكون حوار الطر شان. لقد أجرينا معهم حواراً طوال أربعة عشر عاماً، وفي كل مرة كنا نشاركهم الحوار كانوا يخرجون منه أقوى مما كانوا. الحوار معهم موضحة قديمة. ومن يطالبون بالحوار معهم لا يعرفونهم. نحن نعرفهم أفضل. "656

لاحق شبح الثورة الإسلامية في إيران سنة 1979 مبارك ومرة بعد أخرى كان يتهم الولايات المتحدة بإدارة حوار سرى مع الإخوان. " انتم تظنون أنه يمكن إصلاح الأخطاء التي وقعت فيها في إيران لأنه لم يكن لكم أي علاقات مع الخميني وجماعته البغيضة قبل استيلائهم على السلطة. ولكنني أؤكد لكم أن هذه الجماعات لن تستولي أبداً على هذا البلد ولن يكونوا أبداً على وفاق مع الولايات المتحدة. "657

655- المرجع السابق

656- جرجس ص ص 174-175

657- المرجع السابق ص 175

كان مبارك على صواب الى حد كبير فيما قاله بان المسؤولين الأمريكيين كانوا يتوقعون أن يسيطر الاسلاميون على السلطة في مصر ومن ثم فقد كانوا يحاولون الوصول الى موقع قدم لهم داخل اليمين الاسلامي. كانت توقعاتهم أضغاث أحلام المحافظين الجدد بعد سنة 2001 التي تتطلع الي إعادة تشكيل الشرق الأوسط وفرض نظام ديمقراطي جديد في هذه المنطقة كما عبر عن ذلك احد المسؤولين الأمريكيين في هيئة الأمن القومي أوائل 1995 حيث قال بان الإسلاميين في مصر هم موجة المستقبل، وحسبما قال:

" إن الأنظمة القائمة حالياً في الشرق الأوسط محكوم عليها بالزوال في المستقبل لان التغيير أمر لا يمكن تجنبه، واحد الأهداف الرئيسية لسياسة واشنطن المستقبلية هو ادارة التحولات التي تطرأ على الأنظمة السياسية بأقل تكلفة ممكنة. وترى الولايات المتحدة إن الإسلاميين جزء لا ينفصم من القوى الاجتماعية العريضة التي تعمل في هذه المنطقة وإنهم من ضمن الفاعلين فيها. ومن ثم فإن على النخب الحاكمة المسيطرة أن توسع قاعدتها الاجتماعية بدمج الإسلاميين ضمن نسيجها السياسي. وتوضح هذه الحقيقة المنطق وراء القرار المبكر لإدارة كلينتون بإجراء حوار رشيد مع الإسلاميين في مصر والجزائر.⁶⁵⁸ ولكن لا الحكومة الجزائرية ولا مبارك فكروا كثيراً في هذه المسألة بل عملوا على سحق التمرد الاسلامي. وبعد محاولة اغتيال مبارك سنة 1995 شن هجوماً على الإخوان المسلمين أعاد ذكرى الهجمات التي قام بها ناصر سنوات 1954 و 1964 و 1966. القي القبض على المئات من قادة الإخوان المسلمين وحلت مؤسساتهم وأغلقت النقابات المهنية وأقيمت لهم المحاكمات الصورية. وتوقع بعض المسؤولين الأمريكيين ظهور رد فعل لهذا القمع. غير انه بدلا من ذلك شهد النصف الثاني من التسعينات تراجع اليمين الاسلامي في مصر باستثناء واحد: سلسلة من الهجمات الاستعراضية موجهة ضد السياح في مصر سنة 1997. لقد ضرب اليمين الاسلامي في مصر مرة أخرى في الصميم. ولكن لم يقض عليه. تبعثرت قواه السرية القائمة على العنف أو اختبأت. واخذ من يبدو أنهم معتدلون في صفوفه من مفكرين ووعاظ وسياسيين اخذوا يبحثون مسألة التحالف مع المعارضة الديمقراطية وأعلنوا تأييدهم للانتخابات لاختيار بديل لمبارك. ولكن مسئولى الحكومة الامريكية، من المستشرقين المتعاطفين ومراكز الرأي من مؤسسة بروكنجز الى مؤسسة السلام في الولايات المتحدة أصروا على أن الإخوان المسلمين شريك مبشر في مصر ما بعد الإصلاح.

طالبان

كان الصعود الصاروخي لطالبان في افغانستان التي مزقتها الحرب هو التحدي الثالث من جانب القوى الإسلامية التي ظهرت في مواجهة واضعي السياسة الأمريكية.

يعتبر كتاب احمد رشيد " طالبان: الإسلام الجهادي، البترول والأصولية في وسط آسيا" أفضل وأوفى بيان عن تأسيس ونمو وانتصار حركة طالبان. رشيد مراسل صحفي باكستاني ضليع امضي عدة سنوات يغطي نشاط المخابرات الباكستانية في كل من افغانستان وباكستان. وحسبما ذكر رشيد كانت طالبان منذ البداية تتلقى المساعدات ليس فقط من العربية السعودية التي كانت تتولى تمويلها ومن باكستان التي كانت مخابراتها هي القوة الرئيسية وراء سيطرتها على افغانستان المحكومة بأمراء الحرب ولكن من الولايات المتحدة أيضا.

" بين 1994-1996 ساندت الولايات المتحدة طالبان سياسيا من خلال حلفائها في باكستان والسعودية أساسا لان الولايات المتحدة كانت تنظر الى طالبان باعتبارها ضد إيران وضد الشيعة ومع الغرب." وذكر رشيد في كتابه انه " بين 1995-1997 كانت مساعدة الولايات المتحدة لطالبان تقدم أساسا لأنها تساند مشروع " يونيو - كال" (خط أنابيب بترول يمتد من تركستان عبر افغانستان) وكان عدد كبير من دبلوماسيي الولايات المتحدة يرون فيهم مثال المسيحيين الطيبين فاعلي الخير الذين ولدوا مجددا من بين طيات الكتاب المقدس الأمريكي.⁶⁵⁹

كانت مساندة الولايات المتحدة لطالبان إستراتيجية. كانت الصدى الدقيق لسياسة برجنسكي (قوس الإسلام) وأحلام كيزي في استخدام الإسلام لاختراق الاتحاد السوفييتي. حتى بعد انتهاء الحرب الباردة حاولت الولايات المتحدة إن تحقق مزايا في دول آسيا الوسطى الغنية بالبترول وراهنّت خلال التسعينات على كسب هذه المزايا. كانت الولايات المتحدة ترى في العربية السعودية وباكستان حلفاء لها كما ترى في الصين والهند وإيران منافسين لها. ثمة تحذير أوردته مذكرة صادرة عن الإدارة الأمريكية سنة 1996 كانت قد حررت قبل استيلاء طالبان على كابول، بان روسيا وإيران والهند والصين التي تخشى جميعها من الأصوليين السنة في

659- احمد رشيد طالبان، الإسلام الجهادي، البترول والأصولية في آسيا الوسطى ط 2000 ص ص

المنطقة سوف يساندون القوى المضادة لطالبان في أفغانستان.⁶⁶⁰ وهذا هو ما حدث بالدقة عندما قاد أحمد شاه مسعود التحالف الشمالي الذي ظهر أواخر التسعينات بوصفه المنافس الرئيس لنظام طالبان المتطرف. (انه لما يدعو الى السخرية أن يغزو هذا التحالف الشمالي هو الحليف الرئيس للولايات المتحدة حينما قامت - بعد الهجوم على مركز التجارة العالمي والبنجابون بغزو أفغانستان.)

يصف جراهام فولر في مؤلفه " مستقبل الإسلام السياسي " بدقة كيف كانت طالبان تهديدا للدول التي تنافس الولايات المتحدة في آسيا الوسطى:

" انزعجت كثير من القوى التي ساهمت بدور في الأحداث الأفغانية من تداعيات استيلاء طالبان على السلطة: إيران لان طالبان كانت تعارض الشيعة بشراسة وعاملت شعب الهزار الشيعي بمنتهى القسوة، وروسيا وأوزبكستان وطاجيكستان كانت تخشى أن توجه طالبان اهتمامها صوب الحركات الإسلامية في شمال آسيا الوسطى. وكان للهند أيضا ماتخشي منه. فمن الناحية الجغرافية كانت تعمل على رفض الهيمنة الإستراتيجية الباكستانية على أفغانستان وهو ما سوف يمثله انتصار طالبان. أما واشنطن فقد كانت تبدو محايدة مبدئيا، وكانت تأمل تحت إلحاح باكستان ألا تكون لطالبان أجندة مضادة للولايات المتحدة، ولكن في النهاية ما كان للبلاد التي مزقتها الحرب الأهلية إلا أن تتوحد وبالتالي يمكن لأنابيب الغاز التركمانية التي تمر عبر أفغانستان أن تصل الى المحيط الهندي ضاربة بذلك إيران، ويمكنها أن تبسط سيطرتها على مناطق زراعة الخشخاش المنتشرة فيها وان تهاجم مناطق حرب العصابات الإسلامية ومعسكرات التدريب الموجودة منذ الجهاد ضد السوفييت.⁶⁶¹

لقد عبرت الولايات المتحدة عن مقاصدها بتحدي السيطرة الروسية على آسيا الوسطى وأفغانستان سواء كانت هناك حرب باردة أم لم تكن. تقول شيلا هيسلين احد المسؤولين في هيئة الأمن القومي الامريكية، ان سياسة الولايات المتحدة هي تنمية استقلال هذه البلاد الغنية بالبترول أساسا لوضع حد لسيطرة روسيا الاحتكارية على نقل البترول من هذه المنطقة، وبصراحة لضمان امن الطاقة من خلال تعدد الإمدادات.⁶⁶² وكان " مشروع يونوكال " هو العمود الفقري لمشاريع الأنابيب التي

660- المرجع السابق ص 177

661- جراهام فولر مستقبل الإسلام السياسي نيويورك 2003

662- شيلا هيسلين Sheila Heslin شهادتها في مجلس الشيوخ بشأن الأنشطة الممولة بطرق غير مشروعة 17 سبتمبر 1997؛ مقتطفة من راشد ص 174

تضمن هذا التعدد وقام بتوظيف عدد من المسؤولين الأمريكيين السابقين لتطوير خطته بدءاً من هنري كيسنجر الى زلمای خليل زاد الذي سيغدو سفير الولايات المتحدة في كابول. في سنة 1996 يقول خليل زاد بوصفه خبيراً في "مؤسسة راند" أن طالبان لا تطبق الأساليب الأصولية المعادية للولايات المتحدة التي تطبقها إيران وهي اقرب الى النموذج السعودي. إن الجماعة تعتنق خليطاً من قيم الباتون التقليدية وتفسير ارثوذكسي (نصي) للإسلام.⁶⁶³

بالإضافة الى العربية السعودية وباكستان انضم حليفان آخران للإستراتيجية الإقليمية للولايات المتحدة من اجل إزاحة روسيا واحتواء إيران، وهما إسرائيل وتركيا. وكانت تركيا التي تزرع تحت وطأة الإخوان المسلمين الخاصة بها المتصلين بالحركة الإسلامية كانت تلقى التشجيع من واشنطن لمد نفوذها الى آسيا الوسطى حيث توجد كتلة كبيرة من السكان من أصل تركي، يمكن -حسب ظنهم- أن يتجاوزوا مع كتلة تقودها تركيا تمتد من البوسفور حتى الصين.

في نفس الوقت كان أسامة بن لادن يقيم مركز قيادته في أفغانستان بعد أن طلب منه مغادرة السودان سنة 1996، وكان قادة طالبان الذين استضافوه والذين أصبحوا يعتمدون على مساعداته المالية، كانوا يروحون الى الولايات المتحدة جيئة وذهاباً للقاء المسؤولين الأمريكيين ورجال البترول والأكاديميين. كانت احتجاجات الهيئات النسائية المعارضة للمعاملة الكريهة التي تلقاها النساء الأفغانيات من جانب طالبان والتي تجاهلتها في البداية ادارة كلينتون واليوتوكال الذين كانوا يفضلون النظر الى طالبان كصيغة مصغرة من النخبة الحاكمة في العربية السعودية. حسب قول احد رجال الإدارة الامريكية " إن طالبان سوف ينحون على الأرجح منحى السعودية وسوف تكون لديهم شركات مثل ارامكو وأنابيب بترول وأمير ولا يوجد برلمان وعدد من فقهاء الشريعة ونحن نستطيع أن نتعايش مع هذا النمط."⁶⁶⁴

خلال فترة التعاون بين الولايات المتحدة وطالبان 1994-1998 التي انتهت بإلقاء القنابل على اثنتين من السفارات الامريكية في إفريقيا وحينما استهدفت الولايات المتحدة ليس فقط بن لادن بل وكذلك حلفاءه من الأفغان - كانت هناك شخصية استشارية رئيسية من العاملين في "يونوكال" وهو اكاديمي من جامعة نبراسكا يسمى توماس جوتيرير ويعمل مديراً للدراسات الأفغانية هناك. خلال وبعد

663- مقتطف من جين شارل بريسارد و غليوم داسكي Jean-Charles Brisard and Guillaume

Dasquie " الحقيقة المحجوبة" نيويورك 2002 ص 21

664- رشيد ص 179

فترة الجهاد الافغانى حصل مركز جوتير هذا على اكثر من 60 مليون دولار منها
فدرالية لتمويل البرامج "التعليمية" فى افغانستان وباكستان. وبالرغم من أن هذا
التمويل تم من خلال الوكالة الدولية للتنمية التابعة للإدارة الامريكية إلا إن
المخابرات المركزية الامريكية كانت هي الراعية الحقيقية له، واتضح فيما بعد إن
برنامج جوتير التعليمي هذا يتكون من دعاية إسلامية فجة تتضمن وضع كتب
مدرسية للأطفال يتعلمون من خلالها الحساب عن طريق عدد جنث الروس القتل
وعدد بنادق الكلاشنكوف وكلها مزينة ببيانات إسلامية أصولية. وأعجبت طالبان
بأعمال جوتير الى درجة أنهم استمروا فى استخدام هذه الكتب المدرسية التى
وضعها جوتير. وحينما زار وفد من مسئولى طالبان الولايات المتحدة سنة 1997
توقفوا بشكل استثنائي فى اوماها ليؤدوا زيارة عرفان بالجميل لجوتير. وفى سنة
1999 ذهب وفد آخر من طالبان يضم قادة عسكريين على علاقة بسبن لادن
والقاعدة، أرسله جوتير فى جولة الى مونت روشمور.⁶⁶⁵ وحسبما جاء فى مجلة "
اوماها وورد هيرالد " يقول جوتير: " ما إن تجلس معهم حتى يتبين لك أنهم مجرد
أناس عاديين." 40

حينما هاجمت الولايات المتحدة افغانستان سنة 2001، كان من مهامها أن
تتخلص من وتستبدل المدرسة الإسلامية التي وضعها جوتير وطالبان (ومولتها
المخابرات المركزية الامريكية) و"كانت مملوءة بأحاديث عن الجهاد" كما جاء فى
مجلة واشنطن بوست.⁶⁶⁶

تصادم الحضارات

بنهاية التسعينات كانت هناك حالة حادة من توازن القوى فيما يتعلق باليمين
الإسلامي فى الشرق الأوسط وجنوب آسيا. فى مصر والجزائر كان الإسلاميون قد
وجهت إليهم ضربات اضطرتهم الى الإذعان ولكنهم كانوا لا يزالون يتمتعون
بمستوى من الحضور ولكن يقل عن ذي قبل. فى افغانستان وإيران والسودان كانوا

665- مايكل بيرينس " الجامعة تساعد الولايات المتحدة فى التوصل إلى طالبان " صحيفة شيكاغو تريبيون
21 أكتوبر 2001

666- ستيفن باترى و جيك ثومبسون Stephen Buttry and Jake Thompson " صلات اليونسكو
بمراكز التعليم التي تشرف عليها طالبان " صحيفة اوماها وورد هيرالد 16 سبتمبر 2001

يمتلكون الناصية ويسيطرون على جمهوريات إسلامية راديكالية (أصولية) تحكمها أنظمة دكتاتورية. في باكستان والعربية السعودية كانوا يمارسون قدرا غير عادي من القوة في تحالف مع النخبة الحاكمة بالرغم من إن العائلة المالكة في السعودية والجيش في باكستان كانوا يزدادون حدة فيما يتعلق بصفقات كل منهم الخاصة مع الشيطان. في تركيا كانت الحركة الإسلامية (اليمن الإسلامي والجمعية الصوفية النقشبندية السرية)، تجنى مكاسب لم يسبق لها مثيل، وتهدد التقاليد العلمانية في تركيا التي استمرت على مدى سبعين عاما منذ كمال أتاتورك،

في الولايات المتحدة الأمريكية، بدءا من الثورة الإيرانية حتى أواخر التسعينات لم يتصد احد تقريبا للتفكير في مشاكل الشرق الأوسط التي سببتها الحركة الإسلامية بما في ذلك توابعها العنيفة أي الجماعات الإرهابية الإسلامية التي قوبلت بتجاهل تام من جانب وولسي وغيره من المسؤولين الأمريكيين، فيما عدا ما يتعلق بحزب الله. وأخيرا استجابت المخابرات المركزية والمسؤولين في إدارة مكافحة الإرهاب لسلسلة من النداءات التي تدعو إلى اليقظة (تدمير الأبراج السكنية في معسكر الخبر في العربية السعودية سنة 1996 والسيارات المفخخة التي دمرت السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا سنة 1998 وهجمات سنة 2000 على المدمرة قول على الساحل اليمني) فتم إنشاء سلسلة من قوات المهام الخاصة المخصصة لأسامة بن لادن والقاعدة وحلفائهم الذين أصبحوا العدو رقم واحد.

ولكن جهود الولايات المتحدة للعثور على بن لادن والقضاء عليه أسفرت عن عجز يدعو إلى السخرية. 27 بليوناً من الدولارات ونظام مخابرات أمريكي يضم 100 ألف موظف ينتشرون بين 12 وكالة، مصفوفة واسعة من الأقمار الصناعية وأدوات البحث من جواسيس ومرشدين.... كل ذلك يفشل في العثور عليه، بينما في نفس الوقت يستطيع صحفيون لا حصر لهم من الولايات المتحدة وأوروبا بمن فيهم مراسلو "سى إن إن" و "فرننت لاين" أن يجدوه بسهولة وأن يجروا معه أحاديث مطولة. وقام أشخاص من مدعى الإرهاب مشكوك فيهم مثل جون ووكر ليند، قاموا بمحاولات للوصول إلى بن لادن ولكن المخابرات المركزية الأمريكية لا تستطيع أن تجاريهم مهارة، وتفشل فشلا ذريعة الهجمات التي تشنها بصواريخ كروز على مخابئ بن لادن في أفغانستان كما تفشل هجماتها على المواقع المزعومة للتسهيلات المقدمة لبن لادن في السودان المرتبطة بتنظيم القاعدة لإنتاج أسلحة الدمار الشامل ولم ينجم عنها سوى تدمير المصنع الوحيد لإنتاج الأدوية في هذا البلد. وتم العدول عن خطة وضعت بدقة شديدة لاصطياد بن لادن.

ثم وفي 11 سبتمبر سنة 2001 حصل هؤلاء الذين يؤمنون بنظرية تصادم الحضارات على بداية ما يبتغون: وكانت وجهة نظرهم التي بدت حتى ذلك الحين شاذة حسب أحسن الفروض والأشد تطرفا حسب أكثرها سوءا قد حققت نجاحا غير متوقع. فإدارة بوش التي وان لم تتبن فكرة الصراع بين المسيحية والإسلام، إلا أنها تلقت فكرة الصدام بين الحضارات لتدفع بالولايات المتحدة الى توسيع تواجدها الامبريالي في الشرق الأوسط الى مدى غير مسبوق.

لويس وهنتجتون

حتى ذلك التاريخ كان الرجلان المسئولان عن الترويج لفكرة التصادم بين الحضارات: برنارد لويس و صمويل وهنتجتون، كان ينظر إليهما باعتبارهما أعجوبة من قبل التيار الأساسي في الأمن القومي وخبراء السياسة الخارجية الأمريكية. وكانت حجة الذين اعتمدوا رابطة ايفي وأتاحوا لهم فرص الاتصال بدور النشر الشهيرة مثل مجلة الشؤون الخارجية، كانت حجتهم في ذلك أنها سوف تولد نقيضا، وهو ما حدث فعلا. فضلا عن ذلك فان الأصولية المتطرفة التي كانت تستند إليها نظريتهم كانت قمينة بان تفعل ذلك. غير ان القليل من الناس هم الذين اخذوا أفكارهم على محمل الجد فيما عدا مصفوفة متناثرة من المحافظين الجدد الذين هم أنفسهم كانوا على شفا التطرف. قوبلت نظرية وهنتجتون بهجمات مضادة من جانب كثير من الصحفيين والأكاديميين وأئمة السياسة الخارجية ولكن ما لبثت هذه الهجمات ان أخذت تتحسر شيئا فشيئا.

كتب صمويل وهنتجتون الذي بلغ كتابه "صدام الحضارات" حد إعلان الحرب من جانب المحافظين الجدد، كتب يقول ان العدو ليس هو اليمين الاسلامي بل هي عقيدة الإسلام ذاتها:

" ان أساس المشكلة بالنسبة للغرب ليس في الأصولية الإسلامية ولكنها في الإسلام كونه حضارة مختلفة عن حضارة الغرب ويؤمن معتقوه بتفوق ثقافتهم ولكن يقهرهم تدنى قوتهم. ان مشكلة الإسلام ليست هي المخابرات المركزية ولا هي وزارة الدفاع. ان مشكلته هي الغرب كحضارة مختلفة يعتقد أصحابها بعالمية ثقافتهم⁶⁶⁷ و تفوق قوتهم التي وان تكن آخذة في الاضمحلال، إلا أنها تفرض عليهم أن ينشروا ثقافتهم عبر العالم."⁶⁶⁸

667 - جو ستيفنس و ديفيد اوتاواي من الولايات المتحدة إلف باء الجهاد صحيفة واشنطن بوست 23 مارس 2002

668- صمويل وهنتجتون صدام الحضارات نيويورك 1996 ص 8 21

ان ما يستتبع بيان هنتجتون هو ان العالم المسيحي اليهودي من جانب والعالم الاسلامي من جانب آخر مقضي عليهما بان يظلا سجينى حرب ثقافية دائمة. وان الإرهابيين من أمثال القاعدة التى كانت فى طور التشكيل عند ظهور كتاب هنتجتون ليسوا فقط مجرد عصابة من المتعصبين لهم أجندتهم السياسية ولكنهم تعبير عن صراع حضاري. ومثله مثل حكيم دلفي - بعث مجددا - تتبأ بان الآلهة قد حسمت الأمر وليس بوسع الإنسان ان يحول دون ذلك.

واعترف هنتجتون - دون ان يذكر دور الولايات المتحدة - ان الإسلام كان قوة كامنة ضد اليسار خلال الحرب الباردة: "، وكتب يقول: "بين حين وآخر خلال الحرب الباردة قامت حكومات دول عدة تشمل الجزائر وتركيا والأردن ومصر وإسرائيل بتعصيد الإسلاميين كقوة مضادة للشيوعية أو معادية للحركات الوطنية، وظلت العربية السعودية ودول خليجية أخرى تقدم أموالا طائلة للإخوان المسلمين والجماعات الإسلامية فى العديد من البلدان حتى نشوب حرب الخليج على اقل تقدير".⁶⁶⁹ ولكنه يقدم تفسيراً محكماً للكيفية التي انفض بها هذا التحالف بين الغرب والإسلاميين فيقول:

" ان انهيار الشيوعية قد قضى على العدو المشترك للغرب والإسلام وتركهما وكل منهما موقن أن الآخر يمثل تهديدا مؤكداً له"⁶⁷⁰. ويضيف " فى خلال التسعينات رأى كثيرون ان " حربا باردة تنشب مرة أخرى بين الحضارات وتتطور مرة أخرى لتصبح حربا بين الإسلام والغرب"⁶⁷¹. ولاحظ هنتجتون، وهو ليس خبيراً بالإسلام، ان ثمة " علاقة بين الإسلام والتسلح"⁶⁷² وأكد ان الإسلام منذ بدايته هو دين السيف وانه يمجّد القيم العسكرية"⁶⁷³ ولكي يتأكد ان أحدا لم تفت هذه النقطة اقتبس مقولة ينسبها إلى ضابط لا يسميه فى الجيش الأمريكى، مؤداها "ان الحدود الرابطة بين أوربا والشرق الأوسط " تتحول سريعا إلى خط المجابهة الجديد لحلف الاطلنطى"⁶⁷⁴

669- المرجع السابق ص 115

670- المرجع السابق ص 211

671 - المرجع السابق ص 207

672 - المرجع السابق ص 258

673- المرجع السابق ص 263

674- المرجع السابق ص 215

ومن اجل ان يثبت هنتجتون ان الإسلام يمثل تهديدا قائما لذات الوجود الغربي يلجأ الى الاقتباس من برنارد لويس الذي يتخذه مرجعا له فى الأمور المتعلقة بالإسلام:

" على مدى ألف عام - كما يلاحظ برنارد لويس - منذ اليوم الذى وطأت فيه أقدام أول مغربى ارض اسبانيا وحتى الحصار الثانى الذى ضربه الأتراك على فيينا كانت أوروبا تحت تهديد مستمر من جانب الإسلام. "إن الإسلام هو الحضارة الوحيدة التى وضعت مسألة استمرارية الوجود بالنسبة للغرب موضع الشك، وقد فعل ذلك مرتين على الأقل"⁶⁷⁵

أما كيف بالتحديد يتسنى لدول أفقرت ومزقت فى منطقة الشرق الأوسط ووسط آسيا ان تجعل من وجود الغرب أمرا مشكوكا فيه فهذا ما لم يجب عليه هنتجتون ولكنها كانت نظرية برنارد لويس وكان يحاول إدخال تحسينات عليها منذ الخمسينات.

كان لويس ضابطا سابقا فى المخابرات البريطانىة وهو مؤيد منذ زمن طويل لليمين الاسرائيلى وداعية ومبررا للامبريالية وللتوسع الاسرائيلى لمدة تزيد على الخمسين عاما. واستخدم لأول مرة تعبير صدام الحضارات سنة 1956. فى إحدى المقالات التى ظهرت فى جريدة الشرق الأوسط Middle East Journal

حاول ان يوضح " موقف الدول العربية المعادى للغرب " مؤكدا ان غضب العرب ليس ناجما عن المشكلة الفلسطينية " ولا علاقة له بالنضال ضد الامبريالية " ولكنه شئ اكثر عمقا واشد اتساعا":

" ان ما نراه فى وقتنا الراهن ليس بأقل من صدام بين الحضارات وبتعبير أدق ثورة العالم الاسلامى ضد التأثير المدمر للحضارة الغربية التى مزقت واقتلعت النظام القديم. إن الغضب الناجم عن ذلك بالإضافة الى القهر عادة ما تشمل الحضارة الغربية بأكملها."⁶⁷⁶

هذه هي النظرية التى كان يعود إليها مرة بعد أخرى. وإذا كان لويس ينحى باللائمة على الإحساس المعادى للغرب فى العالم العربى وأثره على قوى تاريخية عديدة فإنه كان يعفى الغرب من عواقب سياسة الاستعمار الجديدة بعد الحرب

675- المرجع السابق ص 210

676- برنارد لويس " رد فعل الشرق الأوسط على الضغوط السوفييتية " صحيفة الشرق الأوسط ربيع 1956 ص ص 130-131

العالمية الثانية حيث وضع يده على بترول المنطقة وساند إنشاء دولة صهيونية على الأرض العربية ومساندته التي لا هوادة فيها للأنظمة الملكية الفاسدة في مصر والعراق وليبيا والأردن العربية السعودية والخليج. في كتابه الكلاسيكي الصادر سنة 1964 "الشرق الأوسط والغرب" يكرر لويس وصفته العلاجية: "ان علينا ان ننظر الى أوجه السخط الحالية في الشرق الأوسط ليس باعتبارها صراعا بين دول أو أمم ولكن باعتبارها صراعا بين حضارات." ⁶⁷⁷ يؤكد لويس بصراحة انه يجب على الولايات المتحدة ألا تبحث عن المصالحة مع العرب بواسطة الضغط على إسرائيل لصنع السلام. "إن البعض يتحدث بكثير من الاهتمام عن مدى سهولة الاستجابة إلى أمانى العرب - وعادة ما يفسر ذلك بأن هذه الاستجابة تتم على حساب أطراف أخرى، أي على حساب إسرائيل ⁶⁷⁸ بدلا من ذلك يطالب الولايات المتحدة أن تتخلى ببساطة عن العرب " أن على الغرب أن يفخر بتخلصه من السياسة العربية سيما السياسة العربية البينية" ويمضى لويس قائلا: " لا يجب على الغرب أن يصنع المزيد من الحلفاء العرب " ⁶⁷⁹ وتسأل لماذا البحث عن حلفاء بين أمم تدفعها ثقافتها ودينها الى معارضة الحضارة الغربية معارضة لا هوادة فيها؟

لعدة عقود لعب لويس دورا خطيرا كأستاذ ومحاضر وملهم لجيلين من المستشرقين والأكاديميين واهصائي المخابرات البريطانية والأمريكية، والمفكرين الحاصلين على الجنسية الأمريكية والمحافظين الجدد المختارين بعناية هذا بينما كان يقابل بازدراء من جانب أكاديميين آخرين لا حصر لهم من المتخصصين في الدراسات الإسلامية الذين كانوا يعتبرونه شخصا لا يرجى منه ومنحازا للصهيونية ومعاديا فكريا للإسلام. كان لويس بريطانيا يهوديا ولد سنة 1916 وقضى 5 سنوات خلال الحرب العالمية الثانية كرجل عمليات في المخابرات البريطانية ثم استقر بعد ذلك في جامعة لندن ⁶⁸⁰. في سنة 1974 ترك لندن الى برنستون حيث أقام علاقات مع الأشخاص الذين سيقومون فيما بعد بقيادة حركة المحافظين الجدد الناشئة. وأصبح لويس حسبما يقول ريتشارد بيرل ⁶⁸¹ " هو على وجه التقريب ملهم

677- برنارد لويس الشرق الأوسط والغرب نيويورك 1964 ص 135

678 المرجع السابق ص 133

679 المرجع السابق ص 140

680- بيتر والدمان "A Historian's Take on Islam Steers U.S. in

Terrorism Fight," Wall Street Journal 3 فبراير 2004 .

681- المرجع السابق

السنتاتور هنري جاكسون. يقول ريتشارد بيرل وهو مسئول سابق فى البنتاجون، وبوصفه رئيسا لإدارة السياسة الدفاعية فى البنتاجون وكان من اشد دعاة الحرب على العراق سنة 2003 وعمل لفترة طويلة مساعدا للويس. أصبح لويس زائرا منتظما لمركز موشيه ديان فى جامعة تل أبيب ووثق علاقاته مع أرييل شارون.

فى الثمانينات كان لويس يتردد على بعض المسئولين فى قمة ادارة الدفاع، وحسبما يقول بات لانج المسئول السابق فى وكالة المخابرات التابعة لوزارة الدفاع، كان برنارد لويس يستدعى عادة من برنستون ليمد اندرو مارشال - مدير مكتب شبكة تقييم المعلومات - بالمشرفين اللزمين. (ادارة شبكة تقييم المعلومات هي الإدارة المختصة بتلقي المعلومات المختلفة من مصادر متعددة لتحليلها وتقييمها وتعتبر بمثابة هيئة لوضع وتقييم الفكر داخل الإدارة). واندرو مارشال هو مدير مكتب المعلومات التابع لإدارة الدفاع - هيئة تابعة للبنتاجون وتعتبر بمثابة الوعاء أو المطبخ الذى يجرى فيه إعداد الافكار للبنتاجون⁶⁸². يعتبر هارولد رود احد الذين تتلمذوا على يد لويس ويعتبر خبيرا فى شئون الشرق الأوسط ويجيد عدة لغات عمل فى البنتاجون الأكثر من عقدين كنائب لمارشال. وخلال العشرين عاما السابقة عمل لويس بوصفه مستشارا داخليا لشئون الإسلام والشرق الأوسط للعديد من المحافظين الجدد بمن فيهم بيرل ورود ومايكل ليدن. سئل جيمس وولسى مدير المخابرات المركزية الامريكية عن يمكن الرجوع إليهم خلال رئاسته للمخابرات المركزية للاستفادة بخبرتهم فقال: "لقد استعنا بأناس كانوا يقدون إلينا لإجراء حوارات معهم، وأتذكر أننى تحدثت مع برنارد لويس⁶⁸³.

وبالرغم من ان لويس كان يتمتع بموضوعية أكاديمية سطحية وبرغم ان الكثيرين من الأساتذة يقدرون مؤهلات لويس العلمية بوصفه مؤرخا للإمبراطورية العثمانية فقد نحى لويس جانبا كل المزاعم عن تجرده الاكاديمى فى التسعينات. فى سنة 1998 انضم لويس رسميا الى معسكر المحافظين الجدد ووقع رسالة تطالب بتغيير النظام العراقي من لجنة السلم والأمن فى الخليج وشارك فى التوقيع عليها بيرل ومارتن ببرز من مؤسسة "الجمهورية الجديدة" اللذين سيغدوان من مسئولى ادارة بوش التى تضم بول وولفوفيتز وديفيد فورمسر ودوف زاخيم. واستمر يعمل بالقرب من المطبخ الفكرى للمحافظين الجدد. فيما بعد 11 سبتمبر 2001 كان

682- باتريك لانج مقابلة مع المؤلف مارس 2004

683- وولسى مقابلة

يتواجد في أماكن متعددة ناشرا آراءه بان الإسلام معادى للغرب ولا يمكن تغيير ذلك. بعد أسبوعين من أحداث 11 سبتمبر وجه بيرل الدعوة لكل من لويس واحمد شلبي ليتحدثا أمام الهيئة المختصة برسم السياسات الدفاعية ذات النفوذ القوى مقترحا ان يقوم المحافظون الجدد بالعمل لمدة سنتين ليثبتوا عدم وجود صلة بين أسامة بن لادن وصدام حسين. وقاد شلبي - وهو صديق بيرل ولويس منذ الثمانينات- مجموعة من المعارضة العراقية في المنفى، يطلق عليها " المؤتمر الوطني العراقي". كان شلبي مسئولا عن إمداد ضباط المخابرات الامريكية بمعلومات مضللة، مما ساعد ادارة بوش على المبالغة في حجم التهديد الذي تتعرض له الولايات المتحدة من جانب العراق.

بعد مضي اقل من شهر على ظهور لويس وشلبي انشأ البنتاجون وحدة سرية مخابراتية فرعية تحت قيادة فورمسر تحولت بعد ذلك الى ما يسمى مكتب الخطط الخاصة يقوم على تنظيمه رود و دوجلاس فيث وهو السكرتير المساعد للسياسة الدفاعية (رود مثل المنظر السوفييتي سوسلوف اى هو منظر حركة المحافظين الجدد حسبما يقول لانج)⁶⁸⁴. كان مكتب التخطيط الخاص المشار إليه ويضم رود وفيث تحت قيادة افرام شولسكى من المحافظين الجدد هو الذى اصطنع المعلومات المخابراتية المزورة التى تحمل العراق مسئولية ارتباطاته بالقاعدة. وكان مكتب التخطيط الخاص هو الذى انشأ عناصر الموضوعات التى تضمنتها أوراق نائب الرئيس ديك تشيني ووزير الدفاع رونالد رامسفيلد وغيرهم من العناصر القيادية فى ادارة بوش التى تتهم العراق بحيازة أسلحة دمار شامل كيميائية وبيولوجية وقذائف صاروخية طويلة المدى وطائرات مروحية بلا طيار وبرنسامج متطور للتسلح النووي.⁶⁸⁵ قام شلبي بتزييف معلومات مخابراتية زود بها مكتب التخطيط الخاص بشكل مباشر انتهى بها الأمر لتكون ضمن خطب تشيني ورامسفيلد وغيرهم من المسؤولين فى ادارة بوش. فى عشية الحرب العراقية كان لدى لويس الذى ازداد تقريبا من تشيني، غداء عمل معه لمناقشة خطط الحرب على العراق⁶⁸⁶. فى سنة 2003 قام لويس بإهداء كتابه " أزمة الإسلام" الى هارولد رود.

684 - لانج مقابلة مع المؤلف

685- من أجل معرفة المزيد من المعلومات عن تأسيس ودور OSP ينظر " مصنع الأكاذيب " للمؤلف روبرت دريفوس و جاسون فيست - الأم جونز ، يناير - فبراير 2004 ص34

686- والمان صحيفة وول ستريت جورنال

الحرب على الإرهاب

عند توجهه الى شن الحرب، أولا على افغانستان ثم بعد ذلك على العراق، وبإعلانه بدء حرب عالمية على الارهاب بلا نهاية منظورة، حرص الرئيس بوش على ألا يحتضن نظرية لويس - هنتجتون بحذافيرها باعتبار المسألة صداما بين الحضارات. وفي خطاباته واحدا بعد الآخر، وبالرغم من تشبيهه الأخرق للحملة في الشرق الأوسط باعتبارها حربا صليبية - كان بوش يصر على ان الولايات المتحدة تخوض حربا ضد الإرهابيين وأنها ليست موجهة ضد المؤمنين بالقرآن. كانت حرب بوش على الارهاب في الواقع مجرد حجة لتطبيق سياسة راديكالية جديدة في الشرق الأوسط وآسيا الوسطى، ولم تكن سياسة ضد الإسلام أو الأصولية الإسلامية أو حتى ضد الارهاب سواء كان إسلاميا أم لم يكن. منذ البداية كانت استجابة الرئيس لأحداث 9/11 تتسم برؤية امبريالية. كان في تصوره انه يمكن إحداث تغييرات في الشرق الأوسط مشابهة للعبة الدومينو، ويرتبط ذلك بتدخل عسكري وسياسي في المنطقة، يبدأ يطالبان ثم صدام حسين ثم الأنظمة القائمة في إيران وسوريا والعربية السعودية وما وراءها لتتساقط واحدة وراء الأخرى على مذبح الديمقراطية الامبريالية. كانت ادارة بوش متأثرة الى حد كبير بالمحافظين الجدد المتواجدين داخل الإدارة وخارجها الذين كانوا يبشرون بتغيير اقليمي كاسح. في داخل الإدارة كان يوجد وولفوفيتز وفيث وبيرل ومارشال و فورمسر وشولسكي بالإضافة الى شخصيات أخرى رئيسية في البنتاجون مثل مايكل روبن ووليم لوتي ولويس ليبى في مكتب تشينى نائب الرئيس وجون بولتون في ادارة الدولة واليوت ابرامس في مجلس الأمن القومي وكثير غيرهم، أما خارج الإدارة فهناك الكثير من هيئات الفكر والعاملين في وسائل الإعلام بمن فيهم توم دونللى وجارى شميدت من مشروع القرن الأمريكى الجديد ووليم كريستول من مجلة ويكلى ستندرد ومايكل ليدين من المؤسسة الأمريكية للمشروعات وماكس سنجر من مؤسسة هيدسون، ومن مؤسسة الجمهورية الجديدة بيريتس ولورانس ف كابلان وجيمس وولسى. يكتب كابلان وكريستول في مؤلف " الحرب على العراق ": " ان المهمة تبدأ فى بغداد ولكنها لا تنتهى هناك ". اننا نقف على أعتاب حقبة تاريخية جديدة.... إنها لحظة حاسمة.... ومن الواضح جدا أنها اكبر من العراق، بل إنها حتى اكبر من مسألة مستقبل الشرق الأوسط والحرب على الارهاب. أنها تتعلق بنوعية الدور الذى تنوى

الولايات المتحدة الاضطلاع به في عالم القرن الواحد والعشرين.⁶⁸⁷ في مؤتمر صحفي عقد عشية غزو العراق عرض ليدين الإستراتيجية بشكل أكثر فظاظاً: "أنا اعتقد أننا سوف نضطر الى خوض غمار حرب إقليمية سواء أردنا أم لم نرد." قال ذلك وأكد ان الحرب لا يمكن ان تقتصر على العراق "أنها قد تتحول لتصبح حرباً لإعادة صياغة العالم."⁶⁸⁸

هذه الأفكار الحمقاء هي سمة الرؤيا العالمية للمحافظين الجدد. انها استراتيجيتهم سيئة السمعة التي خطط لها سنة 1996 وتضمنتها مذكرة سياسية لرئيس وزراء إسرائيل في ذلك الحين نتياهو بمشاركة بيرل وفيث وفورمسر وغيرهم بوصفها سياسة إقليمية شاملة. كانت المذكرة بعنوان: "تغيير تام.... إستراتيجية جديدة لتأمين المنطقة" تطالب إسرائيل بالعمل مع تركيا والأردن لاحتواء وإشاعة عدم الاستقرار، والارتداد "لدول متعددة في المنطقة" والإطاحة بصدام حسين وحث الأردن على العمل لاستعادة حكم الأسرة الهاشمية لبغداد وشن حملة عسكرية ضد سوريا ولبنان" وذلك كمقدمة لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط لتهديد وحدة الاراضى السورية". ولم يرد قط في المذكرة المستفيضة ما يفيد أي اقتراح يتعلق بمجابهة الأصوليين الإسلاميين أو الإخوان المسلمين أو حتى القاعدة.⁶⁸⁹

وأبدا لم تكن الديمقراطية هي الهدف الحقيقي لإدارة بوش في الشرق الأوسط رغم ان هذه الفكرة كانت تحتل المكان الأساسى في بيان الرئيس. ان المحافظين الجدد يريدون السيطرة على الشرق الأوسط وليس إصلاحه حتى لو أدى ذلك الى تمزيق وحدة هذه البلاد وتشطيرها أجزاء متفرقة لتحل بدلا منها دويلات صغيرة تقوم على الاثنية والانعزال. واليمين الاسلامى هو مجرد أداة أخرى فى هذه المنظومة تستخدم لتفكيك الأنظمة القائمة، إذا ما كان لها ان تحصل على شئ. فى مقال نشرته مجلة الشؤون الخارجية يوضح برنارد لويس مباشرة ما يعنيه بالعملية التى أطلق عليها "اللبنة".

احد الاحتمالات التى يمكن فهمها حتى من قبل الأصوليين هي ما يطلق عليه "البننه". ان معظم دول المنطقة فيما عدا مصر هي دول ذات بنية حديثة مصنوعة

687- لورنس كابلان و وليم كريستول-الحرب على العراق -سان فرانسيسكو 2003 ص 124 وص ص vii و viii.

688 -Benador Associates,press conference ,Washington ,D.C. ,February,13, 2003

689- النص الكامل للمذكرة ينظر www.israeleconomy.org/strat1.htm

ومعرضة لمثل هذه العملية (اللبنة). وإذا ما تم إضعاف القوة المركزية بما يكفي فلن يكون هناك مجتمع مدني يساعد على تماسك الدولة مع بعضها البعض ولا يعود هناك معنى حقيقي للهوية العامة....ومن ثم فإن الدولة تتفكك حاليًا - كما حدث في لبنان، وتتحول إلى فوضى من النزاعات والإقطاعات والقبائل والمناطق والأحزاب والفرق المتقاتلة.⁶⁹⁰

هذا بالطبع هو أحد احتمالات المستقبل بعد الغزو الأمريكي للعراق، وهو ما تنبأ به تشارس فريمان: "إن مقاصد المحافظين الجدد في العراق لم يكن أبدا بناء ديمقراطية حقيقية هناك. كان القصد هو تسويته بالأرض، إزالته بوصفه تهديدا إقليميا لإسرائيل."⁶⁹¹

ليس العراق وحده هو المعرض للتفكيك، فالمحافظون الجدد كشفوا عن نواياهم إزاء السعودية أيضا. يقترح كل من ريتشارد بيرل وديفيد فروم وكلاهما عضو في المؤسسة الأمريكية للمشروعات، يقترحان في كتابهما "نهاية الشر وكيف نكسب الحرب على الإرهاب" يقترحان استخدام الأصولية الشيعية ضد الدولة السعودية، ذلك أن الشيعة يشكلون قوة لها شأنها على شاطئ الخليج الفارسي حيث توجد حقول البترول السعودية. فيلاحظ بيرل وفروم أن السعوديين طالما كانوا يخشون "من مطالب الشيعة ذات يوم باستقلال الساحل الشرقي والبتروال الخاص به" ويضيفان: "من الواضح أن استقلال المناطق الشرقية سوف يكون بمثابة كارثة للسعودية. ولكنه قد يكون أمرا جيدا جدا بالنسبة للولايات المتحدة. ومن المؤكد أنها مسألة تستحق النظر. وما هو أجدر بالتأكيد إننا نريد للسعودية أن تعلم إننا نعلم النظر في ذلك."⁶⁹²

كثيرا ما اقترح ماكس سنجر المؤسس المشارك لمؤسسة هيدسون، أن تبحث الولايات المتحدة في تفكيك السعودية بتشجيع قيام دول منفصلة في الأقاليم الشرقية وفي الحجاز غربا. "بعد إزاحة صدام سوف يحدث زلزال في المنطقة" حسبما يقول سنجر "وإذا كان ذلك يعني سقوط النظام السعودي، فليكن"⁶⁹³ وكتب ليدين يقول أن

690- برنارد لويس إعادة النظر في شئون الشرق الأوسط Rethinking the Middle East

Foreign Affairs , (Fall 1992, pp.99ff

691- شارلس فريمان مقابلة مع المؤلف مايو 2003

692- ديفيد فروم David Frum و ريتشارد بيرل Richard Perle نهاية الشر: كيف نكسب الحرب

على الإرهاب نيويورك 2003 ص ص 140 - 141

693- ماكس سنجر Max Singer مقابلة مع المؤلف فبراير 2003

سقوط بيت آل سعود يمكن ان يؤدي الى سقوط البلاد في ابدى راديكاليي القاعدة - ويضيف: " في هذه الحالة، يجب علينا ان نمد الحرب الى شبه الجزيرة العربية، على الاقل الى المناطق المنتجة للبترول"⁶⁹⁴ يقول جيمس اكينز السفير السابق للولايات المتحدة في الرياض: " لقد توقفت عن القول بان العربية السعودية سوف تسقط في ابدى أسامة بن لادن أو نظيره إذا غزونا العراق. اننى مقتنع الآن بان هذا بالضبط ما يريده المحافظون الجدد. وبعد ذلك نستولي عليها نحن."⁶⁹⁵

خلال السنوات الأربع الاولى من حرب بوش على الارهاب جادل بعض المعارضين بان غزو افغانستان والعراق ورفع صورة أمريكا في الشرق الأوسط عاليا الى هذه الدرجة، فان ادارة بوش تخلق جيلا جديدا من الإسلاميين الأصوليين الذين سوف يلقون اللوم على أمريكا محملين إياها مغبة كل ما يصيب الشرق الأوسط من مصائب. وبالرغم من كل ادعاءاتها بشأن هزيمة الإرهابيين الإسلاميين فان ادارة بوش لم تحقق اى نجاح استراتيجي يحول دون انتشار الأصولية الإسلامية. يكتب مايكل شويير في "امبريال هوبريس" Imperial Hubris مقالا غير موقع، يصف فيه الحالة على الوجه التالي: " تحاول كل من الولايات المتحدة وبريطانيا وقوات التحالف الأخرى ان تسيطر على دول ما بعد الحرب غير الخاضعة للحكومات في افغانستان والعراق بينما في نفس الوقت تحارب المتمردين الإسلاميين في كل منهما - وهي حالة يطلق عليها قادتنا نصرا. ان ادارة هذه الأنشطة والحملات العسكرية التقليدية التى تسبقها يعنى ان قوات الولايات المتحدة وسياستها تستكمل تأصيل العالم الاسلامى وهو شئ كان يحاوله بن لادن بدون نجاح كبير منذ التسعينات. ونتيجة لذلك فانه من المناسب ان انتهى الى النتيجة التى تقول بان الولايات المتحدة ستظل هي الحليف الذى لا غنى عنه لبن لادن."⁶⁹⁶

سواء كان صحيحا أم لم يكن ان فى إمكان افغانستان ان تهزم بقايا طالبان، فان عقودا عدة من عمليات الاسلمة المضادة يمكن ان تفكك قوى اليمين الاسلامى التى تعمل سرا ويبقى قيد الانتظار أن نرى دولا مستقرة وعلمانية. وسواء كان

694- مايكل ليدن Michael Leeden الحرب على قيادات الارهاب نيويورك 2002 ص ص 208-

209 . يوجه ليدن - فى الكتاب- "الشكر لبرنارد لويس لإرشاداته الشخصية بالإضافة إلى هارولد رود Harold Rhode فى مكتب البنتاجون للانترنت الذى كان مرشده فى شئون الشر الأوسط لقراءة عشرين عاما. أما رئيسه أندى مارشال Andy Marshall فقد كان المصدر الدائم للأفكار الجيدة." ص 240

695- جيمس أتكينز مقابلة مع المؤلف يناير 2003

696- Anonymous ,Imperial Hubris , Washington2004 p.xv

العراق قادرا على إنتاج حكومة علمانية وسحق القوات المرتبطة بالقاعدة التي جمعت شتاتها ودفع الأحزاب الشيعية الأصولية كالمجلس الأعلى للثورة الإسلامية وحزب الدعوة التي سيطرت على عراق ما بعد الحرب وان تضع حدا للجهود التي يبذلها آيات الله في إيران ليفرضوا نفوذهم على منطقة جارتهم العربية فهو أيضا مسألة مطروحة. ان الفرصة سانحة بنسبة 50% على الأقل انه في مستقبل غير بعيد كثيرا سوف تسقط افغانستان من جديد تحت القبضة الحديدية للإسلاميين وان العراق سوف ينتهي الى حكم ثيوقراطي الى حد ما اقل تطرفا من مثيله في إيران.

وبنفس المنطق فان قيادة رجال الدين في طهران التي يتضح أنها شددت قبضتها الحديدية على الستة في جمهورية إيران الإسلامية يمكن ان تتوقع شيئا من هذا الذي نتوقعه هناك. وفي باكستان يمكن للرئيس مشرف الذي يعاني الآن من النفوذ القوى للإسلاميين في كراتشي يمكن ان يسقط نتيجة انقلاب يقوم به العسكر والمخابرات الباكستانية بالتحالف مع الإخوان المسلمين أو الأحزاب أو الجماعات اليمينية الأخرى. وتواجه اندونيسيا وبنجلاديش المتمردين الإسلاميين. وكانت تركيا تتجه ناحية المعسكر الاسلامي لأكثر من عقد من الزمان. بينما تواجه سوريا ولبنان والأردن وفلسطين، تواجه جميعا ضغوطا شديدة من جانب الإخوان المسلمين. أما قلب العالم العربي مصر والسعودية فأنهما تواجهان ضغوطا لانفتاح نظاميهما السياسيين الذي يعتقد كثير من المراقبين انه يمكن ان يؤدي الى إقامة جمهوريات إسلامية في كل منهما.

ان حالة العراق هي الأكثر مدعاة للدهشة. لقد ذهب بوش الى الحرب في العراق بعد ان اتهم صدام حسين بالتحالف مع القاعدة. وكان يحذر بان صدام يمكن ان يعطي خلايا بن لادن أسلحة دمار شامل، ولكن كما اصبحت واضحا فيما بعد سنة 2003 ان نظام صدام لم يكن على صلة بالقاعدة وليس لديه أسلحة دمار شامل ليوزعها، فالنظام في بغداد بالرغم من انه كان دكتاتوريا إلا انه كان علمانيا وكانت قيادة حزب البعث عدوا مؤكدا للإسلاميين الشيعة على اختلافهم وكذلك السنة والإخوان المسلمين. ولكن بوش بوعي وعن عمد شجع إسلامي العراق على الوصول الى السلطة. وقامت القوات الامريكية والمخابرات المركزية الامريكية باستقدام احد آيات الله الى النجف بالعراق وأقامت تحالفا برجماتيا مع آية الله الآخر على السيستاني وهو رجل دين إيراني اصبحت من صناعات الحكام في عراق ما بعد الحرب. وعملت الولايات المتحدة مع عبد العزيز الحكيم وهو رجل دين راديكالي يقود 20 ألفا من قوات بدر القوية شبه العسكرية التي سلحتها ودربتها إيران،

وطورت جماعة إرهابية أخرى يطلق عليها "الدعوة" وهي جماعة مارست طووال سني وجودها البالغ 40 عاما تفجير القنابل والاغتيالات وغيرها من أعمال العنف بما في ذلك الهجوم على السفارة الامريكية في الكويت أوائل الثمانينات. وعلى الجبهة السنية في وسط العراق كان الحزب الرئيسي الذي ظهر بعد الحرب سنة 2003 هو الحزب الاسلامي العراقي وهو الفرع الرسمي لجماعة الإخوان المسلمين في العراق.

لقد أثارت ادارة بوش سلسلة من الأحداث التي كان يمكن ان تؤدي الى إعادة إشعال الأزمة الجزائرية التي كانت قائمة سنة 1992 في عدد لا يحصى من الدول في المنطقة. حتى في دويلات صغيرة مثل الكويت حيث للإخوان المسلمين وجود قوى، وفي البحرين حيث العائلة المالكة سنية بينما أغلبية السكان من الشيعة، وهي جميعا معرضة لثورة إسلامية أو لانتخابات يفوز فيها الاسلاميون أو الاثنين معا.

في بواكير 2005 القي جريشيت جانبا بكل ما كان يتظاهر به من معارضة لليمين الاسلامي وأطلق النفير بندا مدو وجهه الى الولايات المتحدة لتشجيع الأصولية، سنية كانت أم شيعية في كافة أنحاء الشرق الأوسط. رييل مارك جريشيت هذا هو احد ضباط المخابرات المركزية الامريكية السابقين ويتمتع بخبرة في الشئون العراقية والشرق أوسطية وهو زميل في المعهد الامريكي للمؤسسات واحد المحافظين الجدد المتشددين وكان صوته مدويا في تأييد غزو افغانستان والعراق وظل يظهر لمدة 3 سنوات متتالية بعد سنة 2002 في ملتقى نظمه المعهد المذكور الى جانب بيرل ولیدن ومحافظين جدد غيرهم وهو يكتب في مجلة ويكلي ستندرد بالاضافة الى مجموعة أخرى من المطبوعات بما فيها وول ستريت جورنال. في أول ظهور له في المعهد أعلن جريشيت صدور كتابه الجديد "التناقض الاسلامي: رجال الدين الشيعة والأصوليون السنة والديمقراطية العربية الآتية"

في هذا الكتاب يعلن جريشيت ان مستقبل الشرق الأوسط هو اليمين الاسلامي، وانه ينبغي على الولايات المتحدة ان ترحب به بالرغم من ان الكثيرين من الأمريكيين يأملون في ان يكون المعتدلون المسلمون العلمانيون هم الأغلبية الصامته في الشرق الأوسط ويقول جريشيت: "ان المسلمين المعتدلين قد لا يكونون هم السبيل الى شرق أوسط اقل تهديدا." ⁶⁹⁷ ويضيف:

697 - Reuel Marc Gerecht The Islamic Paradox: Shiite Clerics, Sunni Fundamentalists, and the Coming of Arab Democracy (Washington.D.C.,2004), p.10

" ان معظم الأمريكيين الليبراليين والمحافظين سوف يقاومون بشدة فكرة ان رجال الدين المسلمين والأصوليين الذين عادة ما يكرهون، ان لم يكونوا يعافون الولايات المتحدة وإسرائيل والقضايا التقدمية مثل حقوق المرأة، هم مفتاح تحرير مسلمي الشرق الأوسط من عداوتهم للغرب المنعكسة من الأزمنة القديمة. هؤلاء الرجال، وليس الليبراليين العلمانيين هم محط الإعجاب والثناء وأحياناً الحماية من قبل الحكومة والصحافة الأمريكية، هم أئمن الحلفاء المحتملين للولايات المتحدة الأمريكية.⁶⁹⁸

جريشيت يفضل الخميني مقارنة بمبارك

وضع الخميني فكرة الجمهورية الإسلامية موضع التصويت الشعبي سنة 1979، والانتخابات العادية مع بعض عناصر المنافسة ضرورة أخلاقية فيما يتعلق بأدراك النظام لمدى شرعيته هو ذاته، وهذا شيء مختلف تماماً فيما يتعلق بالوضع الدكتاتوري للرئيس حسنى مبارك فى مصر.⁶⁹⁹ ان معاداة أمريكا هي السائدة فى الدول العربية التى تحكمها أنظمة دكتاتورية موالية لأمريكا. والمقارنة توضح ان إيران هي دولة موالية بعمق لأمريكا.⁷⁰⁰ وبعد ان يعترف بالروابط الفكرية المباشرة بين جماعة الإخوان المسلمين التى أنشأها البنا والقاعدة التى أنشأها بن لادن ينتهي ويا للغرابة الى ان دكتاتورية الإخوان المسلمين فى مصر سوف تكون أفضل من نظام مبارك:

مما لا شك فيه ان مصر لديها أفضل الفرص للتزواج السريع بين الأصولية والديمقراطية. وبالتأكيد فان احتمال إنهاء نظام الحكم التمثيلي هو أمر وارد إذا تمكن الأصوليون ان يضعوا أيديهم على السلطة فى مصر. ان القيم الديمقراطية، بالرغم من أنها أكثر عمومية فى مصر مما يعتقد كثير من الغربيين إلا أنها أقل ترسخاً مما هي لدى الشيعة فى إيران أو فى فتاوى آية الله سيستاني الكبير. ولكن لم يزل على الولايات المتحدة ان تفضل هذا الخيار عن خيار الدكتاتورية العلمانية.⁷⁰¹

698- المرجع السابق ص 18

699- المرجع السابق ص 41

700- المرجع السابق ص 50

701- المرجع السابق ص 53

منذ ستين عاما حينما بدأت الولايات المتحدة جولتها الطويلة في الشرق الأوسط كانت ثمة أصوات أخرى تريد الإسلام المحافظ. والجماعات الإسلامية الأولى المرتبطة باليمين الإسلامي الناشئ من أجل أن يخوض المعركة ضد اليسار العلماني وناصر والشيوعيين العرب والاشتراكيين. والآن بعد ستة عقود تتبع إدارة بوش في الشرق الأوسط إستراتيجية يبدو أنها محسوبة من أجل مضاعفة ثروات اليمين الإسلامي. فالولايات المتحدة تعتمد على الأصوليين الشيعة في العراق لإنقاذ سياستها الفاشلة في ذلك البلد، ويطالب عدد كبير من منظري هذه الحملة، يطالبون الولايات المتحدة بصراحة أن تلتقي بنقلها إلى جانب آيات الله والإخوان المسلمين.

وتستمر لعبة الشيطان،،

* /

رقم الإيداع: ~~2010/10974~~
الترقيم الدولي (I.S.B.N): 977-221-140-8

كيف ساعدت الولايات المتحدة
على إطلاق العنان للأصولية الإسلامية



أول وأوفى بحث في السياسة الأمريكية
على مدى ستين عاما من الدعم للأصولية الإسلامية

روبرت دريفوس

- رئيس التحرير المشارك لمجلة The Nation الأمريكية
- المحرر المسئول عن تغطية شئون الأمن القومي في مجلة
The Rolling Stone
- تنشر مقالاته في عدة صحف منها:
Washington Monthly, the New republic, the Texas Observer,
California Lawyer, Newsday.

